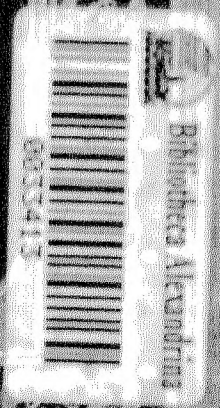


شرح البلغة

ابن أبي الحديد

المجلد السابع

دار البشير



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث عشر

دار الحديث

بيروت

محقوق الطبع محفظة للناسر

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة ، وقد تقدم مثله
بألفاظ مختلفة :

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُمَا ، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُمَا ، ثُمَّ تَدَا كَتُمُ عَلَى تَدَاكَ الْإِبِلِ
الْيَمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرْدِهَا ؛ حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ ، وَسَقَطَ الرَّدَاءُ ، وَوُطِئَ الضَّعِيفُ ،
وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ ،
وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكَعَابُ .

الشرح :

التدالك : الازدحام الشديد . والإبل اليم : العطاش .
وهَدَجَ إليها الكبير : مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً ، والمضارع يهْدِجُ ، بالكسر .
وتحامل نحوها العليل : تكلف المشى على مشقة .

وحسرت إليها الكعاب : كشفت عن وجهها حِرْصاً على حضور البيعة، والكعاب:
الجارية التي قد نهّد ثديها ، كعبت تكعب ، بالضم .
قوله : « حتى انقطع النمل وسقط الرّداء » ، شبيه بقوله في الخطبة الشّشقيّة : « حتى
لقد وُطئ الحسنان وشقّ عِطْفائي ^(١) » .
وقد تقدّم ذكر بيعته عليه السلام بعد قتل عثمان وإطباق الناس عايتها، وكيفية الحال
فيها ، وشرح شرحاً يستغنى عن إعادته .

(٢٢٥)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ ، وَعِيقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَ ، وَنَجَاةٌ
مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ؛ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ ، وَتُنَالُ الرِّغَائِبُ .
فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُزْفَعُ ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ ، وَالِدُّعَاءُ يُسْمَعُ ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ ،
وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ .

وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْرًا نَاقِصًا ، أَوْ مَرَضًا حَاسِبًا ، أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ
هَادِمٌ لِدَّائِكُمْ ، وَمُكَدِّرٌ شَهْوَانِكُمْ ، وَمُبَاعِدٌ طَيِّبَاتِكُمْ . زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ ، وَقِرْنٌ
غَيْرُ مَغْلُوبٍ ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ ، قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ ، وَتَكَلَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ ،
وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطَوَاتُهُ ، وَتَنَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدَوَاتُهُ ، وَقَلَّتْ
عَنْكُمْ نَبَوَاتُهُ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَفْشَاكُمْ دَوَاحِي ظُلُمِهِ ، وَأُحْتَدَامُ عَلَيْهِ ، وَحَنَادِسُ
عَمَرَاتِهِ ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ ، وَالْأَلِيمُ إِزْهَاقِهِ ، وَدُجُوْهُ إِطْبَاقِهِ ، وَخُشُونَةُ مَذَاقِهِ .
فَكَانَ قَدْ آتَاكُمْ بَغْتَةً فَاسْتَكْتَبَتْ نَجِيَّتَكُمْ ، وَفَرَّقَتْ نَدِيَّتَكُمْ ، وَعَفَى آثَارَكُمْ ، وَعَطَلَتْ
دِيَارَكُمْ ، وَبَعَثَتْ وَرَثَتَكُمْ ، يَقْتَسِمُونَ تَرَائِكُمْ ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ ، وَقَرِيبٍ
مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ ، وَآخِرَ شَأْنٍ لَمْ يَجْزَعْ .

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ ، وَالتَّأَهُبِ وَالِاسْتِعْدَادِ ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ ،
وَلَا تَعْرِضُوا لِحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْقُرُونِ
الْخَالِيَةِ ، الَّذِينَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا ،

وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِينُهُمْ أَجْدَثًا ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا ، لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَنَاهُمْ ، وَلَا يَحْفَلُونَ
مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ .
فَاخْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ غَرَارَةٌ خَدُوعٌ ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ ، مُدْبِسَةٌ نَزُوعٌ ،
لَا يَدُومُ رَخَاؤُهَا ، وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا ، وَلَا يَرُ كُدُّ بَلَاؤُهَا .

الشيخ :

عَنْقُ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ، هو مثل قوله عليه السلام : « التوبة تجب ما قبلها » ، أى
كلّ ذنب موبق يملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه ، فإنّ تقوى الله تعتق منه ، وتكفر
عقابه ، ومثله قوله : « وَنَجَاتٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ » .

قوله عليه السلام : « والعمل ينفع » ، أى اعملوا فى دار التّكليف ، فإنّ العمل يوم
القيامة غير نافع .

قوله عليه السلام : « والحال هادئة » ، أى ساكنة ليس فيها مافى أحوال الموقف
من تلك الحركات الفظيعة ، نحو تطاير الصحف ، ونطق الجوارح ، وعنف السياق
إلى النار .

قوله عليه السلام : « والأقلام جارية » ، يعنى أنّ التّكليف باقٍ ، وأنّ الملائكة
الحفظة تكتب أعمال العباد ، بخلاف يوم القيامة ، فإنه يبطل ذلك ، ويستغنى عن الحفظة
لسقوط التّكليف .

قوله : « عمراً ناكساً » ، يعنى الهرم ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ
فِي آخِلْقِ ۖ ﴾ ^(١) ، لرجوع الشيخ الهرم إلى مثل حال الصّبيّ الصغير فى ضعف العقل والبنية .

والموت الخالس : المختطف . والطَّيَّات : جمع طَيَّة بالكسر ، وهي منزل السفر .
 والواتر : القاتل ، والوتر ، بالكسر : الدَّحْل .
 وأعلقتكم حبائله : جعلتكم معتقلين فيها ، ويروى : « قد عَلَقْتُمْ » بغير همز .
 وتكنفتكم غوائله : أحاطت بكم دواهيهِ ومصائبه . وأقصدتكم : أصابتكم .
 والمعايل : نصال عِراض ، الواحدة مِعْبَلَة ، بالكسر .
 وعدوته ، بالفتح : ظُلمه . ونَبَوْتَه : مصدر نَبَا السَّيف ، إذا لم يؤثر في الضريبة .
 ويوشِك ، بالكسر : يقرب . وتَغَشَّاكم : تحيط بكم .
 والدَّوْاجِي : الظُّلَم ، الواحدة داجية . والظُّلُل : جمع ظُلَّة ، وهي السحاب . والاحتدام :
 الاضطرام . والحنادس : الظلمات .
 وإِزْهَاقه : مصدر أَرَهَقْتَه ، أى أعجلته ، ويروى : « إزهاقه » بالزاي .
 والأطباق : جمع طَبَق ، وهذا من باب الاستعارة ، أى تكائف ظلماتها طبق
 فوق طبق .

ويروى : « وجُشُوبَة مذاقه » بالجيم والباء ، وهي غلظ الطعام .
 والتَّجِجَى : القوم يتناجون . والندى : القوم يجتمعون في النادى .
 واحتلبوا دِرَّتَها : فازوا بمنافعها ، كما يحتلب الإنسان اللَّبَن .
 وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام ، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر له تأمل .

الأُصْل :

منها في صفة الزهاد :

كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا ، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا ،

عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تُقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي
أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمْتَظُّونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ، وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا
لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

الشرح :

بين ظهراني أهل الآخرة ، بفتح النون ، ولا يجوز كسرهما ، ويجوز « بين ظهراني
أهل الآخرة » ، بل يروى ، والمعنى في وسطهم .

قوله عليه السلام : « كانوا قوما من أهل الدنيا وليسوا من أهلها » ، أى هم من أهلها
في ظاهر الأمر وفي مرأى العين وليسوا من أهلها ، لأنه لا رغبة عندهم في ملاذها ونعيمها ،
فكانت لهم خارجون عنها .

قوله : « عملوا فيها بما يبصرون » ، أى بما يرونه أصلاح لهم ، ويجوز أن يريد أنهم
لشدّة اجتهادهم قد أبصروا المآل ، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء ،
وهذا كقوله عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » .

قوله عليه السلام : « وبادروا فيها ما يحذرون » ، أى سابقوه ، يعنى الموت .

قوله عليه السلام : « تُقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ » ، هذا محمول تارة على الحقيقة ، وتارة على
الحجاز ، أما الأول فلاّتهم لا يخالطون إلّا أهل الدين ولا يجالسون أهل الدنيا ، وأما الثانى
فلاّتهم لما استحقّوا الثواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه ، فأبدانهم تنقلب بين
ظهراني أهل الآخرة ، أى بين ظهراني قوم هم بمنزلة أهل الآخرة ، لأنّ المستحقّ لشيء
نظيره لمن فعل به ذلك الشيء .

ثم قال : هؤلاء الزّهاد يرون أهل الدنيا إنّما يستعظمون موت الأبدان ، وهم أشدّ
استعظاما لموت القلوب ، وقد تقدّم من كلامنا في صفات الزهاد والعارفين ما فيه كفاية .

(٢٢٦)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذى قار ، وهو متوجه إلى البصرة ، ذكرها الواقدي في كتاب « الجمل » :

فَصَدَّعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفُتُوقَ ،
وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ ، بَعَدَ الْعَدَاوَةَ الْوَغْرَةَ فِي الصُّدُورِ ، وَالضَّغَائِنِ
الْقَادِحَةَ فِي الْقُلُوبِ .

الشيخ :

ذوقار : اسم موضع قريب من البصرة ، وفيه كانت وقعة للغرب مع الفرس قبل الإسلام .

وصلاخ بما أمر به ، أى جهر ، وأصل الصَّدْعُ الشَّقُّ .

ولمَّ به : جمع . ورتق : خاط وألحم .

والعداوة الواغرة : ذات الوغرة ، وهى شدة الحر .

والضغائن : الأثقاد .

والقادحة فى القلوب ؛ كأنها تقدح النار فيها ؛ كما تقدح النار بالمقدحة .

(٢٢٧)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة ، وهو من شيعته ، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالا ، فقال عليه السلام :

إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَجَلَبُ أَسْيَافِهِمْ ، فَإِنْ شَرَكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ ، وَإِلَّا فَجَنَازَةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ .

الشرح :

[عبد الله بن زمعة ونسبه]

هو عبد الله بن زمعة ، بفتح الميم ، لا كما ذكره الراوندي ، وهو عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قُصَيٍّ .

كان الأسود من المستهزئين الذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل ، وابنه زمعة ابن الأسود ، قُتِلَ يوم بدر كافراً ، وكان يدعى زاد الركب ، وقتل أخوه عَقِيل بن الأسود أيضاً كافراً يوم بدر ، وقتل الحارث بن زمعة أيضاً يوم بدر كافراً ، والأسود هو الذي سمع امرأة تبكي على بعير تضلّه بمكة بعد يوم بدر ، فقال :

أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ وَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّوْمِ الْمَجُودُ^(١)

(١) الأبيات في ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ٢ : ٨٧٣ .

ولا تبكى على بدرٍ ولكن على بدرٍ تقاصرت الجدودُ
ألا قد سادَ بعدهمُ أناسٌ ولولا يومٌ بدرٍ لم يسودوا
وكان عبد الله بن زَمْعَة شيعَةً لعليّ عليه السلام . ومن أصحابه ؛ ومن ولد عبد الله
هذا أبو البخترى القاضى ؛ وهو وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زَمْعَة ، قاضى
الرشيد هارون بن محمد المهديّ ، وكان منحرفاً عن عليّ عليه السلام ، وهو الذى أفتى الرشيد
ببطلان الأمان الذى كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب
عليه السلام ، وأخذه بيده فمزقه .

وقال أمية بن أبي الصلت يرثى قتلى بدر ، ويذكر زَمْعَة بن الأسود :
عَيْنُ بَكَّى لَنُوفَلٍ وَلِعَمْرٍو ثُمَّ لَا تَبْخَلِي عَلَى زَمْعَةَ (١)
نوفل بن خويلد من بنى أسد بن عبد العزى ، ويعرف بابن العدوية ، قتله على
عليه السلام ، وعمرو أبو جهل بن هشام ، قتله عوف بن عَفْرَاء ، وأجهز عليه عبد الله
ابن مسعود .

قوله عليه السلام : «وَجَلَبَ أَسْيَافَهُمْ» أى ماجلبته أسيافهم وساقته إليهم ، والجلَب :
المال المجلوب . وجَنَاة الثمر ما يُنَجَّى منه ، وهذه استعارة فصيحة .

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٧ - بشرح الشيخ محمد محي الدين ؛ ورواية البيت فيه :
عَيْنُ بَكَّى بِالسَّبَلَاتِ أَبَا الْحَا رِثٍ لَا تَذْخِرِي عَلَى زَمْعَةَ

(٢٢٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ ، وَلَا يُيْهِلُهُ
النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ ، وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ عُرُوقُهُ ، وَعَلَيْنَا
تَهَدَّاتُ غُصُونُهُ .

وَأَعْمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ ، وَاللِّسَانُ
عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ ، وَاللَّزِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْبَعْضِيَّاتِ ،
مُضْطَلِحُونَ عَلَى الْإِذْهَانِ ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ ، وَشَائِبُهُمْ آئِمٌ ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ ، وَفَارِسُهُمْ
مُمَازِقٌ ، لَا يُعْظَمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ ، وَلَا يَعْمَلُ غَنِيَّتُهُمْ فَقِيرُهُمْ .

الشرح :

بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ : قطعة منه ، والهاء في « يسعده » ترجع إلى اللسان .
والضمير في « امتنع » يرجع إلى الإنسان ، وكذلك الهاء في « لا يهمله » يرجع
إلى اللسان .

والضمير في « اتسع » يرجع إلى الإنسان ، وتقديره : فلا يسعد اللسان القول إذا
امتنع الإنسان عن أن يقول ، ولا يهمل اللسان النطق إذا اتسع للإنسان القول ،
والمعنى : إن اللسان آلة للإنسان ، فإذا صرفه صارفٌ عن الكلام ، لم يكن اللسان

ناطقاً ، وإذا دعاه دأج إلى الكلام نطق اللسان بما في ضمير صاحبه .
وتنشبت عروقه ، أى علق ، وروى : « انتشبت » ، والرواية الأولى أدخل في صناعة
الكلام ، لأنها بإزاء تهدلت ، والتهدل : التدلى ، وقد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم
الخراساني ، فخطب بها في خطبة مشهورة من خطبه .

[ذكر من أرتج عليهم أو حصروا عند الكلام]

واعلم أن هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة اقتضت أن يقوله ،
وذلك أنه أمر ابن أخته جعدة بن هبيرة الخزومي أن يخطب الناس يوماً ، فصعد المنبر ،
فحصر ولم يستطع الكلام ، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتستم ذروة المنبر ، وخطب
خطبة طويلة ، ذكر الرضى رحمه الله منها هذه الكلمات ، وروى شيخنا أبو عثمان في
كتاب " البيان والتبيين " ، أن عثمان صعد المنبر فأرتج عليه فقال : « إن أبا بكر وعمر
كانا يعدان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل ، أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتكم
الخطبة على وجهها »^(١) . ثم نزل .

قال أبو عثمان : وروى أبو الحسن المدائني ، قال : صعد ابن لعدي^(٢) بن أرطاة المنبر ،
فلما رأى الناس حصر فقال : « الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم »^(٣) .
وصعد رَوْح بن حاتم المنبر ، فلما رأى الناس قدر شقوه^(٤) بأبصارهم ، وصر فوا أسماهم

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .

(٢) كذا في الأصول ؛ وفي البيان والتبيين : « صعد عدى بن أرطاة » .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٩ .

(٤) البيان : « شقوا أبصارهم » ، والشفن : أن يرفع المرء طرفه ناظراً إلى الشيء كالمتعجب له .

نحوه ، قال : « نكسوا رؤوسكم ، وغضّوا أبصاركم ، فإنّ أوّل مركب صعب ، فإذا يسّر الله عزّ وجلّ فتّح فُعلٍ تيسّر »^(١) . ثم نزل .

وخطب مُصعب بن حَيَّان أخو مقاتل بن حَيَّان خطبة نكاح فخير ، فقال : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » ، فقالت أمّ الجارية : عجل الله موتك ، ألهذا دعوناك^(٢) ! وخطب مروان بن الحكم فخير ، فقال : « اللهمّ إنّنا نحمدك ونستعينك ، ولا نشرك بك » .

ولما حصر عبد الله بن عامر بن كُرَيْز على المنبر بالبصرة - وكان خطيباً - شقّ عليه ذلك ، فقال له زياد بن أبيه ، وكان خليفته : أيها الأمير لا تجزع ، فلو أقمت على المنبر عامّة من ترى أصابهم أكثر ممّا أصابك . فلما كانت الجمعة تأخر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس : إنّ الأمير اليوم موعوك ، فقل لرجل من وجوه أمراء القبائل : قم فاصعد المنبر ، فلما صعد حصر ، فقال : الحمد لله الذي يرزق هؤلاء . ، وبقي ساكتاً ، فأنزلوه ، وأصعدوا آخر من الوجوه ، فلما استوى قائماً قابل بوجهه الناس ، فوقعت عينه على صلعة^(٣) رجل ، فقال : أيها الناس ، إنّ هذا الأصلع قد منعني الكلام ، اللهمّ فآلعن هذه الصلعة . فأنزلوه . وقالوا لوازع الإشكري : قم إلى المنبر فتكلّم ، فلما صعد ورأى الناس قال : أيها الناس إنّى كنت اليوم كارها لحضور الجمعة ، ولكن امرأتى حملتني على إتيانها ، وأنا أشهدكم أنّها طالق ثلاثاً ، فأنزلوه ، فقال زياد لعبد الله بن عامر : كيف رأيت ؟ قم الآن فاخطب الناس^(٤) .

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢٤٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .

(٣) الصلعة : موضع الصلع وهو انحسار شعر مقدم الرأس .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٥١ .

وقال سهيل بن هارون : دخل قُطْرِب النَحْوِيّ على الخُلُوع^(١) ، فقال : يا أَمِيرَ المؤمنين ، كانت عِدَّتُكَ أرفع من جائزَتِكَ - وهو يتبسّم - فاغتَاط الفضل [بن الربيع]^(٢) فقلت له : إنّ هذا من الحَصَر والضعف ، وليس من الجَلَد والقوّة ، أما تراه يفتلُ أصابعه ويرشح جبينه^(٣) !

ودخل معبد بن طووق العنبريّ على بعض الأمراء ، فتكلّم وهو قائم فأحسن ، فلمّا جلس تَلَمَّع^(٤) في كلامه ، فقال له : ما أظرفك قائماً ، وأموّك^(٥) قاعداً ! قال : إني إذا قُمت جَدَدْتُ ، وإذا قعدت هَزَلْتُ ، فقال : ما أحسن ما خرجت منها^(٦) !

* * *

وكان عمرو بن الأَهمم المُنْقَرِيّ والزُّبْرَقَانُ بَدْرُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فسأل عليه السلام عَمْرًا عن الزُّبْرَقَانِ فقال : يا رسولَ اللَّهِ ؛ إِنَّهُ لَمَانِعٌ لِحَوْزَتِهِ ، مطاعٌ في أَدَانِيهِ^(٧) ، فقال الزُّبْرَقَانُ : حسدني يا رسولَ اللَّهِ ! فقال عمرو : يا رسولَ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَزَمِيرٌ^(٨) المروءة ، ضيقُ العطن ، لثيمُ الخال . فنظر رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى وَجْهِ عَمْرٍو ، فقال : يا رسولَ اللَّهِ ؛ رَضِيتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ ، وَغَضِبْتُ فَقُلْتُ أَقْبَحَ مَا عَلِمْتُ ، وَمَا كَذَبْتُ فِي الْأَوَّلَى ، وَلَقَدْ صَدَقْتُ فِي الْآخَرَى . فقال عليه السلام : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا^(٩) .

وقال خالد بن صَفْوَان : ما الإنسان لولا اللسان إلّا صورة ممثلة أو بهيمة مهملة .

(١) الخليفة الخُلُوع هو الأمين .

(٢) من البيان والتبيين .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٤٦ .

(٤) تلبيع : أفرط ، وفي البيان « تتعنع » .

(٥) اللسان : « أموتك » .

(٦) البيان والتبيين ١ : ٣٤٨ ، واللسان ١٠ : ٢٠٣ .

(٧) الميداني : « أدنيه » .

(٨) الميداني ١ : ٧ .

(٩) زمر المروءة : قليلها .

وقال ابن أبي الزناد : كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز ، فكان يكتب إلى عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيراجعها ، فكتب إليه : إنه يحيل إلى أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلاً شاة لكتبت إلى : أضأنا أم معزا ؟ فإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إلى : أذكرا أم أنثى ! وإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إلى : صغيراً أم كبيراً ! فإذا كتبت إليك في مظلة ، فلا تراجعني والسلام^(١) .

وأخذ المنصور هذا فكتب إلى سلم بن قتيبة عامله بالبصرة يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعقر نخاهم ، فكتب إليه : بأيهما أبدأ [بالدور أم بالتدخل]^(٢) يا أمير المؤمنين ؟ فكتب إليه : لو قلت لك بالتدخل لكتبت إلى بماذا أبدأ ؟ بالشهريز أم بالبرني^(٣) ! وعزله ، وولى محمد بن سليمان^(٤) .

وخطب عبد الله بن عامر مرة فأرتج عليه ، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى ، فقال : لا أجمع عليكم عيًّا ولؤماً : من أخذ شاة من الشوق فهي له وثمنها على .

وخطب السفاح أول يوم صعد فيه المنبر فأرتج عليه ، فقام عمه داود بن علي ، فقال : أيها الناس إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فيكم فعله ، ولأثر الأفعال أجدى عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله علما فيكم ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله خليفة عليكم .

قال الشاعر :

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٠ .
 (٢) من البيان والتبيين .
 (٣) الشهريز : ضرب من التمر ، والبرني : ضرب من التمر أيضا أصفر مدور ؛ وهو أجود التمر .
 (٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٣ .

وما خيرُ مَنْ لا ينفَع الدَّهرُ عيشُهُ وإن مات لم يحزُن عليه أقاربُهُ
 كَهَامٌ على الأَقصى كليلٌ لسانُهُ وفي بَشَرِ الأَدنى حديدٌ مَخالبُهُ
 وقال أحيحة بن الجلاح:

والصمت أجملُ بالفتى ما لم يكن عِيٌّ يَشِينُهُ^(١)
 والقول ذو خَطَلٍ إذا ما لم يكن لبُّ يَزِينُهُ

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٧٥ .

(٢٢٩)

الأفضل

ومن كلام له عليه السلام :

روى ذُعْلَبُ الْيَمَامِيِّ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ قَتَيْبَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دُرَيْجَةَ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ وَقَدْ ذَكَرَ عِنْدَهُ اخْتِلَافُ النَّاسِ :
إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِيئُ طِينِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلَقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا ، وَحَزَنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا ، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ ؛ وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ ، فَتَأْمُ الرُّشُوءُ نَاقِصُ الْعَقْلِ ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ . وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيلَةِ ، وَتَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ . وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ .

الشنخ :

ذُعْلَبُ وَأَحْمَدُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَمَالِكُ ، رِجَالٌ مِنْ رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَمُحَدِّثِهِمْ . وَهَذَا الْفَصْلُ عِنْدِي لَا يَجُوزُ أَنْ يَحْمَلَ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَمَا يَتَسَارَعُ إِلَى أَفْهَامِ الْعَامَّةِ مِنْهُ ، وَذَلِكَ لِأَنِّ قَوْلَهُ : « أَنَّهُمْ كَانُوا فِلَقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا » ؛ إِمَّا أَنْ يَرِيدَ بِهِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ رُكْبٌ مِنْ طِينٍ ، وَجَعَلَ صُورَةَ بَشَرِيَّةِ طِينِيَّةِ بَرَأْسٍ وَبَطْنٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ ، ثُمَّ نَفَخَتْ فِيهِ الرُّوحَ كَمَا فَعَلَ بِآدَمَ ، أَوْ يَرِيدُ بِهِ أَنَّ الطِّينَ الَّذِي رُكِّبَتْ مِنْهُ صُورَةُ آدَمَ فَقَطْ كَانَ مُخْتَلَطًا مِنْ سَبَخٍ وَعَذْبٍ ، فَإِنْ أَرِيدَ الْأَوَّلَ فَالْوَاقِعُ خِلَافُهُ ، لِأَنَّ الْبَشَرَ الَّذِينَ نَشَاهِدُهُمْ ، وَالَّذِينَ بَلَّغْتُنَا أَخْبَارَهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا مِنَ الطِّينِ كَمَا خُلِقَ آدَمُ ، وَإِنَّمَا خَلَقُوا مِنْ نُطْفَةٍ آبَائِهِمْ . وَلَيْسَ لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ : لَعَلَّ تِلْكَ النُّطْفَةُ

افترقت لأنها تولدت من أغذية مختلفة المنبت من العذوبة والملوحة ، وذلك لأن النطفة لاتتولد من غذاء بعينه ، بل من مجموع الأغذية ، وتلك الأغذية لايمكن أن تكون كلها من أرض سبخة محضة في السبخية ، لأن هذا من الاتفاقات التي يعلم عدم وقوعها ، كما يعلم أنه لايجوز أن يتفق أن يكون أهل بغداد في وقت بعينه على كثرتهم لا يأكلون ذلك اليوم إلا السكباخ خاصة ، وأيضاً فإن الأرض السبخة ، أو التي الغالب عليها السبخية ، لاتنبت الأقوات أصلاً . وإن أريد الثانی ، وهو أن يكون طين آدم عليه السلام مختلطاً في جوهره ، مختلفاً في طبائعه ، فلم كان زيدٌ الأحق يتولد من الجزء السبخي وعمره العاقل يتولد من الجزء العذبى ؟ وكيف يؤثر اختلاف طين آدم من ستة آلاف سنة في أقوام يتوالدون الآن .

والذى أراه أن لكلامه عليه السلام تأويلاً باطناً ، وهو أن يريد به اختلاف النفوس المدبّرة للأبدان ، وكفى عنها بقوله : « مبادئ طينهم » ، وذلك أنها لما كانت الماسكة للبدن من الانحلال ، العاصمة له من تفرق العناصر ، صارت كاللبدا وكالعلقة له من حيث إنها كانت علّة في بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض ، ولذلك إذا فارقت عند الموت افترقت العناصر ، وانحلّت الأجزاء ، فرجع اللطيف منها إلى الهواء ، والكثيف إلى الأرض .

وقوله : « كانوا فلقمة من سبخ أرض وعذبتها ، وحزن تربة وسهلها » تفسيره أن البارئ جلّ جلاله لما خلق النفوس ، خلّقها مختلفة في ماهيتها ، فمنها الزكية ومنها الخبيثة ، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة ، ومنها القويّة ومنها الضعيفة ، ومنها الجريئة المقدّمة ، ومنها الفشلة الدليلة ^(١) ، إلى غير ذلك من أخلاق ^(٢) النفوس المختلفة المتضادة .
ثم فسّر عليه السلام وعلل تساوى قوم في الأخلاق وتفاوت آخرين فيها ، فقال :

(١) ساقطة من .

(٢) ١ : « اختلاف » .

إنَّ نفس زيد قد تكون مشابهةً أو قريبة من المشابهة لنفس عمرو ، فإذا هما في الأخلاق متساويتان ، أو متقاربتان ، ونفس خالد قد تكون مضادةً لنفس بكر أو قريبة من المضادة ، فإذا هما في الأخلاق متباينتان أو قريبتان من المباينة .

والقول باختلاف النفوس في ماهياتها هو مذهب أفلاطون ، وقد اتَّبعه عليه جماعة من أعيان الحكماء ، وقال به كثير من مثبتي النفوس من متكلمي الإسلام .
وأما أرسطو وأتباعه ، فإنَّهم لا يذهبون إلى اختلاف النفوس في ماهياتها . والقول الأوَّل عندي أمثل .

ثم بيَّن عليه السلام اختلاف آحاد الناس ، فقال : منهم من هو تام الرِّواء ، لكنه ناقص العقل . والرِّواء بالهمز والمد : المنظر الجميل ، ومن أمثال العرب : « ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل » .

وقال الشاعر :

عقله عقل طائرٍ وهو في خِلْقَةِ الجَلِّ

وقال أبو الطيب :

وما الحسنُ في وجهِ الْفَتَى شرفٌ له إذا لم يكن في فِعْلِهِ والخِلَاقِ (١)

وقال الآخر :

وما ينفع الفتيانَ حُسْنُ وجوهِهِمْ إذا كانت الأخلاق غيرَ حِسانٍ
فلا يفرِّقُكَ المرءُ راقٍ رُواوَهُ فما كلُّ مصقولٍ الغِرَّارِ يَمَانِي

ومن شعر الحماسة :

لَقَوْمِي أُرْعَى لِلْعَلَا مِنْ عَصَابَةٍ من النَّاسِ يَا حَارِ بْنَ عَمْرٍو تَسْوِدُهَا^(١)
وَأَنْتُمْ سَمَاءٌ يُعْجِبُ النَّاسَ رِزُّهَا بَآبِدَةٍ تُنْجِي شَدِيدٍ وَيُيْدُهَا^(٢)
تَقْطَعُ أَطْنَابَ الْبُيُوتِ بِحَاصِبٍ وَأَكْذِبُ شَيْءَ بَرْقِهَا وَرَعْوُهَا
فَوَيْلَ امَّا خِيَلًا بِهِاءٍ وَشَارَةٍ إِذَا لَاقَتِ الْأَعْدَاءَ لَوْلَا صَدُودُهَا !
ومنه أيضاً :

وَكَاثِرٌ بِسَعْدٍ إِنْ سَعِدَا كَثِيرَةٌ وَلَا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءٍ وَلَا نَصْرًا^(٣)
يُرْوَعُكَ مِنْ سَعْدٍ بَنُ زَيْدٍ جَسُومُهَا وَتَزْهَدُ فِيهَا حِينَ تَقْتُلُهَا خُبْرًا

قوله عليه السلام : « وَمَادَّ الْقَامَةَ قَصِيرَ الْهِمَّةِ » ؛ قريب من المعنى الأول ، إلا أنه يخالف بين الألفاظ ، فجعل الناقص بإزاء التام ، والقصير بإزاء الماد . ويمكن أن يجعل المعنيين مختلفين ، وذلك لأنه قد يكون الإنسان تامَّ العقل ، إلا أنَّ هِمَّتَهُ قصيرة ، وقد رأينا كثيرا من الناس كذلك ، فإذاً هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأول .

قوله عليه السلام : « وَزَانِكِي الْعَمَلِ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ » يريد بزكاء أعماله حسنَها وطهارتها ، فيكون قد أوقع الحسن بإزاء القبيح ، وهذا القسم بوجود فاش بين الناس .
قوله : « وَقَرِيبِ الْقَعْرِ يَعِيدُ السَّبْرِ » ، أى قد يكون الإنسان قصير القامة ، وهو مع ذلك داهية باقعة ، والمراد بقربِ قعره تقارب ما بين طرفيه ، فليست بطنه بمديدة

(١) لقراد بن حنش الصاردى - ديوان الحماسة - بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٣٠ .

(٢) السماء هنا : الشحاب . والرز والوئيد جيما : الصوت . ومعنى : « تنحى » تقبل .

(٣) ديوان الحماسة - بشرح المرزوقى ٣ : ١٥٢٢ .

ولا مستطيلة ، وإذا سبرته واختبرت ما عنده وجدته ليبيبا فطنا ، لا يوقف على أسرارهِ ،
ولا يدرك باطنه ، ومن هذا المعنى قول الشاعر^(١) :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ قَتَرَدَرِيهِ وفي أثوابه أَسَدُهُ مَزِيرُ^(٢)
ويعجبُكَ الطَّرِيرُ فتبتليهِ فيخلف ظنَّكَ الرجلُ الطَّرِيرُ^(٣)

وقيل لبعض الحكماء : ما بال القصارِ من الناس أدهى وأحقق ؟ قال : لقرب قلوبهم
من أدمغتهم .

ومن شعر الحماسة :

إِلَّا يَكُنْ عَظِمِي طَوِيلًا فَإِنِّي له بالخصال الصالحات وَصُولُ^(٤)
ولا خَيْرَ فِي حُسْنِ الْجُسُومِ وَطُوبَاهَا^(٥) إِذَا لَمْ تَزِنْ حَسْنَ الْجُسُومِ عَقُولُ

ومن شعر الحماسة أيضا وهو تمام البيتين المتقدم ذكرهما :

فَا عَظُمُ الرِّجَالِ لَمْ يَفْخَرِ ولكن فخرهمُ كَرَمٌ وخَيْرُ
ضِعَافِ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا جِسْمًا ولم تَطُلِ البَزَاةُ وَلَا الصُّقُورُ
بُعَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وأمَّ الصَّقَرِ مِثْلَاتُ نَزُورِ^(٦)
لَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بَغِيرَ لُبٍّ فلم يَسْتَفْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ

قوله عليه السلام : « ومعروف الضريبة ، منكر الجليبية » ، الجليبية هي الخلق الذي

(١) للعباس بن مرداس ، ديوان الحماسة — بشرح الرزوقي ٣ : ١١٥٣ .

(٢) المزير : الجلد الخفيف النافذ في الأمور .

(٣) الطرير : الشاب الناعم . (٤) ديوان الحماسة ٣ : ١١٨١ — بشرح الرزوقي

ونسبه إلى بعض الفزاريين .

(٥) الحماسة : « وبئها » .

(٦) المقلات ، من القات وهو الهلاك . والنزور : القليلة الأولاد من النزر ، وهو القليل .

يتكلفه الإنسان ويستجلبه ، مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلف الشجاعة ، أو شحيحاً
 بالطبع فيتكلف الجود ، وهذا القسم أيضا عام في الناس .
 ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوى الأخلاق والطباع المتناسبة المتلازمة ،
 فقال : « وتائه القلب متفرق اللب » ، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادان .
 ثم قال : « وطليق اللسان حديد الجنان » ، وهذان الوصفان أيضا متناسبان ، وهما
 متضادان للوصفين قبلهما ، فالأولان ذمٌّ ، والآخران مدح .

(٢٣٠)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام : قاله وهو إلى غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه :

بأبي أنت وأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ . خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّيًا عَنْ سِوَاكَ ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سِوَاءً ، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ ، لَأَنفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْونِ ، وَلَكَانَ الدَّاهُ مُمَاطِلًا ، وَالْكَمَدُ مُحَالِفًا ، وَقَلَّا لَكَ ! وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمَلِّكَ رَدُّهُ ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ !
بأبي أنت وأُمِّي ! أَذْكَرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ ، وَأَجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ !

الشرح :

بأبي أنت وأُمِّي ! أى بأبي أنت مغدَّى وأُمِّي .
والإنباء : الإخبار ، مصدر أنبأ ينبئ ، وروى : « والأنباء » بفتح الهمزة جمع نَبَأ ، وهو الخبر . وأخبار السماء : الوحي .

قوله عليه السلام : « خَصَّصْتَ وَعَمَّمْتَ » ، أى خَصَّصْتَ مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم لا يكثرئون بما يصيبهم بعدك من المصائب ، ولا بما أصابهم من قبل ، وعمت هذه

المصيبة أيضا الناس ، حتى استوى الخلائق كلهم فيها ، فهي مصيبة خاصة بالنسبة ،
وعامة بالنسبة .

ومثل قوله : « حتى صرت مسلّيا بمن سواك » قول الشاعر :

رُزِينَا أبا عمرٍ ولا حتى مثله فله درُّ الحادثات بمن تقع !
فإن تك قد فارقتنا وتركنا ذوى خلة ماني انسداد لها طمع
لقد جرّ نفعاً فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

وقال آخر :

أقول الموت حين نازله والموت مقدمة على اليهم
أظفر بمن شئت إذ ظفرت به ما بعد يحيى الموت من ألم

ولم في هذا المعنى كتبته إلى صديق غاب عني من جملة أبيات :

وقد كنت أخشى من خطوب غوائل فلما نأى عني أمنت من الحذر
فأعجب لجسم عاش بعد حياته وأعجب لنفع حاصل جرّه ضرر

وقال إسحاق بن خلف يرثي بنتا له ^(١) :

أمت أميمة معمورا بها الرّجم لقاً صعيد عليها التّرب مرتكم ^(٢)
يا شقة النفس إن النفس وإلهة حرّى عليك ، وإن الدّمع منسجم ^(٣)
قد كنت أخشى عليها أن تقدمني إلى الحام فيبدي وجهها العدم
فالآن نمت ، فلامهم يؤرّفني تهذا العيون إذ ما أودت الحرّم ^(٤)

(٢) الرجم : القبر ، والمق : المنيء الملقى .

(٤) أودت : هلكت .

(١) الكامل ٤ : ٢٠ .

(٣) الشقة : نصف المنيء .

— ٢٦ —

للموت عندى أياي لست أكفرها أحياء سروراً وبى مما أتى ألم

وقال آخر :

فلو أنها إحدى يديّ رزيتها ولكن يدي بانت على إثرها يدي
فأليت لا آسى على إثر هالك قدي الآن من حزن على هالك قدي

وقال آخر :

أجاري ما أزداد إلا صابة عليك ؛ وما تزداد إلا تنائيا
أجاري لو نفس فدت نفس ممت فديتك مسرورا بنفسى وماليا
وقد كنت أرجو أن أملاك حقبة فحال قضاء الله دون رجائيا
ألا فليمت من شاء بعدك إنما عليك من الأقدار كان حذاريا

وقال آخر :

لتفسد المنايا حيث شاءت فإنها محللة بعد الفتى ابن عقيل
فتى كان مولاه يحل بنجوة فحل الموالى بعده بمسيل

قوله عليه السلام : « وكان الداء ماطلا » ؛ أى ماطلا بالبرء ، أى لا يجب
إلى الإقلاع .

والإبلال : الإفاقة .

[ذكر طرف من سيرة النبي عليه السلام عند موته]

فأما وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وما ذكره أرباب السيرة فيها فقد ذكرنا طرفاً منه فيما تقدّم ؛ ونذكر هاهنا طرفاً آخر مما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه .

قال أبو جعفر : روى أبو مويهبة^(١) مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : أرسل^(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في جوف الليل ، فقال : « يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ أَسْتَغْفَرََ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ ، فَاذْهَبْ مَعِيَ » ، فَاذْهَبْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، قَالَ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ ، لَيْسَ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ تَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فِيهِ ! أَقْبَلْتُ الْفِتْنَةَ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ ، يَتَّبِعُ آخِرُهَا أَوَّلَهَا ، الْآخِرَةُ شَرُّهُ مِنَ الْأُولَى » . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : « يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ إِنِّي قَدْ أَوْهَبْتُ^(٣) مِفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا وَالْجَنَّةِ^(٤) ، فَخَيَّرْتُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجَنَّةِ ، فَاخْتَرِ الْجَنَّةَ » ، فَقُلْتُ : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! نَخْذُ مِفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا وَالْجَنَّةِ جَمِيعاً ، فَقَالَ : « لَا يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ ، اخْتَرْتَ لِقَاءَ رَبِّي » ، ثُمَّ اسْتَغْفَرََ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ وَانْصَرَفَ ، فَبَدَأُ بَوَجْعِهِ الَّذِي قَبَضَهُ اللَّهُ فِيهِ^(٥) .

وروى محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن عائشة ، قالت : رجع رسول الله صلى الله عليه وآله تلك الليلة من البقيع . فوجدني وأنا أجِدُ صُدَاعاً فِي رَأْسِي ، وَأَقُولُ : وَارِأْسَاهُ ! فَقَالَ : بَلْ أَنَا وَارِأْسَاهُ ! ثُمَّ قَالَ : « مَا ضَرَّكَ لَوْ مِتَّ قَبْلِي ، فَقَمِيتَ عَلَيْكَ فَكَفَّنتُكَ ، وَصَلَّيْتُ عَلَيْكَ وَدَفَنْتُكَ » ! فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَكُنْتُ

(١) ذكره الطبري ١ : ١٧٨٠ (طبع أوروبا) . في موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : « قِيلَ إِنَّهُ كَانَ مِنْ مَوْلَدِي مَزِينَةً ، فَاشْتَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْتَقَهُ » .
 (٢) الطبري : « بِعْنِي » . (٣) الطبري : « أَتَيْتُ » .
 (٤) الطبري : « ثُمَّ الْجَنَّةُ » . (٥) تاريخ الطبري ١ : ١٧٩٩ ، ١٨٠٠ .

بك لو كان ذلك رجعت إلى منزلي ، فأعرست ببعض نساك ! فتبسم عليه السلام ، وتنام به وجعه ، وهو مع ذلك يدور على نسائه ، حتى استعز^(١) به ؛ وهو في بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي ، فأذن له ، فخرج بين رجلين من أهله ، أحدهما الفضل ابن العباس ورجل آخر ، تخط قدماه في الأرض ، عاصباً رأسه حتى دخل بيته .

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : فحدثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث ، فقال : أندري من الرجل الآخر ؟ قلت : لا ، قال : علي بن أبي طالب ، لكنّها كانت لا تقدر أن تذكره بخبر وهي تستطيع . قالت : ثم غمر^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله واشتد به الوجع ، فقال : « أهر يقوا على سبع قيرب من آبارشتي حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم » ، قالت : فأقعده في مخضب لحفصة بنت عمر ، وصبنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده : « حسبكم حسبكم^(٣) » :

قلت : المخضب : المِرْكَن^(٤) .

وروى عطاء ، عن الفضل بن عباس رحمه الله : قال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وآله حين بدأ به مرضه ، فقال : اخرج ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدي ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : ناد في الناس ، فصاحت فيهم فاجتمعوا إليه ، فقال : « أيها الناس ، إني أحمد إليكم الله ، إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم ؛ فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يقل رجل : إني أخاف الشّحناء من قبل رسول الله . ألا وإنّ الشّحناء ليست من طبعتي ولا من شأني ، ألا وإنّ أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً

(١) استعز به : اشتد عليه وجعه وغلبه على نفسه .
(٢) غمر : اشتد به الوجع .
(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨٠٠ ، ١٨٠١ .
(٤) المِرْكَن : الإجانة التي تفسل فيها الياب:

إن كان له ، أو حَلَلَنِي فَلَقِيْتُ اللَّهَ وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ ، وَقَدْ أَرَانِي أَنَّ هَذَا غَيْرُ مَعْنٍ عَنِّي حَتَّى أَقُومَ فِيكُمْ بِهِ مَرَارًا . ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى الظُّهْرَ . ثُمَّ رَجَعَ فَجَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، فَعَادَ لِمَقَالَتِهِ الْأُولَى فِي الشَّحْنَاءِ وَغَيْرِهَا ، فَقَامَ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي عِنْدَكَ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمَ ، فَقَالَ : إِنَّا لَا نَكْذِبُ قَائِلًا وَلَا نَسْتَحْلِفُهُ عَلَى يَمِينٍ ، فِيمَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي ؟ قَالَ : أَتَذْكُرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ مَرَّ بِكَ الْمُسْكِينُ ، فَأَمَرْتَنِي فَأَعْطَيْتَهُ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمَ ؟ قَالَ : أَعْطَاهُ يَافِضِلُ ، فَأَمَرْتُهُ فَجَلَسَ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيُؤَدِّهِ وَلَا يَقُلْ : فَضُوحُ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ فَضُوحَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ فَضُوحِ الْآخِرَةِ » . فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عِنْدِي ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ غَلَّتْهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ : وَلَمْ غَلَّتْهُمَا ؟ قَالَ : كُنْتُ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، قَالَ : خُذْهَا مِنْهُ يَافِضِلُ . ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ خَشِيَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا فَلْيَقُمْ أَدْعُوهُ » ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي لَكَذَّابٌ ، وَإِنِّي لِفَاحِشٌ ، وَإِنِّي لَنُثُومٌ . فَقَالَ : « اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقًا وَصَلَاحًا ^(١) » ، وَأَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ إِذَا أَرَادَ . ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي لَكَذَّابٌ ، وَإِنِّي لِمُفَافِقٌ ، وَمَا شَيْءٌ — أَوْ قَالَ : وَإِن مِنْ شَيْءٍ — إِلَّا وَقَدْ جِئْتُهِ ^(٢) . فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ : فَضَحْتَ نَفْسَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « يَا بَنَ الْخَطَّابِ : فَضُوحُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ فَضُوحِ الْآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقًا وَإِيمَانًا وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَى خَيْرٍ » ^(٣) .

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، قَالَ : نَعَى إِلَيْنَا نَبِيُّنَا وَحَبِيبُنَا نَفْسَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ ، جَمَعْنَا فِي بَيْتِ أُمِّنَا عَائِشَةَ فَنَظَرَ إِلَيْنَا [وَشَدَّدَ] ^(٤) وَدَمَعَتْ عَيْنُهُ ، وَقَالَ : مَرْحَبًا بِكُمْ ! حَيَّاكُمْ اللَّهُ ، رَحِمَكُمُ اللَّهُ ، آوَاكُمُ اللَّهُ ، حَفَظَكُمُ اللَّهُ ، رَفَعَكُمُ اللَّهُ ، نَفَعَكُمُ اللَّهُ ،

(١) الطبري: « جليته » .

(٢) الطبري: « وإيمانًا » .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨٠١ - ١٨٠٣ ، وبقية الخبر : « فقال عمر : كلمة ، فضحك رسول الله ، ثم قال : عمر معي وأنا مع عمر ، والحق بعدي مع عمر حيث كان . »

(٤) من تاريخ الطبري .

وقفكم الله ، رزقكم الله ، هداكم الله ، نصركم الله ، سلمكم الله ، تقبلكم الله ! أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم ، وأستخافه عليكم ، إني لكم نذير وبشير ، ألا تعلموا على الله في عباده وبلاده ، فإنه قال لي ولكم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) . قلنا : يا رسول الله ، فمتى أجلك ؟ قال : « قد دنا الفراق ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، والرفيق الأعلى وجنة المأوى والعيش المهنأ » ، قلنا : فمن يغسلك يا رسول الله ؟ قال : « أهلي الأدنى فالأدنى » ، قلنا : فممن نكفئك ؟ قال : « في ثيابي هذه إن شئتم ، أو في بياض مصر ، أو حلة يمنية » ، قلنا : فمن يصلي عليك ؟ فقال : « إذا غسّلتُموني وكفنتُموني فضعوني على سريري في بيتي هذا ، على شفير قبري ، ثم اخرجوا عني ساعة ، فإن أول من يصلي على جالسي وحبيبي وخايلي جبرائيل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت مع جنوده من الملائكة ، ثم ادخلوا على فوجا فوجا ، فصلّوا عليّ وسلّموا ولا تؤذوني بتزكية ولا ضجة ولا رنة ، وليبدأ بالصلاة على رجال أهل بيتي ثم نسأوهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرئوا أنفسكم مني السلام ، ومن غاب من أهلي فأقرئوه مني السلام ، ومن تابعكم بعدى على ديني فأقرئوه مني السلام ، فإني أشهدكم أنني قد سلّمت على من بايعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة » . قلنا : فمن يدخلك قبرك يا رسول الله ؟ قال : « أهلي مع ملائكة كثيرة يروّونكم ولا تروّونهم » (٢) .

قلت : العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك الساعة : فمن يلى أمورنا بعدك ! لأن ولاية الأمر أهم من السؤال عن الدفن ، وعن كيفية الصلاة عليه ، وما أعلم ما أقول في هذا المقام !

قال أبو جعفر الطبري : وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، قَالَ : كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ :

يوم الخميس وما يوم الخميس ! ثم يبكي حتى تبلّ دموعه الحصباء ، فقلنا له : وما يوم الخميس ؟ قال : يوم اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وآله وجعه ، فقال : « ائتوني باللّوح والدّواة - أو قال : بالكتف والدواة - أكتب لكم ما لا تضلّون بعدى ، فتنازعوا ، فقال : اخرجوا ولا ينبغي عند نبى أن يتنازع ، قالوا : ما شأنه ، أهجر^(١) ؟ استفهموه ، فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : « دعوني فما أنا فيه خير ممّا تدعونى إليه » ، ثم ، أوصى بثلاث ، قال : « اخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحوٍ ممّا كنت أجيزهم » ، وسكت عن الثالثة عمداً ، أو قالها ونسيتها^(٢) .

وروى أبو جعفر ، عن ابن عباس . قال : خرج علىّ بن أبى طالب عليه السلام من عند رسول الله صلى الله عليه وآله فى وجعه الذى توفّي فيه ، فقال له الناس : يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً . فأخذ العباس بيده ، وقال : ألا ترى أنّك بعد ثلاث عبدُ العصا ! إننى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا وصّى بنا ، فقال علىّ : أخشى أن أسأله فيمنعنا . فلا يعطيناها الناس أبداً^(٣) .

وروت عائشة قالت : أغمى على رسول الله صلى الله عليه وآله والدار مملوءة من النساء : أمّ سلمة ، وميمونة ، وأسما بنت عُميس ، وعندنا عمه العباس بن عبد المطلب ، فأجمعوا على أن يلدّوه ، فقال العباس : لا ألدّه فلدّوه ، فلما أفاق قال : من صنع بى هذا ؟ قالوا : عملك . قال لنا : هذا دواء جاءنا من نحو هذه الأرض - وأشار إلى أرض الحبشة - قال : فلم فعلتم ذلك ؟ فقال العباس : خشينا يا رسول الله ، أن يكون بك ذات الجنب ، فقال : « إن ذلك

(١) هجر ، أى اختلف كلامه .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٧ .

لدا ما كان الله ليقتدني به ، لا يبقى أحدٌ في البيت إلا لُدَّ إلا عمي » . قال : فلقُدُّدت ميمونة وإنَّها لصائمة لقسم رسول الله صلى الله عليه وآله عتوبة لهم بما صنعوا .

قال أبو جعفر : وقد وردت رواية أخرى عن عائشة ، قالت : لدَّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه ، فقال : لا تلدوني ، فقلنا : كراهية المريض للدواء ؛ فلما أفاق قال : لا يبقى أحدٌ إلا لُدَّ غير العباس عمي فإنه لم يشهدكم .

قال أبو جعفر : والذي تولى اللدود^(١) بيده أسماء بنت عميس .

قلت : العجب من تناقض هذه الروايات ! في إحداها أن العباس لم يشهد اللدود ، فلذلك أعفاه رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يُلدَّ ولَّدَ مَنْ كان حاضراً ، وفي إحداها أن العباس حضر لدَّه عليه السلام ، وفي هذه الرواية التي تتضمن حضور العباس في لدَّه كلام مختلف ، فيها أن العباس قال : لا ألدَّه ، ثم قال : فلدَّ فأفاق ، فقال : مَنْ صنع بي هذا ؟ قالوا : عمك ، إنه قال : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لذات الجنب ؛ فكيف يقول : لا ألدَّه ، ثم يكون هو الذي أشار بأن يُلدَّ ، وقال : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لكذا !

وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد البصري عن حديث اللدود ، فقلت : ألدَّ علي بن أبي طالب ذلك اليوم ؟ فقال : معاذ الله ! لو كان لُدَّ لذكرت عائشة ذلك فيما تذكره وتنعاه عليه . قال : وقد كانت فاطمة حاضرة في الدار ، وابناها معها ، أفترأها لدَّت أيضاً ، ولدَّ الحسن والحسين ! كلاً ، وهذا أمر لم يكن ، وإنما هو حديث ولده مَنْ ولده تقرباً إلى بعض الناس ، والذي كان أن أسماء بنت عميس أشارت بأن يُلدَّ ، وقالت : هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبي طالب ، وكان يعلمها ،

(١) اللدود ، بالفتح من الأدوية : ما يسقاه المريض في أحد شقي الفم .

(٢) تاريخ الطبري ١ : ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ .

وساعدتها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث ، فلقد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما أفاق أنكره ، وسأل عنه فذكر له كلام أسماء ، وموافقة ميمونة لها ، فأمر أن تُلدَّ الامرأتان لا غير ، فلدتا ولم يجر غير ذلك . والباطل لا يكاد يخفى على مستبصر . وروى عائشة ، قالت : كثيراً ما كنت أسمع رسول الله يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره ، فلما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمة سمعتها منه : « بل الرفيق الأعلى » ، فقلت : إذا والله لا يختارنا ، وعلمت أن ذلك ما كان يقوله من قبل (١) .

وروى الأرقم بن شرحبيل ، قال : سألت ابن عباس رحمه الله : هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا ، قلت : فكيف كان ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه : « ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه » ، فقالت عائشة : لو بعثت إلى أبي بكر ! وقالت حفصة : لو بعثت إلى عمر ! فاجتمعوا عنده جميعاً - هكذا لفظ الخبر على ما أورده الطبري في التاريخ ، ولم يقل : « فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إليهما » - قال ابن عباس : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « انصرفوا ، فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم » فانصرفوا . وقيل لرسول الله : الصلاة ! فقال : « مروا أبا بكر أن يصلي بالناس » ، فقالت عائشة : إن أبا بكر رجل رقيق فرُّ عمر ، فقال : مُرُّوا عمر ، فقال عمر : ما كنت لأتقدم وأبو بكر شاهد ، فتقدم أبو بكر ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله خفّة ، فخرج ، فلما سمع أبو بكر حركته تأخر ، فحُذِب رسول الله صلى الله عليه وآله ثوبه فأقامه مكانه ، وقعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر (٢) .

قلت : عندي في هذه الواقعة كلام ، ويعترضني فيها شكوك واشتباه ؛ إذا كان قد

(٢) تاريخ الطبري : ١٨١١ ، ١٨١٢ .

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٠ .

(٣ - نهج - ١٣)

أراد أن يبعث إلى عليّ ليوصيَ إليه ، فنفسّت عائشة عليه ، فسألت أن يحضر أبوها ، ونفسّت حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها ، ثم حضرا ولم يُطلبا ، فلا شبهة أن ابنتيهما طلبتاها . هذا هو الظاهر ، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد اجتمعوا كلهم عنده « انصرفوا فإن تكن لي حاجة بعثت إليكم » ، قول من عنده صَجَرٌ وغضب باطن لحضورها ، وتُهمة للنساء في استدعائهما ، فكيف يطابق هذا الفعل وهذا القول ماروي من أن عائشة قالت لما عين على أبيها في الصلاة : إن أبي رجلٌ رقيق ، فمرعرا ! وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفاء والاستقالة ! وهذا يؤهم صحة ما نقوله الشيعة من أن صلاة أبي بكر كانت عن أمر عائشة ، وإن كنت لا أقول بذلك ، ولا أذهب إليه إلا أن تأمل هذا الخبر ولمَحْ مضمونه يؤهم ذلك ، فاعلّ هذا الخبر غير صحيح . وأيضا في الخبر ما لا يميزه أهل العدل ، وهو أن يقول : « مروا أبا بكر » ، ثم يقول عَقِيْبُهُ : « مروا عمر » ، لأنّ هذا نسخُ الشيء قبل تقضّي وقت فعله .

فإن قلت : قد مضى من الزّمان مقدار ما يمكن الحاضرين فيه أن يأمرُوا أبا بكر ، وليس في الخبر إلّا أنه أمرهم أن يأمرُوهُ ، ويكفي في صحة ذلك مضى زمان يسير جدا يمكن فيه أن يقال : يا أبا بكر صلّ بالناس .

قلت : الإشكال مانشأ من هذا الأمر ، بل من كون أبي بكر مأمورا بالصلاة ، وإن كان بواسطة ، ثم نُسِخ عنه الأمر بالصلاة قبل مضى وقت يمكن فيه أن يفعل الصلاة . فإن قلت : لم قلت في صدر كلامك هذا : إنه أراد أن يبعث إلى عليّ ليوصيَ إليه ؟ ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة له ؟

قلت : لأنّ مخرج كلام ابن عباس هذا المخرج ، ألا ترى أن الأرقم بن سُرحبيل الراوى لهذا الخبر قال : سألت ابن عباس : هل أوصى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : لا ، فقلت : فكيف كان ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في مرضه :

« ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه » ، فسألته المرأة أن يبعث إلى أبيها ، وسألته الأخرى أن يبعث إلى أبيها ، فلولا أن ابن عباس فهم من قوله صلى الله عليه وآله : « ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه » أنه يريد الوصية إليه ، لما كان لإخبار الأرقم بذلك متصلاً بسؤاله عن الوصية معنى .

وروى القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عن عائشة ، قالت : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يموت وعنده قدح فيه ماء يُدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ، ويقول : « اللهم أعنّي على سكرة الموت ^(١) ! » .

وروى عروة عن عائشة ، قالت : اضطلع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم موته في حجرى ، فدخل على رجلٍ من آل أبي بكر ، في يده مسواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إليه نظراً عرف أنه يريد ، فقلت له : أحب أن أعطيك هذا المسواك ؟ قال : نعم ، فأخذته فمضعته حتى ألتته ثم أعطيتها إياه ، فاستنّ به كأشد ما رأيت يستنّ بسواك قبله ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله صلى الله عليه وآله يثقل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » ! فقلت : لقد خيّرتَ فاخترت والذى بعثك بالحق ! وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) .

قال الطبري : وقد وقع الاتفاق على أنه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، واختلف في أيّ الأثنين كان ؟ فقليل : ليلتين خلتا من الشهر ، وقيل : لاثنتي عشرة ^(٣) خلت من الشهر . واختلف في تجهيزه أيّ يوم كان ! فقليل : يوم الثلاثاء الغد من وفاته ، وقيل : إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام ، اشتغل القوم عنه بأمر البيعة .

وقد روى الطبري ما يدل على ذلك عن زياد بن كليب ، عن إبراهيم النخعي أن

(٢) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٤ .

(١) تاريخ الطبري ٣ : ١٨١٢ .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٥ .

أبا بكرٍ جاء بعد ثلاث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد اربدّ بطنه ، فكشف عن وجهه ، وقبل عينيه ، وقال : بأبى أنت وأُمى ! طبت حياً وطبت ميتاً^(١) ! قلت : وأنا أعجبُ من هذا ! هبْ أنْ أبا بكرٍ ومَنْ معه اشتغلوا بأمر البيعة ، فعلى ابن أبي طالب والعبّاس وأهل البيت بماذا اشتغلوا حتى يبقى النبي صلى الله عليه وآله مسجّى بينهم ثلاثة أيامٍ بلياليهنّ لا يفسلونه ولا يمسونه !

فإن قلت : الرواية التي رواها الطبريّ في حديث الأيام الثلاثة ، إنما كانت قبل البيعة ؛ لأن لفظ الخبر عن إبراهيم ، وأنه لما قبض النبي صلى الله عليه وآله كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث ، ولم يجترئ أحدٌ أن يكشف عن وجهه عليه السلام حتى اربدّ بطنه ، فكشف عن وجهه وقبل عينيه ، وقال : بأبى أنت وأُمى ! طبت حياً وطبت ميتاً ، ثم خرج إلى الناس ، فقال : مَنْ كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات . . . الحديث بطوله .

قلت : لعمري ، إنَّ الرواية هكذا أوردتها ، ولكنها مستحيلة ، لأن أبا بكرٍ فارق رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ ، ومضى إلى منزله بالشَّح في يوم الاثنين ، وهو اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه رآه بارئاً صالح الحال . هكذا روى الطبريّ في كتابه ، وبين الشَّح وبين المدينة نصف فرسخ ، بل هو طائفة من المدينة ، فكيف يبقى رسول الله صلى الله عليه وآله ميتاً يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء لا يعلم به أبو بكر ، وبينهما غلوة ثلاثة أسهم ! وكيف يبقى طريحاً بين أهله ثلاثة أيام لا يجترئ أحدٌ منهم أن يكشف عن وجهه ، وفيهم على بن أبي طالب وهو روحه بين جنبيه ، والعبّاس عمّ القائم مقام أبيه ، وابنا فاطمة ، وهما كولديه ، وفيهم فاطمة بضعة منه ، أفأكان في هؤلاء مَنْ يكشف عن وجهه ، ولا مَنْ يفكر في جهازه ، ولا مَنْ يأنف له من

(١) تاريخ الطبريّ ١ : ١٨١٧ .

انتفاخ بطنه واخضرارها، وينتظر بذلك حضور أبي بكر ليكشف عن وجهه !
أنا لأصدق ذلك ، ولا يسكن قلبي إليه . والصحيح أن دخول أبي بكر إليه وكشفه
عن وجهه ، وقوله ماقال ، إنما كان بعد الفراغ من البئعة ، وأنهم كانوا مشغولين بها
كما ذكر في الرواية الأخرى .

وبقي الإشكال في قعود عليّ عليه السلام عن تجهيزه . إذا كان أولئك مشغولين
بالبئعة ، فما الذي شغله هو ؟

فأقول : يغلب على ظني - إن صحّ ذلك - أن يكون قد فعله شناعة على أبي بكر وأصحابه ،
حيث فاته الأمر ، واستؤثر عليه به ، فأراد أن يتركه صلى الله عليه وآله بحاله لايحدث
في جهازه أمراً ليثبت عند الناس أن الدنيا شغلتهم عن نبيهم ثلاثة أيام ، حتى آل أمره
إلى ما ترون ؛ وقد كان عليه السلام يتطلب الحيلة في تهجين أمر أبي بكر حيث وقع في
السقيفة ما وقع بكلّ طريق ، ويتعاقب بأدنى سبب من أمور كان يعتمدها ، وأقوال كان
يقولها ، فلعلّ هذا من جملة ذلك ، أو لعله إن صحّ ذلك ،^(١) فإنما تركه صلى الله عليه وآله
بوصية منه إليه وسريّ كانا يعلمانه في ذلك .

فإن قلت : فلم لايحوز أن يقال - إن صحّ ذلك : إنه^(٢) أخرّ جهازه ليجتمع رأيه
ورأى المهاجرين على كيفية غسله وتكفينه ، ونحو ذلك من أموره ؟
قلت : لأن الرواية الأولى تبطل هذا الاحتمال ، وهي قوله صلى الله عليه وآله لم قبل
موته : « يغسلني أهلي الأدنى منهم فالأدنى ، وأكفن في ثيابي أو في بياض مصر أو في
حلة يمنية » .

قال أبو جعفر : فأما الذين تولّوا غسله فعليّ بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبدالمطلب ،
والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشُقران مولى رسول الله صلى الله

(١-١) ساقط من ب ، وأثبتته من أ .

عليه وآله ، وحضر أوس بن خولى أحد الخزرج ، فقال لعلي بن أبي طالب : أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ! وكان أوس من أصحاب بدر ، فقال له : ادخل ، فدخل فحضر غسله عليه الصلاة والسلام ، وصب الماء عليه أسامة وشقران ، وكان علي عليه السلام يغسله وقد أسنده إلى صدره ، وعليه قميصه يدلّكه من ورائه ، لا يفيض بيده إلى بدن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان العباس وابناه الفضل ووثم يساعدونه على قلبه من جانب إلى جانب (١) .

قال أبو جعفر : وروت عائشة أنهم اختلفوا في غسله : هل يجرد (٢) أم لا ؟ فألقى الله عليهم السنة حتى مامنهم رجل إلا وذقنه على صدره ، ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت لا يدري من هو : غسلوا النبي وعليه ثيابه . فقاموا إليه فغسلوه ، وعليه قميصه فكانت عائشة تقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه (٣) .

قلت : حضرت عند محمد بن معد العلوّى في داره ببغداد ، وعنده حسن بن معالى الحلى المعروف بابن الباقلانى وهما يقرآن هذا الخبر ، وهذه الأحاديث من تاريخ الطبرى فقال محمد بن معد لحسن بن معالى : ما تراها قصدت بهذا القول ؟ قال : حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غسل رسول الله صلى الله عليه وآله ! فضحك محمد ، فقال : هبها استطاعت أن تزاوجه في الفسل ، هل تستطيع أن تزاوجه في غيره من خصائصه !

قال أبو جعفر الطبرى : ثم كُفّن عليه الصلاة والسلام في ثلاثة أثواب : ثوبين صُحاريين (٤) وبُرْد حَبَرَة (٥) . أدرج (٦) فيها إدراجاً ، ولحدله على عادة أهل المدينة ، فلما فرغوا منه وضعوه على سرير (٧) .

-
- (١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٠ ، ١٨٣٣ . (٢) الطبرى : « أنجرد » .
 (٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ . (٤) صحاريان : منسوبان إلى صحار ، قرية باليمن .
 (٥) حبة بوزن عنبه ، أى مخطط ، وهو برد يمان أيضا على الوصف أو الإضافة .
 (٦) أى لف فيه . (٧) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ .

واختلفوا في دَفْنِهِ ، فقال قائل : ندفنه في مسجده ، وقال قائل : ندفنه في البقيع مع أصحابه ، وقال أبو بكر : سمعتُ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وآله يقول : « مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا وَدُفِنَ حَيْثُ قُبِضَ » ، فرفع فراش رسول الله الذي تَوَفَّى فِيهِ ، فَحَفَرَهُ تَحْتَهُ .

قلت : كيف اختلفوا في موضع دفنه ، وقد قال لهم : « فضعوني على سريري في بيتي هذا ، على شفير قهري » ، وهذا تصريح بأنه يُدْفَنُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ ، وَهُوَ بَيْتُ عَائِشَةَ ؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْخَبَرُ غَيْرَ صَحِيحٍ ، أَوْ يَكُونَ الْحَدِيثُ الَّذِي تَضَمَّنَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي مَوْضِعِ دَفْنِهِ ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَوَى لَهُمْ أَنَّهُ قَالَ : « الْأَنْبِيَاءُ يَدْفَنُونَ حَيْثُ يَمُوتُونَ » غَيْرَ صَحِيحٍ ، لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْخَبَرَيْنِ لَا يُمْكِنُ .

وأيضاً ، فهذا الخبر يناقض ما ورد في موت جماعة من الأنبياء نُقِلُوا مِنْ مَوْضِعِ مَوْتِهِمْ إِلَى مَوَاضِعٍ أُخَرَ ، وَقَدْ ذَكَرَ الطَّبْرِيُّ بَعْضَهُمْ فِي أَخْبَارِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وأيضاً فلو صحَّ هذا الخبر لم يكن مقتضياً إيجاب دفن النبي صَلَّى الله عليه وآله حيث قُبِضَ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَمْرٍ بَلْ هُوَ إِخْبَارٌ مُحْضٌ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا فَهَمُوا مِنْ مَخْرَجِ لَفْظِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمِنْ مَقْصَدِهِ أَنَّهُ أَرَادَ الْوَصِيَّةَ لَهُمْ بِذَلِكَ ، وَالْأَمْرُ بِدَفْنِهِ حَيْثُ يَقْبُضُ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : ثُمَّ دَخَلَ ^(١) النَّاسُ فَصَلُّوا عَلَيْهِ أَرْسَالًا ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ الرَّجَالُ أَدْخَلَ النِّسَاءَ ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ النِّسَاءَ أَدْخَلَ الصَّبِيَّانَ ، ثُمَّ أَدْخَلَ الْعَبِيدَ ، وَلَمْ يُؤْمَرْ ^(٢) إِمَامٌ ، ثُمَّ دَفِنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَطَ اللَّيْلِ مِنْ لَيْلَةِ الْأَرْبَعَاءِ ^(٣) .

قال أبو جعفر : وقد روت عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، عن عائشة قالت : ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي في جوف الليل ، لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ ^(٤) .

(٢) الطبري : « ولم يؤمر الناس » .

(٤) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٣ .

(١) الطبري : « ودخل » .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٢ .

قلت : وهذا أيضا من العجائب ، لأنه إذا مات يوم الاثنين وقت ارتفاع الضحى .
— كما ذكر في الرواية — ودفن ليلة الأربعاء وسط الليل ، فلم يمض عليه ثلاثة أيام كما ورد
في تلك الرواية .

وأيا من العجب كون عائشة ، وهو في بيتها لا تعلم بدفنه حتى سمعت صوت المساحي ،
أتراها أين كانت ! وقد سألت عن هذا جماعة ، فقالوا : لعائشة كانت في بيت يجاور بيتها
عندها نساء كما جرت عادة أهل الميت ؛ وتكون قد اعتزلت بيتها وسكنت ذلك البيت ،
لأن بيتها مملوء بالرجال من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله وغيرهم من الصحابة ، وهذا
قريب ، ويحتمل أن يكون .

قال الطبري : ونزل في قبر رسول الله صلى الله عليه وآله على بن أبي طالب عليه
السلام ، والفضل بن عباس ، وقثم أخوه ، وشقران مولاهم . وقال أوس بن خولى لعلى
عليه السلام : أنشدك الله يا على وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال له : أنزل ،
فنزل مع القوم ، وأخذ شقران قطيفة كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبسها ، فقفها
معه في القبر ، وقال : لا يلبسها أحد بعده ^(١) .

قلت : من تأمل هذه الأخبار ، علم أن عليا عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل
في أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وجهازه ، ألا ترى أن أوس بن خولى لا يخاطب
أحدا من الجماعة غيره ، ولا يسأل غيره في حضور الغسل والنزول في القبر ! ثم انظر إلى كرم
علي عليه السلام وسجاجة أخلاقه وطهارة شيمته ، كيف لم يرض بمشعل هذه المقامات
الشريفة عن أوس ؛ وهو رجل غريب من الأنصار ، فعرف له حقه وأطلبه ^(٢) بمأطبه !
فكم بين هذه السجية الشريفة ، وبين قول من قال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت

(٢) أطلبه : أجاهه إلى ما طلب .

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨٣٣ .

ما غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نساؤه! ولو كان في ذلك المقام غيره من أولي الطباع الخشنة، وأرباب الفظاظ والغلظة، وقد سأل أوس ذلك - لجزر وانهر ورجع خائباً!

قال الطبري: وكان المغيرة بن شعبه يدعى أنه أحدث الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله، ويقول للناس: إني أخذت خاتمي فألقيته في القبر، وقلت: إن خاتمي قد سقط مني، وإني أظن طرخته، حملاً؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فأكون آخر الناس به عهداً^(١).

قال الطبري: فروى عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: اعتمدت مع علي بن أبي طالب عليه السلام في زمان عمر - أو عثمان - فنزل على أخته أم هانئ بنت أبي طالب، فلما فرغ من عمرته رجع وقد سكب له غسل، فلما فرغ من غسله دخل عليه فقروا من أهل العراق، فقالوا: يا أبا الحسن، جئناك نسألك عن أمر نحسب أن تخبرنا به! فقال: أظنّ المغيرة يحدثكم أنه أحدث الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله! قالوا: أجل، عن ذا جئنا نسألك! قال: كذب! أحدث الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله فتم بن العباس، كان آخرنا خروجاً من قبره^(٢).

قلت: بحق ما عاب أصحابنا رحمهم الله المغيرة وذمّوه وانتقصوه! فإنه كان على طريقة غير محمود، وأبى الله إلا أن يكون كاذباً على كلّ حال، لأنه إن لم يكن أحدثهم بالنبي عهداً، فقد كذب في دعواه أنه أحدثهم به عهداً، وإن كان أحدثهم به عهداً كما يزعم فقد اعترف بأنه كذب في قوله لهم: «سقط خاتمي مني»؛ وإنما ألقاه عمداً، وأين المغيرة ورسول الله صلى الله عليه وآله ليدعى القرب منه، وأنه أحدث الناس عهداً به!

(٢) تاريخ الطبري ١: ١٨٣٣، ١٨٣٤.

(١) تاريخ الطبري ١: ١٨٣٣.

وقد علم الله تعالى والمسلمون أنه لولا الحدث الذي أحدث، والقوم الذين صحبهم فقتلهم غدرًا، واتخذ أموالهم؛ ثم التجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليعصمه لم يسلم، ولا وطيء حصا المدينة.

قال الطبري: وقد اختلف في سن رسول الله صلى الله عليه وآله، فالأكثر أن كان ابن ثلاث وستين سنة، وقال قوم: ابن خمس وستين سنة، وقال قوم: ابن ستين. فهذا ما ذكره الطبري في تاريخه^(١).

وروى محمد بن حبيب في "أماله"، قال: تولى غسل النبي صلى الله عليه وآله على عليه السلام والعباس رضي الله عنه.

وكان على عليه السلام يقول بعد ذلك: ما شممت أطيّب من ريح، ولا رأيت أضوأ من وجهه حينئذ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى.

قال محمد بن حبيب: فلما كشف الإزار عن وجهه بعد غسله انحنى عليه فقبله مرارا؛ وبكى طويلا وقال: بأبي أنت وأمي! طبت حيا وطبت ميتا! انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد سواك من النبوة والأنباء وأخبار السماء! خصصت حتى صرت مسليا عن سواك؛ وعممت حتى صارت المصيبة فيك سواء! ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأفدنا عليك ماء الشئون؛ ولكن أتى ما لا يدفع! أشكو إليك كمدًا وإدارا مخالفين وداء الفتنة، فإنها قد استعرت نارها وداؤها الداء الأعظم! بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك وهلك!

ثم نظر إلى قذاة في عينه فلفظها بلسانه، ثم ردّ الإزار على وجهه.

(١) تاريخ الطبري ١: ١٨٣٤، ١٨٣٥.

وقد روى كثير من الناس ندبة فاطمة عليها السلام أباه يوم موته وبعد ذلك اليوم ، وهى الفاظ معدودة مشهورة ، منها : « يا أبتاه ! جنة الخلد مشواه ، يا أبتاه ! عند ذى العرش مأواه ! يا أبتاه ! كان جبرائيل يغشاه ! يا أبتاه ! لست بعد اليوم أراه ! » .
ومن الناس من يذكر أنها كانت تشوب هذه الندبة بنوع من التظلم والتألم لأمر يغلبها . والله أعلم بصحة ذلك .
والشيعة تروى أن قوماً من الصحابة أنكروا بكاءها الطويل ، ونهوها عنه ، وأمروها بالتنجى عن مجاورة المسجد إلى طرف من أطراف المدينة .
وأنا أستبعد ذلك ، والحديث يدخله الزيادة والنقصان ، ويتطرق إليه التحريف والافتعال ، ولا أقول أنا فى أعلام المهاجرين إلا خيراً !

(٢٣١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُذَرُّهُ الشَّوَاهِدُ ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاطِرُ ،
وَلَا تَحْجِبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ الدَّلَالُ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ ،
وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ .

الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ ، وَعَدَلَ
عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَاقِهِ ، وَبِمَا وَسَّعَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ
عَلَى قُدْرَتِهِ ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ .

وَاحِدٌ لَا يَعْدِي ، وَدَائِمٌ لَا يَأْمِدُ ، وَقَائِمٌ لَا يَبْعِدُ .

تَعَلَّقَ الْأَذْهَانُ لَا يَحْشُرُهُ ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَايُ لَا يَحْضَرُهُ . لَمْ تُحِطْ بِهِ
بِهَا الْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا . وَبِهَا أُمْتَنَعَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا .

لَيْسَ بِإِذَى كَبِيرٍ أُمْتَدَّتْ بِهِ الْهَيْئَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيمًا ، وَلَا بِإِذَى عَظِيمٍ تَنَاهَتْ
بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيدًا ، بَلْ كَبُرَ شَأْنًا ، وَعَظُمَ سُلْطَانًا .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّبِيُّ ، وَأَمِينُهُ الرَضِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ،
أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ ، وَظُهُورِ الْفَلَاحِ ، وَإِضْاحِ الْمَبْهَجِ ؛ فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ صَادِقًا
بِهَا ، وَجَمَلَ عَلَى الْمَحْجَةِ دَالًّا عَلَيْهَا ، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْدَاءِ ، وَمَنَارَ الصِّيَاءِ ، وَجَعَلَ
أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً ، وَغُرَا الْإِيمَانِ وَثِيقَةً .

الْبَيِّنَةُ :

الشواهد هاهنا ، يريد بها الحواس ، وسماها « شواهد » إما لحضورها ؛ شهد فلان كذا أى حضره ، أو لأنها تشهد على ما تدركه وتثبتته عند العقل ، كما يشهد الشاهد بالشئ ويثبتته عند الحاكم .

والمشاهد هاهنا : المجالس والنوادي ، يقال : حضرت مشهد بنى فلان ، أى ناديمهم ومجتمعهم .

ثم فسر اللفظة الأولى وأبان عن مراده بها بقوله : « ولا تراه النواظر » ، وفسر اللفظة الثانية وأبان عن مرادها ، فقال : « ولا تحجبه السواتر » .

ثم قال : « الدال على قدمه بحدوث خلقه ، وبحدوث خلقه على وجوده » ؛ هذا مشكل ، لأن لقائل أن يقول : إذا دلّ على قدمه بحدوث خلقه ، فقد دخل في جملة المدلول كونه موجوداً ، لأنّ القديم هو الموجود ولم يزل ، فأى حاجة إلى أن يعود فيقول : وبحدوث خلقه على وجوده !

ولجيب أن يجيب على طريقة شيوخنا أصحاب أبي هاشم ، فيقول : لا يلزم من الاستدلال بحدوث الأجسام على أنه لا بدّ من محدث قديم كونه موجوداً ؛ لأنّ عندهم أنّ الذات المعدومة قد تتّصف بصفات ذاتية ، وهى معدومة ، فلا يلزم من كون صانع العالم عندهم عالماً قادراً حياً أن يكون موجوداً ، بل لا بدّ من دلالة زائدة ، على أنّ له صفة الوجود وهى والدلالة التى يذكرونها ، من أنّ كونه قادراً عالماً تقتضى تعلقه بالمقدور والمعلوم ، وكل ذات متعلّقة ، فإنّ عدمها يخرجها عن التعلّق كالإرادة ، فلو كان تعالى معدوماً لم يجوز أن يكون متعلّقاً ، لحدوث الأجسام إذاً قد دلّ على أمرين من وجهين مختلفين : أحدهما أنه لا بدّ من صانع له ، وهذا هو المعنى بقدمه .

والثاني أن هذا الصانع له صفة ، لأجلها يصحّ على ذاته أن تكون قادرة عالمة ، وهذا هو المعنى بوجوده .

فإن قلت : أيقول أصحاب شيخكم أبي هاشم إن الذات المدومة التي لا أول لها تسمى قديمة ؟

قلت : لا ، والبحث في هذا بحث في اللفظ لا في المعنى .

والمراد بقوله عليه السلام : « الدالّ بحدوث الأشياء على قدمه » ، أى على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل ، وليس المراد بالقدم هاهنا الوجود لم يزل ، بل مجرد الذاتية لم يزل . ثم يستدلّ بعد ذلك بحدوث الأشياء على أن له صفة أخرى لم تزل زائدة على مجرد الذاتية ، وتلك الصفة هي وجوده . فقد اتّضح المراد الآن .

فإن قلت : فهل لهذا الكلام مساعٍ على مذهب البغداديين ؟ قلت : نعم ، إذا حمل على منهج التأويل بأن يريد بقوله : « وبحدوث خلقه على وجوده » ، أى على صحّة إيجاده له فيما بعد ، أى إعادته بعد العدم يوم القيامة ، لأنه إذا صحّ منه تعالى إحداثه ابتداءً صحّ منه إيجاده ثانياً على وجه الإعادة ، لأنّ الماهيّة قابلة للوجود والعدم ، والقادر قادرٌ لذاته ، فأما من روى بحدوث خلقه على وجوده ، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلّها . والمعنى على هذا ظاهر ؛ لأنه تعالى دلّ المسكّلين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم ، ومذهب أكثر المتكلمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاماً وإحساناً إليهم .

قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لا شبه له » هذا دليل صحيح ، وذلك لأنّه إذا ثبت أن جسماً ما محدث ، ثبت أن سائر الأجسام محدثة ؛ لأنّ الأجسام متماثلة ، وكلّ ما صحّ على الشيء صحّ على مثله ، وكذلك إذا ثبت أن سواداً ما أو بياضاً ما محدث ، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدثة ، لأن حكم الشيء حكم مثله ، والسواد في معنى

كونه سوادا غير مختلف ، وكذلك البياض ، فصارت الدلالة هكذا الذوات التي عندنا يشبه بعضها بعضاً ، وهي محدثة ؛ فلو كان البارى سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها ، ولكان محدثاً لأن حكم الشيء حكم مثله ، لكنه تعالى ليس بمحدث ، فليس بمشابه لشيء منها ، فقد صحّ إذاً قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لا شبه له » .
قوله عليه السلام : « الذى صدق فى ميعاده » ، لا يجوز ألا يصدق ، لأنّ الكذب قبيحٌ عقلاً ، والبارى تعالى يستحيل منه من جهة الداعى والصارف أن يفعل القبيح .

قوله عليه السلام : « وارفع عن ظلم عباده » ، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أخذوه ؛ وهو أستاذهم وشيخهم فى العدل والتوحيد ، فأما الأشعرية ، فإنها وإن كانت تمتنع عن إطلاق القول بأن الله تعالى يظلم العباد إلا أنها تعطى المعنى فى الحقيقة ، لأن الله عندهم يكلف العباد ما لا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لا يكلفهم إلا ما لا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لا يقدر على أن يكلفهم ما يطيقونه ، وذلك لأنّ القدرة عندهم مع الفعل ، فالقاعد غير قادر على القيام ، وإنما يكون قادراً على القيام عند حصول القيام ، ويستحيل عندهم أن يوصف البارى تعالى بإقدار العبد القاعد على القيام ، وهو مع ذلك مكلف له أن يقوم ، وهذا غاية ما يكون من الظلم سواء أطلقوا هذه اللفظة عليه أو لم يطلقوها .

ثم أعاد الكلام الأول فى التوحيد تأكيذاً ، فقال : حدوث الأشياء دليل على قدمه ، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته ، وكونها فانية دليل على بقاءه .

فإن قلت : أمّا الاستدلال بحدوث الأشياء على قدمه فمعلوم ، فكيف يكون الاستدلال على الأمرين الآخرين !

قلت : إذا شاركه سبحانه بعض الموجودات في كونه موجودا ، وافترقا في أن أحدهما لا يصح منه فعل الجسم ، ولا الكون ، ولا الحياة ، ولا الوجود الحادث - ويصح ذلك من الموجودات القديمة - دلّ على افتراقهما في أمرٍ لأجله صحّ من القديم ذلك ، وتعدّر ذلك على الحادث ، وذلك الأمر هو الذي يسمّى من كان عليه قادرا ، وينبى أن تحمل لفظة « العجز » هاهنا على المفهوم اللغويّ ، وهو تعدّر الإيجاد ، لا على المفهوم الكلاميّ .

وأما الاستدلال الثاني ، فينبى أن يحمل الفناء هاهنا على المفهوم اللغويّ ، وهو تغير الصفات وزوالها ، لا على المفهوم الكلاميّ ، فيصير تقدير الكلام : لما كانت الأشياء التي يبتنا تتغير وتتحوّل وتنتقل من حالٍ إلى حال ، وعلمنا أن العلة المصحّحة لذلك كونها محدثة ، علمنا أنه سبحانه لا يصحّ عليه التثقل والتغير ، لأنه ليس بمحدث .

ثم قال : « واحد لا بعدد » لأنّ وحدته ذاتية ، وليست صفة زائدة عليه ، وهذا من الأبحاث الدقيقة في علم الحكمة ، وليس هذا الكتاب موضوعا لبسط القول في أمثاله .
ثم قال : « دائم لا بآمد » ، لأنه تعالى ليس بزمانيّ ولا داخل تحت الحركة والزمان ، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهيّ ، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به ، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفَيْض المقدّس والأنوار الربانيّة .

ثم قال : « قائم لا بعمد » ، لأنه لما كان في الشاهد كلّ قائم فله عماد يعتمد عليه ، أبان عليه السلام تنزيهه تعالى عن المكان ، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنه مستقرٌّ على عرشه بهذه اللفظة . ومعنى القائم هاهنا ليس ما يسبق إلى الذهن من أنه المنتصب ؟ بل ما تفهمه من قولك : فلان قائم بتدبير البلد ، وقائم بالقسط .

ثم قال : « تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة » ، أى تتلقاه تلقياً عقلياً ، ليس كما يتلقى الجسم الجسم بمشاعره وحواسّه وجوارحه ، وذلك لأنّ تعقّل الأشياء وهو حصول صورها

فى العقل بريئة من المادة ، والمراد بتلقيه سبحانه هاهنا تلقى صفاته ، لا تلقى ذاته تعالى ، لأن ذاته تعالى لا تتصورها العقول ، وسيأتى إيضاح أن هذا مذهبه عليه السلام .

ثم قال : « وتشهد له المرائى لا بمُحاضرة » ، المرائى : جمع مرئى ، وهو الشئ المدرك بالبصر ، يقول : المرئيات تشهد بوجود البارى ، لأنه لولا وجوده لما وجدت ، ولو لم توجد لم تكن مرئيات ، وهى شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود الأبصار ، لأنها شهدت بوجود الأبصار لحضورها فيها . وأما شهادتها بوجود البارى فليست بهذه الطريق ، بل بما ذكرناه . والأولى أن يكون « المرائى » هاهنا جمع « مرآة » بفتح الميم ، من قولهم : هو حسن فى مرآة . عبنى ، يقول : إن جنس الرؤية يشهد بوجود البارى من غير محاضرة منه للحواس .

قوله عليه السلام : « لم تُحط به الأوهام » إلى قوله عليه السلام « وإليها حاكمها » ، هذا الكلام دقيق ولطيف ، والأوهام هاهنا هى العقول ، يقول : إنه سبحانه لم تحط به العقول ، أى لم تتصور كنه ذاته ، ولكنه تجلّى للعقول بالعقول ، وتجليه هاهنا هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبية لا غير ، وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته ؛ فأما غير ذلك فلا ؛ وذلك لأن البحث النظرى قد دلّ على أننا لم نعلم منه سبحانه إلا الإضافة والسلب ، أما الإضافة فكقولنا : عالم قادر ، وأما السلب فكقولنا : ليس بجسم ولا عراض ولا يرى ، فأما حقيقة الذات المقدسة المخصوصة من حيث هى ، فإن العقل لا يتصورها ، وهذا مذهب الحكماء . وبعض المتكلمين من أصحابنا ومن غيرهم .

ثم قال : « وبالعقول امتنع من العقول » ، أى وبالعقول وبالنظر ؛ علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول .

ثم قال : « وإلى العقول حاكم العقول » ، أى جعل العقول المدعية أنها أحاطت

به وأدركته كالخصم له سبحانه ، ثم حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة النظر ،
فحكمت له سبحانه على العقول المدّعية لما ليست أهلاً له .
واعلم أن القول بالحيرة في جلال ذات الباري والوقوف عند حدٍّ محدود لا يتجاوزم
العقل قولٌ مازال فضلاء العقلاء قائلين به .

[من أشعار الشارح في المناجاة]

ومن شعري الذي أسلك فيه مسلك المناجاة عند خلواتي وانقطاعي بالقلب إليه
سبحانه قولي :

والله لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمد
عليهوا ولا جبريل وهوا إلى محلّ القدس يصعد
كلّا ولا النفس البسيطة ، لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنّك واحد الذات سرمد
وجدوا إضافاتٍ وسدّ بآ والحقيقة ليس توجد
ورأوا وجوداً واجباً يفنى الزمان وليس ينفد
فلتخسأ الحكماء عن جريم له الأفلاك تسجد
من أنت يارسطو ومن أفلاطون قبلك يامبلاذ !
ومن ابن سينا حين قرّر ما بنيت له وشيّد
هل أنتم إلا القرا ش رأى الشهاب وقد توقّد
فدنا فأحرّق نفسه ولو اهتدى رُشدًا لأبعد !

ومما قلته أيضاً في قصور العقل عن معرفته سبحانه وتعالى :
 فيك يا أعجوبة الكون غداً الفكر كيلاً
 أنت حيرت ذوى اللب وبلبلت العقول
 كلّا أقدم فكري فيك شبراً فرّ ميلاً
 ناكصاً - يخبط في عمّ ياء لا يهْدَى السَّيْلاً

ولى في هذا المعنى :

فيك يا أغلوطة الفكر تاه عقلي وانقضى عمري
 سافرت فيك العقول فما رجعت إلا أذى السفر
 رجعت حسري وما وقفت لا على عين ولا أثر
 فلحى الله الألى زعموا أنك المعلوم بالنظر
 كذبوا إن الذي طلبوا خارج عن قوة البشر

وقلت أيضاً في المعنى :

أفريتُ خمسين عاماً معملاً نظري فيه ؛ فلم أدْرِ ما آتى وما أذُرُ
 مَنْ كانَ فوقَ عقول القاسين فما ذا يدرك الفكر أو ما يبلغ النظرُ

ولى أيضاً :

حبيبي أنت لا زيدٌ وعمرو وإن حيرتني وفتنت ديني
 طلبتك جاهداً خمسين عاماً فلم أحصلُ على بردِ اليقينِ

فهل بعد المات بك اتّصالٌ فأعلمُ غامض التّسرّ المصونِ !
نوى قُدُفٍ وكم قد مات قبلي بحسرتة عليك من القرون !

ومن شعري أيضاً في المعنى ، وكنت أنادى به ليلاً في مواضع مقفرة خالية من
النّاس ، بصوت رفيع ، وأجدح قلبي أيام كنت مالكا أمرى ، مطلقاً من قيود الأهل
والولد وعلائق الدنيا :

يأمدّهشَ الألبابَ والفتنَ	ومحيرَ التّقوالِ اللّسنَ
أفنتُ فيك العمرَ أنفقهُ	والمالَ مجّانا بلا ثمنَ
أتّبعُ العلماءَ أسألهُمُ	وأجولُ في الآفاقِ والمدُنِ
وأخاطبُ المللَ التي اختلفتْ	في الدّينِ حتى عابدَ الوثنِ
وظننتُ أني بالغُ غرضي	لما اجتهدت ومبرى شجني
ومطهرٌ من كلّ رجس هوى	قلبي بذاك وغاسيلٌ درني
فإذا الذي استكثرت منه هو	يجاني على عظامم الحزنِ
فضلتُ في تيهٍ بلا علمٍ	وغرقت في يَمٍّ بلا سُفنِ
ورجعت صيفراً الكفّ مكتئباً	حيرانَ ذا همٍّ وذا حزنِ
أبكي وأنكت في الثري بيدي	طوراً وأدعم تارةً ذقني
وأصيح يا مَنْ ليس يعرفه	أحدٌ مدى الأحقاب والزمنِ !
يا مَنْ له عنت الوجوه ومن	قرنت له الأعناق في قرنِ
أمنت يا جذر الأصم من	أعداد بل يافتنة الفتنِ
أن ليس تدرّكك العيون وأن	الرأى ذو أفنٍ وذو غبنِ

والكل أنت فكيف يدركه بعض وأنت السر في العن !

ومما قلته في المعنى :

ناجيته ودعوته اكشف عن عشا قلبي وعن بصرى وأنت النور
وارفع حجاباً قد سدلت ستوره دوني ، وهل دون الحب ستور !
فأجاني : صه يا ضعيف فبعض ذا قد رامه موسى فذلك الطور

أعجبني هذا المعنى ، فنقلته إلى لفظ آخر فقلت :

حبيبي أنت من دون البرايا وإن لم أحظ منك بما أريد
قنعت من الوصال بكشف حال فقل ارجع فظلي بعيد
ألم تسمع جواب سؤال موسى وليس على مكانته مزيد
تعرض للذي حاولت يوماً فذلك الصخر واضطرب الصعيد
ولى في هذا المعنى أيضاً :

قد حار في النفس جميع الورى والفكر فيها قد غدا ضائعاً
وبرهن الكل على ما دعوا وليس برهانهم قاطعاً
نمن جهل الصنعة عجزاً قبيحاً أجدره أن يجهل الصانعاً !

ولى أيضاً في الرد على الفلاسفة الذين عللوا حركة الفلك بأنه أراد استخراج الوضع

أولاً ؛ ليتشبه بالعقل المجرد في كماله ، وأن كل ماله بالقوة فهو خارج إلى الفعل :

تحير أرباب النهى وتعجبوا من الفلك الأقصى لماذا تحركا
فقل بطبع كالثقل إذا هوى وقيل اختياراً والحق شكا
فرد حديث الطبع إذ كان دائراً وليس على سمت قويم فيسلكا

وقيل لمن قال اختياراً فما الذي دعاه إلى أن دار ركضاً فأوشكاً
فقالوا الوضع حادثٌ يستجدّه يعاقب منه مطلباً ثم متركاً
فقيل لهم: هذا الجنون بعينه ولو رامه منا امرؤ كان أعفكاً^(١)
ولو أن إنساناً غدا ليس قصده سوى الوضع واستخراجه عدّ مضحكاً

ولى أيضاً في الردّ على من زعم أن النبي صلى الله عليه وآله رأى الله سبحانه بالعين، وهو الذي أنكرته عائشة، والعجب لقوم من أرباب النظر جهلوا ما أدركته امرأة من نساء العرب:

عجبتُ لقوم يزعمون نبّيتُهم رأى ربّه بالعين، تبّاً لهم تبّاً !
وهل تُدرك الأبصار غير مكيفٍ وكيف تبّيحُ العين ما يمنع القلبُ !
إذا كان طرف القلب عن كنهه نبأ حسيراً، فطرف العين عن كنهه أنبي !

والمقطّعات التي نظمها في إجلال الباري سبحانه عن أن تحيط به العقول كثيرة، موجودة في كتبي ومصنّفاي، فلتأمل من مظانّها، وغرضنا بإيراد بعضها أن لها هنا تشييداً لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام على في هذا الباب.

قوله عليه السلام: « ليس بذى كبرٍ » إلى قوله « وعظمُ سلطانا »، معناه أنه تعالى يطلق عليه من أسمائه الكبير والعظيم، وقد ورد بهما القرآن العزيز، وليس المراد بهما ما يستعمله الجمهور من قولهم: هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم، بل المراد عظم شأنه وجلالة سلطانه.

والفكج: النّصرة، وأصله سكون العين، وإتما حرّكه ليوازن بين الألفاظ، وذلك

(١) الأعفك: الذي لا يحسن العمل.

لأن الماضي ، منه فَلَج الرجلُ على خَصمه بالفتح ، ومصدره الفَلَج بالسكون ، فأما من روى :
« وظهور الفُلَج » بضمين فقد سقط عنه التأويل ، لأن الاسم من هذا اللفظ : « الفُلَج »
بضم أول الكلمة ، فإذا استعملها الكاتب أو الخطيب جاز له ضمّ الحرف الثاني .
وصادعاً بهما : مظاهراً مجاهداً ، وأصله الشق .

والأمراس : الحبال ، والواحد مَرَس ؛ بفتح الميم والراء .

الأضل :

منها في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان :

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ ، وَخَافُوا
عَذَابَ الْحَرِيقِ ، وَلَسَكِنَ الْقُلُوبُ عَدِيلَةً ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةً . أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ
مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ ، وَأَتَقَنَ تَرَكِيمَهُ ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ ، وَسَوَّى لَهُ
الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ !

أَنْظُرُوا إِلَى النَّمَلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا ، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا ، لَا تَسْكَدُ تَنَالُ بِلِحْظِ الْبَصَرِ ،
وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ ؛ كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا ، وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا ، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى
جُحْرِهَا ، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا ، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا ، وَفِي وَرْدِهَا لِصَدْرِهَا ؛
مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا ، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا ؛ لَا يُفْلِحُ الْمَنَانُ ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ ، وَلَوْ
فِي الصَّفَا أَلْيَاسٍ ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ !

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي تَجَارِي أَسْكَالِهَا ، وَفِي عُلوِّهَا وَسُفْلِهَا ، وَمَا فِي الْجُوفِ مِنْ
شَرَّاسِيفٍ بَطْنِهَا ، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا ، لَقَضَّيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا ، وَلَقِيتَ
مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا !

فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا ؛ وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا ! لَمْ يَشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا
فَاطِرٌ ، وَلَمْ يُعِنِّهِ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ .
وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لَتَبْلُغَ غَايَاتِهِ ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ
فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ ؛ لِذَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ
كُلِّ حَيٍّ .

وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ
إِلَّا سَوَاءٌ .

وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ . فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَالنَّبَاتِ
وَالشَّجَرِ ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ ، وَكَثْرَةِ
هَذِهِ الْجِبَالِ ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ ، وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ ، وَالْأَلْسِنِ الْمُخْتَلِفَاتِ .
فَلَوْ بَلَغَ لِمَنْ أَنْكَرَ الْقُدْرَةَ ، وَجَحَدَ الْمَدِيرَ !

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ ؛ وَلَمْ يَلْجَأُوا
إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا دَعَوْا ، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ ، أَوْ
جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ !

الشرح :

مدخولة : معيبة . وفلق : شقَّ وخلق . والبشر : ظاهر الجلد .
قوله عليه السلام : « وضبت على رزقها » ، قيل : هو على العكس ، أى وصبت
رزقها عليها ، والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا ، والمراد : كيف هممت حتى انصبت
على رزقها انصباباً ؛ أى انحطت عليه . ويروى : « وضنت على رزقها » بالضاد المعجمة
والنون ، أى بخلت . وجحرها : بيتها .

قوله عليه السلام : « وَفِي وَرْدِهَا لَصَدْرُهَا » ، أى تجمع فى أيام التمكن من الحركة
لأيام العجز عنها ، وذلك لأن النمل يظهر صيفاً وينحفي فى شدة الشتاء لعجزه عن
ملاقاة البرد .

قوله عليه السلام : « رَزَقُهَا وَفَقَهَا ^(١) » أى بقدر كفايتها ، ويروى « مكفول
برزقها مرزوقة بوقفها » .

والمثلن ؛ من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية ، أى هو كثير المنّ والإنعام
على عباده .

والديان : المجازى للعباد على أفعالهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ ^(٢) أى مجزيون .
والحجر الجامس : الجامد . والشراسيف : أطراف الأضلاع المشرفة على البطن .

[فصل فى ذكر أحوال الذرة وعجائب النملة]

واعلم أن شيخنا أبا عثمان قد أورد فى كتاب " الحيوان " ، فى باب النملة والذرة
- وهى الصغيرة جداً - من النمل - كلاماً يصاح أن يكون كلام أمير المؤمنين عليه السلام
أصله ، ولكن أبا عثمان قد فرّع عليه .

قال : الذرة تدخرف فى الصيف للشتاء ، وتتقدم فى حال المهلة ، ولا تضع أوقات
إمكان الحزم ، ثم يبلغ من تنقدها وصحة تمييزها ^(٣) ، والنظر فى عواقب أمورها ^(٤) ؛
أنها تخاف على الحبوب التى ادخرتها للشتاء [فى الصيف] ^(٥) ، أن تعفن وتسوس فى

(١) كذا فى ١ ، ب ؛ وما يورد فى أصل التهج يوافق ما فى الرواية التالية .

(٢) سورة الصافات ٥٣ ..

(٣) الحيوان : « أمرها » .

(٤) وحسن خبرها » .

(٥) من الحيوان .

بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتنتثرها^(١) وتعيد إليها جنوفها ، ويمر بها النسيم فينفي عنها اللّخن والفساد .

ثم ربما - بل في الأكثر - تختار ذلك العمل ليلاً ، لأن ذلك أخفى ، وفي القمر لأنها فيه أبصر ، فإن كان مكانها ندياً وخافت أن تنبت الحبة نقرت موضع القطمير^(٢) من وسطها ؛ لعلها أنها من ذلك الموضع تنبت ، وربما فلقت الحبة نصفين . فأما إن كان الحب من حب الكزبرة فإنها تغلقه أرباعاً ، لأن أنصاف حب الكزبرة تنبت من بين جميع الحبوب ، فهي من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوانات ، حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس ، ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها في الشم والاسترواح ما ليس لشيء ، وربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد ، فيسقط من يده الواحدة أو صدر واحدة ، وليس بقربه ذرة ولا له عهد بالذرّ في ذلك المنزل ، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجراد ، فترومها وتحاول نقلها وجرحها إلى جحرها ، فإذا أجزتها بعد أن تبلى عذراً مضت إلى جحرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يجدها قد أقبلت وخلفها كالخيط الأسود الممدود ، حتى يتعاون عاينها فيحملها . فاعجب من صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع ! ثم انظر إلى بُعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة ، وأكثر من مائة مرة ، بل أضعاف أضعاف المائة ، وليس شيء من الحيوان يحمل ما يكون أضعاف وزنه مزاراً كثيرة غيرها .

فإن قال قائل^(٣) : فمن أين علمتم أنّ التي حاولت نقل الجراد فعبزت هي التي أخبرت صواحبها من الذرّ ، وأنها التي كانت على مقدّمتهن ؟
قيل له : لطول التجربة ، ولأنّا لم نر قط ذرة حاولت جرد جراد فعبزة عنها ، ثم

(١) الحيوان : « لتيسها » .

(٢) القطمير : شق النواة .

(٣) الحيوان : « فإن قلت » .

رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك ، وإن كنا لا نفصل في سرأى العين بينها وبين أخواتها ، فإنه ليس يقع في القلب غير الذى قلنا ، فدلنا ذلك على أنها في رُجوعها عن الجرادة أنها إنما كانت لأشباها كالرائد الذى لا يكذب أهله .

قال أبو عثمان : ولا يُنكر قولنا : إن الذرة توحى إلى أخواتها بما أشرنا إليه إلا من يكذب القرآن ، فإنه تعالى قال في قصة سليمان : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فتنبسم ضاحكاً من قولها ^(١) ، فهل بعد هذا ريب أو شك في أن لها قولا وبياناً وتمييزاً !

فإن قلت : فاعلمها مكلفة ، ومأمورة ومنهية ، ومطبعة وعاصية !

قيل : هذا سؤال جاهل ، وذلك أنه لا يلزم أن يكون كل ذى حسٍّ ، وتمييز مكلفاً مأموراً منهياً ، مطيعاً عاصياً ، لأن الإنسان غير البالغ الحلم قد يحفظ القرآن وكثيراً من الآثار ، وضروباً من الأخبار ، ويشتري ويبيع ، ويخدع الرجال ويستخر بالملعين ، وهو غير مكلف ولا مأمور ، لا منهى ولا عاص ولا مطيع ، فلا يلزم مما قلناه في الذرة أن تكون مكلفة ^(٢) .

قال أبو عثمان : ومن عجيب ما سمعته من أمر النملة ، ما حدثني به بعض المهندسين عن رجل معروف بصناعة الإسطرلابات ^(٣) ، أنه أخرج طوقاً من صُفْر - أو قال من حديد - من الكير ، وقد أحماه ، فرمى به على الأرض ليبرد ، فاشتعل الطوق على نملة ، فأرادت أن تنفر بمنة فلقها وهيج النار ، فأخذت يسرة فلقها وهيج النار ، فمضت قدما فكذلك ، فرجعت إلى خلفها فكذلك ، فرجعت إلى وسط الدائرة ، فوجدها قد ماتت في موضع رجل البركار ^(٤) من الدائرة ، وهذا من العجائب .

قال أبو عثمان : وحدثني أبو عبيد الله الأفوه ، وما كنت أقدم عليه في زمانه من مشايخ

(١) سورة النمل ١٨ ، ١٩ . (٢) الحيوان ٤ : ٥ وما بعدها .

(٣) الإسطرلابات : جمع إسطرلاب ، وهى آلة يعرف بها الوقت ، انظر شفاء الغليل للخفاجى : ٥١ .

(٤) البركار : اسم لآلة معروفة . قال صاحب شفاء الغليل : هو معرب « فرجار » . وقال : إنه لم يرد في شعر قديم .

المعتزلة إلا القليل ، قال : قد كنت ألقى من الذرّ والنمل في الرطب يكون عندي وفي الطعام عنتا كثيرا ، وذلك لأنني كنت لا أستقدر الثقل ولا الذرة ، ثم وجدت الواحدة منهما إذا وقعت في قارورة بان أو زئبق أو خيرى ، فسد ذلك الدهن وزنخ ، فقذرتها ونفرت منها ، وقلت : أنخلق بطبيعتها أن تكون فالدّة خبيثة ، وكنت أرى لها عتقا منكرا ، فأقول : إنها من ذوات السموم ، ولو أن بدن الثملة زيد في أجزائه حتى يلحق بيدن العقرب ، ثم عضت إنسانا لكانت عضتها أضرّ عليه من لسعة العقرب .

قال : فاتخذت عند ذلك للطعام منقلة وقيرتها ، وصليت في خندقها الماء ، ووضعت سلة الطعام على رأسها ، فغيرت ألياما أ كشف رأس السلة بعد ذلك ، وفيها ذرّ كثير ، ووجدت الماء في الخندق على حالة ، فقلت : عسى أن يكون بعض الصبيان أنزلها ، وأكل مما فيها ، وطال مكثها في الأرض ، وقد دناها الذرّ ثم أعيدت على تلك الحال ، وتكلمت في ذلك وتعرفت الحال فيه ، فعرفت البراءة في عذرهم ، والصدق في خبرهم ، فاشتد تعجبي ، وذهبت إلى الظنون والخواطر كل مذهب ، ففكرت على أن أرصدها وأحرسها ، وأثبتت في أمرى ، وأتت شأني ، فإذا هي بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانبها ، وصعدت في الحائط ، ثم مرت على حنّ السقف ، فلما صارت محاذية للسلة أرسلت نفسها فقلت في نفسي : انظر كيف اهتدت إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة !

ثم قلت : وما عليها أن تبقى محصورة ؟ بل أي حصار على ذرة وقد وجدت ما تشتهي .

قال أبو عثمان : ومن أعاجيب الذرة أنها لا تعرض لجعل ولا لجرادة ولا لنفساء ولا لبلنت وردان ، ما لم يكن بها جبل أو عقر أو قطع رجل أو يد ، فإن وجدت بها من ذلك أدنى علة ، وثبت عليها ، حتى لو أن حية بها ضربة أو خرقة أو خدش ، ثم كانت من

ثعابين مضر ، لوثب عليها الذرّ حتى يأكلها ، ولا تكاد الحية تسلم من الذرّ إذا كان بها أدنى عقر .

قال أبو عثمان : وقد عذب الله بالذرّ والنمل أمما وأما ، وأخرج أهل قرى من قراهم ، وأهل دروب من دروبهم .

وحدثني بعض من أصدق خبره ، قال : سألت رجلاً كان ينزل ببغداد في بعض الدروب التي في ناحية باب الكوفة التي جلا أهلها عنها ، لغلبة النمل والذرّ عليها ، فسأله عن ذلك ، فقال : وما تصنع بالحديث ! امض معي إلى دارى التي أخرجني منها النمل .

قال ، فدخلتها معه فبعث غلامه ، فاشترى رؤوساً من الراسين ليتغذى بها ، فانتقلنا هرباً من النمل في أكثر من عشرين مكاناً ، ثم دعا بطست ضخمة ، وصب فيها ماء صالحاً ، ثم فرق عظام الرؤوس في الدار ، ومعه غلامانه ، فكان كلما اسود منها عظم لكثرة النمل واجتماعه عليه — وذلك في أسرع الأوقات — أخذ الغلام فقرغه في الطست بعود ينثر به ماعليه في جوف الطست ، فما لبثنا مقدار ساعة من النهار حتى فاضت الطست نملاً ، فقال : كم تظن أنى فعلت مثل هذا قبل الجلاء طمعا في أن أقطع أصلها ! فلما رأيت عددها إماماً زائداً ، وإماماً ثابتاً ، وجاءنا مالا يصبر عليه أحد ، ولا يمكن معه مقام ، خرجت عنها .

قال أبو عثمان : وعذب عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي بأنواع العذاب ، فقيل له : إن أردت ألا يفلح أبداً فمرهم فلينفخوا في دبره النمل ، ففعلوا فلم يفلح بعدها^(١) .

(١) الحيوان ٤ : ٣٣ .

قال أبو عثمان : ومن الحيوان أجناسٌ يشبه الإنسان في العقل والروية والنظر في العواقب والفكر في الأمور ، مثل النمل ، والذرة ، والفأر ، والجِرَذان ، والعنكبوت ، والنحل ، إلا أن النحل لا يتدخّر من الطّعم إلا جنسا واحدا وهو العسل ^(١) .

قال : وزعم البقّطري أنك لو أدخلت نَمْلَةً في جُحْر ذَرٍّ لأكلتها حتى تأتي على عامتها ، وذكر أنه قد جرّب ذلك .

قال : وزعم صاحب المنطق أن الضمّع تأكل النمل أكلا ذريعا ، لأنها تأتي قرية النمل وقت اجتماع النمل على باب القرية ، فتلحس ذلك النمل كله بلسانها ، بشهوة شديدة وإرادة قوية .

قال : وربما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم ، وأكلت كلّ شيء لهم ، فلا تزال كذلك حتى ينشأ في تلك القرى النمل ، فيسلط الله عزّ وجلّ ذلك النمل على تلك الأرضة ، حتى تأتي على آخرها ، على أن النمل بعد ذلك سيكون له أذى ، إلا أنه دون أذى الأرضة بعيدا ، وما أكثر ما يذهب النمل أيضا من تلك القرى ، حتى يتمّ لأهلها السلامة من النوعين جميعا .

قال : وقد زعم بعضهم أن تلك الأرضة بأعيانها تستحيل نملا ، وليس فناؤها لأكل النمل لها ، ولكن الأرضة نفسها تستحيل نملا ، فعلى قدر ما يستحيل منها يرى الناس النقصان في عددها ومضرّتها على الأيام ^(٢) .

قال أبو عثمان : وكان ثَمَامَة يرى أن الذرّ صغار النمل ، ونحن نراه نوعا آخر كالبقّر والجواميس .

قال : ومن أسباب هلاك النمل نبات أجنحته ، وقال الشاعر :

وإذا استوت للنمل أجنحةٌ حتى يطيرَ فقد دنا عَطْبُهُ

(٢) الحيوان ٤ : ٣٤ ، ٣٥ .

(١) الحيوان ٤ : ٣٤ .

وكان في كتاب عبد الحميد إلى أبي مسلم : لو أراد الله بالتملة صلاحاً ، لما أنبت لها جناحاً ،
فيقال : إن أبا مسلم لما قرأ هذا الكلام في أول الكتاب لم يتمّ قراءته وألقاه في النار ،
وقال : أخاف إن قرأته أن ينخب قلبي .

قال أبو عثمان : ويُقتل النمل بأن يصبّ في أفواه بيوتها القطران والكثيريت الأصفر ،
وأن يدسّ في أفواهها الشعر ، على أنّا قد جرّبنا ذلك فوجدناه باطلاً .

فأما الحكماء ، فإنهم لا يثبتون للنمل شراسيف ولا أضلاعاً ، ويجب إن صحّ
قولهم أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على اعتقاد الجمهور ومخاطبة العرب بما تتخيّله .
وتتوهمه حقاً ، وكذلك لا يثبت الحكماء للنمل آذاناً بارزة عن سطوح رؤوسها ،
ويجب إن صحّ ذلك أن نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على قوّة الإحساس
بالأصوات ، فإنه لا يمكن الحكماء إنكار وجود هذه القوّة للنمل ، ولهذا إذا صيح
عليهنّ هربن .

ويذكر الحكماء من عجائب النمل أشياء ، منها أنّه لا جلد له ، وكذلك كلّ
الحيوان المخرّز .

ومنها أنه لا يوجد في صِقلية نمل كبار أصلاً .

ومنها أن النمل بعضه ماشٍ وبعضه طائر .

ومنها أن حراقة النمل إذا أضيف إليها شيء من قشور البيض وريش هدهد وعلقت .
على العضد منعت من النوم .

قوله عليه السلام : « ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته » ، أي غايات
فكرك ، وضربت بمعنى سرت ، والمذاهب : الطرق . قال تعالى : « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

الْأَرْضِ» ^(١) وهذا الكلام استعارة .

قال : لو أمعنت النظر لعلمت أن خالق النملة الحفيرة هو خالق النخلة الطويلة لأن كل شيء من الأشياء تفصيل جسمه وهيئته تفصيل دقيق ، واختلاف تلك الأجسام في أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلاف غامض السبب ، فلا بد لكل من مدبر يحكم بذلك الاختلاف ويفعله ، على حسب ما يعلمه من المصلحة .
ثم قال : وما الجليل والدقيق في خلقه إلا سواء ! لأنه تعالى قادر لذاته ، لا يعجزه شيء من الممكنات .

ثم قال : « فانظر إلى الشمس والقمر » إلى قوله : « والألسن المختلفة » ، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع . والطرق إليه أربعة :
أحدها الاستدلال بحدوث الأجسام .
والثاني الاستدلال بإمكان الأعراض والأجسام .
والثالث الاستدلال بحدوث الأعراض .
والرابع الاستدلال بإمكان الأعراض .

وبصورة الاستدلال هو أن كل جسم يقبل للجسمية المشتركة بينه وبين سائر الأجسام . بما يقبله غيره من الأجسام ، فإذا اختلفت الأجسام في الأعراض فلا بد من مخصص خصص لهذا الجسم بهذا العرض دون أن يكون هذا العرض لجسم آخر ، ويكون لهذا الجسم عرض غير هذا العرض ، لأن الممكنات لا بد لها من مرجح يرجح أحد طرفيها على الآخر ، فهذا هو معنى قوله : « فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه الليل » ، وتنفرد هذه اللغات ، والألسن المختلفة » ، أي أنه يمكن أن تكون هيئة

الشمس وضوءها ومقدارها حاصلًا لجرم القمر ، ويمكن أن يكون النبات الذي لاساق له شجرا ، والشجر ذو الساق نباتا ، ويمكن أن يكون الماء صُلْبًا والحجر مائعا ، ويمكن أن يكون زمان الليل مضيئا وزمان النهار مظلما ، ويمكن ألا تكون هذه البحار متفجرة بل تكون جبلا ، ويمكن ألا تكون هذه الجبال الكبيرة كبيرة ، ويمكن ألا تكون هذه القلال طويلة . وكذلك القول في اللغات واختلافها . وإذا كان كل هذا ممكنا فاختصاصُ الجسم الخاص بالصفات والأعراض والصّور المخصوصة لا يمكن أن يكون لمجرد الجسميّة لتماثل الأجسام فيها ، فلا بدّ من أمرٍ زائد ، وذلك الأمر الزائد هو المعنى بقولنا : صانع العالم .

ثم سقّه آراء المعطلّة ، وقال : « إنهم لم يعتصموا بحجّة ، ولم يحققوا ما وعوه » أى لم يرتّبوا العلوم الضروريّة ترتيباً صحيحاً يفضى بهم إلى النتيجة التي هي حقّ . ثم أخذ في الردّ عليهم من طريق أخرى ، وهي دعوى الضرورة ، وقد اعتمد عليها كثير من المتكلمين ، فقال : نعلم ضرورة أنّ البناء لا بدّ له من بانٍ .

ثم قال : « والجنابة لا بدّ لها من جانٍ » ، وهذه كلمة ساقته إليها القرينة ، والمراد عموم الفعلية لا خصوص الجنابة ، أى مستحيل أن يكون الفعل من غير فاعل ، والذين ادّعوا الضرورة في هذه المسألة من المتكلمين استغنوا عن الطارق الأربع التي ذكرناها ، وأمير المؤمنين عليه السلام اعتمد أولاً على طريق واحدة ، ثم جنح ثانياً إلى دعوى الضرورة ، وكلا الطريقين صحيح .

الأصل :

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ إِذْ خُلِقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ ؛ وَأُسْرَجَ لَهَا
(٥ - نهج - ١٣)

حَدَقَتَيْنِ قَمَرَاوَيْنِ ؛ وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَهَا
الْحَسَّ الْقَوِيَّ ؛ وَنَابَتَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ ، وَمِنْجَلَتَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي
زَرْعِهِمْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا ،
وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا ؛ وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَا يُكُونُ إِصْبَعًا مُسْتَدْرِقَةً .

فَتَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَيُعْفِرُ لَهُ
خَطَا وَوَجْهًا ؛ وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْمًا وَضَعْفًا ، وَيُمِطِي الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا ؛
فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ ، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفْسِ ، وَأَرَسَى قَوَائِمَهَا عَلَى
الَّذَى وَالْيَسِيسِ ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَامَهَا ، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا ؛ فَهَذَا غُرَابٌ ، وَهَذَا عُقَابٌ ؛
وَهَذَا حَمَامٌ ، وَهَذَا نَعَامٌ ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ .

وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثَّقَالَ فَاهْطَلَ دِيَمُهَا ، وَعَدَدَ قِسَمَهَا ، فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا ،
وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا .

السنخ :

قوله : « وَأُسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ » أى جعلهما مضيئتين كما يضيء السراج ، ويقال :
حدقة قراء أى منيرة ، كما يقال : ليلة قراء أى نيرة بضوء القمر .

و « بِهِمَا تَقْرِضُ » أى تقطع ، والراء مكسورة .
والمِنْجَلان : رجلاها ؛ شَبَّهَهما بالمناجل لعوجهما وخشونتهما .
وَيَرْهَبُهَا : يخافها . ونَزَوَاتِهَا : وثباتها . والجذب : الحل .

[ذكر غرائب الجراد وما احتوت عليه من صنوف الصنعة]

قال شيخنا أبو عثمان في كتاب " الحيوان " : من عجائب الجراد التماسها لبيضها لوضع الصلْد ، والصخور الملس ، ثقةً منها أنها إذا ضربت بأذنانها فيها ، انفرجت لها ، معلوم أن ذنب الجراد ليس في خلقة المذشار^(١) ولا طرف ذنبه كحدّ السنان ، ولا لها من قوّة الأسر ، ولا لذنبها من الصلابة ما إذا اعتمدت به على الكدّية^(٢) خرج^(٣) منها ، كيف وهي تتعدى إلى ما هو أصْلَبُ من ذلك ، وليس في طرفها كِبَرة العقرب . وعلى أنّ العقرب ليس تحرقُ القمقم^(٤) ، من جهد الأيد وقوّة البدن ، بل إنما نفرج لها بطبع يجعل هناك ، وكذلك انفراج الصّخور لأذنان الجراد .

ولو أنّ عقاباً أرادت أن تحرق جلد الجاموس لما انخرق لها إلا بالتكلف الشديد ، العقاب هي التي تنكدر^(٥) على الذئب [الأطلس]^(٦) ؛ فتقدّ بدابرتها ما بين صلاةً إلى موضع الكاهل^(٧) .

فإذا غرّزت^(٨) الجراد ، وألقت بيضها ، وانضمت عليها تلك الأخاديد التي هي حدثها ، وصارت كالأفاحيص لها صارت حاضنةً لها ومربيةً ، وحافظة وصائنة وواقية ، حتى إذا جاء وقت دبيب الرّوح فيها حدث تحجب آخر ، وذلك لأنه يخرج من بيضه

(١) في الحيوان : « المسمار » .

(٢) الكدّية : الصفاة العظيمة . وفي الحيوان : « الكدّية والكذانة » ، واحدة الكذان ؛ وهي جارة كأنها المدر فيها رخاوة .

(٣) في الحيوان : « جرح » . (٤) القمقم : ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره ، ويكون ضيق الرأس

(٥) تنكدر : تنقش . (٦) من الحيوان .

(٧) تقدّ : تقطع . والدابرة : الإصبع التي من وراء رجلها . والصلّا بالفتح : وسط الظهر .

(٨) غرّزت الجراد : أثبتت ذنبها في الأرض لتبيض . الكاهل : مقدم أعلى الظهر .

أَصْهَبَ إِلَى الْبَيَاضِ ، ثُمَّ يَصْفَرُّ وَتَتَلَوْنَ فِيهِ خُطُوطٌ إِلَى السَّوَادِ ، ثُمَّ يَصِيرُ فِيهِ خُطُوطٌ
سَوْدٌ وَبَيَاضٌ ، ثُمَّ يَبْدُو حَبَّ جَنَاحِهِ ، ثُمَّ يَسْتَقِلُّ فَيَمُوجُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ^(١) .

قال أبو عثمان ، وَيَزْعَمُ قَوْمٌ أَنَّ الْجَرَادَ ^(٢) قَدْ يَرِيدُ الْخَضِرَةَ وَدُونَهُ النَّهْرَ الْجَارِي ،
فَيَصِيرُ بَعْضُهُ جَسْرًا لِبَعْضٍ حَتَّى يَعْبرَ إِلَى الْخَضِرَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ حِيلَةٌ مِنْهَا .

وليس كما زعموا ، وَلَكِنْ الزَّحْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الدُّبَا يَرِيدُ الْخَضِرَةَ فَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا
بِالْعُبُورِ إِلَيْهَا ، فَإِذَا صَارَتْ تِلْكَ الْقِطْعَةُ فَوْقَ الْمَاءِ طَافِيَةً صَارَتْ لِعَمْرَى أَرْضًا لِلزَّحْفِ
الثَّانِي الَّذِي يَرِيدُ الْخَضِرَةَ ، فَإِنْ سَمَّوْا ذَلِكَ جَسْرًا اسْتِقَامَ ، فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الزَّحْفُ الْأَوَّلُ
مَهْدًا لِلثَّانِي وَمَكِّنًا لَهُ وَآثَرَهُ [بِالْكَفَايَةِ] ^(٣) فَهَذَا مَا لَا يَعْرِفُ ، وَلَوْ أَنَّ الزَّحْفَيْنِ جَمِيعًا
أَشْرَفَا عَلَى النَّهْرِ ، وَأَمْسَكَ أَحَدُهُمَا عَنْ تَكْلِيفِ الْعُبُورِ حَتَّى يَمُودَ لَهُ الْآخَرُ لَكَانَ لِمَا
قَالُوهُ وَجْهٌ ^(٤) .

قال أبو عثمان : وَلَعَابُ الْجَرَادِ سَمٌّ عَلَى الْأَشْجَارِ لَا يَقَعُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَحْرَقَهُ .
فَأَمَّا الْحِكْمَاءُ فَيَذْكُرُونَ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ أَرْجَلَ الْجَرَادِ تَقْلَعُ النَّائِلَ ، وَأَنَّهُ [إِذَا]
أَخَذَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ جَرَادَةً وَنَزَعَتْ رِءُوسَهَا وَأَطْرَافَهَا ، وَجَعَلَ مَعَهَا قَلِيلٌ آسٍ يَابَسَ ،
وَشَرِبَتْ لِلْإِسْتِسْقَاءِ كَمَا هِيَ ، نَفَعَتْ نَفْعًا بَيْنَنَا ؛ وَأَنَّ التَّبَخُّرَ بِالْجَرَادِ يَنْفَعُ مِنْ عَسْرِ الْبُولِ ،
وخاصَّةً فِي النِّسَاءِ ، وَأَنَّ أَكْلَهُ يَنْفَعُ مِنْ تَقْطِيرِهِ ، وَقَدْ يَبْخَرُ بِهِ لِلْبُؤْسِ ، وَيَنْفَعُ أَكْلَهُ
مِنْ لَسْعَةِ الْعَقْرَبِ .

ويقال : إِنْ الْجَرَادُ الطَّوَالَ إِذَا عُلِقَ عَلَى مَنْ بِهِ حُمَّى الرَّبْعِ نَفَعَهُ .

(١) فِي الْخَيَوانِ : « الدُّبَا » .

(٤) الْخَيَوانِ ٥ : ٥٦٢ .

(١) الْخَيَوانِ ٥ : ٥٤٩ ، ٥٥٥ .

(٣) مِنَ الْخَيَوانِ .

(٢٣٢)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام : في التوحيد ، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا يجمعه خطبة غيرها :

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيْفَهُ ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَلُهُ ، وَلَا إِيَّاهُ عَنِ مَنْ شَبَّهَهُ ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ . كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ .

فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ ، مُقَدَّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ ؛ غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ ؛ لَا تَصَحُّبُهُ الْأَوْقَاتُ ؛ وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ ، وَالْأَبْتَدَاءَ أَوَّلُهُ .

الشرح :

هذا الفصل يشتمل على مباحث متعددة :

أولها قوله : « مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيْفَهُ » ، وهذا حقٌّ لأنه إذا جعله مكيفاً جعله ذا هيئة وشكل ، أو ذالون وضوء ، إلى غيرهما من أقسام الكيف ، ومتى كان كذلك كان جسماً ولم يكن واحداً ، لأنَّ كلَّ جسم قابل للانقسام ، والواحد حقاً لا يقبل الانقسام ، فقد ثبت أنه ما وحده مَنْ كَيْفَهُ .

وثانيها قوله : « وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَلُهُ » وهذا حقٌّ ، لأنه تعالى لا مثل له ، وقد دلت الأدلة الكلامية والحكمية على ذلك ، فمن أثبت له مثلاً ، فإنه لم يصب

حقيقته تعالى ، والسَّجَّة الأخرى تعطى هذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه ، وهى قوله عليه السلام : « ولا إِبَّاهَ عَنى مَنْ شَبَّهه » ولهذا قال شيوخنا : إِنَّ المشَبَّه لا يعرف الله ، ولا تتوجَّه عباداته وصلواته إلى الله تعالى ؛ لأنَّه يعبد شيئاً يعتقده جسماً ، أو يعتقده مشابهاً لبعض هذه الذوات المحدثة ، والعبادة تنصرف إلى للعبود بالقصد ، فإذا قُصِدَ بها غيرُ الله تعالى لم يكن قد عبدَ الله سبحانه ولا عرفه ، وإِنَّمَا يتخيَّل ويتوهم أنه قد عرفه وعبدَه ، وليس الأمر كما تخيَّل وتوهم .

وثالثها قوله عليه السلام : « ولا صَمَدَه مَنْ أشار إليه » أى أثبتَه فى جهة ، كما تقول الكَرَامِيَّة . الصَّمَد فى اللغة العربيَّة : السَّيِّد . والصَّمَد أيضاً الذى لا جوف له ، وصار التَّصْمِيد فى الاصطلاح العرفى عبارة عن التنزيه ، والذى قال عليه السلام حقّ ، لأنَّ مَنْ أشار إليه - أى أثبتَه فى جهة كما تقوله الكَرَامِيَّة - فإنه ماصمَدَه ، لأنَّه ما نزَّهه عن الجهات ، بل حكم عليه بما هو من خواصِّ الأجسام ، وكذلك مَنْ توهمه سبحانه ، أى مَنْ تخيَّل له فى نفسه صورة أو هيئة أو شكلاً ، فإنه لم ينزَّهه عمّا يجب تنزيهه عنه .

ورابعها قوله : « كلّ معروف بنفسه مصنوع » ، هذا الكلام يجب أن يتأوَّل ، ويحمل على أن كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع ، وذلك لأنَّ البارى سبحانه معروف من طريقين : إحداهما من أفعاله ، والأخرى بنفسه ؛ وهى طريقة الحكماء الذين بحثُوا فى الوجود من حيث هو وجود ، فعلموا أنَّه لا بدّ من موجودٍ واجب الوجود ، فلم يستدلُّوا عليه بأفعاله ، بل أخرج لهم البحث فى الوجود أنه لا بدّ من ذات يستحيل عدمها من حيث هى .

فإن قلت : كيف يحمل كلامه على أن كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع وهذا يدخل فيه كثير من الأعراض كالألوان ؟ وإذا دخل ذلك فسدت عليه الفقرة الثانية ،

هى قوله عليه السلام : « وكلّ قائم فيما سواه معلول » لأنها للأعراض خاصّة ، فيدخل حد مدلول الفقرتين فى الأخرى ، فيختلّ النظم !

قلت : يريد عليه السلام بالفقرة الأولى كلّ معروف بنفسه من طريق المشاهدة ستقلا بذاته ، غير مفتقر فى تقوّمه إلى غيره فهو مصنوع ، وهذا يختصّ بالأجسام باصّة ، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه ، لأنها متقوّمة بمحالتها .

وخامسها قوله : « وكلّ قائم فى سواه معلول » ، أى وكلّ شيء يتقوّم بغيره فهو ملول ، وهذا حقّ لا محالة ، كالأعراض ؛ لأنها لو كانت واجبة لا ستغنت فى تقومها عن واهها ، لكنّها مفتقرة إلى المحلّ الذى يتقوّم به ذواتها ؛ فإذا هى معلولة ، لأنّ كل فتقر إلى الغير فهو ممكن فلا بدّ له من مؤثر .

وسادسها قوله : « فاعل لا باضطراب آلة » هذا لبيان الفرق بينه وبيننا ، فإنّنا هل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة .

وسابعها قوله : « مقدّر لا بجوّل فكرة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه ، لأنّا إذا ررنا أجلّنا أفكارنا ، وتردّدت بنا الدواعى ، وهو سبحانه يقدر الأشياء على للاف ذلك .

وثامنها قوله : « غنى لا باستفادة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه ، لأنّ الغنى منّا نّ يستفيد الغنى بسبب خارجى ، وهو سبحانه غنى بذاته من غير استفادة أمر يصير به نيا ، والمراد بكونه غنياً أن كل شيء من الأشياء يحتاج إليه ، وأنّه سبحانه لا يحتاج إلى شيء من الأشياء أصلا .

وتاسعها قوله : « لاتصحبه الأوقات » ، هذا بحث شريف جداً ، وذلك لأنه سبحانه س بزمان ولا قابل للحركة ، فذاته فوق الزمان والدهر ؛ أمّا المتكلمون فإنهم يقولون :

إنَّه تعالى كان ولا زمان ولا وقت ، وأما الحكماء فيقولون : إن الزمان عَرَض قائم بعَرَض .
آخر ، وذلك العَرَض الآخر قائم بجسم معلول لبعض المعلولات الصادرة عنه سبحانه ،
فالزمان عندهم - وإن كان لم يزل - إلاَّ أنَّ العلة الأولى ليست واقعة تحته ، وذلك هو
المراد بقوله : « لا تصحبه الأوقات » إن فسّرناه على قولهم ، وتفسيره على قول
المتكلمين أولى .

وعاشرها قوله : « ولا تُرْفِدهُ الأدوات » ، ردت فلانا إذا أعنته ؛ والمراد الفرق
بيننا وبينه ؛ لأننا مرفودون بالأدوات ، ولولاها لم يصح منا الفعل ، وهو سبحانه
بخلاف ذلك .

وحادى عشرها قوله : « سبق الأوقات كونه . . . » إلى آخر الفصل ، هذا
تصريح بحدوث العالم .

فإن قلت : ما معنى قوله : « والعدم وجوده » ، وهل يسبق وجوده العدم مع كون
عدم العالم في الأزَل لا أوَّل له ؟

قلت : ليس يعنى بالعدم ها هنا عدم العالم بل عدم ذاته سبحانه ، أى غلب وجود
ذاته عدمها وسبقها ، فوجب له وجود يستحيل تطرّق العدم إليه أزلا وأبدا بخلاف
الممكنات ، فإنَّ عدمها سابق بالذات على وجودها ، وهذا دقيق !

الأصل

بِتَشْمِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنَّ لَا مَشْعَرَ لَهُ ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنَّ
لَا ضِدَّ لَهُ ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنَّ لَا قَرِينَ لَهُ .
ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ ؛ وَالْوُضُوحِ بِالْبُهْمَةِ ، وَالْجُمُودِ بِالْبَلَلِ ، وَالْخُرُورَ بِالْعَرْدِ .

مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا ،
مُتَقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا .
لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ ، وَإِنَّمَا تَحْدُ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا ؛ وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ
إِلَى نَظَائِرِهَا .

الْبُذْخُ

المشاعر الحواس ، قال بلعاء بن قيس :

وَالرَّأْسُ مُرْتَقِعٌ فِيهِ مَشَاعِرُهُ يَمِيدُ السَّبِيلَ لَهُ سَمْعٌ وَعَيْنَانِ
قال : يجعله تعالى المشاعر عُرِفَ أن لا مشعر له ؛ وذلك لأنَّ الجِسمَ لا يصحُّ منه فعل
الجسام ، وهذا هو الدليل الذي يعوّل عليه المتكلمون في أنَّه تعالى ليس بجسم .
ثم قال : « وبمضادته بين الأمور عُرِفَ أن لا ضدَّ له » ، وذلك لأنَّه تعالى لما دلَّنا
بـ نقل على أن الأمور المتضادة إتما تتضادَّ على موضوع تقوم به وتحلّه كان قد دلَّنا على أنَّه
تعالى لا ضدَّ له ، لأنَّه يستحيل أن يكون قائماً بموضوع يحلّه كما تقوم
الضادات بموضوعاتها .

ثم قال : « وبمقارنته بين الأشياء عُرِفَ أن لا قرين له » ، وذلك لأنَّه تعالى قرن
بالعرَض والجوهر ، بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر ، وقرن بين كثير من
الاعراض ، نحو ما يقوله أصحابنا في حيَّاتِ القلب والكبد ، ونحو الإضافات التي يذكرها
اسكماء كالبنوَّة والأبوَّة والفوقيَّة والتحتيَّة ، ونحو كثير من العلل والمعلولات ، والأسباب
السبَّابات ، فيما ركبه في العقول من وجوب هذه المقارنة واستحالة انفكاك أحد الأمرين

عن الآخر ، علمنا أنه لا قرين له سبحانه ، لأنه لو قارن شيئا على حسب هذه المقارنة لاستحال انفكاكه عنه ، فكان محتاجاً في تحقق ذاته تعالى إليه ، وكل محتاج ممكن ، فواجب الوجود ممكن ! هذا محال .

ثم شرع في تفصيل المتضادات ، فقال : « ضاد التَّوَرُّ بالظَّامَةِ » ، وهما عَرَضَان عند كثير من النَّاس ، وفيهم مَنْ يجعل الظَّامَةَ عَدَمِيَّة .

قال : « والوضوح بالْبُهِمَةِ » يعنى البياض والسواد .

قال : « والجود بالْبَلِّالِ » ، يعنى البيوسة والرطوبة .

قال : « والحرور بالَصَّرْدِ » يعنى الحرارة والبرودة ، والحرور هاهنا مفتوح الحاء ، يقال : إني لأجد لهذا الطعام حَرُوراً وحَرُورَةً في فمي ، أى حرارة ، ويجوز أن يكون في الكلام مضاف محذوف ، أى وحرارة الحرور بالَصَّرْدِ ؛ والحرور هاهنا يكون الريح الحارّة ، وهى بالليل كالسَّمُوم بالنهار ، والَصَّرْدُ : البرد .

ثم قال : وإنّه تعالى مؤلّف بين هذه المتباعدات ، المتعاديات : المتباينات ، وليس المراد من تأليفه بينها جمعه إياها في مكان واحد ، كيف وذلك مستحيل في نفسه ، بل هو سبحانه مؤلّف لها في الأجسام المركّبة حتى خلع منها صورة مفردة ، هى المزاج ، ألا ترى أنّه جمع الحارّ والبارد والرطب واليابس ، فمزجه مَزْجاً مخصوصاً حتى انتزع منه طبيعة مفردة ، ليست حرارة مطلقة ، ولا باردة مطلقة ، ولا رطبة مطلقة ، ولا يابسة مطلقة ، وهى المزاج ، وهو محدود عند الحكماء بأنّه كَيْفِيَّةٌ حاصلة من كَيْفِيَّاتٍ متضادة ، وهذا هو محصول كلامه عليه السلام بعينه .

والعجب من فصاحته في ضمّن حكمته ، كيف أعطى كلّ لفظةٍ من هذه اللفظات ما يناسبها ويليق بها ، فأعطى المتباعدات لفظة « مقرب » ؛ لأنّ البعد بإزاء القرب ،

أعطى المتباينات لفظة « مقارن » ، لأنّ البينونة بإزاء المقارنة ، وأعطى المتعدييات لفظة مؤلف « لأنّ الائتلاف بإزاء التعادى .

ثم عاد عليه السلام فعكس المعنى ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، فجعل الفساد إزاء الكون ، وهذا من دقيق حكمته عليه السلام ، وذلك لأنّ كلّ كائن فاسد ، فلما وضح ما أوضح في الكون والتركيب والإيجاد ، أعقبه بذكر الفساد والعدم ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، وذلك لأنّ كلّ جسم مركّب من العناصر المختلفة الكيفيات لتضادّة الطبائع ، فإنه سيؤول إلى الانحلال والتفرّق .

ثم قال : « لا يُشَمَلُ بحدّ » ، وذلك لأنّ الحدّ الشامل ما كان مركّباً من جنس فصل ، والبارى تعالى منزّه عن ذلك ، لأنه لو شمله الحدّ على هذا الوجه يكون مركّباً ، لم يكن واجب الوجود ، وقد ثبت أنّه واجب الوجود ، ويجوز أن يعنى به أنّه ليس بذى نهاية ، فتحويه الأقطار وتحده .

ثم قال : « ولا يحسب بعدّ » ، يحتمل أن يريد : لا تحسب أزليّته بعدّ ، أى لا يقال له : منذ وُجد كذا وكذا ، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد ، ويحتمل أن يريد به أنّه ليس مماثلاً للأشياء فيدخل تحت العدد ، كما تعدّ الجواهر ، وكما تعدّ الأمور الحسوسة .

ثم قال : « وإِنَّمَا تحدّ الأدوات أنفسها » ، وتشير الآلات إلى نظائرها ، هذا يؤكّد معنى التفسير الثانى ، وذلك لأنّ الأدوات كالجوارح ، إِنَّمَا تحدّ وتقدر ما كان مثلاً من ذوات المقادير ، وكذلك إِنَّمَا تشير الآلات - وهى الحواس - إلى ما كان نظيرها فى الجسمية ولوازمها ، والبارى تعالى ليس بذى مقدار ولا جسم ، ولا حالّ فى جسم ، فاستحال أن تحدّه الأدوات وتشير إليه الآلات .

الأصل :

مَنْعَتَهَا مِنْذُ الْقِدْمَةِ ، وَحَتَمَهَا قَدْ الْأَزَلِيَّةَ ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةُ ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا الْعُقُولِ ، وَبِهَا أَمْتَنَعَ عَنِ نَظَرِ الْعُيُونِ ، وَلَا تَجْرَى عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالشُّكُونُ ، وَكَيْفَ يَجْرَى عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحَدَمُهُ !

إِذَا لَتَمَّاوَتَتْ ذَاتُهُ ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ ، وَلَا مَتْنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ ؛ وَلَكِنْ لَهُ وَرَاءُ إِذْ وَجِدَ لَهُ أَمَامٌ ، وَلَا لَتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ التَّقْصَانُ ؛ وَإِذَا لَقِئَا مَتْنَعُ آيَةِ الْمُصْنُوعِ فِيهِ ، وَلَتَحْوَلْ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَذْلُولًا عَلَيْهِ ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْأَمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ .

الشرح :

قد اختلف الرواة في هذا الموضع من وجهين :

أحدهما قول مَنْ نصب « القدمة » و « الأزلية » و « التكملة » فيكون نصبها عنده على أنها مفعول ثانٍ ، والمفعول الأول الضمائر المتصلة بالأفعال ، وتكون « منذ » و « قد » و « لولا » في موضع رفع بأنها فاعلة ، وتقدير الكلام : إنَّ إطلاق لفظة « منذ » على الآلات والأدوات يمنعها عن كونها قديمة ، لأنَّ لفظة « منذ » وضعت لا ابتداء الزمان كلفظة « من » لا ابتداء المكان ، والقديم لا ابتداء له ، وكذلك إطلاق لفظة « قد » على الآلات ، والأدوات تحميها وتمنعها من كونها أزلية ، لأنَّ « قد » لتقريب الماضي من الحال ، تقول : قد قام زيد ، فقد دلَّ على أن قيامه قريب من الحال التي أخبرت فيها

نيامه ، والأزلى لا يصحّ ذلك فيه ، وكذلك إطلاق لفظة «لولا» على الأدوات والآلات
جنبها التكملة ، ويمنعها من التام المطلق ، لأنّ لفظة «لولا» وضعت لامتناع الشئ لوجود
يره ، كقولك : لولا زيد لقام عمرو ، فامتناع قيام عمرو إنّما هو لوجود زيد ، وأنت تقول
، الأدوات والآلات وكلّ جسم : ما أحسنه لولا أنه فان ! وما أتمّه لولا كذا ! فيكون
لقصده والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أنّ الأدوات والآلات محدثة ناقصة ،
المراد بالآلات والأدوات أربابها .

الوجه الثانى : قول من رفع « القدمة » و « الأزلية » و « التكملة » فيكون كلّ
ياحد منها عنده فاعلا ، وتكون الضمائر المتصلة بالأفعال مفعولا أوّلا ، و « منذ » و « قد »
و « لولا » مفعولا ثانيا ، ويكون المعنى أنّ قدّم البارى وأزليته وكأله منعت الأدوات
والآلات من إطلاق لفظة « منذ » و « قد » و « لولا » عليه سبحانه ، لأنه تعالى قديم
كامل ، ولفظتا « منذ » و « قد » لا يطلقان إلّا على محدث ، لأنّ إحداهما لا ابتداء الزمان
والأخرى لتقريب الماضى من الحال ، ولفظة « لولا » لا تطلق إلّا على ناقص ، فيكون
المقصود والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قدّم البارى تعالى وكأله ، وأنه لا يصحّ
أن يطلق عليه ألفاظ تدلّ على الحدوث والنقص .

قوله عليه السلام : « بها تجلّى صانعها للعقول ، وبها امتنع عن نظر العيون » ، أى
بهذه الآلات والأدوات التى هى حواسنا ومشاعرنا ، وبخلقها إياها ، وتصويره لها ، تجلّى
للعقول وعُرف ، لأنه لو لم يخلقها لم يعرف ، وبها امتنع عن نظر العيون ، أى بها استنبطنا
استحالة كونه مرثيا بالعيون ، لأنّا بالمشاعر والحواسّ كمات عقولنا ، وبعقولنا استخرجنا
الدلالة على أنه لا تصحّ رؤيته ، فإذن بخلقها الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلا ، وبذلك

أيضاً عرفنا أنه يستحيل أن يعرف بغير العقل ، وأن قول من قال : إنا سنعرفه رؤيةً ومشاهدة بالحاسة باطل .

قوله عليه السلام : « لا تجرى عليه الحركة والسكون » ، هذا دليل أخذ المتكلمون عنه عليه السلام فنظموه في كتبهم وقرروه ، وهو أن الحركة والسكون معانٍ محدثة ، فلو حلت فيه لم يخل منها ، وما لم يخل من الحدث فهو محدث .

فإن قلت : إنه عليه السلام لم يخرج كلامه هذا المخرج ، وإنما قال كيف يجرى عليه ماهو أجراه ، وهذا نمط آخر غير ما يقرره المتكلمون !

قلت : بل هو هو بعينه ، لأنه إذا ثبت أنه هو الذي أجرى الحركة والسكون ، أي أحدهما لم يجر أن يجرى عليه ، لأنهما لو جريا عليه لم يخل إماماً أن يجرى عليه على التعاقب ، وليسوا ولا واحد منهما بقديم ، أو يجرى عليه على أن أحدهما قديم ثم تلاه الآخر ، والأول باطل بما يبطل به حوادث لا أول لها ، والثاني باطل بكلامه عليه السلام ، وذلك لأنه لو كان أحدهما قديماً معه سبحانه لما كان أجراه ، لكن قد قلنا : إنه أجراه ، أي أحدثه ، وهذا خلف محال . وأيضاً فإذا كان أحدهما قديماً معه لم يجر أن يتلوه الآخر ، لأن القديم لا يزول بالحدث .

ثم قال عليه السلام : « إذا لتفاوتت ذاته ، ولتجزأ كنهه ، ولا تمتنع من الأزل معناه » ، هذا تأكيد لبيان استحالة جريان الحركة والسكون عليه ، تقول : لو صح عليه ذلك لكان محدثاً ، وهو معنى قوله : « لا تمتنع من الأزل معناه » ، وأيضاً كان ينبغي أن تكون ذاته منقسمة ، لأن المتحرك الساكن لا بد أن يكون متحيزاً ، وكل متحيز جسم ، وكل جسم منقسم أبداً ، وفي هذا إشارة إلى نفي الجوهر الفرد .

ثم قال عليه السلام : « ولما كان له وراء إذا وجد له أمام » هذا يؤكد ما قلناه إنه إشارة إلى نفى الجوهر الفرد ، يقول : لو حملته الحركة لكان جزءاً وحجماً ؛ ولما كان أحد وجهيه غير الوجه الآخر لا محالة ، فكان منقسماً ، وهذا الكلام لا يستقيم إلا مع نفى الجوهر الفرد ، لأن من أثبتته يقول : يصح أن تحلله الحركة ، ولا يكون أحد وجهيه غير الآخر ، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام .

ثم قال عليه السلام : « ولا التمس التمام إذ لزمه نقصان » ، هذا إشارة إلى ما يقوله الحكماء ، من أن الكون عدم ونقص ، والحركة وجود وكال ، فلو كان سبحانه يتحرك ويسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كماله ، فكان ملتصقاً بكماله بالحركة الطارئة على السكون ، وواجب الوجود ، يستحيل أن يكون له حالة نقصان ، وأن يكون له حالة بالقوة وأخرى بالفعل .

قوله عليه السلام : « إذا قامت آية المصنوع فيه » ، وذلك لأن آية المصنوع كونه متغيراً منتقلاً من حال إلى حال ، لأننا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام ، فلو كان تعالى متغيراً متحركاً منتقلاً من حال إلى حال لتحقق فيه دليل الحدوث ، فكان مصنوعاً ، وقد ثبت أنه الصانع المطلق سبحانه .

قوله عليه السلام : « ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه » ، يقول : إنا وجدنا دليلاً على الباري سبحانه ، إنما هو الأجسام المتحركة ، فلو كان الباري متحركاً لكان دليلاً على غيره ، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه ، لكنه سبحانه لا صانع له ولا ذات فوق ذاته ، فهو المدلول عليه والمنتهى إليه .

قوله عليه السلام : « وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه مآثر في غيره » ، في هذا الكلام يتوهم سامعه أنه عطف على قوله : « لتفاوتت » و « لتجزأ » و « لامتنع »

و « لكان له » « ولالتمس » و « لقامت » و « لتحوّل » وليس كذلك ، لأنه لو كان معطوفا عليها لاختلّ الكلام وفسد ، لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى ، والمراد لو تحرك لزم هذه المحالات كلّها .

وقوله : « وخرج بسلطان الامتناع » ليس من المستحيلات عليه ، بل هو واجبه ، ومن الأمور الصادقة عليه ، فإذا فسد أن يكون معطوفا عليها وجب أن يكون معطوفا على ما كان مدلولاً عليه ، وتقدير الكلام : كان يلزم أن يتحوّل الباري دليلاً على غيره ، بعد أن كان مدلولاً عليه ، وبعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره ، وخروجه بسلطان الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز ، فهذا هو سلطان الامتناع الذي به خرج عن أن يؤثر فيه ما أثر في غيره من الأجسام والممكنات .

الأضل :

الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأَقُول . لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا ، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَخْدُودًا . جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ ، وَطَهَّرَ عَنِ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ ، لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتَقْدَرُهُ ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطْنُ فَتُصَوِّرُهُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحَسِّسُهُ ، وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسُّهُ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ ، وَلَا يُنْبِئُهُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ .

الشرح :

هذا الفصل كله واضح مستغن عن الشرح ، إلا قوله عليه السلام : « لم يلد »

في كون « مولودا » ، لأنّ لقائل أن يقول : كيف يلزم من فرض كونه والدا أن يكون مولودا ؟ في جوابه : إنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر ، وكيف وآدم والد وليس بمولود ! وإنما المراد أنه يلزم من فرض صحة كونه والدا صحة كونه مولودا ، والتالى محال والمقدم محال ، وإنما قلنا : إنه يلزم من فرض صحة كونه والدا صحة كونه مولودا ، لأنه لو صحّ أن يكون والدا على التفسير المفهوم من الوالدية ، ورأى أن يتصور من بعض أجزائه حتى آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نعقله في النطفة المنفصلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى ؛ حتى يكون منها بشر آ. من نوع الأول لصحّ عليه أن يكون هو مولودا من والد آخر قبله ، وذلك لأنّ الجسام متماثلة في الجسميّة ، وقد ثبت ذلك بدليل عقليّ واضح في مواضعه التي هي أمّاك با ، وكلّ مثليّين فإنّ أحدهما يصحّ عليه ما يصحّ على الآخر ، فلو صحّ كونه والدا يصحّ كونه مولودا .

وأما بيان أنه لا يصحّ كونه مولودا ، فلا أنّ كلّ مولود متأخّر عن والده بالزمان ، وكلّ ما خر عن غيره بالزمان محدّث ، فالمولود محدّث والبارى تعالى قد ثبت أنه قديم ، وأنّ ما هو عليه محال ، فاستحال أن يكون مولودا ، وتمّ الدليل .

الأصل

وَلَا يُوصَفُ شَيْءٌ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنْ عَرَضٍ ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ ، وَلَا يُقَالُ : لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ ، وَلَا أَنْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ ؛ وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ ؛ فَتَقْلَهُ أَوْ تُهَوِيهِ ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ فَيَمِيلُهُ

أَوْ يَعْدِلُهُ . لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بَوَالِجٌ ، وَلَا عَنْهَا بَخَارِجٌ .
يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ . يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ ، وَيَحْفَظُ
وَلَا يَتَحَفَّظُ ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ .
يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ قَهٍّ ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ ، يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ
كَوْنَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .
لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ
وَمَثَلَهُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَانًا ، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا كَانَ إِلَهًا ثَانِيًا .

الشرح :

في هذا الفصل مباحث :

أولها : أَنَّ الْبَارِي سُبْحَانَهُ لَا يوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، أَيْ لَيْسَ بِمَرْكَبٍ ؛ لِأَنَّهُ
لَوْ كَانَ مَرْكَبًا لَاتَّقَرَّرَ إِلَى أَجْزَائِهِ ، وَأَجْزَاؤُهُ لَيْسَتْ نَفْسُ هَوِيَّتِهِ ، وَكُلُّ ذَاتٍ تَفْتَقِرُ
هَوِيَّتَهَا إِلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ فَهِيَ مُمْكِنَةٌ ؛ لَكِنَّهُ وَاجِبُ الْوُجُودِ ، فَاسْتَحَالَ أَنْ يوصَفَ
بَشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ .

وثانيها : أَنَّهُ لَا يوصَفُ بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ كَمَا يَقُولُ مُبْتَدِئُ الصُّورَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ
كَذَلِكَ لَكَانَ جَسَمًا ، وَكُلُّ جَسَمٍ مُمْكِنٌ ، وَوَاجِبُ الْوُجُودِ غَيْرُ مُمْكِنٍ .

وثالثها : أَنَّهُ لَا يوصَفُ بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ كَمَا يَقُولُهُ الْكِرَامِيَّةُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ حَلَّ الْعَرَضُ
لَكَانَ ذَلِكَ الْعَرَضُ لَيْسَ بِأَنْ يُحَلَّ فِيهِ أَوَّلَى مِنْ أَنْ يُحَلَّ هُوَ فِي الْعَرَضِ ، لِأَنَّ مَعْنَى

لحلول حصول العَرَض في حيزِ الحلِّ تبعاً لحصول الحلِّ فيه ، فما ليس بمتحيّز لا يتحقّق فيه معنى الحلول ، وليس بأن يُجَعَلَ محلاً أوّلَى من أن يُجَعَلَ حالاً !

ورابعها : أنّه لا يوصف بالغيريّة والأبعاد ، أى ليس له بعض ، ولا هو ذو أقسام مضمها غيراً للبعض الآخر ، وهذا يرجع إلى البحث الأوّل .

وخامسها : أنّه لا حدّ له ولا نهاية ، أى ليس ذا مقدار ، ولذلك المقدار طرف - نهاية ، لأنّه لو كان ذا مقدار لكان جسماً ، لأن المقدار من لوازم الجسميّة ، وقد ثبت أنّه تعالى ليس بجسم .

وسادسها : أنّه لا انقطاع لوجوده ، ولا غاية ، لأنّه لو جاز عليه العدم في المستقبل كان وجوده الآن متوقّفاً على عدم سبب عدمه ، وكلّ متوقّف على الغير فهو ممكن لذاته ، والبارى تعالى واجب الوجود ، فاستحال عليه العدم ؛ وأن يكون لوجوده نقطاع ، أو ينتهى إلى غاية يعدم عندها .

وسابعها : أنّ الأشياء لا تحويه فتقّله ؛ أى ترفعه ، أو تهويه ؛ أى تجعله هاوياً إلى جهة تحت ، لأنّه لو كان كذلك لكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشيء الحاوى له ، لكنّ قد بيّنا أنّه يستحيل عليه المقادير ، فاستحال كونه محوياً .

وثامنها : أنّه ليس يحمله شيء فيميله إلى جانب ، أو يعد له بالنسبة إلى جميع الجوانب ، لأنّ كلّ محمول مقدّر ، وكلّ مُقدّر جسم ، وقد ثبت أنّه ليس بجسم .

وتاسعها : أنّه ليس في الأشياء بواجب ، أى داخل . ولا عنها بخارج ، هذا مذهب لموحّدين ؛ والخلاف فيه مع الكراميّة والجسميّة ، وينبغى أن يفهم قوله عليه السلام : « ولا عنها بخارج » أنّه لا يريد سلب الوجود ، فيكون قد خلا من النقيضين ، لأنّ ذلك محال ، بل المراد بكونه ليس خارجاً عنها أنّه ليس كما يعتقد كثير من الناس ؛ أنّ الفلك الأعلى المحيط لا يحتوي عليه ؛ ولكنّه ذاتٌ موجودة متميّزة بنفسها ، قائمة

بذاتها ، خارجة عن الفلك في الجهة العليا ، بينها وبين الفلك بعد ، إمّا غير متناهٍ - على ما يحكى عن ابن الهيصم - أو متناهٍ على ما يذهب إليه أصحابه ؛ وذلك أنّ هذه القضية ، وهى قولنا : البارى خارج عن الموجودات كلّها على هذا التفسير ليست مناقضة للقضية الأولى ، وهى قولنا : البارى داخل العالم ، ليكون القول بخلوّه عنهما قولاً بخلوّه عن التقيضين ، ألا ترى أنه يجوز أن تكون القضيتان كاذبتين معاً ، بالأّ يكون الفلك المحيط محتويًا عليه ، ولا يكون حاصلًا في جهة خارج الفلك ، ولو كانت القضيتان متناقضتين لما استقام ذلك ، وهذا كما تقول : زيد في الدار زيد في المسجد ، فإنّ هاتين القضيتين ليستا متناقضتين ، لجواز ألا يكون زيد في الدار ، ولا في المسجد ، فإنّ هاتين لو تناقضتا لاستحال الخروج عن التقيضين ، لكن المتناقض : « زيد في الدار ، زيد ليس في الدار » ، والذي يستشعنه العوامّ من قولنا : « البارى لا داخل العالم ولا خارج العالم » غلط مبنى على اعتقادهم وتصوّرهم أنّ القضيتين تتناقضان ، وإذا فهم ما ذكرناه بأنّ أنه ليس هذا القول بشنيع ؛ بل هو سهل وحقّ أيضًا ، فإنه تعالى لا متحيّز ولا حالّ في المتحيّز ، وما كان كذلك استحال أن يحصّل في جهة ؛ لا داخل العالم ولا خارج العالم ، وقد ثبت كونه غير متحيّز ولا حالّ في المتحيّز ، من حيث كان واجب الوجود ، فإنّ القول بأنّه ليس في الأشياء بواجب ولا عنها بخارج صواب وحقّ .

وعاشرها : أنه تعالى يخبر بلا لسان ولهوات ؛ وذلك لأنّ كونه تعالى مخبراً هو كونه فاعلاً للخبر ، كما أنّ كونه ضارباً هو كونه فاعلاً للضرب ، فكما لا يحتاج في كونه ضارباً إلى أداة وجارحة يضرب بها كذلك لا يحتاج في كونه مخبراً إلى لسان ولهوات يخبر بها .

وحادى عشرها : أنه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات ، وذلك لأنّ البارى سبحانه حيّ لا آفة به ؛ وكلّ حيّ لا آفة به ؛ فواجب أن يسمع المسموعات ، ويبصر المبصرات ،

لا حاجة به سبحانه إلى حروف وأدوات ، كما نحتاج نحن إلى ذلك ، لأننا أحياء بحياة
لنا ، والبارى تعالى حيٌّ لذاته ، فلما افترقنا فيما به كان سامعا ومبصرا ، افترقنا في الحاجة
إلى الأدوات والجوارح .

وثاني عشرها : أنه يقول ولا يتلفظ ، هذا بحث لفظي ، وذلك لأنه قد ورد السمع
سميته قائلا ، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة ، نحو قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ
لَهُ يَاعِيسَى ﴾ ^(١) ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ ^(٢) ، ولم يرد في السمع إطلاق كونه متلفظا
ليه ، وفي إطلاقه إيهام كونه ذا جراحة ، فوجب الاختصار على ما ورد ، وترك ما لم يرد .
وثالث عشرها : أنه تعالى يحفظ ولا يتحفظ ؛ أما كونه يحفظ فيطلق على وجهين :
حدها أنه يحفظ بمعنى أنه يحصى أعمال عباده ويعلمها ، والثاني كونه يحفظهم ويحرسهم من
آفات والدواهي . وأما كونه لا يتحفظ فيحتمل معنيين . أحدهما أنه لا يجوز أن يطلق
عليه أنه يتحفظ الكلام ، أي يتكلف كونه حافظا له ، ومحيطا وعالما به ، كالواحد منا
بتحفظ الدرس ليحفظه ، فهو سبحانه حافظ غير متحفظ . والثاني أنه ليس بمنحرف ولا
شفق على نفسه خوفا أن تبدر إليه بادرة من غيره .

ورابع عشرها : أنه يريد ولا يضر ، أما كونه مريدا فقد ثبت بالسمع نحو قوله
تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ ^(٣) ، وبالعقل لا اختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة ،
وكيفيات مخصوصة ، جاز أن تقع على خلافها ، فلا بد من تخصيص لها بما اختصت
به ؛ وذلك كونه مريدا ، وأما كونه لا يضر فهو إطلاق لفظي لم يأذن فيه الشرع ، وفيه
إيهام كونه ذا قلب ، لأن الضمير في العرف اللغوي ما استكن في القلب ، والبارى ليس بحسم .

(٢) سورة المائدة ١٢ .

(١) سورة المائدة ١١٠ .

(٣) سورة البقرة ١٨٥ .

وخامس عشرها : أنه يحب ويرضى من غير رقة ، ويفض ويفض من غير مشقة ، وذلك لأن محبته للعبد إرادته أن يثيبه ، ورضاه عنه أن يحمده فعله ، وهذا يصح ويطلق على الباري ، لا كإطلاقه علينا ، لأن هذه الأوصاف يقتضى إطلاقها علينا رقة القلب ، والبارى ليس بجسم ، وأما بغضه للعبد فإرادة عقابه وغضبه كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به ، وفي الأغلب إنما يطلّق ذلك علينا ويصح منا مع مشقة تنالنا من إزعاج القلب وغكّيان دمه ، والبارى ليس بجسم .

وسادس عشرها : أنه يقول لما أراد كونه : كن ، فيكون من غير صوت يقرع ، ولا نداء يسمع ، هذا مذهب شيخنا أبي الهذيل ، وإليه يذهب الكرامية وأتباعها من الخنابلة وغيرهم ، والظاهر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أطلقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن في مخاطبة الناس بما قد سمعوه وأنسوا به ، وتكرّر على أسماعهم وأذهانهم ، فأما باطن الآية وتأويلها الحقيقيّ فغير ما يسبق إلى أذهان العوامّ ، فليطلب من موضعه .

وسابع عشرها : أنّ كلامه سبحانه فعل منه أنشاء ، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً ، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً ، هذا هو دليل المعتزلة على نفي المعاني القديمة التي منها القرآن ، وذلك لأنّ القِدَم عندهم أخصّ صفات الباري تعالى ، أو موجب عن الأخصّ ، فلو أنّ في الوجود معنى قديماً قائماً بذات الباري ؛ لكان ذلك المعنى مشاركاً للبارى في أخصّ صفاته ، وكان يجب لذلك المعنى جميع ماوجب للبارى من الصفات ، نحو العالمية والقادرية وغيرهما ، فكان إلهاً ثانياً .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « ومثله » ؟

قلت : يقال : مثلت له كذا تمثيلاً ، إذا صوّرت له مثاله بالكتابة أو بغيرها ، فالبارى مثل القرآن لجبريل عليه السلام بالكتابة في اللوح المحفوظ فأنزله على محمد صلى الله عليه وآله .

وأيضاً يقال : مثل زيد بحضرتي إذا حضر قائماً ، ومثله بين يدي زيد أي أحضرته منتصباً ، فلما كان الله تعالى فعل القرآن واضحاً بينا كان قد مثله المكلفين .

الأصل

لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَضْلٌ ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ ، فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ ، وَيَتَكافَأُ الْمُتَبَدِّعُ وَالْبَدِيعُ .

خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ أَشْغَالٍ ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْأَعْوِجَاجِ ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالْانْفِرَاجِ .

أَرْسَى أَوْتَادَهَا ، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا ، وَأَسْتَفَاضَ عُيُونَهَا ، وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا ؛ فَلَمْ يَهِنْ مَابْنَاهُ وَلَا ضَعُفَ مَاقْوَاهُ .

الشرح :

عاد عليه السلام إلى تنزيه الباري تعالى عن الحدوث ، فقال : لا يجوز أن يوصف به فتجري عليه الصفات المحذات كما تجرى على كل محدث ، وروى : « فتجري عليه صفات المحذات » وهو أليق ، ليعود إلى المحذات ذوات الصفات مابعد ، وهو قوله عليه السلام : « ولا يكون بينه وبينها فصل » ، لأنه لا يحسن أن يعود الضمير في قوله : « وبينها » إلى « الصفات » بل إلى « ذوات الصفات » .

قال : لو كان محدثا لجرت عليه صفات الأجسام المحدثّة ، فلم يكن بينه وبين الأجسام المحدثّة فرق ، فكان يستوى الصانع والمصنوع ، وهذا محال .
ثم ذكر أنّه خلق الخلق غير محتدٍ لمثال ، ولا مستفيد من غيره كيميّة الصنعة ، بخلاف الواحد منّا ، فإنّ الواحد منّا لا بدّ أن يحتدّي في الصنعة ، كالبناء والنجار والصانع وغيرها .

قال عليه السلام : « ولم يستعنّ على خلقها بأحدٍ من خلقه » ، لأنّه تعالى قاهر لذاته لا يُعجزه شيء .
ثم ذكر إنشاء تعالى الأرض ، وأنّه أمسكها من غير اشتغال منه بأمساكها ، وغير ذلك من أفعاله ومخلوقاته ، ليس كالواحد منّا يمسك الثقل فيشتغل بأمساكه عن كثير من أموره .

قال : « وأرساها » ، جعلها راسية على غير قرار تتمكّن عليه ، بل واقفة بإرادته التي اقتضت وقوفها ، ولأنّ الفلك يجذبها من جميع جهاتها - كما قيل - أو لأنّه يدفعها من جميع جهاتها ، أو لأنّ أحد نصفها صاعد بالطّبع ، والآخر هابط بالطّبع ، فاقضى التعادل وقوفها ، أو لأنّها طالبة للمركز فوقفت .

والأود : الاعوجاج ، وكرر لاختلاف اللفظ .

والتهافت : التساقط . والأسداد : جمع سدّ ، وهو الجبل ، ويجوز ضمّ السين .

واستفاض عيونها ، بمعنى أفاض ، أى جعلها فائضة .

وخذّ أوديتها ، أى شقّها . فلم يهْنُ ما بناه ، أى لم يضعف .

الأفضل :

هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهِا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَسَعْرِ فَتِهِ ، وَالْعَالِي
 نَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ
 بَغْلِيَّةُهُ ، وَلَا يَقُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيْسَبِقُهُ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَزُرُقُهُ .
 خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبُ مِنْ سُلْطَانِهِ
 غَيْرُهُ فَتَمْتَنِعُ مِنْ نَفْعِهِ وَضُرِّهِ ، وَلَا كُفْءٌ لَهُ فَيُكَافِئُهُ ، وَلَا تَظِيرَ لَهُ
 بِسَاوِيَةٍ .

هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وَجُودِهَا حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَقْهُودِهَا ، وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا
 نَدَابُ دَعَائِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَآخِرَائِهَا . وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَالِهَا مِنْ
 أَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا ، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِيهَا وَسَائِمِهَا ، وَأَصْنَافِ أَسْنَانِهَا وَأَجْنَاسِهَا ،
 مُتَبَلِّدَةِ أَسْمَائِهَا وَأَكْيَاسِهَا - عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَائِهَا ، وَلَا عَرَفَتْ
 نَيْفَ السَّيْلِ إِلَى إِيجَادِهَا ، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ ، وَعَجَزَتْ
 وَأَهَا وَتَمَاهَتْ ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً ، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ ، مُقَرَّرَةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ
 نَشَائِهَا ، مُذْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا !

الشنخ :

الظاهر : الغالب القاهر ؛ والباطن : العالم الخبير .

والأراح بضم الميم : النعم تُرَدُّ إِلَى الْأَرَاخِ ، بِالضَّمِّ أَيْضًا ؛ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي تَأْوِي إِلَيْهِ النَّعْمُ ،
 لَيْسَ الْأَرَاخُ ضِدُّ السَّائِمِ عَلَى مَا يَظُنُّهُ بَعْضُهُمْ ، وَيَقُولُ : إِنَّ عَطْفَ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ عَطْفٌ

على المختلف والمتضاد ، بل أحدهما هو الآخر وضدها المعلوفة ، وإنما عطف أحدهما على الآخر على طريقة العرب في الخطابة ، ومثله في القرآن كثير ، نحو قوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ ^(١) .

وأسناخها : جمع سنخ بالكسر ، وهو الأصل .

وقوله : « لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة » ، هو معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ ^(٢) .

فإن قلت : مامعنى قوله : « لا تستطيع الهرب من سلطانة إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره » ؟ وهلا قال : « من ضره » ؟ ولم يذكر النفع ، فإنه لا معنى لذكره هاهنا !

قلت : هذا كما يقول المعتصم بمعقل حصين عن غيره : ما يقدر اليوم فلان لى على نفع ولا ضرر ، وليس غرضه إلا ذكر الضرر ، وإنما يأتى بذكر النفع على سبيل سلب القدرة عن فلان على كل ما يتعلق بذلك المعتصم ، وأيضا فإن العفو عن المجرم نفع له ، فهو عليه السلام يقول : إنه ليس شيء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى ، ويستغنى عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه .

الأصل

وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَوْمُ بَعْدَ فِتْنَاءِ الدُّنْيَا وَحُدَّةِ لَأَشْيَاءٍ مَعَهُ ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا ، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فِتْنَائِهَا ؛ بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ .
عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ السُّنُونُ وَالسَّاعَاتُ ، فَلَأَشْيَاءٍ

لَا إِلَهَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؛ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ .
بِالْقُدْرَةِ مِنْهَا كَانَ أَوَّلُ خَلْقِهَا ، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَائُهَا ، وَلَوْ قَدَرَتْ
لِالْإِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا .

لَمْ يَتَكَادَهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يَوْدَهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وَخَلَقَهُ ،
لَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنَقْصَانٍ ، وَلَا لِالْإِسْتِعَانَةِ بِهَا
لِإِدِّ مُكَائِرٍ ، وَلَا لِالْإِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُتَاوِرٍ ، وَلَا لِالْإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ ،
لَا لِمُكَاتَرَةِ شَرِيكِ فِي شَرْكِهِ ، وَلَا لَوَحْشَةِ كَانَتْ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ
لَيْهَا . ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا ؛ لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا
تَذْيِيرُهَا ، وَلَا لِإِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ ، لَا يَمِيلُهُ طُولُ بَقَائِهَا
نَيْدُ عَوِهِ إِلَى سُرْعَةٍ إِنْفَائِهَا ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ ،
أَتَقْنَهَا بِقُدْرَتِهِ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ
شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا ، وَلَا لَانْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَخَشَةِ إِلَى حَالٍ اسْتِثْنَاءٍ ، وَلَا مِنْ حَالٍ
جَهْلٍ وَعَمَى إِلَى عِلْمٍ وَالْإِنْيَاسِ ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ ؛ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ ، وَلَا مِنْ
أَلٍ وَضَعَةٍ ؛ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ .

الْبَيِّنَاتُ :

شرع أولاً في ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها ويقوم بها من الأعراض
نبل القيامة ، وذلك لأن الكتاب العزيز قد ورد به ، نحو قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ
خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ^(١) ؛ ومعلوم أنه بدأه عن عدم ، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضاً .
وقال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ ^(٢) ؛ وإنما كان أولاً لأنه كان موجوداً ، ولا شيء من

(٢) سورة الحديد ٣ .

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ .

على المختلف والمتضاد ، بل أحدهما هو الآخر وضدهما المعلوفة ، وإنما عطف أحدهما على الآخر على طريقة العرب في الخطابة ، ومثله في القرآن كثير ، نحو قوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾^(١) .

وأسناخها : جمع سنخ بالكسر ، وهو الأصل .

وقوله : « لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة » ، هو معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾^(٢) .

فإن قلت : مامعنى قوله : « لا تستطيع الحرب من سلطانها إلى غيره فتمتنع من نفعه وضرره » ؟ وهلا قال : « من ضرره » ؟ ولم يذكر النفع ، فإنه لا معنى لذكرها هنا !

قلت : هذا كما يقول المعتصم بمعقل حصين عن غيره : ما يقدر اليوم فلان لى على نفع ولا ضرر ، وليس غرضه إلا ذكر الضرر ، وإنما يأتى بذكر النفع على سبيل سلب القدرة عن فلان على كل ما يتعلق بذلك المعتصم ، وأيضا فإن العفو عن الجرم نفع له ، فهو عليه السلام يقول : إنه ليس شىء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى ، ويستغنى عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه .

الأصل

وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحَدُّهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ ، كَمَا كَانَ قَبْلَ أَوَّلِهَا ، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا ؛ بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ .
عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ السُّنُونُ وَالسَّاعَاتُ ، فَلَا شَيْءَ

(٢) سورة الحج ٧٣ .

(١) سورة فاطر ٣٥ .

إِنَّ اللَّهَ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ؛ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ .
بِالْقُدْرَةِ مِنْهَا كَانَ أِبْدَآءُ خَلْقِهَا ، وَبَغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَآؤُهَا ، وَلَوْ قَدَّرَتْ
عَ الْأَمْتِنَاعَ لَدَامَ بَقَاؤُهَا .

لَمْ يَتَكَبَّأْ دُهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يَوْدُهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وَخَلَقَهُ ،
وَيَكُونُهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا لِيَخُوفٍ مِنْ زَوَالٍ وَتَقْصَانٍ ، وَلَا لِاسْتِعَانَةِ بِهَا
عَ نَدٍّ مُكَاثِرٍ ، وَلَا لِالْاِخْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُتَاوِرٍ ، وَلَا لِلْإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ ،
وَلِلسُكَاتَرَةِ شَرِيكِ فِي شَرْكِهِ ، وَلَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنَسَ
إِلَيْهَا . ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا ؛ لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَضَرُّفِهَا
وَلَا لِبُيْرِهَا ، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ ، لَا يَمِيلُهُ طُولُ بَقَائِهَا
فَإِعْوُهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ ،
وَنَقَصَهَا بِقُدْرَتِهِ ، ثُمَّ يُبْعِدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ
بِئْسَ مِنْهَا عَلَيْهَا ، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَخَشَةٍ إِلَى حَالٍ اسْتِنْسَاسٍ ، وَلَا مِنْ حَالٍ
إِلَى وَغَمٍّ إِلَى عِلْمٍ وَالتَّيَاسُ ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ ؛ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ ، وَلَا مِنْ
ذُلٍّ وَضَعَةٍ ؛ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ .

البُزْخُ :

شرع أولاً في ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها ويقوم بها من الأعراض
في القيامة ، وذلك لأن الكتاب العزيز قد ورد به ، نحو قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ
قِيَمَتِهِ ﴾ ^(١) ؛ ومعلوم أنه بدأه عن عدم ، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضاً .
وال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ ^(٢) ؛ وإنما كان أولاً لأنه كان موجوداً ، ولا شيء من

الأشياء بتوجود ، فوجب أن يكون آخراً كذلك ، . هذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين .

ثم ذكر أنه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان ، ولا حين ولا زمان ، وذلك لأن المكان إما الجسم الذى يتمكن عليه جسم آخر ، أو الجهة ، وكلاهما لا وجود له بتقدير عدم الأفلاك وما فى حشوها من الأجسام ، أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن الجهة لا تتحقق إلا بتقدير وجود الفلك ، لأنها أمر إضافى بالنسبة إليه ، فبتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقق أصلاً ، وهذا هو القول فى عدم المكان حينئذ ، وأما الزمان والوقت والحين فكل هذه الألفاظ تعطى معنى واحداً ، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك ، لأن الزمان هو مقدار حركة الفلك ، فإذا قدرنا عدم الفلك فلا حركة ولا زمان .

ثم أوضح عليه السلام ذلك وأكّده ، فقال : « عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات » ، لأن الأجل هو الوقت الذى يحلّ فيه الدين أو تبطل فيه الحياة ، وإذا ثبت أنه لا وقت ، ثبت أنه لا أجل ، وكذلك لا سنة ولا ساعة ، لأنها أوقات مخصوصة .

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر الدنيا ، فقال : « بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها » ؛ يعنى أنها مسخرة تحت الأمر الإلهى . قال : « ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها » ، لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه فى مراده ، وإنما تمناعه فى مراده لو كانت قادرة لذاتها ، ولو كانت قادرة لذاتها وأرادت البقاء لبقيت .

قوله عليه السلام : « لم يتكأده » بالمد ، أى لم يشقّ عليه ؛ ويجوز « لم يتكأده » بالتشديد والهمزة ، وأصله من العقبة الكثود ، وهى الشاقة .

قال : « ولم يؤده » أى لم يثقله .

ثم ذكر أنه تعالى لم يخلق الدنيا ليشدّ بها سلطانها ، ولا لخوفه من زوال أو نقص يلحقه ، ولا ليستعين بها على ندّ مماثل له ، أو يحترز بها عن ضدّ محارب له ، أو ليزداد بها ملكه . أو ليكثر بها شريكاً في شركته له ، أو لأنه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بمن خلق .

ثم ذكر أنه تعالى : « سيفنيها بعد إيجادها » لالضجر لحقه في تدبيرها ، ولا لراحة تصله في إعدامها ، ولا لثقل شيء منها عليه حال وجودها ، ولا للملل أصابه فبعثه على إعدامها . ثم عاد عليه السلام ، فقال : إنه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء ، لا الحاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض ، ولا لأنه استوحش حال عدمها فأحب أن يستأنس بمادتها ، ولا لأنه فقد علماً عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم ، ولا لأنه صار ذريعاً عند إعدامها فأحب أن يتكثر ويثرى بإعادتها ، ولا لذلك أصابه بإفنائها فأراد أن يعيدها بإعادتها .

فإن قلت : إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا ، وكان من قبلُ أوجدتها لا لكذا ولا لكذا ، ثم قلت : إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا ، فلائى حال أوجدتها أولاً ، ولائى حال أفناها ثانياً ، ولائى حال أعادها ثالثاً ؟ خبرونا عن ذلك ، فإنكم قد حكيمت عنه عليه سلام الحكم ولم تحكوا عنه العلة !

قلت : إنما أوجدتها أولاً للإحسان إلى البشر ليعرفوه ، فإنه لو لم يوجد لهم لبق هو لا يعرف ، ثم كلف البشر ليعرضهم للمنزلة الجليلة التي لا يمكن وصولهم إليها إلا بتكليف وهي الثواب ، ثم يفنيهم لأنه لا بدّ من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من ثاقّ التكليف ؛ وإذا كان لا بدّ من انقطاعه فلا فرق بين انقطاعه بالعدم المطلق ،

أو بتفريق الأجزاء ، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع ، وفيه لطف زائد
للكافرين ، لأنه أردع وأهيب في صدورهم من بقاء أجزائهم ، واستمرار وجودها
غير معدومة .

ثم إنه سبحانه يبعثهم ويميدهم ليوصل إلى كل إنسان ما يستحقه من ثواب أو عقاب ،
ولا يمكن إيصال هذا المستحق إلا بالإعادة ، وإثما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه
التعليلات ، لأنه قد أشار إليها فيما تقدم من كلامه ، وهي موجودة في فرش خطبه ، ولأن
مقام الموعظة غير مقام التعليل ، وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة يسلك مسلك
الموعظة في ضمن تمجيد الباري سبحانه وتعظيمه ، وليس ذلك بمظنة التعليل والحجاج .

(٢٣٣)

الأضل

ومن خطبة له عليه السلام تختص بذكر الملاحم :

أَلَا يَا بَنِي وَامِي هُمْ مِنْ عَدَّةٍ ! اسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ ، وَفِي الْأَرْضِ بِجَهُولَةٍ
فَتَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ ، وَانْقِطَاعِ وَصَلِكُمْ ، وَأَسْتِعْمَالِ
فَارِكِكُمْ .

ذَلِكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ ! ذَلِكَ
يُثْبِتُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَكْثَرَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطَى ؛ ذَلِكَ حَيْثُ تَسْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ ،
مِنْ النِّعْمَةِ وَالذِّمِّ ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ أَضْطِرَارٍ ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ ؛
ذَلِكَ إِذَا عَضَّكُمْ الْبَلَاءُ ، كَمَا يَعْضُ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ . مَا طَوَّلَ هَذَا الْعَمَاءُ !
بَعْدَ هَذَا الرَّجَاءِ !

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَزِمَةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ ،
لَا تَصْدَعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذْمُوا غَيْبَ فِعَالِكُمْ ، وَلَا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ
رِ الْفِتْنَةِ ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا ، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا ؛ فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي
سَبِيلِهَا الْمُؤْمِنُ ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ . إِنَّمَا مَثَلُ بَيْنِكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاجِ فِي
ظُلْمَةٍ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَجَلَهَا .

فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا وَأَحْضَرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَنْفَهُمُوا .

الْبَنْزُحُ :

الإمامية تقول : هذه العدة هم الأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام . وغيرهم يقول : إنه عني الأبدال الذين هم أولياء الله في الأرض ، وقد تقدّم منا ذكر القطب والأبدال ، وأوضحنا ذلك إيضاحاً جلياً .

قوله عليه السلام : « أسماؤهم في السماء معروفة » ، أى تعرفها الملائكة المعصومون ، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم .

وفي الأرض مجهولة ، أى عند الأكثرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشر .

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته في ذكر الملاحم والفتن الكائنة في آخر زمان الدنيا ، فقال لهم : توقعوا ما يكون من إدارار أموركم ، وانقطاع وصلكم - جمع وُصلة - واستعمال صغاركم ، أى يتقدّم الصغار على الكبار ، وهو من علامات الساعة .

قال : ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقلّ مشقة من احتمال المشقة في اكتساب درهم حلال ، وذلك لأنّ المكاسب تكون قد فسدت واختلطت ، وغلب الحرام الحلال فيها .

قوله : « ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطى » ، معناه أن أكثر من يعطى ويتصدّق في ذلك الزمان يسكون ماله حراماً فلا أجر له في التصدّق به ، ثم أكثرهم يقصد الرياء والسُّمعة بالصدقة أو لهوى نفسه ، أو لخطر من خطراته ، ولا يفعل الحسن لأنّه حسن ، ولا الواجب لوجوبه ، فتكون اليد السقلى خيراً من اليد العليا ، عكس ما ورد في الأثر ، وأما المعطى فإنّه يكون فقيراً ذا عيال ، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال ! فإذا أخذه ليسدّ به خلته ، ويصرفه في قوت عياله ، كان أعظم أجراً من أعطاه .

وقد خطر لى فيه معنى آخر ، وهو أنّ صاحب المال الحرام إنّما يصرفه فى أكثر
 إلا حواله وأغلبها فى الفساد وارتكاب المحظور كما قال : « مَنْ اكْتَسَبَ مَالاً مِنْ
 سَمِيشٍ ، أَذْهَبَهُ اللَّهُ فِي نَهَابٍ » ^(١) . فإذا أخذ الفقير منه على وجه الصدقة فقد فوت عليه
 ص فى تلك القبائح والمحظورات التى كان بعرضته صرف ذلك القدر فيها لو لم يأخذ
 إلا بر ، فإذا قد أحسن الفقير إليه بكفه عن ارتكاب التبيح ، ومن العصمة ألا يقدر
 ف كان المعطى أعظم أجرا من المعطى .

قوله عليه السلام : « ذَاكَ حَيْثُ تَسْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ » ،
 باح النون ، وهى غَضارة العيش ، وقد قيل فى المثل : سُكَّرَ الهوى أَشَدَّ مِنْ سُكَّرِ
 .

قال : « تحلفون من غير اضطرار » ؛ أى تهاونون باليمين وبذكر الله عز وجل .
 قال : « وتكذبون من غير إخراج » ، أى يصير الكذب لكم عادة ودُّرْبَةً ،
 لا فاعلونه لأن آخر منكم قد أخرجكم واضطرركم بالغيظ إلى الحلف . وروى من غير « إحواج »
 . أو ، أى من غير أن يُحْجِجَكُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ .

قال : ذلك إذا عَصَّكُمْ البلاء كما يعصّ القَتَبُ غاربَ البعير . هذا الكلام غير
 . حمل بما قبله ، وهذه عادة الرضىّ رحمه الله يلتقط الكلام التقاطا ، ولا يتلو بعضه بعضا ،
 و ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدّم من الأجزاء الأول ، وقبل هذا الكلام
 « كر ما يناله شيعته من البؤس والقنوط ومشقة انتظار الفرج .

قوله عليه السلام : « مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ ، وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ » ! هذا حكاية كلام
 بعته وأصحابه .

(١) التهاوش : الظالم ؛ والنهاير : المهالك ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٨٦ .

ثم قال مخاطباً أصحابه الموجودين حوله : أيّها الناس ، ألقوا هذه الأزمّة التي تحمل ظهورها الأثقال عن أيديكم . هذه كناية عن التّهي عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإثم والعقاب . والظهور هاهنا : هي الإبل أنفسها . والأثقال : المآثم . وإلقاء الأزمّة : ترك اعتماد القبيح ، فهذا عموماً ، وأمّا خصوصه فتعريض بما كان عليه أصحابه من الغدر ومخامرة العدو عليه ، وإضمار الغلّ والغشّ له ، وعصيانه والتلوّى عليه ، وقد فسّره بما بعده فقال : « ولا تصدّعوا عن سلطانكم » أى لا تفرّقوا ، « فنذّموا غيب فعالكم » ، أى عاقبته . ثمّ نهاهم عن اقتحام ما استقبلوه من فور نارِ الفتنة وفور النار : غلبانها واحتدامها ، ويروى : « ما استقبلكم » .

ثم قال : « وأميطوا عن سنّنها » أى تنجّوا عن طريقها ، وخلّوا قصد السبيل لها ، أى دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا خطباً لنارها . ثم ذكر أنّه قد يهلك المؤمن في كلبها ، ويسلم فيه الكافر ، كما قيل : المؤمن ملقّ والكافر موقّ .

ثم ذكر أن مثله فيهم كالشرّج يستضيء بها من ولجها ؛ أى دخل في ضوئها . وآذان قلوبكم ؛ كلمة مستعارة ، جعل للقلب آذاناً كما جعل الشاعر للقلوب أبصاراً ، فقال :

يَدِقُّ عَلَى النّوَاطِرِ مَا أَتَاهُ فَتُبَصِّرُهُ بِأَبْصَارِ الْقُلُوبِ

(٢٣٤)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أوصيكمُ أَيُّهَا النَّاسُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلَانِهِ إِلَيْكُمْ ، وَنِعْمَانِهِ عَلَيْكُمْ ، وَبَلَانِهِ لَدَيْكُمْ ، فَكُمْ حَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ !
أَعُورُكُمْ لَهُ فَسْتَرَكُمُ ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمَّهَلَكُمُ !
وَأوصيكمُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ ، وَكَيْفَ غَفَلْتُمْ عَمَّا لَيْسَ بِغَفْلِكُمْ ، وَطَمَأَنُّكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ بِمُهْلِكِكُمْ ؛ فَكُنِي وَاعِظَا بِمَوْتِي عَابِنْتُمُوهُمْ ؛
نَحَلُّوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ ، وَانْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَارًا ، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا . أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ ، وَأَوْطِنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ ، وَاشْتَعَلُوا بِمَا فَارَقُوا ، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا ، لَا عَن قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالًا ، وَلَا فِي حَسَنِ يَسْتَطِيعُونَ أَرْذَادًا ، أَنْسُوا بِاللُّدُنْيَا فَفَرَّتْهُمْ ، وَوَقَّعُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ .

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا ، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا ، وَأَسْتَتِمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ ، فَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ .

مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ !

الْبَيْتُ :

أعورتهم ، أى انكشفتم وبدت عوراتكم ، وهى المقاتل ، تقول : أعور الفارس ، إذا بدت مقاتله ، وأعورك الصَّيْدُ إذا أمكنك منه .

قوله عليه السلام : أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ أى أوطنوا قبورهم التى كانوا يوحشونها .

قوله عليه السلام : « وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا » ، أى اشتغلوا وهم فى القبور بما فارقوه من الأموال والقينيات ، لأنها أذى وعقاب عليهم فى قبورهم ، ولولاها لكانوا فى راحة . ويجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد فى الدنيا ، أى اشتغلوا أيام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوه ، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه .

ثم ذكر أنهم لا يستطيعون فعل حسنة ، ولا توبةً من قبيح ، لأنَّ التكليف سقط ، والمنازل التى أمروا بعمارتها ، والمقابر ، وعمارته الأعمال الصالحة .

وقوله عليه السلام : « إِنْ غَدَا مِنْ الْيَوْمِ قَرِيبٌ » كلام يجرى مجرى المثل ، قال :

* غَدٌ مَا غَدٌ مَا أَقْرَبُ الْيَوْمِ مِنْ غَدٍ *

والأصل فيه قول الله تعالى : ﴿ إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾^(١) .

وقوله عليه السلام : « مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتُ فِي الْيَوْمِ . . . » إلى آخر الفصل ، كلام شريف وجيز بالغ فى معناه ، والفصل كله نادر لا نظير له .

(٢٣٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَمِنْ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِي يَبْنِ
الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى
يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ .

وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ ، مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِيرٍ
الْأُمَّةِ وَمُعَلِنِهَا . لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ
عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ ، وَلَا يَقَعُ اسْمُ الاسْتِضَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا
أُذُنُهُ ، وَوَعَاها قَلْبُهُ .

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ ،
وَلَا يَمِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ . سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَلَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ
الْأَرْضِ ؛ قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا ، وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا .

الشرح :

هذا الفصل يُحْمَلُ عَلَى عِدَّةٍ مباحث :

أولها قوله عليه السلام : فمن الإيمان ما يكون كذا . فنقول : إنه قسم الإيمان إلى

ثلاثة أقسام :

أحدها : الإيمان الحقيقي ، وهو الثابت المستقرّ في القلوب بالبرهان اليقينيّ .

الثاني : مالميس ثابتاً بالبرهان اليقينيّ بل بالدليل الجدليّ ، كإيمان كثير ممن لم يحقق العلوم العقلية ، ويعتقد ما يعتقده عن أقيسة جدلية لا تبلغ إلى درجه البرهان ، وقد سمى عليه السلام هذا القسم باسم مفرد ، فقال : إنه عوارى في القلوب ، والعوارى : جمع عارية أى هو وإن كان في القلب وفي محل الإيمان الحقيقيّ إلا أن حكمه حكم العارية في البيت ، فإنّها بعرضة الخروج منه ، لأنها ليست أصلية كائنة في بيت صاحبها .

والثالث : مالميس مستندا إلى برهان ولا إلى قياس جدليّ ، بل على سبيل التقليد وحسن الظنّ بالأسلاف ، وبمن يحسن ظنّ الإنسان فيه من عابدٍ أو زاهد أو ذى ورع ، وقد جعله عليه السلام عوارى بين القلوب والصدور لأنه دون الثانی ، فلم يجعله حالاً في القلب ، وجعله مع كونه عارية حالاً بين القلب والصدر . فيكون أضعف مما قبله .
فإن قلت : فما معنى قوله : « إلى أجل معلوم » ؟

قلت : إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين ؛ لأنّ من لا يكون إيمانه ثابتاً بالبرهان القطعىّ قد ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعياً ، بأن ينعم التّظّرويرتّب البرهان ترتيباً مخصوصاً ، فينتج له النتيجة اليقينية ، وقد يصير إيمان المقلّد إيماناً جدلياً فيرتقى إلى ما فوقه مرتبته ، وقد يصير إيمان الجدليّ إيماناً تقليدياً بأن يضعف في نظره ذلك القياس الجدليّ ، ولا يكون عالماً بالبرهان ، فيؤول حال إيمانه إلى أن يصير تقليدياً ، فهذا هو فائدة قوله : « إلى أجل معلوم » في هذين القسمين .

فأمّا صاحب القسم الأوّل فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم ، لأنّ من ظفر بالبرهان استحالة أن ينتقل عن اعتقاده ، لا صاعداً ولا هابطاً ؛ أمّا لاصعداً ، فلا أنه ليس فوق البرهان مقام آخر ، وأمّا لهابطاً ، فلا أن مادّة البرهان هي المقدّمات البديهية

والمقدمات البديهية يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جدلياً أو تقليدياً .

وثانيها قوله عليه السلام : « فإذا كانت لكم براءة » ، فنقول : إنه عليه السلام نهى عن البراءة من أحدٍ مادام حياً ، لأنه وإن كان مخطئاً في اعتقاده ، لكن يجوز أن يعتقد الحق فيما بعد ، وإن كان مخطئاً في أفعاله ، لكن يجوز أن يتوب . فلا تحمل البراءة من أحد حتى يموت على أمرٍ ؛ فإذا مات على اعتقادٍ قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه ، لأنه لم يبق له بعد الموت حالة تُنتظر ؛ وينبغي أن تحمل هذه البراءة التي أشار إليها عليه السلام على البراءة المطلقة ، لا على كل براءة ، لأننا يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وهو حيٌّ ، ومن الكافر وهو حيٌّ ، لكن بشرط كونه فاسقاً ، وبشرط كونه كافراً ، فأما مَنْ مات ونعلم ما مات عليه فإننا نبرأ منه براءة مطلقة غير مشروطة .

وثالثها قوله : « والهجرة قائمة على حدّها الأول » ، فنقول : هذا كلام يختص به أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو من أسرار الوصية ، لأنّ الناس يروون عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « لا هجرة بعد الفتح » ، فشفع عمّه العباس في نعيم بن مسعود الأشجعيّ أن يستثنيه ، فاستثناه ، وهذه الهجرة التي يشيرُ إليها أمير المؤمنين عليه السلام ليست تلك الهجرة ، بل هي الهجرة إلى الإمام ، قال : إنها قائمة على حدّها الأول مادام التكليف باقياً ، وهو معنى قوله : « ما كان لله تعالى في أهل الأرض حاجة » .

وقال الراونديّ : ما هاهنا نافية ، أي لم يكن لله في أهل الأرض من حاجة ، وهذا ليس بصحيح ، لأنّه إدخال كلام منقطع بين كلامين متصل أحدهما بالآخر .

ثم ذكر أنّه لا يصحّ أن يعدّ الإنسان من المهاجرين إلا بمعرفة إمام زمانه ، وهو

معنى قوله : « إلا بعرفة الحجة في الأرض » . قال : « فمن عرف الإمام وأقرّ به فهو مهاجر » .

قال : ولا يجوز أن يسمى من عرف الإمام مستضعفا ، يمكن أن يشير به إلى آيتين في القرآن :

إحدهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ ﴾ (١) ، فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كما كان هؤلاء مستضعفين ، وإن كان في بلده وأهله لم يخرج ولم يتجشّم مشقة السفر .

ثانيهما قوله تعالى في الآية التي تلي الآية المذكورة : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ۖ ﴾ (٢) فالمراد على هذا أنه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعف كهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى من الظالمين ، لأن أولئك كانت الهجرة بالبدن مفروضة عليهم ، وعُفي عن ذوي العجز عن الحركة منهم ، وشيعة الإمام عليه السلام ليست الهجرة بالبدن مفروضة عليهم ، بل تكفي معرفتهم به وإقرارهم بإمامته ، فلا يقع اسم الاستضعاف عليهم .

فإن قلت : فما معنى قوله : « من مستسرّ الأمة ومعلنها » ، وبماذا يتعلّق حرف الجر؟ قلت : معناه : مادام لله في أهل الأرض المستسرّ منهم باعتقاده والمعلن حاجة ، فـ « من » على هذا زائدة ، فلو حذفت لجر المستسرّ بدلا من أهل الأرض ، ومن إذا كانت زائدة لاتعلّق ، نحو قولك : ماجاءني من أحد .

ورابعها : قوله عليه السلام : « إن أمرنا هذا صعب مستصعب » ويروى : مستصعب - بكسر العين - لا يحتمله إلا عبد امتحن الله تعالى قلبه للإيمان » ، هذم ن ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لَتَقْوَى ﴾ ^(١) ، وهو من قولك : امتحن فلان لأمر كذا وجرب ودرب للنهوض به ، هو مضطلع به غير وان عنه ، والمعنى أنهم صبروا على التقوى أقوىاء على احتمال مشاقها ، يجوز أن يكون وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأن تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة ، فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم للتقوى ، فتعلق اللام بحذوف ، أى كائنه له ، وهى اللام التى فى قولك : أنت لهذا الأمر ، أى مختص به كقوله : أعداء من للعمليات على الوجا *

وتكون مع معمولها منصوبة على الحال ، ويجوز أن يكون المعنى : ضرب الله لوبهم بأنواع الحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى ، أى لتثبت فيظهر تقواها ، ريعلم أنهم متقون ، لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند الحن والشدائد والاصطبار عليها . ويجوز أن يكون المعنى أنه أخلص قلوبهم للتقوى ، من قولهم : امتحن الذهب ، إذا ذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقااه .

وهذه الكلمة قد قالها عليه السلام مراراً ، ووقفت فى بعض الكتب على خطبة من جملتها : إن قريشا طلبت السعادة فشقيت ، وطلبت النجاة فهلكت ، وطلبت الهدى فضلت ، ألم يسموا ويحكم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ^(٢) ؟ فأين المعدل والمنزع عن ذرية الرسول ، الذين شيد الله بنيانهم فوق بنيانهم ، وأعلى رؤوسهم فوق رؤوسهم ، واختارهم عليهم ! ألا إن الذرية أفنان أنا شجرتها ، ودوحة أنا ساقها ، وإني من أحد بمنزلة الضوء من الضوء ، كفا

خلالاً تحت العرش قبل خلق البشر ، وقبل خلق الطينة التي كان منها البشر ، أشباحاً عالية ، لا أجساماً نامية ، إن أمرنا صعب مستصعب ، لا يعرف كنهه إلا ثلاثة : ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان ، فإذا انكشف لكم سرُّ أو وضع لكم أمر فاقبلوه ، وإلا فاسكتوا تساموا ، وردُّوا علمنا إلى الله فإنكم في أوسع مما بين السماء والأرض .

وخامسها : قوله : « سلوني قبل أن تفقدوني » ، أجمع الناس كلُّهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة ، ولا أحد من العلماء : « سلوني » غير علي بن أبي طالب عليه السلام ، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدث في كتاب ” الاستيعاب ” .

والمراد بقوله : « فلأنا أعلم بطرق السماء متى بطرق الأرض » ، ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور ، ولا سيما في الملاحم والدول ، وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكررة ، لا مرة ولا مائة مرة ، حتى زال الشك والريب في أنه إخبار عن علم ، وأنه ليس على طريق الاتفاق ، وقد ذكرنا كثيراً من ذلك فيما تقدّم من هذا الكتاب .

وقد تأوَّله قوم على وجه آخر قالوا : أراد أنا بالأحكام الشرعية والفتاوى الفقهية أعلم متى بالأمور الدنيوية ؛ فعبر عن تلك بطرق السماء ، لأنها أحكام إلهية ، وعبر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضية . والأوّل أظهر ، لأنّ لغوى الكلام وأوّلّه يدلّ على أنه المراد .

[قصة وقعت لأحد الوعاظ ببغداد]

وعلى ذكر قوله عليه السلام : « سلوني » ، حدثني مَنْ أثق به من أهل العلم حديثاً ، إن كان فيه بعض الكلمات العامية ، إلا أنه يتضمن ظرفاً ولطفاً ، ويتضمن أيضاً أدباً .

قال : كان ببغداد في صدر أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بالله ، اعظم مشهور بالحدق ومعرفة الحديث والرجال ، وكان يجتمع إليه تحت منبره خلق عظيم من عوام بغداد ومن فضلائها أيضاً ، وكان مشتهراً بدم أهل الكلام وخصوصاً المعتزلة أهل النظر ، على قاعدة الحشوية ، ومبغضى أرباب العلوم العقلية ، وكان أيضاً منحرفاً عن الشيعة برضا العامة بالميل عليهم ، فانفق قوم من رؤساء الشيعة على أن يضعوا عليه نيكته ويسأله تحت منبره ، ويخجله ويفضحه بين الناس في المجلس ، وهذه عادة الوعاظ ؛ يوم إليهم قوم فيسألونهم مسائل يتكلفون الجواب عنها ، وسألوهم عن ينتدب لهذا ، شير عليهم شخص كان ببغداد يعرف بأحمد بن عبد العزيز الكزّي ، كان له لسن ، يشتغل بشيء يسير من كلام المعتزلة ، ويتشيع ، وعنده قبة ، وقدشدا أطرافاً من الأدب ، قد رأيت أنا هذا الشخص في آخر عمره ، وهو يومئذ شيخ ، والناس يختلفون إليه في تعبير رؤيا ، فأحضروه وطلبوا إليه أن يعتمد ذلك ، فأجابهم ، وجلس ذلك الواعظ في يومه الذي برت عاداته بالجلوس فيه ، واجتمع الناس عنده على طبقاتهم ، حتى امتلأت الدنيا بهم ، تكلم على عادته فأطال ، فلما مر في ذكر صفات الباري سبحانه في أثناء الوعظ ، قام إليه الكزّي ، فسأله أسئلة عقلية ، على منهاج كلام المتكلمين من المعتزلة ، فلم يكن واعظ عنها جواب نظري ، وإنما دفعه بالخطابة والجدل ، وسجع الألفاظ ؛ وتردد لكلام بينهما طويلاً ، وقال الواعظ في آخر الكلام أعين المعتزلة حول ، وصوتي

في مسامعهم طُبول ، وكلاهما في أفضلتهم نُصول ، يامن بالاعتزال يصول ، ويحك كم تحوم
وتجول ، حول من لا تدركه العقول ! كم أقول ، كم أقول ! خلّوا هذا الفضول !

فارتجّ المجلس ، وصرخ الناس ، وعلت الأصوات ، وطاب الواعظ وطرب ، وخرج
من هذا الفصل إلى غيره فسطّح شطّح الصوفيّة ، وقال : سلوني قليل أن تفقدوني ، وكرّرها ؛
فقام إليه الكزّي ، فقال : ياسيدي ماسمعنا أنه قال هذه الكلمة إلا على بن أبي طالب
عليه السلام ، وتماّم الخبر معلوم . وأراد الكزّي بتمام الخبر قوله عليه السلام : « لا يقوّلها
بعدي إلا مدّع » .

فقال الواعظ وهو في نشوة طربه ، وأراد إظهار فضله ومعرفة برجال الحديث والرواة :
مَنْ عَلَى بن أبي طالب ؟ أهو على بن أبي طالب بن المبارك النيسابوري ؟ أم على بن أبي طالب
ابن إسحاق المروزي ؟ أم على بن أبي طالب بن عثمان القيرواني ؟ أم على بن أبي طالب
ابن سليمان الرازي ؟ وعدّ سبعة أو ثمانية من أصحاب الحديث ، كلهم على بن أبي طالب .
فقام الكزّي ، وقام من عيّن المجلس آخر ، ومن يسار المجلس ثالث ، انتدبوا له ،
وبذلوا أنفسهم للحمية ، وروطنوها على القتل .

فقال الكزّي : أشأ ياسيدي فلان الدين ، أشأ ! صاحب هذا القول هو على بن
أبي طالب زوج فاطمة سيدة نساء العالمين عليها السلام ، وإن كنت ما عرفتّه بعد بعينه ،
فهو الشخص الذي لما أخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين الأتباع والأذنان أخى بينه
رويين نفسه ، وأسجل على أنه نظيره ومثاله ، فهل نقل في جهازكم أنتم من هذا شيء ؟
أو نبت تحت خبّكم من هذا شيء ؟

فأراد الواعظ أن يكلمه ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيمن ، وقال : ياسيدي
فلان الدين ، محمد بن عبد الله كثير في الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له رب العزة :

مَاضِلَ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿١﴾ .
 كذلك على بن أبي طالب كثير في الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له صاحب
 أربعة : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .
 وقد تلتقي الأسماء في الناس والكُنَى كثيراً ولكن مُيزوا في الخلائق
 فالتفت إليه الواعظ ليكلمة ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيسر ، وقال : يا سيدي
 دن الدين ، حَقَّ تجهله ، أنت معذور في كونك لا تعرفه :
 وإذا خفيتُ على الغيِّ فعاذرُ ألا تراني مقلة عمياء !
 فاضطرب المجلس وماج كما يموج البحر ، وافتن الناس ، وتواثبت العامة بعضها إلى
 مض ، وتكشفت العروس ، ومزقت الثياب ، ونزل الواعظ ، واحتمل حتى أدخل دارا
 غلق عليه بابها ، وحضر أعوان السلطان فسكنوا الفتنة ، وصرفوا الناس إلى منازلهم
 أشغالهم ، وأنفذ الناصر لدين الله في آخر نهار ذلك اليوم ، فأخذ أحمد بن عبدالعزيز الكزي
 الرجلين اللذين قاما معه ، فحبسهم أياما لتطفأ نائرة الفتنة . ثم أطلقهم .

(٢٣٦)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ ، عَزِيزَ الْجُنْدِ ، عَظِيمَ
الْمَجْدِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ ، جِهَادًا
عَنْ دِينِهِ ، لَا يَذْنِبُهُ عَنْ ذَلِكَ أَجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ ، وَالْتِمَاسٌ لِلْإِفْطَاءِ نُورِهِ .
فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقَلًا مَنِيعًا ذِرْوَتُهُ .
وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَتَعَمَّرَاتِهِ ، وَأَمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نَزُولِهِ ؛ فَإِنَّ
الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهَلَ . وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ
مَاتَعَلِّمُونَ مِنْ ضَيْقِ الْأَرْمَاسِ ، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ ، وَهَوْلِ الْمُطْلَعِ ، وَرَوَعَاتِ الْفَزَعِ ،
وَأَخْتِلَافِ الْأَضْلَاحِ ، وَأَسْتِكَالِكِ الْأَسْمَاعِ ، وَظُلْمَةِ الْأَلْحَدِ ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ ، وَغَمِّ
الضَّرِيحِ ، وَرَذَمِ الصَّفِيحِ .

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنِ ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةَ فِي قَرْنٍ ،
وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا ، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا ، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا . وَكَأَنَّهَا
قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَازِلِهَا ، وَأَنَاخَتْ بِكَلَالِهَا ، وَأَنْصَرَفَتْ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ، وَأَخْرَجَتْهُمْ
مِنْ حِضْنِهَا ، فَكَانَتْ كَيَوْمِ مَضَى ، وَشَهْرٍ أَنْقَضَى ، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَتًّا ،
وَسَمِينُهَا غَنًّا .

فِي مَوْقِفِ صَنْكِ الْمَقَامِ ، وَأُمُورِ مُشْتَبِهَةِ عِظَامِ ، وَنَارِ شَدِيدِ كَلْبِهَا ، عَالِ لَجْبِهَا ،
سَاطِعِ لَهَبِهَا ، مُتَغَيِّظِ زَقِيرِهَا ، مُتَأَجِّجِ سَعِيرِهَا ، بِرَيْدِ خُودِهَا ، ذَاكِ وَقُودِهَا ، مُحْوَفِ

وَدُهَا ، عَمَّ قَرَارُهَا ، مُظْلِمَةٌ أَقْطَارُهَا ، حَامِيَةٌ قُدُورُهَا ، فَطِيعَةٌ أُمُورُهَا . ﴿ وَسِيقَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۝ قَدْ أُمِّنَ الْعَذَابُ ، وَأَنْقَطَعَ الْعِتَابُ ، وَزُحِرُوا
عَنِ النَّارِ ، وَأَطْمَأْنَنْتْ بِهِمُ الدَّارُ ، وَرَضُوا الْمَشْوَى وَالْقَرَارَ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الْأَيَّامِ زَاكِيَةً ، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيًا ، وَكَانَ لِيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا ، تَخْشَعًا وَأُسْتِغْفَارًا ؛
وَأَنَّ نَهَارَهُمْ لَيْلًا ، تَوْحُّشًا وَأَنْقِطَاعًا ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبَا ، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا ،
وَأَنَّا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا ، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ .

فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِعَ عَائِيهِ يَفُوزُ فَاثِرُكُمْ ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسِرُ مُبْطِلُكُمْ ،
وَادِرُّوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ، وَمَدِينُونَ بِمَا
قَسَمْتُمْ ، وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ ، فَلَا رَجْعَةَ تُنَالُونَ ، وَلَا عِثْرَةَ تُقَالُونَ .

أَسْتَعْمَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ .
الزُّمَرُ الْأَرْضَ ، وَأَصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَا تَحَرَّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي
هَبِّ أَلْسِنَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعْجَلْهُ اللَّهُ لَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ
دُونَ فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيدًا ، وَوَقَعَ
أَرُءُ عَلَى اللَّهِ ، وَأُسْتُوجِبَ ثَوَابَ مَنْوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، وَقَامَتِ النَّيَّةُ مَقَامَ
إِبْلَاقِهِ لِسَيْفِهِ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا .

الشرح :

وظائف حقوقه : الواجبات المؤقتة ، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان ، والوظيفة .
يُجْعَلُ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، أَوْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ، أَوْ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، مِنْ طَعَامٍ ، أَوْ رِزْقٍ .

وعزيز منصوب ، لأنه حال من الضمير في « أستعينه » ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور في « حقوقه » وإضافة « عزيز » إلى « الجند » إضافة في تقدير الانفصال ، لا توجب تعريفه ليمتنع من كونه حالا .

وقاهر أعداءه : حاربهم ، وروى « وقهر أعداءه » .

والمقتل : ما يعتصم به . وذروته : أعلاه .

وأهدوا له : اتخذوا مهاداً ، وهو الفراش ، وهذه استعارة .

قوله عليه السلام : « فإن الغاية القيامة » ، أى فإن انتهى كل البشر إليها ، ولا بد منها .

والأرماس : جمع رمس وهو القبر . والإبلاس مصدر « أبلس » أى خاب ويئس ،

والإبلاس أيضاً : الانكسار والحزن .

واستكاك الأسماع : صممها .

وغمّ الضريح : ضيق القبر وكرّ به . والصفيح : الحجر ، وردمه : سدّه .

والسنن : الطريق . والقرن : الحبل .

وأشراط الساعة : علاماتها . وأزفت : قربت . وأفراطها : جمع فرط ، وهم المتقدمون السابقون من الموتى ، ومن روى « يافراطها » فهو مصدر أفراط فى الشيء ، أى قربت الساعة بشدة غلوئها وبلوغها غاية الهول والفضاعة ، ويجوز أن تفسر الرواية الأولى بمقدماتها وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزعجة ، كالذّجال ودّابة الأرض ونحوها ، ويرجع ذلك إلى اللفظة الأولى ، وهى أشراطها ، وإنما يختلف اللفظ .

والكلاكل : جمع كلكل ، وهو الصدر ، ويقال للأمر الثقيل : « قد أناخ عليهم

بكلكله » ، أى هدهم ورضهم كما يهدّ البعير البارك من تحته إذا أنحى عليه بصدرة .

قوله عليه السلام : « وانصرفت الدنيا بأهلها » أى ولّت ، ويروى : « وانصرفت »

أى انقضت .

والْحِضْنُ ، بكسر الحاء : مادون الإبط إلى الكَشْح .

والرَّثْ : الخلق ، والغث : الهزيل .

ومقام ضنك ، أى ضيق .

وشديد كلبها ، أى شرّها وأذاها . واللجب : الصوت . ووُتودهاها هنا ، بضم الواو : وهو الحدث ، ولا يجوز الفتح ، لأنه ما يوقد به كالخطب ونحوه ، وذلك لا يوصف بأنه ذاك .

قوله عليه السلام : « عمّ قرارها » ، أى لا يهتدى فيه لظلمته ، ولأنه عميق جدا ، ويرى : « وكأنّ ليلهم نهار » وكذلك أختها على التشبيه .

والمآب : المرجع ، ومدينون : مجزيون .

قوله عليه السلام : « فلارجعة تُنالون » الرواية بضم التاء ، أى تعطون ، يقال : أنلت

فلا مالا ، أى منحته ، وقد روى : « تنالون » بفتح التاء .

ثم أمر أصحابه أن يثبتوا ولا يعجلوا في محاربة مَنْ كان مخالطا لهم من ذوى العقائد الف. مدة كالخوارج ، ومَنْ كان يُبطنُ هوى معاوية ، وليس خطابه هذا تثبيطا لهم عن حرب أهل الشام ، كيف وهو لا يزال يقرّ عنهم ويوبّخهم عن التقاعد والإبطاء في ذلك ! ولكنّ قو من خاصّته كانوا يطلعون على ما عند قوم من أهل الكوفة ، ويعرفون نفاقهم وف. ادهم ، ويرومون قتلهم وقتالهم ، فهام عن ذلك ، وكان يخاف فرقة جُنّده وانتشار ح. عسكره ، فأمرهم بلزوم الأرض ، والصبر على البلاء .

وروى بإسقاط الباء من قوله : « بأيديكم » ومَنْ روى الكلمة بالباء جعلها زائدة ، وي. ز. ألا تكون زائدة ، ويكون المعنى : ولا تحرّكوا الفتنة بأيديكم وسيوفكم في هوى أ. لتكم ، لحذف المفعول .

والإصلاط بالسيف : مصدر أصلت ، أى سلّ .

واعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خطبه عليه السلام ، ومن ناصع كلامه ونادره ،
 وفيها من صناعة البديع الرائقة المستحسنة البريئة من التكلف مالا يخفى ، وقد أخذ ابنُ
 نباتة الخطيب كثيرا من ألفاظها فأودعها خطبه ، مثل قوله : « شديد كَلَبُها ، عال لجبها ،
 ساطع لهبها ، متغيّظ زفيرها ، متأجّج سعيها ، بعيد خمودها ، ذاك وقودها ، مخوف
 وعيدها ، عمّ قرارها ، مظلمة أقطارها ، حامية قدورها ، فظيعة أمورها » ؛ فإنّ هذه الألفاظ
 كلّها اختطفها ، وأغار عليها واغتصبها ، وسمّطَ بها خطبه ، وشذّر بها كلامه .
 ومثل قوله : « هول المطلع ، وروعات الفزع ، واختلاف الأضلاع ، واستكالك الأسماع ،
 وظلمة اللحد ، وخيفة الوعد ، وغمّ الضريح ، وردم الصفيح » . فإنّ هذه الألفاظ أيضا
 تمضى في أثناء خطبه ، وفي غضون مواعظه .

(٢٣٧)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَحْمَدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ ، وَالْمَتَعَالَى جَدُّهُ ؛ أَسْجُدُ عَلَى
نَمِيهِ الشُّوَامِ ، وَالْآلِيَةِ الْعِظَامِ ، الَّذِي عَظَّمَ حَامَهُ قَعَقًا ، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى ،
عَلِمَ بِمَا يَمْضِي وَمَا مَضَى ، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ ، بِلَا أَفْتِدَاءٍ
لَا تَعْلِيمٍ ؛ وَلَا أَحْتِدَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ ، وَلَا إِصَابَةٍ خَطَأٍ ، وَلَا حَضَرَةٍ مَلَأَ .
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَبْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي عَمْرَةٍ ، وَيَمُوجُونَ
، حَيْرَةٍ ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَةٌ الْخَيْنِ ، وَأَسْتَعْلَقَتْ عَلَى أَفْتِدَائِهِمْ أَقْفَالُ الرِّينِ .

عِبَادَ اللَّهِ ! أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ؛ وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ
حَقِّكُمْ ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللَّهِ ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ
لِحَرْزِ وَالْجَنَّةِ ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ مَسْلُكُهَا وَاضِحٌ ، وَسَائِلُهَا رَاسِحٌ ،
يُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ . لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأَمْرِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ ، وَالْغَابِرِينَ
يَحَاجِّتُهُمْ إِلَيْهَا غَدًا ، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبَدَى ، وَأَخَذَ مَا أُعْطِيَ ، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى . فَمَا
قُلَّ مَنْ قَبِلَهَا ، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا ! أُولَئِكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا ، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
إِذْ يَقُولُ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ (١) .

فَاطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا ، وَالْإِطْوَا بِحِدِّكُمْ عَلَيْهَا ، وَأَعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ
خَلَفًا ، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا .

(١) سورة نساء ١٣ .

أَيَقْطُلُوا بِهَا نَفْسَكُمْ ، وَأَقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ ، وَأَرْحَضُوا
بِهَا ذُنُوبَكُمْ ؛ وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحَمَامَ ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا ،
وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا .

أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا ، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نَزَاهًا ؛ وَإِلَى الْآخِرَةِ وَلَاهَا ،
وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعْتَهُ التَّقْوَى ، وَلَا تَرَفَعُوا مَنْ رَفَعْتَهُ الدُّنْيَا ، وَلَا تَشِيمُوا بِأَرْفَعَهَا ،
وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا ، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا ، وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا ، وَلَا تُفْتِنُوا بِأَعْلَاقِهَا ،
فَإِنَّ بَرَقَهَا خَالِبٌ ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ ، وَأَمْوَالُهَا مَحْرُوبَةٌ ، وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ .

أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّقَةُ الْعُنُونُ ، وَالْجَائِمَةُ الْخُرُونُ ، وَالْمَائِنَةُ الْخُورُونُ ، وَالْجُحُودُ
الْكُنُودُ ، وَالْعَمُودُ الصَّدُودُ ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ ! حَالُهَا انْتِقَالٌ ، وَوُطْأَتُهَا زَلْزَالٌ ،
وَعِزُّهَا ذُلٌّ ، وَجِدُّهَا هَزَلٌ ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ .

دَارُ حَرْبٍ وَسَلْبٍ ، وَنَهَبٍ وَعَطَبٍ ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَّاقٍ ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ ، قَدْ
تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا ، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا ، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا ، فَاسْتَسْهَمَ الْمَعَاقِلُ ،
وَلَفَظَتْهُمْ الْمَنَازِلُ ، وَأَغْيَسَهُمُ الْمَحَاوِلُ ؛ فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ ، وَلَحِمٍ مَجْزُورٍ ، وَشَلْوٍ
مَذْبُوحٍ ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ ، وَعَاضٍ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصَافٍ بِكُمَيْهِ ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَيْهِ ،
وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزَمِهِ .

وَقَدْ أَذْهَبَتْ الْحِيلَةُ ، وَأَقْبَلَتِ الْعَمِيلَةُ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ !
قَدْ فَاتَ مَافَاتَ ، وَذَهَبَ مَاذَهَبَ ، وَمَضَتْ الدُّنْيَا لِحَالٍ بِأَلْيَا ، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ ^(١) .

الشَّيْخُ :

الفاشى : الذائع ، فشا الخبرُ يَفْشُو فَشْوًا ، أى ذَاعَ ، وأفشاه غيره . وتفشى الشيء ، أ ، اتسع ، والفواشى : كلُّ منتشر من المال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرها ، ومنه الحديث : « ضَمُّوا فواشيتكم حتى تذهب خِمةُ العشاء » ، فيجوز أن يكون عَنِ يَفْشُو حمده ، بقاء الأمم قاطبةً على الاعتراف بنعمته ، ويجوز أن يريد بالقاشى سبب حمده ، وهو أنهم التى لا يقدر قدرها ، فحذف المضاف .

قوله : « والغالب جنده » ، فيه معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ^(١) .

قوله : « والمتعالى جدّه » فيه معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ^(٢) ، الجَدُّ فى هذا الموضع وفى الآية : العظمة .

والتَّوَام : جمع توعم على فَوَعَلَ ، وهو الولد المقارن أخاه فى بطن واحد ، وقد تأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك ، فهى متَّيمٌ ، فإن كان ذلك عاديها فهى متَّامٌ ، كلٌّ واحد من الولدين توعم . وبوها توعمان ، وهذا توعم هذا ، وهذه توعمته ، والجمع وأئم ، مثل قشعم وقشاعم ، وجاء فى جمعه « تَوَّام » على فُعَال ، وهى اللفظة التى وردت فى هذه الخطبة ، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلا فى مواضع معدودة ، وهى غرق العظم يؤخذ عنه اللحم وعُراق ، وشاة رُبَّى للحديث العهد بالولادة وغم رُبَاب ، وظئر الرضعة غير ولدها وظُّوار ، ورَخُل للأنثى من أولاد الضأن ورُخَال ، وفَرِير لولد البقرة الوحشية ، وفُرَار ^(٣) .

والآلاء : النعم .

(٢) سورة الجن ٣ .

(١) سورة المائدة ٥٦

(٣) انظر صحاح الجوهري ٤ : ١٥٢٣ واللسان - فرر .

قوله عايه السلام : « مبدع الخلائق بعلمه » ، ليس يريد أن العلم علة في الإبداع ، كما تقول : هوى الحجر بثقله ، بل المراد : أبداع الخلق وهو عالم ، كما تقول : خرج زيد بسلاحه ، أى خرج متسلحاً ، فوضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحالية ، وكذلك القول فى : « ومنشئهم بحكمه » والحكم ها هنا : الحكمة .
ومنه قوله عليه السلام : « إن من الشعر لحكمة » .

قوله : « بلا اقتداء ، ولا تعليم ولا احتذاء » قد تكرر منه عليه السلام أمثاله مراراً .
قوله : « ولا إصابة خطأ » تحته معنى لطيف ، وذلك لأن المتكلمين يوردون على أنفسهم سؤالاً فى باب كونه عالماً بكل معلوم إذا استدّلوا على ذلك فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلاً ، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال ، فوجب أن يعلم سائرهما ، لأنه لا مخصّص ، فقالوا لأنفسهم : لم زعمتم ذلك ؟ ولم لا يجوز أن يكون فعل أفعاله مضطربة ، فلما أدركها علم كيفية صنعها بطريق كونه مدرّكاً لها فأحكمها بعد اختلاها واضطرابها ! وأجابوا عن ذلك بأنه لا بد أن يكون قبل أن فعلها عالماً بمفرداتها من غير إحساس ، ويكفى ذلك فى كونه عالماً بما لم يتطرّق إليه ، ثم يعود الاستدلال المذكور أولاً .

قوله عايه السلام : « ولا حصره ملاً » ، الملاء : الجماعة من الناس وفيه معنى قوله تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) .
قوله : « يضربون فى غمرة » ، أى يسرون فى جهل وضلالة ، والضرب : السير السريع .

والخين : الهلاك . والرّين : الذنب على الذنب حتى يسود القلب ، وقيل : الرّين :

١ لَبَّعَ والدنس ، يقال . رَانَ عَلَى قَلْبِهِ ذَنْبُهُ ، يَرِينُ رَبَّنَا ، أَى دَنَسِهِ وَوَسْخِهِ ، واستغفلت أَلُ الرِّينِ عَلَى قُلُوبِهِمْ : تعسّرت فتحها .

قوله : « فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَالْمَوْجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقَّكُمْ » يريدُ أَنَّهُا وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ لَتَمَوْهَا وَجَبَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَجْازِيَكُمْ عَنْهَا بِالْأَثْوَابِ ، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِمَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ فِي الْعَدْلِ ، أَنَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يَجِبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ بَابِ الْحِكْمَةِ .

قوله : « وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهِم بِاللَّهِ ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ » ، يريد : أَوْصِيكُمْ بِأَنْ تَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَى التَّقْوَى بِأَنْ تَدْعُوهُ وَتَتَّبِعُوا إِلَيْهِ أَنْ يَعِينَكُمْ عَلَيْهَا ، وَيُوفِّقَكُمْ لَهَا وَيُسِّرَهَا بِقُوَى دَوَائِعِكُمْ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا ، وَأَوْصِيكُمْ أَنْ تَسْتَعِينُوا بِالتَّقْوَى عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ وَمَحَاسِنِهِ حَسَابِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ كَالْحَاكِمِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ آتِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ ^(١) ، فَالسَّعِيدُ مَنْ اسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ الْحِسَابِ وَتَلَكَ لِحُكُومَةٍ وَالْخُصُومَةِ بِالتَّقْوَى فِي دَارِ التَّكْلِيفِ ، فَإِنَّهَا نِعْمُ الْمَعُونَةُ ﴿ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ زَادٍ التَّقْوَى ﴾ .

وَالْجَنَّةُ : مَا يَسْتَتِرُ بِهِ :

قوله : « وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ » ، يَعْنِي اللَّهُ سَبْحَانَهُ ، لِأَنَّهُ مُسْتَوْدَعُ الْأَعْمَالِ ، وَيُدَلُّ عَلَيْهِ وَلَهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ^(٢) ، وَلَيْسَ مَا قَالَهُ الرَّائِدِيُّ مِنْ أَنَّهُ رَادٌّ بِالْمُسْتَوْدَعِ قَلْبَ الْإِنْسَانِ بِشَيْءٍ .

قوله : « لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا » ، كَلَامٌ فَصِيحٌ لَطِيفٌ ، يَقُولُ : إِنَّ التَّقْوَى لَمْ تَزَلْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى مَنْ سَلَفَ مِنَ الْقُرُونِ ، فَقَبْلِهَا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ ، شَبَّهَهَا بِالْمَرَأَةِ الْعَارِضَةِ نَفْسَهَا نِكَاحًا عَلَى قَوْمٍ ، فَرُغَبَ فِيهَا مَنْ رَغِبَ ، وَزَهَدَ مَنْ زَهَدَ ، وَعَلَى الْحَقِيقَةِ لَيْسَتْ

(١) سُورَةُ الْجَانَّةِ ٢٨ .

(٢) سُورَةُ الْكَهْفِ ٣٠ .

هى العارضة نفسها ، ولكن المكلفين ممكنون من فعلها ومرغبون فيها ، فصارت كالعارضة .

والغابر هاهنا : الباقي ، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباقي ، وبمعنى الماضى .
قوله عليه السلام : « إذا أعاد الله ما أبدى » ، يعنى أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالك الملوك فلم يبق فى الوجود من له تصرف فى شىء غيره ، كما قال : ﴿ لِيَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ^(١) . وقيل فى الأخبار والحديث : إن الله تعالى يجمع الذهب والفضة كل ما كان منه فى الدنيا ، فيجعله أمثال الجبال ، ثم يقول : هذا فتنة بنى آدم ، ثم يسوقه إلى جهنم فيجعله مكاوى لجناب المجرمين .

« وسأل عما أسدى » ؛ أى سأل أرباب الثروة عما أسدى إليهم من النعم فيم صرفوها ؟ وفيم أنفقوها ؟

قوله عليه السلام : « فما أقل من قبلها ! » ، يعنى ما أقل من قبل النقوى العارضة نفسها على الناس .

وإذا فى قوله : « إذا أعاد الله » ؛ ظرف لحاجتهم إليها ، لأن المعنى يقتضيه ، أى لأنهم يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق ؛ وليس كما ظنه الراوندى أنه ظرف لقوله : « فما أقل من قبلها » ، لأن المعنى على ما قلناه ، ولأن ما بعد الفاء لا يجوز أن يكون عاملا فيما قبلها .

قوله : « فأهطعوا بأسماعكم » ، أى أسرعوا ، أهطع فى عذوه أى أسرع . ويروى : « فانقطعوا بأسماعكم إليها » ، أى فانقطعوا إليها مصفين بأسماعكم .

قوله : « وألظوا بجدكم » ، أى ألحوا ، والإلظاظ : الإلحاح فى الأمر ، ومنه قول ابن

اب مسعود : أَلِظُوا فِي الْمُنْعَاءِ بِيَاذَا الْجَلال والإِكرام ، ومنه الملاحظة في الحرب ، ويقال : ر بل مِلَظٌ ومِلْظَاظ ، أى ملحاح ، وألِظَ المطر ، أى دام .

وقوله : « بِجِدِّكُمْ » أى باجتهادكم ، جددتُ في الأمر جداً بالغت واجتهدت ، و روى : « وَأَكْظُوا بِجِدِّكُمْ » والمواكظة : المداومة على الأمر . وقال مجاهد في قوله : لى : ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ ^(١) قال : أى مواكظا .

قوله : « وَأَشْعُرُوا بِهَا قُلُوبَكُمْ » ، يجوز أن يريد : اجعلوها شعاراً لقلوبكم ، وهو دون الدثار ، وألصق بالجسد منه ، ويجوز أن يريد : اجعلوها علامةً يعرف بها القلب اق من القلب المذنب كالشعار في الحرب يعرف به قوم من قوم ، ويجوز أن يريد أن يرجوا قلوبكم بها من أشعار البدن ، أى طهروا القلوب بها ، وصفوها من دنس . ثوب ، كما يصفى البدن بالفصاد من غلبة الدم الفاسد ؛ ويجوز أن يريد الإشعار بمعنى إعلام ، من أشعرت زيدا بكذا ، أى عرفته إياه ؛ أى اجعلوها عالمةً بجلالة موقعها شرف محلها .

قوله : « وَارْحَضُوا بِهَا » أى اغسلوا ، وثوب رَحِيض ومرحوض ، أى مغسول . قال : « وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ » ، يعنى أسقام الدنوب .

وبادروا بها الحِمَامَ : مجلوا واسبقوا الموت أن يدرككم وأنتم غير متقين . واعتبروا بمن أضاع التقوى فهلك شقيًا ، ولا يعتبرن بكم أهل التقوى ، أى تكونوا أنتم لهم معتبرا بشقاوتكم وسعادتهم .

ثم قال : وصونوا التقوى عن أن تمازجها المعاصى ، وتصونوا أنتم بها عن الدناءة ما ينافى العدالة .

والنُّزْه : جمع نَزِيه ، وهو المتباعد عما يوجب الذم . والولاه : جمع وَاَلِه ، وهو لشتاق ذو الوجد حتى يكاد يذهب عقله .

ثم شرع في ذكر الدنيا ، فقال : « لاتشيموا بارقها » ، الشيم : النظر إلى البرق انتظاراً للمطر .

ولا تسمعوا ناطقها : لاتصغوا إليها سامعين ، ولا تجيبوا مناديتها .
والأعلاق : جمع علق وهو الشيء النفيس . وبرق خالب وخلب : لا مطر فيه .
وأموالها محروبة ، أى مسلوبة .

قوله عليه السلام : « ألا وهى المتصدية العنُون » ؛ شبهها بالمرأة المومِس تتصدى للرجال تريد الفجور . وتتصدى لهم : تتعرض . والعنُون : المتعرضة أيضا ، عن لى كذا أى عرض .

ثم قال : « والجامحة الحرُون » شبهها بالدابة ذات الجراح ، وهى التى لا يُستطاع ركوبها لأنها تعثر بفارسها وتغلبه ، وجعلها مع ذلك حرُونا وهى التى لا تنقاد .

ثم قال : « والمائنة الخُنُون » ، مان ، أى كذب ، شبهها بامرأة كاذبة خائنة .

والجُود الكُنُود ، جحد الشيء أنكره ، وكند النعمة : كفرها ، جعلها كامرأة تجحد الصنيعة ولا تعترف بها وتكفر النعمة . ويجوز أن يكون الجُود من قولك : رجل جَحد وجَحد ، أى قليل الخير ، وعام جَحد ، أى قليل المطر ، وقد جحد النبت ، إذا لم يَطل .

قال : « والمُنُود : الصَّدُود » ، العُنُود : الناقة تعدل عن مرعى الإبل وترعى ناحية ، والصَّدُود : المعرضة ، صد عنه ، أى أعرض ؛ شبهها فى انحرافها وميلها عن القصد بتلك .
قال : « والحيُود المَيُود » ؛ حادت الناقة عن كذا تحيد فهى حيُود ، إذا مالت عنه .
ومادت تُميد فهى مَيُود ، أى مالت ، فإن كانت عاديها ذلك سُميت الحيُود المَيُود فى كل حال .

قال: « حالها انتقال »؛ يجوز أن يعنى به أن شيمتها وسجيتها الانتقال والتغير، ويجوز أن يريد به معنى أدق وهو أن الزمان على ثلاثة أقسام: ماض، وحاضر، ومستقبل، فالماضي والمستقبل لا وجود لهما الآن، وإلما الموجود أبدا هو الحاضر؛ فلما أراد المبالغة في وصف الدنيا بالتغير والزوال قال: « حالها انتقال »، أى أن الآن الذى يحكم العقلاء على بالحضور منها ليس بحاضر على الحقيقة، بل هو سيال متغير، فلا ثبوت إذاً لشيء منه مطلقاً. ويروى: « وحالها افتعال »، أى كذب وزور، وهى رواية شاذة.

قال: « ووطأتها زلال »، الوطأة كالضغطة، ومنه قوله صلى الله عليه وآله: « اللهم اشذ وطأتك على مضر »، وأصلها موضع القدم. والزلال: الشدة العظيمة، والجمع زلاليل.

وقال الراوندى فى شرحه: يريد أن سكونها حركة، من قولك: وطؤ الشيء، أى ص وطئاً إذا حال ليته، وموضع وطئ، أى وثير، وهذا خطأ، لأن المصدر من ذلك واء بالمد، وهاهنا وطأة ساكن الطاء، فأين أحدهما من الآخر!

قال: « وعلوها سفلى »، يجوز ضم أولهما وكسره.

قال: « دار حرب » الأحسن فى صناعة البديع أن تكون الراء هاهنا ساكنة لئلا يلى السكون هاء « نهب » ومن فتح الراء، أراد السلب، حربته أى سابت ماله. قال: « أهأها على ساق وسياق » يقال: قامت الحرب على ساق، أى على شدة. وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾^(١) والسياق: نزاع الروح، يقال: رأيت فلاناً يسوق، أى ينزع عند الموت، أو يكون مصدر ساق الماشية سواق وسياقا. والراوندى فى شرحه: يريد أن بعض أهلها فى أثر بعض كقولهم: ولدت فلانة

ثلاثة بنين على ساقٍ ، وليس ما قاله بشيء ، لأنهم يقولون ذلك للمرأة إذا لم يكن بين البنين أنثى ، ولا يقال ذلك في مطلع التتابع : أين كان .
قال عليه السلام : « ولحاق وفراق » ، اللام مفتوحة ، مصدر لحق به ، وهذا كقولهم :
« الدنيا مولود يولد ، ومفقود يفقد » .

قال عليه السلام : « قد تحيّرت مذاهبها » ، أى تحير أهلها في مذاهبهم ، وليس يعنى بالمذاهب هاهنا الاعتقادات ، بل المسالك ..

وأعجزت مهاربها : أى أعجزتهم جعلتهم عاجزين ، خذف المفعول .
وأسلمتهم المعازل : لم تخصّصهم .
ولفطّتهم ، بفتح الفاء : رمت بهم وقدّتهم .
وأعيتهم الخاول ، أى المطالب .
ثم وصف أحوال الدنيا فقال : « هم فيمن ناجٍ معذور » ، أى مجروح كالحارب من الحرب
بجشاشة نفسه ، وقد جرح بدنه .

ولحم مجزور ، أى قتيل قد صار جزراً للسباع .
وشلّو مذبوح : الشلّو ، العضو من أعضاء الحيوان ؛ المذبوح أو الميت . وفي الحديث :
« اثنونى يشلّوها الأيمن » .

ودم مفسوح ، أى مسفوك . وعاضّ على يديه ، أى ندما .
وصافق بكفّيه ، أى تعسفا أو تعجبا .
ومرتفق بخديّه : جاعل لهما على مرفقيه فكراً وهماً .

وزار على رأيه ، أى عائب ، أى يرى الواحد منهم رأياً ويرجع عنه ويعيبه ، وهو
البداء الذى يذكره المتكلمون . ثم فسره بقوله : « وراجع عن عزمه » .

فإن قلت : فهل يمكن أن يفرق بينهما ، ليكون الكلام أكثر فائدة ؟
قلت : نعم ، بأن يريد بالأوّل مَنْ رأى رأيا وكشفه لغيره ، وجامعه عليه ثم بدا
وعابه ، ويريد بالثاني مَنْ عزم نفسه عزيمة ولم يظهر لغيره ثم رجع عنه ، ويمكن أيضا
أن يفرّق بينهما بأن يعنى بالرأى الاعتقاد ، كما يقال : هذا رأى أبى حنيفة ، والعزم أمر
فرد خارج عن ذلك ، وهو ما يعزم عليه الإنسان من أمور نفسه ، ولا يقال : عزم
الاعتقادات .

ثم قال عليه السلام : « وقد أدبرت الحيلة » أى ولّت ، وأقبلت الغيلة ، أى الشر ، ومنه
نولهم : فلان قايل الغائلة . أو يكون بمعنى الاغتيال ، يقال : قتله غيلة ، أى خديعة . يذهب به
لى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله .

قال عليه السلام : « ولات حين مناص » ، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز^(١) ، قال
لأخفش : شبهوا « لات » بليس ، وأضمرُوا فيها اسم الفاعل ؛ قال : ولاتكون « لات »
لا مع « حين » ، وقد جاء حذف « حين » فى الشعر ، ومنه المثل : « حنّت ولات هنت » ،
ى ولات حين حنّت ، والهاء بدل من الحاء ، فحذف الحين وهو يريد . قال : وقرأ
مضمهم ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ بالرفع ، وأضمر الخبر . وقال أبو عبيد : هى لا ؛
التاء إمّا زيدت فى « حين » ، لا فى « لا » ، وإن كتبت مفردة ، والأصل
« تحين » كما قال فى « ألان » « تلان » . فزادوا التاء ، وأنشد لأبى وجزة :

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان أين المطعم^(٢)

وقال المؤرّج : زيدت التاء فى « لات » كما زيدت فى « ربّت » و « ثمت » .
والمناص : المهرب ، ناص عن قرنه ينوص نوصا ومناصا ، أى ليس هذا وقت الهرب والفرار .

(١) وهو قوله تعالى فى سورة ص ٣ : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

(٢) الصحاح ١ : ٢٢٦ .

ويكون المناص أيضا بمعنى الملجأ والمفرج، أى ليس هذا حين تجد مفرزا ومعقلا تعتصم به.
هيهات : اسم للفعل ومعناه بُعد، يقال : هيهات زيد فهو مبتدأ وخبر، والمعنى يعطى
الفعلية، والتاء فى «هيهات» مفتوحة مثل كيف، وأصلها هاء، وناس يكسرونها على كل
حال بمنزلة نون التثنية، وقال الراجز :

هَيْهَاتٍ مِنْ مُصَبِّحِهَا هَيْهَاتٍ هَيْهَاتٍ حَجْرُهُ مِنْ صُنَيْعَاتٍ^(١)
وقد تبدل الهاء همزة، فيقال «أيها» مثل هراق وأراق، قال :
* أَيَّهَاتَ مِنْكَ الْحَيَاةُ أَيَّهَاتَا^(٢) *

قال الكسائى : فمن كسر التاء وقف عليها بالهاء، فقال : «هَيْهَاهُ»، وَمَنْ فَتَحَهَا وَقَفَ
إِنْ شَاءَ بِالتَّاءِ وَإِنْ شَاءَ بِالْهَاءِ .

قوله عليه السلام : «ومضت الدنيا لحال بالها» ، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره،
ومعناها مضى بما فيه إن كان خيرا ، وإن كان شرا .

قوله عليه السلام : «فأبكت عليهم السماء» ؛ هو من كلام الله تعالى ؛ والمراد أهل
السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى أنهم لا يستحقون أن يتأسف عليهم،
وقيل : أراد المبالغة فى تحقير شأنهم ؛ لأن العرب كانت تقول فى العظيم القدر يموت : بكته
السماء ، وبكته النجوم ، قال الشاعر :

فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ^(٣)

فنفى عنهم ذلك، وقال : ليسوا من يقال فيه مثل هذا القول، وتأولها ابن عباس رضى
الله عنه لما قيل له : أتبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال : نعم يبكيه مصلاة فى الأرض
ومصعد عمله فى السماء ؛ فيكون نفى البكاء عنهما كناية عن أنه لم يكن لهم فى الأرض
عمل صالح يرفع منهما إلى السماء .

(١) الانسان ١٧ : ٤٥١ من رجز نسيه الى حميد الأرقط .

(٢) انظر اللسان ١٧ : ٤٥٢

(٣) لجرير ، ديوانه ٣٠٤ .

(٢٣٨)

الأفضل

ومن خطبة له عليه السلام :

(ومن الناس مَنْ يَسْتَمِعُ هذه الخطبة بالقاصعة ، وهي تتضمن ذمَّ إبليس لعينه الله ، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية. وتحذير الناس من سلوك طريقته) :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبْرِيَاءَ ؛ وَأَخْتَارَهَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهَا حِمًى وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ ، وَأَصْطَفَاهَا لِجَلَالِهِ ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَارَعَهُ فِيهَا مِنْ عِبَادِهِ .

ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّرِينَ ؛ لِيَمِيزَ الْمُتَوَاصِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكَبِرِينَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ : ﴿ إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ ^(١) ؛ اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ ، فَأَفْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ ، فَعَدَّوْهُ اللَّهُ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكَبِرِينَ ؛ الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ ، وَنَارَعَ اللَّهَ رِذَاءَ الْجَبَرِيَّةِ ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ .

أَلَا يَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبَرِهِ ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفَعِهِ ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَذْخُورًا ، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا .

البُخْر :

يجوز أن تسمى هذه الخطبة « القاصعة » من قولهم : قَصَعَت الناقة بَجَرَّتْهَا ، وهو أن تردّها إلى جوفها ، أو تخرجها من جوفها فتملأها ، فلما كانت الزواجر والمواظف في هذه الخطبة مردّدة من أولها إلى آخرها ، شبهها بالناقة التي تقصع الجرّة . ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبية ، من قولهم : قَصَعَت القملة ، إذا هشمته وقتلتها . ويجوز أن تسمى القاصعة ، لأنّ المستمع لها المعتبر بها يذهب كبره ونخوته ، فيكون من قولهم : قصع الماء عطشه ، أى أذهبه وسكنه ، قال ذو الرّمة بيتا في هذا المعنى :

فَانْصَاعَتْ أَلْحَبُ لَمْ تَقْصَعْ صَرَائِرَهَا وَقَدْ تَشَحَّحَ فَلَا رِيَّ وَلَا هِيْمُ ^(١)

الصّرائر : جمع صريرة ، وهى العطش ؛ ويجوز أن تسمى القاصعة ، لأنها تتضمن تحقير إبليس وأتباعه وتصغيرهم ، من قولهم : قصعت الرجل إذا امتنّته وحقّرت ، وغلّام مقصوع ، أى قىء لا يشب ولا يزداد .

والعصبية على قسمين : عصبية فى الله وهى محدودة ، وعصبية فى الباطل وهى مذمومة ؛ وهى التى نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنها ، وكذلك الحمية . وجاء فى الخبر : « العصبية فى الله تورث الجنة ، والعصبية فى الشيطان تورث النار » .

وجاء فى الخبر : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردأى ، فمن نازعنى فيهما قصمته » ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : « اختارها لنفسه دون خلقه ... » إلى آخر قوله : « من عباده » . قال عليه السلام : « ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين » . مع علمه بمضموراتهم ؛ وذلك لأنّ اختبارهم سبحانه ليس ليعلّم ، بل ليعلم غيره من خلقه طاعة من يطيع وعصيان من يعصى ، وكذلك ، قوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ

(١) ديوانه ٥٨٨ . انصاعت : ذهب هاربة . والحقب : الحر الوحشية . وروايته : « وقد نشحن » .

الرَّ، وَلَئِنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴿١﴾، النون في «لنعلم» نون الجمع لانون العظمة، أى لتصير. أنت وغيرك من المكلفين عالمين لمن يطيع ومن يعصى، كما أنا عالم بذلك، فتكونوا كلكم مشاكين لى فى العلم بذلك .

فإن قلت : وما فائدة وقوفهم على ذلك وعلمهم به ؟
قلت : ليس بممتنع أن يكون ظهور حال العاصى والمطيع وعلم المكلفين أو أكثرهم أو ضمهم به يتضمّن لطفًا فى التكليف !
فإن قلت : إن الملائكة لم تكن تعلم ما البشر ، ولا تتصور ماهيته ، فكيف قال لهم ﴿ خَالِقِ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ ؟

قلت : قد كان قال لهم : إني خالق جسمًا من صفته كيت وكيت ، فلما حكاه اقتصر على الاسم . ويجوز أن يكون عرفهم من قبل أن لفظة « بشر » على ماذا تقع ، ثم قال لهم : إني خالق هذا الجسم الخصوص الذى أعلمتكم أن لفظة « بشر » واقعة عليه من طين . قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ ﴾ ؛ أى إذا أكملت خلقه .

ففعوا له ساجدين : أمرهم بالسجود له . وقد اختلف فى ذلك فقال قوم : كان قبله ، كما لا تعب اليوم قبله ، ولا يجوز السجود إلا لله . وقال آخرون : بل كان السجود له تكملة وإنه ، والسجود لغير الله غير قبيح فى العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة .
وقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ، أى أحللت فيه الحياة ، وأجريت الروح إلى فى عروقه ، وأضاف الروح إليه تبيلا لها ، وسمى ذلك نفخا على وجه الاستعارة ، لأن العرب تتصور من الروح معنى الريح ، والنفخ يصدق على الريح ، فاستعار لفظة « لنفخ » توسعا .

وقالت الحكماء : هذا عبارة عن النفس الناطقة .

فإن قلت : هل كان إبليس من الملائكة أم لا ؟

قلت : قد اختلف في ذلك ، فمن جعله منهم احتج بالاستثناء ، ومن جعله من غيرهم احتج بقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ ، وجعل الاستثناء منقطعاً ، وبأن له نسلاً وذرية ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ ^(١) ، والملائكة لانسلاهم ولا ذرية ، وبأن أصله نار والملائكة أصلها نور ، وقد مرّ لنا كلام في هذا في أول الكتاب .

قوله : « فافترس على آدم بخلقه ، وتعصب عليه لأصله » ، كانت خلقته أهون من خلقه آدم عليه السلام ، وكان أصله من نار وأصل آدم عليه السلام من طين .

فإن قلت : كيف حكم على إبليس بالكفر ، ولم يكن منه إلا مخالفة الأمر ، ومعلوم أن تارك الأمر فاسق لا كافر !

قلت : إنه اعتقد أن الله أمره بالقبيح ولم ير أمره بالسجود لآدم عليه السلام حكمة وامتنع من السجود تكبراً ، وردّ على الله أمره ، واستخفّ بمن أوجب الله إجلاله ، وظهر أن هذه المخالفة عن فساد عقيدة ، فكان كافراً .

فإن قلت : هل كان كافراً في الأصل أم كان مؤمناً ثم كفر ؟

قلت : أمّا المرجئة فأكثرهم يقول : كان في الأصل كافراً ، لأنّ المؤمن عندهم لا يجوز أن يكفر ، وأمّا أصحابنا فلمّا كان هذا الأصل عندهم باطلاً توقّفوا في حال إبليس ، وجوّزوا كلا الأمرين .

قوله عليه السلام : « رداء الجبرية » الباء مفتوحة ، يقال : فيه جبرية ، وجبروة ، و بروت ، وجبورة ، كفروجة ، أى كبر ، وأنشدوا :
فإنك إن عادتني غَضِبَ الحصا عليك وذو الجبورة المتغَطِرُ (١)
وجعله مدحورا ، أى مطرودا مبعداً ، دحره الله دحورا ، أى أقصاه وطرده .

الأصل :

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ ، وَيَهْرُ الْعُقُولَ رُؤْيُهُ ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ ، لَفَعَلَ ؛ وَلَوْ فَعَلَ لَطَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً ، وَنَمَتِ الْبُلُوعَى فِيهِ عَلَى اللَّائِكَةِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَهْلَهُ تَمْيِيزًا بِالْاِخْتِبَارِ لَهُمْ ، وَنَفْيًا لِلْاِسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ ، وَإِعَادًا لِلْخِيَلَاءِ مِنْهُمْ ، فَانْبَرَوْا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ ، وَنَ قَدْ عَبْدَ اللَّهُ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ ، لَا يَدْرِي أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ ، عَرَّ كِبَرُ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلُمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ !
كَلَامًا مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيَدْخُلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بِأَمْرِ أُخْرِجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا ، إِذْ حُكِمَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَوَاحِدٍ ، وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي بَاحَةِ حَيِّ حَرَمِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ .

الشح :

خَطِفَتِ الشَّيْءَ بِكسر الطاء ، أخطفه ، إذا أخذته بسرعة استلاباً ، وفيه لغة أخرى :

(١) لمغلس بن لقيط الأسدي ، وانظر الصحاح وحواشيه (جبر) .

خَطَفَ بالفتح ، ويخطف بالفتح ويخطف بالكسر ، وهى لغة رديئة قليلة لا تكاد تعرف ، وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخِطِفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١) .

والرَّوَاء ، بالهمزة والمد : المنظر الحسن . والعَرَف : الريح الطيبة .

والخِيَلَاء ، بضم الخاء وكسرها : الكِبَر ، وكذلك الخَالُ والخَيْلَة ، تقول : اخْذَل الرجل وخال أيضا ، أى تكبّر .

وأحْبَط عمله : أبطل ثوابه ، وقد حبط العمل حَبَطًا بالتسكين وحُبوطًا . والمتكلمون يسمّون إبطال الثواب إحباطًا وإبطال العقاب تكفيراً .

وجَهْدَه بفتح الجيم : اجتهد وجِدّه ، ووصفه بقوله : « الجَهِيد » أى المستقصى ، من قولهم : مرعى جَهِيد ، أى قد جَهد المَال الراعى واستقصى رَعِيه .

وكلامه عليه السلام يدلّ على أنّه كان يذهب إلى أنّ إبليس من الملائكة لقوله : « أخرج منها ملكاً » .

والهَوَادَة : الموادة والمصالحة ، يقول : إن الله تعالى خلق آدم من طين ، ولو شاء أن يخلقه من النور الذى يخطف أو من الطيب الذى يعبق لفعل ، ولو فعل لهل الملائكة أمره وخضعوا له ، فصار الابتلاء والامتحان والتكليف بالسجود له خفيفا عليهم ، لعظمته فى نفوسهم ، فلم يستحقّوا ثواب العمل الشاقّ ، وهذا يدلّ على أنّ الملائكة تشمّ الرائحة كما نشمّها نحن ، ولكنّ الله تعالى يبتلى عباده بأمور يجهلون أصلها اختباراً لهم .

فإن قلت : مامعنى قوله عليه السلام : « تمييزا بالاختبار لهم » .

قلت : لأنه ميّزهم عن غيرهم من مخلوقاته ، كالحیوانات العجم ، وأبأنهم عنهم ، وفضّلهم عليهم بالتكليف والامتحان .

قال : « ونفيا للاستكبار عنهم » ؛ لأن العبادات خضوع وخشوع وذلة، ففيها نفى
تعالى والتكبر عن فاعليها ، فأمرهم بالاعتبار بحال إبليس الذي عبد الله ستة آلاف
سنة ؛ لا يدري أين الدنيا أم من سنى الآخرة ! وهذا يدل على أنه قد سمع فيه
أما من رسول الله صلى الله عليه وآله لم يفسره له ، أو فسره له خاصة ، ولم يفسره أمير
المؤمنين عليه السلام للناس لما يعلمه في كتابه عنهم من المصلحة . .

فإن قلت : قوله : « لا يدري » على ما لم يسم فاعله يقتضى أنه هو لا يدري !
قلت : إنه لا يقتضى ذلك ، ويكفى في صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يحمله
الكثيرون .

فأما القول في سنى الآخرة كم هي ؟ فاعلم أنه قد ورد في الكتاب العزيز آيات
تلفات :

إحداهن قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ
فَسَنَةٍ ﴾ (١) .

والأخرى قوله : ﴿ يُدَبَّرُ الْأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
نِدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٢) .

والثالثة قوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٣) .
وأولى ما قيل فيها أن المراد بالآية الأولى مدة عمر الدنيا ، وسمى ذلك يوما ، وقال :
ن الملائكة لا تزال تعرج إليه بأعمال البشر طول هذه المدة حتى ينقضى التكليف ،
ينتقل الأمر إلى دار أخرى . وأما الآيتان الأخيرتان فمضمونهما بيان كمية أيام الآخرة ،
هو أن كل يوم منها مثل ألف سنة من سنى الدنيا .

(٢) سورة السجدة ٥ .

(١) سورة المعارج ٤

(٣) سورة الحج ٤٧ .

فإن قلت : فعلى هذا كم تكون مدة عبادة إبليس إذا كانت ستة آلاف سنة من سنى الآخرة ؟

قلت : يكون ما يرتفع من ضرب أحد المضروبين فى الآخرة ، وهو ألفاً ألف ألف ، ثلاث لفظات ، الأولى منه مئة ألف ، ومائة ألف ألف لفظتان ، وستون ألف ألف سنة لفظتان أيضاً من سنى الدنيا . ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبلغ عظيماً جداً علم أن أذهان السامعين لا تحتمله ، فلذلك أبهم القول عليهم ، وقال : « لا يدرك من سنى الدنيا أم من سنى الآخرة » .

فإن قلت : فإذا كنتم قد رجّحتم قول من يقول : إن عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، فكم يكون عمرها إن كان الله تعالى أراد خمسين ألف سنة من سنى الآخرة ؟ لأنه لا يؤمن أن يكون أراد ذلك إذا كانت السنة عنده عبارة عن مدة غير هذه المدة التى قد اصطلاح عليها الناس ؟

قلت : يكون ما يرتفع من ضرب خمسين ألفاً فى ثمانمائة وستين ألف سنة من سنى الدنيا ومبلغ ذلك ثمانية عشر ألف ألف ألف سنة من سنى الدنيا ثلاث لفظات ، وهذا القول قريب من القول الحكيم عن الهند .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه روايات كثيرة بأسانيد أوردها عن جماعة من الصحابة أن إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سُموا الجن لأنهم كانوا خزان الجنان ، وكان إبليس رئيسهم ومقدمهم . وكان أصل خلقهم من نار السموم ، وكان اسمه الحارث ، قال : وقد روى أن الجن كانت فى الأرض ، وأنهم أفسدوا فيها ، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار ، ثم تكبر فى نفسه ، ورأى أنه قد صنع شيئاً عظيماً لم يصنعه غيره . قال : وكان شديد الاجتهاد فى العبادة .

وقيل : كان اسمه عزازيل ، وأنَّ الله تعالى جعله حَكماً وقاضياً بين سكان الأرض ، فدخله الكبر والعجب لعبادته واجتهاده وحكمه في سكان الأرض و ضائه بينهم ، فانطوى على المعصية حتَّى كان من أمره مع آدم عليه السلام ما كان .
قلت : ولا ينبغي أن نصدّق من هذه الأخبار وأمثالها إلا ماورد في القرآن العزيز
إلى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أو في السنّة ، أو نقل عنّ يجب الرجوع إلى قوله ، وكلّ ما عدا ذلك فالكذب فيه أكثر من الصدق ، والباب مفتوح ، فليقل
سأُحَدِّثُ في أمثال هذه القصص ما شاء .

واعلم أنَّ كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل يطابق مذهب أصحابنا في أنَّ الجنّة لا يدخلها ذ معصية ، ألا تسمع قوله : « فمن بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته ! كلاً ، ما كان الله لِيُخِلَّ الجنّة بشراً بأمراً أخرج به منها ملكاً ، إنَّ حكمه في أهل السماء والأرض لواحد » .
فإن قلت : أليس من قولكم : إن صاحب الكبيرة إذا تاب دخل الجنّة ! فهذا صاحب سيئة وقد حكمت له بالجنّة !

قلت : إن التوبة أحبطت معصيته فصار كأنه لم يعص .
فإن قلت : إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : « فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل سيئته ! » ، ولم يقل : بالمعصية المطلقة ؛ والمرجئة لا تخالف في أنَّ مَنْ وافى القيامة بمثل سيئة إبليس لم يكن من أهل الجنّة .

قلت : كلّ معصية كبيرة فهي مثل معصيته ، ولم يكن إخراجه من الجنّة لأنه كافر ، لأنه عاصٍ يخالف للأمر ، ألا ترى أنه قال سبحانه : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ (١) ، فعلل إخراجه من الجنّة بتكبره لا بكفره .

فإن قلت : هذا مناقض لما قدّمت في شرح الفصل الأول .

قلت : كلاً ، لأنني في الفصل الأول علّلت استحقاقه اسم الكفر بأمر زائد على المعصية المطلقة ، وهو فساد اعتقاده ، ولم أجعل ذلك علة في خروجه من الجنة ، وهاهنا عللت خروجه من الجنة بنفس المعصية ، فلا تناقض .

فإن قلت : مامعنى قول أمير المؤمنين عليه السلام : « ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بأمرٍ أخرج به منها ملكاً » ؟ وهل يظنّ أحد أو يقول : إن الله تعالى يدخل الجنة أحداً من البشر بالأمر الذى أخرج به هاهنا إبليس ! كلاً ، هذا لما لا يقول له أحد ، وإنما الذى يقوله المرجئة : إنّه يدخل الجنة من قد عصى وخالف الأمر - كما خالف الأمر إبليس - برحمته وعفوه ، وكما يشاء ، لا أنه يدخله الجنة بالمعصية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى نفي دخول أحد الجنة بالمعصية لأن الباء للسببية ؟

قلت : الباء هاهنا ليست للسببية كما يتوهمه هذا المعترض ؛ بل هى كالباء فى قولهم : خرج زيد بثيابه ، ودخل زيد بسلاحه ، أى خرج لابساً ، ودخل متسلحاً ، أى يصحبه الثياب ويصحبه السلاح ، فكذلك قوله عليه السلام : « بأمر أخرج به منها ملكاً » ، معناه أن الله تعالى لا يدخل الجنة بشراً يصحبه أمر أخرج الله به ملكاً منها .

الأصل :

فاحذروا عباد الله عدوّ الله أن يعدّكم بدائه ، وأن يستفزكم بخيئه ورجله ، فلمعمرى لقد فوق لكم ستمه ألوعيد ، وأغرق إليكم بالنزع الشديد ، ورمّاكم من مكان قريب ، فقال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١) ، قدفاً بغيب بعيد ، ورجماً بظنّ

(١) سورة الحجر : ٣٩ .

غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرُسَانُ الْكِبَرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ،
حِينَ إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَاهِلَةُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَذَجَمَتْ فِيهِ
أَمْرًا مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ
تَحْمَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الدَّلِّ، وَأَحْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَشُوكُمْ إِتْخَانَ
الْجَاهِلَةِ، طَعَنًا فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزَنًا فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقًّا لِمَنَاحِرِكُمْ، وَقَصْدًا
لِمَنَاسِكِكُمْ، وَسَوَّقًا بِحَزَائِمِ الْقَهْرِ، إِلَى النَّارِ الْمَعْدَةِ لَكُمْ، فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي
دِينِكُمْ حَرْجًا، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحًا، مِنْ الَّذِينَ أَصْبَحَتْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ،
وَمِنْهُمْ مُتَأَلِّبِينَ.

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ وَلَهُ جِدَّكُمْ. فَلَمَعَرُ اللَّهُ لَقَدْ فَخَّرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ
فِي سَيْبِكُمْ، وَوَدَّعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِحَيْلِهِ عَلَيْكُمْ؛ وَقَصَدَ بِرَجُلِهِ سَبِيلَكُمْ.
يَقْدِرُ بِصُورَتِكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُكُمْ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ، لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ،
وَأَتَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلَقَةِ ضَيْقٍ، وَعَرَصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةٍ بِلَاءٍ.
فَأُطْفِئُوا مَا كَمَنَّ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَأُحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ
الْأَيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ، وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَعَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَأَعْتَمِدُوا
وَعَلَّ التَّدَلُّلَ عَلَى رُءُوسِكُمْ، وَالْإِقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلَعَ التَّكْبِيرَ مِنْ
أَذْقِكُمْ، وَاتَّخَذُوا التَّوَاضُعَ مَسَلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛
فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودًا وَأَعْوَانًا، وَرَجُلًا وَفُرْسَانًا؛ وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ
عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ، سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ
عَاقِبَةِ الْخُسْبِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أُنْفِهِ
مِنْ رِيحِ الْكِبَرِ؛ الَّذِي أَغْبَاهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَالزَّمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الشَّح :

موضع « أَنْ يُعَدِّيَكُمْ » نصب على البدل من « عَدُوَّ اللَّهِ » . وقال الراوندي : يجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، وهذا ليس بصحيح لأن « حذر » لا يتعدى إلى المفعولين ، والعَدُوَّى : ما يُعَدَّى من جَرَبٍ أو غيره ، أعدى فلانُ فلانا من خُلُقهِ أو من بِلَّتِهِ ، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره ، وفي الحديث : « لَاعَدُوَّى فِي الْإِسْلَامِ » .

فإن قلت : فإذا كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد أبطل أمر العَدُوَّى ، فكيف قال أمير المؤمنين : « فاحذروه أَنْ يُعَدِّيَكُمْ » ؟

قلت : إن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أبطال ما كانت العرب تزعمه من عَدُوَّى الجَرَبِ فِي الْإِبِلِ وغيرها ، وأمير المؤمنين عليه السلام حذر المكلفين من أن يتعلموا من إبليس الكِبَرِ والحِيَةِ ، وشبه تعلمهم ذلك منه بالعَدُوَّى لاشتراك الأمرين فِي الْإِنْتِقَالِ من أَحَدِ الشَّخْصِينَ إِلَى الْآخَرِ .

قوله عليه السلام : « يَسْتَفْزِمُ » أى يَسْتَخَفُّكُمْ ، وهو من أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ : ﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مَنْ أُسْطَطِعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ ^(١) ، أى أزعجه واستخفه وأطر قلبه . والخيل : الخيالة ، ومنه الحديث : « يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرْكَبِي » .

وَالرَّجُلُ : اسم جمع لراجل كركب اسم جمع لراكب ، وصَحْبُ اسم جمع لصاحب ، وهذه أيضا من أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَأَجِيبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ ^(٢) وقرئ ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ ^(٣) بكسر الجيم على أن « فِعْلًا » بالكسر بمعنى فاعل نحو تَعِبَ وَتَأَعَبَ ،

(٢) سورة الإسراء ٦٤ .

(١) سورة الإسراء ٦٤

(٣) هي قراءة حفص ؛ وانظر تفسير القرطبي ١٠ : ٢٨٨ .

و ناه ، وقد تضمّ الجيم أيضا ، فيكون مثل قولك : رجل حَدِثٌ وَحَدُثٌ
و يس وَنَدُسْ .

فإن قلت : فهل لإبليس خيل تركبها جنده ؟

قلت : يجوز أن يكون ذلك ، وقد فسره قوم بهذا . والصحيح أنه كلام خرج مخرج
الـ ، شبهت حاله في تسلطه على بني آدم بمن يُغَيِّرُ على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم .
و ل : بصوتك ، أى بدعائك إلى القبيح . وخيله ورجله : كلّ ماشٍ وراكب من أهل
الـ من بني آدم .

قوله : « وفوّت السهم » جعلت له فوّقا ، وهو موضع الوتر ، وهذا كناية عن
الـ متعدد ، ولا يجوز أن يفسر قوله : « فقد فوّق لكم سهم الوعيد » بأنه وضع الفوّق
في لوتر ليرمى به ، لأنّ ذلك لا يقال فيه : قد فوّق ، بل يقال : أفقت السهم وأوفقته
أي لا يقال : أفوقته ، وهو من النوادر .

وقوله : « وأغرق إليكم بالنزع » ، أى استوفى مدّ القوس وبالغ في نزْعِها ليكون
مـ ما أبعد ، ووقع سهامه أشدّ .

قوله : « ورماكم من مكان قريب » ، لأنه كما جاء في الحديث : « يجرى من ابن
آد مجرى الدم ، ويخالط القلب » ، ولا شيء أقرب من ذلك .

والباء في قوله : « بما أغويتني » متعلّق بفعل محذوف تقديره : أجازيك بما أغويتني
تزي ليهم القبيح ، فـ « ما » على هذا مصدرية ، أى أجازيك بإغوائك لي تزييني لهم القبيح ،
في ف المفعول . ويجوز أن تكون الباء قسما ، كأنه أقسم بإغوائه إياه ليزين لهم .

فإن قلت : وأى معنى في أن يقسم بإغوائه ؟ وهل هذا مما يقسم به !

قلت : نعم ، لأنه ليس بإغواء الله تعالى إياه خلق النّفى والضلال في قلبه ، بل تكليفه

إِيَّاهُ السَّجُودَ الَّذِي وَقَعَ الْغَيِّ عِنْدَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، لَأَمِنْ اللَّهِ ، فَصَارَ حَيْثُ وَقَعَ عِنْدَهُ ، كَأَنَّهُ مُوجِبٌ عَنْهُ ، فَنسَبَ إِلَى الْبَارِئِ ، وَالتَّكْلِيفُ تَعْرِيفُ الْمَثُوبِ ابْوَ لَذَّةِ الْأَبَدِ ، فَكَانَ جَدِيرًا أَنْ يُقَسَمَ بِهِ ، وَقَدْ أَقْسَمَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، فَقَالَ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوْ يَنْهَمُ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١) ، فَأَقْسَمَ بِالْعِزَّةِ ، وَهَاهُنَا أَقْسَمَ بِالْأَمْرِ وَالتَّكْلِيفِ . وَيُجَوِّزُ فِيهِ وَجْهٌ ثَالِثٌ ، وَهُوَ لَا تَكُونُ الْبَاءُ قِسْمًا ، وَيَقْدَرُ قَسَمٌ يُجْذَوْفٌ ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى : بِسَبَبِ مَا كَلَّفْتَنِي دَفَافِصِي إِلَى غَوَايَ ، أَقْسِمُ لَا أَفْعَلَنَّ بِهِمْ نَحْوَ مَا فَعَلْتَ بِي ، وَهُوَ أَنَّ أَزَيَّنَ لَهُمُ الْمَعَاصِيَ الَّتِي تَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ .

فَإِنْ قُلْتَ : لَيْسَ هَذَا نَحْوَ مَا فَعَلَهُ الْبَارِئُ بِهِ ، لِأَنَّ الْبَارِئَ أَمَرَهُ بِالْحَسَنِ فَأَيَّاهُ ، وَعَدَّلَ عَنْهُ إِلَى الْقَبِيحِ ، وَالشَّيْطَانُ لَا يَأْمُرُنَا بِالْحَسَنِ فَفَكَرْهُ وَنَعْدِلْ عَنْهُ إِلَى الْقَبِيحِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ نَحْوَ وَقَعْتَهُ مَعَ الْبَارِئِ !

قُلْتَ : الْمِشَابَهَةُ بَيْنَ الْوَاقِعَتَيْنِ فِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَقَعُ عِنْدَهَا الْمَعْصِيَةُ ، لَا عَلَى وَجْهِ الْإِجْبَارِ وَالْقَسْرِ ، بَلْ عَلَى قَصْدِ الْاخْتِيَارِ ، لِأَنَّ مَعْصِيَةَ إِبْلِيسَ كَانَتْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَوَقَعَتْ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالسَّجُودِ اخْتِيَارًا مَعَهُ لَا فُضْلًا مِنَ الْبَارِئِ ، وَمَعْصِيَتُنَا نَحْنُ عِنْدَ التَّزْيِينِ وَالْوَسْوَسَةِ تَقَعُ اخْتِيَارًا مِنَّا لَا اضْطِرَارًا يَضْطَرُّنَا إِبْلِيسَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا تَشَابَهَتِ الصُّورَتَانِ فِي هَذَا الْمَعْنَى حَسَّنَ قَوْلَهُ : « يَمَا فَعَلْتَ بِي كَذَا لَا أَفْعَلَنَّ بِهِمْ نَحْوَهُ » .

فَإِنْ قُلْتَ : مَا مَعْنَى قَوْلِهِ : « فِي الْأَرْضِ » ؟ وَمِنْ أَيْنَ كَانَ يَعْلَمُ الْبَلِيسُ أَنَّ آدَمَ سَيَصِيرُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ فِي الْأَرْضِ !

قُلْتَ : أَمَّا عِلْمُهُ بِذَلِكَ فَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ وَلِلْمَلَائِكَةِ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ^(٢) وَأَمَّا لَفْظَةُ « الْأَرْضِ » ، فَالْمُرَادُ بِهَا هَاهُنَا الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ التَّكْلِيفِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿وَأَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾^(١)، ليس يريد به الأرض بعينها بل الدنيا وما فيها من الملائكة وهوى الأنفس .

وله عليه السلام : « قَذَفًا بَعِيدٌ » ، أى قال إبليس هذا القول قَذَفًا بَعِيدٌ بعيد والعرب تقول للشيء المتوهم على بعد : هَذَا قَذَفٌ بَعِيدٌ ، والقذف فى الأصل : رمى لحجر وأشباهه ، والغيب الأمر الغائب ، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية ، قال الله تعالى فى كفار قريش : ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٢) ، أى يقولون : هذا سم ، أو هذا من تعليم أهل الكتاب ، أو هذه كهانة ، وغير ذلك مما كانوا يرمونه عليه الصلة والسلام به . وانتصب « قَذَفًا » على المصدر الواقع موقع الحال ، وكذلك « رَجَمًا » . وقال الراوندى : انتصبا لأنهما مفعول له ، وليس بصحيح ، لأن المفعول له ما يكون عذر وعلّة لوقوع الفعل ، وإبليس ما قال ذلك الكلام لأجل القذف والرجم ، فلا يكون مفعولاً له .

فإن قلت : كيف قال عليه السلام : « قَذَفًا مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » ، وَرَجَمًا بظنٍّ غير مصبب ، ، وقد صح ما توهمه وأصاب فى ظنّه ، فإن إغواءه وتزيينه تم على الناس كلهم إلا إلى الخاصين !

قلت : أمّا أولاً فقد روى : « وَرَجَمًا بظنٍّ مَصِيبٍ » بحذف « غير » ، ويؤكد هذه الرواية قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾^(٣) وأه ثانياً على الرواية التى هى أشهر فنقول : أمّا قَذَفًا مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ، فإنه قد ما قال على سيد التوهم والحسبان لأمرٍ مستبعد لا يعلم صحته ولا يظنها ، وليس وقوع ما وقع من المعاصى وصحة ما توهمه بمخرج لكون قوله الأول : « قَذَفًا بَعِيدٍ » ، وأمّا « رَجَمًا بظنٍّ غير مصيب » ،

(٢) سورة سبأ ٥٣ .

() سورة الأعراف ١٧٦

() سورة سبأ ٢٠ .

فيجب أن يحمل قوله : ﴿لَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١) على الغواية بمعنى الشُّرك أو الكفر؛ ويكون الاستثناء وهو قوله : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(١) معنا: إلا المعصومين من كل معصية ، وهذا ظنٌ غير مصيب لأنه ما أغوى كلَّ البشر الغواية التي هي الكفر والشُّرك إلا المعصومين العصمة المطلقة ، بل أغوى بعضهم كذلك ، وبعضهم بأن زينَ له الفسق دون الكفر ، فيكون ظنُّه أنه قادر على إغواء البشر كافة بمعنى الضلال بالكفر ظناً غير مصيب .

قوله : «صدقه به أبناء الحمية» ، موضع « صدقه » جرّ ، لأنه صفة «ظنّ» ، وقد روى : « صدقه أبناء الحمية » من غير ذكر الجارّ والمجرور ، ومن رواه بالجارّ والمجرور كان معناه : صدقة في ذلك الظن أبناء الحمية ، فأقام الباء مقام « في » .

قوله : « حتى إذا انتقادت له الجائحة منكم » ، أى الأنفس الجائحة أو الأخلاق الجائحة . قوله « فنجمت فيه الحال » أى ظهرت ، وقد روى : « فنجمت الحال من السرّ الخفى » من غير ذكر الجار والمجرور ، ومن رواه بالجارّ والمجرور فالمعنى : فنجمت الحال في هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجلاء .

واستفحل سلطانه : قوى واشتدّ وصار فحلاً ، واستفحل جواب قوله : « حتى إذا » . دلف بجنوده : تقدّم بهم .

والوَلَجَات : جمع وَلَجَةٍ بالتحريك ، وهى موضع ، أو كهف يستتر فيه المارة من مطر أو غيره .

وأقحموكم : أدخلوكم . والورطة : الهلكة .

قوله : « وأوطئوكم إثمنا الجراحة » ، أى جعلوكم واطئين لذلك ، والإثمنا : مصدر أئثمّن في القتل ، أى أكثر منه وبالع حتى كشف شأنه ، وصار كالشيء الثَّخِين ، ومعنى

إيطا الشيطان يبنى آدم ذلك إلقاؤه إياهم فيه ، وتوريطهم وحمله لهم عليه . فالإثخان على هذا منصوب لأنه مفعول ثانٍ ؛ لا كما زعم الراوندى أنه انتصب بحذف حرف الخفض . قوله عليه السلام : « طَعَنَّا فِي عِيُونِكُمْ » ، انتصب « طعننا » على المصدر ، وفعله محذوف ، أى : « طعننا في عيونكم طعنا ، فأما من روى : « وأوطئوكم لإثخان الجراحة » باللام فإنه يجعل « طعننا » منصوبا على أنه مفعول به ، أى أوطئوكم طعنا وحزنا ، كقوله : « أوطأته نارا ، وأوطأته عَشْوَةً » ، ويكون « لإثخان الجراحة » مفعولا له ، أى أوطئوكم الطعن ليثخنوا جراحكم . وينبغى أن يكون « قصدا » و « سوقا » خالصين للمعنى ، لأنه لا يبعد أن يكون مفعولا به .

واعلم أنه لما ذكر الطعن نسبه إلى العيون ، ولما ذكر الحز ، وهو الذبح نسبه إلى الحق ، ولما ذكر الدق ، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر ، وهذا من صناعة الخطابة التي علمها الله إياها بلا تعليم ، وتعلمها الناس كلهم بعده منه . والخزائم : جمع خزامة ، وهي حلقة من شعر تجعل في وتر أنف البعير فيشد فيها الزمام .

وتقول : قد ورى الزند ، أى خرجت ناره ، وهذا الزند أوزى من هذا ، أى أثر إخراج النار . يقول : فأصبح الشيطان أضرا عليكم وأفسد لحالك من أعدائك الذين أصبحتم مناصبين لهم ، أى معادين ، وعليهم متألبين ، أى مجتمعين .

فإن قلت : أمّا أعظم في الدين حرجا فمعلوم ، فأى معنى لقوله : « وأورى في دنياكم قدرا » ، وهل يفسد إبليس أمر الدنيا كما يفسد أمر الدين !

قلت : نعم ، لأن أكثر القبائح الدينية مرتبطة بالمصالح والمفاسد الدنيوية ، ألا ترى أنه إذا غلب السارق بالسرقة أفسد حال السارق من جهة الدين وحال المسروق منه من جهة الدنيا ،

وكذلك القول في الغضب والقَلْ، وما يحدث من مضارّ الشرور الدنيويّة من اختلاط الأنساب واشتباہ النّسل، وما يتولّد من شرب الخمر والسكر الحاصل عنهما من أمور يحدثها السكران خبطاً بيده، وقذفاً بلسانه، إلى غير ذلك من أمثال هذه الأمور وأشباهاها.

قوله عليه السلام: « فاجعلوا عليه حدّكم »، أى شَبَاتكم وبأسكم.

وله حدّكم: من جدت في الأمر جدّاً، أى اجتهدت فيه وبالغت.

ثم ذكر أنّه فخر على أصلِ بنى آدم، يعنى أباهم آدم عليه السلام حيث امتنع من السجود له، وقال: « أنا خير منه ».

ووقع في حسبيكم، أى عاب حسبيكم وهو الطين، فقال: إنّ النار أفضلُ منه. ودفع في نسبكم مثله.

وأجلب بخيله عليكم، أى جمع خيالاته وفُرسانه وألبها.

ويقتنصونكم: يتصيّدونكم. والبنان: أطراف الأصابع، وهو جمع، واحده بنانة، ويجمع في القلة على بنانات، ويقال: بنان مخضّب، لأنّ كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يذكّر ويوحّد.

والخومة: معظم الماء والحرب وغيرها، وموضع هذا الجارّ والمجرور نصب على الحال، أى يقتنصونكم في حومة ذلّ.

والجولة: الموضع الذي تجول فيه.

وكمن في قلوبكم: استتر، ومنه الكمين في الحرب.

ونزغات الشيطان: وساوسه التي يفسد بها. ونفثاته مثله.

قوله: « واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعرّز تحت أقدامكم » كلامٌ

شريف جليل المحلّ، وكذلك قوله عليه السلام: « واتخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده »، والمسلحة: خيلٌ معدّة للحماية والدفاع.

نهامهم أن يكونوا كقبايل الذي حسد أخاه هابيل فقتله ، وها أخوان لأب وأم ، إنما قال : « ابن أمه » ، فذكر الأم دون الأب ، لأن الأخوين من الأم أشد حُبًّا ومحبة والتصاقا من الأخوين من الأب ، لأن الأم هي ذات الحضنة والتربية .

قوله : « من غير مافضل » ؛ ما هاهنا زائدة ، وتعطى معنى التأكيد ؛ نهامهم عليه السلام أن يبدوا النعم ، وأن يبنوا ويفسدوا في الأرض ، فإن آدم لما أمر ولده بالقربان قرب قبايل رماله - وكان كافراً - وقرب هابيل خبز ماله - وكان مؤمناً - فتقبل الله تعالى من هابيل ، وأهبط من السماء ناراً فأكلته ، قالوا : لأنه لم يكن في الأرض حينئذ فقير يصل القربان إليه ، فحسده قبايل - وكان أكبر منه سنًا - فقال : لأقتلنك ، قال : هابيل إنما يتقبل الله من المتقين ، أى بذنبك وجرمك كانت عدم قبول قربانك لانسلاخك من التقوى ، فقتله فأصبح نادماً ، لا ندم التوبة بل ندم الخير ورقة الطبع البشري ، ولأنه تعب ، حمله كما ورد في التنزيل أنه لم يفهم ماذا يصنع به حتى بعث الله الغراب .

له عليه السلام : « وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة » ، لأنه كان ابتداء بالقتل ، ومن سن سنة شر كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، كأن من سن سنة . بركان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، أن الروايات اختلفت في هذه الواقعة ، فروى قوم أن الرجلين كانا من بنى إسرائيل وليسا من ولد آدم لصأبه ، والآخران كثرون خالفوا في ذلك .

مختلف الأكثرين ، فروى قوم أن القربان من قبايل وهابيل كانت ابتداء ، والآخران قالوا : بل أراد آدم عاياه السلام أن يزوجه هابيل أخت قبايل توءمته ، وزوجه

قاييل أخت هاييل توءمته ، فأبى قاييل ، لأنّ توءمته كانت أحسن ، فأمرها أبوها
بالقربان ، فمن تُقبّل قربانه نكح الحسناء . فتقبّل قربان هاييل ، فقتله أخوه كما ورد في
الكتاب العزيز .

وروى الطبري مرفوعاً أنه صلى الله عليه وآله قال : « مامن نفس تُقتل ظلماً إلا كان
على ابن آدم عليه السلام الأول كِفْلٌ منها ، وذلك بأنه أول من سنّ القتل » ، وهذا
يشيد قول أمير المؤمنين عليه السلام .

الأضل

أَلَا وَقَدْ أَمَعْتُمْ فِي الْبَغْيِ ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، مُصَارَحَةً لِلَّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ ،
وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ . فَاللَّهُ اللَّهُ فِي كِبَرِ الْحَمِيَّةِ ، وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ! فَإِنَّهُ
مَلَاقِحُ الشَّيْطَانِ ، وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ ؛ الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ ، وَالْقُرُونِ
الْخَالِيَةَ ، حَتَّى أَعْمَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ ، ذُلًّا عَنْ سِيَاقِهِ ، سُلسًا
فِي قِيَادِهِ ؛ أَمْرًا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ ؛ وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونُ عَلَيْهِ ؛ وَكِبَرًا تَصَاقَتِ
الْضُدُورُ بِهِ .

أَلَا فَاحْذَرِ الْخُذْرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكِبَرَائِكُمْ ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ
حَسَبِهِمْ ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ ، وَأَلْفَوْا الْهَجِيئَةَ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ
بِهِمْ ؛ مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ ، وَمُعَالَبَةً لَأَلْوَانِهِ ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ آسَاسِ الْعَصِيَّةِ ، وَدَعَائِمُ
أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ ، وَسُيُوفُ اعْتِرَاضِ الْجَاهِلِيَّةِ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعْمِهِ عَلَيْكُمْ أُضْدَادًا ، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَادًا ،

وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ ،
وَأَدَّيْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ ، وَهُمْ آسَاسُ الْفُسُوقِ ، وَأَحْلَاسُ الْعُقُوقِ ؛ اتَّخَذَهُمْ
إِبْنُ سُلَيْمَانَ مَطَايَا ضَلَالٍ ، وَجُنُوداً يَهْمُ بِصُورِهِمْ عَلَى النَّاسِ ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ،
أَسْبَغُوا لِقَوْلِكُمْ ، وَدَخُلُوا فِي عُيُونِكُمْ ، وَنَفَثُوا فِي أَسْمَاعِكُمْ ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى
نَبِيٍّ ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ .

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ ،
وَوَيْعِهِ وَمَثَلَاتِهِ ، وَاتَّقُوا بِمَنَاقِبِ خُدُودِهِمْ ، وَمَصَارِعِ جُنُودِهِمْ ، وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ
مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبَرِ ، كَمَا تَسْتَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ .

السنخ :

أمعنت في البغي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض؛ أي ذهب فيها بعيدا. ومصارحة الله ،
أي مكاشفة .

والمناصبه المعادة .

وملاقح الشنان ، قال الراوندي : الملاقح هي الفحول التي تلقح ؛ وليس بصحيح ،
نه الجوهرى على أن الوجه لواقح كما جاء في القرآن : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (١) .
وقال : هو من النوادر ، لأن الماضى رباعى . والصحيح أن ملاقح هاهنا جمع مَلَقَحَ
والمصدر ، من لَقَحَت كضربت مضربا وشربت مشربا .

ويجوز فتح النون من الشنان وتسكينها ؛ وهو البغض .

ومنافخ الشيطان : جمع مَنَفَخَ ، وهو مصدر أيضا ، من نفخ ، ونَفَخَ الشيطان ونَفَثَهُ

واحد ، وهو وسوسته وتسوبله ، ويقال للمتطاول إلى ماليس له : قد نفخ الشيطان في أنفه .
وفى كلامه عليه السلام ، يقوله لطالحة وهو صريع ، وقد وقف عليه ، وأخذ سيفه : « سيفٌ
طالما جلى به الكُرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الشيطان نفخ في أنفه ! » .
قوله : وأعنفوا : أصرعوا ، وفرس معناق ، والسَّير العنق ، قال الراجز :
يَأْنَأُ سِيرَى عَنَقًا فسيحًا إلى سُلَيْمَانَ فنستريحاً^(١)
والحنادس : الظلم .

والمهاوى : جمع مَهْوَاة بالفتح ؛ وهى الهُوَّة يتردى الصيد فيها ، وقد تهاوى الصيد في
المهواة ، إذا سقط بعضه في أثر بعض .

قوله عليه السلام : « ذللا عن سياقه » ، انتصب على الحال ، جمع ذَلُول ، وهو السهل
المقادة ، وهو حال من الضمير فى « أعنفوا » ، أى أصرعوا منقادين لسوقه إياهم .
وسُلْسَا : جمع سَلَس ، وهو السَّهْل أيضا ، وإنما قسم « ذللا » و « سلسا » بين « سياقه »
و « قياده » لأنَّ المستعمل فى كلامهم : قدت الفرس فوجدته سَلِسًا أو صعبا ،
ولا يستحسنون سقته فوجدته ساسا أو صعبا ، وإنما المستحسن عندهم سقته فوجدته ذَلُولًا
أو شَمُوسًا .

قوله عليه السلام : « أمراً » منصوب بتقدير فعل ، أى اعتمدوا أمراً ، « وكبرا » ،
معطوف عليه ، أو ينصب « كبرا » على المصدر بأن يكون اسما واقعا موقعه ، كالعطاء
موضع الإعطاء .

وقال الراوندى : « أمرا » منصوب ها هنا لأنه مفعول به . وناصبه المصدر الذى هو سياقه
وقياده ، تقول : سقت سياقا وقدت قيادا ، وهذا غير صحيح لأنَّ مفعول هذين المصدرين
محذوف تقديره : عن سياقه إِيَّاهم وقياده إِيَّاهم ؛ وهذا هو معنى الكلام ، ولو فرضنا مفعول

(١) الرجز لأبى النجم العجلى ، وهو من شواهد ابن عقيل ٢ : ٢٧٤ .

أحد هذين المصدرين «أمرأ» لفسد معنى الكلام . وقال الراوندى أيضا : ويجوز أن يكون «أمرأ» حالا . وهذا أيضا ليس بشيء ، لأنّ الحال يوصف هيئة الفاعل أو المفعول ، و«أمرأ» ليس كذلك .

قوله عليه السلام : « تشابهت القلوب فيه » ، أى أنّ الحمية والفخر والكبر والعصبية مازالت القلوب متشابهة متماثلة فيها .

وتناوبت القرون عليه : جمع قرّن بالفنح ؛ وهى الأمة من الناس .. وكبراً تضايقت الصدور به ، أى كبر فى الصدور حتى امتلأت به وضاقت عنه لكثرة . ثم أمر بالخير ، من طاعة الرؤساء أو باب الحمية ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ (١) .

وقد كان أمر فى الفصل الأوّل بالتواضع لله ، ونهى هاهنا عن التواضع للرؤساء ، وقد جاء فى الخبر المرفوع : « ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء ! وأحسن منه تكبر الفقراء على الأغنياء » .

الذين تكبروا عن حسبهم ، أى جهلوا أنفسهم ، ولم يفكروا فى أصلهم من النطف المستندرة من الطين المتين ، قال الشاعر :

ما بال من أوّله نُظْفَافَةٌ وجيفةٌ آخره يُفَخَّرُ
يُصبح لا يملك تقديمَ ما يرجو ولا تأخيرَ ما يحذرُ

قوله عليه السلام : « وألقوا الهجينة على ربهم » روى « الهجينة » على « فعيلة » ، كالطبيعة والخلقة ، وروى « الهجينة » على « فعلة » ، كالضعة واللّعة ، والمراد بهما الاستهجان ، من قولك : هو يهجن كذا ، أى يقبحه ، ويستهجنه أى يستعجه . أى نسيوا ما فى الأنساب

من القبح بزعمهم إلى ربهم ، مثل أن يقولوا للرجل : أنت عجمي ونحن عرب ، فإنّ هذا ليس إلى الإنسان ، بل هو إلى الله تعالى ، فأى ذنب له فيه !

قوله : « وجاحدوا الله » ، أى كابروه وأنكروا صنعه إليهم .
وأساس بالد : جمع أساس .

واعتزاء الجاهلية : قولهم : يا فلان ! وسمع أبى بن كعب رجلاً يقول : يا فلان ! فقال : عَصَصْتُ بِهِنِ أَيْبِكَ ! فقيل له : يا أبا المنذر ما كنت فحاشا ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ تَعَزَّى بَعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضَّوهُ بِهِنِ أَبِيهِ وَلَا تَكُنُوا » .
قوله : « فلا تكونوا لنعمة الله أضدادا » ؛ لأنّ البغى والكبر يقتضيان زوال النعمة وتبدّلها بالنعمة .

قوله : « ولا تطيعوا الأعداء » ، مراده هاهنا بالأدعياء الذين ينتحلون الإسلام ويبطنون النفاق .

ثم وصفهم فقال : « الذين شربتم بصفوكم كدَرهم » ، أى شربتم كدَرهم مستبدلين ذلك بصفوكم . ويروى : « الذين ضربتم » ، أى مزجتم . ويروى : « شَرَيْتُمْ » أى بعتهم واستبدلتم .

والأحلاس : جمع حِلَس ، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له ، فقيل لكل ملازم أمر : هو حِلَس ذلك الأمر .

والترجمان ، بفتح التاء : هو الذى يفسّر لساناً بلسان غيره ، وقد تُضَمّ التاء . ويروى : « ونثاً فى أسماعكم » من نَثّ الحديث ، أى أفشاه .

الأفضل :

فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبَرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ إِخَاصَةً أَنْبِيَائِهِ ؛
وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَاثُرَ ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ
خُدُودَهُمْ ، وَعَمَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانُوا
قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ ؛ قَدْ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ ، وَامْتَحَنَهُمْ
بِالْمَخَافِ ، وَتَحَصَّنَهُمْ بِالْمَكَارِهِ .

فَلَا تَعْبِرُوا الرِّضَا وَالشُّحْتَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ ، جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ ، وَالْإِخْتِبَارِ
فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالْإِقْتَارِ ؛ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ
مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(١) .

الشرح :

التكابر : التعاطف ، والغرض مقابلة لفظة « التواضع » لتكون الألفاظ مزدوجة .
وعقر وجهه : ألصقه بالعقر .
وخفضوا أجنحتهم : ألانوا جانبهم .
والخمصة : الجوع . والمجهد : المشقة ، وأمير المؤمنين عليه السلام كثير الاستعمال
لفعل ومفعلة بمعنى المصدر ، إذا تصفحت كلامه عرفت ذلك .
ومحصهم ، أى طهرهم ، وروى « مخضهم » بالخاء والصاد المعجمة ، أى حرّ كههم وزلزلهم .

(١) سورة « المؤمنون » ٥٥ ، ٥٦ .

ثم نهى أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالا وولدا ؛ فإن ذلك جهل بمواقع الفتنة والاختبار .

وقوله تعالى : ﴿ أَيْحْسِبُونَ ... ﴾ ، الآية دليل على ما قاله عليه السلام ، والأدلة العقلية أيضا دلت على أن كثيرا من الآلام والغموم والبلوى إنما يفعله الله تعالى للألطاف والمصالح . وما الموصولة في الآية يعود إليها محذوف ومقدر لابد منه ؛ وإلا كان الكلام غير منتظم ، وغير مرتبط ببعضه ببعض ، وتقديره : نسارع لهم به في الخيرات .

الأصل :

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتِيرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكَرِّهِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ بِإِلْهَامِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ ؛ وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا - عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصَى ، فَشَرَطَا لَهُ - إِنْ أَسْلَمَ - بَقَاءَ مُلْكِهِ ، وَدَوَامَ عِزِّهِ ؛ فَقَالَ : أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ ! قَهْلًا أَلْقَى عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ ؛ إعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ !

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الدُّهْبَانِ ، وَمَعَادِنِ الْعِيقَانِ ، وَمَعَارِسَ الْجِنَانِ ؛ وَأَنْ يَحْشَرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ ، وَوُحُوشَ الْأَرْضِينَ ؛ لَفَعَلَ ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ ، وَاضْطَحَّتْ الْأَنْبَاءُ ، وَلَمَّا وَجَبَ لِلْقَائِلِينَ أَجُورُ الْمُتَبَلِّغِينَ ؛ وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا لَزِمَتْ الْأَشْيَاءُ مَعَانِيهَا ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولَى قُوَّةٍ فِي عَزَائِهِمْ ؛ وَضَعَهُ فِيمَا

تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمَلُّ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونُ غَنَى ، وَخَصَاصَةٌ تَمَلُّ
الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعُ أَذَى ..

الشرح :

مذارع الصوف : جمع مِذْرَعَة ، بكسر الميم ، وهى كالكساء ، وتدرع الرجل وتمدرع
إذا لبسها . والعصى : جمع عصا .

وتقول : هذا سوار المرأة ، والجمع أسويرة ، وجمع الجمع أساوره ، وقرئ : ﴿ فَلَوْلَا أُلْتِيَ
عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ ^(١) . وقد يكون جمع أساور ، قال سبحانه : ﴿ يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ ^(٢) ، قال أبو عمرو بن العلاء : أساورها هنا : جمع أسوار
وهو السوار .

والذهبان ، بكسر الذال : جمع ذهب ، كخرب لذكر الحبارى وخربان .. والعقيان :
الذهب أيضا .

قوله عليه السلام : « واضمحلت الأنباء » ، أى تلاشت وفنيت . والأنباء : جمع نباء ،
وهو الخبر ، أى لسقط الوعد والوعيد وبطلا .

قوله عليه السلام : « ولا لزمتم الأسماء معانيها » ، أى من يسمى مؤمنا أو مسلما
حينئذ ، فإن تسميته مجاز لا حقيقة ؛ لأنه ليس بمؤمن إيمانا من فعله وكسبه ، بل يكون
مملجا إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة .

والمبتلئين ، بفتح اللام : جمع مبتلى ، كالمعطين والمرضى ، جمع معطى ومرضى ..
والخصاصة : الفقر .

وهذا الكلام هو ما يقوله أصحابنا بعينه في تعليل أفعال الباري سبحانه بالحكمة والمصلحة ، وأن الغرض بالتكليف هو التعريض للثواب ، وأنه يجب أن يكون خالصاً من الإلجاء ، ومن أن يفعل الواجب بوجه غير وجه وجوبه ، يرتدع عن القبيح لوجه غير وجه قبحه .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ ؛ أن موسى قدم هو وأخوه هارون مصر على فرعون ، لما بعثهما الله تعالى إليه حتى وقفاً على بابه يلتزمان الإذن عليه ، فكثا سنين يغدوان على بابه ويروحان ، لا يعلم بهما ؛ ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما . وقد كانا قالا لمن بالبواب : إنا رسولا رب العالمين إلى فرعون - حتى دخل عليه بطل له يلاعبه ويضحكه ، فقال له : أيها الملك إن على الباب رجلاً يقول قولاً عجيباً عظيماً ، ويزعم أن له إلهاً غيرك ، قال : بباني ! قال : نعم ، قال : أدخلوه ، فدخل وبيده عصاه ، ومعه هارون أخوه ، فقال : أنا رسول رب العالمين إليك . . . وذكر تمام الخبر .

فإن قلت : أي خاصية في الصوف ولُبسه ؟ ولم اختاره الصالحون على غيره ؟ قلت : ورد في الخبر أن أول لباس لبسه آدم لما هبط إلى الأرض صوف كبش قيضه الله له ، وأمره أن يذبحه فيأكل لحمه ويابس صوفه ؛ لأنه أهبط عريان من الجنة فذبحه ، وغزلت حواء صوفه ، فلبس آدم منه ثوباً ، وألبس حواء ثوباً آخر ، فلذلك صار شعار الأولياء وانتسبت إليه الصوفية .

الأضل

وَلَوْ كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ ، وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوُهُ أَعْنَاقُ
الرُّجَالِ ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ ؛ لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْأَعْتِبَارِ ،
وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الْأَسْتِكْبَارِ ، وَلَا مَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ ،
فَكَانَتْ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً ، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ
يَكُونَ الْإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ ، وَالتَّصَدِيقُ بِكُتُبِهِ ، وَالْخُشُوعُ لَوَجْهِهِ ، وَالْإِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ ،
وَالْإِسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ ؛ أُمُورًا لَهُ خَاصَّةٌ ، لَا يَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ .

الشرح :

تمدّ نحوه أعناق الرجال ، أى لعظمته ؛ أى يؤمّله المؤمنون ويرجوه الراجون ، وكلّ
مَنْ أَمَلَ شيئاً فقد طمّح ببصره إليه معنى لاصورة ، فكفى عن ذلك بمدّ العنق .

وتشدّ إليه عُقَدُ الرِّحَالِ : يسافر أربابُ الرغبات إليه ، يقول : لو كان الأنبياء ملوكاً
ذوى بأس وقهر لم يمكن إيمان الخلق وانقيادهم إليهم ، لأنّ الإيمان فى نفسه واجب عقلاً ،
بل كان لرهبة لهم أو رغبة فيهم ، فكانت النّيّات مشتركة . هذا فرض سؤال وجواب
عنه ، كأنه قال لنفسه : لم لا يجوز أن يكون إيمانهم على هذا التقدير لوجوبه ، وخوف
ذلك النّبي ، أو لرجاء نفع ذلك النّبي صلى الله عليه وآله ؟ فقال : لأنّ النّيّات تكون
حينئذ مشتركة ، أى يكون المكلف قد فعل الإيمان لكلا الأمرين . وكذلك تفسير قوله :
«والحسنات مقتصمة» : قال : ولا يجوز أن تكون طاعة الله تعالى تعلقاً إلا لكونها طاعة
له لا غير ، ولا يجوز أن يشوبها ويخالطها من غيرها شائبة .

فإن قلت: ما معنى قوله: « لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار » ؟

قلت: أى لو كان الأنبياء كالمملوك في السطوة والبطش؛ لكان المكلف لا يشق عليه الاعتبار والانزجار عن القبائح مشقة عليه إذا تركه لقبحه للخوف السيف، وكان بعد المكلفين عن الاستكبار والبغى لخوف السيف والتأديب أعظم من بعدهم عنهما إذا تركوها للوجه قبحهما، فكان يكون ثواب المكلف؛ إما ساقطاً، وإما ناقصاً.

الأصل:

وَكَلَّمَا كَانَتْ الْبَلَوَى وَالْإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ، كَانَتْ الْمُثُوبَةُ وَأَجْزَاهُ أَجْزَلَ؛ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقَلَّ تَنَاقِي الدُّنْيَا مَدْرًا، وَأَضْيَقَ بُطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا. بَيْنَ جِبَالٍ خَشْنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ، وَقُرَى مُنْقَطِعَةٍ؛ لَا يَزُكُّو بِهَا خُفًّا، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ، ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدَهُ أَنْ يَنْدُوا أَعْطَا قَهْمَ نَحْوِهِ؛ فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةِ لِمُلْتَقِي رِحَالِهِمْ، تَهْوَى إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْنِدَةِ؛ مِنْ مَقَاوِرِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بَحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهْزُوا مَنَاكِهَهُمْ ذُلًّا، يَهْلُلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، شُعْنًا غُبْرًا لَهُ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَتَوَهَّوْا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ بِخَاسِنِ خَلْقِهِمْ، ابْتِلَاءً عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا، وَتَمْحِصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ.

وَلَوْ أَرَادَ سُجْحَانُهُ أَنْ يَضَعَ بَيْنَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ،
وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارَ، دَانَى الثَّمَارِ، مُلْتَفِّ الْبُنَى، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بَرَّةٍ
سَمَرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَزُرُوعٍ نَاصِرَةٍ، وَطُرُقٍ
عَامِرَةٍ، لَسَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ، عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ .
وَلَوْ كَانَ الْأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْقُوعُ بِهَا، مِنْ زُمُرَدَةٍ خَضْرَاءَ،
وَيَاقُوتَةٍ سَمَرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءَ، نَخَفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْ ضَعَّ
مُجَاهِدَةً إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ .
وَلَسَكِنَ اللَّهُ يَحْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ،
وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْكَارِهِ، إِخْرَاجًا لِلتَّكْبَرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي
نَفْسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ .

الشرح :

كانت المشوبة ، أى الثواب .
وأجزل : أكثر ، والجزيل : العظيم ، وعطاء جزل وجزيل والجمع جزال ، وقد
أجزلت له من العطاء ، أى أكثرت .
وجعله للناس قياما ، أى عمادا ، وفلان قيام أهله ، أى يقيم شئونهم ، ومنه قوله تعالى :
﴿ وَلَا تَوُتُوا السُّقَمَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) .
وأوعرُ بقاع الأرض حجراً ، أى أصعبها ، ومكانٌ وعُر ، بالتسكين : صعب
المسلك أو المقام .

وأقلُّ نتائق الدنيا مدرّاً ؛ أصل هذه اللفظة من قولهم : « امرأة مُنتاق » ، أى كثيرة الحبل والولادة ، ويقال : ضيعة مُنتاق أى كثيرة الرّيع ، فجعل عليه السلام الضّياع دوات المدر التى تثار للحرث نتائق ، وقال : إنّ مكّة أقلها صلاحاً للزّرع ، لأنّ أرضها حجرية .

والقطر : الجانب ، ورمال دميثة : سهلة ، وكلما كان الرّمل أسهل ؛ كان أبعد عن أن ينبت .

وعيون وشلة ، أى قليلة الماء ، والوشل ، بفتح الشين : الماء القليل ، ويقال : وشل الماء وشلاً ، أى قطر .

قوله : « لا يزكّوها خُفّ » ، أى لا تزيد الإبل فيها أى لاتسمن ، وأخلفها هنا هو الإبل ، والخافر : الخيل والحير ، والظلف : الشاة ، أى ليس حولها مرعى يرعاه الغنم فتسمن .

وأن يئنوا أعطافهم نحوه ، أى يقصدوه ويحجّوه ، وعطفوا الرّجل : جانباه . وصار مثابة ، أى يُثاب إليه ويُزجّع نحوه مرّة بعد أخرى ، وهذه من ألفاظ الكتاب العزيز^(١) .

قوله عليه السلام : « لنتجّع أسفارهم » ، أى لنُجْعَها ، والنّجعة : طلب الكلأ فى الأصل ، ثم سمي كلّ من قصد أمرا يروم النفع منه منتجعاً .

قوله : « وغاية لملقى رحالهم » أى صار البيت هو الغاية التى هى الغرض والمقصد ، وعنده تلقى الرّحال ؛ أى تحطّ رحال الإبل عن ظهورها ، ويبطل السفر ، لأنهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة .

(١) وهو قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .

قوله : « تَهْوِي إِلَيْهِ ثَمَارُ الْأَفْتَدَةِ » ، ثمرة الفؤاد : هو سويداء القلب ، ومنه قولهم للولد : هو ثمرة الفؤاد ، ومعنى « تَهْوِي إِلَيْهِ » أى تتشوقه وتحن نحوه .
والمفاوز : هى جمع مَفَاذَ ، الفلاة سُمِّيَتْ مَفَاذَ ، إِمَّا لِأَنَّهُمْ هَلَكُوا ، مِنْ قَوْلِهِمْ : فَوَزَ الرَّجُلُ ، أى هلك ، وإِمَّا تَفَاوُلاً بِالسَّلَامَةِ وَالْفَوْزِ ، وَالرَّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ . « مَنْ مَفَاوِزِ قَفَارٍ » بِالْإِضَافَةِ . وَقَدْ رَوَى قَوْمٌ : « مِنْ مَفَاوِزَ » بَفَتْحِ الزَّاءِ ، لِأَنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ ، وَلَمْ يُضَيَّفُوا ، جَعَلُوا « قَفَارٍ » صِفَةً .

والسحيفة : البعيدة .

والمهاوى : المساقط .

وَالْفِجَاجُ : جَمْعُ فَجٍّ ، وَهُوَ الطَّرِيقُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ .

قوله عليه السلام : « حَتَّى يَهْزُؤَا مِنَّا كِبَهُم » ، أى يحرّكهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه ، فَكُنَى عَنِ السَّفَرِ يَهْزُؤُ الْمُنَاكِبَ .

وَذُلُلًا ، حَالٌ ، إِمَّا مِنْهُمْ وَإِمَّا مِنَ الْمُنَاكِبِ ، وَوَاحِدُ الْمُنَاكِبِ ، مِنْ كَيْبٍ بِكَسْرِ الْكَافِ ، وَهُوَ جَمْعُ عَظْمِ الْعَضُدِ وَالْكَتِفِ .

قوله : « وَيَهْلَلُونَ » ، يَقُولُونَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَرَوَى : « يُهْلَلُونَ لِلَّهِ » أى يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها .

وَيَرْمُلُونَ ، الرَّمَلَ : السَّعْيَ فَوْقَ الْمَشْيِ قَلِيلًا .

شُعْنًا غَيْرًا ؛ لَا يَتَعَهَّدُونَ شَعُورَهُمْ وَلَا ثِيَابَهُمْ وَلَا أَبْدَانَهُمْ ، قَدْ نَبَذُوا الْبِرَايِلَ ، وَرَمَوْا ثِيَابَهُمْ وَقَصَانَهُمُ الْخَيْطَةَ .

وَشَوَّهُوا بِإِعْغَاءِ الشُّعُورِ ، أى غَيَّرُوا وَقَبَحُوا مُحَاسِنَ صُورِهِمْ ، بَأَنَ أَعْفَوْا شَعُورَهُمْ فَلَمْ يَخْلُقُوا مَا فَضَّلَ مِنْهَا وَسَقَطَ عَلَى الْوَجْهِ وَنَبَتَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ الَّتِي جَرَتْ الْعَادَةُ بِإِزَالَتِهَا عَنْهَا .

والتحصيل : التطهير ، من تحصت الذهب بالنار إذا صقيته مما يشوبه ، والتحصيل أيضا : الامتحان والاختبار . وللمشاعر : معالم النسك .

قوله : « وسهل وقرار » ، أى فى مكان سهل يستقر فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقة .

وجمّ الأشجار : كثيرها . ودانى الثمار : قريبها .

وملتفّ البني : مشتبك العمارة .

والبرّة : الواحدة من البرّ ، وهو الخطئة .

والأرياف . جمع ريف وهو الخصب والمرعى فى الأصل ، وهو هاهنا السواد والمزارع ،

ومحدقة : محيطة . ومغدقة : غزيرة ، والغدق : الماء الكثير .

وناضرة : ذات نضارة وروث وحسن .

قوله : « ولو كانت الأساس^(١) » ، يقول : لو كانت أساس البيت التى حمل البيت عليها وأحجاره التى رفع بها من زمردة وباقوتة فالحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان ، لأنهما صفة اسم كان والخبر « من زمردة » ، وروى : « بين زمردة » ، ويجوز أن تحمل لفظتا المفعول وهما الحمول والمرفوع ضمير البيت ، فيكون قائما مقام اسم الفاعل ، ويكون موضع الجار والجور نصباً ، ويجوز ألا تحملهما ذلك الضمير ، ويجعل الجار والجور هو السادّ مسدّد الفاعل ، فيكون موضعه رفعا .

وروى : « مضارعة الشك » بالضاد المعجمة ، ومعناه مقارنة الشك ودنوه من النفس ، وأصله من مضارعة القدر إذا حان إدراكها ، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمعيب . وقال الراوندى فى تفسير هذه الكلمة : من مضارعة الشك ، أى مماثلته ومشايعته ، وهذا بعيد ، لأنه لا معنى للمماثلة والمشايعه هاهنا ، والرواية الصحيحة بالصاد المهملة .

قوله عليه السلام : « وإننى متعلج الرّيب » ، أى اعتلاجه ، أى ولنفى اضطراب الشك فى القلوب . وروى « يستعبدهم » و « يتعبدهم » ، والثانية أحسن .

(١) الأساس ، بالكسر : جمع أس .

والمجاهد : جمع مجاهدة ، وهى المشقة .
وأبواباً فتُحاً ، أى مفتوحة . وأسباباً ذُللاً ، أى سهلة .

واعلم أنَّ محصول هذا الفصل أنَّه كلما كانت العبادة أشقَّ كان الثواب عليها أعظم ، ولو أنَّ الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلفين لما استحقُّوا عليها من الثواب إلاَّ قدرأً سيرا ، بحسب ما يكون فيها من المشقة اليسيرة .

فإن قلت : فهل كان البيت الحرام موجوداً أيام آدم عليه السلام ، ثم أمر آدم وولده أن يثبوا أعطافهم نحوه ؟

قلت : نعم هكذا روى أرباب السِّير وأصحاب التواريخ ؛ روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى ” تاريخه “ عن ابن عباس ، أنَّ الله تعالى أوحى إلى آدم لما أهبطه إلى الأرض : أنَّ لى حَرَمًا حِيَال عَرْشى ، فانطلق فابن لى بيتاً فيه ، ثم طَفَّ به كما رأيت ملائكتى تحفَّ بعَرْشى ، فهناك أستجيبُ دعاءك ودعاء مَنْ يحفَّ به من ذُرِّيَّتِكَ . فقال آدم : إنَّى لستُ أقوى على بنائه ، ولا أهتدى إليه ، فقيَّض الله تعالى له ملكاً ، فانطلق به نحو مكة - وكان آدم فى طريقه كلما رأى روضة أو مكاناً يعجبه سأل الملك أن ينزل به هناك لينبى فيه ، فيقول الملك : إنه ليس هاهنا حتى أقدمه مكة - فبنى البيت من خمسة جبال : طور سيناء ، و طور زيتون ، ولبنان ، والجودى ، وبنى قواعده من حِراء . فلما فرغ خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه المناسكَ كلها التى يفعلها الناس اليوم ، ثم قدم به مكة وطاق بالبيت أسبوعاً ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات .

وروى الطبرى فى التاريخ أن آدم حجَّ من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجَّة على رجلية .

وقد روى أنّ الكعبة أنزلت من السماء وهى يا قوتة أو لؤلؤة؛ على اختلاف الروايات وأنها بقيت على تلك الصورة إلى أن فسدت الأرض بالمعاصى أيام نوح ، وجاء الطوفان فرفع البيت ، وبنى إبراهيم هذه البنية على قواعده القديمة .

وروى أبو جعفر ، عن وهب بن منبه أن آدم دعا ربه فقال : يا ربّ أما لأرضك هذه عامرٌ يسبحك ويقدّسك فيها غيرى ! فقال الله : إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدّسني ، وسأجعل فيها بيوتاً تُرفع لذكري ، يسبحني فيها خلقي ، ويذكر فيها اسمي ، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصّه بكرامتي ، وأوثره باسمي ، فأسميه بيتي ، وعاليه وضعت جلالتي وخصصته بعظمتي ، وأنا مع ذلك في كلّ شيء ، أ جعل ذلك البيت حرّماً آمناً يحرم بحرّمته من حوله ، ومن تحته ، ومن فوقه فمن حرّمه بحرّمتي استوجب كرامتي ، ومن أخاف أهله فقد أباح حرّمتي ، واستحقّ سخطي ؛ وأجعله بيتاً مباركاً يأتيه بنوك شعفاً غبراً على كلّ ضامر من كلّ فجٍّ عميق ، يرجون بالتلبية رجياً ؛ ويمجّون بالتكبير عجباً ، من اعتمده لا يريد غيره ، ووفد إلى وزارني واستضاف بي ، أسعفته بحاجته ؛ وحقّ على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه ؛ تعمّره يا آدم مادمت حياً ، ثم تعمّره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن .

قال : ثم أمر آدم أن يأتي إلى البيت الحرام الذي أهبط له إلى الأرض فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش ، وكان البيت حينئذ من دُرّة أو من يا قوتة ، فلما أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه ، وبقي أساسه فبوّأه الله لإبراهيم فبناه .

الأضل :

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ ؛ وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ ؛ وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبَرِ ، فَإِنَّهَا
مَصِيدَةُ إِبْلِيسَ الْمُعْطَى ، وَمَكِيدَتُهُ الْكِبَرَى ؛ الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ
مُسَاوَرَةَ الشُّمُومِ الْقَاتِلَةِ ، فَمَا تُكْدِي أَبَدًا ، وَلَا تُشْوِي أَحَدًا ؛ لَا عَالِمًا لِعِلْمِهِ ،
وَلَا مُقِلًّا فِي طَمَرِهِ .

وَعَنْ ذَلِكَ مَاحَرَسَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَّاتِ ، وَجَاهَدَةَ
الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ ، تَسْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ ، وَتَخْشِيعًا لِأَبْصَارِهِمْ ، وَتَذَلِيلًا
لِنُفُوسِهِمْ ، وَتَخْفِيفًا لِقُلُوبِهِمْ ، وَإِذْهَابًا لِلْخُيَلَاءِ عَنْهُمْ ، وَلِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَغْفِيرِ
عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالثَّرَابِ تَوَاضَعًا ، وَالتَّصَاقِ كَرَامِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُرًا ، وَخُوقِ
الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا ؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ ،
وغير ذلك إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ .

انظُرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ ، وَقَذَعِ طَوَالِعِ الْكِبَرِ !

البئح :

بلدة واحة ووخيمة : بينة الوخامة ، أى وبئثة .

مَصِيدَةُ إِبْلِيسَ ، بِسُكُونِ الصَّادِ وَفَتْحِ الْيَاءِ : آلتُهُ الَّتِي يَصْطَادُ بِهَا .

وَتُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ : تَوَاشَّيْهَا ، وَسَارَ إِلَيْهِ يَسُورُ ، أَيْ وَثَبَ ، وَالْمَصَدَرُ السُّورُ ،

وَمَصْدَرُ « تَسَاوَرَ » الْمَسَاوَرَةُ ، وَيُقَالُ : إِنَّ لَفْظِهِ سَوْرَةٌ ، وَهُوَ سَوَّارٌ ، أَيْ وَثَّابٌ مُعَرِّدٌ ،

وسورة الشراب : وثوبه في الرأس ، وكذلك مساورة السموم التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

وما تكدي : مآترّد عن تأثيرها ، من قولك : أكدي حافر الفرس ، إذا بلغ الكدّية وهي الأرض الصلبة ، فلا يمكنه أن يحفر .

ولا تُشوي أحدا : لا تخطئ المقتل وتصيب غيره ؛ وهو الشوي ، والشوي : الأطراف ، كاليد والرجل .

قال : لا تردّ مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه ، ولا عن فقير لطمره ، والطمر : الثوب الخلق .

و « ما » في قوله : « وعن ذلك ما حرس الله » زائدة مؤكدة ، أي عن هذه المكيدة التي هي البغي والظلم والكبر حرس الله عباده ، ف« عن » متعلقة ب« حرس » . وقال الراوندي : يجوز أن تكون مصدرية ، فيكون موضعها رفعاً بالابتداء ، وخبر المبتدأ قوله : « لما في ذلك » . وقال أيضاً : يجوز أن تكون نافية ، أي لم يحرس الله عباده عن ذلك إجماعاً وقهراً ، بل فعلوه اختياراً من أنفسهم ، والوجه الأول باطل ، لأن « عن » على هذا التقدير تكون من صلة المصدر ، فلا يجوز تقديمها عليه ، وأيضاً فإن « لما في ذلك » لو كان هو الخبر ، لتعلق لام الجر بمحذوف ، فيكون التقدير : حراسة الله لعباده عن ذلك كائنة لما في ذلك من تعيير الوجوه بالتراب ؛ وهذا كلام غير مفيد ولا منتظم إلا على تأويل بعيد لا حاجة إلى تعسفه ، والوجه الثاني باطل ، لأن سياقة الكلام تدل على فساد ، ألا ترى قوله : « تسكيناً وتحشيعاً » ، وقوله : « لما في ذلك من كذا » ، وهذا كله تعليل الحاصل الثابت لا تعليل المنفي المعلوم .

ثم بين عليه السلام الحكمة في العبادات ، فقال : إنه تعالى حرس عباده بالصلوات

التي افترضها عليهم من تلك المكاييد ، وكذلك بالزكاة والصوم ليسكن أطرافهم ، ويخضع
أنصارهم ، فجعل التسكين والتخشييع عذراً وعلة للحراسة ، ونصب اللفظات على أنها
مفعول له .

ثم علل السكون والخشوع الذي هو علة الحراسة لما في الصلاة من تغيير الوجه على
التراب ، فصار ذلك علة العلة . قال : وذلك لأن تغيير عتاق الوجوه بالتراب
تواضعاً يوجب هضم النفس وكسرها وتذليلها .
وعتاق الوجوه : كرائمها .

والصاق كرائم الجوارح بالأرض كالبيدين والساقين تصاغرا يوجب الخشوع
والاستسلام ، والجوع في الصوم الذي يلحق البطن في المتن يقتضى زوال الأشر والبطر ،
ويوجب مذلة النفس وقمعها عن الانهماك في الشهوات ، وما في الزكاة من صرف فواضل
المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجب تطهير النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات
بما تسمح به النفوس من الأموال ، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات ، ففي ذلك
كله دفع مكاييد الشيطان .

وتخفيض القلوب : حطها عن الاعتلاء والتبهي .
والخيلاء : التكبر . والمسكنة : أشد الفقر في أظهر الرأيين .
والقمع : التهر .

والنواجم : جمع ناجمة ، وهي ما يظهر ويطلع من الكبر وغيره .
والقدح ، بالبدال المهملة : الكف ، قدعت الفرس وكبحته باللجام ، أى كففته .
والطوالع ، كالنواجم .

الأفضل :

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ
عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمَوُّيَهُ الْجَهْلَاءُ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيْطُ بِعُقُولِ الشُّفَهَاءِ غَيْرَ كُمْ ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ
لِأَمْرِ مَا يُعْرِفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ . أَمَّا إِبْلِيسُ فَيَتَعَصَّبُ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ
فِي خَلْقَتِهِ ، فَقَالَ : أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ . وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتَرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَتَعَصَّبُوا
لِلنَّارِ مَوَاقِعَ النِّعَمِ ، فَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ .

فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ ، وَتَحَامِدِ
الْأَفْعَالِ ، وَتَحَاسِنِ الْأُمُورِ ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمَجْدَاهُ وَالنُّجْدَاهُ مِنْ بَيُّوْنَاتِ الْعَرَبِ ،
وَيَعَاسِيِبِ الْقَبَائِلِ ؛ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيْبَةِ ، وَالْأَخْلَامِ الْعَظِيْمَةِ ، وَالْأَخْطَارِ الْجَمِيلَةِ ،
وَالْأَثَارِ الْمَحْمُودَةِ .

فَتَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ ؛ مِنَ الْخِفْظِ لِلْحَوَارِ ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ ،
وَالْمَعَصِيَةِ لِلْكِبَرِ ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ ، وَالْإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ ، وَالْإِنْصَافِ
لِلْخَلْقِ ، وَالْكُظْمِ لِلغَيْظِ ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .

الشرح :

قد روى : « تحتمل » بالتاء ، وروى « تحمل » ، والمعنى واحد .
والتمويه : التلبس من مَوَّهَت النَّحَاسُ ، إِذَا طَلَيْتَهُ بِالذَّهَبِ لِيَخْفَى .
ولاط الشيء بقلبي يلوط ويليط ، أى التصق .
والمترَف : الذى أطفته النعمة .

ﷺ

وتفاضلت فيها ، أى تزايدت .

والمجدهاء : جمع ماجد ، والمجد الشرف فى الآباء ، والحسب والكرم يكونان فى الرجل وإن لم يكونا فى آباءه . هكذا قال ابن السكيت ، وقد اعترض عليه بأن المجيد من صفات الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ ^(١) على قراءة مَنْ رَفَعَ ، والله سبحانه يتعالى عن الآباء ، وقد جاء فى وصف القرآن المجيد ، قال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ ^(٢) .

والنجداء : الشجعان ، واحدهم نجيد ، وأما نجد ونجد ، بالكسر والضم ، فجمعه أنجاد ، مثل يقظ وأيقاظ .

وبيوتات العرب : قبائلها . ويعاسيب القبائل : رؤساؤها ، واليعسوب فى الأصل : ذگر النحل وأميرها .

والرغبة : الخصلة يُرَغَّب فيها .

والأحلام : العقول . والأخطار : الأقدار .

ثم أمرهم بأن يتعصبوا لخلال الحمد وعددها ، وينبغى أن يحمل قوله عليه السلام : « فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرِ مَا يَعْرِفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ » ، على أنه لا يعرف له سبب مناسب ، فكيف يمكن أن يتعصبوا لغير سبب أصلا !

وقيل : إن أصل هذه العصبية ؛ وهذه الخطبة ؛ أن أهل الكوفة كانوا قد فسدوا فى آخر خلافة أمير المؤمنين ، وكانوا قبائل فى الكوفة ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنزل قبيلة أخرى ، فينادى باسم قبيلته : يَا لَنَجْع ! مثلا ؛ أو يَا لَكِنْدَة ! نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشر ، فيتألب عليه فتيان القبيلة التى مر بها فينادون : يَا لَتَمِيم !

ويألر بيعة ! ويقبلون إلى ذلك الصأح فيضربونه ، فيمضى إلى قبيلته فيستصرخها ، فتُسَلِّ السيف وتثور الفتن ، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلا تعرض الفتيان بعضهم ببعض .

الأفضل :

وأحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلثات بسوء الأفعال ، وذميم الأعمال ، فتدكروا في الخير والشر أحوالهم ، وأحذروا أن تكونوا أمثالهم ؛ فإذا تفكرتم في تفاوت حالهم ، فالزموا كل أمر لزم العزة به حالهم ، وزاحت الأعداء له عنهم ، ومدت العافية به عليهم ، وأنقادت النعمة له معهم ، ووصلت الكرامة عليه حبلمهم ؛ من الاجتناب للفرقة ، واللزم للألفة ، والتحااض عليها ، والتواصي بها . وأجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم ، وأوهن منتهم ، من تضاعف القلوب ، وتساخن الصدور ، وتدأبر النفوس ، وتخاذل الأيدي .

البنح :

المثلثات : العقوبات .

وذميم الأفعال : ما يذم منها .

وتفاوت حالهم : اختلافهما . وزاحت الأعداء : بعدت . وله ، أى لأجله .

والتحااض عليها : تفاعل يستدعى وقوع الحاض ، وهو الحث من الجهتين ، أى يحث بعضهم بعضاً .

والفقرة : واحدة فقر الظهر ، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة : قد كسرت فقرته .

والمُنة : القوة .

وتضاعن القلوب وتشاحنها واحد. وتخاذل الأيدي : ألا ينصُر الناس بعضهم بعضا.

الأصل

وَتَدَبَّرُوا أَحْوََالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ ؛ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمَحِيصِ
وَالْبَلَاءِ ! أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً ، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً ، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا
حَالًا ! اتَّخَذَتْهُمْ الْفِرَاعِنَةُ عَبِيدًا فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَجَرَّعُوهُمْ جُرْعَ الْمُرَارِ ، فَلَمْ
تَنْبَسِحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْغَلَبَةِ ؛ لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعِ ،
وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ ، حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُجْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي تَحْبِيَّتِهِ ،
وَالِإِحْمَالِ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجًا ، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ
مَكَانَ الذُّلِّ ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ ، فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا ، وَأُيَمَّةً أَعْلَامًا ، وَقَدْ
بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ ، مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ .

الشرح :

تدبَّروا ، أى تأملوا . والتَّمَحِيصِ : التطهير والتصفية .

والأعْبَاءُ : الأثقال : وانحدها عبء .

وأَجْهَدَ الْعِبَادِ : أتعِبهم .

وَالْفِرَاعِنَةُ : العُتَاة ، وكلَّ عَاتٍ فِرْعَوْن .

وساموهم سوء العذاب : ألزموهم إِيَّاه ، وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ

الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١).

والمرار : بضم الميم : شجر مُرث في الأصل ، واستعير شرب المرار لكل من يلقى شديد المشقة .

ورأى الله منهم جدّ الصبر ، أى أشدّه .

وأئمة أعلاما ، أى يهتدى بهم ، كالعلم في الغلالة .

الأمنل :

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً ، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً ، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً ، وَالْأَيْدِي مُتَرَادِفَةً ، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً ، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً ، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً .
أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ !
فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ ، وَتَشَتَّتَتِ الْأَلْفَةُ ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْنِدَةُ ؛ تَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِينَ ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ .

الشنخ :

الأملاء : الجماعات ، الواحد ملاء .

ومترادفة : متعاونة . البصائر نافذة ، يقال : نفذت يصيرتى في هذا الخبر ، أى
اجتمع همى عليه ، ولم يبق عندى تردد فيه ، لعلى به وتحقيق إياه .
وأفطار الأرضين : نواحيها ، وتشتت : تفرقت .
وتشعبوا : صاروا شعوبا وقبائل مختلفين .
وتفرقوا متحزبين : اختلفوا أحزابا ، وروى : « متحازبين » .
وغضارة النعمة : الطيب اللين منها .
والقصص : الحديث .
يقول : انظروا في أخبار من قبلكم من الأمم ، كيف كانت حالهم في العز والملك لما
كانت كلمتهم واحدة ، وإلى ماذا آلت حالهم حين اختلفت كلمتهم ! فاحذروا أن تكونوا
مثلهم ، وأن يحلّ بكم إن اختلفتم مثل ما حلّ بهم .

الأسئل :

فَاعْتَبِرُوا يَحْيٰى وَلَدِ اِسْمٰعِيْلَ وَيٰبَنِي اِسْحٰقَ وَيٰبَنِي اِسْرٰءِيْلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ فَمَا
اَشَدَّ اعْتِدَالِ الْاَحْوَالِ ، وَاَقْرَبَ اشْتِبَاهِ الْأَمْثَالِ !
تأملوا أمرهم في حال تشنتهم وتفرقتهم ، ليألي كانت الأكرسة والقيصر
أرباباً لهم ، يحتازونهم عن ريف الآفاق ، وبحر العراق ، وخضرة الدنيا ، إلى منابت
الشيخ ، ومها في الرّيح ، ونكد المعاش ؛ فتركوهم عائلة مساكين ، إخوان دبر
ووبر . أذل الأمم داراً ، وأجذبهم قراراً ، لا يأتون إلى جناح دعوة يعتصمون
بها ، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها ، فالأحوال مضطربة والأيدي مختلفة ،
والكثرة متفرقة ، في بلاء أزل ، وأطباق جهل ، من بنات مودة ، وأصنام معبودة ،
وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة .

الشَّرح :

لقائل أن يقول : ما عرف أحداً من بني إسحاق وبني إسرائيل احتازتهم الأكَسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشيخ ، إلا أن يقال : يهود خيبر والنضير وبني قُرَيْظَة وبني قَيْنُقَاع ، وهؤلاء نفرٌ قليل لا يعتدّ بهم . ويُعلم من فَحْوَى الخطبة أنهم غيرُ مرادين بالكلام ، ولأنّه عليه السلام قال : تركوهم إخوان دَبَرٍ وَوَبَرٍ ، وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوبر والدبر ، بل من أهل المدّر ؛ لأنهم كانوا ذوى حصون وآطام . والحاصل أنّ الذين احتازتهم الأكَسرة والقياصرة من الرّيف إلى البادية ، وصاروا أهل وِبَرٍ ولدُ إسماعيل ؛ لا بنو إسحاق وبنو إسرائيل !

والجواب أنه عليه السلام ذكر في هذه الكلمات ، وهي قوله : « فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل المقيمين والقاهرين جميعاً » ؛ أما المقيرون فبنو إسماعيل ، وأما القاهرون فبنو إسحاق وبنو إسرائيل ، لأن الأكَسرة من بني إسحاق ؛ ذكر كثير من أهل العلم أنّ فارس من ولد إسحاق ، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً ، لأنّ الروم بنو العيص بن إسحاق ، وعلى هذا يكون الضمير في « أمرهم » ، و« تشتمهم » و« تفرقهم » يرجع إلى بني إسماعيل خاصة .

فإن قلت : فبنو إسرائيل ، أيّ مدخلٍ لهم ها هنا ؟

قلت : لأنّ بني إسرائيل لما كانوا ملوكاً بالشّام في أيام أجباب الملك وغيره ، حاربوا العرب من بني إسماعيل غير مرّة ، وطردهم عن الشّام ، وأجثوهم على المقام ببادية الحجاز . ويصير تقدير الكلام : فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بني إسحاق وبني إسرائيل ؛ فجاء بهم في صدر الكلام على العموم ، ثم خصّ فقال : الأكَسرة والقياصرة ؛ وهم داخلون في عموم ولد إسحاق ، وإنّما لم يخصّ عموم بني إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك .

ولد يعقوب ، فيذكر لهم أسماءهم في الخطبة ، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بنى ساسان ومن بنى الأصفر .

قوله عليه السلام : « فما أشدّ اعتدال الأحوال ! » ، أى ما أشبه الأشياء بعضها ببعض ! وإنّ حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم .

قوله : « يحتازونهم عن الريف » يبعدونهم عنه ، والريف : الأرض ذات الخصب والزرع ، والجمع أرياف ؛ ورافت الماشية أى رعت الرّيف ، وقد أرفنا أى صرنا إلى الريف ، وأرافت الأرض أى أخصبت ، وهى أرض ريفّة ، بتشديد الياء .

وبحر العراق : دجلة والفرات ، أمّا الأكاسرة فطرّدوهم عن بحر العراق ، وأمّا القياصرة فطرّدوهم عن ريف الآفاق ، أى عن الشام وما فيه من المرعى والمنتجع .

قوله عليه السلام : « أرباباً لهم » ، أى ملوكاً ، وكانت العرب تسمّى الأكاسرة أرباباً ، ولما عظم أمر حذيفة بن بدر عندهم سمّوه ربّ مَعَدّ .

ومنابت الشّيح : أرض العرب ، والشّيحُ : نبت معروف .

ومها فى الرّيح : المواضع التى تهفو فيها ، أى تهبّ وهى الفياض والصحارى .

ونكّد المعاش : ضيقه وقلّته .

وتركوهم عالةً ، أى فقراء ، جمع عائل ، والعائل ذو العيلة والعيلة : الفقر ، قال

تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ^(١) ، قال الشاعر :

تُعَيِّرُنَا أَنْتُمْ عَالَةً صَعَالِيكُنْ نَحْنُ وَأَنْتُمْ مُلُوكُ

نظيره قائد وقادة ، وسائس وساسة .
 وقوله : « إخوان دَبر وَوَبر » ، الدَبر مصدر دَبر البعيرُ ، أى عقره القَتَب . والوَبَر
 للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز .
 قوله : أذلّ الأم دارا ؛ لعدم المعامل والحصون المنيعة فيها .
 وأجذبهم قرارا ، لعدم الزَّرع والشجر والنخل بها . والجذب : المحل .
 ولا يأوون : لا يلتجئون ولا ينضمون .
 والأزل : الضيق . وأطباق جهل : جمع طبَّق ، أى جهل متراكم بعضه فوق بعض .
 وغارات مشنونة : متفرقة ، وهى أصعب الغارات .

[فصل فى ذكر الأسباب التى دعت العرب إلى وأد البنات]

مِنْ بنات موءودة ؛ كان قومٌ من العرب يثُدُّون البنات ، قيل : لأنهم بنو تميم
 خاصّة ، وإنه استفاض منهم فى جيرانهم . وقيل : بل كان ذلك فى تميم ، وقيس ، وأسد ،
 وهذيل ، وبكر بن وائل ، قالوا : وذلك أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله دعا عليهم ،
 فقال : « اللهم اشدّد وطأتك على مُضر ، واجعل عليهم سنين كِسْفِ يوسفَ » ، فأجدبوا
 سبع سنين حتى أكلوا الوَبْرَ بالدم ، وكانوا يسمّونه العِلْهِز ، فوَأدوا البنات لإملاقهم
 وفقرم ، وقد دلّ على ذلك بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ ^(١) ، قال :
 ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ^(٢) .

وقال قوم : بل وأدوا البنات أنفةً ، وزعموا أن تميماً منعت النعمان الإتاوة سنة من

(٢) سورة المتحنة ١٢ .

(١) سورة الإسراء ٣١ .

السنين ، فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر ، وجُلَّ مَنْ معه من بكر بن وائل ، فاستاق النعم وسبي الذراري ، وفي ذلك يقول بعض بني يشكر :

لَمَّا رَأَوْا رَايَةَ النُّعْمَانِ مَقْبِلَةً قَالُوا : أَلَا لَيْتَ أَذْنَى دَارِنَا عَدَنُ !
يَالَيْتَ أُمَّ تَمِيمٍ لَمْ تَكُنْ عَرَفَتْ مُرًّا ، وَكَانَتْ كَمَنْ أَوْدَى بِهِ الزَّمَنُ
إِنْ تَقْتُلُونَا فَأَعْيَارُ خُدَعَةٍ أَوْ تُنْعِمُوا فَقَدِيمًا مِنْكُمْ الْمَنُ
مَنْكُمْ زَهَيْرٌ وَعَتَّابٌ وَمَحْتَضِنٌ وَابْنَا لَقِيطٌ وَأَوْدَى فِي الْوَغَى عَطَنُ

فوفدت بنو تميم إلى النعمان ، واستعطفوه ، وفرق عليهم ، وأعاد عليهم السبي ، وقال : كل امرأة اختارت أباه ردت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلهن اخترن آباهن ، إلا ابنة قيس بن عاصم ، فإنها اختارت من سبها ، وهو عمرو بن المشمرخ اليشكري ، فنذر قيس بن عاصم المنقرى التميمي ألا يولده بنت إلا وأداها ، والوإذا أن يخنقها في التراب ويثقل وجهها به حتى تموت . ثم اقتدى به كثير من بني تميم ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ ^(١) ، أي على طريق التبكيت والتوبيخ لمن فعل ذلك أو أجازه ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

ومن جيد شعر الفرزدق قوله في هجاء جرير :

أَلَمْ تَرَ أَنَا بَنِي دَارِمٍ زُرَّارَةٌ مِنْ أَبُو مَعْبَدٍ ^(٣)
وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَأْدَاتِ وَأَحْيَا الْوَلِيدَ فَلَمْ يُؤَادِ ^(٤)
أَلَسْنَا بِأَصْحَابِ يَوْمِ النَّسَارِ وَأَصْحَابِ الْوَيْةِ الْمِرْبَدِ

(١) سورة النكوير ٨ ، ٩

(٣) ديوانه ٢٠٢ ، ٢٠٣

(٢) سورة المائدة ١١٦ .

(٤) يعني جده صعصعة بن ناجية .

أَلَسْنَا الَّذِينَ تَمِيمٌ بِهِمْ تَسَامَى وَتَفْخِرُ فِي الْمَشْهَدِ !
 وَنَاجِيَةِ الْخَيْرِ وَالْأَقْرَعَا نِ وَقَبْرُ بَكَاطِمَةَ الْمَوْرِدِ ^(١)
 إِذَا مَا أَتَى قَبْرَهُ عَائِدٌ أَنَاخَ عَلَى الْقَبْرِ بِالْأَسْعَدِ ^(٢)
 أَيُطْلُبُ نَجْدَ بَنِي دَارِمٍ عَطِيَّةَ كَأُجْعَلَ الْأَسْوَدِ !
 قَرْنَيْ يَحُكُّ قَفَا مُقْرِفٍ لَيْثِمٍ مَا ثَرَهُ قُعْدُ ^(٣)
 وَمَجْدَ بَنِي دَارِمٍ فَوْقَهُ مَكَانَ السَّمَاءِ الْكَوْنِ وَالْفَرْقَدِ

وفي الحديث : أَنَّ صَمْعَةَ بْنَ نَاجِيَةَ بْنَ عِقَالٍ لَمَّا وَفَدَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَعْمَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَمَلًا صَالِحًا ، فَهَلْ يَنْفَعُنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَمَا عَمِلْتَ ؟ قَالَ : ضَلَلْتُ نَاقَتَيْنِ عَشْرَ وَابْنَيْنِ ، ^(٤) فَرَكِبْتُ جَمَلًا وَمَضَيْتُ فِي بُغَائِمِهِمَا ^(٥) ، فَرَفَعْتُ لِي بَيْتَ حَرِيدٍ ^(٦) ، فَقَصَصْتُهُ ، فِإِذَا شَيْخٌ جَالِسٌ بِفَنَائِهِ فُسِّلَتْهُ عَنْ النَّاقَتَيْنِ ، فَقَالَ : مَا نَارُهُمَا ^(٧) ؟ قُلْتُ : مَيْسَمُ بَنِي دَارِمٍ ، قَالَ : هُمَا عِنْدِي ، وَقَدْ أَحْيَا اللَّهُ بِهِمَا قَوْمًا مِنْ أَهْلِكَ مِنْ مُضَرٍّ ، فَجِئْتُ مَعَهُ لِيُخْرِجَهُمَا إِلَيَّ ، فِإِذَا عَجُوزٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ كِسْرِ الْبَيْتِ ، فَقَالَ لَهَا : مَا وَضَعْتُ ، بَلْ إِن كَانَ سَقْبًا ^(٨) شَارَكْنَا فِي أُمُورِنَا ، وَإِنْ كَانَ حَائِلًا ^(٩) وَأَدْنَاهَا ، فَقَالَتْ الْعَجُوزُ : وَضَعْتُ أَثْنَى ، فَقُلْتُ لَهُ : أَتَبِيعُهَا ؟ قَالَ : وَهَلْ تَبِيعَ الْعَرَبُ أَوْلَادَهَا ! قُلْتُ : إِنَّمَا أَشْتَرِي حَيَاتَهَا ، وَلَا أَشْتَرِي رَقْمَهَا ، قَالَ : فَبِكُمْ ؟ قُلْتُ : احْتَكِمَ ، قَالَ : بِالنَّاقَتَيْنِ وَالْجَمَلِ ، قُلْتُ : أَذَلِكَ لَكَ عَلَى أَنْ يَبْلَغُنِي الْجَمَلُ وَإِيَّاهَا ! قَالَ : بَعْتُكَ ، فَاسْتَنْقَذْتُهَا

(١) ناجية؛ هو ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع . والأقرعان: الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال.

(٢) الأسعد : نجم طالعه سعد .

(٣) القرني : ضرب من الخنافس أرقط طويل القوائم ، والقعد : اللثيم الآباء .

(٤) العشراء من النياق : التي مضى لجلها عشرة أشهر ، كالنفساء .

(٥) في بغائمه : في طلبهما .

(٦) الحريد : المنزل التنجى .

(٧) في النهاية واللسان : ما ناراها ؟ والنار هنا : السمة بالمشكوى ؛ سميت باسم النار .

(٨) السقب : ولد الناقة ساعة يولد ؛ وهو خاص بالذكر .

(٩) الحائل : الأثني من ولد الناقة ساعة تولد ؛ ولا يقال : « سقبة » .

منه بالجل والناقنين ، وآمنت بك يا رسول الله ، وقد صارت لى سنة فى العرب أن نترى كل موودة بناقتين عشاوين وجل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موودة قد أنقذتهن ، فقال عليه السلام : « لا ينفك ذلك لأنك لم تبتغ به وجه الله ، إن عمل فى إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه » (١) .

وروى الزبير فى " الموقيات " ، أن أبا بكر قال فى الجاهلية لقيس بن عاصم نقرى : ما حملك على أن وأدت ؟ قال : مخافة أن يخلف عليهن مثلك .

الأصل :

فأنظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولا ، فمقد بمليه . أعنتهم ، وجمع على دعوته ألفتهم ، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها ، أسالت لهم جداول نعيمها ، وألفت الملة بهم فى عوائد بر كنها ، فأصبخوا فى نعمتها ريقين ، وفى خضرة عيشها فاكهين ؛ قد تربعت الأمور بهم ، فى ظل سلطان هير ، وآوتهم الحال إلى كف عز غالب ، وتعطفت الأمور عليهم فى ذرى ملك بيت ؛ فهم حكام على العالمين ، ومولوك فى أطراف الأرضين ، يملكون الأمور لى من كان يملكها عليهم ، ويمنضون الأحكام فىمن كان يمنضها فيهم ، لا تعمزهم قنائة ، ولا تفرغ لهم صفاة .

الشح :

لما ذكر ما كانت العرب عليه من الذل والضيء والجل ، عاد فذكر ما أبدل الله

(١) انظر الفائق ٣ : ١٣٣

١ به حالهم ، حين بعث إليهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فعقد عليهم طاعتهم كالشيء المنتشر
الحلول ، فعقدها بجملة محمد صلى الله عليه وآله .
والجداول : الأنهر .

والتفت الملة بهم ، أى كانوا متفرقين فالتفت ملة محمد بهم ، أى جمعهم ، ويقال :
التفت الحبل بالحطب ، أى جمعه ، والتفت الحطب بالحبل ، أى اجتمع به .
و« فى » فى قوله : « فى عوائد بركتها » متعلقة بمحذوف ؛ وموضع الجار والمجرور نصب
على الحال ، أى جمعهم الملة . كائنة فى عوائد بركتها ، والعوائد : جمع عائدة ، وهى المنفعة .
تقول : هذا أعوذُ عليك ، أى أنفع لك . وروى : « والتفت الملة » بالفاء أى اجتمعت
بهم ، من اللقاء . والرواية الأولى أصح .

وأصبحوا فى نعمتها غريقين ، مبالغة فى وصف ما هم فيه من النعمة .
وفاكهين : ناعمين . وروى « فكهين » أى أشيرين وقد قرئ بهم فى قوله تعالى :
﴿ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ ^(١) ، وقال الأصمعى : فاكهين : مازحين ، والمفاكهة
الممازحة ، ومن أمثالهم : « لاتفأكه أمة ، ولا تبُلْ على أكمة » : فأما قوله تعالى :
﴿ فَظَلَّمُوا نَفْسَهُمْ ﴾ ^(٢) ، فقيل : تندمون ، وقيل : تعجبون .

و« عن » فى قوله : « وعن خضرة عيشها » ، متعلقة بمحذوف ، تقديره : فأصبحوا
فاكهين . فكاكة صادرة عن خضرة عيشها ، أى خضرة العيش النعمة سبب لصدور
الفكاكة والمزاح عنه .

وتربعت الأمور بهم ، أى أقامت ، من قولك . ربّع بالمكان ، أى أقام به .

وأوتهم الحال؛ بالمد أى ضمتهم وأنزلتهم، قال تعالى: ﴿أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾^(١)، أى ضمه إليه وأنزله، ويجوز «أوتهم» بغير مد. أفعلت فى هذا المعنى وفعلت واحد؛ عن أبى زيد. والكشف: الجانب، وتعطفت الأمور عليهم: كناية عن السيادة والإقبال، يقال: ند تعطف الدهر على فلان، أى أقبل حظّه وسعادته، بعد أن لم يكن كذلك. وفى ذرًا مُلْكٍ: بضم الذال أى فى أعاليه، جمع ذروة، ويكنى عن العزيز الذى لا يُضام، فيقال: لا يغمز له قناة، أى هو صلب. والقناة إذا لم تِلَن فى يد الغامر كانت بعداً عن الحطم والكسر. ولا تُقرع لهم صفاة؛ مثل يضرب لمن لا يطمع فى جانبه لعزّته وقوّته.

الأفضل:

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَبَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَتَلَمَّسْتُمْ حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الَّتِي يَنْقَلِبُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنْفِهَا، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيَمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ تَمَنٍّ، وَأَجَلُ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَغْرَابًا، وَبَعْدَ الْمَوَالَاةِ أَحْزَابًا، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِأَنْيَمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ، تَقُولُونَ: النَّارَ لَا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِتُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِ انْتِهَابِ كَأَلِحَرِيهِ، وَتَقْضَى لِمِثَاقِهِ الَّذِي وَصَّعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ، وَأَمْنَا بَيْنَ خَلْقِهِ. وَإِنَّكُمْ إِنْ جَلَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلَ

وَلَا مِيكَائِيلَ ، وَلَا مُهَاجِرِينَ وَلَا أَنْصَارَ يَنْصُرُونَكُمْ ، إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ .

وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ ، وَأَيَّامِهِ وَقَوَائِعِهِ ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ ، وَتَهَاجَرُوا بِبَطْشِهِ ، وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقُرُونَ الْمَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي ، وَالْخُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاضُحِ .

الْبَرْخُ :

نفضتم أيديكم : كلمة تقال في أطراح الشيء وتركه ، وهي أبلغ من أن تقول : تركتم حبل الطاعة ، لأنَّ مَنْ يَخْلِي الشيء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشدَّ تخلياً له ممَّن لا ينفضها بل يقتصر على تخليته فقط ، لأنَّ نفضها إشعار وإيدان بشدة الأطراح والإعراض .

والباء في قوله . « بأحكام الجاهلية » متعلقة بـ « ثلثتم » ، أي ثلثتم حصن الله بأحكام الجاهلية التي حكمت بها في ملة الإسلام .

والباء في قوله : « بنعمة لا يعرف » ، متعلقة بـ « امتن » . و « في » من قوله « فيما عقد » متعلقة بمحذوف ، وموضعها نصب على الحال ، وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ﴾^(١) . وقوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾^(٢) .

وروى : « تتقلبون في ظلمها » .

قوله : « صرّتم بعد الهجرة أعراباً » : الأعراب على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من آمن به من أهل البادية ، والمهاجر إليه ، وهم ناقصو المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ، ونشئهم في بُعدٍ من مخالطة العلماء ، وسماع كلام الرسول صلى الله عليه وآله ، وفيهم أنزل : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ ^(١) ؛ وليست هذه الآية عامة في كل الأعراب بل خاصة ببعضهم ، وهم الذين كانوا حول المدينة ، وهم جهينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغفار ، وإليهم أشار سبحانه بقوله : ﴿ وَتَمَنَّيْنَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾ ^(٢) . وكيف يكون كل الأعراب مذموماً ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) ، وصارت هذه الكلمة جارية مجرى المثل .

وأنشد الحجاج على منبر الكوفة :

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بَعْصَلِي ^(٤) أَرْوَعَ خَرَجٍ مِنَ الدَّوِيِّ ^(٥)

* مهاجر ليس بأعرابي ^(٦) *

وقال عثمان لأبي ذر : أخشى أن تصير بعد الهجرة أعرابياً .

وروى : « ولا يعقلون من الإيمان » .

وقولهم : « النارَ ولا العارَ » ، منصوبتان بإضمار فعل ، أي ادخلوا النارَ ولا تلتزموا

العار ، وهي كلمة جارية مجرى المثل أيضاً ، يقولها أرباب الحمية والإباء ، فإذا قيلت في حقِّ كانت صواباً ، وإذا قيلت في باطل كانت خطأ .

وأكفأت الإناء وكفأته : لغتان ، أي كببته .

(١) سورة التوبة ٩٧

(٢) سورة التوبة ٩٩

(٣) سورة التوبة ١٠١

(٤) العصلي : الشديد الخلق .

(٥) أروع : أي ذكى . يقول : خراج من كل غمء شديدة . ويقال للصحراء : دوية ، وهي التي لا تكاد تنقضي ، منسوبة إلى الدو ، والدو : صحراء ملساء لا علم بها .

(٦) الكامل للبدر ١ : ٣٨١ (طبعة نهضة مصر) .

قوله: «ثم لاجبرائيلَ ولا ميكائيلَ ولا مهابجرين»، الرواية المشهورة هكذا بالنصب، وهو جائز على التشبيه بالنكرة، كتولهم: معضلة ولا أبا حسن لها. قال الراجز:

* لا هيتم الليلة للمطى *

وقد روى بالرفع في الجميع.

والمقارعة منصوبة على المصدر. وقال الراوندي: هي استثناء منقطع، والصواب ما ذكرناه، وقد روى: «إلا المقارعة» بالرفع، تقديره: ولا نصير لكم بوجه من الوجوه إلا المقارعة.

والأمثال التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هي ما تضمنه القرآن من أيام الله ونعماته على أعدائه، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾^(١).

والتناهى: مصدر تنهى القوم عن كذا، أى نهى بعضهم بعضا، يقول: لعن الله الماضين من قباسكم، لأن سفهاءهم ارتكبوا العصية، وحماهم لم ينهوهم عنها، وهذا من قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٢).

الأصل:

أَلَا وَقَدْ فَطَّمْتُ قَيْدَ الْإِسْلَامِ، وَعَظَّمْتُ حُدُودَهُ، وَأَمَّمْتُ أَحْكَامَهُ.
أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ النَّبِيِّ وَالنَّكَثِ وَالنَّسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا
النَّبَاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ،
وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كَفَيْتُهُ بِصَعْقَةٍ سَمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ، وَرَجَّةُ صَدْرِهِ،

وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ؛ وَلَئِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِي الْكُرَّةِ عَلَيْهِمْ ، لَأَدِلَّنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَدَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَدُّرًا .

البُخ :

قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال له عليه السلام : « ستقاتل بعدي النّاكثين والقاسطين والمارقين » ، فكان النّاكثون أصحاب الجمل ، لأنّهم نكثوا بيعته عليه السلام ، وكان القاسطون أهل الشام بصفين ، وكان المارقون الخوارج في النهروان ، وفي الفرق الثلاث قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾^(١) ، وقال : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾^(٢) ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : « يخرج من ضُفْيِ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر أحدهم في النّصل فلا يجد شيئاً ، فينظر في الفؤق^(٣) ، فلا يجد شيئاً ، سبق الفرث والدم » . وهذا الخبر من أعلام نبوته صلى الله عليه وآله ومن أخباره المفصلة بالغيوب .

وأما شيطان الرّدة ، فقد قال قوم : إنّه ذو الثّديّة صاحب النهروان ، ورووا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله ، وممن ذكر ذلك واختاره الجوهرى صاحب " الصحاح " ،^(٤) وهؤلاء يقولون : إن ذا الثّديّة لم يقتل بسيف ، ولكن الله رماه يوم النهروان بصاعقة ، وإليها أشار عليه السلام بقوله : « فقد كُفِيتَه بِصَعْقَةٍ سَمِعْتَ لَهَا وَخْبَةً

(٢) سورة الجن ١٥

(١) سورة الفتح ١٠

(٣) الفوق : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

(٤) الصحاح ٨ : ٢٢٣٢ ، وفيه : قال الخليل : الرّدة : شبه أكمة كثيرة الحجارة . وفي الحديث

أنه صلى الله عليه وسلم ذكر المقتول بالنهروان ، فقال : « شيطان الرّدة » .

قلبه » ، وقال قوم : شيطان الرّذّة أحد الأبالسة المرّدة من أعوان عدوّ الله إبليس ، وروّوا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله ، وأنّه كان يتعوّذ منه . والرّذّة : شبه نُقْرة في الجبل يجتمع فيها الماء ، وهذا مثل قوله عليه السلام : « هذا أربّ العقبة » ، أى شيطانها ، ولعلّ أربّ العقبة هو شيطان الرّذّة بعينه ، فتارة يردّ بهذا اللفظ ، وتارة يردّ بذلك اللفظ . وقال قوم : شيطان الرّذّة ماردٌ يتصوّر في صورة حيّة ، ويكون على الرّذّة . وإنما أخذوا هذا من لفظة « الشيطان » لأنّ الشيطان الحيّة ، ومنه قولهم : شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة مخصوصة ، ويقال : إنها كثيرة الحيات .

قوله : « ويتشذّر في أطراف الأرض » ، يتمزّق ويتبدّد ، ومنه قولهم : ذهبوا شذّر مدّر .

والثبّية التي بقيت من أهل البنى : معاوية وأصحابه ، لأنّه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم ، وإنما وقعت الحرب بينه وبينهم بمكيدة التحكيم .

قوله عليه السلام : « ولئن أذن الله في الكرّة عليهم » ، أى إن مدّ لى في العمر لأدبّن منهم ، أى لتكونن الدّولة لى عليهم ، أدلت من فلان أى غلبته وقهرته ، وصرت ذا دولةٍ عليه .

[استدلال قاضى القضاة على إمارة أبى بكر وردّ المراضى عليه]

واعلم أن أصحابنا قد استدّلوا على صحّة إمارة أبى بكر بقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ
لَائِمٍّ^(١) ، ثم قال قاضى القضاة فى المعنى : وهذا خبر من الله تعالى ، ولا بد أن يكون
كائنا على ما أخبر به ، والذين قاتلوا المرتدين هم أبو بكر وأصحابه ، فوجب أن يكونوا
هم الذين عناهم الله سبحانه بقوله : ﴿ يُجَاهِدُهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وذلك يوجب أن يكونوا
على صواب .

واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج فى ” الشافى “ ، فقال : من أين قلت :
إن الآية نزلت فى أبى بكر وأصحابه ؟ فإن قال : لأنهم الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله
صلى الله عليه وآله ، ولا أحد قاتلهم سواهم ، قيل له : ومن الذى سلم لك ذلك ؟ أو ليس
أمير المؤمنين عليه السلام قد قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعد الرسول صلى الله
عليه وآله وهؤلاء عندنا مرتدون عن الدين ؟ ويشهد بصحة التأويل زائدا على احتمال
القول له ، ماروى عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة : والله ما قوتل أهل
الآية حتى اليوم ، وثلاثها ، وقد روى عن عمار وحذيفة وغيرها مثل ذلك .

فإن قال : دليل على أنها فى أبى بكر وأصحابه قول أهل التفسير ؛ قيل له : أو كل
أهل التفسير قال ذلك ؟ فإن قال : نعم ، كابر لأنه قد روى عن جماعة التأويل الذى
ذكرناه ، ولو لم يكن إلا ماروى عن أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه أصحابه الذين
ذكرناهم لكفى ، وإن قال : حجتى قول بعض المفسرين ، قلنا : وأى حجة فى قول
البعض ! ولم صار البعض الذى قال ما ذكرت أولى بالحق من البعض الذى
قال ما ذكرنا !

ثم يقال له : قد وجدنا الله تعالى قد نعت المذكورين فى الآية بنعوت يجب أن

نراعيها ، لنعلم أفي صاحبنا هي أم في صاحبك ! وقد جعله الرسول صلى الله عليه وآله في خير حين فرّ من قوم من العدو صاحب هذه الأوصاف ، فقال : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، كرّاراً غير فرّار ؛ فدفعتها إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

ثم قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) ، يقتضى ما ذكرناه ، لأنه من المعلوم بلا خلاف حال أمير المؤمنين عليه السلام في التّخاضع والتّواضع ، وذمّ نفسه ، وقع غضبه ، وأنه مارئى قطّ طائشاً ولا متطيّراً في حال من الأحوال ، ومعلوم حال صاحبكم في هذا الباب ، أمّا أحدهما فإنه اعترف طوعاً بأنّ له شيطاناً يعتريه عند غضبه ، وأمّا الآخر فكان معروفاً بالجدّ والعجلة ، مشهوراً بالفضاظة والغلظة ، وأمّا العزّة على الكافرين ، فإنّما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم ، وهذه حال لم يسبق أمير المؤمنين عليه السلام إليها سابق ، ولا لحقه فيها لاحق .

ثم قال تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ أَوْمَةً لَا تُؤْمِنُ ﴾ ^(٢) ، وهذا وصف أمير المؤمنين المستحقّ له بالإجماع ، وهو منتفٍ عن أبى بكر وصاحبه إجماعاً ، لأنه لا قتيل لهما في الإسلام ، ولا جهاد بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله ، وإذا كانت الأوصاف المراعاة في الآية حاصلة لأمر المؤمنين عليه السلام ، وغير حاصلة لمن ادّعيتم ، لأنّها فيهم على ضربين : ضرب معلوم انتفاؤه كالجهاد ، وضرب مختلف فيه كالأوصاف التي هي غير الجهاد ، وعلى من أثبتها لهم الدّلالة على حصولها ، ولا بدّ أن يرجع في ذلك إلى غير ظاهر الآية ، لم يبق في يده من الآية دليل .

هذه تجملة ما ذكره المرتضى رحمه الله ، ولقد كان يمكنه التخلّص من الاحتجاج بالآية

على وجهٍ أَلُفٍّ وأَحْسَنَ وأَصَحَّ ممَّا ذكره ، فيقول : المراد بها مَنْ ارتدَّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في واقعة الأسود العنسيِّ باليمن ، فإنَّ كثيرا من المسلمين ضلُّوا به وارتدُّوا عن الإسلام ، وادَّعَوْا له النبوةَ ، واعتقدوا صدقه ، والقوم الذين يحبُّهم الله ويحبُّونه القوم الذين كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأغراهم بقتله ، والفتك به ، وهم فيروز الديلميِّ وأصحابه . والقصة مشهورة .

وقد كان له أيضاً أن يقول : لم قلت : إنَّ الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابه كانوا مرتدين ! فإنَّ المرتدَّ من ينكِر دينَ الإسلام بعد أن كان قد تديَّن به ، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصلَ دين الإسلام ، وإِنَّمَا تَأَوَّلُوا فَأَخْطَوْا ؛ لأنهم تأوَّلوا قول الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (١) ؛ فقالوا : إِنَّمَا ندفع زكاة أموالنا إلى مَنْ صَلَاتِهِ سَكَنٌ لَنَا ، ولم يبق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله مَنْ هُوَ بهذه الصفة ، فسقط عَنَّا وجوب الزكاة ، ليس هذا من الردَّة في شيء ، وإِنَّمَا سَمَّاهُم الصحابة أهلَ الردَّة على سبيل المجاز ، إعظاماً لما قالوه وتأوَّلوه .

فإن قيل : إِنَّمَا الاعتمادُ على قتال أبي بكر وأصحابه لمسيمة وطليحة اللذين ادَّعيا النبوة ، وارتدَّ بطريقهما كثيرٌ من العرب ، لاعلى قتال مانعي الزكاة !

قيل : إنَّ مُسَيِّمَةَ وَطَلِيحَةَ جَاهَدَا رسولُ الله صلى الله عليه وآله قبل موته بالكتب والرَّسَل ، وأنفذ لقتلها جماعةً من المسلمين ، وأمرهم أن يقتكوا بهما غيلةً إن أمكنهم ذلك ؛ واستنفر عليهما قبائل من العرب ، وكلُّ ذلك مفصَّل مذكور في كتب السيرة والتواريخ ، فلم لا يجوز أن يكون أولئك النفر الذين بعثهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله للفتك بهما ، هم المعنيون بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ إلى آخر الآية ! ولم يقل في الآية : « يجاهدون

فيقتلون » ، وإنما ذكر الجهاد فقط ، وقد كان الجهاد من أولئك النفر حاصلًا وإن لم يبلغوا الغرض ، كما كان الجهاد حاصلًا عند حصار الطائف وإن لم يبلغ فيه الغرض .

وقد كان له أيضا أن يقول : سياق الآية لا يدل على ما ظنّه المستدل بها ؛ من أنه من يرتدد عن الدين ، فإن الله يأتي بقوم يحبهم ويحبونه يحاربونه لأجل ردة ، وإنما الذي يدل عليه سياق الآية أنه من يرتدد منكم عن دينه بترك الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله - وسماه ارتداداً على سبيل المجاز - فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، يجاهدون في سبيل الله معه عِوَضاً عنكم ، وكذلك كان كل من خذل النبي صلى الله عليه وآله وقعد عن النهوض معه في حروبه ، أغناه الله تعالى عنه بطائفة أخرى من المسلمين جاهدوا بين يديه !

وأما قول المرتضى رحمه الله : إنها أنزلت في الناكثين والقاسطين والمارقين الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام فبعيد ، لأنهم لا يطلق عليهم لفظ «الردة» عندنا، ولا عند المرتضى وأصحابه ، أما اللفظ فبالاتفاق ، وإن سمّوهم كفاراً . وأما المعنى فلأن في مذهبهم أن من ارتد - وكان قد ولد على فطرة الإسلام - بانت امرأته منه ، وقسم ماله بين ورثته ، وكان على زوجته عدة المتوفى عنها زوجها ؛ ومعلوم أن أكثر محاربي أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد ولدوا في الإسلام ، ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام .

وقوله : « إن الصفات غير متحققة في صاحبكم » ، فلعمري إن حظ أمير المؤمنين عليه السلام منها هو الخطء الأوفى ، ولكن الآية ما خصت الرئيس بالصفات المذكورة ، وإنما أطلقها على المجاهدين ، وهم الذين يباشرون الحرب ؛ فهب أن أبا بكر وعمر ما كانا بهذه الصفات ، لم لا يجوز أن يكون مدحاً لمن جاهد بين أيديهما من المسلمين ، وباشر الحرب ، وهم شجعان المهاجرين والأنصار الذين فتحوا الفتوح ، ونشروا الدعوة ، وملكوا الأقاليم !

وقد استدلل قاضي القضاة أيضا عن صحة إمامة أبي بكر ؛ - وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبي علي - بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٣) ، يعني قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ . ثم قال سبحانه : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ * فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ^(٤) ، فبيّن أنّ الذي يدعو هؤلاء الخلفين من الأعراب إلى قتال قوم أولى بآس شديد غير النبي صلى الله عليه وآله ، لأنه تعالى قد بيّن أنهم لا يخرجون معه ، ولا يقاتلون معه عدوًّا ، بآية متقدمة ، ولم يدعهم بعد النبي صلى الله عليه وآله إلى قتال الكفار إلا أبو بكر وعمر وعثمان ، لأنّ أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل ، فقال بعضهم : عنى بقوله : ﴿ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ بنى حنيفة ، وقال بعضهم : عنى فارس والروم ؛ وأبو بكر هو الذي دعا إلى قتال بنى حنيفة وقتال آل فارس والروم ، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والروم عمر ، فإذا كان الله تعالى قد بيّن أنهم بطاعتهم لها يؤتتهم أجرا حسنا ، وإن تولّوا عن طاعتها يعذبهم عذابا أليما ، صحّ أنّهما على حقّ ، وأن طاعتها طاعة الله تعالى . وهذا يوجب صحة إمامتهما .

(٢) سورة التوبة ٨٣

(٤) سورة الفتح ١٦

(١) سورة الفتح ١١

(٣) سورة الفتح ١٥

فإن قيل : إنما أراد الله بذلك أهل الجبل وصفيين !

قيل : هذا فاسد من وجهين : أحدهما قوله تعالى : ﴿ تَقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُوا ﴾ ، والذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام ، ولم يقاتلوا على الكفر . والوجه الثاني أننا لا نعرف من الذين عناهم الله تعالى بهذا من بقي إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام ، كما علمنا أنهم كانوا باقين في أيام أبي بكر .

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين : أحدهما أنه نازع في اقتضاء الآية داعياً يدعو هؤلاء الخلفين غير النبي صلى الله عليه وآله ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً ﴾ * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ﴿١﴾ ، إنما أراد به سبحانه الذين تخلفوا عن الحديبية بشهادة جميع أهل النقل وإطباق المفسرين .

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذْهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَقْهَمُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) ، وإنما التمس هؤلاء الخلفون أن يخرجوا إلى غنيمة خبير ، فمنهم الله تعالى من ذلك ، وأمر نبيه أن يقول لهم : لن تتبعونا إلى هذه الغزاة ، لأن الله تعالى كان حكماً من قبل بأن غنيمة خبير لمن شهد الحديبية ، وأنه لاحظ لمن لم يشهدا ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ

مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَاهِدُواكُمْ ، وَإِنَّمَا
أَرَادَ أَنَّ الرِّسُولَ سَيَدْعُوكُمْ فِيمَا بَعْدَ إِلَى قِتَالِ قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَقَدْ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى غَزَوَاتٍ كَثِيرَةٍ ، إِلَى قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، كَمُؤْتَةِ وَحْنَيْنَ
وَتَبُوكَ وَغَيْرَهَا ، فَمَنْ أَيْنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الدَّاعِيَ هَؤُلَاءِ غَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مَعَ
مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْحُرُوبِ الَّتِي كَانَتْ بَعْدَ خَيْرٍ !

وقوله : إِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ مَثَابِيْنَهُ فِي
قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ
أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ ؛ بِتَبُوكَ سَنَةِ تِسْعٍ ، وَآيَةِ الْفَتْحِ نَزَلَتْ فِي سَنَةِ سِتٍّ ،
فَكَيْفَ يَكُونُ قَبْلَهَا !

وليس يجب أن يقال في القرآن بالإرادة ، وبما يحتمل من الوجوه في كل موضع
دون الرجوع إلى تاريخ نزول الآي ، والأسباب التي وردت عليها ، وتعلقت بها .

وَمَا يَبِينُ لَكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءِ غَيْرُ أَوْلَئِكَ لَوْ لَمْ نَرْجِعْ فِي ذَلِكَ إِلَى نَقْلِ وَتَارِيخِ ،
قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَؤُلَاءِ : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ
مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ^(١) ، فَلَمْ يَقْطَعْ مِنْهُمْ عَلَى طَاعَةٍ وَلَا مَعْصِيَةٍ ، بَلْ ذَكَرَ الْوَعْدَ
وَالْوَعْدَ عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ ، وَحَكَّمَ الْمَذْكُورِينَ فِي آيَةِ سُورَةِ التَّوْبَةِ بِخِلَافِ
هَذِهِ لِأَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ *
وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا
وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا
فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ^(٢) ، وَاخْتِلَافِ أَحْكَامِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ يَدُلُّ

(٢) سورة التوبة : ٨٣ - ٨٥ .

(١) سورة الفتح : ١٦

على اختلافهم ، وأنّ المذكورين في آية سورة الفتح غير المذكورين في آية سورة التوبة .

وأما قوله : لأنّ أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل فذكرها باطل ؛ لأنّ أهل التأويل قد ذكروا شيئا آخر لم يذكره ، لأنّ المسيّب روى عن أبي روق عن الضحّاك في قوله تعالى : ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾^(١) الآية ، قال : هم ثقيف . وروى هشيم عن أبي يسر ، سعيد بن جبير ، قال : هم هوازن يوم حُين .

وروى الواديّ ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : هم هوازن وثقيف ، فكيف ذكر من أقوال المفسرين ما يوافقه مع اختلاف الرواية عنهم ! على أنّا لا نرجع في كلّ ما يحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسرين ، فإنهم ربما تركوا ما يحتمله القول وجهاً صحيحاً ، وكما استخرج جماعة من أهل العبدل في متشابه القرآن من الوجوه الصحيحة التي ظاهر التنزيل بها أشبه ، ولها أشدّ احتمالاً ، ممّا لم يسبق إليه المفسرون ، ولا دخل في جملة تفسيرهم وتأويلهم .

والوجه الثاني سلّم فيه أنّ الدّاعي هؤلاء الخافين غير النّبىّ صلى الله عليه وآله ، وقال : لا يمتنع أن يعنى بهذا الدّاعي أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّه قاتل بعده النّاكثين والقاسطين والمارقين . وبشره النّبىّ صلى الله عليه وآله بأنّه يقاتلهم ، وقد كانوا أولى بأس شديد بلا شبهة .

قال : فأمّا تعلق صاحب الكتاب بقوله : ﴿أَوْ يُسْلَمُونَ﴾ ، وأنّ الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين ، فأوّل ما فيه أنهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه ؛ لأنّ الكبائر تُخرج من الإسلام عندهم كما تخرج عن الإيمان إذ كان الإيمان هو الإسلام

على مذهبهم . ثم إن مذهبنا في محاربي أمير المؤمنين عليه السلام معروف ، لأنهم عندنا كانوا كفّاراً بمحاربتهم لوجهه :

الأول منها : أن من حاربه كان مستحلاً لقتاله ، مظهراً أنه في ارتكابه على حق ؛ ونحن نعلم أن من أظهر استحلال شرب جرعة خمر هو كافر بالإجماع ؛ واستحلال دماء المؤمنين فضلاً عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم من شرب الخمر واستحلاله ، فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفّاراً .

الثاني : أنه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النقل : « حرّ بك يا عليّ حرّبي ، وسلك سبى » ، ونحن نعلم أنه لم يرد إلّا التشبيه بينهما في الأحكام ، ومن أحكام محاربي النبي صلى الله عليه وآله الكفر بلا خلاف .

الثالث : أن النبي صلى الله عليه وآله قال له بلا خلاف أيضاً : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، وقد ثبت عندنا أن العداوة من الله لا تكون إلّا للكفار الذين يعادونه دون فساق أهل الملة .

الرابع : قوله : « إنا لانعلم ببقاء هؤلاء الخلفين إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام فليس بشيء » ، لأنه إذا لم يكن ذلك معلوماً ومقطوعاً عليه ، فهو مجوّز وغير معلوم خلافه ، والجواز كافٍ لنا في هذا الموضع .

ولو قيل له : من أين علمت بقاء الخلفين المذكورين في الآية على سبيل القطع إلى أيام أبي بكر ؟ لكان يفزع إلى أن يقول : حكم الآية يقتضي بقاءهم حتى يتمّ كونهم مدعوين إلى قتال أولى البأس الشديد على وجه يلزمهم فيه الطاعة ، وهذا بعينه يمكن أن يقال له ، ويعتمد في بقائهم إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يوجبه حكم الآية .

فإن قيل : كيف يكون أهل الجمل وصفيين كفّاراً ولم يسر أمير المؤمنين عليه السلام

فيهم بسيرة الكفار ، لأنه ماسباهم ، ولا غنم أموالهم ، ولا تبع مولئهم !

قلنا : أحكام الكفر تختلف ، وإن شملهم اسم «الكفر» ، لأن في الكفار من يُقتل ولا يستبقى ، وفيهم من يُؤخذ منه الجزية ولا يحلّ قتله إلا بسبب طارى غير الكفر ، ومنهم من لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين ، فعلى هذا يجوز أن يكون أكثر هؤلاء القوم كفاراً ، وإن لم يسر فيهم بجميع سيرة أهل الكفر ، لأننا قد بينا اختلاف أحكام الكفار ، ويرجع في أن حكمهم مخالف لأحكام الكفار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم . على أننا لا نجد في الفساق من حكمه أن يقتل مقبلاً ، ولا يقتل مولياً ، ولا يحجز على جريحه ، إلى غير ذلك من الأحكام التي سيرها في أهل البصرة وصفين . فإذا قيل في جواب ذلك : أحكام الفسق مختلفة ، وفعل أمير المؤمنين هو الحجة في أن حكم أهل البصرة وصفين مافعله .

قلنا مثل ذلك حرفاً بحرف ، ويمكن مع تسليم أن الداعي هؤلاء الخلفين أبو بكر ، أن يقال : ليس في الآية دلالة على مدح الداعي ولا على إمامته ، لأنه قد يجوز أن يدعوا إلى الحق والصواب من ليس عليهما ، فيلزم ذلك الفعل من حيث كان واجبا في نفسه ، للدعاء الداعي إليه ، وأبو بكر إنما دعا إلى دفع أهل الردة عن الإسلام ، وهذا يجب على المسلمين بلا دعاء داع ، والطاعة فيه طاعة لله تعالى ، فمن أين له أن الداعي كان على حق وصواب ، وليس في كون مادعا إليه طاعة ما يدل على ذلك .

ويمكن أيضا أن يكون قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ ، إنما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم ، لأنه إذا دلهم على وجوب قتال المرتدين ، ورفعهم عن بيضة الإسلام ، فقد دعاهم إلى القتال ، ووجب عليهم الطاعة ، ووجب لهم الثواب إن أطاعوا ، وهذا أيضا تحتمله الآية .

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله في هذا الموضع ؛ وأكثره جيد لا اعتراض عليه ، وقد كان يمكنه أن يقول : لو سلمنا بكلّ هذا لكان ليس في قوله : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا... ﴾ الآية ما يدلّ على أن النبيّ صلى الله عليه وآله لا يكون هو الداعي لهم إلى القوم أولى البأس الشديد ، لأنه ليس فيها إلا محض الإخبار عنهم بأنهم لا يخرجون معه ، ولا يقاتلون العدو معه ، وليس في هذا ما ينفي كونه داعيا لهم ، كما أنه عليه السلام قال : « أبو لهب لا يؤمن بي » ، لم يكن هذا القول نافيا لكونه يدعوهم إلى الإسلام .

وقوله : ﴿ فَاتَّعَدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ليس بأمر على الحقيقة ، وإنما هو تهديد كقوله : ﴿ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ ^(١) ولا بدّ للمرتضى ولقاضي القضاة جميعا من أن يحملا صيغة « افعل » على هذا الحمل ، لأنه ليس لأحدهما بمسوّغ أن يحمل الأمر على حقيقته ، لأنّ لشارع لا يأمر بالعود وترك الجهاد مع القدرة عليه ، وكونه قد تعيّن وجوبه .

فإن قلت : لو قدرنا أن هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسَدَعُونَ إِلَى قَوْمٍ آوَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ ﴾ ، أنزلت بعد غزوة تبوك ، وبعد نزول سورة « براءة » ، التى تتضمن قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ ، وقدرنا أن قوله هالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ ليس إخبارا محضا كما تأولته أنت وحملت الآية عليه ، ل معناه لا أخرجكم معى ولا أشهدكم حرب العدو ، هل كان يتم الاستدلال ؟

قلت : لا ؛ لأنّ للإمامية أن تقول : يجوز أن يكون الداعي إلى حرب القوم أولى لبأس الشديد مع تسليم هذه المقدمات كلّها هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنّه عامهم إلى حرب الروم فى سرية أسامة بن زيد فى صفر من سنة إحدى عشرة ، ثمّ سيّره إلى البلقاء ، وقال له : سر إلى الروم مقتل أبيك فأوطئهم الخيول وحشد معه كثر المسلمين ، فهذا الجيش قد دُعِيَ فيه الخلفون من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد

في غزاة تبوك إلى قوم بأس شديد ، ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا حاربوا معه عدوًّا .

فإن قلت : إذا خرجوا مع أسامة ، فكأنما خرجوا مع رسول الله ، وإذا حاربوا مع أسامة العدو ، فكأنما حاربوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد كان سبق أنهم لا يخرجون مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يحاربون معه عدوًّا .

قلت : وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره في أيام أبي بكر ، ومع أبي عبيدة وسعد في أيام عمر ؛ فكأنما خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحاربوا العدو معه أيضًا .

فإن اعتذرت بأنه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلا أنه على الحقيقة ليس معه ، وإنما هو مع امرئ من قبل خلفائه .

قل لك : وكذلك خروجهم مع أسامة ومحاربة العدو معه ، وإن شابه الخروج مع النبي ومحاربة العدو معه ، إلا أنه على الحقيقة ليس معه ، وإنما هو مع بعض أمرائه .
ويمكن أن يعترض الاستدلال بالآية ، فيقال : لا يجوز حملها على بنى حنيفة ، لأنهم كانوا مسلمين ، وإنما منعوا الزكاة مع قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » صلى الله عليه وآله ، ومنع الزكاة لا يخرج به الإنسان عن الإسلام عند المرجئة ، والإمامية مرجئة ؛ ولا يجوز حملها على فارس والروم ، لأنه تعالى أخبر أنه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم ، كما تقول : إما كذا وإما كذا ، فيقتضى ذلك نفى الواسطة ، وقاتل فارس والروم بينه وبين إسلامهم واسطة ، وهو دفع الجزية ، وإنما تنفي هذه الواسطة في قتال العرب ، لأن مشركي العرب لا تؤخذ منهم الجزية ، فالآية إذن دالة على أن الحلفين سيذعنون إلى قوم أولى بأس شديد الحكم فيهم ، إما قتالهم وإما إسلامهم ، وهؤلاء هم مشركو العرب ، ولم يحارب مشركي العرب إلا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالداعي لهم إذاً هو رسول الله ، وبطل الاستدلال بالآية .

الأضل :

أَنَا وَضَعْتُ بِكَلَّا كِلِ الْعَرَبِ ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةٍ وَمُضَرٍ . وَقَدْ عَلَّمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَاصِّصَةِ ، وَضَعَنِي فِي حَجَرِهِ ، وَأَنَا وَلِيدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ ، وَيُمِشِّي جَسَدَهُ ، وَيُسَمِّنِي عَرَفَهُ ؛ وَكَانَ يَمْنَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلَا خَطَلَةً فِي فِعْلٍ .

وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ ، وَتَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ ، لَيْسَلُهُ وَنَهَارُهُ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ ، يَرْفَعُنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَمًا ، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِفْتِدَاءِ بِهِ ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُنِي فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءِ فَأَرَاهُ ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي ، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا ، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوءَةِ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ ؟ فَقَالَ : هَذَا الشَّيْطَانُ ، قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ ، وَتَرَى مَا أَرَى ، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِذِيٍّ ، وَلَسَكِنَّكَ لَوْزِيرٌ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُبْرٍ .

الْبُنْح :

الباء في قوله : « بكلا كل العرب » زائدة . والكلا كل : الصَّدُور ، الواحد كَلِيلٌ ، والمعنى أتى أذلتهم وصرعتهم إلى الأرض .

ونواجه قرون ربّعة ومضر : مَنْ نجم منهم وظهر ، وعلا قدره ، وطار صيته .
فإن قلت : أمّا قهره لمُضرّ فعُلم ، فما حال ربّعة ، ولم نعرف أنه قتل منهم أحداً؟ قلت :
بلى قد قتل بيده وبجيشه كثيراً من رؤسائهم في صفّين والجل ، فقد تقدّم ذكر أسمائهم من
قبل ، وهذه الخطبة خطب بها بعد انقضاء أمر التّهروان .

والمرّف بالفتح : الرّيح الطّيبة ، ومضغ الشيء يمضغه بفتح الضاد .
والخطلة في الفعل : الخطأ فيه ، وإيقاعه على غير وجهه .
وحِراء : اسم جبل بمكة معروف .
والرّنة : الصوت .

[ذكر ما كان من صلة على رسول الله في صفّره]

والقراية القرية بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله دون غيره من الأعمام ،
كونه ربّاه في حجره ، ثم حامى عنه ونصره عند إظهار الدّعوة دون غيره من بنى هاشم ،
ثم ما كان بينهما من المصاهرة التي أفضت إلى النّسل الأطهر دون غيره من الأصهار . ونحن
نذكر ما ذكره أرباب السّير من معاني هذا الفصل .

روى الطّاهري في تاريخه ، قال : حدّثنا ابنُ حميد ، قال : حدّثنا سامة ، قال : حدّثني محمد
ابن إسحاق قال : حدّثني عبد الله بن نجیح ، عن مجاهد ، قال : كان من نعمة الله عزّ وجلّ على
عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وما صنع الله له ، وأراد به من الخير ، أن قرّياً أصابتهم أزمة
شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للعبّاس وكان
من أيسر بنى هاشم : يا عبّاس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد ترى ما أصاب النّاس
من هذه الأزمة ، فانطلق بنا ، فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بيته واحداً ، وتأخذوا واحداً ،

فَنَكَّيْنِيهِمَا عَنْهُ . فَقَالَ الْعَبَّاسُ : نَعَمْ ، فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ ، فَقَالَا لَهُ : إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ ، فَقَالَ لَهَا : إِنْ تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا . فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلِيًّا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا ، فَاتَّبَعَهُ عَلَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَقْرَبَهُ وَصَدَّقَهُ ، وَلَمْ يَزَلْ جَعْفَرٌ عِنْدَ الْعَبَّاسِ حَتَّى أَسْلَمَ وَاسْتَغْنَى عَنْهُ ^(١) .

قال الطبري : وَحَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا سَلَمَةُ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى شَعَابِ مَكَّةَ ، وَخَرَجَ مَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَخْفِيًّا مِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَمِنْ جَمِيعِ أَعْمَامِهِ وَسَائِرِ قَوْمِهِ ، فَيَصَلِّيَانِ الصَّلَوَاتِ فِيهَا ، فَإِذَا أَمْسَيَا رَجَعَا ، فَكُنَّا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُمْكُنَا .

ثم إنَّ أَبَا طَالِبٍ عَثَرَ عَلَيْهِمَا وَهُمَا يَصَلِّيَانِ ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا بَنَ أَخِي ، مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكَ تَدِينُ بِهِ ؟ قَالَ : يَا عَمُّ هَذَا دِينُ اللَّهِ وَدِينُ مَلَائِكَتِهِ وَدِينُ رُسُلِهِ وَدِينُ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ - أَوْ كَمَا قَالَ - بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ رَسُولًا إِلَى الْعِبَادِ ، وَأَنْتَ يَا عَمُّ أَحَقُّ مَنْ بَذَلْتُ لَهُ النَّصِيحَةَ ، وَدَعَوْتُهُ إِلَى الْهُدَى ، وَأَحَقُّ مَنْ أَجَابَنِي إِلَيْهِ ، وَأَعَانَنِي عَلَيْهِ - أَوْ كَمَا قَالَ - فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : يَا بَنَ أَخِي ، إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفَارِقَ دِينِي وَدِينَ آبَائِي ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا يَخْلُصُ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مَا بَقِيَتْ .

قال الطبري : وَقَدْ رَوَى هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا بَنِي ، مَا هَذَا الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ : يَا أَبَتِي ، إِنِّي آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَصَدَّقْتُهُ بِمَا

جاء به ، وصليت لله معه ، قال : فرغموا أنه قال له : أما إنه لا يدعوا إلا إلى خير ، فالزمه^(١) .

وروى الطبري في تاريخه أيضا ، قال : حدثنا أحمد بن الحسين الترمذي ، قال : حدثنا عبد الله بن موسى ، قال : أخبرنا العلاء ، عن المنهال بن عمر ، وعن عبد الله بن عبد الله ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : أنا عبد الله ، وأخو رسوله ، وأنا الصديق الأكبر ، لا يقولها بعدى إلا كاذب مُفْتَرٍ ؛ صَلَّيْتُ قَبْلَ النَّاسِ بِسَبْعِ سِنِينَ^(٢) .

وفي غير رواية الطبري : أنا الصديق الأكبر وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام أبي بكر ، وصليت قبل صلاته بسبع سنين . كأنه عليه السلام لم يرتض أن يذكر عمر ولا رآه أهلا لمقايسة بينه وبينه ؛ وذلك لأن إسلام عمر كان متاخرا .

وروى الفضل بن عباس رحمه الله ، قال : سألت أبي عن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله الذكور ، أيهم كان رسول الله صلى الله عليه وآله له أشد حبا ؟ فقال : علي بن أبي طالب عليه السلام ، فقلت له : سألتك عن بنيه ، فقال : إنه كان أحب إليهم من بنيه جميعا وأراف ، مارأيناه زايلا يوما من الدهر منذ كان طفلا ، إلا أن يكون في سفر لخديجة ، وما رأينا أبأ أبر بابن منه لعلي ، ولا ابنا أطوع لأب من علي له .

وروى الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ، قال : سمعت زيدا أبي عليه السلام يقول : كان رسول الله يمضغ اللخمة والتمر حتى تالين ، ويجعلهما في فم علي عليه السلام وهو صغير في حجّره ؛ وكذلك كان أبي علي بن الحسين عليه السلام يفعل بي ؛ ولقد كان يأخذ الشيء من الورك وهو شديد الحرارة ، فيبرد في الهواء ، أو ينفخ عليه حتى يبرد ، ثم يلقمني ؛ أفشفق علي من حرارة لقمة ولا يشفق علي من النار ! لو كان أخي إماما بالوصية كما يزعم هؤلاء ، لكان أبي أفضى بذلك إليّ ووقاني من حرّ جهنم .

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٤ (المعارف) (٢) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٠ (المعارف)

وروى جبير بن مطعم، قال : قال أبي مطعم بن عدى لنا ونحن صبيان بمكة: ألا ترون حب هذا الغلام - يعنى علياً - لحمد واتباعه له دون أبيه! واللات والعزى، لوددت أن ابني بفتيان بنى نوفل جميعاً!

وروى سعيد بن جبير، قال : سألت أنس بن مالك، فقلت : أرايت قول عمر عن الستة : إن رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راضٍ؟ ألم يكن راضياً عن غيرهم من أصحابه؟ فقال : بلى، مات رسول الله صلى الله عليه وآله وهو راضٍ عن كثير من المسلمين؛ ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضاءً. فقلت له : فأى الصحابة كان رسول الله صلى الله عليه وآله له أحمد؟ أو كما قال - قال : ما فيهم أحد إلا وقد سخط منه فعلاً، وأنكر عليه أمراً، إلا اثنان : علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة، فإنهما لم يقتربا منذ أتى الله بالإسلام أمراً، أسخطا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله.

[ذكر حال رسول الله في نشوئه]

وينبغي أن نذكر الآن ما ورد في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وعصمته بالملائكة، ليكون ذلك تقريراً وإيضاحاً لقوله عليه السلام : « ولقد قرن الله به من لدن كائن فطياً أعظم ملك من ملائكته »، وأن نذكر حديث مجاورته عليه السلام بحراء، وكون علي عليه السلام معه هناك؛ وأن نذكر ما ورد في أنه لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وعلياً وخديجة، وأن نذكر ما ورد في سماعه رنة الشيطان، وأن نذكر ما ورد في كونه عليه السلام وزيراً للنصطفى صلوات الله عليه.

أما المقام الأول فروى محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب " السيرة النبوية "، ورواه أيضاً محمد بن جرير الطبري في تاريخه، قال : كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية

أم رسول الله صلى الله عليه وآله التي أرضعته تحدّث أنها خرجت من بلدها ومعها زوجها وابنٌ لها ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر يلتصقن الرضاع^(١) بمكة، في سنة شهباء^(٢) لم تُبق شيئا، قالت: فخرجتُ على أتان لنا قمرَاء^(٣) عجفاء، ومعنا شارف^(٤) لنا؛ ماتبعض^(٥) بقطرة، ولا ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيتنا الذي معنا من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه^(٦)، ولكننا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتانى تلك، ولقد أرائت بالركب ضعفا وعجفا^(٧)، حتى شقّ ذلك عليهم، حتى قدمنا مكة تلتمس الرضاع^(٨) فما منّا امرأة إلا وقد عُرض عليها محمد صلى الله عليه وآله فتأباه إذا قيل لها إنه يقيم؛ وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يقيم، ماعسى أن تصنع أمّه وجدّه! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة ذهبتُ معي إلا أخذتُ رضيعا غري؛ فلما اجتمعنا للانطلاق قلت لصاحبي: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحي لم آخذ رضيعا؛ والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلا خدنه، قال: لا عليك أن تفعل! وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبت إليه فأخذته؛ وما يحملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته رجعت إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فوضع حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى، وما كنا ننام قبل ذلك من بكاء صبيتنا جوعا، فنام؛ وقام زوجى إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنها حافل^(٩)؛ فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريثا وشبعا؛ فبقينا بخير ليلة، قالت: يقول

(١) ابن هشام: «تلتمس الرضعاء».

(٢) سنة شهباء، تريد بها سنة الجذب، وذلك أن الأرض حينئذ تكون بضاء لانبات فيها.

(٣) القمرة بالضم: لون إلى الخضرة، أو بياض فيه كدرة، وسحر أقر، وأتان قراء. القاموس.

(٤) الشارف: الناقة المسنة.

(٥) قال أبو ذر الحشني: ماتبعض، بالضاد المعجمة، معناه: ماتنشق ولا ترشح، ومن رواه بالصاد المهملة، فعناه: «لا يبرق عليها أثر لبن، من البصيص، وهو اللعان». (٦) قال ابن هشام: «ما يغذيه».

(٧) ابن هشام: «فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً».

(٨) ابن هشام: «الرضعاء». (٩) حافل: أى ممتلئة الفروع.

صاحبي حين أصبحنا : أتعلمين^(١) والله يا حليلة لقد أخذت نَسَمَةً مباركة ، فقلت : والله إني لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتانى تلك ، وحمدته معي عليها ، فوالله لقطعتُ بالركب ما يقدر عليها شيء من حميرهم^(٢) حتى إن صواحي ليقلن لي : ويحك يا بنت أبي ذؤيب ! اربعي^(٣) علينا ، أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ! فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهي ، فيقان : والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد - وما أعلم أرضاً من أرض العرب أجذب منها - فكانت غنمي تروح علىّ حين قدمنا به معنا شباعاً ملأى^(٤) لبنا ، فكنا نحتلب ونشرب ؛ وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى إن الحاضر من قومنا ليقولون لرعاتهم : ويلكم ؟ اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب ! فيفعلون ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضّ بقطرة ، وتروح غنمي شباعاً لبنا ، فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير به حتى مضت سنتاه وفصلته ، فكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان [فلم يبلغ سنتيه]^(٥) ، حتى كان غلاماً جفراً^(٦) ، فقدمنا به على أمه آمنة بنت وهب ، ونحن أحرصُ شيء على مكثه فينا ، لما كنّا نرى من برّ كته ، فكلمنا أمه ، وقلنا لها : لو تركته عندنا حتى يغلظ ! فإننا نخشى عليه^(٧) وباء مكة ، فلم نزل بها حتى ردّته معنا .

فرجعنا به إلى بلاد بني سعد ، فوالله إنّه لبعد ما قدمنا بأشهر مع أخيه في بهم^(٨) لنا خلف بيوتنا ؛ إذ أتاناً أخوه يشتدّ ، فقال لي ولأبيه : هاهو ذاك أخى القرشيّ ؛ قد جاءه

(١) ابن هشام : « تعلمي » . (٢) ابن هشام : « حميرهم » .

(٣) اربعي علينا ، أى أقيمي وانتظري ، يقال : ربيع فلان على فلان ، إذا أقام عليه وانتظره .

(٤) ابن هشام : « لبناً » بالتحديد ، أى غزيرات اللبن .

(٥) من ابن هشام . (٦) جفراً ، أى قوياً شديداً .

(٧) الوباء ، مهور ومقصور : كثرة الأمراض والموت .

(٨) البهم : الصغار من الغنم ، واحداً بهمة .

رجلان عليهما ثياب بياض ، فأضجعا وشقّا بطنه ، فهما يسوطانه^(١) . قالت : نخرجت أنا وأبوه نشتدّ نحوه ، فوجدناه قائماً^(٢) ممتنعاً وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا : مالك يا بني ! قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني ثم شقّا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ماهو !

قالت : فرجعنا به إلى خبائنا ، وقال لي أبوه : يا حليلة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألقيه بأهله .

قالت : فاحتملته حتى قدمتُ به على أمّه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصةً عليه وعلى مكته غفلك ؟ فقلت لها : قد بلغ الله يا بني ، وقضيت الذي عليّ ، وتخوّفت عليه الأحداث وأديته إليك كما تحبّين . قالت : أتخوّفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ، قالت : كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ؛ وإن لا بني شأننا ، أفلا أخبرك خبره ؟ قلت : بلى ، قالت : رأيت حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاءت له قصورٌ بُصرى من^(٣) الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت حملاً قطّ كان أخفّ ولا أيسرُ منه ، ثم وقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض ، ورافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلق راشدة^(٤)

قال : وروى الطبري في "تاريخه" ، عن شدّاد بن أوس ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يحدث عن نفسه ؛ ويذكر ماجرى له وهو طفلٌ في أرض بني سعد بن بكر ، قال : لما وُلدت استرضعتُ في بني سعد ، فبينما أنا ذات يوم منتبذ من

(١) يسوطانه ، قال أبو ذر الحشني : يقال : « سطت اللبن واللحم » وغيرهما أسوطه ، إذا ضربت بعضه ببعض وحركته ، واسم العود الذي يضرب به المسوط .
(٢) ممتنعاً : متغيراً ، وفي ابن هشام : « ممتنعاً » ، وهما سواء .
(٣) قال السهيلي : « ذلك ما فتح الله عليه من تلك البلاد ، حتى كانت الخلافة فيها مدة بني أمية ، واستضاءت تلك البلاد وغيرها بنوره صلى الله عليه وسلم » .
(٤) سيرة ابن هشام ١ : ١٧٣ - ١٧٧ (ثمرة المكتبة التجارية) .

هلى فى بطن وادٍ مع أترابٍ لى من الصبيان ، تتقاذف بالجلَّة ؛ إذا أتانى رهط ثلاثة ؛ معهم
لشت من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذوني من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هُرَّاباً حتى انتهوا
لى شفير الوادى ، ثم عادوا إلى الرَّهْط ، فقالوا : ما أربُّكم إلى هذا الغلام ، فإنه ليس
منَّا ! هذا ابن سيّد قريش ، وهو مسترّضٌ فينا : غلام يقيم ليس له أب ، فمأذ يردُّ عليكم
ثله ، وماذا تصيبون من ذلك ! ولكن إن كنتم لا بدّ قاتليه ، فاخاروا منّا أيّنا شئتم
ناقتلوه مكانه ، ودعّوا هذا الغلام ، فإنه يقيم .

فلما رأى الصّبيان أنّ القوم لا يحّيرون لهم جوابا ، انطلقوا هُرَّابا مسرعين إلى الحىّ
بؤذونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم ، فأضجعنى إضجاعا لطيفا ، ثم شقّ
ما بين مفرّق صدرى إلى منتهى عانتى ، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حسّا ، ثم أخرج
بطنى فغسّاها بذلك الثلج ، فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قام الثانى منهم ، فقال
لصاحبه : تنحّ ، فنحّاه عنيّ ، ثم أدخل يده فى جوفى ، وأخرج قلبى ، وأنا أنظر إليه ، فصدّعه
ثم أخرج منه مضغة سوداء فرماها ، ثم قال بيده : يمينه ^(١) منه وكأنه ^(٢) يتناول شيئا ،
فإذا فى يده خاتم من نور ، تحارّ أبصار الناظرين دونه ، نفختم به قلبى ، ثم أعاده مكانه
فوجدتُ برّد ذلك الخاتم فى قلبى دهرا ، ثم قال الثالث لصاحبه : تنحّ عنه ، فأمرّ يده
ما بين مفرّق صدرى إلى منتهى عانتى ، فالتأم ذلك الشقّ ، ثم أخذ بيدي فأهضنى من
مكانى إنهاضا لطيفا ، وقال للأوّل الذى شقّ بطنى : زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم
فرجحهم ، فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأمته كلّها لرجحهم ، ثم ضمّونى إلى صدرهم ، وقبّلوا
رأسى وما بين عينيّ ، وقالوا : يا حبيب الله ، لا ترعْ ، إنك لو تدري ما يُراد بك من الخير
لقرّت عيناك ! فبينما أنا كذلك إذا أنا بالحىّ قد جاءوا بحذافيرهم ، وإذا أمى - وهى

(١) فى الأصول : « نجه » تصحيف . (٢) الطبرى : « وكأنه » .

ظئرى - أمام الحى تهتف بأعلى صوتها ، وتقول : يا ضعيفاه ! فانكبت على أولئك الرهط
فقبلوا رأسى وما بين عيني ، وقالوا : حبذا أنت من ضعيف ! ثم قالت ظئرى : يا وحيداه !
فانكبوا على ، وضموني إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عيني ، ثم قالوا : حبذا أنت
من وحيد ! وما أنت بوحيد ! إن الله وملائكته معك والمؤمنين من أهل الأرض ، ثم قالت
ظئرى : يا يتيماه ! استضعفت من بين أصحابك ، فقتلت لضعفك ، فانكبوا على وضموني
إلى صدورهم ، وقبلوا رأسى وما بين عيني ، وقالوا : حبذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على
الله لو تعلم ما يراد بك من الخير ! قال : فوصل الحى إلى شفير الوادى ، فلما بصرت بى
أمى - وهى ظئرى - نادى : يا بنى ، ألا أراك حياً بعد ! لجأت حتى انكبت على ،
وضمنتنى إلى صدرها ، فوالذى نفسى بيده ، إني لنى حبرها قد ضمتنى إليها ، وإن يدي
لنى يد بعضهم ، فجعلت ألثف إليهم ، وظننت أن القوم يبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم ،
فيقول بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لعم ، أو طائف من الجن ، فانطلقوا به إلى
كاهن بنى فلان ، حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت : ما بى شيء مما يذكرون ، نفسى سليمة ،
وإن فؤادى صحيح ؛ ليست بى قذبة ^(١) . فقال أبى - وهو زوج ظئرى : ألا ترون كلامه
صحيحاً ! إني لأرجو ألا يكون على ابنى بأس .

فاتفق القوم على أن يذهبوا إلى السكاهن بى ، فاحتملوني حتى ذهبوا إلى ، فقصوا
عليه قصتى ، فقال : اسكنوا حتى أسمع من الغلام ، فهو أعلم بأمره منكم ، فسألنى فقصت
عليه أمرى ، وأنا يومئذ ابن خمس سنين ، فلما سمع قولى وثب وقال : يا لعرب ! اقتلوا هذا الغلام
فهو واللآت والمزى لئن عاش ليبدلن دينكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بآل تسمعوا به
قط ، فانزعتنى ظئرى من حجره ، وقالت : لو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ،

(١) ليس بى قذبة ، أى ليس به شيء ، وأصله من القلاب ، وهو داء يأخذ الإبل فى رءوسها ، فيقلبها
إلى فوق ، قال فى اللسان : « ولا يستعمل إلا فى النقي » .

م احتملوني فأصبحتُ وقد صار في جَسَدِي أثر الشَّقِّ ، ما بين صدرى إلى منتهى عاتقِي
بأنه الشَّرُّكُ^(١) .

ورُوي أن بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام سألَه عن قول الله
: ﴿ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ خَلْفِهِ
يَصْدَأُ ﴾^(٢) . فقال عليه السلام : يوكل الله تعالى بأنبيائه ملائكةً يُحْصُونَ أَعْمَالَهُمْ ،
يؤدُّون إليه تبليغهم الرسالة ، ووكل بمحمد صلى الله عليه وآله ملكاً عظيماً منذ فصل
عن الرضاع يُرْشِدُهُ إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ، ويصدّه عن الشرِّ ومساوئِ
لأخلاق ، وهو الذي كان يناديه : السَّلام عليك يا محمد يا رسول الله وهو شابٌّ لم يبلغ
دَرَجَةَ الرسالة بعد ، فيظنُّ أن ذلك من الحجر والأرض ، فيتأمل فلا يرى شيئاً .

وروى الطبريُّ "التاريخ" عن محمد بن الحنفية ، عن أبيه عليّ عليه السلام ،
قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية
بِعَمَلُون به غير مرتين ، كل ذلك يحولُ الله تعالى بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم
ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلةً لِعَلامٍ من قريش كان يرعى معي
بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة ، فأُسْمُرَ بها كما يسْمُرُ الشباب ، فخرجت
أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دارٍ من دُور مكة ، سمعتُ عَزَافاً بالدُّفِّ^(٣) والمزامير ،
فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا فلان تزوّج ابنة فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله
على أذني فَنِمْتُ ، فما أيقظني إلا مَسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟
فقلت : ما صنعتُ شيئاً ، ثم أخبرته الخبر ، ثم قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك ، فقال :
أفعل ، فخرجت فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة ، فجلستُ

(١) الخبر بتفصيل أولي في الطبري : ٢ : ١٦١ - ١٦٥ (طبع المعارف) .

(٢) سورة الجن ٢٧ .

(٣) الطبري : « بالدُّفوف » .

أنظر ، فضرَبَ الله على أذني ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فأخبرته الخبر ، ثم ما هممتُ بعدها بسوء ، حتى أكرمني الله برسالته^(١) .

وروى محمد بن حبيب في "أماليه" ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : أذكرُ وأنا غلام ابن سبع سنين ، وقد بنى ابن جُدعان داراً له بمكة ، فحُتَّت مع الغلمان تأخذ التراب والمدَر في حُجورنا فننقله ، فمَلَأَتْ حِجْرِي تراباً فانكشفت عورتِي ، فسمعت نداءً من فوق رأسي : يا محمد ، أريح إزارك ، فجعلت أرفع رأسي فلا أرى شيئاً ، إلا أني أسمع الصوت ، فماسكت ولم أريحه ، فكانَ إنساناً ضربني على ظَهْرِي ، فخررت لوجهي ، وانحلَّ إزاري فسترني ، وسقط التراب إلى الأرض ، فقامت إلى دار أبي طالب عَمِي ولم أعد .

وأما حديثُ مجاورته عليه الصلاة والسلام بحِراءَ فمَشْهُور ، وقد ورد في الكتب الصحاح أنه كان يجاور في حِراءَ من كلِّ سنة شهراً ، وكان يُطْعِم في ذلك الشهر مَنْ جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من حِراءَ ، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة قبل أن يدخلَ بيته ، فيطوفَ بها سبعاً ، أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة ، فجاور في حِراءَ شهر رمضان ، ومعه أهله : خديجة وعلى بن أبي طالب وخادم لهم ، فجاءه جبريل بالرسالة ، وقال عليه الصلاة والسلام : جاءني وأنا نائم بنمط فيه كتاب ، فقال : اقرأ ، قلت : ما اقرأ ، فغتنى^(٢) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٢٧٩ (المعارف) .

(٢) غتنى ، قال ابن الأنثري : « الفت والغط سواء » ، كأنه أراد : عصرتني عصراً شديداً حتى وجدت منه المشقة كما يجد من يغمس في الماء قهراً . النهاية ٣ : ١٤٩ .

أَلَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾ . فقرأته ، ثم انصرف عني فانتبهت من نومي ، وكأنا كُتِبَ في قلبي كتاب ، وذكر تمام الحديث .

وأما حديث أن الإسلام لم يجتمع عاياه بيت واحد يومئذ إلا النبي وهو - عليهما السلام - رُخْدِيحَة ، فخير عفيف الكندي مشهور ، وقد ذكرناه من قبل ، وأن أبا طالب قال له : تُدْرِي من هذا ؟ قال : لا قال : هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، وهذا ابني علي بن أبي طالب ، وهذه المرأة خلفهما رُخْدِيحَة بنت خويلد ؛ زوجة محمد بن أخي ، وإيما الله ما أعلم على الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

وأما رنة الشيطان ، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل في مُسْنَدِهِ ، عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال : كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله صبيحة الليلة التي أُسْرِىَ به فيها ، وهو بالحجر يصلي ، فلما قضى صلاته ، وقضيتُ صلاتي ، سمعت رنة شديدة ، فقلت : يا رسول الله ، ماهذه الرنة ؟ قال : ألا تعلم ! هذه رنة الشيطان ، علم أنني أُسْرِىَ بي الليلة إلى السماء ، فأيس من أن يُعْبَدَ في هذه الأرض .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله ما يشابه هذا ، لما بايعه الأنصار السبعون ليلة العقبة سُمِعَ من العقبة صوت عالٍ في جوف الليل : يا أهل مكة ، هذا مذمم والصباة معه قد أجمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار : ألا تسمعون ما يقول ! هذا أَرَبُ العقبة - يعني شيطانها ، وقد روى : « أَرَبُ العقبة » . ثم التفت إليه ، فقال ^(٢) : استمع يا عدو الله ، أما والله لأفرغن لك .

(١) سورة اقرأ : ه .

(٢) في اللسان : « كانت العرب تسمى النبي صلى الله عليه وسلم الصابي لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ، ويسمون من دخل في دين الإسلام مصبوا ، لأنهم كانوا لا يهمزون ، فأبدلوا من الهمزة واوا ، ويسمون المسلمين الصباة بغير همز ، كانه جمع الصابي » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، قال : كان عليّ عليه السلام يرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت ، وقال له صلى الله عليه وآله : « لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكا في النبوة ، فإن لا تكن نبيا فإناك وصي نبي ووارثه ، بل أنت سيد الأوصياء وإمام الأتقياء » .

وأما خبر الوزارة ، فقد ذكره الطبري في تاريخه ، عن عبد الله بن عباس عن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، قال لما أنزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (١) ؛ صلى رسول الله صلى الله عليه وآله دعاني ، فقال : يا عليّ ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين ، فضقت بذلك ذرعا ، وعلمت أني متى أنادهم بهذا الأمر أر منهم ما أكره ، فصمت حتى جاءني جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إنك إن لم تفعل ما أمرت به يعذبك ربك ؛ فاصنع لنا صاعا من طعام ، واجعل عليه رجل شاة ، واملا لنا عسا من لبن ، ثم اجمع بيني عبد المطلب حتى أكلمهم ، وأبلغهم ما أمرت به . ففعلت ما أمرني به ، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلا ، يزيدون رجلا أو ينقصونه ، وفيهم أعمامه : أبوطالب ، وحزمة ، والعباس ، وأبو هب ؛ فلما اجتمعوا إليه دعا بالطعام الذي صنعت لهم ، فخبث به ، فلما وضعت تناول رسول الله صلى الله عليه وآله بضعة (٢) من اللحم فشقه بأسنانه ، ثم ألقاها في نواحي الصحفة ، ثم قال : كلوا باسم الله ، فأكلوا حتى مالهم إلى شيء من حاجة ، وإيم الله الذي نفس عليّ بيده ، إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمته لجميعهم ، ثم قال : اسق القوم يا عليّ ، فخبثهم بذلك العس فشربوا منه ، حتى رويوا جميعا ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكلمهم بذره أبو هب إلى الكلام ، فقال : لشدّ ما سحركم صاحبكم ! ففرق القوم ، ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال من الغد : يا عليّ ، إن هذا الرجل قد سبقني

(١) سورة الشعراء ٢١٤ .

(٢) البضعة بالفتح ، وقد تكسر : القطعة من اللحم .

إلى ما سمعت من القول ، فتفرّق القوم قبل أن أكلمهم ، فبعدنا اليوم إلى مثل ما صنعت بالأمس ، ثم اجمعهم لى . ففعلت ثم جمعهم ، ثم دعاني بالطعام ، فقرّبته لهم ، ففعل كما فعل بالأمس ، فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة ، ثم قال : اسقيهم ، فحشّتهم بذلك العُسّ ، فشربوا منه جميعاً ، حتى رويوا ، ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا بني عبد المطلب ، إني والله ما أعلم أن شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فأيتكم يوازرني على هذا الأمر ، على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم ؟ فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت أنا ^(١) - وإني لأخذتهم سينا وأرمضهم ^(٢) عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحشهم ^(٣) ساقا : أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه ، فأعاد القول ، فأمسكوا وأعدت ما قلت ، فأخذ برقيتى ، ثم قال لهم : هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا . فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع ^(٤) .

ويدلّ على أنه وزير رسول الله صلى الله عليه وآله من نصّ الكتاب والسنة قول الله تعالى : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَارُونَ أَخِى * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى ﴾ ^(٥) . وقال النبي صلى الله عليه وآله في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام : « أنت متى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدى » ، فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى ، فإذا هو وزير رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشادّ أزره ، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكاً في أمره .

(١) ساقطة من التاريخ .

(٢) الرمس في العين : كالغمس ، وهو قذى تلفظ به ؛ كناية عن صغر سنه .

(٣) حش الساقين : رفيهما .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ : ٣١٩ - ٣٢١ (المعارف) ، وتفسير الطبرى ١٩ : ٧٤ ، ٧٥ (بولات) ،

بتفصيل أوفى .

(٥) سورة طه ٢٩ - ٣١

وروى أبو جعفر الطبري أيضا في "التاريخ" ؛ أن رجلا قال لعلي عليه السلام :
يا أمير المؤمنين ، يم ورثت ابن عمك دون عمك ؟ فقال علي عليه السلام : هاؤم ثلاث
مرات ، حتى اشرب الناس ، ونشروا آذانهم ، ثم قال : جمع رسول الله صلى الله عليه
 وآله بنى عبد المطلب بمكة ، وهم رهطه ^(١) كلهم ، يأكل الجذعة ، ويشرب الفرق ^(٢) ،
فصنع مِدًّا من طعام ، حتى أكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو ، كأنه لم يمَسْ ، ثم دعا
بُغَيْر ^(٣) ، فشربوا ورووا ؛ وبقي الشراب كأنه لم يشرب ، ثم قال : يا بنى عبد المطلب ،
إني بُعثت إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، فأيكم يبأيعني على أن يكون أخي وصاحبي ،
ووارثي ؟ فلم يَمُزْ إليه أحدٌ ، فقامت إليه ، وكنت من أصغر القوم ، فقال : اجلس ،
ثم قال ذلك ثلاث مرّات ، كل ذلك أقوم إليه ، فيقول : اجلس ؛ حتى كان في الثالثة ،
فضرب بيده على يدي ، فعند ذلك ورثت ابن عمي دون عمي ^(٤) .

الأصل :

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ لَمَّا أَتَاهُ الْعَبْلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا لَهُ :
يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِيكَ ، وَتَحْنُ نَسْأَلُكَ
أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَا ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ
عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ .

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَمَا تَسْأَلُونَ ؟ قَالُوا : تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ؛ حَتَّى
تَنْقَلِعَ بِعُرْوِهَا ، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ

(١) في الأصول : « رهط » ، وأثبت ما في الطبري .

(٢) الفرق ، بكسر الفاء ، وبعضهم يقول بالفتح : مكبال كبير لأهل المدينة يكال به اللبن .

(٣) الغمر : القدح الصغير . (٤) تاريخ الطبري ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٢ .

يُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ ! قَالُوا : نَعَمْ ،
 لَ : فَإِنِّي سَأَرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنْكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ ، وَأَنَّ فِيكُمْ
 مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ ، وَمَنْ يُحْزَبُ الْأَحْزَابِ . ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا أَيُّهَا
 الشَّجَرَةُ ، إِن كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتَعْلَمِينَ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَأَنْقَلِعِي
 مِرْوَقِي حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ؛ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَا نُقَلَعَتْ بِمِرْوَقِهَا ،
 جَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ ، وَقَصَفٌ كَقَصَفِ أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرَفَةً ؛ وَأَلْقَتْ بَعْضُهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبِيعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكَبِي ؛ وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ،
 فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ ، قَالُوا عَلُوا وَاسْتَكْبَارًا : فَمَرَّهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا ، وَيَبْقَى نِصْفُهَا ،
 نَأْمَرُهَا فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا ، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالُوا كُفْرًا وَعَتْوًا : فَمَرَّ هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ
 كَمَا كَانَ ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ ، فَقُلْتُ أَنَا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ إِنِّي
 وَلِ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ أَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ
 مَا لِي تَصْدِيقًا بِذُبُوتِكَ ؛ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ . فَقَالَ الْقَوْمُ كُفْرًا : بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ،
 مُجِيبُ السَّحَرِ خَفِيفٌ فِيهِ ؛ وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا ! يَمْنُونَنِي -
 إِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ؛ سِيَمَاهُمْ سِيَمَا الصَّادِقِينَ ، وَكَلَامُهُمْ
 كَلَامُ الْأَبْرَارِ ؛ عُمَارُ اللَّيْلِ ، وَمَنَارُ النَّهَارِ ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ ، يُحْيُونَ
 سُنَنَ اللَّهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ ، لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَمْلُونَ ؛ وَلَا يَفْلُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ ،
 فَلَوْ هُمْ فِي الْجَنَانِ ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ .

الشَّارْحُ :

الملاّ الجماعة . ولا تفيثون : لا ترجعون . ومن يُطرح في القليب ، كعُتْبَة وشَيْبَة ابني ربيعة بن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة، المكنى أبا جهل وغيرهم، طُرِحوا في قليب بدر بعد انقضاء الحرب ، ومن يجرّب الأحزاب ، أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية . والقَصْف والقصف : الصوت . وسِيَاهم : علامتهم ، ومثله « سيماء » .

ومعنى قوله عليه السلام : « قلوبهم في الجنان ، وأجسادهم في العمل » ، أن قلوبهم ملئت بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصبة بالعبادة .

وأما أمرُ الشجرة التي دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فالحديث الوارد فيها كثيرٌ مستفيض، قد ذكره المحدثون في كتبهم، وذكره المتكلمون في معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، والأكثرُ روى الخبر فيها على الوضع الذي جاء في خطبة أمير المؤمنين ، ومنهم من يروى ذلك مختصراً أنه دعا شجرة فأقبلت تحذّ إليه الأرض خذاً .

وقد ذكر البيهقي في كتاب "دلائل النبوة" حديث الشجرة ، ورواه أيضاً محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي على وجه آخر ، قال محمد بن إسحاق : كان رُكَّاناً^(١) بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدّ قریش كلها، نفلًا يومًا برسول الله صلى الله عليه وآله في بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يارُكَّانَة، ألا تتقي الله ، وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال: لو أعلم أن الذي تقول حقٌّ لا تبعتك، قال: أفرايت إن صرعتك؛ أعلم أن ما أقول لك حقٌّ؟ قال : نعم، قال: فقم حتى أصارعك، فقام رُكَّانَة، فلما بطش به رسولُ الله صلى الله عليه وآله أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً، فقال : عدُّ يا محمد، فعادَ فصرعه، فقال : يا محمد ، إن هذا لعجبٌ حين^(٢) تصرعني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأعجب من ذلك إن شئت أريتُكَّه، إن اتقيتَ الله ، واتبعت أُمري،

(١) كذا ضبطه صاحب الاشتقاق ٧٨ ، بضم الراء .

(٢) ب : « حتى » ، تصحيف ، وفي ابن هشام : « أتصرعني » .

قال : ماهو ؟ قال : أدعوك بهذه الشجرة التي تراها ، فتأتى ، قال فادعها ؛ فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : ارجعى إلى مكانك ، رجعت إلى مكانها ، فرجع رُكّانة إلى قومه ، وقال : يا بنى عبد مناف ، ساحروا^(١) بصاحبكم أهل الأرض ! فما رأيت أسحر منه قط ، ثم أخبرهم بالذى رأى ، والذى صنع^(٢) .

[القول فى إسلام أبى بكر وعلى وخصائص كل منهما]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع ملخص ما ذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ فى كتابه المعروف بكتاب " العثمانية " ، فى تفضيل إسلام أبى بكر على إسلام على عليه السلام ، لأنّ هذا الموضع يقتضيه ، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله صلى الله عليه وآله : وهل يصدقك فى أمرك إلّا مثل هذا لأنهم استصغروا سنّه ، فاستحقروا أمر محمد رسول الله صلى الله عليه وآله حيث لم يصدقّه فى دعواه إلّا غلام صغير السنّ ، وشبهة العثمانية التى قررها الجاحظ من هذه الشبهة نشأت ، ومن هذه الكلمة تفرّعت ، لأن خلاصتها أن أبى بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة ، وعلى أسلم ولم يبلغ الحلم ، فكان إسلام أبى بكر أفضل .

ثم نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافى على الجاحظ فى كتابه المعروف بـ " نقض العثمانية " ، ويتشعب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث فى الإسلاميين إلى البحث فى أفضلية الرّجّلين وخصائصهما ؛ فإنّ ذلك لا يخلو عن فائدة جليّة ، ونكتة

(١) ساحروا : أى غالبوهم بالسحر .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٤١٨ (نشرة المكتبة التجارية) .

لطيفة ، لا يليق أن يخلو كتابنا هذا عنها ، ولأنّ كلامهما بالرسائل والخطابة أشبه ، وفي الكتابة أقصد وأدخل ، وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله .

قال أبو عثمان : قالت العثمانية : أفضل الأمة وأولاه بالإمامة أبو بكر بن أبي قحافة لإسلامه على الوجه الذي لم يسلم عليه أحد في عصره ؛ وذلك أن الناس اختلفوا في أول الناس إسلاما ، فقال قوم : أبو بكر ، وقال قوم : زيد بن حارثة ، وقال قوم : خباب بن الارت .

وإذا تفقدنا أخبارهم ، وأحصينا أحاديثهم ، وعددنا رجالهم ، ونظرنا في صحّة أسانيدهم ، كان الخبر في تقدّم إسلام أبي بكر أعمّ ورجاله أكثر ، وأسانيده أصحّ ، وهو بذلك أشهر ، واللفظ فيه أظهر ، مع الأشعار الصحيحة ، والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد وفاته ، وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا امتنع في محبّتها ، وأصل مخرجها التّباعد والاتّفاق والتّواطؤ ، ولكن ندع هذا المذهب جانبا ، ونضرب عنه صفحا ، اقتدارا على الحجّة ، ووثوقا بالفلج والقوّة ، ونقتصر على أدنى نازل في أبي بكر ، وننزل على حكم الخصم ؛ فنقول : إنا وجدنا من يزعم أنه أسلم قبل زيد وخبّاب ، ووجدنا من يزعم أنهما أساما قبله ، وأوسط الأمور أعدّها ، وأقربها من محبّة الجميع ، ورضا المخالف ؛ أن نجعل إسلامهم كان معا ، إذ الأخبار متكافئة ، والآثار متساوية على ما تزعمون ، وليست إحدى القضيتين أولى في صحّة العقل من الأخرى ؛ ثم نستدل على إمامة أبي بكر بما ورد فيه من الحديث ؛ وبما أبانه به الرسول صلى الله عليه وآله من غيره .

قالوا : فمّا روى من تقدّم إسلامه ما حدّث به أبو داود وابن مهدي عن شعبة ، وابن عيينة : عن الجريري ، عن أبي هريرة ، قال : أبو بكر : أنا أحقّكم بهذا الأمر - يعني بالخلافة - ألت أول من صلى !

روى عباد بن صهيب ، عن يحيى بن عمير ، عن محمد بن المنكدر ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إِنْ لِلَّهِ بَعِثْنِي بِالْهَدَى وَدِينَ الْحَقَّ إِلَى النَّاسِ كَأَقَّةٍ ، فَقَالُوا : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ » .

وروى يعلى بن عبيد ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، فسأله : مَنْ كَانَ أَوَّلَ النَّاسِ إِسْلَامًا ؟ فَقَالَ : أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ : أ

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجَوًّا مِنْ أَخِي ثَقَّةٍ فَادْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَ^(١)
الثَّانِيَ التَّالِيَ الْحَمُودَ مَشْهُدُهُ وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرِّسَالُ^(٢)
وَقَالَ أَبُو مُجْجَنٍ :

سَبَقْتَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتَ حَبِيبًا بِالْعَرِشِ الْمَشْهُرِ^(٣)
وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ :

سَبَقْتَ أَخَا تَيْمٍ إِلَى دِينِ أَحْمَدٍ وَكُنْتَ لَدَى الْغَيْرَانِ فِي الْكَهْفِ صَالِحًا^(٤)
وروى ابن أبي شَيْبَةَ ، عن عبد الله بن إدريس ووكيع ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، قال : قَالَ النَّخَعِيُّ : أَبُو بَكْرٍ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ .

وروى هيثم عن يعلى بن عطاء ، عن عمرو بن عبسة ، قال : أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَهُوَ بِمُسْكَاطٍ ، فَقُلْتُ : مَعْنَى يَا لَعْلَكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ ؟ فَقَالَ : يَا بَعْنَى حُرٍّ وَعَبْدٌ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَئِذٍ وَأَنَا رَابِعُ الْإِسْلَامِ ..

(١) - ديوانه ٢٩٩ ، والعثمانية ١١١ (٢) بعده في الديوان والعثمانية :

وثنائي اثنين في الغار المنيّف وقد طاف العداة به إذ صعد الجبالا

خير البرية أبقاها وأظهرها إلا النبي وأوقاها تبها حملا

(٣) في الأصول : « المصحرا » ، وأثبت ما في العثمانية ، من أبيات ثلاثة أوردتها على قافية الراء المكسورة

(٤) العثمانية ١١١

قال بعض أصحاب الحديث : يعنى بالحرّ أبا بكر وبالعبد بلالا .
وروى الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح ، عن سليم بن عامر ، عن أبي أمامة ،
قال : حدثني عمرو بن عنبسة ، أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وهو بمكاذ ، فقال له :
مَنْ تَبِعَكَ ؟ قال : تَبِعَنِي حُرٌّ وَعَبْدٌ : أبو بكر وبلال .
وروى عمرو بن إبراهيم الهاشمي ، عن عبد الملك بن عُمر ، عن أسيد بن صفوان ؛
صاحب النبي صلى الله عليه وآله قال : لما قُبِضَ أبو بكر جاء عليّ بن أبي طالب عليه
السلام ، فقال : رحمك الله أبا بكر ! كنتَ أوَّلَ النَّاسِ إسلامًا .
وروى عبادٌ ، عن الحسن بن دينار ، عن بشر بن أبي زينب ، عن عكرمة مولى
ابن عباس ، قال : إذا لقيت الهاشميين قالوا : عليّ بن أبي طالب أوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ؛ وإذا
لقيت الذين يعلمون ، قالوا : أبو بكر أوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ .

قال أبو عثمان الجاحظ : قالت العثمانية : فإن قال قائل : فما بالكم لم تذكروا عليّ
ابن أبي طالب في هذه الطبقة ، وقد تعلمون كثرة مقدّميه والرواية فيه !
قلنا : قد علمنا الرواية الصحيحة ، والشهادة القائمة ؛ أنه أسلم وهو حَدَّثَ غَيْرَ ،
وطفل صغير ، فلم نكذب الناقلين ، ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين ، لأنّ
المقلّل زعم أنه أسلم ، وهو ابن خمس سنين ، والمكثّر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ،
فالتقياس أن يؤخذ بالأوسط بين الروایتين ، وبالأمر بين الأمرين ، وإنما يُعْرَفُ حقُّ
ذلك من باطله ، بأن نحصى سنّيه التي وليّ فيها الخلافة ، وسنّى عمر ، وسنّى عثمان ، وسنّى
أبي بكر ، ومقام النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة ، ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة ، فإذا
فعلنا ذلك صحّ أنه أسلم وهو ابن سبع سنين ، فالتاريخ الجمع عليه أنه قُتِلَ عليه السلام
في شهر رمضان سنة أربعين .

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي^(١) : لولا ما غلب على الناس من الجهل وحب التقليد ،
 نحتج إلى نقض ما احتجّت به العثمانية ، فقد علم الناس كافةً : أن الدولة والسلطان لأرباب
 التهم ، وعرف بكلّ أحدٍ علوّ أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم ، وظهور كلمتهم ، وقهر
 لطانهم وارتفاع التقيّة عنهم والكرامة ، والجائزة لمن روى الأخبار والأحاديث في فضل
 بكر ، وما كان من تأكيد بني أمية لذلك ، وما ولّده المحدثون من الأحاديث طلباً
 في أيديهم ، فكانوا لا يألون جهداً في طول ممالكهم وأن يخمّلوا ذكرَ عليّ عليه
 السلام وولده ، ويطفئوا نورهم ، ويكتموا فضائلهم ومناقبهم وسوابقهم ، ويحملوا على شتمهم
 سبهم ولعنهم على المنابر ؛ فلم يزل السيف يقطر من دمائهم ، مع قلة عددهم وكثرة عدوّهم ،
 كانوا بين قتيلٍ وأسير ، وشريد وهارب ، ومستخفٍ ذليل ، وخائف مترقب ، حتى إن
 قيه والمحدث والقاضي والمتكلم ، ليتقدّم إليه ويتوعد بغاية الإيعاد وأشدّ العقوبة ،
 يذكرها شيئاً من فضائلهم ، ولا يرخصوا لأحدٍ أن يطيف بهم ، وحتى بلغ من
 به المحدث أنّه إذا ذكر حديثاً عن عليّ عليه السلام كفى عن ذكره ، فقال : قال
 رجل من قريش ، وفعل رجل من قريش ، ولا يذكر علياً عليه السلام ،
 ويتفوّه باسمه .

ثم رأينا جميع المختلفين قد حاولوا نقض فضائله ، ووجهوا الحيل والتأويلات نحوها ،
 خارجي مارق ، وناصب حنق ، وثابت مستبهم ، وناشي معاند ، ومناقق مكذب ،
 وثنائي حسود ، يعترض فيها ويعطعن ، ومعتزلي قد نقض في الكلام ، وأبصر علم الاختلاف ،

(١) هو محمد بن عبد الله أبو جعفر المعروف بالإسكافي ، ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٥ : ١٦ ،
 قال عنه : « أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين ، وله تصانيف مبروفة . . . وبلغني أنه مات في سنة
 أربعين ومائتين » .

وعرف الشبهة ومواضع الطعن وضروب التأويل ، قد التمس الحيل في إبطال مناقبه وتأول مشهور فضائله ، فمرة يتأولها بما لا يحتمل ، ومرة يقصد أن يضع من قدرها بقياس منتقض ، ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة ، ووضوحا واستنارة ؛ وقد علمت أن معاوية يزيد ومن كان بعدهما من بني مروان أيام ملكهم - وذلك نحو ثمانين سنة - لم يدعوا جهدا في حمل الناس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله ، وستر مناقبه وسوابقه ..

روى خالد بن عبد الله الواسطي ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن هلال بن يساف ، عن عبد الله بن ظالم ، قال : لما بويغ لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون عليا عليه السلام ، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : ألا تزون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة !

روى سليمان بن داود ، عن شعبة ، عن الحر بن الصباح ، قال : سمعت عبد الرحمن بن الأحنس ، يقول : شهدت المغيرة بن شعبة خطب فذكر عليا عليه السلام ، فنال منه .
روى أبو كريب ، قال : حدثنا أبو أسامة ، قال : حدثنا صدقة بن المثنى النخعي عن رياح بن الحارث ، قال : بينا المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر ، وعنده ناس إذ جاء رجل يقال له : قيس بن علقمة ، فاستقبل المغيرة ، فسب عليا عليه السلام .

روى محمد بن سعيد الأصفهاني ، عن شريك ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن علي ابن الحسين ، عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام ، قال : قال لي مروان : ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم . قلت : فما بالكم تسبونته على المنابر ؟ قال : إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك .

روى مالك بن إسماعيل أبو غسان النهدي ، عن ابن أبي سيف ، قال : خطب مروان والحسن عليه السلام جالس فنال من علي عليه السلام ، فقال الحسن : ويحك يا مروان ! أهذا الذي تشتم شر الناس ! قال : لا ، ولكنّه خير الناس .

وروى أبو غسان أيضاً ، قال : قال عمرُ بن عبد العزيز : كان أبي يخطب فلا يزال مستمراً في خطبته ؛ حتى إذا صار إلى ذكر عليٍّ وسبِّه تقطع لسانه ، واصفرَّ وجهه ، وتغيّرت حاله ، فقلت له في ذلك ، فقال : أوقد فطنتَ لذلك ؟ إنَّ هؤلاء يعلمون من عليٍّ ما يعلمه أبوك ما نعلمنا منهم رجل .

وروى أبو عثمان ، قال : حدّثنا أبو اليقظان ، قال : قام رجلٌ من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عرفة ، فقال : إنَّ هذا يوم كانت الخلفاء تستحبُّ فيه لعن أبي تراب .

وروى عمرو بن الفناد ، عن محمد بن فضيل ، عن أشعث بن سوار ، قال : سبَّ عدى بن أوطاة عليّاً عليه السلام على المنبر ، فبكى الحسن البصريّ وقال : لقد سبَّ هذا اليوم رجلاً إنه لأخو رسول الله صلى الله عليه وآله في الدنيا والآخرة .

وروى عدى بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم ، قال : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة ممّا يلي أبواب كندة نخرج المغيرة فخطب ، فحمد الله ، ثم ذكر مشاء أن يذكّر ، ثم وقع في عليٍّ عليه السلام ، فضرب إبراهيم على نحره أوركبتى ، ثم قال : أقبل عليٍّ ؛ فحدّثني فإننا لسنا في جمعة ، ألا تسمع ما يقول هذا !

وروى عبد الله بن عثمان الثقفى ، قال : حدّثنا ابنُ أبي سيف ، قال : قال ابن لعامر ابن عبد الله بن الزبير لولده : لا تذكر يا بُنَيَّ عليّاً إلا بخير ؛ فإن بني أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة ، فلم يزدّه الله بذلك إلا رفعة ، إن الدنيا لم تبْنِ شيئاً قطّ إلا رجعت على ما بنّت فهدمته ، وإن الدين لم يبْنِ شيئاً قطّ وهدمه .

وروى عثمان بن سعيد ، قال : حدّثنا مطّلب بن زياد ، عن أبي بكر بن عبد الله الأصهبانيّ ، قال : كان دعى لبني أمية يقال له خالد بن عبد الله ؛ لا يزال يشتم عليّاً عليه

السلام ، فلما كان يوم الجمعة ، وهو يخطب الناس ، قال : والله إن كان رسول الله يستعمله ، وإنه ليعلم ما هو ! ولكنه كان ختنه ، وقد نفس سعيد بن المسيب ففتح عينيه ، ثم قال : ويحكم ! ما قال هذا الخبيث ! رأيت القبر انصدع ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : كذبت ياعدو الله !

روى القناد^(١) ، قال : حدثنا أسباط بن نصر الهمداني ، عن السدي ، قال : بينما أنا بالمدينة عند حجار الزيت ، إذ أقبل راكب على بعير ، فوقف فسب عليا عليه السلام ، نفخ به الناس ينظرون إليه ، فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقاص ، فقال : اللهم إن كان سب عبدك لك صالحا ، فأرسل المسلمين خزيه ، فما لبث أن نفر به بعيره فسقط ، فاندقت عنقه .

وروى عثمان بن أبي شيبة ، عن عبد الله بن موسى ، عن فطر بن خليفة ، عن أبي عبد الله الجدلي ، قال : دخلت على أم سلمة رحمها الله فقالت لي : أيسب رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم وأتم أحياء ! قلت : وأنى يكون هذا ؟ قالت : أليس يسب على عليه السلام ومن يحبه !

وروى العباس بن بكار الضبي ، قال : حدثني أبو بكر الهذلي ، عن الزهري ، قال : قال ابن عباس لمعاوية ، ألا تكف عن شتم هذا الرجل ؟ قال : ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كف عن شتمه ، فقال الناس : ترك السنة .

قال : وقد روى عن ابن مسعود إما موقوفا عليه أو مرفوعا ؛ كيف أنتم إذا شتمتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير ، يجرى عليها الناس فيتخذونها سنة ، فإذا غير منها شيء قيل : غيرت السنة !

(١) القناد ، بنون مشددة ، وانظر تهذيب التهذيب ١٢ : ٣٣٠

قال أبو جعفر : وقد تعلمون أنّ بعض الملوك ربّما أحدثوا قولا ، أو ديناً لم يؤي فيحملون الناس على ذلك ؛ حتى لا يعرفو غيره ، كنحو ما أخذ الناس الحجّاجُ بن يوسف بقراءة عثمان ، وترك قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب ، وتوعّد على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بني أمّية وطغاة مروان بولد عليّ عليه السلام وشيعته ، وإنّما كان سلطانه نحو عشرين سنة ، فما مات الحجّاج حتى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان ، ونشأ أبناءهم ولا يعرفون غيرها ؛ لإمساك الآباء عنها ، وكفّ المعلمين عن تعليمها ؛ حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبيّ ما عرفوها ، ولظنّوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان ، لإلف العادة وطول الجهالة ؛ لأنّه إذا استولت على الرعيّة الغلبة ، وطالت عليهم أيام التسلّط ، وشاعت فيهم الخفاة ، وشملتهم التقية ؛ اتّفقوا على التخاذل والتساكّت ، فلا تزال الأيام تأخذ من بصائرهم ؛ وتنقص من ضمائرهم ، وتنقص من مرائرهم ، حتى تصير البدعة التي أحدثوها غامرة للسنة التي كانوا يعرفونها ؛ ولقد كان الحجّاج ومن ولّاه ، كعبد الملك والوليد ومن كان قبلهما وبعدهما من فراغة بني أمّية على إخفاء محاسن عليّ عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته ، وإسقاط أقدارهم ، أحرصّ منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأبيّ ؛ لأنّ تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم ، وفساد أمرهم ، وانكشاف حالهم ؛ وفي اشتهاه فضل عليّ عليه السلام وولده وإظهار محاسنهم بوارهم ، وتسليط حكم الكتاب النبويّ عليهم ؛ فحرصوا واجتهدوا في إخفاء فضائله ، وحلوا الناس على كتمانها وسترها ، وأبيّ الله أن يزيد أمره وأمر ولده إلا استنارة وإشراقاً ، وحجّتهم إلا شغفا وشدة ، وذكرهم إلا انتشاراً وكثرة ، وحجّتهم إلا وضوحاً وقوّة ، وفضلهم إلا ظهوراً ، وشأنهم إلا علواً ، وأقدارهم إلا إعظاماً ، حتى أصبحوا بإهانتهم إيّاهم أعزّاء ؛ وإيمااتهم ذكرهم أحياء ، وما أرادوا به وبهم من الشرّ تحول خيراً ، فاتّهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه ما لم يتقدّمه السابقون ، ولا ساواه فيه القاصدون ، ولا يلحقه الطالبون ، ولولا أنّها كانت

كالقبلة المنصوبة في الشهرة ، وكالسنن المحفوظة في الكثرة ، لم يصل إلينا منها في دهرنا حرف واحد ، إذا كان الأمر كما وصفناه .

قال : فأما ما احتج به الجاحظ بإمامة أبي بكر ، بكونه أول الناس إسلاما ، فلو كان هذا احتجاجا صحيحا ، لاحتج به أبو بكر يوم السقيفة ، وما رأينا صنع ذلك لأنه أخذ سيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح ، وقال للناس : قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا منهما من شئتم ، ولو كان هذا احتجاجا صحيحا لما قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها ، ولو كان احتجاجا صحيحا لادعى واحد من الناس لأبي بكر الإمامة في عصره أو بعد عصره ، بكونه سبق إلى الإسلام ، وما عرفنا أحدا ادعى له ذلك ، على أن جمهور المحدثين لم يذكروا أن أبا بكر أسلم إلا بعد عدة من الرجال ، منهم علي بن أبي طالب ، وجعفر أخوه ، وزيد بن حارثة ، وأبو ذر الغفاري ، وعمر بن عبد الله السلمي ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وخباب بن الأرت ، وإذا تأملنا الروايات الصحيحة ، والأسانيد القوية والوثيقة ، وجدناها كلها ناطقة بأن عليا عليه السلام أول من أسلم .

فأما الرواية عن ابن عباس أن أبا بكر أولهم إسلاما فقد روى عن ابن عباس خلاف ذلك ، بأكثر مما رويوا وأشهر ، فمن ذلك ما رواه يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة وسعيد بن عيسى ، عن أبي داود الطيالسي ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس ، أنه قال : أول من صلى من الرجال علي عليه السلام .

وروى الحسن البصري ، قال : حدثنا عيسى بن راشد ، عن أبي بصير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : فرض الله تعالى الاستغفار لعلي عليه السلام في القرآن

على كلِّ مسلم ، بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾^(١) ؛
كلِّ مَنْ أسلم بعد عليٍّ فهو يستغفر لعلِّي عليه السلام .

وروى سفيان بن عُيينة ، عن ابن أبي نَجِيح ، عن مجاهد ؛ عن ابن عباس ، قال :
لَسَبَّاقٍ ثَلَاثَةٌ : سَبَقَ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ إِلَى مُوسَى ، وَسَبَقَ صَاحِبُ « يَس » إِلَى عِيسَى ،
رَسَبَقَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

فهذا قول ابن عباس في سَبَقَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ أَثْبَتُ مِنْ حَدِيثِ
الشَّعْبِيِّ وَأَشْهَرُ ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنِ الشَّعْبِيِّ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الْهَذَلِيِّ
وِدَاوُدَ بْنِ أَبِي هَنْدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَعَلِّيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
« هَذَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي وَصَلَّى مَعِي » .

قال : فَأَمَّا الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ بِسَبْقِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ الْمَذْكُورَةُ فِي الْكُتُبِ الصَّحَاحِ
وَالْأَسَانِيدِ الْمُوثُوقِ بِهَا ، فَهِيَ مَارُوِي شَرِيكَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، عَنْ زَيْدِ
ابْنِ وَهَبٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّهُ قَالَ : أَوَّلُ شَيْءٍ عَلَّمْتُهُ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنِّي قَدِمْتُ مَكَّةَ مَعَ عُمُومَةٍ لِي وَنَاسٍ مِنْ قَوْمِي ، وَكَانَ مِنْ أَنْفُسِنَا شَرَاءُ عِطْرٍ ،
فَارْشَدُنَا^(٢) إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِ ، وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى زَمْزَمَ ، فَبَيْنَا نَحْنُ
عِنْدَهُ جُلُوسًا ، إِذَا أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَابِ الصَّفَا ، وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ ، وَلَهُ وَفْرَةٌ إِلَى
أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ جَعْدَةٌ ، أَهْمٌ أَفْنَى ، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ ، كَثُّ اللَّحْيَةِ ، بَرَّاقُ الثَّنَائِيَا ، أَبْيَضُ
تَعْلُوهُ حُمْرَةٌ ، كَأَنَّهُ الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَعَلَى يَمِينِهِ غُلَامٌ مُرَاهِقٌ أَوْ مُحْتَمِلٌ ، حَسَنُ الْوَجْهِ ،
تَقْفُوهُمْ امْرَأَةٌ ، قَدْ سَتَرَتْ مُحَاسِنَهَا ، حَتَّى قَصَدُوا نَحْوَ الْحَجَرِ ، فَاسْتَلَمَهُ وَاسْتَلَمَهُ الْغُلَامُ ، ثُمَّ
اسْتَلَمَتْهُ الْمَرْأَةُ ، ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا ، وَالْغُلَامُ وَالْمَرْأَةُ يَطُوفَانِ مَعَهُ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْحَجَرُ ،

(٢) د: « فَارْشَدُونَا » .

(١) سورة الحشر ١٠

فقام ورفع يديه وكبر ، وقام الغلام إلى جانبه ، وقامت المرأة خلفهما ، فرفعت يديها ، وكبرت ، فأطال القنوت ، ثم ركع وركع الغلام والمرأة ، ثم رفع رأسه فأطال ، ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل ما يصنع ، فلما رأينا شيئاً ننكره ، لا نعرفه بمكة ، أقبلنا على العباس ، فقلنا : يا أبا الفضل ، إن هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم ، قال : أجل والله ، قلنا : فمن هذا ؟ قال : هذا ابن أخى ، هذا محمد بن عبد الله ، وهذا الغلام ابن أخى أيضاً ، هذا علي بن أبي طالب ، وهذه المرأة زوجة محمد ، هذه خديجة بنت خويلد ، والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين ؛ إلا هؤلاء الثلاثة .

ومن حديث موسى بن داود ، عن خالد بن نافع ، عن عفيف بن قيس البكدي ، وقد رواه عن عفيف أيضاً ، مالك بن إسماعيل النهدي والحسن بن عنبسة الوراق وإبراهيم ابن محمد بن ميمونة ، قالوا جميعاً : حدثنا سعيد بن جشم ، عن أسد بن عبد الله البجلي ، عن يحيى بن عفيف بن قيس ، عن أبيه ، قال : كنت في الجاهلية عطّاراً ، فقدمت مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فبينما أنا جالس عنده ، أنظر إلى الكعبة ، وقد تحلقت الشمس في السماء ، أقبل شاب كأن في وجهه القمر ، حتى رمى ببصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة ، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة ، فصف قدميه يصلي ، فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية ، فقام عن يمينه ، فجاءت امرأة متلففة في ثيابها ، فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكعاً ، فركعا معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً ، فسجداً معه ، فقلت للعباس : يا أبا الفضل ، أمر عظيم ! فقال : أمر والله عظيم ! أتدرى من هذا الشاب ؟ قلت : لا ، قال هذا ابن أخى ، هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؛ أتدرى من هذا الفتى ؟ قلت : لا ، قال : هذا ابن أخى علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ؛ أتدرى من المرأة ؟ قلت : لا ، قال : هذه ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى ، هذه خديجة زوج محمد هذا^(١) ، وإن محمداً هذا يذكركم أن إلهه إله السماء والأرض ، وأمره بهذا الدين ، فهو عليه بكتري ،

(١) : « زوج هذا » .

و زعم أنه نبي ، وقد صدّقه على قوله على ابن عمه هذا الفتي ، وزوجته خديجة ،
هـ المرأة ؛ والله ما أعلم على وجه الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء
ا ثلاثة : قال عُمَيْف : فقلت له : فما تقولون أنتم ؟ قال : ننتظر الشيخ ما يصنع ! يعني
أ طالب أخاه .

وروى عُبَيْد الله بن موسى ، والفضل بن دُكَيْن ، والحسن بن عطية ، قالوا : حدثنا
د ابن طهمان ، عن نافع بن أبي نافع ، عن معقل بن يسار ، قال : كنت أوصي النبي
د الله عليه وآله ، فقال لي : هل لك أن نعود فاطمة ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، فقام
ي متوكلنا على ، وقال : أما إنه سيحمل ثقلها غيرك ، ويكون أجرها لك ، قال :
ف الله كأنه لم يكن على من ثقل النبي صلى الله عليه وآله شيء ؛ فدخلنا على فاطمة عليها
ا سلام ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : كيف تجدنيك ؟ قالت : لقد طال أسفي ،
و شتدّ حزني ، وقال لي النساء : زوجك أبوك فقيراً لا مال له ! فقال لها : أما ترضين
أ ، زوجتك أقدم أمي سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأفضلهم حملاً ! قالت : بلى رضيت
ي رسول الله .

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد وعبد السلام بن صالح ، عن قيس بن
ا بيع ، عن أبي أيوب الأنصاري ، بألفاظه أو نحوه .

وروى عبد السلام بن صالح ، عن إسحاق الأزرق ، عن جعفر بن محمد ، عن آبائه ،
أ رسول الله صلى الله عليه وآله لما زوج فاطمة ، دخل النساء عليها ، فقلن : يا بنت
ر رسول الله ، خطبك فلان وفلان ، فردّهم عنك ، وزوجك فقيراً لا مال له ، فلما دخل
د بها أبوها صلى الله عليه وآله رأى ذلك في وجهها ، فسأها فذكرت له ذلك ، فقال :
يا طمة ، إن الله أمرني فأنكحك أقدمهم سلماً ؛ وأكثرهم علماً ؛ وأعظمهم حملاً ؛
و أزوجتك إلا بأمر من السماء ؛ أما علمت أنه أخى في الدنيا والآخرة !

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظهير ، عن السدي ؛ أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة عليها السلام ، فردّها رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : لم أؤمر بذلك ، فخطبها عليّ عليه السلام ، فزوجها إياها ، وقال لها : زوجتك أقدم الأمة إسلاما . . وذكر تمام الحديث . قال : وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة ، منهم أسماء بنت عميس ، وأم أيمن ، وابن عباس وجابر بن عبد الله .

قال : وقد روى محمد بن عبد الله بن أبي رافع ، عن أبيه ، عن جدّه أبي رافع ، قال : أتيت أبا ذرّ بالربذة أودّعه ، فلما أردت الانصراف ، قال لي ولأناسي معي : ستكون فتنة ، فاتّقوا الله ، وعليكم بالشيخ عليّ بن أبي طالب ، فاتّبِعوه ، فإنّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول له : « أنت أول من آمن بي ، وأول من يصافني يوم القيامة ، وأنت الصديق الأكبر ، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحقّ والباطل ، وأنت يعسوب المؤمنين ؛ والمال يعسوب الكافرين ؛ وأنت أخى ووزيرى ، وخير من أترك بعدى ، تقضى ديني وتنجز موعدي » .

قال : وقد روى ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن مُنَمِّر ، عن العلاء بن صالح ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبّاد بن عبد الله الأسديّ ، قال : سمعتُ عليّ بن أبي طالب ، يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصديق الأكبر ، لا يقولها غيري إلا كذاب ، ولقد صليت قبل الناس سبع سنين .

وروت معاذة بنت عبد الله العدويّة ، قالت : سمعتُ عليا عليه السلام ، يخطب على منبر البصرة ، ويقول : أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبة بن جوين العُرَنيّ أنّه سمع عليا عليه السلام ، يقول : أنا أول رجل أسلم

عن رسول الله صلى الله عليه وآله . رواه أبو داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن سفيان
ثوري ، عن سامة بن كهيل ، عن حبة بن جوين .

وروى عثمان بن سعيد الخزاز^(١) ، عن علي بن حرار ، عن علي بن عامر ، عن
بي الحجاج ، عن حكيم مولى زاذان ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : صليتُ
بل الناس سبع سنين ، وكذا نسجد ولا نركع ، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر ،
قلت : يا رسول الله ، ما هذا ؟ قال : أمرت به .

وروى إسماعيل بن عمرو ، عن قيس بن الربيع ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن
نابر بن عبد الله ، قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ؛ وصلى على يوم
ثلاثاء بعده . وفي الرواية الأخرى ، عن أنس بن مالك : استنجد النبي صلى الله عليه وآله
رم الاثنين ، وأسلم على يوم الثلاثاء بعده .

وروى أبو رافع أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى أول صلاة صلاها غداة
الاثنين ، وصلت خديجة آخر نهار يومها ذلك ، وصلى على عليه السلام يوم الثلاثاء غدا
لك اليوم .

قال : وقد روي بروايات مختلفة كثيرة متعددة ، عن زيد بن أرقم ؛ وسلمان الفارسي ،
جابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ؛ أن عليا عليه السلام : أول من أسلم ؛ وذكر
روايات والرجال بأسمائهم .

وروى سامة بن كهيل ، عن رجاله الذين ذكرهم أبو جعفر في الكتاب أن رسول
له صلى الله عليه وآله قال : « أولكم وروداً على الخوض أولكم إسلاماً ، علي بن أبي طالب » .
وروى ياسين بن محمد بن أيمن ، عن أبي حازم ؛ مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ،

(١) ب : « الحرار » .

قال : سمعتُ عمرَ بن الخطاب وهو يقول : كفُّوا عن عليّ بن أبي طالب ؛ فإنّي سمعتُ من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله يقول ^(١) فيه خِصَالاً ، لو أنّ خِصْلَةً مِنْهَا فِي جَمِيعِ آلِ الْخَطَّابِ ، كَانَ أَحَبَّ لِي مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ؛ كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُثْمَانُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَظَلُّهُ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ ، فَوَجَدْنَا عَلِيًّا مَتَّكِئًا عَلَى نِجَافٍ ^(٢) الْبَابِ ؛ فَقُلْنَا : أَرَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ فَقَالَ : هُوَ فِي الْبَيْتِ ، رَوَيْدُكُمْ ! فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَسَرَّنا حَوْلَهُ ، فَاتَّكَأَ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِهِ ، فَقَالَ : أَبْشِرْ يَا عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ ، إِنَّكَ مُخَاصِمٌ ، وَأَنْتَ تَخْصِمُ ^(٣) النَّاسَ بِسَبْعِ لَا يَجَارِيكَ أَحَدٌ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، أَنْتَ أَوَّلُ النَّاسِ إِسْلَامًا ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ . . . » وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

قال : وقد روى أبو سعيد الخدريّ ، عن النبي صلى الله عليه وآله مثل هذا الحديث .

قال : روى أبو أيوب الأنصاريّ ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « لَقَدْ صَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى وَعَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، سَبْعَ سِنِينَ » ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ مَعِيَ رَجُلٌ فِيهَا غَيْرُهُ .

قال أبو جعفر : فأما ما رواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وآله : « إِنَّمَا تَبِعَنِي حُرٌّ وَعَبْدٌ » ، فَإِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَبَا بَكْرٍ وَبَلَالًا ، وَكَيْفَ وَأَبُو بَكْرٍ لَمْ يَشْتَرِ بَلَالًا إِلَّا بَعْدَ ظَهْوَرِ الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ ؛ فَلَمَّا أَظْهَرَ بَلَالٌ إِسْلَامَهُ عَذَّبَهُ أُمِّيَّةُ بْنُ خَلْفٍ ! وَلَمْ يَسْكُنْ ذَلِكَ حَالِ إِخْفَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الدَّعْوَةَ ، وَلَا فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ ؛

(١) ساقطة من ا

(٢) النجاف : هو ما بين نائناً فوق الباب .

(٣) تخصم الناس : تغلبهم في المصومة .

و قد قيل : إنه عليه السلام إنما عني بالحرّ عليّ بن أبي طالب ، وبالعبد زيد بن حارثة .
 وروى ذلك محمد بن إسحاق ، قال : وقد روى إسماعيل بن نصر الصفّار ، عن محمد
 بن ذكوان ، عن الشعبي ؛ قال : قال الحجاج للحسن ، وعنده جماعة من التابعين وذكر
 عليّ بن أبي طالب : ما تقول أنت يا حسن ؟ فقال : ما أقول ! هو أوّل من صلى إلى
 البُلة ، وأجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ عليّ منزلة من ربه ، وقرابة
 رسول الله ، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردّها أحدٌ . فغضب الحجاج غضبه شديداً ،
 وام عن سريره ، فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا .

قال الشعبي : وكنا جماعة ما منّا إلّا من نال من عليّ عليه السلام مقاربةً للحجاج ،
 الحسن بن أبي الحسن رحمه الله .

وروى مُحرّز بن هشام ، عن إبراهيم بن سلمة ، عن محمد بن عبيد الله ، قال : قال رجل
 لحسن : مالنا لا نراك تُثني على عليّ وتقرّظه ! قال : كيف وسيفُ الحجاج يقطر دماً !
 الأوّل من أسلم ، وحسبكم بذلك !
 قال : فهذه الأخبار .

وأما الأشعار المروية فعروفة كثيرة منتشرة ، فمنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن
 عمار : عبد المطالب مجيباً للوليد بن عُقبة بن أبي معيط :

وإنّ وليّ الأمر بعد محمدٍ عليّ وفي كلّ المواطن صاحبهُ
 وصيّ رسول الله حقّاً وصنوه وأوّل من صلى ومنّ لان جانيهُ

وقال خزيمة بن ثابت في هذا :

وصيّ رسول الله من دون أهله وفارسه مُدّ كان في سالف الزّمن
 وأوّل من صلى من الناس كلّهم سوى خيرة النّسوان والله ذو منن

وقال أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، حين بويع أبو بكر :
ما كنت أحسب أن الأمر منصرفٌ عن هاشمٍ ثم منها عن أبي حسنٍ
أليس أولَ مَنْ صَلَّى لِقَبْلَتِهِمْ وأعلمَ النَّاسَ بالأحكامِ والشُّنَنِ !
وقال أبو الأسود الدؤليَّ يهدّد طاححة والزبير :

وإن عليّاً لكم مُضْحِرٌ يماثله الأسد الأسودُ
أما إنه أولُ العابدين بمكة والله لا يعبد !

وقال سعيد بن قيس الحمداني يرتجز بصفين :
هذا على وابنُ عمِّ المصطفى أولُ مَنْ أجابه فيما رَوَى
* هو الإمام لا يبالي مَنْ غَوَى *

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسديّ :
فحُوطُوا عليّاً وانصروه فإنه وصيٌّ وفي الإسلام أولُ أولٍ
وإن تخلّوه والحوادث حجةٌ فليس لكم عن أرضكم متحوّلٌ
قال : والأشعار كالأخبار ، إذا امتنع في مجيئ القبيلين التواطؤ والاتفاق ، كان
ورودها حجة .

فأمّا قولُ الجاحظ : فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معا ، فقد أبطل بهذا ما احتج
به لأمامة أبي بكر ، لأنه احتجّ بالسِّبْق ، وقد عدل الآن عنه .
قال أبو جعفر : ويقال لهم : لسنا نحتاج من ذكر سبق عليٍّ عليه السلام إلا
مجامعتكم إيانا على أنه أسلم قبل الناس ؛ ودعواكم أنه أسلم وهو طفل دعوى غير
مقبولة لا بحجة .

فإن قاتم : ودعوتكم أنه أسلم وهو بالغ دعوى غير مقبولة إلا بحجة ! .

قلنا : قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم ؛ ولو كان طفلاً لكان في الحقيقة غير مسلم ،
أن اسم الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنما يقع على البالغين دون الأطفال
المجانين ؛ وإذا أطلقتم وأطلقنا اسم الإسلام ، فالأصل في الإطلاق الحقيقة ، كيف وقد
ل النبي صلى الله عليه وآله : « أنت أول من آمن بي ، وأنت أول من صدقني » .
قال لفاطمة : « زوجتك أقدمهم سِماً - أو قال : إسلاماً - » فإن قالوا : إنما دعاه
نبي صلى الله عليه وآله إلى الإسلام على جهة العرض لا التكليف .

قلنا : قد وافقتمونا على الدعاء ، وحكم الدعاء حكم الأمر والتكليف . ثم أدعيتم
أن ذلك كان على وجه العرض ، وليس لكم أن تقبلوا معنى الدعاء [عن وجهه]^(١)
لا لجة .

فإن قالوا : لعلمه كان على وجه التأديب والتعليم ، كما يعتمد مثل ذلك مع الأطفال !
قلنا : إن ذلك إنما يكون إذا تمسكن الإسلام بأهله ، أو عند النشوء عليه والولادة
به ، فأما في دار الشرك فلا يقع مثل ذلك ؛ لا سيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا
متاد بينهم ، على أنه ليس من سنة النبي صلى الله عليه وآله دعاء أطفال المشركين إلى
إسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم ، قبل أن يباغوا الحلم .

وأيضاً فمن شأن الطفل اتباع أهله وتقليد أبيه ، والمضي على مشيئته ومولده ، وقد
انت منزل النبي صلى الله عليه وآله حينئذ منزلة ضيق وشدة ووحدنة ، وهذه منازل
ينتقل إليها إلا من ثبت الإسلام عنده بحجة ، ودخل اليقين قابله بعلم ومعرفة .
فإن قالوا : إن علياً عليه السلام كان يألّف النبي صلى الله عليه وآله ، فوافقه على
لريق المساعدة له .

قلنا : إنه وإن كان يألّفه أكثر من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته ، ولم يكن
إلّا ليخرجه عما نشأ عليه ، ولم يكن الإسلام مما غُدّي^(٢) به وكرر على سمعه ،

(٢) ب : « عدى » ، تصحيف ، وأثبت ما في أ .

(١) تكملة من أ

لأنّ الإسلام هو خلق الأنداد والبراءة ممّن أشرك بالله ، وهذا لا يجتمع في اعتقاد طفل .

ومن العجّب قولُ العباس لعفيف بن قيس : ننتظر الشّيخ وما يصنع ! فإذا كان العباس وحمزة ينتظران أبا طالب ، ويصدّران عن رأيه ، فكيف يخالفه ابنه ، ويؤثر القلّة على الكثرة ، ويفارق المحبوب إلى المكروه ، والعزّ إلى الذلّ ، والأمن إلى الخوف ، عن غير معرفة ولا علم بما فيه !

فأمّا قوله : إنّ المقلّل يزعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثّر يزعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ؛ فأول ما يقال في ذلك : إنّ الأخبار جاءت في سنّة عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام لمجماعها في قسمين :

القسم الأوّل : الذين قالوا : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ؛ حدّثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسديّ ، عن إسحاق بن بشر القرشيّ ، عن الأوزاعيّ ، عن حمزة بن حبيب ، عن شدّاد بن أوس ، قال : سألتُ خبّاب بن الأرتّ عن إسلام عليّ ، فقال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولقد رأيته يصليّ قبل النّاس مع النّبيّ صلى الله عليه وآله وهو يومئذ بالغٌ مستحکم البلوغ . وروى عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، أنّ أوّل من أسلم عليّ بن أبي طالب ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

القسم الثّاني : الذين قالوا إنه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة ، رواه أبو قتادة الحرّانيّ ، عن أبي حازم الأعرج ، عن حذيفة بن اليمان ، قال : كنّا نعبد الحجارة ، ونشربُ الخمر وعلىّ من أبناء أربع عشرة سنة قائمٌ يصليّ مع النّبيّ صلى الله عليه وآله ليلاً ونهاراً ، وقريش يومئذٍ تسافه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ما يدبّ عنه إلاّ علىّ

عليه السلام - وروى ابن أبي شَيْبَةَ عن جرير بن عبد الحميد ، قال : أسلم علىّ وهو ابن ربع عشرة سنة .

القسم الثالث : الذين قالوا : أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة ؛ رواه إسماعيل بن عبد الله الرّقيّ ، عن محمد بن عمر ، عن عبد الله بن سمعان ، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، عن أبيه عن محمد بن عليّ عليه السلام ، أنّ علياً حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة . وروى عبد الله بن زياد المدنيّ ، عن محمد بن عليّ الباقر عليه السلام ، قال : أوّل مَنْ آمَنَ بالله علىّ بن أبي طالب ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة .

القسم الرابع : الذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن عشر سنين . رواه نوح بن درّاج ، عن محمد بن إسحاق ، قال : أوّل ذكرٍ آمَنَ وصدّق بالنبوة علىّ بن أبي طالب عليه السلام ، وهو ابن عشر سنين ، ثمّ أسلم زيد بن حارثة ، ثمّ أسلم أبو بكر وهو ابن ست ثلاثين سنة فيما بلغنا .

القسم الخامس : الذين قالوا إنه أسلم وهو ابن تسع سنين ، رواه الحسن بن عُبَيْسَةَ لورّاق ، عن سليم مولى الشّعبيّ ، عن الشّعبيّ ، قال : أوّل مَنْ أسلم من الرّجال علىّ بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين ، وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله تسع وعشرون سنة .

قال شيخنا أبو جعفر : فهذه الأخبار كما تراها ، فإنّما أن يكون الجاحظ جهالها ، أو صد العناد .

فأمّا قوله : « فالقياس أن نأخذ بأوسط الأمرين من الروايتين » ، فنقول : إنه أسلم وهو بن سبع سنين . فإنّ هذا تحكّم منه ، ويلزمه مثله في رجل ادّعى قبل رجل عشرة

دراهم ، فأنكر ذلك وقال : إنما يستحقُّ قبلي أربعة دراهم ، فينبغي أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم ، ويلزمه في أبي بكر حيث قال قوم : كان كافراً ، وقال قوم : كان إماماً عادلاً أن نقول : أعدلُ الأفاويل أو سطها وهو منزلة^(١) بين المنزلتين ، فنقول : كان فاسقاً ظالماً ، وكذلك في جميع الأمور المختلف فيها .

فأما قوله : وإنما يُعرف حق ذلك من باطله ، بأن نحصى سني ولاية عثمان وعمر وأبي بكر وسني الهجرة ، ومُقَامُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِمَكَّةَ بعد الرسالة إلى أن هاجر ؛ فيقال له : لو كانت الروايات متفقة على هذه التواريخ ، لكان لهذا القول مساع ، ولكن الناس قد اختلفوا في ذلك ، فقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أقام بمكة بعد الرسالة خمس عشرة سنة ، رواه ابن عباس ، وقيل ثلاث عشرة سنة ، وروى عن ابن عباس أيضاً ، وأكثر الناس يرونه . وقيل عشر سنين ، رواه عروة بن الزبير ، وهو قول الحسن البصري وسعيد بن المسيب . واختلفوا في سن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال ، قوم : كان ابن خمس وستين ، وقيل كان ابن ثلاث وستين ، وقيل : كان ابن ستين . واختلفوا في سن علي عليه السلام ، فقيل : كان ابن سبع وستين ، وقيل : كان ابن خمس وستين . وقيل ابن ثلاث وستين ، وقيل : ابن ستين ، وقيل ابن تسع وخمسين .

فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيق هذه الحال ! وإنما الواجب أن يرجع إلى إطلاق قولهم : أسلم على ، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقاً إلا على البالغ ، كما لا يطلق اسم الكافر إلا على البالغ ، على أن ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً ، ويولد له الأولاد ، فقد روت الرواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسن من ابنه عبد الله

(١) ١ : « أن ينزله » .

إلا باثنتي عشرة سنة ، وهذا يوجب أنه احتلّم وبلغ في أقلّ من إحدى عشرة سنة .

وروى أيضا أنّ محمد بن عبد الله بن العباس ، كان أصغرَ من أبيه عليّ بن عبد الله بن العباس بإحدى عشرة سنة ، فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العباس حين مات رسول الله صلى الله عليه وآله غير مسلم على الحقيقة ، ولا مثاب ولا مطيع بالإسلام ، لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين . رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا ابن عشر سنين .

قال الجاحظ : فإن قالوا : فلعله وهو ابن سبع سنين^(١) أو ثمانى سنين^(٢) ، قد بلغ من فطنته وذكائه وصحة لُبّه وصدق حدّسه^(٣) وانكشاف العواقبه وإن لم يكن جرب الأمور ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخصوم ، ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفته والإقرار به !

قيل^(٤) لهم : إنما تتكلّم على ظواهر الأحوال ، وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال ، فإننا وجدنا حكم ابن سبع سنين أو ثمان - ما لم يعلم باطن أمره وخاصة طبعه - حكم الأطفال ، وليس لنا أن نزيل ظاهر حكمه والذي نعرف من حال أنماء جنسه بلعلّ وعسى ، لأننا وإن كنّا لا ندري ، لعله قد كان ذا فضيلة في الفطنة فلعله قد كان ذا نقص فيها !

هذا على تجويز أن يكون عليّ عليه السلام في الغيب^(٥) قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلام البالغ ، غير أن الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الذين أسدوا وهم في مثل سنّه إذ كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن ، وتلقين القيم ، ورياضة السائس .

فأمّا عند التحقيق ، فإنه لا تجويز لمثل ذلك ، لأنه لو كان أسلم ، وهو ابن سبع

(٢) العثمانية : « حسه » .

(٤) العثمانية « المغيب » .

(١ - ١) ساقط من ا

(٣) العثمانية : « قيل » .

أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة، وفرق ما بين الرسل والسحرة، وفرق ما بين خبر النبي والمنجم، وحتى عرف كيد الأريب^(١)، وموضع الحجّة، و^(٢) وبعد غور المتنبي^(٣)، كيف يلبّس على العقلاء، وتسمّل عقول الدّهماء، وعرف الممكن في الطبع من الممتنع، وما يحدث بالاتفاق ممّا يحدث بالأسباب، وعرف قدر القوى وغاية الحيلة ومنتهى التّوهم والخديعة، وما لا يحتمل أن يحدثه إلّا الخالق سبحانه، وما يجوز على الله في حكمته ممّا لا يجوز، وكيف التحفّظ من الهوى والاحتراس من الخداع؛ لكان كونه على هذه الحال وهذه مع فرط الصّبأ والحدّاءة وقلة التجارب والممارسة خروجاً من العادة. ومن المعروف ممّا عليه تركيب هذه الخلقة، وليس يصلّ أحد إلى معرفة نبيّ وكذب متنبئ، حتى يجتمع فيه هذه المعارف التي ذكرناها، والأسباب التي وصفناها وفصلناها، ولو كان على عليه السلام على هذه الصّفة ومعه هذه الخاصيّة لكان حجّة على العامّة، وآية تدلّ على النبوّة، ولم يكن الله عزّ وجلّ ليخصّه بمثل هذه الأعجوبة إلّا وهو يريد أن يحتجّ بها، ويجعلها قاطعة لعذر الشّاهد وحجة على الغائب. ولولا أن الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنّه أتاه الحكم صبيّاً، وأنه أنطق عيسى في المهد ما كانا في الحكم [وَلَا فِي الْمَغِيبِ] ^(٤)، إلّا كسائر الرسل، وما عليه جميع البشر. فإذا لم ينطق لعلّ عليه السلام بذلك قرآن، ولا جاء الخبر بهججاً، الحجّة القاطعة والمشهدة القائمة، فالمعلوم عندنا في الحكم أن طباعه كطباع عمّيه حمزة والعباس، وهما أمسّ بمعند جماع الخير منه، أو كطباع جعفر وعقيل من رجال قومه، وسادة رهظه. ولو أن إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعمّيه حمزة والعباس، ما كان عندنا في أمره إلّا مثل ما عندنا فيه ^(٥).

أجاب شيخنا أبو جعفر رحمه الله، فقال: هذا كلّهُ مبنىٌّ على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، ونحن قد بينّا أنه أسلم بالغاً ابن خمس عشرة سنة أو ابن أربع عشرة سنة؛ على

(١) العمانية: «الريب» . (٢-٢) في الأصول: «وفقد التمييز»، وأثبت مافي العمانية .
 (٣) من العمانية
 (٤) العمانية ٦ - ٨ .

نألو نزلنا على حُكم الخُصوم ، وقلنا ماهو الأشهر والأكثر من الرواية ؛ وهو أنه
سَلِمَ وهو ابن عَشْرٍ لم يلزم ماقاله الجاحظ ، لأن ابن عَشْرٍ قد يستجمع عقله ، ويُعلم
من مبادئ المعارف ما يستخرج به كثيرا من الأمور المعقولة ؛ ومتى كان الصبي عاقلًا
يُزا كان مكلفًا بالعقليات ؛ وإن كان تكليفه بالشرعيات موقوفًا على حد آخر
يغاية أخرى ، فليس بمنكر أن يكون على عليه السلام وهو ابن عَشْرٍ قد عقل
لعجزة ، فلزمه الإقرار بالنبوة ، وأسلم إسلام عالم عارف ، لإسلام مقلد تابع ؛ وإن كان
مانسقه الجاحظ وعدده من معرفة السحر والنجوم والفصل بينهما وبين النبوة ، ومعرفة
ما يجوز في الحكمة مما لا يجوز ، ومالا يحدثه إلا الخالق ، والفرق بينه وبين ما يقدر
عليه القادرون بالقدرة ، ومعرفة التَّمويه والخديعة ، والتليس والمأكرة ، شرطًا في صحة
الإسلام لما صحَّ إسلام أبي بكر ولا عمر ولا غيرها من العرب ؛ وإنما التكليف
لهؤلاء بالجل ومبادئ المعارف لابتدائها والغامض منها ، وليس يفتقر الإسلام إلى
أن يكون المسلم قد فاتح الرجال وجرب الأمور ونازع الخُصوم ؛ وإنما يفتقر إلى صحة
الفريضة وكال العقل وسلامة الفطرة ؛ ألا ترى أن طفلًا لو نشأ في دارٍ لم يعاشر الناس
بها ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخُصوم ؛ ثم كَمَلَ عقله ، وحصلت العلوم البديهية
عنده ، لكان مكلفًا بالعقليات !

فأما توهمه أن عليًا عليه السلام أسلم عن تربية الحاضن ، وتلقين القيم ، ورياضة
السَّائِس ؛ فلعمري إنَّ محمدًا صلى الله عليه وآله كان حاضنه وقيمه وسائسه ، ولكن لم
يكن منقطعًا عن أبيه أبي طالب ، ولا عن إخوته طالب وعقيل وجعفر ، ولا عن عمومته
وأهل بيته ، وما زال مخالطًا لهم ، متمزجًا بهم ، مع خدمته لمحمد صلى الله عليه وآله ، فبالله
لم يميل إلى الشرِّ وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله ، وهم كثير ومحمد
صلى الله عليه وآله واحد! وأنت تعلم أن الصبي إذا كان له أهل ذوو كثرة ، وفيهم واحد

يذهب إلى رأى مفرد ، لا يوافقُه عليه غيره منهم ، فإنه إلى ذوى الكثرة أميلُ ، وعن ذى رأى الشاذ المنفرد أبعد . وعلى أن عليًّا عليه السلام لم يولد في دار الإسلام ، وإنما ولد في دار الشرك ورُبِّيَ بين المشركين ، وشاهد الأصنام ، وعان بعينيه أهله ورهطه يعبدونها ؛ فلو كان في دار الإسلام لكان في القول مجالاً ، ولقيل إنه ولد بين المسلمين ، فإسلامه عن تلقين الطائر وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنه لم يسمع غيره ، ولا خطر بباله سواه ، فلما لم يكن ولد كذلك ، ثبت أن إسلامه بإسلام المميز العارف بما دخل عليه . ولولا أنه كذلك لما مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ، ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجدت من تزيجها بقوله لها : زوّجْتُكِ أقدمهم سلماً ، ولا قرن إلى قوله : « وأكثرهم علماً ، وأعظمهم حلماً » ، والحلم العقل ، وهذان الأمران غاية الفضل ، فلولا أنه أسلم بإسلام عارف عالم مميز لما ضمَّ إسلامه إلى العلم والحلم اللذين وصفه بهما ! وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مُثاباً عليه ، ولا معاقباً به لو تركه ، ولو كان إسلامه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام [به] ^(١) على رءوس الأشهاد ، ولا خطب على المنبر ؛ وهو بين عدوِّ ومحارب ، وخاذل منافق ، فقال : أنا عبدالله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ؛ صليتُ قبل الناس سبع سنين ، وأسamt قبل إسلام أبي بكر ، وأمنت قبل إيمانه ! فهل يَنفَكُم أن أحداً من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابه أو ادعاه لغيره ، أو قال له : إنما كنت طفلاً أسمت على ^(٢) تربية محمد صلى الله عليه وآله ذلك ، وتلقينه إياك ، كما يُعَلِّمُ الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعاً ! فلا نغر له في تعلم ذلك ، وخصوصاً في عصرٍ قد حارب فيه أهل البصرة والشام والنهروان ، وقد اعتورته الأعداء وهَجَّتْهُ الشعراء ، فقال فيه النعمان بن بشير :

(١) تكملة من ١

(٢) « عن » .

لَقَدْ طَلَبَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعِيدٍ وَسَارَعَ فِي الضَّلَالِ أَبُو تَرَابٍ
مَعَاوِيَةَ الْإِمَامُ وَأَنْتَ مِنْهَا عَلَى وَتَحٍ بِمَنْقَطَعِ السَّرَابِ^(١)
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا بَعْضُ الْخَوَارِجِ :

دَسَسْنَا لَهُ تَحْتَ الظَّلَامِ ابْنَ مُلْجَمٍ جَزَاءُ إِذَا مَا جَاءَ نَفْسًا كِتَابُهَا
أَبَا حَسَنٍ خَذَهَا عَلَى الرَّأْسِ ضَرْبَةً بَكَفٍّ كَرِيمٍ ؛ بَعْدَ مَوْتِ ثَوَابُهَا
وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ يَمْدَحُ قَاتِلَهُ :

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقَى مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا^(٢)
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ جِينًا فَأَحْسِبُهُ أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا
فَلَوْ وَجَدَ هَؤُلَاءُ سَبِيلًا إِلَى دَحْضِ حُجَّةٍ فَمَا كَانَ يَفْخَرُ بِهِ مِنْ تَقَدُّمِ إِسْلَامِهِ ، لَبَدَّوْا
بِكَ ، وَتَرَكَوْا مَا لَا مَعْنَى لَهُ .

وَقَدْ أوردنا مامدحه الشعراء به مِنْ سَبْقِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَكَيْفَ لَمْ يَرُدَّ عَلَى هَؤُلَاءِ
بِأَيِّ مَدْحُوهِ بِالسَّبْقِ شَاعِرٌ وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ حَرْبِهِ ! وَلَقَدْ قَالَ فِي أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ قَوْلًا خَالَفَ
بِهِ ، عَمْرٌ ، فَذَكَرُوهُ بِذَلِكَ وَعَابُوهُ ، فَكَيْفَ تَرَكَوْا أَنْ يَعْيبُوهُ بِمَا كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ مِمَّا لَا يَخْفَرُ
بِهِ ، عِنْدَهُمْ ، وَعَابُوهُ بِقَوْلِهِ فِي أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ .

ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : خَبَرْنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ ، وَقَدْ أَجَازَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ يَوْمَ أَنْخَلَدُ ،
أَلَمْ يَجْزِهِ يَوْمَ أَحُدٍ ، هَلْ كَانَ يُمَيِّزُ مَا ذَكَرْتَهُ ؟ وَهَلْ كَانَ يَعْلَمُ فَرْقَ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُنْتَبِي ،
بِفَصْلِ بَيْنِ السَّحَرِ وَالْمُعْجَزَةِ ، إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا عُدَّتْ وَفَصَّلَتْ !

فَإِنْ قَالَ : نَعَمْ ، وَتَجَاسَرَ عَلَى ذَلِكَ ، قِيلَ لَهُ : فَعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ أَوْلَى مِنْ ابْنِ
رَبِّهِ ، لِأَنَّهُ أَذْكُرُ وَأَفْظَنُ بِلَا خِلَافٍ بَيْنَ الْعَقْلَاءِ ، وَأَتَى يُشَكُّ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ رَوَيْتُمْ أَنَّهُ

(٢) الْكَامِلُ ٣ : ١٦٩

(١) الْوَتَعِ : الْقَلِيلُ .

لم يميّز بين الميزان والعود بعد طول السنّ ، وكثرة التجارب ، ولم يميّز أيضا بين إمام الرشد وإمام الغيّ ، فإنه امتنع من بيعة عليّ عليه السلام . وطرق على الحجاج بابنه ليلا ليبيع لعبد الملك ؛ كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام ، زعم لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية » ، وحتى بلغ من احتقار الحجاج له واسترذاله حاله ، أن أخرج رجله من الفراش ، فقال : أصفق بيدك عليها ، فذلك تمييزه بين الميزان والعود ، وهذا اختياره في الأئمة ، وحال عليّ عليه السلام في ذكائه وفطنته ، وتوقّد حسّه ، وصدق حدسه ، معلومة مشهورة ، فإذا جاز أن يصحّ إسلام ابن عمر ، ويقال عنه إنه عرف تلك الأمور التي سردها الجاحظ ونسّقها ، وأظهر فصاحته وتشدّقه فيها ، فعلى بمعرفة ذلك أحقّ ، وبصحة إسلامه أوّلى .

وإن قال : لم يكن ابن عمر يعلم ويعرف ذلك ، فقد أبطل إسلامه ، وطعن في رسول الله صلى الله عليه وآله حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق ؛ لأنه عليه السلام كان قال : لا أجزئ إلّا البالغ العاقل ، ولذلك لم يحزه يوم أحد .

ثم يقال له : إنّ مانقوله في بلوغ عليّ عليه السلام الحدّ الذي يحسن فيه التّكليف العقليّ بل يحب - وهو ابن عشر سنين - ليس بأعجب من مجيء الولد لستّة أشهر ، وقد صحّح ذلك أهل العلم ، واستنبطوه من الكتاب ، وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة . وكذلك مجيء الولد لستين خارجاً أيضا عن التعارف والعادة ، وقد صحّحه الفقهاء والناس .

ويروى أنّ معاذاً لما نهى عمر عن رجّم الحامل تركها حتى ولدت غلاما قد نبتت ثنيتاه ، فقال أبوه : ابني وربّ الكعبة ! فثبت ذلك سنّة يعمل بها الفقهاء ، وقد وجدنا العادة تقضى بأنّ الجارية تحيض لاثنتي عشرة سنة ، وأنّه أقلّ سنّ تحيض فيه المرأة ، وقد

كون في الأقل نساء يحضن لعشر ولتسع ، وقد ذكر ذلك الفقهاء ، وقد قال الشافعي في مان : لو جاءت المرأة بحمل وزوجها صبي له دون عشر سنين ، لم يكن ولدا له ، لأن من يبلغ عشر سنين من الصبيان لا يولد له ، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له ، كان بينهما لعان إذا لم يقر به .

وقال الفقهاء أيضا : إن نساء تهامة يحضن لتسع سنين ؛ لشدة الحر ببلادهن .

قال الجاحظ : ولو لم يعرف باطل هذه الدعوى من أثر التقوى ، وتحفظ من الهوى ، بترك علي عليه السلام ذكر ذلك لنفسه والاحتجاج به على خصمه ، وقد نازع الرجال ناوي الأكفاء ، وجامع أهل الشورى ؛ لكان كافيا ، ومتى لم تصح لعل عليه سلام هذه الدعوى في أيامه ، ولم يذكرها أهل عصره ، فهي عن ولده أمجز ، منهم أضعف !

ولم ينقل أن عليا عليه السلام احتج بذلك في موقف ، ولا ذكره في مجلس ، لا قام به خطيبا ، ولا أدلى به واثقا ، لا سيما وقد رضي الرسول صلى الله عليه وآله سدكم مفزعا ومعلما ، وجعله للناس إماما . ولا ادعى له أحد ذلك في عصره ، كما يدّعه لنفسه ؛ حتى يقول إنسان واحد : الدليل على إمامته أن النبي صلى الله عليه وآله اه إلى الإسلام أو كلفه التصديق قبل بلوغه ، ليكون ذلك آية للناس في عصره ، حجة له ولولده من بعده ؛ فهذا كان أشد على طلحة والزبير وعائشة من كل ما ادّعاه من ماثله وسوابقه وذكر قرابته (١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إن مثل الجاحظ مع فضله وعلمه ؛ لا يخفى عليه كذب

(١) العثمانية ٩ - ١٢ ، مع تصرف واختصار .

هذه الدّعى وفسادها، ولكنّه يقول مايقوله تعصّباً وعناداً، وقد روى الناس كافّة، افتخاراً ،
 علىّ عليه السلام بالسّبق إلى الإسلام ، وأنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله استنّبني يوم الاثنين ،
 وأسلم علىّ يوم الثلاثاء، وأنه كان يقول: صلّيت قبل الناس سبع سنين ، وأنه مازال يقول:
 أنا أوّل من أسلم ، ويفتخر بذلك، ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه وشيعته في عصره وبعد
 وفاته . والأمر في ذلك أشهر من كلّ شهير ، وقد قدّمنا منه طرّاً ، وما علمنا أحداً من
 الناس فيما خلا استخفّ بإسلام علىّ عليه السلام ، ولا تهاون به ، ولا زعم أنه أسلم إسلام
 حدّث غرير، وطفل صغير . ومن العجّب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب
 وفعله ، ليصدّرا عن رأيه، ثم يخالفه علىّ ابنه لغير رغبة ولا رهبة؛ يؤثّر القلّة على الكثرة،
 والدّلّ على العزّة ، من غير علم ولا معرفة بالعاقبة .

وكيف ينكر الجاحظُ والعُمانيّة أن رسول الله صلى الله عليه وآله دغاه إلى الإسلام
 وكلفه التصديق !

وقد روى في الخبر الصحيح أنه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة
 أن يصنع له طعاماً ، وأن يدعو له بنى عبد المطلب ، فصنع له الطعام ، ودعاهم له ، فخرجوا
 ذلك اليوم، ولم ينذرهم صلى الله عليه وآله لكلمة قالها عمّه أبو لهب، فكلفه في اليوم الثاني
 أن يصنع مثل ذلك الطعام ، وأن يدعوهم ثانية ، فصنعه ، ودعاهم فأكلوا ، ثم كلمهم صلى
 الله عليه وآله فدعاهم إلى الدين، ودعاه معهم لأنّه من بنى عبد المطلب، ثم ضمّن لمن يوازره
 منهم وينصره على قوله ، أن يجعله أخاه في الدين، ووصيّيه بعد موته ، وخليفته من بعده ،
 فأمسكوا كلّهم وأجابوه هو وحده، وقال : أنا أنصرُك على ما جئت به، وأوازرُك وأبايعُك،
 فقال لهم لَمّا رأى منهم الخذلان ، ومنه النضر ، وشاهد منهم العصيّة ومنه الطاعة ، وعان
 منهم الإباء، ومنه الإجابة : هذا أخى ووصيّى وخليفتى من بعدى ، فقاموا يسخرون
 ويضحكون ، ويقولون لأبى طالب : أطعُ ابنك ، فقد أمره عليك ، فهل يكلف عمل

لطعام ودعاء القوم صغير مميز وغير عاقل ! وهل يؤتمن على سر النبوة طفل ابن خمس سنين أو ابن سبع ! وهل يدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب ! وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده في يده ، ويعطيه صمقة يمينه ؛ بالأخوة والوصية والخلافة لا وهو أهل لذلك ، بالغ حد التكليف ، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه ! وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ، ولم يلصق بأشكاله ، ولم ير مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه ، وهو كأحدهم في طبقته ، كبعضهم في معرفته !

وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته ، فيقال : دعاه داعي الصبا وخاطر من خواطر الدنيا ، وحماته الغرة والجدائة على حضور لهوهم والدخول في حالهم ، بل مارأيناها إلا ماضيا على إسلامه ، مصمما في أمره ، محققا لقوله بفعاله ؛ قد صدق إسلامه بعافه وزهده ؛ لصق برسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع من بحضرته ؛ فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته ؛ وقد قهر شهوته ، وجاذب خواطره ، صابرا على ذلك نفسه ؛ لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة ، وقد ذكر هو عليه السلام في كلامه وخطبه بدء حاله ، وافتتاح أمره ، حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله الشجرة ، فأقبلت تحدد الأرض ؛ فقالت فريش : ساحر خفيف السحر ! فقال علي عليه السلام : يا رسول الله ، أنا أول من يؤمن بك ، آمنت بالله ورسوله وصدقتك فيما جئت به ، وأنا أشهد أن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله بصديقا لنبوتك ، وبرهاننا على صحة دعوتك ؛ فهل يكون إيمان قط أصح من هذا الإيمان وأوثق عقدة ، وأحكم مرة ! ولكن حثق العمانية وغيظهم ، وعصبية الجاحظ وانحرافه مما لاحيلة فيه . ثم لينظر المنصف وليدع الهوى جانبا ، ليعلم نعمة الله على علي عليه السلام بالإسلام حيث أسلم على الوضع الذي أسلم عليه ، فإنه لولا الألطاف التي خص بها ، والهداية التي منحها ، لما كان إلا كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وآله ، فقد كان ممازجآ له كما مزجته ، ومخالطآ له كما خلطه كثير من أهله ورهطه ، ولم يستجب منهم

أحدُّه إلَّا بعد حين . ومنهم من لم يستجب له أصلاً ؛ فإنَّ جعفرًا عليه السلام كان ملتصقًا به ، ولم يُسلم حينئذ ، وكان عُنْبَةُ بن أبي لهب ابن عمِّه وصهره زوج ابنته ولم يصدِّقه ، بل كان شديدًا عليه ، وكان لخديجة بنتون من غيره ، ولم يساهوا حينئذ ، وهم ربائبته^(١) ومعه في دار واحدة . وكان أبو طالب أباه في الحقيقة وكافله وناصره ، والحامي عنه ؛ ومنَّ لولاه لم تقم له قائمة ، ومع ذلك لم يُسلم في أغلب الروايات ، وكان العباس عمُّه وصنوا بيه ، وكالقرين له في الولادة والمنشأ والتربية ، ولم يستجب له إلَّا بعد حين طويل ، وكان أبو لهب عمُّه ، وكدمه ولحمه ، ولم يسلم ، وكان شديدًا عليه ، فكيف ينسب إسلام عليٍّ عليه السلام إلى الإلف والتربية والقرابة واللحمة والتأقن والحضانة ، والدار الجامعة ، وطول العشرة والأنس والحلوة ! وقد كان كلَّ ذلك حاصلًا لهؤلاء أو لكثير منهم ، ولم يهتد أحدٌ منهم إذ ذاك ، بل كانوا بين [من]^(٢) جَعَدَ وكَفَرَ ومات على كفره ، ومنَّ أبطأ وتأخَّر ، وسُبق بالإسلام وجاء سُكَيْتًا^(٣) ؛ وقد فاز بالمنزلة غيره .

وهل يدلُّ تأمل حال عليٍّ عليه السلام مع الإنصاف إلَّا على أنَّه أسلم ، لأنه شاهد الأعلام ، ورأى المعجزات ، وشمَّ ريح النبوة ، ورأى نور الرسالة ، وثبت اليقين في قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح ؛ لا بتقليد ولا حَمِيَّةٍ ، ولا رغبة ولا رهبة ، إلَّا فيما يتعلق بأمور الآخرة .

قال الجاحظ : فلو أنَّ عليًّا عليه السلام كان بالغًا حيث أسلم ؛ لكان إسلام أبي بكر وزيد بن حارثة وخبَّاب بن الأرت أفضل من إسلامه ، لأنَّ إسلام المقتضب^(٤) الذي لم يعتدَّ به ولم يعودَّه ، ولم يمرَّن عليه ، أفضل من إسلام الناشئ الذي رُبِّي فيه ، ونشأ وحبيب

(١) الربائب : أولاد الزوج .

(٢) من ١

(٣) السكيت : الفرس يجيء آخر الحلبة .

(٤) المقتضب : غير المستعد للشيء .

ليه ، وذلك لأنَّ صاحب التربية يبلِّغ حيث يبلغ وقد أسقط إلفه عنه مؤنة الروية الخاطر ، وكفاه علاج القلب واضطراب النفس ، وزيد وخبَّاب وأبو بكر يعانون من كلفة النظر ومؤنة التأمل ومشقة الانتقال من الدين الذي قد طال الفهم له ماهو غير خاف . لو كان على حيث أسلم بالغا مقتضيا كغيره ممن عدونا ، كان إسلامهم أفضل من سلامه ، لأنَّ من أسلم وهو يعلم أنَّ له ظهراً كآبى طالب ، وردءاً كبنى هاشم ، وموضعا ، بنى عبد المطلب ، ليس كالحليف والمولى ، والتابع والعيسف^(١) ، وكالرجل من عرض ريش^(٢) . أو لست تعلم أنَّ قريشا خاصَّة وأهل مكة عامَّة لم يقدرُوا على أذى النبيِّ صلى الله عليه وآله ، ما كان أبو طالب حيًّا ! وأيضا فإنَّ أولئك اجتمع عليهم مع فراق الإلف شقة الخواطر ، وعلىَّ عليه السلام كان يحضرة الرسولُ الله صلى الله عليه وآله ، يشاهد الأعلام في كلِّ وقت ، ويحضر منزل الوحي ، فالبراهين له أشدُّ انكشافا ، والخواطر على قلبه أقلُّ اعتلاجاً ، وعلى قدر الكلفة والمشقة يعظم الفضل ويكثر الأجر^(٣) .

قال أبو جعفر رحمه الله : ينبغي أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصل ، ويقفوا على قول الجاحظ والأصمِّ في نصرته العثمانية واجتهادها في القصد إلى فضائل هذا الرجل ، وتهجينها ، فمرة يبطلان معناها ، ومرة يتوصلان إلى حطِّ قدرها ، فلينظر في كلِّ باب اعتراضا فيه ، أين بلغت حيلتهما ، وما صنعا في احتيالهما في قصصهما وسجعهما ! أليس إذا تأملتها علمت أنَّها ألفاظٌ ملفقة بلا معنى ، وأنَّها عليها شجى وبلاء ! وإلا فما عسى أن تبليغ حيلة الحاسد ويفنى كيد الكائد الشاني^(٤) لمن قد جلَّ قدره عن النقص ، وأضاءت فضائله إضاءة الشمس ! وأين قول الجاحظ ، من دلائل السماء ، وبراهين الأنبياء ، وقد علم

(٢) من عرض قريش ؛ أى من دهمهم

(١) العيسف : الأجير .

(٣) العثمانية ٢٢ - ٢٤ . مع تصرف واختصار كبير (٤) ب « الثاني » ، تحريف وصوابه من .

الصغير والكبير ، والعالم والجاهل ، ممن بلغه ذكرُ عليٍّ عليه السلام ، وعلم مبعثَ النبي صلى الله عليه وآله أن علياً عليه السلام لم يولد في دار الإسلام ، ولا غُدّي في حجر الإيمان ، وإنما إستضافه رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى نفسه سنة الفَحْط والحِجَاة ، وعمره يومئذ ثمانى سنين ، فكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرئيل بالرسالة ، فدعاه وهو بالغ كامل العقل إلى الإسلام ، فأسلم بعد مشاهدة المعجزة ، وبعد إعمال النظر والفكرة ، وإن كان قد ورد في كلامه أنه صلى سبعة سنين قبل الناس كلهم ، وإنما يعنى ما بين الثمان والخمس عشرة ، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة ، ولا ادعاء نبوة ؛ وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعبد على ملة إبراهيم ودين الحنيفية ، ويتحنث ويحاجب الناس ، ويعزل ويطلب الخلوة ، وينقطع في جبل حراء ، وكان عليٌّ عليه السلام معه كالتابع والتلميذ ، فلما بلغ الحلم ، وجاءت النبي صلى الله عليه وآله الملائكة ، وبشّرت بالرسالة ، دعاه فأجابته عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة ؛ فكيف يقول الجاحظ إن إسلامه لم يكن مقتضياً ! وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره في الفضيلة لِمَا كان يمرّ عليه من التعبّد مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الدعوة ، لتكون طاعة كثير من المكلفين أفضل من طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمثاله من المعصومين ، لأنّ العصمة عند أهل العدل لطف يمنع من اختصاص به من ارتكاب القبيح ، فمن اختصّ بذلك اللطف كانت الطاعة عليه أسهل ، فوجب أن يكون ثوابه أنقص من ثواب من أطاع مع تلك الألفاظ ! وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقص عن إسلام غيره ، وقد جاء في الخبر أنه أسلم يوم الثلاثاء ، واستنحي النبي صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، فمن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه ، ولا تواترت أعلام النبوة على مشاهدته ، ولا تطاول الوقت عليه لتخفّ محنته ، ويسقط ثقل تكليفه ، بل بان فضله ، وظهر حسن اختياره لنفسه ، إذ أسلم في حال بلوغه ، وعانى نوازع طبعه ، ولم يؤخر ذلك بعد سماعه .

وقد غمّر الجاحظ في كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكورا ، ورئيسا
مروفا ، يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار ، ويتذاكرون الأخبار ، ويشربون
الخمر ، وقد كان سمع دلائل النبوة وحجج الرسل ، وسافر إلى البلدان ، ووصلت إليه
لأخبار ، وعرف دعوى الكهنة وحيل السحرة ؛ ومن كان كذلك كان انكشاف
لأمور له أظهر والإسلام عليه أسهل ، والخواطر على قلبه أقل اعتلاجاً ، وكل ذلك
مؤن لأبي بكر على الإسلام ، ومسهل إليه سبيله ، ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه
آله : « أتيت بيت المقدس » سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه ، فصدقه وبأن له امرؤه ،
يخفت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت ، فخرج إذاً إسلام أبي بكر على قول الجاحظ
من معنى المقتضب . وفي ذلك رويتم عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : ما دعوت أحداً
إلى الإسلام إلا وكان له تردد ونبوة ، إلا ما كان من أبي بكر ، فإنه لم يتعاصم حتى هجم
به اليقين إلى المعرفة والإسلام ، فأين هذا وإسلام من خلى وعقله ، وألجى إلى نظره ،
مع صغر سنة ، واعتلاج الخواطر على قلبه ونشأته ، في ضد ما دخل فيه ، والغالب على
أمثاله وأقرانه حب اللعب واللهو ، فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدعوة ، ولم يتأخر
إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصية ، فقه شهوته ، وغالب خواطره ، وخرج من عادته وما كان
غذى بصحة نظره ، ولطافة فكره وغامض فهمه ، فعظم استنباطه ، ورجح فضله ،
وشرف قدر إسلامه ، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب ؛ ولا تنعم فيها بتعيم حدثاً ولا كبيراً ،
وحى نفسه عن الهوى ، وكسر شرة حدائثه بالتقوى ، واشتغل بهم الدين عن نعيم
الدنيا ، وأشغل هم الآخرة قلبه ، ووجه إليه رغبته ؛ فإسلامه هو السبيل الذي لم يسلم
عليه أحد غيره ، وما سبيله في ذلك إلا كسبيل الأنبياء ، ليعلم أن منزلته من النبي
صلى الله عليه وآله كمنزلة هارون من موسى ، وأنه وإن لم يكن نبياً ؛ فقد كان في سبيل
الأنبياء سالكا ، ولمهاجهم متبعا ، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام ؛ فإن

أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيراً جعلته أمه في سَرَب لم يطلع عليه أحد ، فلما نشأ ودرج وعقل قال لأمه : مَنْ رَبِّي ؟ قالت : أبوك ، قال : فمن رب أبي ؟ فزبرته ونهرته ؛ إلى أن طلع من شق السَرَب ، فرأى كوكبا ، فقال : هذا ربِّي ، فلما أفل قال : لا أحب الأفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربِّي ، فلما أفل قال : لئن لم يهْدني ربِّي لأكوننَّ من القوم الضالِّين ؛ فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربِّي هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم إني برى مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ^(١) ، وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر عليه السلام ، لسنا نقول إنه كان مساوياً له في الفضيلة ، ولكن كان مقتدياً بطريقه على ما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) . وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبي طالب وردءا كبنى هاشم ، فإنه يوجب عليه أن تكون محنة أبي بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأن أبا طالب ظهره ، وبنى هاشم ردؤه ؛ وحسبك جهلاً من معاند لم يستطع حطّ قدر علىّ عليه السلام إلا بحطّه من قدر رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن أحدهم أشد على رسول الله صلى الله عليه وآله من قراباته ، الأذى منهم فالأذى ، كأبي لهب عمه وامرأة أبي لهب ؛ وهى أم جميل بنت حرب بن أمية وإحدى أولاد عبد مناف ، ثم ما كان من عُقبة بن أبي معيط ، وهو ابن عمه ، وما كان من النضر بن الحارث ، وهو من بنى عبد الدار بن قصيّ ، وهو ابن عمه أيضاً ، وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم ، وكلّهم كان يطرح الأذى في طريقه ، وينقل أخباره ، ويرميه بالحجارة ، ويرمى السكّرش

لَقَرِثَ عَلَيْهِ ، وَكَانُوا يُؤْذُونَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَأَذَاهُ ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي غَمِّهِ وَيَسْتَهْرِثُونَ بِهِ ،
 مَا كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ قَرَابَةٌ تُؤْذِيهِ كَقَرَابَةِ عَلِيٍّ ، وَلَمَّا كَانَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَآلِهِ مِنَ الْإِتِّجَادِ وَالْإِلْفِ وَالْإِتِّفَاقِ ، أَحْجَمَ الْمُنَافِقُونَ بِالْمَدِينَةِ عَنْ أَذَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ خَوْفًا مِنْ سَيْفِهِ ، وَلَئِنَّهُ صَاحِبُ الدَّارِ وَالْجَيْشِ ، وَأَمْرُهُ مَطَاعٌ ، وَقَوْلُهُ نَافِذٌ ،
 : أَفُوا عَلَى دِمَائِهِمْ مِنْهُ ، فَاتَّقَوْهُ ، وَأَمْسَكُوا عَنْ إِظْهَارِ بَغْضِهِ ، وَأُظْهِرُوا بَغْضَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ وَشَنَائِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي حَقِّهِ فِي الْخَبَرِ الَّذِي رَوَى فِي جَمِيعِ
 السَّحَاحِ : « لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ » . وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَعْلَامِ الصَّحَابَةِ -
 رَوَى فِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ : « مَا كُنَّا نَعْرِفُ الْمُنَافِقِينَ إِلَّا بِبَغْضِ عَلِيٍّ
 ، أَبِي طَالِبٍ » . وَأَيْنَ كَانَ ظَهَرَ أَبِي طَالِبٍ عَنْ جَعْفَرٍ ؛ وَقَدْ أَرْمَجَهُ الْأَذَى عَنْ وَطْنِهِ ؛ حَتَّى
 جَرَّ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَرَكِبَ الْبَحْرَ ، أَيَّتَوَهُمُ الْجَاحِظُ أَنْ أَبَا طَالِبٍ نَصَرَ عَلِيًّا ،
 فَخَذَلَ جَعْفَرًا !

قَالَ الْجَاحِظُ : وَلِأَبِي بَكْرٍ فَضِيلَةٌ فِي إِسْلَامِهِ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ كَثِيرَ الصَّدِيقِ ، عَرِضَ
 نَافَهُ ، ذَا يَسَارٍ وَغِيٍّ ، يَعِظُّهُ لِمَالِهِ ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ رَأْيِهِ ، نَخْرَجُ مِنْ عِزِّ الْغَنَى وَكَثْرَةِ الصَّدِيقِ
 ، ذَلِكَ الْفَاقَةُ وَعِجْزُ الْوَحْدَةِ ، وَهَذَا غَيْرُ إِسْلَامٍ مَنْ لَا حَرَكَتَ بِهِ ، وَلَا عِزَّ لَهُ ، تَابِعَ غَيْرَ
 بَوَّعٍ ، لِأَنَّ مِنْ أَشَدِّ مَا يَبْتَلَى الْكَرِيمَ بِهِ ، السَّبُّ بَعْدَ التَّحِيَّةِ ، وَالضَّرْبُ بَعْدَ الْهَيْبَةِ ،
 الْعُسْرُ بَعْدَ الْيُسْرِ . ثُمَّ كَانَ أَبُو بَكْرٍ دَعِيَّةً مِنْ دَعَاةِ الرَّسُولِ ، وَكَانَ يَتْلُوهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ؛
 كَانَ الْخُوفُ إِلَيْهِ أَشَدَّ ، وَالْمَكْرُوهُ نَحْوَهُ أَسْرَعَ ، وَكَانَ يَحْتَسِنُ مَطَالِبَتَهُ ، وَلَا يَسْتَحْيِي
 ، إِدْرَاكَ الثَّأْرِ عِنْدَهُ ، لِنَبَاهَتِهِ ، وَبَعْدَ ذِكْرِهِ ، وَالْحَدَّثُ الصَّغِيرُ يَزْدَرِي وَيَحْتَقِرُ لِصِغَرِ سَنَةِ
 ، فَخَوْلَ ذِكْرَهُ (١) .

(١) الثَّانِيَةُ ٢٥ ، ٢٦ ، مَعَ تَصَرُّفٍ وَاجْتِصَارٍ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا ما ذكر من كثرة المال والصدىق ، واستفاضة الذكر وبعد الصيت وكبر السن ، فكلّه عليه لاله ، وذلك لأنه قد علم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظ الصديق والوفاء بالذمام والتهيب لذى الثروة واحترام ذى السن العالية ، وفى كلّ هذا ظهر شديد ، وسند وثقة يعتمد عليها عند الحن ، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكّن من صديقه أبقى عليه ، واستحيا منه ، وكان ذلك سببا لنجاته والغفوة عنه ، على أن على بن أبى طالب عليه السلام إن لم يكن شهره سنّه ، فقد شهره نسبه وموضعه من بنى هاشم ، وإن لم يستفيض ذكره بقاء الرجال ، وكثرة الأسفار استفاد بأبى طالب ، فأنتم تعلمون أنه ليس تيمّ فى بعد الصيت كهاشم ، ولا أبو قحافة كأبى طالب ، وعلى حسب ذلك يعلو ذكر الفتى على ذى السن ويبعد صيت الحدث على الشيخ ، ومعلوم أيضا أنّ عليا على أعناق المشركين أثقل ، إذ كان هاشميا ، وإن كان أبوه حامى رسول الله صلى الله عليه وآله ، والممانع لحوزته ، وعلىّ هو الذى فتح على العرب باب الخلاف ، واستهان بهم ، بما أظهر من الإسلام والصلاة ، وخالف رهطه وعشيرته ، وأطاع ابن عمّه فيما لم يعرف من قبل ، ولا عهد له نظير ، كما قال تعالى : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) . ثم كان بعد صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومشتكى حزنه ، وأنيسه فى خلوته ، وجايسه وأليفه فى أيامه كلّها ، وكلّ هذا يوجب التحريض عليه ، ومعاداة العرب له ، ثم أنتم معاشر العثمانيّة ، تُدبِتُونَ لأبى بكر فضيلة بصحبة الرسول صلى الله عليه وآله من مكّة إلى يثرب ، ودخوله معه فى الغار ، فقامت : مرتبة شريفة وحالة جليلة ، إذ كان شريكه فى الهجرة ، وأنيسه فى الوحشة ، فأين هذه من صحبة علىّ عليه السلام له فى خلوته ، وحيث لا يجد أنيساً غيره ؛ ليله ونهاره ، أيام مقامه بمكّة يعبد الله

« سرّاً ، ويتكلف له الحاجة جَهراً ، ويخدمه كالعبد يخدم مولاه ، ويشفقُ عليه ، يحوطه ، وكالولد يبرّ والده ، ويعطف عليه . ولَمَّا سئلت عائشة مَنْ كان أحبَّ النَّاسِ ، رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت : أَمَّا مِنَ الرجال فعلى ، وأَمَّا من ساء ففاطمة .

قال الجاحظ : وكان أبو بكر من المفتونين المعذّبين بمكة قبل الهجرة ، فضربه نوفل بن خويلد المعروف بابن العدويّة مرتين ، حتى أدماه وشدّه مع طلحة بن عبيد الله في ن . وجعلهما في الهاجرة عمير بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة ، ذلك كأننا يدعيان القرينين ، ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقه عسيراً ، وبلوغ زلته شديداً ، ولو كان يوماً واحداً لكان عظيماً ، وعلى بن أبي طالب رافيه وادع ، س بمطلوب ولا طالب ، وليس أنه لم يكن في طبعه الشّبهة والنّجدة ، وفي غريزته بسالة في الشّجاعة ، لكنّه لم يكن قد تمت أداته ، ولا استكملت آله ، ورجال الطلب أصحاب الثّأر يُفمّصون ذا الحُدّاثه ويزدرون بذى الصّبا والفرارة ، إلى أن يلحق رجال ، ويخرج من طَبَع الأطفال^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا القولُ فممكن والدعوى سهلة ؛ سيّما على مثل الجاحظ ، فإنّه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب ؛ وهو من دَعْوَى الباطل غير بعيد ، معناه نذر ، وقوله لغو ، ومطلبه سجع ، وكلامه لعبٌ ولهو ؛ يقول الشيء وخلافه ، يُحسِّنُ القول وضدّه ؛ ليس له من نفسه واعظ ولا لدعواه حدّ قائم ، وإلا فكيف بأسر على القول بأنّ علياً حينئذ لم يكن مطلوباً ولا طالباً ؛ وقد بينّا بالأخبار الصحيحة ، الحديث المرفوع المسند أنه كان يوم أسلم بالغاً كاملاً منابذاً بلسانه وقلبه لمشركي قريش ،

ثقيلاً على قلوبهم ؛ وهو الخصوص دون أبي بكر بالحِصَار في الشَّعب ؛ وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وآله في تلك الظلمات ؛ المتجرِّع لُغصص المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما ، والمصطلي لكلِّ مكروه والشَّريك لنبيِّه في كلِّ أذى ؛ قد نهض بالحِمل الثَّقِيل ، وبأن بالأمر الجليل ؛ ومَن الذي كان يخرج ليلاً من الشَّعب على هيئة السارق ، ويخفي نفسه ، ويضائل شخصه ؛ حتى يأتى إلى مَنْ يبعثه إليه أبو طالب من كُبراء قريش ، كطعيم بن عدى وغيره ؛ فيحمل ابنى هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح ؛ وهو على أشدَّ خوف من أعدائهم ، كأبي جهل وغيره ، لو ظفروا به لأراقوا دمه . أعلَى كان يفعل ذلك أيام الحصار في الشَّعب ، أم أبو بكر ؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ ، فقال في خطبة له مشهورة : فتعاقدوا ألا يعاملونا ولا يناكحونا ، وأوقدت الحرب علينا نيرانها ، واضطرونا إلى جبل وعُر ؛ مؤمننا يرجو الثواب ، وكافراً يحامى عن الأصل ؛ ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت عليهم ، وقطعوا عنهم المسارَّة والميرة ، فكانوا يتوقعون الموت جوعاً ، صباحاً ومساءً ؛ لا يرون وجهاً ولا فرجاً ، قد اضمحلَّ عزمهم ، وانقطع رجائهم ، فَمَن الذي خلص إليه مكروه تلك المحن بعد محمد صلى الله عليه وآله إلا على عليه السلام وحده ! وما عسى أن يقول الواصف والمطنب في هذه الفضيلة ، مِن تقصِّي معانيها ، وبلوغ غاية كُنْهها ؛ وفضيلة الصابر عندها ! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين ، حتى انفرجت عنهم بقصة الصحيفة ، والقصة مشهورة .

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقول في على عليه السلام : إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافهاً لم يكن مطلوباً ولا طالباً ، وهو صاحب الفراش الذي قدَّى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه ، ووقاه بمهجته ، واحتمل السيوف ورضح الحجارة دونه . وهل ينتهى الواصف وإن أطنب ، والمادح وإن أسهب ، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة ، والإيضاح بمزية هذه الخصيصة !

فَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ عَذَّبَ بِمَكَّةَ ، فَإِنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ الْعَذَابَ كَانَ وَقَعًا إِلَّا بَعِيدٍ أَوْ عَسِيفٌ ^(١) ، أَوْ لَمْ يَلَا عَشِيرَةً لَهُ تَمْنَعُهُ ، فَأَنْتُمْ فِي أَبِي بَكْرٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : تَارَةً تَجْعَلُونَهُ دُخِيَالًا سَاقِطًا ، وَهَجِينًا رَذِيلًا مُسْتَضْعَفًا ذَلِيلًا ، وَتَارَةً تَجْعَلُونَهُ رَئِيسًا مُتَّبَعًا ، وَكَبِيرًا مُطَاعًا ، فَاعْتَمِدُوا عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ لِنَكَلِّكُمْ بِحَسَبِ مَا تَخْتَارُونَهُ لِأَنْفُسِكُمْ . وَلَوْ كَانَ الْفَضْلُ فِي الْفِتْنَةِ وَالْعَذَابِ ، لَكَانَ عَمَّارٌ وَخَبَّابٌ وَبِلَالٌ وَكُلٌّ مَعَذَّبٌ بِمَكَّةَ أَفْضَلُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْعَذَابِ فِي أَكْثَرِ مَا كَانَ فِيهِ ، وَنَزَلَ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ ^(٢) ؛ قَالُوا : نَزَلَتْ فِي خَبَّابٍ وَبِلَالٍ ، وَنَزَلَ فِي عَمَّارٍ قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ^(٣) ؛ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَمُرُّ عَلَى عَمَّارٍ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَهُمْ يَعَذِّبُونَ ، يَعَذِّبُهُمْ بَنُو مُخْزُومٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُمْ ، فَيَقُولُ : « صَبْرًا آلُ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ » ؛ وَكَانَ بِلَالٌ يَقْلَبُ عَلَى الرَّمَضَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدًا وَمَا سَمِعْنَا لِأَبِي بَكْرٍ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ذَكَرًا ، وَلَقَدْ كَانَ لَعَلِّيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَهُ يَدُ غُرَاءَ ، إِنْ صَحَّ مَا رَوَيْتُمُوهُ فِي تَعْذِيبِهِ ، لِأَنَّهُ قَتَلَ نُوْفَلَ بْنَ خُوَيْلِدٍ وَعَمِيرَ بْنَ عُثْمَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، ضَرْبَ نُوْفَلٍ فَقَطَعَ سَاقَهُ ، فَقَالَ : أَذْكَرُكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ ! فَقَالَ : قَدْ قَطَعَ اللَّهُ كُلَّ رَحِمٍ وَصَهْرٍ إِلَّا مَنْ كَانَ تَابِعًا لِلْحَمْدِ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ أُخْرَى فَفَاضَتْ نَفْسُهُ ، وَصَمِدَ لَعَمِيرَ بْنَ عُثْمَانَ التَّمِيمِيَّ ، فَوَجَدَهُ يَرُومُ الْهَرَبَ ، وَقَدْ ارْتَجَجَ عَلَيْهِ الْمَسْلُوكُ ، فَضَرَبَهُ عَلَى شِرَاسِيْفِ صَدْرِهِ ، فَصَارَ نَصْفُهُ الْأَعْلَى بَيْنَ رَجْلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَطْلُبْ بَثَّارَهُ مِنْهُمَا ، وَيَجْتَمِدُ ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ حَتَّى أَنْ يَفْعَلَ فَعَلَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَبَانَ عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِفَعْلِهِ دُونَهُ .

قال الجاحظ : ولأبي بكر مراتب لا يشركه فيها على ولا غيره ، وذلك قبل الهجرة

(٢) سورة النحل ٤١

(١) العسيف : الأجير .

(٣) سورة النحل ١٠٦

فقد علم الناس أن عليا عليه السلام إنما ظهر فضله ، وانتشر صيته ، وامتنحن ولقى المشاق منذ يوم بدر ، وأنه إنما قاتل في الزمان الذى استوفى فيه أهل الإسلام ، وأهل الشرك ، وطعموا في أن يكون الحرب بينهم سجالا ، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبة للمتقين ، وأبو بكر كان قبل الهجرة معذبا ومطرودا مشردا ، في الزمان الذى ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حركة . ولذلك قال أبو بكر في خلافته : طوبى لمن مات في فافأة الإسلام ! يقول : في ضعفه (١) .

قال أبو جعفر رحمه الله : لا أشك أن الباطل خان أبا عثمان ، والخطأ أفعده ، والخذلان أصاره إلى الخيرة ، فما علم وعرف حتى قال ما قال ، فزعم أن عليا عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاق ؛ وأنه إنما قاسى مشاق التكليف وحنّ الابتلاء منذ يوم بدر ، ونسى الحصار في الشعب ، وما مئى به منه ، وأبو بكر وادع رافيه ، يأكل ما يريد ، ويجلس مع من يحب ؛ مخلى سربه ، طيبة نفسه ، ساكنا قلبه ، وعلى يقاسى الغمرات ، ويكابد الأهوال ، ويجوع ويظمأ ، ويتوقع القتل صباحا ومساء ، لأنه كان هو المتوصل المحتال في إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرا ، ليقم به رمق رسول الله صلى الله عليه وآله وبني هاشم ، وهم في الحصار ، ولا يأمن في كل وقت مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله له بالقتل ، كأبي جهل بن هشام وعقبة بن أبى مصيطة ، والوليد بن المغيرة ، وعقبة ابن ربيعة وغيرهم من فراغة قريش وجبايرتها ، ولقد كان يجمع نفسه ويطعم رسول الله صلى الله عليه وآله زاده ، ويظمئ نفسه ويسقيه ماءه ، وهو كان المعلل له إذا مرض ، والمؤنس له إذا استوحش ، وأبو بكر بنجوة عن ذلك لا يمسه مما يمسه ألم ، ولم يلحقه مما يلحقهم مشقة ، ولا يعلم بشيء من أخبارهم وأحوالهم ، إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل ، ثلاث سنين ، محرمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم ، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج

(١) الثمانية ٣٩ ، ٤٠ م تصرف واختصار .

والتصرّف في أنفسهم ، فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة ، ونسى هذه الخِصصة ، ولا نظير لها ! ولكن لا يبالى الجاحظ بعد أن يُسوِّغ له لفظه ، وتنسقه له خطابه ، ما ضيّع من المعنى ، ورجع عليه من الخطأ !

فأما قوله : واعلموا أنّ العاقبة للمتقين ، ففيه إشارة إلى معنى غامضٍ قصده الجاحظ - يعني أن لا فضيلة لعلّي عليه السلام في الجهاد ؛ لأنّ الرسول كان أعلمه أنه منصور ، وأنّ العاقبة له - وهذا من دسائس الجاحظ وهمزاته ولزاته ، وليس بحقٍ ما قاله ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم أصحابه جملةً أنّ العاقبة لهم ؛ ولم يعلم واحداً منهم بعينه أنه لا يُقتل ، لا عليا ولا غيره ، وإن صحّ أنه كان أعلمه أنه لا يُقتل ، فلم يعلمه أنه لا يقطع عضو من أعضائه ؛ ولم يعلمه أنه لا يمسّه ألم الجراح في جسده ، ولم يعلمه أنه لا يناله الضرب الشديد . وعلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر - وهو يومئذ بمكة - أنّ العاقبة لهم ، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك ، فإن لم يكن لعلّي والجاهدين فضيلة في الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إيّاهم ذلك ؛ فلا فضيلة لأبي بكر وغيره في احتمال المشاق قبل الهجرة لإعلامه إيّاهم بذلك ، فقد جاء في الخبر أنّه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنصر ، وأنّه قال له : أرسلت إلى هؤلاء بالذبح ، وإن الله تعالى سيغنمنا أموالهم ، ويمسكنا ديارهم ، فالتقوا في الموضعين متساوٍ ومتفق .

قال الجاحظ : وإنّ بين الحنة في الدهر الذي صار فيه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وآله مقرّنين لأهل مكة ومشركي قريش ، ومعهم أهل يثرب أصحاب النخيل والآطام والشجاعة والصبر والمواساة ، والإيثار والحاماة والعدد الدثّر ، والفعل الجزل ، وبين الدهر الذي كانوا فيه بمكة يُفَتَنون ويُشْتَمون ، ويضربون ويشردون ، ويجوعون ويعطشون ، (١٧ - ١٣ - هـ)

مقهورين لاحتراك بهم ، وأذلاء لا عزّ لهم ، وفقراء لا مال عندهم ، ومستخفين لا يمكنهم إظهار دعوتهم ، لفرقا واضحا ، ولقد كانوا في حال أحوجت لوطا وهو نبي إلى أن قال : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾^(١) ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : «عجبت من أخى لوط ، كيف قال : أو آوى إلى ركن شديد ، وهو يأوى إلى الله تعالى» ثم لم يكن ذلك يوما ولا يومين ولا شهرا ولا شهرين ، ولا عامًا ولا عامين ، ولكن السنين بعد السنين . وكان أغلظ القوم وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، لأنه أقام بمكة ما أقام رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله ثلاث عشرة سنة ، وهو أوسط ما قالوا في مقام النبي صلى الله عليه وآله^(٢) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما نرى الجاحظ احتجّ لكون أبي بكر أعظمهم وأشدّهم محنة ، إلا بقوله : لانه أقام بمكة مدة مقام الرسول صلى الله عليه وآله بها ، وهذه الحجة لا تخصّ أبا بكر وحده ، لأن عليا عليه السلام أقام معه هذه المدة ، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخبّاب وغيرهم ، وقد كان الواجب عليه أن يخصّ أبا بكر وحده بمحنة تدلّ على أنه كان أغلظ الجماعة ، وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاحتجاج في نفسه فاسد .

ثم يقال له : ما بالك أهملت أمر مبيت عليّ عليه السلام على الفراش بمكة ليلة الهجرة ! هل نسيته أم تناسيته ! فإنها الحنة العظيمة والفضيلة الشريفة التي متى امتحنها الناظر ، وأجال فكره فيها ، رأى تحتها فضائل متفرقة ومناقب متغايرة ، وذلك أنه لما استقرّ الخبر عند المشركين أن رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله مجمع على الخروج من بينهم للهجرة

إلى غيرهم قصدوا إلى معالجته ، وتعاقدوا على أن يبيّتوه في فراشه ، وأن يضربوه بأسيايف كثيرة ، بيد كل صاحب قبيلة من قريش سيف منها ، ليضيع دمه بين الشعوب ، ويتفرق بين القبائل ، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلة واحدة بعينها من بطون قريش ، وتحالفوا على تلك الليلة ، واجتمعوا عليها ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك من أمرهم ، دعا أوثق الناس عنده ، وأمثالهم في نفسه ، وأبذلهم في ذات الإله لمجتنسه ، وأسرعهم إجابة إلى طاعته ، فقال له : إن قريشا قد تحالفت على أن تبيّتنى هذه الليلة ، فامض إلى فراشي ، وتم في مضجعي ، والتفت في بردي الحضرمي ليروا أني لم أخرج ، وإني خارج إن شاء الله. فمنعه أوّلاً من التحرّز وإعمال الحيلة ، وصدّه عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المسكايد والجهات التي يحتاط بها الناس لنفوسهم ، وألجأه إلى أن يعرض نفسه لظلمات السيوف الشحيذة من أيدي أرباب الحنق والغيظة ، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطيعاً طيبة بها نفسه ، ونام على فراشه صابراً محتسباً ، واثقاً له بمجتنه ، ينتظر القتل ، ولا نعلم فوق بذل النفس درجة يلتبسها صابر ، ولا يبلغها طالب ؛ « والجود بالنفس أقصى غاية الجود » ؛ ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله علم أنه أهل لذلك ، لَمَا أهله ، ولو كان عنده نقص في صبره أو في شجاعته أو في مناصحته لابن عمه ، واختير لذلك ، لكان من اختاره صلى الله عليه وآله منقوضاً في رأيه ، مضرّاً في اختياره ، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام ، وكلهم مجمعون على أن الرسول صلى الله عليه وآله عمل الصواب ، وأحسن في الاختيار .

ثم في ذلك - إذا تأمله للتأمل - وجوه من الفضل :

منها أنه وإن كان عنده في موضع الثقة ، فإنه غير مأمون عليه ألا يضبط السرّ فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء .

ومنها أنه وإن كان ضابطاً للسرّ وثقة عند من اختاره ؛ فغير مأمون عليه الجنب عند

مفاجأة المكروه ، ومباشرة الأحوال ، فيفرّ من الفراش ، فيفطن لموضع الحيلة ؛ ويطلب رسول الله صلى الله عليه وآله فيظفر به .

ومنها أنه وإن كان ثقةً ضابطاً للسرّ ، شجاعاً نجداً ؛ فلعله غير محتمل للمبيت على الفراش ؛ لأنّ هذا أمرٌ خارج عن الشجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع ؛ بل هو أشدّ مشقة من المكتوف الممنوع ؛ لأنّ المكتوف الممنوع يعلم من نفسه أنه لا سبيل له إلى الهرب ، وهذا يجد السبيل إلى الهرب وإلى الدفع عن نفسه ، ولا يهرّب ولا يدافع .

ومنها أنه وإن كان ثقةً عنده ، ضابطاً للسرّ ، شجاعاً محتملاً للمبيت على الفراش ، فإنه غير مأمون أن يذهب صبره عند العقوبة الواقعة ، والعذاب النازل بساحته ، حتى ييوح بما عنده ؛ ويصير إلى الإقرار بما يعلمه ، وهو أنه أخذ طريق كذا فيطلب فيؤخذ ، فهاذا قال علماء المساهين : إنّ فضيلة عليّ عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها ، إلا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذبح ، ولولا أن الأنبياء لا يفضلهم غيرهم لقلنا : إنّ محنة عليّ أعظم ، لأنه قد روى أن إسحاق تلكاً لما أمره أن يضطجع ، وبكى على نفسه ، وقد كان أبوه يعلم أن عنده في ذلك وقفة ، ولذلك قال له : ﴿ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى ﴾ (١) ؛ وحال عليّ عليه السلام بخلاف ذلك ، لأنه ماتلكاً ولا تتعصّب ، ولا تغتبر لونه ولا اضطربت أعضاؤه ، ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يشيرون عليه بالرأى المخالف لما كان أمر به ، وتقدّم فيه ، فيتركه ويعمل بما أشاروا به ، كما جرى يوم الخندق في مصانعه الأحزاب بثلاث تمر المدينة ، فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه ، وهذه كانت قاعدته معهم ، وعادته بينهم ، وقد كان لعليّ عليه السلام أن يعتلّ بعلّة ، وأن يقفّ ويقول : يا رسول الله ، أكون معك أحبيك من العدو ، وأذبّ بسيفي عنك ، فلست

مستغنياً في خروجك عن مثلي ، ونجعلُ عبداً من عبيدنا في فراشك ، قائماً مقامك ، يتوهم القوم - برؤيته نائماً في بُردك - أنك لم تخرج ، ولم تفارق مركزك ؛ فلم يقل ذلك ، ولا تحبس ولا توقّف ، ولا تلعم ، وذلك لعلم كل واحدٍ منهما صلى الله عليه وآله أن أحداً لا يصبر على ثقل هذه الحنة ، ولا يتورّط هذه الهلكة ؛ إلا من خصّه الله تعالى بالصبر على مشقتها ، والفوز بفضيلتها ، وله من جنس ذلك أفعال كثيرة ، كيوم دعا عمرو بن عبدود المساهين إلى المبارزة ، فأحجم الناس كلهم عنه ، لما علموا من بأسه وشدّته ، ثم كرّر النداء ، فقام على عليه السلام ، فقال : أنا أبرزُ إليه ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله : إنه عمرو ! قال : نعم ، وأنا على ! فأمره بالخروج إليه ، فلما خرج قال صلى الله عليه وآله : « برز الإيمان كله إلى الشرك كله » ، وكيوم أحد حيث حمى رسولُ الله صلى الله عليه وآله من أبطال قريش وهم يقصدون قتله ، فقتلهم دونه ، حتى قال جبريل عليه السلام : « يا محمد إن هذه هي المواساة » ، فقال : « إنه منى وأنا منه » ، فقال جبريل : « وأنا منكما » . ولو عددنا أيامه ومقاماته التي شرى فيها نفسه لله تعالى لأطلنا وأسهبنا .

قال الجاحظ : فإن احتجّ محتجّ على عليه السلام بالمبيت على الفراش ، فبين الغار والفراش فرق واضح ، لأن الغار وصحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وآله قد نطق به القرآن ، فصار كالصلاة والزكاة وغيرهما مما نطق به الكتاب ، وأمر على عليه السلام ونومه على الفراش ، وإن كان ثابتاً صحيحاً ، إلا أنه لم يذكر في القرآن ، وإنما جاء مجيء الروايات والسّير ، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله ^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا فرق غير مؤثّر ، لأنه قد ثبت بالتواتر حديث

الفراش ، فلا فرق بينه وبين ما ذكر في نص الكتاب ، ولا يحدده إلا مجنون أو مخاطر لأهلى الملة ، رأيت كون الصلوات خمساً ، وكون زكاة الذهب ربع العشر ، خروج الريح ناقضاً للطهارة ، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتر حكمه ؟ هل هو مخا نص في الكتاب عاينه من الأحكام ! هذا مما لا يقوله رشيد ولا عاقل ، على أن الله لم يذكر اسم أبى بكر في الكتاب ، وإنما قال : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ ^(١) ، وإنما أنه أبو بكر بالخبر وما ورد في السيرة ، وقد قال أهل التفسير : إن قوله تعالى : ﴿ وَآيَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ أَلْمَا كَرِينَ ﴾ ^(٢) كناية عن علي عليه السلام ، لأنه مكر بهم ، الآية : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَمَكَرَ اللَّهُ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ أَلْمَا كَرِينَ ﴾ ^(٣) ، أنزلت في ليلة الهجرة ، ومكرهم كان تو السيف على بطون قريش ، ومكر الله تعالى وو منام علي عليه السلام على الفراش فرق بين الموضعين في أنهما مذكوران كناية لا تصريحاً . وقد روى المفسرون كل قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أُبْتَعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) ، أنزله علي عليه السلام ليلة المبيت على الفراش ، فهذه مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا .

قال الجاحظ : وفرق آخر ، وهو أنه لو كان مبيت علي عليه السلام على الفراش جاء مجيء كون أبى بكر في الغار ، لم يكن له في ذلك كبير طاعة ، لأن النياقين نقلوا صلى الله عليه وآله قال له : « تَمَّ فَلَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ » ، ولم ينقل ناقل

(٢) سورة الأنفال ٣٠

(١) سورة التوبة ٤٠

(٣) سورة البقرة ٢٠٧

قال لأبي بكر في صُحبته إياه وكونه معه في الغار مثل ذلك ، ولا قال له: أنفق وأعتق ، فإنك لن تفتقر ، ولن يصل إليك مكروه^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا هو الكذب الصراح ، والتحريف والإدخال في الرواية مالم يس منها ، والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وآله قال له : اذهب فاضطجع في مضجعي ، وتغشَّ بِبُرْدِي الحضرمي ، فإنَّ القوم سيفقدوني ، ولا يشهدون مضجعي ، فاعلمهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا ، فإذا أصبحت فاعُدْ في أداء أمانتي ، ولم ينقل ما ذكره الجاحظ ، وإنما ولده أبو بكر الأصم ، وأخذه الجاحظ ، ولا أصل له ، ولو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه ، وقد وقع الاتفاق على أنه ضُرب ورمى بالحجارة قبل أن يعلموا مَنْ هو حتى تصور ، وأنهم قالوا له : رأينا تصوّرَكَ ، فإننا كنا نرمي محمداً ولا يتصور ، ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتل ، فهب أنه آمن القتل ، كيف يأمن من الضرب والهوان ، ومن أن ينقطع بعض أعضائه ، وبأن سامت نفسه ! أليس الله تعالى قال لنبيه : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾^(٢) ومع ذلك فقد كسرت رباعيته وشجَّ وجهه ، وأدميت ساقه ، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصّة ، وكذلك المكروه الذي أوْمِنَ على عليه السلام منه - وإن كان صحَّ ذلك في الحديث - إنما هو مكروه القتل .

ثم يقال له : وأبو بكر لا فضيلة له أيضاً في كونه في الغار ، لأنَّ النبي صلى الله عليه وآله قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، ومن يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كلِّ سوء ، فكيف قلت : ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في الغار مثل ذلك ! فكلَّ ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عما أوردته ، فنقول له : هذا ينقلبُ عليك في النبي صلى الله عليه وآله

لأنَّ الله تعالى وعده بظهور دينه ، وعاقبة أمره ، فيجب على قولك ألا يكون مثاباً عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه ، ولا ما يصيبه من الأذى إذ كان قد أيقن بالسلامة والفتح في عِدَّتِهِ .

قال الجاحظ : ومن جحد كون أبي بكرٍ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كفر ؛ لأنه جحد نص الكتاب ، ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (١) من الفضيلة لأبي بكر ، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله في كون الله تعالى معه وإنزال السكينة ، قال كثير من الناس : إنه في الآية مخصوص بأبي بكر ، لأنه كان محتاجاً إلى السكينة لما تداخله من رقة الطبع البشري ، والنبي صلى الله عليه وآله كان غير محتاج إليها ، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى ، فلا معنى لنزول السكينة عليه ، وهذه فضيلة ثالثة لأبي بكر .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إن أبا عثمان يجرّ على نفسه مالا طاقة له به من مطاعن الشيعة ، ولقد كان في غُنية عن التعلّق بما تعلّق به ، لأن الشيعة تزعم أن هذه الآية ، بأن تكون طعنًا وعيبًا على أبي بكر ، أولى من أن تكون فضيلة ومنقبة له ، لأنه لما قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ دلّ على أنه قد كان حزن وقنيط وأشفق على نفسه ، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين ، ولا يجوز أن يكون حزنه طاعة ، لأن الله تعالى لا ينهى عن الطاعة ، فلو لم يكن ذنباً لم ينه عنه ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى إن الله عالم بحالنا وما نضمه من اليقين أو الشك ، كما يقول الرجل لصاحبه : لا تضمّن سوءاً ولا تنوين قبيحاً ، فإن الله تعالى يعلم ما نسرّه وما نعلنه ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ﴾ (٢) ، أى هو عالم بهم ، وأما السكينة

كفيف يقول : إنها ليست راجعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وبعدها قوله : ﴿وَأَيَّدَهُ
بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ، أترى المؤيد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله
عليه وآله !

وقوله : إنه مستغن عنها ، ليس بصحيح ولا يستغنى أحد عن ألطف الله وتوفيقه
وتأييده وتثبيت قلبه ، وقد قال الله تعالى في قصة حُنين : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحَبَتْ لَكُمْ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ ^(١) صلى الله
عليه وآله .

وأما الصحبة فلا تدلّ إلّا على المرافقة والاصطحاب لا غير ، وقد يكون حيث
لا إيمان ، كما قال تعالى : ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ ^(٢) ،
ونحن وإن كنا نفتقد إخلاص أبي بكر وإيمانه الصحيح التسليم وفضيلته التامة ، إلّا أنّنا
لا نحتجّ له بمثل ما احتجّ به الجاحظ من الحجج الواهية ، ولا نتعلّق بما يجرّ علينا دواهي
الشيعة ومطاعنها .

قال الجاحظ : وإن كان المبيت على الفراش فضيلة ، فأين هي من فضائل أبي بكر
أيام مكة ، من عتق المذّبين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين ، مع فرق ما بين الطاعتين ،
لأنّ طاعة الشابّ الغرير والحدث الصغير الذي في عزّ صاحبه عزّه ، ليست كطاعة
الحليم الكبير الذي لا يرجع تسويدُ صاحبه إلى رهطه وعشيرته .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا كثرة المستجيبين ، فالفضل فيها راجع إلى الحبيب

(١) سورة التوبة ٢٥ ، ٢٦ (٢) سورة الكهف ٣٤

لا إلى الجبابرة ، على أننا قد علمنا أن من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممن استجاب لنوح عليه السلام ، وثواب نوح أكثر ، لصبره على الأعداء ، ومقاساة خلافهم وعنتهم . وأما إنفاق المال ؛ فأين محنة الغنى من محنة الفقر ! وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غنى ؛ إن جاع أكل ، وأن أعيار كعب ، وإن عرى لبس ، قد وثق ببساره واستغنى بماله ، واستعان على نوائب الدنيا بثروته ، ممن لا يجد قوت يومه ، وإن رجد لم يستأثر به ، فكان الفقر شعاره ، وفي ذلك قيل : الفقر شعار المؤمن . وقال الله تعالى لموسى : « يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً ، قل : مرحبا بشعار الصالحين » ، وفي الحديث : « إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » ، وكان النبي صلى الله عليه وآله يقول : « اللهم احشروني في زمرة الفقراء » ، ولذلك أرسل الله محمداً صلى الله عليه وآله فقيراً ، وكان بالفقر سعيداً ، فقامى محنة الفقر ومكابدة الجوع ، حتى شدد الحجر على بطنه ، وحسبك بالفقر فضيلة في دين الله لمن صبر عليه ، فإنك لا تجد صاحب الدنيا يتمناه ، لأنه منافٍ لحال الدنيا وأهلها ، وإنما هو شعار أهل الآخرة .

وأما طاعة علي عليه السلام ، وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأن في عز محمد عزه وعز رهطه ، بخلاف طاعة أبي بكر ، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك ، وجهاد عبيدة بن الحارث ، وهجرة جعفر إلى الحبشة ؛ بل لعل محاماة المهاجرين من قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله كانت لأن في دولته دولتهم ، وفي نصرته استجداد ملك لهم ، وهذا يجرّ إلى الإلحاد ، ويفتح باب الزندقة ، ويُفضى إلى الطعن في الإسلام والنبوة .

قال الجاحظ : وعلى أننا لو نزلنا إلى ما يريدونه ، جعلنا الفراش كالغار ، وخالصت فضائل أبي بكر في غير ذلك عن معارض .
قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : قد بينا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الصحبة

في الغار ، بما هو واضح لمن أنصف ، ونزيد هاهنا تأكيداً بما لم نذكره فيما تقدم ، فنقول :
إنّ فضيلة المبيت على الفراش على الصُّحبة في الغار لوجهين :
أحدهما : أنّ عليّاً عليه السلام قد كان أنس بالنبيّ صلى الله عليه وآله وحصل له
بمصاحبتة قديماً أنسٌ عظيمٌ ، وإلف شديد ، فلما فارقهُ عُدِمَ ذلك الأنس ، وحصل به
أبو بكر ، فكان ما يجده علىّ عليه السلام من الوحشة وألم الفرقة موجباً لزيادة ثوابه ، لأنّ
الثواب على قدر المشقة .

وثانيهما : أنّ أبا بكر كان يؤثر الخروج من مكة ، وقد كان خرج من قبل فرداً ،
فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وافق ذلك هوى قلبه ،
ومحبوب نفسه ، فلم يكن له من الفضيلة ما يوازي فضيلة من احتمل المشقة العظيمة ،
وعرض نفسه لوقع السيوف ، ورأسه لرضخ الحجارة ، لأنّه على قدر سهولة العبادة يكون
نقصان الثواب .

قال الجاحظ : ثمّ الذي لقي أبو بكر في مسجده الذي بناه على بابه في بني جُحج ، فقد
كان بنى مسجداً يصلى فيه ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، وكان له صوت رقيق ، ووجه
عتيقٌ ، وكان إذا قرأ بكى ، فيقف عليه المارة من الرجال والنساء والصبيان والعبيد ، فلما
أوذى في الله ، ومُنِعَ من ذلك المسجد ، استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله في الهجرة
فأذن له ، فأقبل يريد المدينة ، فتلقاه الكنانى^(١) ، فعقد له جواراً ، وقال : والله لأدعُ مثلك
يخرج من مكة ، فرجع إليها وعاد لصنيعه في المسجد ، فمشت قریش إلى جاره الكنانى ،
وأجلبوا عليه ، فقال له : دع المسجد وادخل بيتك ، واصنع فيه ما بدا لك^(٢) .

(١) الكنانى ؛ هو مالك بن الدغنة ، أحد بني الحارث بن بكر بن عبد مناة .

(٢) العثمانية ٢٨ ، ٢٩ مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : كيف كانت بنو مُجَمِّح تؤذى عثمان بن مَظْعُون ونضربه ، وهو فيهم ذو سَطْوَةٍ وَقَدِيرٌ ، وتترك أبا بكر بيني مسجداً يفعل فيه ما ذكرتم ، وأنتم الذين رويت عن ابن مسعود أنه قال : « ماصِلينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب » ، والذي تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر ، فكيف هذا !

وأما ذكرتم من رقة صوته وعَتَاق وجهه ، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدي وغيره أن عائشة رأت رجلاً من العرب خفيف العارضين ، معروق الخدين ، غائر العينين ، أجناً^(١) لا يمسك إزاره ، فقالت : ما رأيت أشبه بأبي بكر من هذا ؟ فلا نراها دلت على شيء من الجمال في صفته !

قال الجاحظ : وحيث ردّ أبو بكر جوار الكنانى ، وقال : لأريد جارا سوى الله ، لقي من الأذى والنل والاستخفاف والضرب ما بلغكم ، وهذا موجود في جميع السير ، وكان آخر ما لقي هو وأهله في أمر الغار ، وقد طلبته قريش وجعلت فيه مائة بعير ، كما جعلت في النبي صلى الله عليه وآله ، فلقي أبو جهل أسماء بنت بكر ، فسألها فكتمته ، فلطمها حتى رمت قرطاً كان في أذنها^(٢).

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا الكلام وهجر السكران سواء ، في تقارب المخرج ، واضطراب المعنى ، وذلك أن قريشا لم تقدّر على أذى النبي صلى الله عليه وآله ، وأبو طالب حتى يمنعه ؛ فلما مات طلبته لتقتله ، فخرج تارة إلى بني عامر ، وتارة إلى ثقيف ، وتارة إلى بني شيبان ، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكة إلا مستتراً ، حتى أجاره مطعم بن عدى ، ثم خرج إلى المدينة ، فبذلت فيه مائة بعير لشدة حنقها عليه حين فاتها ، فلم تقدر عليه ، فما بالها بذلت في أبي بكر مائة بعير أخرى ، وقد كان ردّ الجوار ، وبقي بينهم فرداً لا ناصر له

(١) الأجنا ، من الجنأ وهو ميل الظهر (٢) العمانية ٢٩ ، مع تصرف واختصار .

ولادافع عنده ، يصنعون به ما يريدون ! إما أن يكونوا أجهل البرية كلها أو يكون العثمانية أ كذب جيل في الأرض وأوقعه وجهها ! فهذا مما لم يذكر في سيرة ولا روى في أثر ، ولا سمع به بشر ، ولا سبق الجاحظ به أحد !

قال الجاحظ : ثم الذي كان من دعائه إلى الاسلام وحسن احتجاجه ، حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وثمان وعبد الرحمن ، لأنه ساعة أسلم دعا إلى الله وإلى رسوله (١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما عجب هذا القول ؛ إذ تدعى العثمانية لأبي بكر الرفق في الدعاء وحسن الاحتجاج ، وقد أسلم ومعه في منزله ابنه عبد الرحمن ، فما قدر أن يدخله في الإسلام طوعاً برفقه ولطف احتجاجه ، ولا كرهاً بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه عليه ، ولا كان لأبي بكر عند ابنه عبد الرحمن من القدر ما يطيعه فيما يأمره به ، ويدعوه إليه ؛ كما روى أن أبا طالب فقد النبي صلى الله عليه وآله يوماً ، وكان يخاف عليه من قريش أن يقتلوه ، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلبان النبي صلى الله عليه وآله ، فوجده قائماً في بعض شعاب مكة يصلي ، وعلى عليه السلام معه عن يمينه ، فلما رآها أبو طالب ، قال لجعفر : تقدم وصل جناح ابن عمك ، فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وآله ، فلما صاروا ثلاثة تقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وآله وتأخر الأخوان ، فبكى أبو طالب ، وقال :

إن علياً وجعفرًا ثقتي عند ملئم الخطوب والثوب (٢)
لا تخذلاً وانصرا ابن عمكما أخى لأمي من بينهم وأبي
والله لا أخذل النبي ولا يخذله من بني ذو حسب

فذكر الرواة أنّ جعفرًا أسلم منذ ذلك اليوم؛ لأنّ أباه أمره بذلك وأطاع أمره؛ وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن في الإسلام حتى أقام بمكة على كفره ثلاث عشرة سنة، وخرج يوم أُحُد في عسكر المشركين ينادى : أنا عبد الرحمن بن عتيق ، هل من مبارز؟ ثم مكث بعد ذلك على كفره ، حتى أسلم عام الفتح ، وهو اليوم الذي دخلت فيه قريش في الإسلام طوعا وكرها ، ولم يجد أحدًا منها إلى ترك ذلك سبيلا أو أين كان رفق أبي بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبي قحافة وهاني دار واحدة ! هلا رفق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم ! وقد علمتم أنه بقي على الكفر إلى يوم الفتح ، فأحضره ابنه عند النبي صلى الله عليه وآله وهو شيخ كبير رأسه كالثغامة^(١) ، فنفر رسول الله صلى الله عليه وآله منه ، وقال : غيروا هذا ؛ فحصبوه ، ثم جاءوا به مرة أخرى ، فأسلم . وكان أبو قحافة فقيرا مدقعاسيئ الحال ، وأبو بكر عندهم كان مثيرا فائض المال ، فلم يمكنه استمالته إلى الإسلام بالنفقة والإحسان ، وقد كانت امرأة أبي بكر أم عبد الله ابنة - واسمها ثملة بنت عبد العزى بن أسعد بن عبد بن ودّ العامرية - لم تسلم ، وأقامت على شركها بمكة ، وهاجر أبو بكر وهي كافرة ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ ﴾^(٢) ، فطلقها أبو بكر ، فمن عجز عن ابنه وأبيه وامراته فهو عن غيرهم من الغرماء أعجز ، ومن لم يقبل منه أبوه وابنهم وامراته لا برفق واحتجاج ، ولا خوفا من قطع النفقة عنهم ، وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقلّ قبولا منه ، وأكثر خلافا عليه !

قال الجاحظ : وقالت أسماء بنت أبي بكر : ما عرفتُ أبي إلّا وهو يدين بالدين ، ولقد رجع إلينا يوم أسلم ، فدعانا إلى الإسلام ، فإرمانا حتى أسلمنا ، وأسلم أكثر جلسائه ، ولذلك قالوا : مَنْ أسلم بدعاء أبي بكر أكثر ممن أسلم بالسيف ، ولم يذهبوا في ذلك إلى العدد ؛ بل عَنَوْا الكثرة في القدر ، لأنه أسلم على يديه خمسة من أهل الشورى ،

(١) الثغام : كسحاب : ضرب من النبات أبيض . (٢) سورة المتحنة ١٠

كلهم يصلح للخلافة ، وهم أكفاء على عليه السلام ، ومنازعه الرياسة والإمامة ، فهو لاء
أكثر من جميع الناس^(١) :

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أخبرونا من هذا الذي أسلم ذلك اليوم من أهل بيت
أبي بكر ؟ إذا كانت امرأته لم تسلم وابنته عبد الرحمن لم يسلم ، وأبو حنيفة لم يسلم ، وأخته أم فروة
لم تسلم ، وعائشة لم تكن قد ولدت في ذلك الوقت ، لأنها ولدت بعد مبعث النبي صلى الله
عليه وآله بخمس سنين ، ومحمد بن أبي بكر ولد بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث
وعشرين سنة ، لأنه ولد في حجة الوداع ، وأسماء بنت أبي بكر التي قد روى الجاحظ
هذا الخبر عنها كانت يوم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بنت أربع سنين - وفي رواية
من يقول : بنت سنتين - فمن الذي أسلم من أهل بيته يوم أسلم ! نعوذ بالله من الجهل
والكذب والمكابرة ! وكيف أسلم سعد والزبير وعبد الرحمن بدعاء أبي بكر وليسوا من
رهطه ولا من أتراكه ولا من جلسائه ، ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدمة ، ولا أنس
وكيد ! وكيف ترك أبو بكر عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، لم يدخلهما في الإسلام
برفقته وحسن دعائه ، وقد زعمت أنهما كانا يجلسان إليه لعلهما وطريف حديثه ! وما باله
لم يدخل جبير بن مطعم في الإسلام ، وقد ذكرتم أنه أدبه وخرجه ، ومنه أخذ جبير العلم
بأنساب قريش وما أثرها ! فكيف عجز عن هؤلاء الذين عدناهم ، وهم منه بالحال التي
وصفنا ، ودعا من لم يكن بينه وبينه أنس ولا معرفة ، إلا معرفة عيان ! وكيف لم يقبل منه
عمر بن الخطاب ، وقد كان شكله ، وأقرب الناس شبيهاً به في أغلب أخلاقه ! ولئن رجعت
إلى الإنصاف لتعلمن أن هؤلاء لم يكن إسلامهم إلا بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله لهم ،
وعلى يديه أسلموا ، ولو فكرتم في حسن التأقي في الدعاء ؛ ليصحن لأبي طالب في ذلك

(١) العثمانية ٣١ - ٣٢ ، مع تصرف واختصار .

على شرّ كه أضعاف ما ذكرتموه لأبي بكر ، لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعليّ عليه السلام : يا بني الزمه ، فإنه لن يدعوك إلا إلى خير ، وقال لجعفر : صلّ جناح ابن عمك ، فأسلم بقوله ، ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة من بني مخزوم ، وبني سهم ، وبني جحج ، ولأجله صبر بنو هاشم على الحصار في الشعب ، وبدعائه وإقباله على محمد صلى الله عليه وآله أسامت امرأته فاطمة بنت أسد ، فهو أحسن رفقا ، وأمين نقيّة من أبي بكر وغيره ، وإلّا ما منعه عن الإسلام أن ثبت أنه لم يسلم إلا تقيّة ، وأبو بكر لم يكن له إلا ابن واحد ، وهو عبد الرحمن ، فلم يمكنه أن يدخله في الإسلام ، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلة الأذى لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه أنزل : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِيَا أَبْنِيَّ أَفِّ لَكَ مَا تَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(١) ، وإنما يعرف حسن رفق الرجل وتأتيه بأن يصلح أولا أمر بيته وأهله ، ثم يدعو الأقرب فالأقرب ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما بعث كان أول من دعا زوجته خديجة ، ثم مكفوله وابن عمه عليا عليه السلام ، ثم مولاه زيدا ، ثم أم أيمن خادمته ؛ فهل رأيتم أحدا ممن كان يأوي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله لم يسارع ! وهل التأت عليه أحدا من هؤلاء ! فهكذا يكون حسن التأتى والرفق في الدعاء ! هذا ورسول الله مقلّ ، وهو من جملة عيال خديجة حين بعثه الله تعالى ، وأبو بكر عندكم كان مؤسرا ، وكان أبوه مقترا ، وكذلك ابنه وامرأته أم عبد الله ، والموسر في فطرة العقول أولى أن يتبع من المقتّر ، وإنما حسن التأتى والرفق في الدعاء ما صنع مضعب بن عمير لسعد بن معاذ لما دعاه ، وما صنع سعد بن معاذ ببني عبد الأشهل لما دعاهم وما صنع بريدة بن الحصيب بأسلم لما دعاهم ، قالوا : أسلم بدعائه ثمانون بيتا من قومه ،

وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سعد في يوم واحد، وأمّا من لم يسلم ابنه ولا امرأته، ولا أبوه ولا أخته بدعائه فهيئات أن يوصف ويذكر بالرفق في الدعاء وحسن التأني والأناة !
قال الجاحظ : ثم أعتق أبو بكر بعد ذلك جماعة من المعتدين في الله ، وهم ست رقاب ، منهم بلال ، وعامر بن فهيرة ، وزينة النهديّة ، وابنتها . ومرّ بجارية يعدّها عمر بن الخطاب فابتاعها منه ، وأعتقها ، وأعتق أبا عيسى فأنزل الله فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ... ﴾ ^(١) ، إلى آخر السورة .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا بلال وعامر بن فهيرة ، فإنما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، روى ذلك الواقدي وابن إسحاق وغيرهما ، وأمّا باقي مواليتهم الأربعة ، فإن سألناكم في دعواكم لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال لشدة بغض مواليتهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها ، فأبى نفي في هذا ! وأمّا الآية فإن ابن عباس قال في تفسيرها : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ، أى لأن يعود .
وقال غيره : نزلت في مصعب بن عمير .

قال الجاحظ : وقد علمتم ما صنع أبو بكر في ماله ، وكان ماله أربعين ألف درهم ، فأنفقه في نوائب الإسلام وحقوقه ، ولم يكن خفيف الظهر ، قليل العيال والنسل ، فيكون فاقده جميع اليسارين ، بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم ، ويعول والديه ومولدا ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وآله قبل ذلك عنده مشهورا ، فيخاف العار في ترك مواساته ، فكان إنفاقه على الوجه الذي لا نجد في غاية الفضل مثله ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله : « ما نفعني مالٌ كما نفعني مال أبي بكر » .

(١) سورة الليل •

فـ شيخنا أبو جعفر رحمه الله ، أخبرونا على أى نوائب الإسلام أنفق هذا المال ،
 وفى أى وجه وضعه ؛ فإنه نيس بجائز أن يخفى ذلك ويدرس حتى يفوت حفظه ، وينسى
 ذكره ، وأنتم فـمـ تتقوا على شىء أكثر من عتقه بزعمكم ست رقاب لعالم لا يبلغ ثمنها
 فى ذلك العصر مائة درهم . وكيف يدعى له الإنفاق الجليل ، وقد باع من رسول الله صلى
 الله عليه وآله بعيرين عند خروجه إلى يثرب ، وأخذ منه الثمن فى مثل تلك الحال ، وروى
 ذلك جميع محدثين ، وقد رويتم أيضا أنه كان حيث كان بالمدينة غنيا موسرا ، ورويتم
 عن عائشة أنها قالت : هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم ، وقلتم إن الله تعالى أنزل
 فيه : ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى... ﴾ ^(١) ، قلتم : هى
 فى أبى بكر ومسطح بن أثانة ، فأين الفقر الذى زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة ورويتم
 أن الله تعالى فى سمائه ملائكة قد تخللوا بالعباءة . وأن النبى صلى الله عليه وآله رآهم ليلة
 الإسراء ، فسأل جبرائيل عنهم فقال : هؤلاء ملائكة تأسوا بأبى بكر بن أبى قحافة
 صديقك فى الأرض ، فإنه سينفق عليك ماله ، حتى يتخلل عباءة فى عنقه ، وأنتم أيضا
 رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ
 فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ... ﴾ ^(٢) ، الآية لم يعمل بها إلا على
 ابن أبى طالب وحده ، مع إقراركم بفقره وقلة ذات يده ، وأبو بكر فى الحال التى ذكرنا
 من السعة أمسك عن مناجاته ، فعاتب الله المؤمنين فى ذلك ، فقال : ﴿ أَلَسْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا
 بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ... ﴾ ، فجعله سبحانه ذنباً
 يتوب عليهم منه ، وهو إمساكهم عن تقديم الصدقة ، فكيف سخّط نفسه بإنفاق أربعين
 ألفاً ، وأمسك عن مناجاة الرسول ، وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين !
 وأما ما ذكر من كثرة عياله ونفقته عليهم ، فليس فى ذلك دليل على تفضيله ، لأن

نفقته على عياله واجبة ، مع أن أرباب السيرة ذكروا أنه لم يكن ينفق على أبيه شيئاً، وأنه كان أجيراً لابن جُدعان على مائدته يطرد عنها الذبان .

قال الجاحظ : وقد تعلمون ما كان يلقي أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ببطن مكة من المشركين ، وحسن صنيع كثير منهم ؛ كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسه ففلق هامته، وأبو جهل يومئذ سيد البطحاء ورئيس الكفر ، وأمنع أهل مكة ، وقد عرفتم أن الزبير سل سيفه، واستقبل به المشركين ، لما أرجف أن محمداً صلى الله عليه وآله قد قتل ، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم : لا يُعبد الله سراً بعد اليوم، وأن سعداً ضرب بعض المشركين بلحى جهل ، فأراق دمه ، فكل هذه الفضائل لم يكن لعلي بن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا ﴾ (١) ؛ فإذا كان الله تعالى قد فضل من أنفق قبل الفتح ، لأنه لا هجرة بعد الفتح ، على من أنفق بعد الفتح ، فما ظنكم بمن أنفق من قبل الهجرة ، ومن لدن مبعث النبي صلى الله عليه وآله إلى الهجرة وإلى بعد الهجرة (٢) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم ، ولسنا كالإمامية الذين يحملهم الهوى على جحد الأمور الملوثة ، ولكننا ننكر تفضيل أحد من الصحابة على علي بن أبي طالب ، ولسنا ننكر غير ذلك ، وننكر تعصب الجاحظ للعُمانيّة ، وقصده إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والإبطال . وأما حمزة فهو عندنا ذو فضل عظيم ، ومقام جليل ، وهو سيد الشهداء الذين استشهدوا على عهد رسول الله

صلى الله عليه وآله ، وأما فضل عمر فغير منكر ، وكذلك الزبير وسعد ، وليس فيما ذكر ما يقتضى كون علي عليه السلام مفضولاً لهم أو لغيرهم ، إلا قوله : « وكل هذه الفضائل لم يكن لعل عليه السلام فيها ناقة ولا جمل » ، فإن هذا من التعصب البارد ، والخياف الفاحش ، وقد قدمنا من آثار علي عليه السلام قبل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص ، ماهو أفضل وأعظم وأشرف من جميع ما ذكر لهؤلاء ، على أن أرباب السيرة يقولون : إن الشجّة التي شجّها سعد ، وإن السيف الذي سلّه الزبير ، هو الذي جلب الحصار في الشعب على النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم ، وهو الذي سيّر جعفرأ وأصحابه إلى الحبشة ، وسلّ السيف في الوقت الذي لم يؤمر المسلمون فيه بسلّ السيف غير جائز ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (١) ، فتبين أن التكليف له أوقات ، فمنها وقت لا يصاح فيه سلّ السيف ، ومنها وقت يصلح فيه ويجب ، فأما قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ ﴾ ، فقد ذكرنا ما عندنا من دعواهم لأبي بكر لإنفاق المال . وأيضاً فإن الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفرداً ، وإنما قرن به القتال ، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحرب ، فلا تشمل الآية ، وكان علي عليه السلام صاحب قتال وإنفاق قبل الفتح ، أما قتاله فمعلوم بالضرورة ، وأما إنفاقه فقد كان على حسب حاله وفقره ، وهو الذي أطعم الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، وأنزلت فيه وفي زوجته وابنيه سورة (٢) كاملة من القرآن ، وهو الذي ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهماً سرّاً ودرهماً علانية ليلاً ، ثم أخرج منها في النهار درهماً سرّاً ودرهماً علانية ، فأنزل فيه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (٣) ، وهو الذي قدم بين يدي نجواه صدقة

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) زعم بعض غلاة الشيعة ، أنه أنزلت فيهم سورة مختلفة ، وانظر فصل الخطاب لحسين بن محمد الطبرسي ١٥٦ ، وحواشي ملحق العثمانية ٣١٩ .

(٣) سورة البقرة ٢٤٧

دون المسلمين كافة ، وهو الذى تصدق بخاتمته وهو راع ، فأنزل الله فيه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
رَاكِعُونَ ﴾ (١) .

قال الجاحظ : والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علي عليه السلام قتله الأقران ،
وخوضه الحرب ، وليس له فى ذلك كبير فضيلة ؛ لأن كثرة القتل والمشي بالسيف إلى
الأقران ، لو كان من أشد الحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدم ،
لوجب أن يكون للزبير وأبى دجانة ومحمد بن مسلمة ، وابن عفرأ ، والبراء بن مالك
من الفضل ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا
ولم يحضر الحرب يوم بدر ، ولا خالط الصفوف . وإنما كان معتزلا عنهم فى العريش
ومعه أبو بكر ، وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران ، ويحيد الأبطال ، وفوقه من
العسكر من لا يقتل ولا يبارز ، وهو الرئيس أو ذى الرأى ، والمستشير فى الحرب ، لأن
الرؤساء من الاكتراث والاهتمام وشغل البال والعناية والتفقد ما ليس لغيرهم ، ولأن الرئيس
هو المخصوص بالمطالبة ، وعليه مدار الأمور ، وبه يستبصر المقاتل ، ويستنصر ، وباسمه ينهزم
العدو ، ولو لم يكن له إلا أن الجيش لو ثبت وفرّ هو لم يغن ثبوت الجيش كله ، وكانت
الدبرة عليه ، ولو ضيع القوم جميعا وحفظ هو لا تنتصر وكانت الدولة له ، ولهذا لا يضاف
النصر والمهزيمة إلا إليه ، ففضل أبن بكر بمقامه فى العريش مع رسول الله يوم بدر أعظم من
جهاد علي عليه السلام ذلك اليوم ، وقتله أبطال قريش .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : لقد أعطى أبو عثمان مقولا ، وحُرِمَ معقولا ، إن كان

يقول هذا على اعتقاد وجدّ ، ولم يذهب به مذهب اللعب والمزل ، أو على طريق التفاسيح والتشادق وإظهار القوة ، والصلاح وذلافة اللسان وحادّة الخاطر والقوّة على جدال الخصوم ؛ ألم يعلم أبو عثمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أشجع البشر ، وأنّه خاض الحروب ، وثبت في المواقف التي طاشت فيها الأبواب ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ فمنها يوم أحد ، ووقوفه بعد أن فرّ المسلمون بأجمعهم ، ولم يبق معه إلا أربعة : عليّ ، والزبير ، وطليحة ، وأبو دجانة ، فقاتل ورمى بالنبل حتى قنيت نبله ، وانكسرت سيّة قوسه ، وانهطت وتره ، فأمر عكاشة بن محصن أن يوترها ، فقال : يا رسول الله : لا يبلغ الوتر ، فقال : أوتر ما بلغ . قال عكاشة : فوالذي بعثه بالحق لقد أوترت حتى بلغ ، وطويت منه شبراً على سيّة القوس ، ثم أخذها فإزال يرميهم ، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطّمت . وبارز أبي بن خلف ، فقال له أصحابه : إن شئت عطف عليه بعضنا إفاًبى ، وتناول الحربة من الحارث بن الصّمة ثم انتقض بأصحابه ، كما ينتقض البعير ، قالوا : فتطايّرنا عنه تطايّر الشعاري (١) ، فطعنه بالحربة ، فجعل يخور كما يخور النور ، ولو لم يدلّ على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ ﴾ (٢) ، فكونه عليه السلام في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون ، هاربين ؛ دليل على أنّه ثبت ولم يفرّ ، وثبت يوم حنين في تسعة من أهله ورهطه الأذنين ، وقد فرّ المسلمون كلّهم والنفر التسعة محدقون به : العباس أخذ بحكّمة بغلته ، وعليّ بين يديه مصلي سيفه ، والباقون حول بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله يمينه ويسرة ، وقد انهزم المهاجرون والأنصار ، وكلّوا فرّوا أقدم هو صلى الله عليه وآله وصمّ مستقديماً ، يلتقى السيوف والنبال بنجره وصدره ، ثم أخذ كفّاً من

(١) الشعاري : ما يجتمع على ديرة البعير من الذبان ، فإذا هيجت تطايرت عنها .

(٢) سورة آل عمران ١٥١

البطحاء ، وحَصَبَ المشركين ، وقال : شأنت الوجوه ! والخبر المشهور عن علي عليه السلام ، وهو أشجع البشر : « كنّا إذا اشتدّ البأس ، وحجى الوطيس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله ولُدْنَا به » ، فكيف يقول الجاحظ : إنه ما خاض الحرب ، ولا خالط الصفوف ! وأي فِرْية أعظم من فِرْية مَنْ نسب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإحجام واعتزال الحرب ! ثم أي مناسبة بين أبي بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المعنى ليقسّمه وينسبّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب الجيش والدعوة ، ورئيس الإسلام والملة ، والمُحَوَّظ بين أصحابه وأعدائه بالسيادة ، وإليه الإيحاء والإشارة ، وهو الذي أحقّق قریشاً والعرب ، وورى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم ، وعيب دينهم وتضليل أسلافهم ، ثم وترهم فيما بعدُ بقتل رؤسائهم وأكابرهم ! وحقّ لئله إذا تنحّى عن الحرب واعتزلها أن يتنحّى ويعتزل ، لأنّ ذلك شأن الملوك والرؤساء ، إذا كان الجيش منوطاً بهم وببقائهم ، فحقّ هلاك الملك هلاك الجيش ، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكه ، وإن عطّب جيشه فإنه يستجدّ جيشاً آخر ؛ ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه ، وخطّوا الإسكندلما بارز قوسراً ملك الهند ، ونسبوه إلى مجانبة الحكمة ومفارقة الصواب والحزم ، فليقلّ لنا الجاحظ : أي مدخل لأبي بكر في هذا المعنى ؟ ومن الذي كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل ؟ وهل هو إلا واحدٌ من عُرض المهاجرين ، حكمه حكم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، وغيرهما ! بل كان عثمان أكثر منه صيناً ، وأشرف منه مركباً ، والعيون إليه أطمح ، والعدو إليه أحقّ وأكلب ؛ ولو قتل أبو بكر في بعض تلك المعارك ، هل كان يؤثر قتله في الإسلام ضعفاً ، أو يحدث فيه وهناً ! أو يخاف على الملة لو قتل أبو بكر في بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفى آثارها ، وينطمس منارها ! ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وآله في مجانبة الحروب واعتزالها ، نعوذ بالله من الخذلان ! وقد علم العقلاء كلّهم ممن له

بالسير معرفة ، وبالأثار والأخبار ممارسة ، حال حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كيف كانت ، وحاله عليه السلام فيها كيف كان ، ووقوفه حيث وقف ، وحربه حيث حارب ، وجلوسه في العريش يوم جلس ، وإن وقوفه صلى الله عليه وآله ووقوف رياسته وتدير ، ووقوف ظهر وسند ؛ يتعرف أمور أصحابه ، ويحرس صغيرهم وكبيرهم بوقوفه من ورأيهم ، وتحلفه عن التقدم في أوائلهم ، لأنهم متى علموا أنه في آخرهم اطمأنت قلوبهم ، ولم تتعلق بأمره نفوسهم ، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوهم ، ولا يكون لهم فئة يلجئون إليها ، وظهر يرجعون إليه ، ويعلمون أنه متى كان خلفهم تقدم أمورهم ، وعلم مواقفهم ، وأوى كل إنسان مكانه في الحماية والنكاية وعند المنازلة في الكرّ والجملة ، فكان وقوفه حيث وقف أصلح لأمرهم ، وأحى وأحرس لبئضتهم ؛ ولأنه المطلوب من بينهم ؛ إذ هو مدبر أمورهم ، ووالى جماعتهم ؛ ألا ترون أن موقف صاحب اللواء موقف شريف ، وأن صلاح الحرب في وقوفه ، وأن فضيلته في ترك التقدم في أكثر حالاته ؛ فليرئيس حالات :

الأولى : حالة يتخلف ويقف آخرًا ليكون سنداً وقوة ، وردءاً وعدة ، وليتولى تدبير الحرب ، ويعرف مواضع الخلل .

والحالة الثانية : يتقدم فيها في وسط الصف ليقوى الضعيف ، ويشجع الناكس^(١) .
وحالة ثالثة : وهى إذا اصطدم الفيلقان ، وتكافح السيوفان ، اعتمد ما تقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح ، أو من مباشرة الحرب بنفسه ، فإنها آخر المنازل ، وفيها تظهر شجاعة الشجاع النجّد ، وفسالة الجبان المموّه .

فأين مقام الرئاسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وآله ! وأين منزلة أبي بكر ليسوى بين المنزلتين ، ويناسب بين الحاليتين !

ولو كان أبو بكر شريكاً لرسول الله صلى الله عليه وآله في الرسالة ، ومنوحيًا من الله

(١) ب : « الناكس » .

بفضيلة النبوة، وكانت قریش والعرب تطلبه كما تطالب محمدًا صلى الله عليه وآله، وكان يدبّر من أمر الإسلام وتسريب العساكر وتجهيز السرايا، وقتل الأعداء، ما يدبره محمد صلى الله عليه وآله، لكان للجاحظ أن يقول ذلك، فأما وحاله حاله، وهو أضعف المساهين جنانا، وأقلهم عند العرب ترة، لم يزم قطّ بسهم، ولا سل سيفاً، ولا أراق دماً؛ وهو أحد الأتباع، غير مشهور ولا معروف، ولا طالب ولا مطلوب؛ فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله صلى الله عليه وآله ومنزلته! ولقد خرج ابنه عبد الرحمن مع المشركين يوم أحد فرآه أبو بكر؛ فقام مغيضاً عليه، فسل من السيف مقدار أصبع؛ يريد البروز إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا بكر، شمس سيفك»^(١) وأمتنعنا بنفسك»، ولم يقل له: «وأمتنعنا بنفسك» إلا لعلمه بأنه ليس أهلاً للحرب وملاقة الرجال، وأنه لو بارز لقتل.

وكيف يقول الجاحظ: لأفضيلة لباشرة الحرب، ولقاء الأقران، وقيل أبطال الشرك! وهل قامت عُمدة الإسلام إلا على ذلك! وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك! أتراه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُلَيَّانٌ مَرْصُوصٌ﴾^(٢)! والمحبة من الله تعالى هي إرادة الثواب؛ فكل من كان أشد ثباتاً في هذا الصف، وأعظم قتالاً، كان أحب إلى الله؛ ومعنى الأفضل هو الأكثر ثواباً، فعلى عليه السلام إذاً هو أحب المسلمين إلى الله، لأنه أثبتهم قدماً في الصف المرصوص، لم يفر قطّ بإجماع الأمة، ولا بارزه قرن إلا قتله.

أتراه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ

(١) شمس سيفك، أي أغمدته؛ وهو من الأضداد.

(٢) سورة الصف ٤. (٣) سورة النساء ٩٥.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴿١﴾ ،
ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ مَوْكِدًا هَذَا الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿١﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ﴿٢﴾ .

فمواقف الناس في الجهاد على أحوال ؛ وبعضهم في ذلك أفضل من بعض ؛ فمن
دَلَفَ إلى الأقران ، واستقبل السيوف والأسنة ؛ كان أثقل على أكتاف الأعداء ، لشدة
نِسْكَائِهِ فِيهِمْ ، ثَمَّنَ وَقَفَ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَأَعَانَ وَلَمْ يُقَدِّمْ ، وكذلك مَنْ وَقَفَ فِي الْمَعْرَكَةِ ،
وَأَعَانَ وَلَمْ يُقَدِّمْ ؛ إِلَّا أَنَّهُ بِحَيْثُ تَنَالَهُ السِّهَامُ وَالتَّبَلُّ أَعْظَمَ غَنَاءً ، وَأَفْضَلُ ثَمَّنَ وَقَفَ حَيْثُ
لَا يَنَالُهُ ذَلِكَ ، وَلَوْ كَانَ الضَّعِيفُ وَالْجَبَانُ يَسْتَحِقُّانَ الرِّيَاسَةَ بِقَلَّةِ بَسْطِ الْكَفِّ وَتَرْكِ
الْحَرْبِ ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ يَشَاكِلُ فِعْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، لَكَانَ أَوْفَرَ النَّاسِ حِظًّا
فِي الرِّيَاسَةِ ، وَأَشَدَّهُمْ لَهَا اسْتِحْقَاقًا حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ، وَإِنْ بَطَلَ فَضْلُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي الْجِهَادِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ أَقْلَهُمْ قِتَالًا ، كَمَا زَعَمَ الْجَا حِظُّ لِيَبْطُلَنَّ
عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ فَضْلُ أَبِي بَكْرٍ فِي الْإِنْفَاقِ ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ
أَقْوَاهُمْ مَالًا !

وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَمْرَ الْعَرَبِ وَقُرَيْشٍ ، وَنَظَرْتَ السَّيْرَ ، وَقَرَأْتَ الْأَخْبَارَ ، عَرَفْتَ
أَنَّهَا كَانَتْ تَطْلُبُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَتَقْصِدُ قَصْدَهُ ، وَتَرْوِمُ قِتْلَهُ ، فَإِنْ أَعْجَزَهَا وَفَاتَهَا
طَلَبَتْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَرَادَتْ قِتْلَهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ أَشْبَهُهُمْ بِالرَّسُولِ حَالًا ، وَأَقْرَبَهُمْ
مِنْهُ قَرَبًا ، وَأَشَدَّهُمْ عَنْهُ دَفْعًا ، وَأَنْهُمْ مَتَى قَصَدُوا عَلِيًّا فَقَتَلُوهُ أَوْ ضَعَفُوا أَمْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَكَسَرُوا شَوْكَتَهُ ، إِذْ كَانَ أَعْلَى مَنْ يَنْصُرُهُ فِي الْبَأْسِ وَالتَّوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ

والتَّجْدَةِ والإِقْدَامِ والبَسَالَةِ . ألا ترى إلى قول عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ يومَ بدرٍ ، وقد خرج هو وأخوه شَيْبَةُ وابنه الوليد بن عتبة ، فأخرج إليه الرَّسُولُ نَفَرًا من الأنصار ، فاستنسبواهم فانتسبوا لهم ، فقالوا : ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا : يا مُحَمَّدُ اخرجْ إلينا أ كفاءَنا من قومنا ، فقال النبي صلى الله عليه وآله لأهله الأذنين : قوموا يا بني هاشم ، فانصروا حقكم الذي آتاكم الله على باطل هؤلاء ، قُمْ يا عَلِيٌّ ، قُمْ يا حمزة ، قُمْ يا عبيدة ، ألا ترى ما جعلتُ ههنا بنت عتبة لمن قتله يوم أحد ؛ لأنه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر ؛ ألم تسمع قولَ هند ترضى أهاها :

مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِرٌّ صَبْرٍ أَبِي وَعَمِّي وَشَقِيقِ صَدْرِي
أَخِي الَّذِي كَانَ كضوءِ البدرِ بِهِمْ كَسَرَتْ يَا عَلِيُّ ظَهْرِي

وذلك لأنه قتل أباها الوليد بن عتبة ، وشرك في قتل أبيها عتبة ، وأما عتها شيبه ، فإن حمزة تفرّد بقتله .

وقال جُبَيْر بن مطعمٍ لوحشَى مولاة يوم أحد : إن قتلت مُحَمَّدًا فأنت حرٌّ ، وإن قتلت عليًّا فأنت حرٌّ وإن قتلت حمزة فأنت حرٌّ ، فقال : أمّا محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما عليٌّ فرجلٌ حذر كثير الالتفات في الحرب ، ولكني سأقتل حمزة ، ففعله وزرّقه بالحربة فقتله .

ولما قلنا من مقاربة حال عليّ عليه السلام في هذا الباب لحال رسول الله صلى الله عليه وآله ومُناسبتها إياها ما وجدناه في السَّيَرِ والأخبار ، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وحذره عليه ، ودعائه له بالحفظ والسلامة ، قال صلى الله عليه وآله يوم الخندق ، وقد برز عاى إلى عمرو ، ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه : «اللهم إنك أخذت منى

حمزة يوم أحد ، وعُبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم على علياً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ^(١) ، ولذلك ضمن به عن مبارزة عمرو حين دعاهمرو الناس إلى نفسه مراراً ، في كلِّها يحجمون ويُقدِّم على ، فيسأل الإذن له في البراز حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِنَّهُ عَمْرُو ! » ، فقال : « وَأَنَا عَلَى » ، فأدناه وقبله وعممه بعمامته ، وخرج معه خطواتٍ كالمودَّع له ، القلق لحاله ، المنتظر لما يكون منه ، ثم لم يزل صلى الله عليه وآله رافعاً يديه إلى السماء ، مستقبلاً لها بوجهه ، والمسلمون صُموتٌ حوله ؛ كأنَّما على رؤسهم الطَّير ، حتى ثارت الغبرة ، وسمعوا التكبير من تحتها ، فعلموا أنَّ علياً قتلَ عمرًا ، فكبر رسولُ الله صلى الله عليه وآله وكبر المسلمون تكبيرةً سمعها من وراء الخندق من عساكر المشركين ، ولذلك قال حذيفة بن اليمان : لو قُسمت فضيلة على عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ ؛ قال : بعلي بن أبي طالب ^(٢) .

قال الجاحظ : علَى أَنَّ مَشَى الشَّجَاعَ بالسيف إلى الأقران ، ليس على ماتوهم من لا يعلم باطن الأمر ، لأنَّ معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرها النَّاسُ ، وإِنَّمَا يتقصون على ظاهر ما يرون من إقدامه وشجاعته ، فربَّما كان سبب ذلك الهَوَجُ ، وربما كان الفرارة والخدائثة ، وربما كان الإحراج والحمية ، وربما كان لخبسة النفخ والأحدوثة ، وربما كان طباعاً كطبائع القاسى والرحيم والسخى والبخیل ^(٣) .

(٢) سورة الأحزاب ٢٥ .

(١) سورة الأنبياء ٨٩ .

(٣) العثمانية ٤٧ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال للجاحظ: فعلى أيها كان مشى على بن أبي طالب إلى الأقران بالسيف؟ فأما قات من ذلك بانت عداوتك لله تعالى ورسوله، وإن كان مشيه ليس على وجه مما ذكرت، وإنما كان على وجه النصرة والقصد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة، والجهاد في سبيل الله، وإعزاز الدين، كنت بجميع ماقلت معانداً، وعن سبيل الإنصاف خارجاً، وفي إمام المسلمين طاعناً، وإن تطرق مثل هذا الوهم على علي عليه السلام ليتطرقن مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال، الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنفسهم ووقوه بمهجهم، وفدوه بأبنائهم وآبائهم، فاعل ذلك كان لعل من العلل المذكورة، وفي ذلك الطعن في الدين، وفي جماعة المسلمين.

ولو جاز أن يتوهم هذا في علي عليه السلام وفي غيره، لما قال رسول الله صلى الله عليه وآله حكاية عن الله تعالى لأهل بدر: «أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، ولا قال لعلي عليه السلام: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»، ولا قال: «أوجب طلحة»^(١).

وقد علمنا ضرورة من دين الرسول صل الله عليه وآله تعظيمه لعلي عليه السلام تعظيماً دينياً، لأجل جهاده ونصرتة، فالطاعن فيه طاعن في رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ زعم أنه قد يمكن أن يكون جهاده لا لوجه الله تعالى؛ بل لأمر آخر من الأمور التي عددها، وبمته على التفوه بها إغواء الشيطان وكيدُه، والإفراط في عداوة من أمر الله بحبته، ونهى عن بغضه وعداوته.

(١) أوجب طلحة، أى عمل عملا يدخله الجنة.

أتري رسول الله صلى الله عليه وآله خفي عليه من أمر علي عليه السلام ملاح للجاحظ
والعثمانية ، فمدحه وهو غير مستحق للمدح !

قال الجاحظ : فصاحب النفس المختارة المعتدلة يكون قتاله طاعة ، وفراره معصية ،
لأن نفسه معتدلة ، كاليزان في استقامة لسانه وكفتيه ، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه
طباعاً ، وفراره طباعاً^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال له : فلعل إنفاق أبي بكر على ماتزعم أربعين
ألف درهم لا ثواب له ، لأن نفسه ربما تكون غير معتدلة ، لأنه يكون مطبوعاً
على الجود والسخاء ، ولعلّ خروجه مع النبي صلى الله عليه وآله يوم الهجرة إلى الغار
لا ثواب له فيه ، لأن أسبابه كانت له مهيبة ، ودواعيه غالبية ، محبة الخروج ، وبغض
المقام ؛ ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وآله في دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصلوات
الخمس في جوف الليل ، وتديبره أمر الأمة لا ثواب له فيه ، لأنه قد تكون نفسه غير
معتدلة ، بل يكون في طباعه الرياسة وحبها ، والعبادة والالتذاذ بها ، ولقد كنا نعجب
من مذهب أبي عثمان أن المعارف ضرورة ، وأنها تقع طباعاً ؛ وفي قوله بالتولد وحركة الحاجر
بالطبع ! حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه ، فزعم أنه ربما يكون جهاداً على عليه السلام
وقتلته المشركين لا ثواب له فيه ؛ لأنه فعله طبعاً ، وهذا أطرف من قوله في المعرفة
وفي التولد .

قال الجاحظ : ووجه آخر أن علياً لو كان كما يزعم شيعة ، ما كان له بقتل الأقران
كبير فضيلة ، ولا عظيم طاعة ، لأنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال له :

(١) انظر العثمانية ٤٧ ، ٤٨ .

« ستقاتل بعدى النَّاكِثِينَ والقَاسِطِينَ والمَارِقِينَ » ، فإذا كان قد وعدّه بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران ، وعلم أنه منصور عليهم وقَاتِلَهُمْ ، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعةً منه ^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا راجع على الجاحِظ في النبي صلى الله عليه وآله ، لأنَّ الله تعالى قال له : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(٢) ، فلم يكن له في جهاده كبير طاعة ، وكثير طاعة ، وكثير من الناس يروى عنه صلى الله عليه وآله : « اقتدوا باللَّذِينَ مِن بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ » فوجب أن يبطل جهادهما ، وقد قال للزبير : « ستقاتل علياً ، وأنت ظالم له » ، فأشعره بذلك أنه لا يموت في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال في الكتاب العزيز لطلحة : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ، قالوا : نزلت في طلحة ، فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده ، فوجب ألا يكون لهما كبير ثواب في الجهاد ، والذي صحَّ عندنا من الخبر وهو قوله : « ستقاتل بعدى الناكِثِينَ » ، أنه قال لما وضعت الحرب أوزارها ، ودخل النَّاسُ في دين الله أفواجا ، ووضعت الجزية ، ودانت العرب قاطبة .

قال الجاحِظ : ثم قصد النّاصرون لعليّ ، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلّوا فيهم ، وليسوا هناك ! فمنهم عمرو بن عبدود تركتموه أشجع من عامر ابن الطفيل وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس ، وقد سمعنا بأحاديث حُرُوب الفجار وما كان بين قريش ودّوس وحِلف الفضول ، فما سمعتُ لعمرو بن عبدود ذكرًا في ذلك ^(٣) .

(٢) سورة المائدة ٦٧ .

(١) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمرُ عمرو بن عبدودٍ أشهر وأكثر من أن يُحتجَّ به ، فلنُتَهِجَّ كتب المغازي والسَّير ، ولنُنظرَ ما رُتِّبَ به شعراءُ قريش لما قتل ، فمن ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في مغازيه ، قال : وقال مُسافِع بن عبد مناف بن زهرة بن حذافة بن جُحَمح يبيكي عمرو بن عبد الله بن عبدود حين قتلَه عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاذ^(١) أى قطع الخندق .

عمرو بن عبد كان أول فارس
سمحُ الخلاق ماجِدٌ ذو مِرَّةٍ
ولقد علمتم حينَ ولَّوْا عنكم
حتى تكفَّه الكُماة وكلُّهم
ولقد تكفَّت الفوارسُ فارساً
سال النزال هناك فارس غالب
فاذهب عليٌّ ماظفرت بمثلها
نفسى الفداء لفارسٍ من غالب
أعني الذي جَزَعَ المذاذ ولم يكن
وقال هُبيرة بن أبي وهب المخزومي ، يعتذر من فراره عن عليٍّ بن أبي طالب ، وتركه
عمراً يوم الخندق ويبكيه :

(١) المذاذ ، بالذال المعجمة : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، وفي ط : « المزار » تصحيف ، وجزع ، أى قطع .

- (٢) مليل ، واد بيدر .
(٣) المرة : القوة ، والشكة : السلاح .
(٤) ابن هشام : « فيهم » .
(٥) تكفَّه الكُماة : أحاطوا به والتفوا حوله . وابس بمؤنل ؛ أى ليس بمقصّر .
(٦) سلم : جبل بالمدينة . والنكس : الدنء من الرجال . والأميل : الذى لارمج معه .
(٧) المفضل : الأمر الشديد .
(٨) لم يتحلل : لم يبرح مكانه .
(٩) الزمل : الضميف الجبان .

لعمرك ما ولّيت ظهري محمداً وأصحابه جُبناً ولا خيفة القتل^(١)
ولكنني قلبت أمري فلم أجِدْ لسيفي غناءً إن وقتتُ ولا نبلي
وقتتُ فلما لم أجِدْ لي مقدماً صدرتُ كضرامٍ هزبزٍ إلى شبلٍ^(٢)
ثَنَى عِظْفَه عَنْ قِرْنِهِ حين لم يجد مجالا^(٣) وكان الحزم والرأى من فِعْلي
فَلَا تَبْعَدَنَّ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا فقد ميتٌ محمودُ الثنا ماجِدَ الفِعلِ^(٤)
ولا تبعدن يا عمرو حَيًّا وَهَالِكًا فقد كنتَ في حرب العِدا مُرْهَفَ النَّصْلِ
فمن لِيطرادِ الخيل تُقَدِّعُ بِالْقَنَا وللبلدِ يوماً عند قرقرة البزلِ^(٥)
هنالك لو كان ابن عمرو لزارها وفَرَجَها عنهم فتى غير ما وغلٍ
كفتك على لن ترى مثل موقفٍ وقتتَ على شلُو المَقْدَمِ كالْفَحْلِ^(٦)
فما ظفرت كفاك يوماً بمثلها أمنتَ بها ما عشت من زلّة النعلِ
وقال هُبيرة بن أبي وهب أيضاً، يرثي عمراً وبيكيه :

لقد علمتُ علياً لؤي بن غالب لفارسها عمرو ، إذا ناب نائبُ^(٧)
وفارسها عمرو إذا ما يسوقه عليّ ، وإن الموت لاشك طالبُ^(٨)
عشيمة يدعوه عليٌّ وإنه لفارسُها إذا خام عنه الكتائبُ^(٩)

- (١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٢) مقدماً : أي لم أجِدْ من يقدمني . وصدرت : رجعت . الضرام : الأسد . الهزبز : الشديد : والشبل : ابن الأسد .
(٣) ابن هشام : « لم يجد مكرًا » .
(٤) الثنا : الذكر الطيب . والماجد : الشريف .
(٥) تقدع : تكف . والقرقرة : أصوات لحول الإبل . والبزل : جمع بازل ؛ وهو في الأصل البعير الذي فطر نابه ، وذلك زمان اكتمال قوته .
(٦) ابن هشام : « فمناك علي » .
(٧) إذا ناب نائب ، أي إذا عرض أمرٌ مكروه .
(٨) ابن هشام : « لفارسها عمرو إذا ما يسومه » .
(٩) خام : جبن ورجع هيبة وخوفاً .

فيالهف نفسي ، إِنَّ عَمْرَأً لَكَائُنْ ييثر ، لا زالت هناك المصائبُ
لقد أحرز العلياً على بقتله والخير يوماً لا محالة جالبُ
وقال حسان بن ثابت الأنصاري يذكر عمرا :

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ ناظراً كيف العبور وليته لم ينظر^(١)
ولقد وجدت سيوفنا مشهورةً ولقد وجدت جياننا لم تقصر^(٢)
ولقد لقيت غداة بدرٍ عصابةً ضربوك ضرباً غير ضرب الحسر
أصبحت لا تدعى ليومٍ عظيمةٍ يا عمرو أو لجسيم أمرٍ منكر^(٣)
وقال حسان أيضاً :

لقد شقيت بنو جحج بن عمرو ومخزوم وتيم ما نقيـل
وعمر كالحسام فتى قریش كأن جبينه سيف صقيـل
فتى من نسل عامر أريحي تطاوله الأسنة والنصـول
دعاه الفارس المقدام لما تكشفت المقائب وأنليول
أبو حسني فقمعه حساماً جراًزا لا أفل ولا نكول
ففادره مكباً مسلحاً على عفراء ، لا بعد القتيـل
فهذه الأشعار فيه بل بعض ما قيل فيه^(٤) .

وأما الآثار والأخبار ، فوجوده في كتب السير وأيام الفرسان ووقائعهم ، وليس

(١) رواية البيت في ابن هشام :

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ ينشغي بجنوب يثر ثاره لم ينظر

(٢) مشهورة أي قد شهرها أصحابها . ولم تقصر : لم تكف وتحبس عن التجوال .

(٣) قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان » .

(٤) سيرة ابن هشام ٣ : ٢٩٨ - ٣٠٤ (نشرة المكتبة التجارية) .

أحدٌ من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال : كان فارس قريش وشجاعها ، وإنما قال له حسان :

* ولقد لقيتَ غداة بدرٍ عصابة *

لأنَّهُ شهد مع المشركين بذراً ، وقتل قوماً من المسلمين . ثم فرّ مع مَنْ فرّ ، ولحق بمكّة ، وهو الذى كان قال وعاهد الله عند الكعبة ألا يدعوهُ أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه . وآثاره فى أيام الفجار مشهورة تنطق بها كتب الأيام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم : عتبة وبسطام وعامر ، لأنهم كانوا أصحاب غاراتٍ ونهب ، وأهل بادية ، وقريش أهل مدينة وساكنو مدّر وحجر ، لا يرؤن الغارات ، ولا يهبون غيرهم من العرب ، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حرمهم ؛ فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء .

ويقال له : إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك ، فباله لما جَزَع الخندق^(١) فى ستة فرسان هو أحدُهم ، فصار مع أصحاب النبی صلی الله عليه وآله على أرض واحدة ، وهم ثلاثة آلاف ، ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحدٌ منهم للخروج إليه ، ولا سمح منهم أحدٌ بنفسه ، حتى وبّخهم وقرّعهم ، وناداهم : ألسنم تزعمون أنه من قُتل منا فى النار ، ومن قُتل منكم فى الجنة ! أفلا يشاقُّ أحدُكم إلى أن يذهب إلى الجنة ، أو يقدم عدوّه إلى النار ! فجبّئوا كلُّهم ونسكلوا ، وملّكهم الرعب والوهل ، فإمّا أن يكون هذا أشجع الناس كما قيل عنه ، أو يكون المسلمون كلُّهم أجبن العرب وأذلّهم وأفسلهم ! وقد روى النَّاس كلُّهم الشعر الذى أنشده لما نكل القوم بجمعهم عنه ، وأنه جال بفرسه واستدار وذهب يمينه ، ثم ذهب يسرة ، ثم وقف تُجَاه القوم ، فقال :

ولقد بحثتُ من النّدا . بجمعهم : هل من مبارز !

(١) جزع الخندق ، أى عبره .

ووقفتُ إذْ جَبْنُ المشيِّعِ وَقِفَةُ القِرْنِ المناجزِ
وكذلكَ أني لم أزلْ متسرِّعاً نحو الهزاهِرِ
إن الشجاعةَ في الفتى والجودَ من خيرِ الغرائزِ
فلما برزَ إليه على أجابه ، فقال له :

لا تعجلنَّ فقدَ أنا لك مجيب صوتك غير عاجزٍ
ذُونيةٍ وبصيرةٍ يرجو الغداةَ نجاةً فائزٍ
إني لأرجو أن أوفِّيمَ عليك نائمةَ الجنائزِ
من ضربةٍ تقني ويَّتمى ذكرُها عند الهزاهِرِ

ولعمري لقد سبق الجاحظ بما قاله بعضُ جهال الأنصارى ، لما رجع رسول الله
من بدر ، وقال فتى من الأنصار شهد معه بدرا : إن قتلنا إلا عجائز صلما ! فقال له
النبي صلى الله عليه وآله : « لا تقل ذلك يا بن أخ ، أولئك الملاء » ! .

قال الجاحظ : وقد أكتروا في الوليد بن عُتبة بن ربيعة قتيله يوم بدر ، وما علمنا
الوليد حضر حرباً قط قبلها ، ولا ذكر فيها ^(١) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : كلُّ مَنْ دَوَّنَ أخبارَ قريش وآثارَ رجالها ، وصف
الوليد بالشجاعة والبسالة ، وكان مع شجاعته أنه يصارع الفتيان فيصرعهم ، وليس لأنه
لم يشهد حرباً قبلها ما يجب أن يكون بطلاً شجاعاً ؛ فإن علياً عليه السلام لم يشهد قبل
بدر حرباً ، وقد رأى الناس آثاره فيها .

قال الجاحظ : وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ، كما ثبت على ، فلا نفر لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما ثباته يوم أُحُد : فأكثر المؤرخين وأرباب السِّير ينكرونه ، وجمهورهم يروى أنه لم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله إلا على وطلحة والزبير ، وأبو دُجَّانة ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ولهم خامس وهو عبد الله بن مسعود ، ومنهم من أثبت سادساً ، وهو المقداد بن عمرو ، وروى يحيى بن سلمة بن كهيل قال : قلت لأبي : كم ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ؟ فقال : اثنان ، قلت : من هما ؟ قال : على وأبو دُجَّانة .

وهب أن أبا بكر ثبت يوم أُحُد كما يدعيه الجاحظ ، أيجوز له أن يقول : ثبت كما ثبت على ، فلا نفر لأحدهما على الآخر ، وهو يعلم آثار على عليه السلام ذلك اليوم ، وأنه قتل أصحاب الألوية من بني عبد الدار ؛ منهم طلحة بن أبي طلحة ، الذي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه أنه مردف كبشا ، فأوله وقال : كبش الكتيبة تقتله . فلما قتله على عليه السلام مبارزة - وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم - كبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « هذا كبش الكتيبة » .

وما كان منه من الحاماة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد فر الناس وأسلموه ، فتصمد له كتيبة من قريش ، فيقول : « يا على ، اكفني هذه » فيحمل عليها فيهرزها ، ويقتل عميدها ، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتاً من قبل السماء .

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على

وحكى قال النبي صلى الله عليه وآله عن جبرائيل ما قال .

أتكون هذه آثاره وأفعاله ، ثم يقول الجاحظ : لا نفر لأحدهما على صاحبه !

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١).

قال الجاحظ : ولأبي بكر في ذلك اليوم مقام مشهور ، خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفراً (٢) في الحديد ، يسأل المبارزة ، ويقول : أنا عبدُ الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر يسّعى بسيفه ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله : « شِم سيفك وارجع إلى مكانك ، ومتّعنا بنفسك » (٣) .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر ، فإنه لو سمعته الإمامية لأضافته إلى ما عندها من المثالب ، لأنّ قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « ارجع » دليل على أنّه لا يحتمل مبارزة أحدٍ ، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه ، وأنت تعلم حنوّ الابن على الأب وتبجيله له ، وإشفاقه عليه وكفه عنه ، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبيّ .

وقوله له : « ومتّعنا بنفسك » ؛ إيذان له بأنّه كان يقتلُ لو خرج ، ورسول الله كان أعرف به من الجاحظ ، فأين حالُ هذا الرجل من حال الرجل الذي صلبَ بالحرب ، ومشى إلى السيف بالسيف ، فقتل السادة والقادة والفرسان والرجالة !

قال الجاحظ : على أن أبا بكر - وإن لم تكن آثاره في الحرب كآثار غيره - فقد بذل الجهد ، وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوّته ، وإذا بذل الجهد فلا حال أشرف من حاله (٤) .

(٢) أي مستترا .

(٤) العمانية ٦٢ .

(١) سورة الأعراف ٨٩

(٣) العمانية ٦٢ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما قوله إنه بذل الجهد ، فقد صدق ، وأما قوله :
« لاحال أشرف من حاله » ؛ نخطأ ، لأنّ حال من بلغت قوته فأعملها في قتل المشركين
أشرف من حال من نقصت قوته عن بلوغ الغاية ؛ ألا ترى أن حال الرجل أشرف في
الجهاد من حال المرأة ، وحال البالغ الأيدّ أشرف من حال الصبيّ الضعيف !

فهذه جملة ما ذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي رحمه الله في نقض
العثمانية ، اقتصرنا عليها هاهنا ؛ وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه ، إذا
اقتضت الحال ذكره^(١).

(١) قام الأستاذ عبد السلام هارون بطبع كتاب العثمانية ، طبعة علمية محققة ، وألحق بها ماعثر عليه
من نقضها للإسكافي ؛ وطبعت في دار الكتاب العربي سنة ١٩٥٥ .

(٢٣٩)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن عباس ، « وقد جاءه برسالة من عثمان ، وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله لينبئ ، ليقول هتف الناس باسمه للخلافة ، بعد أن كان سألته مثل ذلك من قبل .

فقال عليه السلام :

يَا بَنَ عَبَّاسٍ ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ نِيَّ جَمَلًا نَاصِحًا بِالْغَرْبِ ، أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ !
بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدِمَ ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ !
وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آئِمًّا .

الْبَنُخ :

ينبئ على « يفعل » مثل يحلم ويحكم : اسم موضع ، كان فيه نخل لعلى بن أبي طالب عليه السلام ، وينبئ الآن بلد صغير من أعمال المدينة .

وهتف الناس باسمه : نداؤهم ودعائهم ، وأصله الصوت ، يقال : هتف الحام يهتف هتفًا ، وهتف زيد بعمر وهتافًا ، أى صاح به ، وقوس هتافة وهتفى ، أى ذات صوت .

والناضح : البعير يستقي عليه ، وقال معاوية لقيس بن سعد - وقد دخل عليه

في رَهْطٍ مِنَ الْأَنْصَارِ - ما فعلت نواضحكم ! يهزأ به ، فقال : أنصبتها في طلب أبيك
يوم بدر .

والغرب : الدلو العظيمة .

قوله : « أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ » ، أى يقول لى ذلك ، كما يقال : للناضح ، وقد صرَّح العباس بن
مِرْدَاس بهذه الألفاظ فقال :

أَرَاكَ إِذَا أَصْبَحْتَ لِلْقَوْمِ نَاضِحًا يقال له بالغرب أدبر وأقبل
قوله : « لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا » ، يحتمل أن يريد بالفت
واجتهاد في الدفاع عنه ، حتى خشيت أن أكون آثمًا في كثرة مبالغتي واجتهادي في
ذلك ، وإنه لا يستحق الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه ، وهذا تأويل من ينحرف عن عثمان ،
ويحتمل أن يريد : لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى كَدْتُ أَنْ أَلْقِيَ نَفْسِي فِي الْهَلَكَةِ ؛ وَأَنْ يَقْتُلَنِي النَّاسُ
الذين ثاروا به ، فَخِفْتُ الْإِثْمَ فِي تَغْرِيرِي بِنَفْسِي وَتَوَرِيطِي فِي تِلْكَ الْوَرِطَةِ الْعَظِيمَةِ ، ويحتمل
أن يريد : لَقَدْ جَاهَدْتُ النَّاسَ دُونَهُ وَدَفَعْتُهُمْ عَنْهُ ، حتى خشيت أن أكون آثمًا ببلدلت
منهم من الضرب بالسَّوْطِ ، والدفع باليَدِ ، والإعانة بالقَوْلِ ، أى فعلت من ذلك
أكثر مما يجب .

[وصية العباس قبل موته لعلی]

قرأت في كتاب صنفه أبو حيان التوحيدى في تقرير الجاحظ ، قال : نقلت من
خَطِّ الصُّوْلَى : قال الجاحظ : إنَّ العباس بن عبد المطلب أوصى على بن أبى طالب عليه
السلام في عِلَّتِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ، فقال : أى بنى إني مُشَفِّ على الظعن عن الدنيا إلى الله ،
الذى فاقتى إلى عَفْوِهِ ، وتجوَّزَه أكثر من حلجتي إلى ما أنصحك فيه ، وأشير عليك به ،

ولكن العرق نبوض^(١)، والرحم عروض، وإذا قضيتُ بحق العمومة، فلا أبالي بعدُ
 إنَّ هذا الرجل - يعنى عثمان - قد جاءنى مراراً بحديثك، وناظرنى ملايناً ونخاشناً فى أمرى؛
 ولم أجِدْ عليك إلا مثل ما أجِدُ منك عليه، ولا رأيتُ منه لك إلا مثل ما أجِدُ منك له،
 ولستُ تؤتى من قلة علم، ولكن من قلة قبول، ومع هذا كله فالرأى الذى أودعك به
 أن تسميك عنه لسانك ويدك، وهمزك وغمزك، فإنه لا يبدؤك مالم تبدأه، ولا يجيبك
 عما لم يبلغه، وأنت المتجنى وهو المتأنى، وأنت العائب وهو الصامت. فإن قلت: كيف
 هذا وقد جلس مجلساً أنا به أحق، فقد قاربتُ! ولكن ذاك بما كسبت يداك، ونكح
 عنه عقباك، لأنك بالأمس الأدنى، هرولت إليهم تظن أنهم يُحلمون جيدك، ويختمون
 أصبعك، ويطئون عقبك، ويرون الرشيد بك، ويقولون: لابد لنا منك، ولا معدل
 لنا عنك، وكان هذا من هفواتك الكبر، وهناتك التى ليس لك منها عذر، والآن بعد
 ماثلت عرشك بيدك، ونبذت رأى عمك فى البداء يتدهده^(٢) فى السافياء^(٣)؛ خذ
 بأحزم مما يتوضح به وجه الأمر، لا تشار^(٤) هذا الرجل ولا تماره^(٥)، ولا يبلغنه عنك
 ما يحقنه عليك، فإنه إن كاشفك أصاب أنصاراً، وإن كاشفته لم تر إلا ضراراً، ولم تستلج^(٦)
 إلا عثارا، واعرف من هو بالشام له، ومن هاهنا حوله من يطيع أمره، ويمثل قوله،
 لا تغتر بناسٍ يُطيفون بك، ويدعون الحنو عليك والحب لك، فإنهم بين مولى جاهل،
 وصاحب متمنٍ، وجليس يرمى العين ويبتدر المحضر، ولو ظن الناس بك ما تظن بنفسك
 لكان الأمر لك، والزمام فى يدك، ولكن هذا حديث يوم مريض رسول الله صلى الله
 عليه وآله فات، ثم حرّم الكلام فيه حين مات، فعليك الآن بالعزوف عن شيء عرضك

(١) كذا فى ١، ونبوض: من نبض العرق ينبض نبوضاً، وهو ضرباته وفى ب: «يبوض».

(٢) يتدهده: يتدحرج (٣) السافياء: الريح التى تحمل التراب.

(٤) يقال: شاراه مشاركة، إذا لاجه. (٥) تماره: تجادله. (٦) نستلج: تدخل

له رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم يَم ، وتصديت له مرة بعد مرة فلم يستقم ، ومن ساور الدهر غلب ، ومن حرص على ممنوع تعب ، فعلى ذلك فقد أوصيت عبد الله بطاعتك ، وبعثته على متابعتك ، وأوجرت له محبتك ، ووجدت عنده من ذلك ظني به لك ، لا تورتر قوسك إلا بعد الثقة بها ، وإذا أعجبتك فانظر إلى سيتها ، ثم لا تفوق إلا بعد العلم ولا تفرق في النزاع إلا لتصيب الرمية ، وانظر لا تطرف يمينك عينك ، ولا تجن شمالك شينك ، ودعني بآيات من آخر سورة الكهف ، وقم إذا بدا لك .

قلت : الناس يستحسنون رأي العباس لعلي عليه السلام في ألا يدخل في أصحاب الشورى وأما أنا فإني استحسنه إن قصد به معنى ، ولا أستحسنه إن قصد به معنى آخر ، وذلك لأنه إن أجرى بهذا الرأي إلى ترفعه عليهم ، وعلو قدره عن أن يكون مماثلهم ، وأجرى به إلى زهده في الإمارة ، ورغبته عن الولاية ؛ فكل هذا رأى حسن وصواب ، وإن كان منزعه في ذلك إلى أنك إن تركت الدخول معهم ، وانفردت بنفسك في دارك ، أو خرجت عن المدينة إلى بعض أموالك ، فإنهم يطلبونك ، ويضربون إليك آباط الإبل ، حتى يوثوك الخلفة ؛ وهذا هو الظاهر من كلامه ، فليس هذا الرأي عندي بمستحسن ، لأنه لو فعل ذلك لولوا عثمان أو واحداً منهم غيره ، ولم يكن عندهم من الرغبة فيه عليه السلام ما يبيعهم على طلبه ، بل كان تأخره عنهم قرّة أعينهم ، وواقعاً بإيثارهم ، فإن قريشا كلها كانت تبغضه أشد البغض ، ولو عمر عمر نوح ، وتوصل إلى الخلفة بجميع أنواع التوصل ، كالزهد فيها تارة ، والمناشدة بفضائله تارة ، وبما فعله في ابتداء الأمر من إخراج زوجته وأطفاله ليلاً إلى بيوت الأنصار ، وبما اعتمده إذ ذاك من تحلقه في بيته ، وإظهار أنه قد انكف على جمع القرآن ، وبسائر أنواع الحيل فيها ، لم تحصل له إلا بتجريد السيف ، كما فعل في آخر الأمر ، ولست أؤم العرب ، لا سيما قريشا في بغضها له ، وانحرافها عنه ، فإنه وترها ، وسفك دماءها ، وكشف القناع في منابذتها ، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم ،

وليس الإسلام بمنع من بقاء الأحقاد في النفوس ، كما نشاهده اليوم عيانا ، والناس كالناس الأول ، والطبائع واحدة ، فأحسب أنك كنت من سنتين أو ثلاث جاهلياً أو من بعض الروم ، وقد قتل واحد من المسلمين ابنك أو أخاك ، ثم أسلمت ، أو كان إسلامك يذهب عنك ما تجده من بغض ذلك القاتل وشأنه ؟ كلا . إن ذلك لغير ذاهب ، هذا إذا كان الإسلام صحيحا ، والعقيدة محقة ، لا كالسلام كثير من العرب ، فبعضهم تقليدا ، وبعضهم للطمع والكسب ، وبعضهم خوفا من السيف ، وبعضهم على طريق الحميئة والانتظار ، أو لعداوة قوم آخرين من أصدقاء الإسلام وأعدائه .

واعلم أن كل دم أراقه رسول الله صلى الله عليه وآله بسيف على عليه السلام وبسيف غيره ، فإن العريب بعد وفاته عليه السلام عصبت تلك الدماء بعلي بن أبي طالب عليه السلام وحده ، لأنه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعهم وسنتهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعلي وحده ، وهذه عادة العرب إذا قتل منها قتلى طالبت بتلك الدماء القاتل ، فإن مات ، أو تعذرت عليها مطالبتة ، طالبت بها أمثل الناس من أهله . لما قتل قوم من بني تميم أخا لعمر بن هند ، قال بعض أعمدائه يحرّض عمر عليهم (١) :

مَنْ مَبْلَغُ عَمْرٍاءَ بَأْسَ الْمِرَّةِ لَمْ يُخْلَقْ صُبَارَةً (٢)
وَحَوَادِثُ الْأَيَّامِ لَا يَبْقَى لَهَا إِلَّا الْحَجَارَةُ
هَذَا إِنْ عَجَزَ أَمَّهُ بِالسُّفْحِ اسْتَفْلَ مِنْ أَوَارَةٍ (٣)
تَسْفَى الرِّيحَ خِلَالَ كَشْحِيهِ وَقَدْ سَلَبُوا إِزَارَةَ
فَاقْتُلْ زُرَّارَةَ نَلَا الرِّيَّ فِي الْقَوْمِ أَمْثَلُ مِنْ زُرَّارَةِ

(١) هو عمرو بن ملقط الطائي ، والأبيات في تاريخ ابن الأثير ١ : ٣٣٥ ، ضمن خبره عن يوم أواره الثاني . ، وهي أيضا في اللسان ٦ : ١١١ .

(٢) الصبارة : الحجارة الملس ، كأنه يقول : ليس الإنسان بحجر فيصير على مثل هذا .

(٣) أول ولد المرأة يقال له زكوة ، والآخر عجزة .

فأمّره أن يقتل زُرارة بن عُدَس رئيس بني تميم ، ولم يكن قاتلاً أخا الملك ولا حاضراً قَتَله .

وَمَنْ نَظَرَ فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَوَقَائِعِهَا وَمَقَاتِلِهَا عَرَفَ مَا ذَكَرْنَاهُ .

سَأَلَتِ النَّقِيبَ أَبَا جَعْفَرٍ يَحْيَى بْنَ أَبِي زَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ بَقِيَ تِلْكَ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَكَيْفَ مَا اغْتِيلَ^(١)

وَفُتِكَ بِهِ فِي جَوْفِ مَنْزِلِهِ ، مَعَ تَلْظِي الْأَكْبَادِ عَلَيْهِ !

فَقَالَ : لَوْلَا أَنَّهُ أَرْغَمَ أَنْفَهُ بِالْثَّرَابِ ، وَوَضَعَ خَدَّهُ فِي حَضِيضِ الْأَرْضِ لَقُتِلَ ، وَلَكِنَّهُ أَخْمَلَ نَفْسَهُ ، وَاشْتَغَلَ بِالْعِبَادَةِ وَالصَّلَاةِ وَالنَّظَرِ فِي الْقُرْآنِ ، وَخَرَجَ عَنْ ذَلِكَ الزَّيِّ الْأَوَّلِ ؛ وَذَلِكَ الشَّعَارُ وَنَسَى السَّيْفَ ، وَصَارَ كَالْفَاتِكِ يَتُوبُ وَيَصِيرُ سَائِحًا فِي الْأَرْضِ ، أَوْ رَاهِبًا فِي الْجِبَالِ ، وَلَمَّا أَطَاعَ الْقَوْمَ الَّذِينَ وَلَّوْا الْأَمْرَ ، وَصَارَ أَذَلَّ لَهُمْ مِنَ الْحِذَاءِ ، تَرَكَوهُ وَاسْتَكْتَوْا عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ لَتَقْدُمُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَوَاطِئَةٍ مِنْ مَتَوَلَّى الْأَمْرِ ، وَبَاطِنٍ فِي السِّرِّ مِنْهُ ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَوْلَاةِ الْأَمْرِ بَاعَثُ وَدَاعٍ إِلَى قَتْلِهِ وَقَعَ الْإِمْسَاكُ عَنْهُ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَقُتِلَ^(٢) ، ثُمَّ أَجَلَ بَعْدَ مَعْقِلِ حَصِينِ .

فَقُلْتُ لَهُ : أَحَقُّ مَا يَقَالُ فِي حَدِيثِ خَالِدٍ ؟ فَقَالَ : إِنَّ قَوْمًا مِنَ الْعَلَوِيَّةِ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : وَقَدْ رَوَى أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى زُفَرِ بْنِ الْهَذِيلِ ، صَاحِبِ أَبِي حَنِيفَةَ ، فَسَأَلَهُ عَمَّا يَقُولُ أَبُو حَنِيفَةَ فِي جَوَازِ الْخُرُوجِ مِنَ الصَّلَاةِ بِأَمْرِ غَيْرِ التَّسْلِيمِ ، نَحْوَ الْكَلَامِ وَالْفِعْلِ الْكَثِيرِ أَوْ الْحَدَثِ ! فَقَالَ : إِنَّهُ جَائِزٌ ، قَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ فِي تَشْهَدِهِ مَا قَالَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ :

(١) ب : « ما قتل » ، وأثبت ما في أ

(٢) ب : « لقتله » .

وما الذى قاله أبو بكر ؟ قال : لأعليك ، فأعاد عليه السؤال ثانيةً وثالثةً ، فقال : أخرجه أخرجه ، قد كنت أحدث أنه من أصحاب أبي الخطاب .

قلت له : فما الذى تقوله أنت ! قال : أنا أستبعد ذلك وإن روثه الإمامية .
ثم قال : أما خالد فلا أستبعد منه الإقدام عليه بشجاعته فى نفسه ، ولبغضه إياه ، ولكنى أستبعده من أبي بكر ، فإنه كان ذا ورع ، ولم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة ومنع فذلك ، وإغصاب فاطمة وقتل علي عليه السلام ؛ حاش لله من ذلك ! فقلت له : أكان خالد يقدر على قتله ؟ قال : نعم ؛ ولم لا يقدر على ذلك ، والسيوف فى عنقه ، وعلى أعزله غافل عما يراد به ، قد قتله ابن ملجم غيلةً ، وخالد أشجع من ابن ملجم !
فسألته عما ترويه الإمامية فى ذلك ، كيف ألفاظه ؟ فضحك وقال :

* كم عالم بالشئ وهو يسائل *

ثم قال : دعنا من هذا ، ما الذى تحفظ فى هذا المعنى ؟ قلت : قول أبي الطيب :
نَحْنُ أَدْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ أَطْوِيلَ طَرِيقَنَا أَمْ يَطُولُ ^(١)
وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل
فاستحسن ذلك ، وقال : لمن عجز البيت الذى استشهدت به ؟ قلت : لمحمد بن هانىء
المغربى ، وأوله :

فى كل يوم أستزيد تجارباً كم عالم بالشئ وهو يسائل ^(٢) !
فبارك على مرارا ، ثم قال : نترك الآن هذا ونتم ما كنا فيه ، وكنت أقرأ عليه فى ذلك الوقت " جمهرة النسب " لابن الكلبي ، فعدنا إلى القراءة ، وعدلنا عن الخوض عما كان اعترض الحديث فيه .

(٢٤٠)

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثم لحاقه به :

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَا خَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى
انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرْجِ .
في كلام طويل

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَأَطَأُ ذِكْرَهُ » ، مِنْ
الْكَلَامِ الَّذِي رُمِيَ بِهِ إِلَى غَايَتِي الْإِيحَازِ وَالْفَصَاحَةِ ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُغَطِّي خَبْرَهُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَدْءِ خُرُوجِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَكُنْتُ عَنْ
ذَلِكَ بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ الْعَجِيبَةِ .

الشَّيْخُ :

العرج : منزل بين مكة والمدينة، إليه ينسب العرجي الشاعر ، وهو عبدالله بن عمرو
ابن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس .

قال محمد بن إسحاق في كتاب " المغازي " : لم يُعَلِّم رسول الله صلى الله عليه وآله
أحدًا من المسلمين ما كان عزم عليه من الهجرة إلا علي بن أبي طالب وأبا بكر بن أبي
قحافة ، أما علي ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بخروجه وأمره أن يبيت على

فراشه ، يُخَادِعُ الْمُشْرِكِينَ عَنْهُ لِيُرَوْا أَنَّهُ لَمْ يَبْرَحْ فَلَا يَطْلُبُوهُ ، حَتَّى تَبْعُدَ الْمَسَافَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، وَأَنْ يَتَخَلَّفَ بَعْدَهُ بِمَكَّةَ حَتَّى يُوَدِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْوَدَائِعَ الَّتِي عِنْدَهُ لِلنَّاسِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اسْتَوْدَعَهُ رَجُلًا مِنْ مَكَّةَ وَدَائِعَ لَهُمْ ، لِمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَمَانَتِهِ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَنُفِجَ مَعَهُ .

وَسَأَلْتُ النَّقِيبَ أَبَا جَعْفَرٍ يَحْيَى بْنَ أَبِي زَيْدٍ الْحُسَيْنِيَّ ، رَحِمَهُ اللَّهُ فَقُلْتُ : إِذَا كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ مَحَصَّتْ رَأْيَهَا ، وَأَلْقَى إِلَيْهَا إِبْلِيسُ - كَمَا رُوِيَ - ذَلِكَ الرَّأْيَ ، وَهُوَ أَنْ يَضْرِبُوهُ بِأَسْيَافٍ مِنْ أَيْدِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَطُونٍ مُخْتَلِفَةٍ ، لِيَضِيعَ دُمُهُ فِي بَطُونٍ قُرَيْشٍ فَلَا تَطْلُبُهُ بَنُو عَبْدِ مَنْفٍ ، فَلِمَاذَا انْتَظَرُوا بِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الصَّبِيحَ ! فَإِنَّ الرِّوَايَةَ جَاءَتْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا تَسَوَّرُوا الدَّارَ ، فَعَايَنُوا فِيهَا شَخْصًا مَسْجِيًّا بِالْبُرْدِ الْخَضِرِيِّ الْأَخْضَرِ ، فَلَمْ يَشْكُوا أَنَّهُ هُوَ ، فَرَصَدُوهُ إِلَى أَنْ أَصْبَحُوا ، فَوَجَدُوهُ عَلِيًّا . وَهَذَا طَرِيفٌ ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، فَمَا بِهِمْ لَمْ يَقْتُلُوا ذَلِكَ الشَّخْصَ الْمَسْجِيَّ ، وَانْتَظَرُوهُ بِهِ النَّهَارَ دَلِيلَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَرَادُوا قَتْلَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ !

فَقَالَ فِي الْجَوَابِ : لَقَدْ كَانُوا هُمُومًا مِنَ النَّهَارِ بِقَتْلِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَكَانَ إِجْمَاعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَعَزُّهُمْ فِي حَقِّهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ ، لِأَنَّ الَّذِينَ مَحَّصُوا هَذَا الرَّأْيَ وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِ : النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ ابْنُ الْمَطْلَبِ ؛ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ، وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ ، وَأَخُوهُ الْحَارِثُ ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ ، وَنَبِيهِ وَمَنْبِهِ ابْنَا الْحِجَابِ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ؛ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِي سَهْمٍ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وَأَخُوهُ أَبِي بَنٍ خَلْفٍ ، هَذَانِ مِنْ بَنِي بُحَاحٍ ، فَمِمَّا هَذَا الْخَبَرُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى عُثْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، فَلَقِيَ مِنْهُمْ قَوْمًا ، فَتَهَاكُمُ عَنْهُ ، وَقَالَ : إِنَّ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ لَا تَمْسِكُ عَنْ دِمِهِ ، وَلَكِنْ صَفَّدُوهُ

في الحديد ، واحبسوه في دارٍ من دوركم ، وترَبَّصُوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشعراء . وكان عتبة بن ربيعة سيّد بنى عبد شمس ورئيسهم ، وهم من بنى عبد مناف ، وبنو عمّ الرجل ورهطه ، فأحجم أبو جهل وأصحابه تلك الليلة عن قتله إحجاماً ، ثم تسوّرواعليه ، وهم يظنون في الدار ، فلما رأوا إنساناً مسجى بالبُرد الأخضر الحضرمي لم يشكوا أنه هو ؛ وانتمروا في قتله ، فكان أبو جهل يذمرهم^(١) عليه فيهمثون ثم يحجمون . ثم قال بعضهم لبعض : ارموه بالحجارة ، فرمّوه ، فجعل على يتضوّر منها ، ويتقلب ويتأوه تأوهاً خفيفاً ، فلم يزالوا كذلك في إقدام عليه وإحجام عنه ، لما يريد الله تعالى من سلامته ونجاته ، حتّى أصبح وهو وقيد^(٢) من رمى الحجارة ، ولو لم يخرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وأقام بينهم بمكة ، ولم يقتلوه تلك الليلة ، لقتلوه في الليلة التي تليها ، وإن شئت الحرب بينهم وبين عبد مناف ، فإنّ أبا جهل لم يكن بالذى لميسك عن قتله ، وكان فاقد البصيرة ، شديد العزم على الولوغ في دمه !

قلت للنقيب : أفلم رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام بما كان من نهى عتبة لهم ؟ قال : لا ، إنّهما لم يعلمّا ذلك تلك الليلة ، وإنّما عرفاه من بعد ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، لما رأى عتبة وما كان منه : « إن يكن في القوم خير فني صاحب الجمل الأحمر » . ولو قدرنا أن علياً عليه السلام علم ما قال لهم عتبة لم يسقط ذلك فضيلته في المبيت ، لأنه لم يكن على ثقة من أنهم يقبلون قول عتبة ، بل كان ظنُّ الهلاك والقتل أغلب .

وأما حالُ عليٍّ عليه السلام ، فلمّا أدّى الودائع ، خرج بعد ثلاثٍ من هجرة النبي

(١) يذمرهم : يحضهم .

(٢) الوقيد : المشرف على الهلاك .

صلى الله عليه وآله ، فجاء إلى المدينة راجلا قد تورمت قدماه ، فصادف رسول
 صلى الله عليه وآله نازلا بقباء على كلثوم بن الهدم ، فنزل معه في منزله . وك
 أبو بكر نازلا بقباء أيضا في منزل حبيب بن يساف ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه
 وآله وهما معه من قباء ، حتى نزل بالمدينة على أبي أيوب خالد بن يزيد الأنصاري
 وابتنى المسجد .

(٢٤١)

الأفضل

ومن خطبة له عليه السلام :

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ ، وَالْمُدِيرُ يُدْعَى ، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى ، قَبْلَ أَنْ يَخْمَدَ الْعَمَلُ ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ ، وَتَنْقَضِيَ الْمُدَّةُ ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ ، فَأَخَذَ أَمْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ ، وَمِنْ قَانٍ لِبَاقٍ ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ ، أَمْرُؤٌ خَافَ اللَّهَ . وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ ، أَمْرُؤٌ أَجْمَ نَفْسَهُ بِلِجَائِمِهَا ، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا ، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَائِمِهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ .

الشرح :

فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ ، بفتح الباء ، أى فى سَعته ، تقول : أنت فى نَفْسٍ من أمرِك ، أى فى سَعَةٍ .

وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، أى وأنتم بعد أحياء ؛ لأنه لا تطوى صحيفة الإنسان إلا إذا مات . وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ لَكُمْ غَيْرَ مَقْبُوضَةٍ عَنْكُمْ ، ولا مردودة عليكم إن فعلتم ، كما ترد على الإنسان توبته إذا احتضر .

وَالْمُدِيرُ يُدْعَى ، أى مَنْ يدير منكم ، ويؤتى عن الخير يُدْعَى إِلَيْهِ ، وَيُنَادَى : يَا فُلَانُ أَقْبِلْ عَلَى مَا يُصْلِحُكَ !

والمنىء يُرجى ، أى يرجى عوده وإقلاعه .
 قيل أن يحمد العمل ، استعارة مليحة ، لأن الميت يحمد عمله ويقف ، يروى : « يحمد »
 بالخاء ، من خمدت النار ، والأول أحسن .
 وينقطع المهل ، أى العمر الذى أمهاتم فيه .
 وتصعد الملائكة ، لأن الإنسان عند موته تصعد حفظته إلى السماء ، لأنه لم يبق
 لهم شغل فى الأرض .
 قوله : « فأخذ امرؤ » ماض يقوم مقام الأمر ، وقد تقدّم شرح ذلك ، والمعنى أن
 مَنْ يصوم ويصلى فإنما يأخذ بعض قوّة نفسه مما يلتقى من المشقة . لنفسه أى عُدّة وذخيرة
 لنفسه يوم القيامة ، وكذلك مَنْ يتصدق ، فإنه يأخذ من ماله ، وهو جار مجرى
 نفسه لنفسه .
 وأخذ من حىّ لميت ، أى من حال الحياة لحال الموت ، ولو قال : من ميت حىّ ،
 كان جيّداً أيضاً ، لأنّ الحىّ فى الدنيا ليس بحىّ على الحقيقة ، وإنّما الحياة حياة الآخرة ،
 كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ (١) .
 وروى : « أمسكها باجمها » بغير فاء .

(٢٤٢)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام في شأن الحكّمين وذم أهل الشام :

جُفَاءُ طَعَامٌ ، عَبِيدُ أَقْرَامٍ ، جُمُعُوا مِنْ كُلِّ أَوَّلٍ ، وَتَلَقَّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ ،
يَمْنٌ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ ، وَيُعَلَّمَ وَيُدْرَبَ ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ ، وَيُؤْخَذَ عَلَى
يَدَيْهِ ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ .

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا يُحِبُّونَ ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ
لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ . وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ، بِالْأَمْسِ
يَقُولُ : إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطَّعُوا أَوْتَارَكُمْ ، وَشَيَّمُوا سُيُوفَكُمْ ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ
بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمْتَهُ التَّهْمَةُ .

فَلَذْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَخَذُوا مَهْلَ الْأَيَّامِ ،
وَحُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى ، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى !

المشّخ :

جُفَاءُ : جمع جافٍ ، أى هم أعراب أجلاف . والطَّعام : أوغاد الناس ، الواحد
والجمع فيه سواء .

ويقال للأشرار والثلثام : عبيد ، وإن كانوا أحراراً .

والأقزام ، بالزاي : رُذال الناس وسِفَاتهم ، والمسموع قَزَم ، الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء ، لأنه في معنى المصدر؛ قال الشاعر :

وَهُمْ إِذَا الْخَلِيلُ جَالُوا فِي كِتَابِهَا فَوَارِسُ الْخَلِيلِ لَا مِيلَ وَلَا قَزَمَ^(١)

ولكنه عليه السلام قال : « أقزام » ليوازن بها قوله : « طغام » ، وقد روى : « قِزَام » ، وهي رواية جيدة ، وقد نطقت العرب بهذه اللفظة وقال الشاعر :

أَحْصَنُوا أَمَّهُمْ مِنْ عَبْدِهِمْ تِلْكَ أَعْمَالُ الْقِزَامِ الْوَكْعة^(٢)
وَجُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، أَيْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ .

وَتُلَقَّطُوا مِنْ كُلِّ شُوبٍ ، أَيْ مِنْ قِرْقٍ مُخْتَلِطَةٍ .

ثم وصف جهلهم وبعدهم عن العلم والدين ، فقال : مَنْ يَنْبَغِي أَنْ يَفْقَهُ وَيُؤَدِّبَ ، أَيْ يَعْلَمَ الْفَقْهَ وَالْأَدَبَ . ويدرب ، أَيْ يَعُودُ اعْتِمَادَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ .

ويؤلى عليه ، أَيْ لَا يَسْتَحَقُّونَ أَنْ يُؤَلَّوْا أَمْرًا ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُحَجَّرَ عَلَيْهِمْ كَمَا يُحَجَّرُ عَلَى الصَّبِيِّ وَالسَّقِيَّةِ لِعَدَمِ رُشْدِهِ . وروى : « ويؤلى عليه » ، بالتخفيف . ويؤخذ على يديه ، أَيْ يَتَنَعَّ مِنْ التَّصَرُّفِ .

قوله عليه السلام : « وَلَا الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ » ، ظاهر اللفظ يشعر بأن الأقسام ثلاثة وليست إلا اثنين ، لأنَّ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ الْأَنْصَارَ ، ولكنه عليه السلام كرر ذكرهم تأكيداً ، وأيضاً فإن لفظة « الْأَنْصَارِ » واقعة على كُلِّ مَنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ ، الَّذِينَ أَسَمُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ

(١) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، ونسبه إلى زياد بن منقذ .

(٢) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، من غير نسبة ، وأحصنوا ، أَيْ زَوْجُوا .

والإيمان في (١) الآية ، قوم مخصوصون منهم ، وهم أهل الإخلاص والإيمان التام فصار ذكرُ الخاصِّ بعد العام ، كذكره تعالى جبريل وميكائيل ؛ ثم قال : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (٢) ، وهما من الملائكة . ومعنى قوله : « تبوءوا الدار والإيمان » سكنوها ، وإن كان الإيمان لا يسكن كما تسكن المنازل ، لكنهم لما ثبتوا عليه ، واطمأنوا سماء منزلًا لهم ومتبوعًا ، ويجوز أن يكون مثل قوله :

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي الْأَوْنَى مُتَقِلًّا سَيْفًا وَرُمْحًا (٣)

ثم ذكر عليه السلام أن أهل الشام اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبونه ، وهو عمرو بن العاص ، وكرر لفظة « القوم » ، وكان الأصل أن يقول : ألا وإن القوم اختاروا لأنفسهم أقربهم مما يحبون ، فأخرجه مخرج قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٤) . والذي يحبه أهل الشام هو الانتصار على أهل العراق والظفر بهم ، وكان عمرو بن العاص أقربهم إلى بلوغ ذلك ، والوصول إليه بمكره وحيلته وخدائمه . والقوم في قوله ثانيا : « أقرب القوم » ، بمعنى الناس كأنه قال : واختارتم لأنفسكم أقرب الناس ، مما تكرهونه ، وهو أبو موسى الأشعري ، واسمه عبد الله بن قيس ، والذي يكرهه أهل العراق هو ما يحبه أهل الشام ، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم ، واستيلاء أهل الشام عليهم ، وكان أبو موسى أقرب الناس إلى وقوع ذلك ، وهكذا وقع لبليبه وغفلته وفساد رأيه ، وبغضه عايًا عليه السلام من قبل .

ثم قال : أنتم بالأمس ، يعني في واقعة الجمل ، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة

(١) وهو قوله تعالى في سورة الحشر ٩ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

(٢) سورة التحريم ٤ . (٣) لعبد الله بن الزبير ، كما في حواشي ابن القوطية على الكامل ١٨٩ (ليسك) ، وانظر أمالي المرتضى ٢ : ٢٦٠ ، وحواشي شرح المزيقي للحجاسة ١١٤٧ (٤) سورة المائدة ٧ .

عن نُصْرَتِي ، ويقول لهم : هذه هي الفتنة التي وعدنا بها ، فقطّعوا أوتار قسيّكم . وشيّموا سيوفكم ، أي أغمدوها فإن كان صادقا فما باله سار إلَيَّ ، وصار معي في الصفّ ، وحضر حرب صِفِّين ، وكثّر سواد أهل العراق وإن لم يحارب ، ولم يسلّ السيف ، فإنّ مَنْ حَضَرَ في إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب ، وإن كان كاذبا فيما رواه من خَبَر الفتنة فقد لزمته التُّهْمَةُ وَقُبِّحَ الاختلاف إليه في الحكومة ، وهذا يؤكّد صحة إحدى الروايتين في أمر أبي موسى ، فإنه قد اختلفت الرواية : هل حضر حرب صِفِّين مع أهل العراق أم لا ؟ فمن قال : حضر ، قال : حضر ولم يحارب ، وما طلبه البُيَّهَاتِيُّونَ من أصحاب عليّ عليه السلام ليجعلوه حَكَمًا كالأشعث بن قيس وغيره إلا وهو حاضرٌ معهم في الصفّ ، ولم يكن منهم على مسافة ، ولو كان على مسافة لما طلبوه ، ولكان لهم فيمن حضر غناء عنه ، ولو كان على مسافة لما وافق عليّ عليه السلام على تحكيمه ، ولا كان عليّ عليه السلام ممّن يحكّم من لم يحضر معه .

وقال الآكثرون : إنّه كان معتزلا للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام .
فإن قلت : فلم لا يحملُ قوله عليه السلام : « فإن كان صادقا فقد أخطأ بسيره غير مستكرّه » على مسيره . إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل العراق حيث طلبوه ليفوضوا إليه أمر الحكومة ؟

قلت : لو حملنا كلامه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبي موسى ، وكان الجواب عنه هيئاً ، وذلك لأنّ أبا موسى يقول : إنما أنكرت الحرب وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب ، ولا أغري بالحرب ، وإنما سرت للإصلاح بين الناس ، وإطفاء نائرة الفتنة ، فليس يناقض ذلك ما روئته عن الرسول من خبر الفتنة ، ولا ما قلته في الكوفة في واقعة الجمل : « قطعوا أوتار قسيّكم » .

قوله عليه السلام : « فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس » ، يقال لمن يرام كفه عن أمر يتناول له : ادفع في صدره ، وذلك لأن من يقدم على أمر يبدنه فيدفعه يدفع في صدره حقيقة ، فإنه يردّه أو يكاد ، فنقل ذلك إلى الدفع المعنوي .
قوله عليه السلام : « وخذوا مهل الأيام » ، أى اغتنموا سعة الوقت . وخذوه مناهبة قبل أن يضيق بكم أو يفوت .

قوله عليه السلام : « وحفظوا قواصي الإسلام » : ما بعد من الأطراف والنواحي .
ثم قال لهم : « ألا ترون إلى بلادكم تغزى ! » ، هذا يدل على أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمر التحكيم ، لأن معاوية بعد أن تم على أبي موسى من الخديعة تهاشم استعجل أمره ، وبعث السرايا إلى أعمال أمير المؤمنين على عليه السلام .
وتقول : قد رمى فلان صفاة فلان ، إذا دهاه بداهية ، قال الشاعر :

والدهر يوتر قوسه يرمى صفاتك بالمعابل

وأصل ذلك الصخرة الملساء ، لا يؤثر فيها السهام ولا يرميها الرامي ، إلا بعد أن نبك غيرهما ويقول : قد بلغت غارات أهل الشام حدود الكوفة التي هي دار الملك وسرير الخلافة ، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان في غيرها من الأطراف .

[فصل في نسب أبي موسى والرأى فيه عند المعتزلة]

ونحن نذكر نسب أبي موسى وشيئا من سيرته وحاله نقلا من كتاب " الاستيعاب " ،
لابن عبد البر الحديث ، وتتبع ذلك بما نقلناه من غير الكتاب المذكور . قال ابن عبد البر :
هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضارة بن حَرْب بن عامر بن عَنَز بن بكر بن عامر .

ابن عذر بن وائل بن ناجيه بن الجاهر بن الأشعر ، وهو نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن غريب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وأمه امرأة من عك ، أسلمت وماتت بالمدينة ، واختلف في أنه هل هو من مهاجرة الحبشة أم لا ؟ أو الصحيح أنه ليس منهم ، ولكنه أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه ، فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوافق قدمهم قدوم أهل السفينتين جعفر ابن أبي طالب وأصحابه من أرض الحبشة ، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وآله بخيبر ، فظن قوم أن أبا موسى قدم من الحبشة مع جعفر .

وقيل إنه لم يهاجر إلى الحبشة ، وإنما أقبل في سفينة مع قوم من الأشعريين ، فرمت الريح سفينتهم إلى أرض الحبشة ، وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه ، فكان قدمهم معاً ، فظن قوم أنه كان من مهاجرة الحبشة .

قال : وولاه رسول الله صلى الله عليه وآله من تحاليف اليمن زبيد ، وولاه عمر البصرة ، لما عزل المغيرة عنها ، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها ، وولاه عبد الله بن عامر بن كرز ، فنزل أبو موسى الكوفة حينئذ ، وسكنها ، فلما كره أهل الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها ، ولوا أبا موسى ، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يوليّه ، فأقرّه على الكوفة ، فلما قتل عثمان عزله على عاوية السلام عنها ، فلم يزل واجداً لذلك على علي عليه السلام ، حتى جاء منه ما قال حذيفة فيه ، فقد روى حذيفة فيه كلاماً كرهت ذكره والله يغفر له ^(١)

قلت : الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البر ولم يذكره قوله فيه ، وقد ذكر عنده بالدين ، أما أنتم فتقولون ذلك ، وأما أنا فأشهد أنه عدو لله ولرسوله ، وحرب لهما في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم

(١) الاستيعاب ٣٨٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ .

سوء الدار . وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين ، أسرَّ إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم ، وأعلمه أسماءهم .

وروى أن عماراً سئل عن أبي موسى ، فقال : لقد سمعتُ فيه من حذيفة قولاً عظيماً ، سمعته يقول : صاحب البُرْنس الأسود ، ثم كَلَحَ كُلُّوْحاً عامت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط .

وروى عن سويد بن غفلة : قال : كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات في خلافة عثمان ، فروى لي خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سمعته يقول : « إن بني إسرائيل اختلفوا ؛ فلم يزل الاختلاف بينهم ، حتى بعثوا حَكَمِينَ ضالِّين ضللاً وأضللاً مَن اتبعهما ، ولا ينفك أمر امتي حتى يبعثوا حَكَمِينَ يَضِلُّان ويُضِلَّان من تبعهما » ، فقلت له : احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما ! قال : نخلع قميصه ، وقال : أبرأ إلى الله من ذلك ، كما أبرأ من قميصي هذا .

فأما ما تعتقده المعتزلة فيه ، فأنا أذكر ما قاله أبو محمد بن متويه في كتاب " الكفاية " ، قال رحمه الله :

أما أبو موسى فإنه عظم جُرمه بما فعله ، وأدَّى ذلك إلى الضرر الذي لم يخف حائله ، وكان على عليه السلام يقنتُ عليه وعلى غيره ، فيقول : اللهم العن معاوية أولاً وعمرأ ثانياً ، وأبا الأعور السلمي ثالثاً ، وأبا موسى الأشعري رابعاً .

روى عنه عليه السلام : أنه كان يقول في أبي موسى : صبغ بالعلم صبغاً وسلخ منه سلخاً .

قال : وأبو موسى هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : كان في

بنى إسرائيل حكماء ضالان ، وسيكون في أمّتي حكماء ضالان ، ضالّ من اتبعهما .
 وأنه قيل له : ألا يجوز أن تكون أحدهما ؟ فقال : لا - أو كلاماً ، ما هذا معناه - فقلنا .
 بلى به ، قيل فيه : البلاء موكل بالمنطق ، ولم يثبت في توبته ما ثبت في توبة غيره ، وإن
 كان الشيخ أبو عليّ قد ذكر في آخر كتاب الحكمين أنه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام
 في مرض الحسن بن عليّ ، فقال له : أجتنا عائدا أم شامتا ؟ فقال بل عائدا ، وحدّث
 بحديث في فضل العيادة .

قال ابن متويه : وهذه أمارّة ضعيفة في توبته .
 انتهى كلام ابن متويه ، وذكرته لك لتعلم أنه عند المعتزلة من أرباب الكبائر ،
 وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها .

قال أبو عمر بن عبد البرّ : واختلف في تاريخ موته ، فقيل : سنة اثنتين وأربعين ،
 وقيل : سنة أربع وأربعين ، وقيل سنة خمسين ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين .
 واختلف في قبره ، فقيل : مات بمكة ودفن بها ، وقيل مات بالكوفة
 ودفن بها .

(٢٤٣)

الأفضل

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله :

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ ، يَخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عَلَيْهِمْ ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حُكْمِ مَنْطِقِهِمْ . لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَهُمْ دُعَايُمُ الْإِسْلَامِ ، وَوَلَا تُجِ الْعِصَصَامِ ، بِهِمْ عَادَ الْخَلْقُ إِلَى نِصَابِهِ ، وَأَنْزَاخَ الْبَاطِلُ عَنْ مَقَامِهِ ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنَابِتِهِ ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وَعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرَوَايَةٍ ، فَإِنْ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَرُعَايَتُهُ قَلِيلٌ .

البُزْخ :

يقول : بهم يحيا العلم ويموت الجهل ؛ فسماهم حياة ذاك ، وموت هذا ، نظرا إلى السببية ؛ يدلّكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم ، ويدلّكم ماظهر منهم من الأفعال الحسنة على ما بطن من إخلاصهم ، ويدلّكم صمتهم وسكوتهم عما لا يعينهم ، عن حكمة منطقهم .

ويروى : « ويدلّكم صمتهم على منطقهم » ؛ وليس في هذه الرواية لفظة « حكم » .

لا يخالفون الحقّ : لا يعدلون عنه ، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب ؛ فمنهم من له في المسألة قولان وأكثر ، ومنهم من يقول قولاً ثم يرجع عنه ، ومنهم من يرى في أصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه .

ودعائم الإسلام : أركانه .

والولائج : جمع وليجة ، وهي الموضع يدخل إليه ويستتر فيه ، ويعتصم به .
وعاد الحق إلى نصابه : رجع إلى مستقرّه وموضعه : وانزاح الباطل : زال . وانقطع
لسانه : انقطعت حجّته .

عقلوا الدين عقل رعاية ، أى عرفوا الدين وعلموه معرفة من وعى الشئ وفهمه
وأتقنه . ووعاية ، أى وعوا الدين وحفظوه وحاطوه ، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع
ورواية ، فإن من يروى العلم ويسنده إلى الرجال يأخذه من أفواه الناس كثير ، ومن
يحفظ العلم حفظ فهم وإدراك ، أصالة لا تقليداً قليل .

تم الجزء الثالث عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ؛
ويليه الجزء الرابع عشر

فهرس الخطب*

صفحة	
٣	٢٢٤ - من كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة
٨-٥	٢٢٥ - من خطبة له عليه السلام يحث فيها على التقوى ويستطرد إلى وصف الزهاد
٩	٢٢٦ - من خطبة له عليه السلام خطبها بذي قار وهو متوجه إلى البصرة
١٠	٢٢٧ - من كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة على إثر خلافته
١٢	٢٢٨ - من كلام له عليه السلام في وصف اللسان ، واستطرد إلى وصف زمانه
١٨	٢٢٩ - من كلام له عليه السلام ، وقد ذكر عنده اختلاف الناس
٤٣-٢٧	٢٣٠ - من كلام له عليه السلام قاله وهو يلى غسل رسول الله وتجهيزه
	٢٣١ - من خطبة له عليه السلام في تمجيد الله وتوحيده ، وذكر رسالة محمد
٦٦-٤٤	عليه السلام ، ثم استطرد إلى عجيب خلق الله لأصناف الحيوان
٩١-٦٩	٢٣٢ - من خطبة له عليه السلام في التوحيد
٩٥	٢٣٣ - من خطبة له عليه السلام تختص بالملاحم
	٢٣٤ - من خطبة له عليه السلام يوصى الناس فيها بالتقوى ويذكرهم
٩٩	الموت ويحذرهم الغفلة
١٠١	٢٣٥ - من كلام له عليه السلام في الإيمان
	٢٣٦ - من خطبة له عليه السلام في الحث على التقوى ويذكر الناس
١١١-١١٠	بأسر الآخرة
	٢٣٧ - من خطبة له عليه السلام في حمد الله وتمجيده والتزهيد في الدنيا
١١٦-١١٥	والترغيب في الآخرة
	٢٣٨ - من خطبة له عليه السلام ؛ وهي التي تسمى الخطبة القاصعة ؛
١٢٧	وتتضمن ذم إبليس ، ويحذر الناس من سلوك طريقته

(*) وهي الخطب الواردة في نهج البلاغة

صفحة

- ٢٣٩ - من كلام له عليه السلام قاله لعبد الله بن العباس، وقد جاء برسالة
من عثمان وهو محصور
٢٤٠ - من كلام له عليه السلام اقتصّ فيه ما كان منه بعد هجرة النبي
صلى الله عليه وسلم ثم لحاقه به
٣٠٣
٣٠٧ - من خطبة له عليه السلام في الزهد
٢٤٢ - من خطبة له عليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام
٣٠٩
٢٤٣ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد عليه السلام
٣١٧

فهرس الموضوعات*

- ١١، ١٠ عبد الله بن زمعة ونسبه
١٧-١٣ ذكر من أرتج عليهم أو حصروا عند الكلام
٤٣-٢٧ ذكر طرف من سيرة النبي عليه السلام عند موته
٥٤-٥٠ من أشعار الشارح في المناجاة
٦٣-٥٧ فصل في ذكر أحوال الذرة ومجائب النملة
٦٨-٦٧ ذكر غريب أحوال الجرادة وما احتوت عليه من صنوف الصنعة
١٠٩-١٠٧ قصّة وقعت لأحد الوعاظ ببغداد
١٧٧-١٧٤ فصل في ذكر الأسباب التي دعت العرب إلى وأد البنات
٢٠١-١٩٨ ذكر ما كان من صلة على برسول الله في صغره
٢١٢-٢٠١ ذكر حال رسول الله في نشأته
٢٩٥-٢١٥ القول في إسلام أبي بكر وعلى وخصائص كل منهما
٢٩٩-٢٩٧ وصية العباس قبل موته لعليّ
٣١٦-٣١٣ فصل في نسب أبي موسى والرأي فيه عند المعتزلة

(*) وهي الموضوعات الواردة في المرح ..

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع عشر

دار الحديث
بيروت

حقوق الطبع محفوظة للنشر

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

باب الكتب والرسائل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأفضل :

باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأوليائه^(١) ، ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه .

الشرح :

لما فرغ من إيراد المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه الجارى بجري الخطب من المواعظ والزواجر ، شرع في إيراد باب من مختار كلامه عليه السلام ، وهو ما كان جارياً بجري الرسائل والكتب ، ويدخل في ذلك العهود والوصايا . وقد أورد في هذا الباب ما هو بالباب الأول أشبهه ، نحو كلامه عليه السلام لشريح القاضي لما اشترى داراً ، وكلامه لشريح بن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام .
وسمى ما يكتب للولاية عهداً اشتقاقاً من قولهم : عهدت إلى فلان ، أى أوصيته .

(١) ١ : « وأمرء بلاده » .

(١)

الأفضل :

من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَليَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبَّةَ الْأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ.
أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أَخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعْيَانِهِ .
إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرُ اسْتِعْتَابَهُ . وَأَقُلُّ^(١)
عِتَابَهُ ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ ، وَأَرْفَقُ حَدَائِهِمَا الْعَنِيفُ . وَكَانَ
مِنْ عَائِشَةٍ فِيهِ فَلْتَةٌ غَضَبٍ ، فَأَتَيْحَ لَهُ قَوْمٌ قَتَلُوهُ ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ ،
وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا ، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمَرْجَلِ ،
وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ ، فَاسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ .
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشرح :

قوله : « جبهة الأنصار » ؛ يمكن أن يريد جماعة الأنصار ، فإنَّ الجبهة في اللغة
الجماعة ويمكن أن يريد به سادة الأنصار وأشرافهم ، لأنَّ جبهة الإنسان أعلى أعضائه ،
وليس يريد بالأنصار هاهنا بنى قتيبة^(٢) ، بل الأنصار هاهنا الأعوان .

(٢) هي قيلة أم الأوس والخزرج .

(١) مخطوطة النهج : « فأقل » .

قوله عليه السلام : « وسنام العرب » ؛ أى أهل الرفعة والعلو منهم ، لأنّ السنام أعلى أعضاء البعير .

قوله عليه السلام : « أكثر استمتابه وأقل عتابه » ، الاستعتاب : طلب العُتْبَى ، وهى الرضا ، قال : كنت أكثر طلبَ رضاه ، وأقل عتابه وتعنيفه على الأمور ، وأما طلحة والزبير فكانا شديدين عليه .

والوجيف : سير سريع ، وهذا مثَلُ المشمرين^(١) فى الطعن عليه ، حتى إنّ السير السريع أبطأ ما يسيران فى أمره ، والحذاء العنيف أرفق ما يحرضان به عليه .
ودار الهجرة : المدينة .

وقوله : « قد قلعت بأهلها وقلعوا بها » ، الباء ها هنا زائدة فى أحد الموضعين ، وهو الأول ، وبمعنى « من » فى الثانى ، يقول : فارقت أهلها وفارقوها ، ومنه قولهم : « هذا منزل قلعة » أى ليس بمستوطن .
وجاشت : اضطربت . والمِرْجَل : القِدْر .

ومن لطيف الكلام قوله عليه السلام : « فكنت رجلا من المهاجرين » ، فإن فى ذلك من التخلّص والتبرّى ما لا يخفى على المتأمّل ، ألا ترى أنّه لم يبق عليه فى ذلك حجة لطاعن ، حيث كان قد جعل نفسه كواحدٍ من عُرُض المهاجرين ، الذين بنفٍ يسير منهم انعقدت خلافة أبى بكر ، وهم أهل الحلّ والعقد ، وإنما كان الإجماع حجةً لدخولهم فيه .

ومن لطيف الكلام أيضا قوله : « فأتيج له قوم قتلوه » ، ولم يقل : « أتاح الله له قوما » ، ولا قال : « أتاح له الشيطان قوما » ، وجعل الأمر مبهما .
وقد ذكر أنّ خط الرضىّ رحمه الله « مستكرهين » بكسر الراء ، والفتح أحسن وأصوب ، وإن كان قد جاء : استكرهتُ الشيء بمعنى كرهته .

(١) : « وهذا مثل فى العرب للمشر فى الطعن عليه » .

وقال الراوندى : المراد بدار الهجرة ها هنا الكوفة التى هاجر أمير المؤمنين عليه السلام إليها ، وليس بصحيح ، بل المراد المدينة ، وسياق الكلام يقتضى ذلك ، ولأنه كان حين كتب هذا الكتاب إلى أهل الكوفة بعيداً عنهم ، فكيف يكتب إليهم يخبرهم عن أنفسهم .

* * *

[أخبار عليّ عند مسيره إلى البصرة، ورسله إلى أهل الكوفة]

وروى محمد بن إسحاق عن عمه عبد الرحمن بن يسار القرشي ، قال : لما نزل على عليه السلام الرّبذة متوجّها إلى البصرة بعث إلى الكوفة محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق ، وكتب إليهم هذا الكتاب ، وزاد في آخره :
فحسبي بكم إخواناً ، وللدين أنصاراً ، فإني أنفروا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١) .
وروى أبو مخنف ، قال : حدّثنِي الصَّقْعَب ، قال : سمعتُ عبد الله بن جُنادة يحدث أنّ عليّاً عليه السلام لما نزل الرّبذة بعث هاشم بن عُتبة بن أبي وقاص إلى أبي موسى الأشعري ، وهو الأمير يومئذ على الكوفة ، لينفِرَ إليه النَّاسُ ، وكتب إليه معه :
من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . أمّا بعد ، فإنّي قد بعثت إليك هاشم بن عُتبة لتُشخِّصَ إليّ مَنْ قَبْلَكَ من المسلمين ليتوجَّهوا إلى قوم نكثوا بيعتي ، وقتلوا شيعتي ، وأحدثوا في الإسلام هذا الحدث العظيم ، فاشخِّصْ بالنَّاسِ إليّ معه حين يقدم عليك ، فإنّي لم أولئك المصِر الذي أنت فيه ، ولم أقرئك عليه إلّا لتكون من أعوانى على الحقِّ ، وأنصاري على هذا الأمر ، والسَّلام .

فأما رواية محمد بن إسحاق فإنه قال : لما قدم محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر الكوفة ، استنفرا^(١) الناس ، فدخل قومٌ منهم على أبي موسى ليلاً ، فقالوا له : أشير علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى عليّ عليه السلام ، فقال : أمّا سبيلُ الآخرة فالزموا بيوتكم ، وأمّا سبيلُ الدنيا فاشخصوا معهم . فنعى بذلك أهل الكوفة من الخروج . وبلغ ذلك الحمدني ، فأغلظاً لأبي موسى ، فقال أبو موسى : والله إنّ بيعة عثمان لفي عنق عليّ وعنقي وأعناقكم ، ولو أردنا قتالاً ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قتل عثمان . فخرجنا من عنده ، فلحقنا بعليّ عليه السلام ، فأخبراه الخبر .

وأما رواية أبي مخنف ؛ فإنه قال : إنّ هاشم بن عتبة لما قدم الكوفة ، دعا أبو موسى السائب بن مالك الأشعري ، فاستشاره ، فقال : اتبع ما كتب به إليك . فأبى ذلك ، وحبس الكتاب ، وبعث إلى هاشم يتوعده ويخوفه .

قال السائب : فأتيت هاشماً فأخبرته برأى أبي موسى ، فكتب إلى عليّ عليه السلام :

لعبد الله على أمير المؤمنين من هاشم بن عتبة . أمّا بعدُ يا أمير المؤمنين ؛ فإنّي قدمت بكتابك على امرئٍ مُشاقٍ بعيد الودّ ، ظاهر الغلّ والشنآن ، فتهددني بالسجن ، وخوفني بالقتل ، وقد كتبتُ إليك هذا الكتاب مع الحلّ بن خليفة ، أخى طيّبٍ ، وهو من شيعتك وأنصارك ، وعنده علمٌ ما قبلنا ، فأسأله عمّا بدا لك ، واكتب إلى رأيك والسلام .

قال : فلما قدم الحلّ بكتاب هاشم على عليّ عليه السلام سلّم عليه ، ثم قال : الحمد لله الذي أدّى الحقّ إلى أهله ، ووضع موضعه ؛ فكرة ذلك قوم قد والله كرهوا نبوة محمد صلى الله عليه وآله ، ثم بارزوه وجاهدوه ، فردّ الله عليهم كيدهم في نحرهم ، وجعل دائرة السوء عليهم . والله يا أمير المؤمنين لنجاهدّهم معك في كلّ موطن ؛ حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، إذ صاروا أعداء لهم بعده .

(١) : « واستنفرا » ، وما أنبته من ب .

فرحّب به عليّ عليه السلام ، وقال له خيرا ، ثمّ أجلسه إلى جانبه ، وقرأ كتاب هاشم ، وسأله عن الناس وعن أبي موسى ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أثقُ به ولا آمنه على خلافك ، إن وجد مَنْ يساعده على ذلك . فقال عليّ عليه السلام : والله ما كان عندي بمؤمن ولا ناصح ، ولقد أردت عزّله فأتاني الأشر ، فسألني أن أقرّه ، وذكر أن أهل الكوفة به راضون فأقرّزته .

وروى أبو مخنف ، قال : وبعث عليّ عليه السلام من الرّبذة بعد وصول الحلّ بن خليفة ،^(١) أخى طيّب ، عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى ؛ وكتب معهما : من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، أمّا بعد يا بن الحائك ، يا عاضّ أيرٍ أبيه ، فوالله إنني كنت لأرى أن بُعدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلا ، ولا جعل لك فيه نصيبا ، سيمنعك من ردّ أمرى والانتزاء^(٢) على . وقد بعثت إليك ابن عباس وابن أبي بكر نخلهما والمضر وأهله ، واعتزل عملنا مذكوما مدحورا . فإن فعلت وإلا فإني قد أمرتهما أن يناداك على سواء ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين . فإذا ظهرا عليك قطعك إرزا وإرزا ، والسلام على مَنْ شكر النعمة ، ووفّى بالبيعة ، وعمل برجاء العاقبة .

قال أبو مخنف : فلما أبطأ ابن عباس وابن أبي بكر عن عليّ عليه السلام ، ولم يدرِ ما صنعا ، رحل عن الرّبذة إلى ذي قارٍ فنزلها ، فلما نزل ذا قارٍ ، بعث إلى الكوفة الحسن ابنه عليه السلام وعمار بن ياسر وزيد بن صوحان وقيس بن سعد بن عبادة ، ومعهم كتاب إلى أهل الكوفة ، فأقبلوا حتى كانوا بالقادسيّة ، فتلقاهم الناس ، فلما دخلوا الكوفة قرءوا كتاب عليّ ، وهو

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين ، إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين :

(٢) الانتزاء : الوثوب .

(١-١) ساقط من ب .

أما بعدُ ؛ فإنّي خرجت مخرجي هذا ؛ إِمّا ظالماً، وإِمّا مظلوماً، وإِمّا باغياً ، وإِمّا مبيغياً
على ، فأُشدد الله رجلاً باغية كتابي هذا إلّا نفر إلى ، فإن كنتُ مظلوماً أعانني ، وإن كنت
ظالماً استعذبني . والسلام .

قال أبو مخنف : لحدثني موسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبيه ، قال : أقبلنا
مع الحسن وعُمّار بن ياسر من ذِ قار ، حتى نزلنا القادسية ، فنزل الحسن وعُمّار ، ونزلنا
معهم ، فاحتبى عُمّارٌ بحمائل سيفه ، ثم جعل يسأل الناس عن أهل الكوفة وعن حالهم ،
ثم سمعته يقول : ما تركت في نفسي حزة أهمّ إليّ من ألا نكون نبشنا عثمان من قبره ،
ثم أحرقناه بالنار .

قال : فأما دخل الحسن وعُمّار الكوفة ، اجتمع إليهما الناس ، فقام الحسن ، فاستنفر
الناس ، فحمد الله وصلى على رسوله ، ثم قال : أيّها الناس ، إنّا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى
كتابه وسنة رسوله ، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين ، وأعدل من تعدّلون ، وأفضل من
تفضّلون ، وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم يُجهله السنّة ولم تقعده السابقة ،
إلى من قرّبه الله تعالى إلى ^(١) رسوله قرايتين : قرابة الدين وقرابة الرّحيم ، إلى من سبق الناس إلى
كلّ مأثرة ، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون ؛ فقتل منه وهم متباعدون ، وصلى
معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منزهون ، وبارز معه وهم محجّمون ، وصدّقه وهم
يكذبون . إلى من لم تُردّ له رواية ولا تُكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصّر ، ويدعوكم إلى
الحقّ ، ويأمركم بالمسير إليه ، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته ، وقتلوا أهلّ
الصلاح من أصحابه ، ومثّلوا بعمّاله ، وانهبوا بيت ماله . فاشخصوا إليه رحمكم الله ، فمروا
بالمعروف وانهوّا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون ^(٢) .

قال أبو مخنف : حدثني جابر بن يزيد ، قال : حدثني تميم بن حذيم الناجي ، قال : قدم علينا

الحسن بن علي عليه السلام وعمار بن ياسر، يستنفران الناس إلى علي عليه السلام، ومعهما كتابه، فلما فرغا من قراءة كتابه، قام الحسن - وهو فتى حدث، والله إني لأرثي له من حداثة سنّه وصعوبة مقامه - فرماه الناس بأبصارهم وهم يقولون: اللهم سدّد منطق ابن بنت نبيّنا! فوضع يده على عمود يتساند إليه، وكان عليلاً من شكوى به، فقال: الحمد لله العزيز الجبار، الواحد القهار، الكبير المتعال، ﴿سِوَاكَ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾. أحمده على حسن البلاء، وتظاهر النعماء، وعلى ما أحبيننا وكرهنا من شدة ورعاء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، امتنّ علينا بنبوته، واختصّه برسالته، وأنزل عليه وحيه، واصطفاه على جميع خلقه، وأرسله إلى الإنس والجنّ، حين عُيِدَتِ الأوثان وأطيع الشيطان، وجُعِدَ الرحمن، فصلّى الله عليه وعلى وآله وجزاه أفضل ما جزى المسلمين. أمّا بعد فإني لا أقول لكم إلا ما تعرفون، إن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - أرشد الله أمره، وأعزّ نصره - بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب، وإلى العمل بالكتاب، والجهاد في سبيل الله، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون، فإنّ في آجله ما تحبّون إن شاء الله. ولقد علمتم أنّ عليّاً صلّي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وحده، وإنه يوم صدّق به لفي عاشرة من سنّه، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله جميع مشاهده. وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله راضياً عنه، حتى غمّضه بيده وغسله وحده، والملائكة أعوانه، والفضل ابن عمّه ينقل إليه الماء، ثم أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دينه وعيادته، وغير ذلك من أموره، كلّ ذلك من منّ الله عليه. ثم والله مادعا إلى نفسه، ولقد تذاكّ الناس عليه تذاكّ الإبل الهيم عند ورودها، فبايعوه طائعين، ثم نكث منهم نا كثون بلا حدّثٍ أحدثه، ولا خلافٍ أتاه حسداً له وبغياً عليه. فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته، والجدّ والصبر والاستعانة بالله

والخوف إلى مادعاكم إليه أمير المؤمنين . عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بما عصم به أوليائه وأهل طاعته ، وألهمنا وإيَّاكم تقواه ، وأعاننا وإيَّاكم على جهاد أعدائه . وأستغفر الله العظيم لي ولكم . ثم مضى إلى الرُّحبة ، فهيئاً منزلاً لأبيه أمير المؤمنين .

قال جابر : قتلت لتيمة : كيف أطاق هذا الغلام ما قد قصصته من كلامه ؟ فقال : ولما سقط عني من قوله أكثر ، ولقد حفظت بعض ما سمعت .

قال : ولما نزل على عليه السلام ذا قارٍ ، كتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر : أما بعد ، فإنني أخبرك أن علياً قد نزل ذا قارٍ ، وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا ، فهو بمنزلة الأشقر ؛ إن تقدم عُقر ، وإن تأخر نُحْر ، فدعت حفصة جوارى لها يتغنين ويضربن بالدفوف ، فأمرتهن أن يقلن في غنائهن : ما الخبر ما الخبر ، على في السفر ، كالفرس الأشقر ، إن تقدم عُقر ، وإن تأخر نُحْر .

وجعلت بنات الطلقاء يدخلن على حفصة ، ويحتمعن لسماع ذلك الفناء .

فبلغ أم كلثوم بنت علي عليه السلام ، فلبست جلابيبها ، ودخلت عليهن في نسوة متنكرات ، ثم أسفرت عن وجهها ، فلما عرفتها حفصة خجلت ، واسترجعت ، فقالت أم كلثوم : لئن تظاهرتما عليه منذ اليوم ، لقد تظاهرتما على أخيه من قبل ، فأُنزل الله فيكما ما أنزل !

فقالت حفصة : كفى رحلك الله ! وأمرت بالكتاب فزقي ، واستغفرت الله .

قال أبو مخنف : روى هذا جرير بن يزيد ، عن الحكم ، ورواه الحسن بن دينار ، عن الحسن البصري .

وذكر الواقدي مثل ذلك ، وذكر المدائني أيضاً مثله ، قال : فقال سهل بن حنيف في ذلك هذه الأشعار :

عَذَرْنَا الرَّجَالَ بِحَرْبِ الرِّجَالِ فَمَا لِلنِّسَاءِ وَمَا لِلنَّبَاتِ !
أَمَّا حَسْبُنَا مَا أَتَيْنَا بِهِ ! لَكَ الْخَيْرُ مِنْ هَتَكَ ذَاكَ الْحِجَابِ
وَمَخْرَجُهَا الْيَوْمَ مِنْ بَيْتِهَا يُعْرِفُهَا الذَّنْبُ نَبْحُ الْكِلاَبِ
إِلَى أَنْ أَتَانَا كِتَابُهَا مَشُومٌ ، فَيَاقِبِحُ ذَاكَ الْكِتَابِ !

قال : فحدثنا الكلبي ، عن أبي صالح أن عليا عليه السلام ؛ لما نزل ذا قار في قلة من
عسكره ، صعد الزبير منبر البصرة ، فقال : ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي ، فأبيته
بياتا ، وأصبحه صباحا ، قبل أن يأتيه المزد ؛ فلم يجبه أحدٌ ، فنزل واجما ، وقال : هذه والله
الفتنة التي كنا نخدث بها ! فقال له بعض مواليه : رحمك الله يا أبا عبد الله ! تسميها فتنة
ثم نقاتل فيها ! فقال : ويحك ! والله إنا لنبصر ثم لا نصبر . فاسترجع المولى ثم خرج في
الليل فارّا إلى علي عليه السلام فأخبره ، فقال : اللهم عليك به !

قال أبو مخنف : ولما فرغ الحسن بن علي عليه السلام من خطبته ، قام بعده عمار ،
فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : أيها الناس ، أخو نبيكم وابن عمه
يستغفركم لنصر دين الله ، وقد بلاكم الله بحق دينكم ، وحرمة أممكم ، لحق دينكم وأوجب ،
وحرمة أعظم . أيها الناس ، عليكم بإمام لا يؤدّب ، وفقه لا يعلم ، وصاحب بأس لا ينكل ،
وذى سابقة في الإسلام ليست لأحد ، وإنكم لو قد حضتموه بينكم أمركم
إن شاء الله .

قال : فلما سمع موسى خطبة الحسن وعمار ، قام فصعد المنبر ، وقال : الحمد لله
الذي أكرمنا بمحمد ، فجمعنا بعد الفرقة ، وجعلنا إخوانا متحابين بعد العداوة ، وحرّم
علينا دماءنا وأموالنا ، قال الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ ^(١) . فاتقوا الله عباد الله ، وضعوا أسلحتكم ، وكفّوا عن قتال إخوانكم .

أما بعد يا أهل الكوفة ، إن تطيعوا الله باديًا ، وتطيعوني ثانيا ، تكونوا جُرثومة من جرائيم العرب ، يأوى إليكم المضطر ، ويأمن فيكم الخائف . إن عليا إنما يستنفركم لجهاد أممكم عائشة وطلحة والزبير حواري رسول الله ومن معهم من المسلمين ، وأنا أعلم بهذه الفتن أنها إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبرف أسفرت ، إني أخاف عليكم أن يلتقي غارن منكم فيقتتل ثم يتركا كالأحلاس للملقة بنجوة من الأرض ، ثم يبقى رجرجة ^(٢) من الناس ، لا يأمرؤن بالمعروف ، ولا ينهون عن منكر . إنها قد جاءتكم فتنة كافرة لا يدري من أين تؤتى ! تترك الحليم حيران ! كأنّي أسمعُ رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمس يذكر الفتن ، فيقول : « أنت فيها نائمًا خيرٌ منك قاعدا ، وأنت فيها جالسًا خيرٌ منك قائمًا ، وأنت فيها قائمًا خيرٌ منك ساعيًا » . فثاموا سيوفكم وقصّفوا رماحكم ، وانصلوا ^(٣) سهامكم ، وقطّعوا أوتاركم ، وخلّوا قريشا ترتق فتقها ، وترأب صدعها ، فإن فعلت فلا نفسها مافعلت ، وإن أبت فعلى أنفسها ما جنت ، سمّنها في أديمها . استنصحنوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني ولا تعصوني ، يتبين لكم رشدكم ، ويصلي هذه الفتنة من جناها .

فقام إليه عمار بن ياسر ، فقال : أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك ! قال : نعم هذه يدى بما قلت ، فقال : إن كنت صادقًا فإنما عناك بذلك وحدك ، واتخذ عليك الحجة ، فالزم بيتك ولا تدخلن في الفتنة ، أما إني أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر عليًا بقتال الناكثين ، وسمّى له فيهم من سمى ، وأمره بقتال القاسطين ، وإن شئت لأقيمّن لك شهودا يشهدون أن رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) سورة النساء ٩٣ .

(٢) الرجرجة : البقية ، وأصله في الماء .

(٣) أنصل السهم : أزال عنه النصل .

إِنَّمَا نَهَاكَ وَحَدَّكَ ، وَحَذَّرَكَ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْفِتْنَةِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَعْطَنِي يَدَكَ عَلَى مَا سَمِعْتَ . فَمَدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَمَّارٌ : غَلَبَ اللَّهُ مَنْ غَالِبَهُ وَجَاهَدَهُ ! ثُمَّ جَذَبَهُ فَنَزَلَ عَنْ الْمَنْبَرِ .

وروى محمد بن جرير الطبري في " التاريخ " ، قال : لما أتى عليّاً عليه السلام الخبرُ وهو بالمدينة بأمرِ عائشة وطلحة والزبير ، وأنهم قد توجَّهوا نحو العراق ، خرج يُبادر^(١) ، وهو يرجو أن يدرِكهم ويردِّهم ، فلما انتهى إلى الرِّبْذَةِ أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا ، فأقام بالرِّبْذَةِ أَيَّاماً ، وأتاه عنهم أنهم يريدون البَصْرَةَ ، فسُرَّ بذلك ، وقال : إنَّ أهل الكوفة أشدُّ لي حُبًّا ، وفيهم رؤساء العرب وأعلامهم . فكتب إليهم : إنِّي قد اخترتكم على الأمصار ، وإني بالأثر^(٢) .

قال أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله : كتب عليٌّ عليه السلام من الرِّبْذَةِ إلى أهل الكوفة : أما بعد ، فإنِّي قد اخترتكم ، وآثرت التَّزَوُّلَ بين أظهركم ، لما أعرف من مودَّتكم وحبِّكم لله ورسوله ، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحقَّ ، وقضى الذي عليه .

قال أبو جعفر : فأولُ مَنْ بعثه عليٌّ عليه السلام من الرِّبْذَةِ إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر ، فجاء أهل الكوفة إلى أبي موسى ، وهو الأمير عليهم ليستشيروهم^(٣) في الخروج إلى عليِّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال لهم : أمَّا سبيلُ الآخرةِ فأنَّ تقعدوا ، وأمَّا سبيلُ الدنيا فأنَّ تخرجوا .

وبلغ الحمد بن قول أبي موسى الأشعري ، فأتياه وأغلظا له ، فأغلظ لهما ، وقال :

(١) تاريخ الطبري : « يبادرهم » . (٢) تاريخ الطبري ١ : ٣١٠٦ (طبعة أوربا) .

(٣) ب : « يستشيرونه » .

لا يحلّ لك القتال مع عليّ حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان .
وقالت أخت عليّ بن عدى ، من بني عبد العزّى بن عبد شمس ، وكان أخوها عليّ
ابن عدى من شيعة عليّ عليه السلام ، وفي جملة عسكره :
لاهمّ فاعقر بعليّ جماله ولا تبارك في بعير حمّله
* ألا عليّ بن عدى ليس له *

قال أبو جعفر : ثم أجمع عليّ عليه السلام على المسير من الرّبذة إلى البصرة ، فقام إليه
رفاعة بن رافع ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أى شئ تريد ؟ وأين تذهب بنا ؟ قال :
أما الذى نريد وننوى فإصلاح ؛ إن قبلوا منا وأجابوا إليه ، قال ، فإن لم يقبلوا ، قال :
ندعوهم ونعطهم من الحق ما نرجو أن يرضوا به ^(٢) ، قال : فإن لم يرضوا ! قال : ندعهم
ما تركونا : قال : فإن لم يتركونا ، قال : نمتنع منهم ، قال : فنعم إذا .
وقام الحجاج بن غزيرة الأنصارى ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لأرضينك بالفعل ،
كما أرضيتنى منذ اليوم بالقول . ثم قال :

دَرَاكِهَا دَرَاكِهَا قَبْلَ الْفَوْتِ وانفر بنا واسمُ بنا نحو الصّوتِ
* لا وألت نفسى إن خفت الموت *

ولله لنصرنّ الله عزّ وجلّ كما سمانا أنصارا .
قال أبو جعفر رحمه : وسار عليّ عليه السلام نحو البصرة ، ورايته مع ابنه محمّد
ابن الحنفية ، وعلى ميمته عبد الله بن عباس ، وعلى ميسرته عمر بن أبى سلمة ، وعلى
عليه السلام فى القلب على ناقة خمراء ، يقدّ فرسا كميّتا ^(٣) . فلقاه بفيد غلام من

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٣٩ ، مع تصرف واختصار .

(٢) الطبرى : « ونعطهم الحق ونصبر » .

(٣) الكميّ من الخيل : الذى خالط حرته قنوه ؛ أى سواد غير خالص .

بنى سعد بن ثعلبة ، يدعى مُرّة ، فقال : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قيل : هذا أمير المؤمنين ، فقال : سَفَرَةٌ قَانِيَةٌ ، فيها دماء من نفوس قَانِيَةٍ . فسمعها على ثعلبة عليه السلام فدعاه ، فقال : مَا سُمِّكَ ؟ قال : مُرّة ، قال أمر الله عيشك ! أكلهن سائر اليوم ؟ قال : بل عائف ، نخلى سبيله . ونزل بَقِيدٌ فَأَتَتْهُ أَسَدٌ وَطِيٌّ ، فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : الزموا قراركم ، ففى المهاجرين كفاية .

وقدِمَ رجلٌ من الكوفة فَيَدًّا ، فَأَتَى عليا عليه السلام ، فقال له : من الرجل ؟ قال : عامر بن مطرّف ، قال : الليثى ؟ قال : الشيبانيّ ، قال : أخبرني عمّا وراءك ؟ قال : إن أردت الصّلاح فأبو موسى صاحبك ، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس لك بصاحب . فقال عليه السلام : مَا أريد إلّا الصّلاح إلّا أن يُرَدَّ علينا^(١) .

قال أبو جعفر : وقدم عليه عثمان بن حُنيف ، وقد تنف طلحة والزبير شعرَ رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بعثتني ذا لحية ، وجئتُك أُمرد ، فقال : أصبت خيرا وأجرا . ثم قال : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنّ طلحة والزُّبَيْرَ بايعاني ، ثم نكثاني بيعتي ، وألبا على النَّاسِ ، ومن العَجَبِ انقيادها لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ ، والله إنهما ليعلمان أنّي لستُ بدونهما^(٢) . اللهم فاحلّلْ ماعقدا ، ولا تبرم ماقدأحكما في أنفسهما ، وأرهما المساءة فيما قد عملا^(٣) .

قال أبو جعفر : وعاد محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى عليّ عليه السلام ، فلقياه وقد انتهى إلى ذى قارٍ ، فأخبراه الخبر ، فقال عليّ عليه السلام لعبد الله بن العباس : اذهب أنت إلى الكوفة ، فادعُ أبا موسى إلى الطاعة ، وحذّره من العصيان والخلاف ، واستنفر النَّاسَ . فذهب عبد الله بن عباس حتى قدِمَ الكوفة ، فلقيَ أبا موسى ، واجتمع الرؤساء من أهل الكوفة . فقام أبو موسى فخطبهم ، وقال : إنّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبوه في مواطن كثيرة ، فهم أعلم بالله ممن لم يصحبه ، وإنّ لكم على حقّا ،

(١) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤١ - ٣١٤٣ .

(٢) الطبري : « بدون رجل .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤٣ ، ٣١٤٤ .

وَأَمَّاؤَدِيهِ إِلَيْكُمْ، أَمْرًا لَا تَسْتَخْفُوا بِسُلْطَانِ اللَّهِ، وَأَلَّا تَجْتَرُّوا [على الله] أَنْ تَأْخُذُوا كُلَّ مَنْ قَدَّمَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَتَرْدُّوهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، حَتَّى تَجْتَمَعَ الْأُمَّةُ عَلَى إِمَامٍ تَرْضَى بِهِ؛ إِنَّهَا فِتْنَةٌ صَمَاءٌ، النَّائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْيَقْظَانِ، وَالْيَقْظَانُ خَيْرٌ مِنَ الْقَاعِدِ، وَالْقَاعِدُ خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الرَّاکِبِ، فَكُونُوا جُرْثُومَةً مِنْ جَرَائِمِ الْعَرَبِ، أَعْمِدُوا سِوْفَكُمْ، وَأَنْصَلُوا أَسْنَتَكُمْ، وَاقْطَعُوا أَوْتَارَ قَسِيَّكُمْ، حَتَّى يَلْتَمَّ هَذَا الْأَمْرُ، وَتَنْجِلِيَ هَذِهِ الْفِتْنَةَ.

قال أبو جعفر رحمه الله: فرجع ابنُ عباسٍ إلى عليٍّ عليه السلام، فأخبره، فدعا الحسن ابنه عليه السلام وعمار بن ياسر، وأرسلهما إلى الكوفة، فلما قدماها كان أوَّل مَنْ أُنَاهَا مسروق بن الأجدع، فسَلَّم عليهما، وأقبل على عمار، فقال: يا أبا اليقظان، علامَ قتلتم أمير المؤمنين؟ قال: على شتمِ أعراضنا، وضربِ أُبشارنا. قال: فوالله ما عاقبتم بمثل ما عاقبتم به، ولئن صبرتم لكان خيراً للصَّابرين. ثم خرج أبو موسى فلقى الحسن عليه السلام فضمه إليه، وقال لعمار: يا أبا اليقظان، أَعْدَوْتَ فِيمَنْ غَدَا عَلَى أمير المؤمنين^(١)، وأحللت نفسك مع الفُجَّار؟ قال: لم أفعل، ولم تَسْؤَنِي؟ فَقَطَعَ عليهما الحسن، وقال لأبي موسى: يا أبا موسى. لم تَبْطِ النَّاسُ عَنَّا، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ومما مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء، قال أبو موسى: صدقت بأبي وأمي! ولكنَّ المستشار مؤتمن، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ^(٢)..» وذكر تمام الحديث. فغضب عمار وساء ذلك، وقال: أيها الناس، إِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذَلِكَ لَهُ خَاصَّةً، وَقَامَ رَحْلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ لِعَمَّارٍ: اسْكُتْ أَيُّهَا الْعَبْدُ! أَنْتَ أَمْسِ مَعَ الْغَوَاةِ، وَتَسَافِهِ أَمِيرُنَا الْيَوْمَ! وَثَارَ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ وَطَبَّقَتْهُ، فَانْتَصَرُوا لِعَمَّارٍ، وَجَعَلَ أَبُو مُوسَى يَكْفُؤُ النَّاسَ وَيُرَدُّعُهُمْ عَنِ الْفِتْنَةِ. ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى صَعِدَ الْمَنْبَرَ، وَأَقْبَلَ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ وَمَعَهُ كِتَابٌ مِنْ عَائِشَةَ إِلَيْهِ خَاصَّةً، وَكِتَابٌ مِنْهَا إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ عَامَّةً، تَبَّطُّهُمْ عَنْ نُصْرَةِ

(١) الطبري: «أَعْدَوْتَ فِيمَنْ غَدَا» (٢) بقية الحديث: «القاعد فيها خير من النائم، والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب».

على ، وتأمروهم بلزوم الأرض ، وقال : أيُّها الناس ، انظروا إلى هذه ، أُمِرْتُ أَنْ تَقَرُّوا فِي
بَيْتِهَا ، وَأُمِرْنَا نَحْنُ أَنْ نَقَاتِلَ ، حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ، فَأُمِرْنَا بِهَا أُمِرْتُ بِهِ ، وَرَكِبْتُ
مَا أُمِرْنَا بِهِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ شَبْثُ بْنُ رَبْعَةَ . فَقَالَ لَهُ : وَمَا أَنْتَ وَذَلِكَ أَيُّهَا الْعُمَاةُ الْأَحْقَى !
سَرَقْتَ أَمْسَ بِحُلُولَاءَ فَقَطَعَكَ اللَّهُ ، وَتَسَبَّ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَقَامَ زَيْدٌ ، وَشَالَ يَدَهُ الْمَقْطُوعَةَ
وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى أَبِي مُوسَى وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ ، أَتَرَدُّ الْفِرَاتَ
عَنْ أُمُوجِهِ ! دَعَّ عَنْكَ مَا لَسْتَ تَدْرِكُهُ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ اَللّٰهُمَّ اَحْسِبِ النَّاسُ اَنْ يُتْرَكُوْا اَنْ
يَقُوْلُوْا اٰمَنًا ... ﴾ ^(١) الْآيَتَيْنِ ، ثُمَّ نَادَى : سِيرُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَصِرَاطِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ،
وَانْفِرُوا إِلَيْهِ أَجْمَعِينَ . وَقَامَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، أَجِيبُوا دَعْوَةَ
إِمَامِكُمْ ، وَسِيرُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ ، فَإِنَّهُ سَيُوجَدُ لِهَذَا الْأَمْرِ مَنْ يَنْفِرُ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ لَأَنْ يَلِيَهُ
أَوَّلُو النَّهْيِ أَمْثَلُ فِي الْعَاجِلَةِ ، وَخَيْرٌ فِي الْعَاقِبَةِ ؛ فَأَجِيبُوا دَعْوَتَنَا ، وَأَعِينُونَا عَلَى أَمْرِنَا ؛
أَصْلَحَكُمْ اللَّهُ !

وقام عبد خير فقال : يَا أَبَا مُوسَى ، أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، أَلَمْ يَبَايَعَا عَلِيًّا ؟ قَالَ :
بَلَى ، قَالَ : أَفَأُحَدِّثُ عَلَى حَدِّثَا يَحِلُّ بِهِ نَقْضُ بَيْعَتِهِ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي ، قَالَ : لَا دَرَيْتَ
وَلَا أَتَيْتَ ! إِذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي فَنَحْنُ تَارِكُوكَ حَتَّى تَدْرِي . أَخْبِرْنِي : هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا خَارِجًا
عَنْ هَذِهِ الْفُرُقِ الْأَرْبَعِ : عَلَى بَظَاهِرِ الْكُوفَةِ ، وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ بِالْبَصْرَةِ ، وَمَعَاوِيَةَ بِالشَّامِ ، وَفِرْقَةَ
رَابِعَةٍ بِالْحِجَازِ قُعُودَ لَا يَجِيءُ بِهِمْ قَيْءٌ ، وَلَا يِقَاتِلُ بِهِمْ عَدُوٌّ ! فَقَالَ أَبُو مُوسَى : أَوَّلُكَ خَيْرٌ
النَّاسِ ، قَالَ عَبْدُ خَيْرٍ : اسْكُتْ يَا أَبَا مُوسَى ، فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ غَشُّكَ ^(٢) .

قال أبو جعفر : وَأَتَتْ الْأَخْبَارُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ بِالْكُوفَةِ ، فَقَالَ
لِلْأَشْثَرِ : أَنْتَ شَفَعْتَ فِي أَبِي مُوسَى أَنْ أُقْرِءَهُ عَلَى الْكُوفَةِ ، فَاذْهَبْ فَأَصْلِحْ مَا أَفْسَدْتَ ،

(١) سورة العنكبوت ١-٣ (٢) تاريخ الطبري ١ : ٣١٤٦ - ٣١٤٢ مع تصرف واختصار ...

فقام الأشر ، فشخص نحو الكوفة ، فأقبل حتى دخلها والناس في المسجد الأعظم ، فجعل لا يمرّ بقبيلة إلا دعاهم ، وقال : اتّبعوني إلى القصر ، حتى وصل القصر ، فاقتحمه وأبو موسى يومئذ يخطب الناس على المنبر ، ويثبطهم ، وعمار يخاطبه ، والحسن عليه السلام يقول : اعتزل عملنا وتنحّ عن منبرنا ، لا أمّ لك !

قال أبو جعفر : فروى أبو مريم الثّقفي ، قال : والله إنّني لمسيح يومئذ إذ دخل علينا غلمان أبي موسى يشتدون ويبادرون^(١) أبا موسى : أيها الأمير ، هذا الأشر قد جاء ، فدخل القصر ، فضر بنا وأخرجنا . فنزل أبو موسى من المنبر ، وجاء حتى دخل القصر ، فصاح به الأشر : اخرج من قصرنا لا أمّ لك ، أخرج الله نفسك ! فوالله إنّك لمن المنافقين قديماً . قال : أجلني هذه العشيّة ، قال : قد أجلتك ، ولا تبينني في القصر [الليلة]^(٢) . ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى ، فمنهم الأشر ، وقال : إني قد أخرجته وعزلته عنكم . فكفّ الناس حينئذ عنه^(٣) .

قال أبو جعفر : فروى الشعبي ، عن أبي الطّفيّل ، قال : قال عليّ عليه السلام : يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل واحد ، فوالله لقدت على نجفة^(٤) ذي قار ، فأحصيتهم واحدا واحدا ، فما زادوا رجلاً ، ولا نقصوا رجلاً^(٥) .

[فصل في نسب عائشة وأخبارها]

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع طرفاً من نسب عائشة وأخبارها ، وما يقوله أصحابنا المتكلّمون فيها ، جرياً على عادتنا في ذكر مثل ذلك كلّما مررنا بذكر أحد من الصحابة .

(١) الطبري : « ينادون » . (٢) من الطبري . (٣) تاريخ الطبري ١ : ٣١٥٣ ، ٣١٥٤ .

(٤) في الأصول : « نجفة » ، والصواب ما أنبته من الطبري . والنجفة : المكان المشرف على ماحوله

(٥) تاريخ الطبري ١ : ٣١٧٣ ، ٣١٧٤ .

من الأرض .

أَمَّا نَسَبُهَا ، فَإِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا نَسَبَهُ فِيمَا تَقْدُمُ ، وَأُمُّهَا أُمُّ رُومَانَ ابْنَةِ عَامِرِ بْنِ عُوَيْمِرَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَتَّابِ بْنِ أُذَيْنَةَ بْنِ سُبَيْعِ بْنِ دُهَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ تَمِيمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ . تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنْتَيْنِ - وَقِيلَ بِثَلَاثٍ - وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سَنِينَ - وَقِيلَ بِسَبْعِ سَنِينَ - وَبَنَى عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ وَهِيَ بِنْتُ تَسْعٍ ، لَمْ يَخْتَانِفُوا فِي ذَلِكَ .

وَكَانَتْ تَذْكُرُ لَجْبِيرِ بْنِ مَطْعَمٍ وَتَسْمَى لَهُ ، وَوَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَرَى عَائِشَةَ فِي الْمَنَامِ فِي سَرَقَةٍ حَرِيرٍ ، مَتَوِّفَى خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : إِنْ يَكُنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمِضْهُ ؛ فَتَزَوَّجَهَا بَعْدَ مَوْتِ خَدِيجَةَ بِثَلَاثِ سَنِينَ ، وَتَزَوَّجَهَا فِي شَوَالٍ ، وَأَعْرَسَ بِهَا بِالْمَدِينَةِ فِي شَوَالٍ ، عَلَى رَأْسِ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ مَهَاجَرِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ^(١) .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ "الاسْتِيعَابِ" : كَانَتْ عَائِشَةُ تَحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ النِّسَاءُ مِنْ أَهْلِهَا وَأَحَبَّتْهَا فِي شَوَالٍ عَلَى أَزْوَاجِهَا ، وَتَقُولُ : هَلْ كَانَ فِي نِسَائِهِ أَحْطَى عِنْدَهُ مِنِّي وَقَدْ نَكَحَنِي وَبَنَى عَلَيَّ فِي شَوَالٍ^(١) !

قُلْتُ : قَرِئَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ ، فَقَالَ : كَيْفَ رَأَتْ الْحَالَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَهْلِهَا وَأَهْلَ بَيْتِ زَوْجِهَا !

وَرَوَى أَبُو عَمْرِو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ، فِي الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تُوُفِّيَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَكَانَ سَنًا مَعَهُ تَسْعَ سَنِينَ ، وَلَمْ يَنْكَحْ بِكَرٍّ غَيْرَهَا ، وَاسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي الْكُنْيَةِ ، فَقَالَ لَهَا : اكِتَبِي بِابْنِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ - يَعْنِي ابْنَ أُخْتِهَا - فَكَانَتْ كَتَبَتْهَا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ ، وَكَانَتْ فَقِيمَةً عَالِمَةً بِالْفَرَائِضِ وَالشَّعَرِ وَالطَّبِّ^(١) .

(١) الاستيعاب ٤٧٤ .

وروى أن النبي صلى الله عليه وآله ، قال : « فضلُ عائشة على النساء كفضلِ الثريد على الطعام » ، وأصحابنا يحملون لفظة النساء في هذا الخبر على زوجاته ، لأن قاطمة عليها السلام عندهم أفضلُ منها ؛ لقوله صلى الله عليه وآله : « إنها سيّدة نساء العالمين » .

وقد ذُفِت بصفوان بن المعطل السّلميّ في سنة ستّ ، منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من غزاة بنى المصطلق - وكانت معه - فقال فيها أهل الإفك ما قالوا ، ونزل القرآن ببراءتها .

وقوم من الشيعة زعموا أن الآيات التي في سورة النور لم تنزل فيها ، وإنما أنزلت في مارية القبطيّة ، وما قدّفت به مع الأسود القبطيّ . وجحدهم لإنزال ذلك في عائشة جحد لما يعلم ضرورة من الإخبار المتواترة . ثم كان من أمرها وأمر حفصة وما جرى لهما مع رسول الله صلى الله عليه وآله في الأمر الذي أسره على إحداها ما قد نطق الكتاب العزيز به . واعتزل رسول الله صلى الله عليه وآله نساءه كلهنّ ، واعتزلها معهنّ ثم صالحهنّ ، وطلق حفصة ثم راجعها ؛ وجرت بين عائشة وفاطمة إبلاغات ، وحديث يُوغر الصدور ، فتوالّد بين عائشة وبين عليّ عليه السلام نوع ضغينة ، وانضمّ إلى ذلك إشارته على رسول الله صلى الله عليه وآله في قصّة الإفك بضرب الجارية وتقريرها وقوله : « إن النساء كثير » .

ثم جرى حديث صلاة أبي بكر بالناس ، فنزعم الشيعة أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يأمر بذلك ، وأنه إنما صلى بالناس عن أمر عائشة ابنته ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج متحاملاً وهو مثقل ، فنجاه عن الحراب . وزعم معظم المحدثين أن ذلك كان عن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وقوله ، ثم اختلفوا ، فمنهم من قال : نجاه وصلى هو بالناس ، ومنهم من قال : بل ائتمّ بأبي بكر كسائر الناس ، ومنهم

من قال : كان الناس يصلّون بصلاة أبي بكر ، وأبو بكر يصلّي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ثم كان منها في أمر عثمان ، وتضريب الناس عليه ، ما قد ذكرناه في مواضعه ، ثم تلا ذلك يوم الجمل .

واختلف المتكلمون في حالها وحال مَنْ حضر واقعة الجمل ، فقالت الإمامية : كَفَر أصحابُ الجمل كلُّهم ؛ الرؤساء والأتباع . وقال قوم من الحشوية والعامّة : اجتهدوا فلا إثم عليهم ، ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ علىّ عليه السلام وأصحابه .

وقال قوم من هؤلاء : بل نقول : أصحاب الجمل أخطئوا ، ولكنه خطأ مغفور ، وكخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند مَنْ قال بالأشبهه ؛ وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية .

وقال أصحابنا المعتزلة : كلّ أهل الجمل هالكون إلّا مَنْ ثبتت توبته منهم ، قالوا : وعائشة مَن ثبتت توبتها ، وكذلك طلحة والزبير ، أمّا عائشة فإنّها اعترفت لعلّيّ عليه السلام يوم الجمل بالخطأ ، وسألته العفو ، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم ، وأنها كانت تقول : ليتّه كان لي من رسول الله صلى الله عليه وآله بنون عشرة ، كلُّهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - وشكّلهم - ولم يكن يومُ الجمل ! وأنها كانت تقول : ليتني ميت قبل يوم الجمل ، وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبلى خمارها . وأمّا الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ لما أذكره علىّ عليه السلام ما أذكره . وأمّا طلحة فإنه مرّ به - وهو صريع - فارس ، فقال له : قف ، فوقف ، قال : من أيّ الفريقين أنت ؟ قال : من أصحاب أمير المؤمنين ، قال : أفعُدى ، فأقعده ، فقال : امدد يدك بأبيكم لأبيكم المؤمنين ، فبايعه .

وقال : شيو خنا : ليس لقائل أن يقول : ما يروى من أخبار الأحاديث بتوبتهم لا يعارض ما علم قطعا من معصيتهم . قالوا : لأن التوبة إنما يحكم بها للكلف على غالب الظن في جميع المواضع ، لا على التقطع ، ألا ترى أنا نجوز أن يكون من أظهر التوبة منافقا وكاذبا ، فبان أن المرجع في قبولها في كل موضع إنما هو إلى الظن ، فجاز أن يعارض ما علم من معصيتهم بما يظن من توبتهم .

(٢)

الأضلل :

ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة :

وَجَزَاكُمْ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ
بِطَاعَتِهِ ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَدُعَيْتُمْ فَأَجَبْتُمْ .

الشيخ :

موضع قوله : « من أهل مصر » نصب على التمييز ، ويجوز أن يكون حالا .
فإن قلت : كيف يكون تمييزا وتقديره : وجزاكم الله متمدين أحسن ما يجزى
الطيع ؛ والتمييز لا يكون إلا جامداً ، وهذا مشتق !
قلت : إنهم أجازوا كون التمييز مشتقا في نحو قولهم : « ما أنت جارة » ، وقولهم :
« ياسيدا ما أنت من سيد » .

وما يجوز أن تكون مصدرية ، أى أحسن جزاء العاملين ، ويجوز أن تكون
بمعنى الذى ، ويكون قد حذف العائد إلى الموصول ، وتقديره أحسن الذى
يجزى به العاملين .

(٣)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه اشريح بن الحارث قاضيه :

رَوَى أَنَّ شُرَيْحَ بْنَ الْحَارِثِ قَاضِيَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اشْتَرَى عَلَى عَهْدِهِ دَارًا بِشِمَانِينَ دِينَارًا ؛ فَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فَاسْتَدْعَى شُرَيْحًا ، وَقَالَ لَهُ : بَلَغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَارًا بِشِمَانِينَ دِينَارًا ، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَابًا ، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شَهُودًا . فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : فَانْظُرْ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمَغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

يَا شُرَيْحُ ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصًا ، وَيُسْأَلَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصًا . فَاَنْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُنْ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكٍ ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالٍ ؛ فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ .

أَمَّا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَاثِكَ مَا اشْتَرَيْتَ ، لَكُنْتُ لَكَ كِتَابًا عَلَى هَذِهِ النُّسخَةِ ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِالدَّرْهَمِ ^(١) فَمَا فَوْقُ ، وَالنُّسخَةُ هَذِهِ : « هَذَا مَا اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُرْعِجَ لِلرَّحِيلِ . اشْتَرَى مِنْهُ دَارًا مِنْ دَارِ الْغُرُورِ ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ ، وَخِطَّةَ الْهَالِكِينَ . وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودُ أَرْبَعَةٍ : الْخُلْدُ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْأَقَاتِ ، وَالْخُلْدُ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمَصِيبَاتِ ؛ وَالْخُلْدُ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى أَلْهَوَى الرُّدَى ، وَالْخُلْدُ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمَغْوَى . وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ . اشْتَرَى هَذَا الْمُغْتَرِّ بِالْأَمَلِ ، مِنْ هَذَا

(١) مخطوطة التهج : « بدرهم » .

الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ ، وَالذُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ
وَالضَّرَاعَةِ ؛ فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرَى فِيمَا اشْتَرَى مِنْ دَرَكٍ . فَعَلَى مُبْلِلِ أَجْسَامِ
الْمُلُوكِ ، وَسَائِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ ، مِثْلِ كِسْبَرَى وَقَيْصَرَ ،
وَتُبَّعٍ وَحَمِيرٍ ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ ، وَمَنْ بَنَى وَشَيْدَ ، وَزَخْرَفَ
وَتَجَدَّدَ ، وَأَدْخَرَ وَأَعْتَقَدَ ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ - إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعًا إِلَى مَوْقِفِ
الْعَرَضِ وَالْحِسَابِ ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ ،
﴿ وَحَسِيرَ هُنَالِكَ الْمُبْطُلُونَ ﴾ .

شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مَنْ أَسْرَ الْهَوَى ، وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا .

الشُّنْخ :

[نسب شُرَيْحٍ وذكر بعض أخباره]

هو شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ الْمُنْتَجِعِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ جَهْمٍ بْنِ ثَوْرٍ بْنِ عُفَيْرٍ ^(١) بْنِ عَدِيٍّ
ابْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَرَّةَ بْنِ أَدَدَ الْكَنْدِيِّ ؛ وَقِيلَ إِنَّهُ حَلِيفٌ لِكُنْدَةَ مِنْ بَنِي الرَّائِثِ .
وَقَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ : لَيْسَ اسْمُ أَبِيهِ الْحَارِثُ ، وَإِنَّمَا هُوَ شُرَيْحُ بْنُ مَعَاوِيَةَ
ابْنِ ثَوْرٍ .

وَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ شُرَيْحُ بْنُ هَانِيٍّ .

وَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ شُرَيْحُ بْنُ شَرَّاحِيلَ . وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَيَكْنَى
أَبَا أُمَيَّةَ . اسْتَعْمَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى الْقَضَاءِ بِالْكُوفَةِ ، فَلَمْ يَزَلْ قَاضِيًا سِتِّينَ سَنَةً ، لَمْ يَتَعَطَّلْ
فِيهَا إِلَّا ثَلَاثَ سَنِينَ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزَّيَّيرِ ؛ امْتَنَعَ فِيهَا مِنَ الْقَضَاءِ ، ثُمَّ اسْتَعْفَى الْحِجَابَ مِنْ

(١) ب : « عفر » ، والضواب مأثمة من الاستنباب .

العمل فأعفاه، فلزم منزله إلى أن مات ، وعُمرَ عمرًا طويلاً، قيل : إنه عاش مائة سنة وثمانين وستين ، وقيل مائة سنة ، وتوفي سنة سبع وثمانين .
وكان خفيف الروح ، مزاحاً ، فقدم إليه رجلان ، فأقرّ أحدهما بما ادّعى به خصمه ، وهو لا يعلم ففضى عليه ، فقال لشريح : مَنْ شهد عندك بهذا ؟ قال : ابن أخت خالك .
وقيل : إنه جاءته امرأته تبكي وتتظلم على خصمها ، فما رقت لها حتى قال له إنسان كان بحضرته : ألا تنظرُ أيُّها القاضي إلى بكائها ! فقال : إن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاءً ليكون .

وأقرّ على عليه السلام شريحاً على القضاء : مع مخالفته له في مسائل كثيرة من الفقه مذكورة في كتب الفقهاء .

واستأذنه شريح وغيره من قضاة عثمان في القضاء أول ما وقعت الفرقة ، فقال : اقضوا كما كنتم تقضون حتى تكون للناس جماعة ، أو أموت كما مات أصحابي .
وسخط على عليه السلام مرةً عليه فطرده عن الكوفة ولم يعزله عن القضاء ، وأمره بالمقام ببانقيا - وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر ساكنيها اليهود - فأقام بها مدة ، حتى رضى عنه وأعادته إلى الكوفة .

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب "الاستيعاب" ، : أدرك شريح الجاهلية ، ولا يعدّ من الصحابة ، بل من التابعين ، وكان شاعراً محسناً ، وكان سناً طالاً شعر في وجهه (١) .

قوله عليه السلام : «وخطّة المالكين» بكسر الخاء، وهي الأرض التي يخطّها الإنسان،

(١) الاستيعاب ٥٩٠ ، وذكر أنه توفي سنة سبع وثمانين وهو ابن مائة سنة ؛ وولى القضاء ستين سنة من زمن عمر إلى زمن عبد الملك بن مروان .

أى يُعلم عليها علامة بالخطّ ليعمرها ؛ ومنه خطط الكوفة والبصرة .

وزخرف البناء ، أى ذهب جدرانها بالزّخرف ، وهو الذهب .

ونجّد : فرش المنزل بالوسائد ، والنّجّاد الذى يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما ، والتنجيد : التزيين بذلك ، ويجوز أن يريد بقوله : « نجّد » رفع وعلا ، من النّجّد ، وهو المرتفع من الأرض .

واعتقد : جعل لنفسه عقدة كالضيعة أو الذّخيرة من المال الصامت .

« وإشخاصهم » مرفوع بالابتداء وخبره الجار الجرور المقدّم ، وهو قوله : « فعلى مببل أجسام الملوك » . وموضع الاستحسان من هذا الفصل - وإن كان كله حسناً - أمران :

أحدهما : أنّه عليه السلام نظر إليه نظر مغضب ؛ إنكارا لاتباعه دارأبمانين ديناراً ، وهذا يدلّ على زهد شديد في الدنيا واستكثار للقاليل منها ، ونسبه هذا المشتري إلى الإسراف ، وخوف من أن يكون اتباعها بمال حرام .

الثاني : أنه أملى عليه كتاباً زهدياً وعظيماً ، مماثلاً لكتب الشروط التى تكتب في ابتياع الأملاك ، فإنهم يكتبون : « هذا ما اشترى فلان من فلان ، اشترى منه داراً من شارع كذا وخطة كذا ، ويجمع هذه الدار حدود أربعة ، أخذ منها ينتهى إلى دار فلان ، وحدّ آخر ينتهى إلى ملك فلان ، وحدّ آخر ينتهى إلى ما كان يعرف بفلان ، وهو الآن معروف بفلان ، وحدّ آخر ينتهى إلى كذا . ومنه شروع باب هذه الدار ، وطريقها : « اشترى هذا المشتري المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمن مبلغه كذا وكذا ديناراً ، أو درهماً ؛ فما أدرك المشتري المذكور من دركٍ فرجوع به على من يُوجب الشرع الرجوع به عليه » . ثم تكتب الشهود في آخر الكتاب . شهد فلان ابن فلان بذلك ، وشهد فلان ابن فلان به أيضاً ؛ وهذا يدلّ على أن الشروط المكتوبة الآن قد كانت

في زمن الصحابة تكتب مثلها أو نحوها؛ إلا أننا مسمعنا عن أحد منهم أنه نقل صيغة الشرط
الفقهى إلى معنى آخر كما قد نظمته هو عليه السلام ، ولا غروفا زال سباقاً إلى
العجائب والغرائب !

فإن قلت : لم جعل الشيطان المغوى في الحدّ الرابع ؟
قلت : ليقول : وفيه يشرع باب هذه الدار ، لأنه إذا كان الحدّ إليه ينهى كان
أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيطنة والضلال .

الأفضل

ومن كتاب له كتبه عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه :

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ ، فَذَلِكَ الَّذِي نُحِبُّ ، وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ
إِلَى الشَّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَأَنْهَدُ بَيْنَ أَطَاعَتِكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ ، وَاسْتَعْنِ بَيْنَ انْقَادِ مَعَكَ ،
عَنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ ؛ فَإِنَّ الْمَتَكَارَةَ مَغْيِبُهُ خَيْرٌ مِنْ مُشْهَدِهِ ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى
مِنْ نُهُوضِهِ .

الشنخ

أنه : أي انهض . وتقايس ، أي أبطأ وتأخر .

والمتكاره : الذي يخرج إلى الجهاد من غير نية وبصيرة ، وإنما يخرج كارها مرتابا ،
ومثل قوله عايه السلام : « فَإِنَّ الْمَتَكَارَةَ مَغْيِبُهُ خَيْرٌ مِنْ مُشْهَدِهِ ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ
نُهُوضِهِ » قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ (١) .

(٥)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس ، وهو عامل أذربيجان :
وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ ، وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى لِمَنْ
فَوْقَكَ ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَتَحَ فِي رَعِيَّةٍ ، وَلَا تَخَاطِرَ إِلَّا بِوَيْثِقَةٍ ، وَفِي يَدَيْكَ مَلَكٌ مِنْ
مَالِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَى ، وَلَعَلَّيْ أَلَّا أَكُونَ شَرًّا
وَلَا تَكْ لَكَ . وَالسَّلَامُ .

الشنح :

قد ذكرنا نسب أشعث بن قيس فيما تقدم .
وأذربيجان : اسم أعجمي غير مصروف ، الألف مقصورة ، والذال ساكنة . قال
جيب :

وَأَذَرَبَيْجَانَ احْتِيَالٌ ، بَعْدَ مَا كَانَتْ مَعْرَسَ عِبْرَةٍ وَنَبْكَالٍ^(١)

وقال الشماخ :

تَذَكَّرْتُهَا وَهَنًا وَقَدْ حَالَ دُونَهَا قُرَى أَذَرَبَيْجَانَ الْمَسَالِحُ وَالْجَالُ^(٢)
وَالنَّسَبُ إِلَيْهِ أَذَرِيٌّ بِكُونَ الذَّالِ ، هَكَذَا الْقِيَاسُ ، وَلَكِنْ الْمُرُوءِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ
فِي الْكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ : « وَلَتَأْلُمَنَّ النَّوْمَ عَلَى الصُّوفِ الْأَذَرِيَّ » بَفَتْحِ الذَّالِ .
وَالطُّعْمَةُ بضم الطاء المهملة : المأكلة ، ويقال : فلان خبيث الطُّعْمَةِ ، أَيْ رَدَى الْكَسْبِ .
وَالطُّعْمَةُ بِالْكَسْرِ لَهْيَةُ التَّطْعَمِ ، يَقُولُ : إِنَّ عَمَلَكَ لَمْ يَسُوِّغْهُ الشَّرْعُ وَالْوَالِي مِنْ قَبَلِي إِيَّاهُ ؛

(٢) معجم البلدان ١ : ١٥٩ ، ولم أجده في ديوانه .

(١) ديوانه ٣ : ١٣٢

ولاجعله لك أكلاً؛ ولكنه أمانة في يدك وعنقك للمسلمين، وفوقك سلطان أنت له رعية فليس لك أن تفتن في الرعية الذين تحت يدك، يقال: افتات فلان على فلان، إذا فعل بغير إذنه ما سبيله أن يستأذنه فيه، وأصله من القوت وهو السبق، كأنه سبقه إلى ذلك الأمر. وقوله: «ولا تخاطر إلا بوثيقة»، أي لا تقدم على أمرٍ تخوف فيما يتعلق بالمال الذي تتولاه إلا بعد أن تتوثق لنفسك، يقال: أخذ فلان بالوثيقة في أمره، أي احتاط. ثم قال له: «ولعلّي لأكون شرّاً ولائك»، وهو كلام يطيب به نفسه ويسكن به جأشه، لأن في أول الكلام إيحاشاً له، إذ كانت ألفاظه تدلّ على أنه لم يره أميناً على المال، فاستدرك ذلك بالكلمة الأخيرة، أي ربّما تحمد خلافتي وولايتي عليك، وتصادف مني إحساناً إليك، أي عسى ألا يكون شكرك لعثمان ومن قبله أكثر من شكرك لي، وهذا من باب وعدك الخفيّ، وتسميه العرب المثلث.

وأول هذا الكتاب:

«من عبد الله على أمير المؤمنين إلى الأشعث بن قيس. أما بعد، فلولا هَنَات وهَنَات كانت منك، كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس، ولعلّ أمراً كان يحمل بعضه بعضاً إن اتّقيت الله عزّ وجلّ، وقد كان من بيعة الناس إيتاي ما قد علمت، وكان من أمر طلحة والزبير ما قد بلغك، فخرجت إليهما، فأبلغت في الدعاء، وأحسنيت في البقية، وإن عملك ليس لك بطعمة...»، إلى آخر الكلام، وهذا الكتاب كتبه إلى الأشعث ابن قيس بعد انقضاء الجمل.

(٦)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ ،
فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ ، فَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا ، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ
أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْنٌ أَوْ بِدْعَةٌ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا لَهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى .

وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةَ ، لَئِنْ نَظَرْتُ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ ، لَتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ
مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُرْلَةٍ عَنْهُ ، إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى ؛ فَتَجَنَّ
مَا بَدَأَكَ ! وَالسَّلَامُ .

البيان :

قد تقدّم ذكرُ هذا الكلام في أثناء اقتصاص مراسلة أمير المؤمنين عليه السلام
معاويةَ بنِ جبر بن عبد الله البجليّ ، وقد ذكره أرباب السيرة كلّهم ، وأورده شيوخنا
المتكلمون في كتبهم احتجاجاً على صحة الاختيار ، وكونه طريقاً إلى الإمامة ،
وأول الكتاب :

« أما بعد ، فإن بيعتي بالمدينة لزمّتك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا .. »
إلى آخر الفصل .

والمشهور المروى : « فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن أو رغبة » ، أى رغبة عن ذلك الإمام الذى وقع الاختيار له .

والمرئى بعد قوله : « ولأه الله بعد ما تولى » ، « وأصله جهنم وساءت مصيرا » ، وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضاً ببيعتى ، فكان نقضهما كبريئتهما ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحبب الأمور إلى فيك العافية ، إلا أن تعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت بالله عليك ، وقد أكرت في قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل الناس فيه ، ثم حاكم القوم إلى أحلك وإياهم على كتاب الله ، فأما تلك التي تريدها فخذعة الصبي عن اللبن ، ولعمري يا معاوية إن نظرت بعقلك . . . » إلى آخر الكلام .

وبعده : « واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا تعرض بهم الشورى ، وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله البجلي ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله » .

واعلم أن هذا الفصل دالٌّ بصريحه على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلمون ، لأنه احتج على معاوية ببيعة أهل الحل والعقد له ، ولم يراع في ذلك إجماع المسلمين كلهم ، وقياسه علىبيعة أهل الحل والعقد لأبي بكر ، فإنه ماروعى فيها إجماع المسلمين ، لأن سعد بن عبادة لم يبايع ، ولا أحد من أهل بيته وولده ، ولأن علياً وبنى هاشم ومن انصوى إليهم لم يبايعوا في مبدأ الأمر ، وامتنعوا ؛ ولم يتوقف المسلمون في تصحيح إمامة أبي بكر وتنفيذ أحكامه على بيعتهم ، وهذا دليل على صحة الاختيار وكونه طريقاً إلى الإمامة ، وأنه لا يقدح في إمامته عليه السلام امتناع معاوية من البيعة وأهل الشام ؛ فأما الإمامية فتحمل هذا الكتاب منه عليه السلام على التقيّة ، وتقول : إنه ما كان يمكنه

أن يصرح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال ، ويقول له : أنا منصوص على من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعهود إلى المسلمين أن أكون خليفة فيهم بلا فصل ، فيكون في ذلك طعن على الأئمة المتقدمين ، وتفسد حاله مع الذين يأيعوه من أهل المدينة ؛ وهذا القول من الإمامية دعوى لو عضدها دليل لوجب أن يقال بها ، ويصار إليها ؛ ولكن لا دليل لهم على ما يذهبون إليه من الأصول التي تسوقهم إلى تحل هذا الكلام على التقيّة .

فأما قوله عليه السلام : « وقد أكرت في قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلى أحلك وإياهم على كتاب الله » ، فيجب أن يذكر في شرحه ما يقول المتكلمون في هذه الواقعة .

قال أصحابنا المعزلة رحمهم الله : هذا الكلام حق وصواب ، لأن أولياء الدم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته ، ثم يرفعوا خصومهم إليه ، فإن حكم بالحق استديمت إمامته ، وإن حاد عن الحق انقضت خلافته ، وأولياء عثمان الذين هم بنوه لم يبايعوا علياً عليه السلام ، ولا دخلوا تحت طاعته ثم ، وكذلك معاوية ابن عم عثمان لم يبايع ولا أطاع ؛ فطالبتهم له بأن يقتصّ لهم من قاتلي عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان .

فإن قلت : هب أن القصاص من قتلة عثمان موقوف على ما ذكره عليه السلام ؛ أما كان يجب عليه لامن طريق القصاص أن ينهى عن المنكر ! وأنتم تذهبون إلى أن النهي عن المنكر واجب على من هو سوقة ، فكيف على الإمام الأعظم !

قلت : هذا غير وارد هاهنا ، لأن النهي عن المنكر إنما يجب قبل وقوع المنكر ، لكيلا يقع ، فإذا وقع المنكر ، فأى نهى يكون عنه ! وقد نهى على عليه السلام أهل مصر وغيرهم عن قتل عثمان قبل قتله مرارا ، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يفن

شيئاً ، وتفاقم الأمر حتى قُتِل ؛ ولا يجب بعد القتل إلا القصاص ، فإذا امتنع أولياء
الدم من طاعة الإمام لم يجب عليه أن يقتص من القاتلين ، لأن القصاص حقهم ، وقد
سقط بغيرهم على الإمام وخروجهم عن طاعته . وقد قلنا نحن فيما تقدم : إن القصاص
إنما يجب على مَنْ باشر القتل ؛ والذين باشروا قتل عثمان قُتِلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان ،
والذين كان معاوية يطالبهم بدم عثمان لم يباشروا القتل ، وإنما كثروا السواد وحَصَرُوهُ
عثمان في الدار ، وأجلبوا عليه وشتموه وتوعدوه ، ومنهم مَنْ تسوّر عليه داره ولم ينزل
إليه ، ومنهم مَنْ نزل فحضر محضر قتله ولم يشرك فيه ، وكل هؤلاء لا يجب عليهم
القصاص في الشرع .

[جرير بن عبد الله البجليّ عند معاوية]

وقد ذكرنا فيما تقدم شرح حال جرير بن عبد الله البجليّ في إرسال عليّ عليه السلام
إياه إلى معاوية مستقضى . وذكر الزبير بن بكار في " الموفقيات " ، أن علياً عليه السلام
لما بعث جريراً إلى معاوية ، خرج وهو لا يرى أحداً قد سبقه إليه ، قال : فقدمت على
معاوية فوجدته يخطب الناس وهم حوله يبيكون حول قميص عثمان وهو معلق على رُمح
مخضوب بالدم ؛ وعليه أصابع زوجته نائلة بنت الفرافصة مقطوعة ، فدفعت إليه كتاب
عليّ عليه السلام ، وكان معي في الطريق رجلٌ يسير بسري ، ويقيم بمقامي ، فمَثُلَ بين
يديه في تلك الحال وأنشده :

إِنَّ بَنِي عَمِّكَ الْمَطْلَبُ هُمْ قَتَلُوا شَيْخَكُمْ غَيْرَ كَذِبٍ
* وَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْوَثْبِ فَنَبْ *

وقد ذكرنا تمام هذه الأبيات فيما تقدم .

قال ثم دفع إليه كتابا من الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط؛ وهو آخر عُثمان لأُمّه ،
كتبه مع هذا الرجل من الكوفة سرّاً أوله :

* مُعَاوِيَ بْنَ الْمَلِكِ قَدْ جُبَّ غَارِبُهُ *

الآيات التي ذكرنا فيما تقدم .

قال : فقال لى معاوية : أقم فإنّ الناس قد نفروا عند قتل عُثمان حتى يسكنوا .
خأقت أربعة أشهر ، ثم جاءه كتاب آخر من الوليد بن عُقبة ، أوله :

أَلَا أَبْلِغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ فَإِنَّكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ مُلِيمٍ ^(١)
قَطَعْتَ الدَّهْرَ كَالسَّدِيمِ الْمَعْنَى تَهْدِرُ فِي دَمَشَقٍ وَلَا تَرِيمُ ^(٢)
وإِنَّكَ وَالْكِتَابَ إِلَى عَلِيٍّ كَدَابِفَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ ^(٣)
فَلَوْ كُنْتَ الْقَتِيلَ وَكَانَ حَيًّا لَشَمَرَ لَا أَلْفٌ وَلَا سَتُومُ ^(٤)

قال : فلمّا جاءه هذا الكتاب وصل بين طُومارين ^(٥) أبيضين ، ثم طواها
وكتب عنوانهما .

(١) المليم : من وقع منه ما يلام عليه .

(٢) السديم في الأصل : الذي يرغب عن خلقه ، فيحال بينه وبين الآفة ؛ والبيت في اللسان ١٥ : ١٧٦

(٣) يقول : أنت تسعى في إصلاح أمر قد تم فسادك كالمراة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلمة
(وهي دودة) فنقبت وأفسدته فلا ينتفع به . وقد وردت الأربعة في اللسان (حلم) ، وذكر بعدها :

لَكَ الْوَيْلَاتُ أَقْجِمَهَا عَلَيْهِمْ فَخَيْرُ الطَّالِبِي التَّرَةِ الْغَشُومُ
فَقَوْمُكَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ تَرَدَّوْا فَهُمْ صَرَعَى كَأَنَّهُمُ الْهَشِيمُ

(٤) رواية هذا البيت في اللسان :

فَلَوْ كُنْتَ الْمُصَابَ وَكَانَ حَيًّا تَجَرَّدَ ، لَا أَلْفٌ وَلَا سَتُومُ

(٥) الطومار : الصحيفة .

« من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب . »

ودفعهما إلىّ ، لأعلم ما فيهما ، ولا أظنهما إلا جواباً ، وبعث معي رجلاً من بني عبّس لا أدرى مامعه ، فخرجنا حتى قدمنا إلى الكوفة ، واجتمع الناس في المسجد ، لا يشكّون أنّها بيعة أهل الشام ؛ فلما فتح عليّ عليه السلام الكتاب لم يجد شيئاً ، وقام العيسى ، فقال : مَنْ هاهنا من أحياء قيس ، وأخصّ من قيس غطفان ، وأخصّ من غطفان عبّسا ؟ إني أخلف بالله لقد تركت تحت قيص عثمان أكثر من خمسين ألف شيخ خاضج لحاكم بدموع أعينهم ، متعاقدين متخالفين ، ليقتلن قتلتته في البرّ والبحر ، وإني أخلف بالله ليقترحنها عليكم ابنُ أبي سفيان بأكثر من أربعين ألفاً من خصيان الخيل ، فما ظنكم بعد بما فيها من الفحول . ثم دفع إلى عليّ عليه السلام كتاباً من معاوية ففتحه فوجد فيه :

أتاني أمرٌ فيه للنفس غمّةٌ وفيه اجتداعٌ للأُنف أصيلُ
مصائبُ أمير المؤمنين وهَدّةٌ تكادُ لها صمُّ الجبالِ تزولُ
وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدّم .

٧

الأضلّ

ومن كتاب منه عليه السلام إليه أيضاً :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَيْتَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ ، وَرِسَالَةٌ مُحِبَّةٌ ، نَمَّقَتْهَا بِضَلَالِكَ ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ . وَكِتَابُ أَمْرِي لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ ، قَدْ دَعَاهُ إِلَهِي فَأَجَابَهُ ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ ، فَهَجَرَ لَا غِطَاءً ، وَضَلَّ خَائِطاً .

الشُّنْخُ

موعظة موصلة ، أى مجموعة الألفاظ من هاهنا وهاهنا ، وذلك عيب فى الكتابة والخطابة ، وإِنَّمَا الكاتب من يرتجل فيقول قولاً فصلاً ، أو يروى فيأتى بالبديع المستحسن ، وهو فى الحالين كليهما يُنْفِق من كَيْسِهِ ، ولا يستعير كلام غيره .

والرسالة المحبّة : المزينة الألفاظ : كأنه عليه السلام يشير إلى أنه قد كان يظهر عليها أثر التكلف والتصنع .

والتنميق : التزيين أيضاً .

وهَجَرَ الرَّجُل ، أى هَدَى ، ومنه قوله تعالى فى أحد التفسيرين : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ (١) .

واللَّاغُط : ذو اللغظ ، وهو الصوت والجلية .

(١) . سورة الفرقان ٣٠ .

وَحَبَطَ البعير فهو خابط ، إذا مشى ضالًّا نخبط بيديه كلَّ ما يلقاه ، ولا يتوقَّ شيئًا .

وهذا الكتاب كتبه عليٌّ عليه السلام جوابًا عن كتاب كتبه معاويةُ إليه في أثناء حرب صفينَ بل في آخرها ، وكان كتاب معاوية :

« من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب ، أما بعد ، فإنَّ الله تعالى يقول في محكم كتابه : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ أَنِ أَشْرَكْتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(١) ، وإنِّي أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشقِّ عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها ، فاتق الله واذكر موقف القيامة ، وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين ، وإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لو تمالأ أهلُ صنْعاء وعدَن على قتل رجل واحد من المسلمين لأَكَبَّهم الله على مناخرهم في النار » ، فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين ، بله ما طَحَنَتْ رَحًا حربيه من أهل القرآن ، وذى العبادة والإيمان ، من شيخ كبير ، وشابٍّ غَرِير ، كلَّهم بالله تعالى مؤمن ، وله مخلص ، وبرسوله مقرر عارف ! فإن كنت أبا حسن إنما تحارب على الإمرة والخلافة ، فَلَعَمْرِي لو صحَّت خلافتك لكنت قريبًا من أن تعذر في حرب المسلمين ، ولكنها ما صحَّت لك ؛ أتى بصحبها وأهل الشام لم يدخلوا فيها ، ولم يرتضوا بها ! وخف الله وسطواته ، واتق بأسه ، ونسكاه ، وأغمد سيفك عن الناس ، فقد والله أكلتهم الحرب ، فلم يبقَ منهم إلا كالثمد في قرارة الغدير . والله المستعان » :

فكتب عليٌّ عليه السلام إليه جوابا عن كتابه .

(١) سورة الزمر : ٦٥ .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان : « أما بعد فقد أتتني منك موعظةٌ موصلة ، ورسالةٌ محبرة ، نعتتها بضلالك ، وأمضيتها بسوء رأيك ، وكتاب امرئ ليس له بصيرٌ يهديه ، ولا قائدٌ يرشده ، دعاه الهوى فأجاب به ، وقاده الضلال فاتبعه ، فمَجَرَ لا غِطًا ، وضلَّ خابطًا ، فأما أمرُك لي بالتقوى فأرجو أن أكونَ من أهلها ، وأستعيذ بالله من أن أكونَ من الذين إذا أمرُوا بها أخذتهم العزة بالإثم . وأما تحذيرُك إياي أن يحبَطَ عملي وسابقتي في الإسلام ، فلعمري لو كنتُ الباغيةَ عليك ، لكان لك أن تحذرنِي ذلك ، ولكنتي وجدت الله تعالى يقول : ﴿ فَقَاتِلُوا آلَ ابْنِ أَبِي سَفْيَانَ الَّذِينَ تَبِعُوا ﴾ (١) ، فنظرنا إلى الفتنتين ، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها ، لأن بيعتي بالمدينة لزممتك وأنت بالشام ، كما لزممتك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أميرَ عمر على الشام ، وكما لزممتُ يزيد أخاك بيعةَ عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام . وأما شق عصا هذه الأمة ، فأنا أحق أن أنهك عنه . فأما تخويفُك لي من قتل أهل البغي ، فإن رسول الله صلى عليه وآله أمرني بقتلهم وقتلهم ، وقال لأصحابه : « إِنَّ فِيكُمْ مَنْ يَقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَزْوِيلِهِ » ، وأشار إلي وأنا أولي من اتبع أمره .

وأما قولك : إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها ! كيف وإنما هي بيعة واحدة ، تلزم الحاضر والغائب ، لا يُكْتَنَى فيها النظر ، ولا يستأنف فيها الخيار ، الخارج منها طاعنٌ ، والمروى فيها مُدَاهِنٌ . فاربِعْ على ظلمِكَ ، وانزِعْ سِرْبَالَ غَيْبِكَ ، واترك مالا جَدَوِي له عليك ، فليس لك عندي إلَّا السيف ، حتى تفيء إلى أمر الله صاغرا ، وتدخل في البيعة راغما . والسلام . »

الأصل

ومن هذا الكتاب :

لَا يَثْنَى بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يَثْنَى فِيهَا النَّظَرُ ، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ ، الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ ، وَالْمُرَوِّى فِيهَا مُدَاهِنٌ .

الشرح :

لا يثنى فيها النظر ، أى لا يعاود ولا يراجع ثانية . ولا يستأنف فيها الخيار : ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم ، لأنها تلزم غير العاقلين كما تلزم العاقلين ، فيسقط الخيار فيها ، الخارج منها طاعن على الأمة ، لأنهم أجمعوا على أن الاختيار طريق الإمامة . والمروى فيها مداهن ، أى الذى يرتضى ويبطىء عن الطاعة ويفكر ، وأصله من الروية . والمداهن : المنافق .

(٨)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجليّ لما أرسله إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ ،
ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِّيَّةٍ ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَّةٍ ، فَإِنْ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَأَنْبِذْ إِلَيْهِ ،
وَإِنْ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ . وَالسَّلَامُ .

الْبَيْعَةُ :

قد تقدّم ذكر نسب جرير بن عبد الله البجليّ .
وقوله عليه السلام : « فاحمل معاوية على الفصل » ، أى لا تتركه متسلّكاً متردّداً ،
يُطْمِعُكَ تَارَةً وَيُؤْيِسُكَ أُخْرَى ، بل احمله على أمر فيصلي ، إمّا البيعة ، أو أن
يأذن بالحرب .

وكذلك قوله : « وخذه بالأمر الجزم » ، أى الأمر المقطوع به ، لا تكن ممن
يُقَدِّمُ رِجْلاً وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى ، وأصل الجزم القطع .
وحرب مُجَلِّيَّة : تُجَلِّيُ الْمُقَهَّورِينَ فِيهَا عَنْ دِيَارِهِمْ ، أى تُخْرِجُهُمْ .
وسِلْمٌ مُخْزِيَّةٌ ، أى فاضحة ؛ وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولاً من البيعة ؛
فإذا دخل في السِّلْمِ فإِنَّمَا يَدْخُلُ فِيهَا بِالْبَيْعَةِ ، وإذا بايع بعد الامتناع ؛ فقد دخل تحت الهَضْمِ
وَرَضِيَ بِالضَّيْمِ ؛ وذلك هو الْخِزْيُ .

قوله « فأنبذ إليه » من قوله تعالى : ﴿ فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ^(١) وأصله العهد والهدنة وعقد الحلف يكون بين الرجلين أو بين القبيلتين ، ثم يبدو لهما في ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدهما إلى الآخر عهده ، كأنه كتاب مكتوب بينهما قد نبذه أحدهما يوم الحرب وأبطله ، فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة ، ونسخ شريعة السلام السابقة بالحرب المعاقبة لها .

(١) سورة الأنفال ٥٨ .

(٩)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا ، وَاجْتِيَا حَاضِرَنَا ، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ ، وَفَعَلُوا بِنَا
الْأَفَاعِيلَ ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ ، وَأَحْلَسُونَا اَتْلُوفَ ، وَأَضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَغَيْرِ ، وَأَوْقَدُوا
لَنَا نَارَ اَلْخَرْبِ .

فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوَازَتِهِ ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حَوَازَتِهِ ، مُؤْمِنًا يَبْغِي
بِذَلِكَ الْأَجْرَ ، وَكَافِرُنَا يُجَاهِي عَنِ الْأَصْلِ ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلَافَ مَا نَحْنُ فِيهِ
يُحْلِفُ يَمْنَعُهُ ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمِنٍ .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَاسُ ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ ، قَدَّمَ
أَهْلَ بَيْتِهِ فَوْقَ بَيْتِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ ، فَقَتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ
بَدْرٍ ، وَقَتِلَ حُزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقَتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُوْتَةَ ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ
اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَلَكِنْ أَجَالَهُمْ مُجَلَّتْ ، وَمَنْيَتُهُ أُخِّرَتْ .

فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ ! إِذْ دِيرْتُ يُقَرَّنِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَا بَقِي
الَّتِي لَا يُدْنِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا ، إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَالًا أَعْرِفُهُ ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ .
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ
أَرَهُ يَسْعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيْكَ وَشِقَاقِكَ ،
لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ ، وَلَا جَبَلٍ

وَلَا سَهْلٌ ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبَ يَسُوءَكَ وَجَدَانُهُ ، وَزَوْرٌ لَا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ .
وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « فَأَرَادَ قَوْمَنَا » ، يعنى قرىشا .
والاجتياح : الاستئصال ، ومنه الجائحة وهى السَّنة ، أو الفتنة التى تجتاح المال
أو الأنفس .

قوله : « ومنعونا العذب » ، أى العيش العذب . لا أَنَّهُم منعوهم الماء العذب ، على
أنه قد نقل أَنَّهُم منعوا أيام الحصار فى شَعْب بنى هاشم من الماء العذب .
وسنذكر ذلك .

قوله : « وأحلسونا الخوف » ، أى ألزموناه . والحلس : كساء رقيق يكون
تحت بردة البعير . وأحلاس البيوت : ما يُبَسِّطُ تحت حُرِّ الثياب ، وفى الحديث :
« كُنْ حِلْسَ بَيْتِكَ » ، أى لا تخالط الناس واعتزل عنهم ، فلما كان الحلس ملازماً
ظهر البعير ، وأحلاس البيوت ملازمة لها ، قال : « وأحلسونا الخوف » ؛ أى جعلوه
لنا كالحلس الملازم .

قوله : « واضطرونا إلى جبل وعر » ، مَثَلُ ضَرْبَةٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِحَشْوَةِ مُقَامِهِمْ
وَشَطَفِ مَنْزِلِهِمْ ، أى كانت حالنا فيه كحال من اضطر إلى ركوب جبل وعَرٍ ، ويجوز
أن يكون حقيقة لا مثلاً ، لأن الشَّعب الذى حصروهم فيه مَضِيقٌ بين جبلين .

قوله : « فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا » ، أى قضى الله لنا ، ووفقنا لذلك ، وجعلنا عازمين عليه .

والحوزة : الناحية ، وحوزة الملك : بَيْضَتُهُ .

وحومة الماء والرمل : معظمه .

والرمي عنها : المناضلة والحاماة ، ويروى : « والرمي من وراء حرمة » ، والضمير في « حوزته » و « حومته » راجع إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وقد سبق ذكره ، وهو قوله : « نبينا » ويروى « والرّميا » .

وقال الراوندي : « وهموا بنا الهموم » ، أى هموا نزول الهمّ بنا ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وليس ما قاله بجيد بل « الهموم » منصوب هاهنا على المصدر ، أى هموا بنا هموما كثيرة ، وهموا بنا أى أرادوا نهبنا ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَبْهَتُونَ ﴾^(١) ، على تفسير أصحابنا ، وإنما أدخل لام التعريف في الهموم ، أى هموا بنا تلك الهموم التي تعرفونها ، فأتى باللام ليكون أعظم وأكبر في الصدور من تنكيرها ، أى تلك الهموم معروفة مشهورة بين الناس لتكرّر عزم المشركين في أوقات كثيرة مختلفة على الإيقاع .

وقوله : « وفعلوا بنا الأفاعيل » ، يقال لمن أثروا آثارا منكرا : فعلوا بنا الأفاعيل ، وقلّ أن يقال ذلك في غير الضررو الأذى ، ومنه قول أمية بن خلف لعبد الرحمن بن عوف . وهو يذكر حمزة بن عبد المطالب يوم بدر : « ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل » . قوله : « يحامى عن الأصل » ، أى يدافع عن محمد ويذبّ عنه حميةً ومحافضة على النسب .

قوله : « خلّو مما نحن فيه » ، أى خال . والخلّف : العهد . واحمرّ البأس ، كلمة مستعارة ، أى اشتدّت الحرب حتى احمرّت الأرض من الدم ، فجعل البأس هو الأحمر مجازا ، كقوله : الموت الأحمر .

(١) سورة يوسف ٢٤ .

قوله : « وأحجم الناس » ، أى كتموا عن الحرب وجبنوا عن الإقدام ، يقال : حجمت فلانا عن كذا أحجمه بالضم ، فأحجم هو ، وهذه اللفظة من النوادر ، كقولهم : « كبيته فأكب » .

ويوم مؤنة بالهمز ، ومؤنة : أرض معروفة .

وقوله : « وأراد من لو شئت لذكرت اسمه » ، يعنى به نفسه .

قوله : « إذ صرتُ يقرنُ بى من لم يسعَ بقدى » إشارة إلى معاوية فى الظاهر ، وإلى من تقدم عليه من الخلفاء فى الباطن ، والدليل عليه قوله : « التى لا يدلى أحد بمثلها » ، فأطلق القول إطلاقاً عاماً مستغرقاً لكل الناس أجمعين .

ثم قال : « إلا أن يدعى مدعى ما لا أعرفه ، ولا أظن الله يعرفه » ، أى كل من ادعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب ، لأنه لو كان صادقا لكان على عليه السلام يعرفه لا محالة ، فإذا قال عن نفسه : إن كل دعوة تخالف ما ذكرت فإنى لا أعرف صحتها ، فعناه أنها باطلة .

وقوله : « ولا أظن الله يعرفه » ، فالظنّ هنا بمعنى العلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ ^(١) ، وأخرج هذه الكلمة مخرج قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٢) ، وليس المراد سلب العلم بل العلم بالسلب ، كذلك ليس مراده عليه السلام سلب الظنّ الذى هو بمعنى العلم ، بل ظن السلب ، أى علم السلب ، أى وأعلم أن الله سبحانه يعرف انتفاءه ، وكل ما يعلم الله انتفاءه فليس بثابت .

وقال الراوندى : قوله عليه السلام : « ولا أظنّ الله يعرفه » ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ ^(٣) .

(٢) سورة يونس ١٨ .

(١) سورة الكهف ٥٣ .

(٣) سورة محمد ٣١ .

والله يعلم كل شيء قبل وجوده ، وإنما معناه : حتى نعلم جهادهم موجودا ، وليست هذه الكلمة من الآية بسبيل لتجعل مثالا لها ، ولكن الراوندى يتكلم بكل ما يخطر له من غير أن يميز ما يقول .

وتقول : أدلى فلان بحجته ، أى احتج بها ، وفلان مُدلى برحمة ، أى مت بها . وأدلى بماله إلى الحاكم : دفعه إليه ليجعله وسيلة إلى قضاء حاجته منه ، فأما الشفاعة فلا يقال فيها : « أدليت » ، ولكن « دلوت بفلان » أى استشفعت به ، وقال عمر لما استسقى بالعباس رحمه الله : « اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه ، وكبر رجاله ، دلونا به إليك مستشفعين » (١) .

قوله عليه السلام : « فلم أره يسعى » أى لم أر أنه يحل لي دفعهم إليك . والضمير فى « أره » ضمير الشأن والقصة ، و « أره » من رأى لا من الرؤية ، كقولك : لم أر الرأى الفلانى .

ونزع فلان عن كذا ، أى فارقه وتركه ، ينزع بالكسر ، والغى : الجهل والضلال . والشقاق : الخلاف .

الوجدان : مصدر وجدت كذا ، أى أصبته . والزور : الزائر .
واللقيان : مصدر لقيت ، تقول : لقيته لقاء ولقيانا .

ثم قال : « والسلام لأهله » لم يستجز فى الدين أن يقول له : « والسلام عليك » لأنه عنده فاسق لا يجوز إكرامه ، فقال : « والسلام لأهله » ، أى على أهله .

ويجب أن نتكلم فى هذا الفصل فى مواضع :

منها ذكر ما جاء فى السيرة من إجلاب قریش على رسول الله صلى الله عليه وآله
وبنى هاشم وحضرهم فى الشعب .

(١) الفائق ٢ : ٣٦٦ . قفة آبائه : تلوم . وكبر قومه أقعدهم فى النسب .

ومنها : الكلام في المؤمنين والكافرين من بنى هاشم الذين كانوا في الشعب محصورين معه صلى الله عليه وآله مَنْ هُمْ .

ومنها : شرح قصّة بدر .

ومنها : شرح غزاة أُحُد .

ومنها : شرح غزاة مُؤتة .

[إجلاب قريش على بنى هاشم وحصرهم في الشعب]

فأما الكلام في الفصل الأول فنذكر منه ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب " السيرة " ، والمغازي ، فإنه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرخين ، ومصنّفه شيخ الناس كلهم .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : لم يسبق عليّاً عليه السلام إلى الإيمان بالله ورسالة محمد صلى الله عليه وآله أحدٌ من الناس ، اللهمّ إلا أن تكون خديجة زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : وقد كان صلى الله عليه وآله يخرج ومعه علىّ مستخفين من الناس ، فيصلّيان الصلوات في بعض شعاب مكة ، فإذا أمسيا رجعا فكثا بذلك ما شاء الله أن يملكنا ، لاثالث لهما . ثم إنّ أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلّيان ، فقال لمحمد صلى الله عليه وآله : يا بن أخي ، ما هذا الذي تفعله ! فقال : « أئى عمّ ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ، ودين أئينا إبراهيم - أو كما قال عليه السلام - بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أئى عمّ أحقّ من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحقّ من أجابنى إليه ، وأعاننى عليه » . أو كما قال . فقال أبو طالب : إني لا أستطيع يا بن أخي أن أفارق

ديني يودين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص^(١) إليك شئ تكرهه ما بقيت .
فرغموا^(٢) أنه قال العليّ : أي بني ، ما هذا الذي تصنع ؟ قال : يا أبايقله ، آمنتُ بالله ورسوله
وصدّقته فيما جاء به ، وصليتُ إليه ، والتبعت قول نبيه . فرغموا أنّه قال له : أما إنه لا
يدعوك - أو لن يدعوك - إلّا إلى خير ، فالزمه .

قال ابن إسحاق : ثمّ أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله « فكان
أوّل مَنْ أسلم ، وصلى معه بعد عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

ثمّ أسلم أبو بكر بن أبي قحافة ، فكان ثالثاً لهما ، ثمّ أسلم عثمان بن عفان ، وطلحة ،
والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعد بن أبي وقاص ، فصاروا ثمانية ؛ فهم الثمانية الذين سبقوا الناس
إلى الإسلام بمكة ، ثمّ أسلم بعد هؤلاء الثمانية أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد
وأرقم بن أبي أرقم ، ثمّ انتشر الإسلام بمكة ، وفشا ذكره ، وتحدث الناس به ، وأمر الله
رسوله أن يصدّع بما أمر به ، فكانت مدّة إخفاء رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه
وشأنه إلى أن أمر بإظهار الدين ثلاث سنين - فيما بلغني^(٣) .

قال محمد بن إسحاق : ولم تكن قريش تنكر أمره حينئذ كلّ الإنكار ، حتى
ذكر آلهتهم وعابها ، فاعظموا ذلك وأنكروه . وأجمعوا على عداوته وخلافه ، وخطب عليه
عمّه أبو طالب فمنعه ، وقام دونه حتى مضى مظهراً لأمر الله لا يردّه عنه شئ . قال : فلمّا
رأت قريش محاماة أبي طالب عنه وقيامه دونه ، وامتناعه من أن يسلمه ، مشى إليه رجال
من أشرف قريش ؛ منهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حرب ،
وأبو البختريّ بن هشام ، والأسود بن المطّلب ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل عمرو بن هشام ،

(١) لا يخلص إليك بشئ ؛ أي لا يوصل إليك ؛ يقال : خاصت إليه ، أي وصلت إليه .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٥ .

(٣) ابن هشام : « وذكروا »

والعاص بن وائل ، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج ؛ وأمثالهم من رؤساء قريش . فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب أهلكنا ، وعاب ديننا ، وسبغ أحلامنا ، وضلل آراءنا ؛ فإمّا أن تكفّه عنا ، وإمّا أن تُخلّى بيننا وبينه . فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردّهم ردّاً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله على ما هو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه ، ثم شرّق ^(١) الأمر بينه وبينهم ، تباعداً وتضاغناً ^(٢) ، حتى أكرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله بينها ، وتذاصروا فيه ، وحضّ بعضهم بعضاً عليه ، فمشوا إلى أبي طالب مرة ثانية ، فقالوا : يا أبا طالب ، إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإننا قد استهيناك من ابن أخيك فلم ننمّه عنا ، وإننا والله لانصبر على شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب أهلكنا ، فإمّا أن تكفّه عنا أو ننازله وإياك ^(٣) حتى يهلك أحدُ الفريقين . ثم انصرفوا ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم تطب نفسه بإسلام ابن أخيه لهم وخذلانه ، فبعث إليه فقال : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا - للذى قالوا - فأبقي على وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر مالا أطيعه . قال : فظنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلّمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام دونه ، فقال : يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك . ثم استعبر باكياً وقام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب : أقبل يا ابن أخى ، فأقبل راجعاً ، فقال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً ^(٤) .

(١) ابن هشام : ثم شرى الأمر بينه وبينهم « ، قال أبو ذر : معناه « كثر وتزايد » ، وأصله في البرق ، يقال : شرى البرق : إذا كثر لمعانه .

(٢) التضاغن : المعادة .

(٣) ننازله وإياك : أى نحاربكما .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ - ٢٧٨ .

قال ابن إسحاق : وقال أبو طالب يذكر ما أجمعت عليه قريش من حرّبه لما قام بنصر محمد صلى الله عليه وآله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا^(١)
فأنفذ لأمرك ما عليك مخافةً وابشروا قرّ بذاك منه عيوننا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنه من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذارى سبةً لو جدتني سمحاً بذاك مينا

قال محمد بن إسحاق : ثم إن قريشا حين عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وآله وإسلامه إليهم ورأوا إجماعه على مفارقتهم وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان أجمل فتى في قريش - فقالوا له : يا أبا طالب ، هذا عمار بن الوليد ، أبهى^(٢) فتى في قريش وأجمله ، نخذه إليك^(٣) ، فاتخذوه ولداً فهو لك ، وأسلم لنا هذا ابن أخيك الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك لمقتله ، فإتما هو رجلٌ برجل . فقال أبو طالب ! والله ما أنصفتموني^(٤) ! تعطوني ابنكم أغدوه لكم ، وأعطيك ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبداً . فقال له المطعم بن عدي بن نوفل - وكان له صديقاً مصافياً - والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً ! لعمري قد جهدوا في التخلص مما تسكره وأراك لا تنصفهم ! فقال أبو طالب : والله ما أنصفوني ولا أنصفتنني ؛ ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة^(٥) القوم على ! فاصنع ما بدا لك^(٦) !

(٢) ابن هشام : « أنهد فتى » أى أشده وأقواه .

(١) ديوانه ١٧٦ ، ١٧٧

(٣) ابن هشام : « نخذه فلك عقله ونصره » .

(٤) ابن هشام : « والله لبئس ما تسوموني » .

(٥) مظاهرة القوم ، يريد إعانتهم .

(٦) سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥ .

قال : فعند ذلك تنابد النوم وصارت الأحقاد ، ونادى بعضهم بعضاً ، وتذاثروا بينهم على من في القبائل من المسلمين الذين اتبعوا محمداً صلى الله عليه وآله . فوثبت كل قبيلة على من فيها منهم ، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب ، وقام في بني هاشم وبني عبد المطلب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وآله ، والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى مادعاهم إليه من الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ما كان من أبي لب ، فإنه لم يجتمع معهم على ذلك ، فكان أبو طالب يرسل إليه الأشعار ، ويناشده النصر ، منها القطعة التي أولها :

حديث عن أبي لب أتاناً وكانفه على ذاكم رجال

ومنها القطعة التي أولها :

أظننت عني قد خذلت وغالني منك الفوائل بعد شيب المكبر

ومنها القطعة التي أولها :

تستعرض الأقوام توسيعهم عذراً وما إن قلت من عذر

قال محمد بن إسحاق : فلم يؤثر عن أبي لب خير قط إلا ما يروى أن أبا سلمة بن عبد الأسد الخزومي ؛ لما وثب عليه قومه ليعذبوه ويفتنوه عن الإسلام هرب منهم ؛ فاستجار بأبي طالب ، وأم أبي طالب مخزومية ، وهي أم عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وآله فاجاره ، فشى إليه رجال من بني مخزوم ، وقالوا له : يا أبا طالب ، هبك منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ! قال : إنه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أ منع ابن أختي لم أ منع ابن أخي ؛ فارتفعت أصواتهم وأصواته ، فقام أبو لب ولم ينصر أبا طالب قبلها ولا بعدها ، فقال : يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا

الشيخ، لا تزالون تتوثّبون عليه في جواره من بين قومه ! أمّا والله لتنتهّن عنه أو لنقومنّ معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . فقالوا : بل ننصرف عمّا تكره يا أبا عتبة . فقاموا فانصرفوا ، وكان وليّاهم ومعينا على رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى طالب ، فأتقوه وخافوا أن تحمله الحميّة على الإسلام ، فطمع فيه أبو طالب حيث سمعه قال ما قال ، وأمّل أن يقوم معه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال يجرّضه على ذلك :

وإنّ امرأً أبو عُتْبَةَ عَمَّه
ولا تقبّان الدَّهْرَ ماعشتَ خَطَّةً
أقول له وأين مِنْهُ نصيحتي
وولّ سبيل العجز غيرك منهم
وحارب فإنّ الحرب نصف بولن ترى
كذبتهم وبيت الله نبّزى محمدا
وقال يخاطب أبا لهب أيضاً :

عجبتُ لحلمِ يابنِ شَيْبَةَ عازبٍ
يقولون شايِع مَنْ أراد محمداً
أضاميمُ إما حاسد ذو خيانة
فلا تتركبن الدَّهْرَ مِنْهُ ذِمَامَةً
ولا تتركنه ماحييتَ لمُعْظِمٍ
يذودُ العدا عن ذرّة هاشميّةٍ
فإنّ له قرْبى لديك قريبةً
ولكنّه من هاشمٍ ذى صميمها

وأحلام أقوامٍ لديك سخافٍ (٢)
بظلم وقمّ في أمره بخلافٍ
وإما قريب عنك غير مصافٍ
وأنت امرؤٌ من خير عبد منافٍ
وكن رجلاً ذا نجدةٍ وعفافٍ
إلا فُهم في الناس خيراً إلّا فٍ
وليس بذى حلفٍ ولا بمُضافٍ
إلى أبجرٍ فوق البحور طوافٍ

وزاحم جميع الناس عنه وكن له وزيراً على الأعداء غير مجافٍ
وإن غضبت منه قريش فقل لها بنى عمنا ما قومكم بضعافٍ
وما بالكم تغشون منه ظلامَةً وما بال أحقادٍ هناك خوافي
فما قومنا بالقوم يخشون ظلمنا وما نحن فيما ساءهم بخفافٍ
ولكننا أهل الحفاظ والنهي وعزّ بطحاء المشاعر وافٍ

قال محمد بن إسحاق : فلما طال البلاء على المساهين والفتنة والعذاب ، وارتد كثير عن الدين باللسان لا بالقلب ، كانوا إذا عذبوهم يقولون : نشهد أن هذا الله ، وأن اللات والعزى هي الآلهة ، فإذا خلوا عنهم عادوا إلى الإسلام ، فحبسهم وأوثقهم بالقد ، وجعلهم في حرّ الشمس على الصخر والصفاء ، وامتدت أيام الشقاء عليهم ولم يصلوا إلى محمد صلى الله عليه وآله لقيام أبي طالب دونه ، فأجعت قريش على أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم صحيفةً يتعاقدون فيها ألا يناكحهم ولا يبايعهم ، ولا يجالسهم ؛ فكتبوها وعلقوها في جوف الكعبة تأكيذاً على أنفسهم ؛ وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي . فلما فعلوا ذلك انحازت هاشم والمطلب ، فدخلوا كلهم مع أبي طالب في الشعب ، فاجتمعوا إليه ، وخرج منهم أبو لهب إلى قريش فظاهرها على قومه .

قال محمد بن إسحاق : فضاق الأمر ببني هاشم وعدموا القوت ، إلا ما كان يحمل إليهم سرّاً وخفية ؛ وهو شيء قليل لا يمسك أرواقهم ، وأخافتهم قريش ؛ فلم يكن يظهر منهم أحد ، ولا يدخل إليهم أحد ، وذلك أشد ما لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته بمكة .

قال محمد بن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ألا يصل إليهم .

شئ إلا القليل سرّاً ممن يريد صلتهم من قريش ؛ وقد كان أبو جهل بن هشام لقي حَكِيم ابن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عنته خديجة بنت خويلد - وهي عند رسول الله محاصرة في الشعب - فتعلّق به ، وقال : أتحمّل الطعام إلى بنى هاشم ! والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ! فجاءه أبو البخترى العاص ابن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى ، فقال : مالك وله اقال : إنه يحمل الطعام إلى بنى هاشم ، فقال أبو البخترى : يا هذا ، إن طعاما كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ؛ أفبئمنعه أن يأتيها بطعامها ! خلّ سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال كلٌّ منهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البخترى حُلًى بعير فضربه به فشجّه ووطئه وطأ شديداً . فانصرف وهو يكره أن يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو هاشم بذلك ، فيشتتوا ، فلما أراد الله تعالى من إبطال الصّحيفة ، والفرّج عن بنى هاشم من الضّيق والأزل الذى كانوا فيه ، قام هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى فى ذلك أحسن قيام ، وذلك أن أباه عمرو بن الحارث كان أخاً لنضلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصي من أمه ، فكان هشام بن عمرو يحسب لذلك واصلاً بينى هاشم ؛ وكان ذا شرف فى قومه بنى عامر بن لؤى ، فكان يأتي بالبعير ليلاً وقد أوقره طعاماً ، وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ، حتى إذا أقبل به فم الشعب فمنع بخطامه من رأسه ، ثم يضربه على جنبه ، فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به مرّة أخرى ، وقد أوقره تمرّاً ، فيصنع به مثل ذلك .

ثم أنّه مشى إلى زهير بن أبى أمية بن المغيرة الخزومى ، فقال : يا زهير ، أَرْضيتَ أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ؛ وأخوالك حيث قد علمت لا يتساعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ، ولا يواصلون ولا يزارون ! أما إنّى أحلف لو كان أخواك أبو الحكم بن هشام ودعوته إلى مثل مادعاك

إليه منهم مأجباك أبداً . قال : ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ! إنما أنا رجلٌ واحد ،
والله لو كان معي رجل آخر لقمْتُ في نقض هذه الصحيفة القاطعة . قال : قد وجدت
رجلاً ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا ، قال زهير : ابغنا ثالثاً ، فذهب إلى المظم بن عدى بن
نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يا مظم ، أَرْضَيْتَ أَنْ يهلك بطنان من عبد مناف جوعاً
وجهداً وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموه من هذا لتجدن
قريشاً إلى مساء تتكلم في غيره سريعة . قال : ويحك ! ماذا أصنع ! إنما أنا رجل واحد ، قال
قد وجدت ثانياً ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا ، قال : ابغني ثالثاً ، قال : قد وجدت ، قال : مَنْ هو ؟
قال : زهير بن أمية ، قال أنا ، قال : ابغنا رابعاً ، فذهب إلى أبي البختری بن هشام ، فقال
له نحو ما قال للمظم ، قال : وهل مِنْ أَحَدٍ يعين على هذا ؟ قال : نعم وذكرهم ، قال : فابغنا
خامساً ، فمضى إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فكلّمه ، فقال :
وهل يعين على ذلك من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سمى له القوم ، فاتعدوا خَطَمَ الْحَبْشِيِّينَ لِيَأْخُذُوا
بِأَعْلَى مَكَّةَ ، فأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير :
أنا أبدؤكم وأكون أولكم يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أُنْدِيتِهِمْ ، وغدا زهير بن
أبي أمية ، عليه حلة له . فطاف بالبيت سبعة ، ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة ،
أنا كل الطعام ، ونشرب الشراب ، ونابس الثياب وبنو هاشم هلكي ! والله لا أقعد
حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! وكان أبو جهل في ناحية المسجد ، فقال : كذبت
والله لا تشق ! فقال زمعة بن الأسود لأبي جهل : والله أنت أكذب ، مارضينا والله بها
حين كُتِبَتْ . فقال أبو البختری معه : صدق والله زمعة ، لا نرضى بها ولا نقر بما
كتب فيها ! فقال المظم بن عدى : صدقاً والله ، وكذب مَنْ قال غير ذلك ؛ نبرأ إلى الله
منها ومما كتب فيها . وقال هشام بن عمرو مثل قولهم ، فقال أبو جهل : هذا أمر قِضَى
بليل ، وقام مظم بن عدى إلى الصحيفة فخطها وشتمها ، فوجد الأرضة قد أكلتها ، إلا

ما كان من «باسمك اللهم» قالوا: وأما كاتبها منصور بن عكرمة فسلّته يده فيما يذكرون .
فلمّا مرّت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشّعب .

قال محمد بن إسحاق : فلم يزل أبو طالب ثابتاً صابراً مستمراً على نصر رسول الله صلى الله عليه وآله وحمايته والقيام دونه ، حتى مات في أوّل السنة الحادية العشرة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله فطمعت فيه قريش حينئذ ، ونالت منه ، فخرج عن مكّة خائفاً يطلب أحياء العرب ، يعرض عليهم نفسه ، فلم يزل كذلك حتى دخل مكّة في جوار المطعم بن عدى ؛ ثم كان من أمره مع الخزرج ما كان ليلة العقبة .
قال : ومن شعر أبي طالب الذي يذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وقيامه دونه :

أرقتَ وقد تصوّبتِ النُّجُومُ	وبتّ ولا تسألكِ الهمومُ ^(١)
لظلمِ عشيرةٍ ظلموا وعقوا	وغبّ عقوقهم لهم وخيمُ
همُ اتّهكوا المحارمَ من أخيمهم	وكلّ فعالم دَنَسٌ ذِمِيمُ
وراموا خطّة جوراً وظلماً	وبعضُ القول ذو جَنَفٍ مُلِيمُ
لتخرجَ هاشمًا فتكونَ منها	بلاقعِ بطنِ مكّة فالخطِيمُ
فهو لا قومنا لا تركبونا	بمظلمة لها خطبٌ جَسِيمُ
فيندمَ بعضُكم ويذلّ بعضُ	وليس بمفلاحٍ أبداً ظَلُومُ
أرادوا قتلَ أحدِ زاعميه	وليس بقتلِهِ منهم زَعِيمُ
ودُونِ مُحَمَّدٍ مِنّا ندى	همُ العرينين والعُصُو الصَّيْمُ

ومن ذلك قوله :

وقالوا لأحمد أنت امرؤ
خَلُوفُ الحديثِ، ضَعِيفُ السَّبَبِ

وإن كان أحدٌ قد جاءهمُ
فإنّا ومنَ حجٍّ منَ رَاكِبٍ
تنالونَ أحدَ أو تصطلّوا
وتغترفوا بينَ أبياتِكُم
تراهنّ من بين ضاقي السَّبِيْبِ
عليها صناديدُ من هاشمٍ
بصدقٍ ولم يأتِهمُ بالكذبِ
وكعبة مكة ذات الحُجُبِ
ظُباتُ الرِّمَاحِ وحَدَّ القُضْبِ
صُدُورَ العوالي وخَيْلاً شُرْبِ
قصير الحِزامِ طويل اللبِّ
همُ الأنجُبون مع المنتجبِ

وروى عبد الله بن مسعود ، قال : لَمَّا فرغ رسولُ الله صلى الله عليه وآله من قتلى بدر ، وأمر بطرحهم في القليب ، جعل يتذكّر من شعر أبي طالب بيتا فلا يحضره ، فقال له أبو بكر : لعله قوله يا رسول الله :

وإنّا لعمرُ الله إنَّ جدَّ جدُّنا
لنلتبسُنَ أسيافُنَا بالأماثلِ (١)
فسرّ بظفره بالبيت ، وقال : إى لعمر الله ، لقد التبت .
ومن شعر أبي طالب قوله :

ألا أبْلِغُنا عَنِّي لُؤيًّا رِسالةً
بني عَمِّنا الأَدَنَيْنِ فيما يَخْصُهمُ
أَظَاهِرُهمُ قوماً علينا سَفَاهَةً
يقولون لو أَنّا قَتَلنا مُحَمَّدًا
كذبتُم وربَّ الهْدَى تَدعى نَحورُهُ
تنالونَهُ ، أو تصطلّوا دونَ نَيْلِهِ
فهلّا ولَمّا تنتج الحربُ بكَرها
بحقٍّ وما تَغني رِسالةٌ مرسلِ (٢)
وإخواننا من عبدِ شمس ونوفلِ
وأمرأ غويًّا من غُواةٍ وَجْهٌ لـ
أقرّت نواصي هاشمٍ بالتذللِ
بمكة ، والبيتِ العتيقِ المُقبِلِ
صوارمَ تَقْرِي كلَّ عَضُوٍّ ومفصِلِ
بخيَلٍ تامٍّ ، أو بأخر مُعْجِلِ

وتلقوا بيع الأبطحين محمداً على ربوة في رأس عنقاء عيطل
وتأوى إليه هاشم ، إن هاشما عرانيين كعب آخر بعد أول
فإن كنتم ترجون قتل محمد فروموا بما جعتم نقل يذبل
فإننا سنحمله بكل طيرة وذى معة نهذ المراكل هيكل
وكل رديني ظماء كعوبه وعضب كايماض الغمامة مفصل

قلت : كان صديقنا علي بن يحيى البطريق رحمه الله ، يقول : لولا خاصّة النبوة
وسرّها لما كان مثل أبي طالب - وهو شيخ قريش ورئيسها وذو شرفها - يمدح
ابن أخيه محمداً ، وهو شاب قد ربّي في حجره وهو يتيمه ومكفوله ، وجار مجرى أولاده
بمثل قوله :

وتلقوا ربيع الأبطحين محمداً على ربوة في رأس عنقاء عيطل
وتأوى إليه هاشم ، إن هاشما عرانيين كعب آخر بعد أول
ومثل قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يُطيف به الملاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
فإن هذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والدُّنّابي من الناس ، وإنما هو من
مدح الملوك والعظماء ، فإذا تصوّرت أنه شعر أبي طالب ، ذاك الشيخ المبجل العظيم في
محمد صلى الله عليه وآله ، وهو شاب مستجير به ، معتصم بظله من قريش ، قد رباه في
حجره غلاماً ، وعلى عاتقه طفلاً ، وبين يديه شاباً ، يأكل من زاده ، ويأوى إلى داره ،
علمت موضع خاصيّة النبوة وسرّها ، وأن أمره كان عظيماً ، وأن الله تعالى أوقع في
القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً .

وقرأت في ”أماله أبي جعفر محمد بن حبيب“ رحمه الله ، قال : كان أبو طالب إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله أحياناً يبكي ويقول : إذا رأيته ذكرت أخي ، وكان عبد الله أخاه لأبويه ، وكان شديد الحب والحنو عليه ، وكذلك كان عبد المطلب شديد الحب له ، وكان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله صلى الله عليه وآله البيات إذا عرف مضجعه ، يقيمه ليلاً من منامه ، ويضع ابنه عليه مكانه ، فقال له على ليلة : يا أبت ، إنني مقتول ، فقال له :

اصبرن يا بنى فالصبر أحبى	كلّ حيٍّ مصيره لشعوب ^(١)
قدّر الله والبلاء شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغرّ ذي الحسب الثا	قب والباع والكريم النجيب
إن تصبك المنون فالنبل تبرى	فصيب منها ، وغير مصيب
كلّ حيٍّ وإن تملى بعمر	أخذ من مذاقها بنصيب
فأجاب على عليه السلام ، فقال له :	

أأمرني بالصبر في نصر أحد	ووالله ما قلت الذي قلت جازعاً ^(٢)
ولكنني أحببت أن ترى نصرتي	وتعلم أني لم أزل لك طائعاً
سأسمى لوجه الله في نصر أحد	نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً

[القول في المؤمنين والكافرين من بني هاشم]

الفضل الثاني : في تفسير قوله عليه السلام « مؤمننا يعني بذلك الأجر ، وكافرنا يحامي عن الأصل ، ومن أسلم من قريش خلوناً نحن فيه لئلا يمنع ، أو عشيرة تقوم دونه

(١) ديوانه ٤١ ، وشعوب : المنية .

(٢) ديوان أبي طالب ٤١ .

فهم من القتل بمكان آمن » ، فنقول : إن بني هاشم لما حُصروا في الشعب بعد أن منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله من قریش ، كانوا صِنْفَيْن : مسلمين وكفاراً ، فكان على عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب مسلمين .

واختلف في جعفر بن أبي طالب : هل حُصر في الشعب معهم أم لا ؟ فقيل : حُصر في الشعب معهم ، وقيل : بل كان قد هاجر إلى الحبشة ، ولم يشهد حصار الشعب ، وهذا هو القول الأصح . وكان من المسلمين المحصورين في الشعب مع بني هاشم عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ؛ وهو وإن لم يكن من بني هاشم إلا أنه يجرى مجراهم ، لأن بني المطلب وبني هاشم كانوا يداً واحدة ، لم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام .

وكان العباس رحمه الله في حصار الشعب معهم إلا أنه كان على دين قومه ، وكذلك عَقِيل بن أبي طالب ، وطالب بن أبي طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وكان شديداً على رسول الله صلى الله عليه وآله ، يُبغضه ويَهْجُوهُ بالأشعار ، إلا أنه كان لا يرضى بقتله ، ولا يقارّ قریشاً في دمه ؛ محافظة على النسب - وكان سيد المحصورين في الشعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطلب ، وهو الكافل والحامي .

[اختلاف الرأي في إيمان أبي طالب]

واختلف الناس في إيمان أبي طالب ^(١) ، فقالت الإمامية وأكثر الزيدية : ما مات إلا مسلماً .

(١) ب : « فيه » ، وما أثبتته من أ .

وقال بعض شيوخنا المعتزلة بذلك ، منهم الشيخ أبو القاسم البخيّ وأبو جعفر الإسكافي وغيرهما .

وقال أكثر الناس من أهل الحديث والعمامة من شيوخنا البصريين وغيرهم : مات على دين قومه يورؤون في ذلك حديثا مشهورا ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له عند موته : قل يا عم كلمة أشهد لك بها غداً عند الله تعالى ، فقال : لولا أن تقول العرب : إن أبا طالب جزع عند الموت لأقررت بها عينك . وروى أنه قال : أنا على دين الأشياخ .

وقيل إنه قال : أنا على دين عبد المطالب . وقيل غير ذلك .

وروى كثير من المحدثين أن قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ... ﴾ ^(١) الآية ، أنزلت في أبي طالب ، لأن رسول الله استغفر له بعد موته . ورووا أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ^(٢) نزلت في أبي طالب . ورووا أن عليا عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد موت أبي طالب ، فقال له : إن عمك الضال قد قضى ، فما الذي تأمرني فيه ؟

واحتجوا بأنه لم ينقل أحد عنه أنه رآه يصلي ، والصلاة هي المفرقة بين المسلم والكافر ، وأن عليا وجعفر لم يأخذا من تركته شيئا ، ورووا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال « إن الله قد وعدني بتخفيف عذابه لِمَا صَنَعَ فِي حَقِّي ، وإنه في ضحضاح من نار » .

وروا عنه أيضاً أنه قيل له : لو استغفرت لأبيك وأُمك ! فقال : « لو استغفرتُ لهما لاستغفرتُ لأبي طالب ؛ فإنه صنع إليّ ما لم يصنعا ، وإن عبد الله وآمنة وأبا طالب جمرات من جمرات جهنم » .

فأما الذين زعموا أنه كان مساهماً، فقد رَوَوْا خلاف ذلك، وأسندوا خبراً إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال لي جبرائيل: إن الله مشقّعتك في ستة: بطن حملتك؛ آمنة بنت وهب، وصُلب أنزلت؛ عبد الله بن عبد المطلب، وحجر كفلك؛ أبي طالب، وبيت آواك؛ عبد المطلب، وأخ كان لك في الجاهلية - قيل: يا رسول الله، وما كان فعله؟ قال: كان سخياً يطعم الطعام، ويجود بالنوال - وثدى أرضعتك؛ حليلة بنت أبي ذؤيب.

قلت: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد عن هذا الخبر، وقد قرأته عليه: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله أنخ من أبيه أو من أمّه أو منهما في الجاهلية؟ فقال: لا، إنما يعنى أخاً له في المودة والصحبة، قلت له: فمن هو؟ قال: لا أدري.

قالوا: وقد نقل الناس كافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: نُقِلْنَا مِنَ الْأَصْلَابِ الطَّاهِرَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الزَّكِيَّةِ. فوجب بهذا أن يكون أباه كلهم منزهين عن الشرك، لأنهم لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين.

قالوا: وأما ما ذكر في القرآن من إبراهيم وأبيه آزر، وكونه كان ضالاً مشركاً، فلا يقدح في مذهبنا، لأن آزر كان عم إبراهيم؛ فأما أبوه فتارخ بن ناحور، وسمى العم أباً، كما قال: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ﴾^(١)، ثم عدّ فيهم إسماعيل وليس من آبائه، ولكنّه عمّه.

قلت: وهذا الاحتجاج عندي ضعيف، لأن المراد من قوله: «نُقِلْنَا مِنَ الْأَصْلَابِ الطَّاهِرَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الزَّكِيَّةِ» تنزيه آبائه وأجداده وأمهاته عن السّفاح لا غير؛ هذا مقتضى

(١) سورة البقرة ١٣٣.

سياقة الكلام ، لأنّ العرب كان يعيبُ بعضها بعضا باختلاط المياه واشتباه الأنساب ونكاح الشبهة .

وقولهم : لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين ؛ يقال لهم : لم قاتم : إنهم لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهري الأصلاب ! فإنه لا منافاة بين طهارة الأصلاب وعبادة الصنم ، ألا ترى أنّه لو أراد ما زعموه لما ذكر الأصلاب والأرحام ، بل جعل عوضها العقائد . واعتذرهم عن إبراهيم وأبيه يقدح في قولهم في أبي طالب ، لأنه لم يكن أبا محمد صلى الله عليه وآله ، بل كان عمّه ، فإذا جاز عندهم أن يكون العمّ - وهو آزر - مشركاً كما قد اقترحوه في تأويلهم ، لم يكن لهم حجة من هذا الوجه على إسلام أبي طالب .

واحتجوا في إسلام الآباء بما روى عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : يبعث الله عبد المطلب يوم القيامة وعليه سبحة الأنبياء وبهاء الملوك .

وروى أنّ العباس بن عبدالمطلب قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة : يا رسول الله ، ما ترجو لأبي طالب ؟ فقال : أرجو له كل خير من الله عز وجل .

وروى أنّ رجلاً من رجال الشيعة ، وهو أبان بن محمود كتب إلى عليّ بن موسى الرضا عليه السلام : جُعلتُ فداك ! إني قد شككتُ في إسلام أبي طالب ! فكتب إليه : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ^(١) ۖ ۞ ﴾ الآية ، وبعدها إنك إن لم تقرّ بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار .

وقد روى عن عليّ بن محمد الباقر عليه السلام أنه سئل عما يقوله الناس : إنّ أبا طالب في ضحّضاح من نار ؛ فقال : لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه . ثم قال : ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السلام كان يأمر أن يحجّ عن عبد الله وأبيه ^(٢) أبي طالب في حياته ، ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم ! وروى أنّ أبا بكر جاء بأبي قحافة إلى النبي صلى الله عليه وآله عام الفتح يقوده ،

(٢) في الأصول : « وابنه » .

(١) سورة النساء :

وهو شيخ كبير أعمى ، فقال رسول الله : ألا تركت الشيخ حتى نأتيه ! فقال : أردتُ
يا رسول الله أن يأجره الله ! أما والذي بعثك بالحقّ لأنا كنت أشدّ فرحاً بإسلام عمك
أبي طالب مني بإسلام أبي ، ألتبس بذلك قرّة عينك ، فقال : صدقت .

وروى أن عليّ بن الحسين عليه السلام سئل عن هذا ، فقال : وعجبا ! إن الله تعالى
نهيّ رسوله أن يقرّ مسالة على نكاح كافر ، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات
إلى الإسلام ، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات .

ويروى قوم من الزيدية أن أبا طالب أسند المحدثون عنه حديثاً ينتهي إلى أبي رافع
مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سمعتُ أبا طالب يقول بمكة : حدثني
محمد بن أخي أن ربّه بعثه بصلّة الرّحم ، وأن يعبدّه وحده لا يعبد معه غيره ، ومحمد
عندي الصادق الأمين .

وقال قوم : إن قول النبي صلى الله عليه وآله : « أنا وكافلُ اليتيم كهاتين في الجنة »
إنما عني به أبا طالب .

وقالت الإماميّة : إن ما يرويه العامة من أن علياً عليه السلام وجعفرًا لم يأخذا
من تركه أبي طالب شيئاً حديث موضوع ، ومذهب أهل البيت بخلاف ذلك ، فإن
المسلم عندهم يرث الكافر ، ولا يرث الكافر المسلم ، ولو كان أعلى درجة منه
في النسب .

قالوا : وقوله صلى الله عليه وآله : « لا توراثة بين أهل ملّتين » ، نقول بموجبه ،
لأنّ التوارث تفاعل ، ولا تفاعل عندنا في ميراثهما ، واللفظ يستدعي الطّرفين ،
كالتضارب لا يكون إلّا من اثنين ، قالوا : وحُبُّ رسول الله صلى الله عليه وآله

لأبي طالب معلوم مشهور ، ولو كان كافرا ما جاز له حبّه ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾ (١) الآية .

قالوا : وقد اشتهر واستفاض الحديث وهو قوله صلى الله عليه وآله لعقيل : « أنا أحبّك حُبّين : حبّا لك وحبّا لحبّ أبي طالب فإنه كان يحبّك » .

قالوا : وخطبة النّكاح مشهورة ، خطبها أبو طالب عند نكاح محمد صلى الله عليه وآله خديجة ، وهى قوله : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرّيّة إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكماء على الناس . ثم إنّ محمد بن عبد الله أخى من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجّح عليه برّا وفضلا ، وحزما وعقلا ، ورأيا ونُبلا ، وإن كان فى المال قلٌّ فإنما المال ظلٌّ زائل ، وعاريةٌ مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتهم من الصّدّاق فعلىّ ، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطب جليل » .

قالوا : أفتراه يعلم نبأه الشائع وخطبه الجليل ، ثم يعانده ويكذّبه ، وهو من أولى الألباب ! هذا غير سائغ فى العقول .

قالوا : وقد روى عن أبى عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إنّ أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان ، وأظهروا الكفر فاتاهم الله أجْرهم مرتين ، وإنّ أبا طالب أسرّ الإيمان ، وأظهر الشرك ، فاتاه الله أجْرهُ مرتين » .

وفى الحديث المشهور : إنّ جبرائيل عليه السلام قال له ليلة مات أبوطالب : « اخرج منها فقد مات ناصرك » .

قالوا : وأما حديث الضّحضاح من النار ، فإنما يرويه النّاس كلّهم عن رجل واحد ، وهو المغيرة بن شعبه ، وبغضه لبنى هاشم وعلى الخصوص لعلىّ عليه السلام مشهور معلوم ، وقصته وفسقه أمر غير خاف .

وقالوا : وقد روى بأسانيد كثيرة بعضه عن العباس بن عبد المطلب ، وبعضه عن أبي بكر بن أبي قحافة ، أن أبا طالب مامات حتى قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله . والخبر مشهور أن أبا طالب عند الموت قال كلاماً خفياً ، فأصغى إليه أخوه العباس ، ثم رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا ابن أخي ، والله لقد قالها عمك ، ولكنه ضعف عن أن يبلغك صوته .

وروى عن عليّ عليه السلام أنه قال : مامات أبو طالب حتى أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله من نفسه الرضا .

قالوا : وأشعار أبي طالب تدلّ على أنه كان مسالماً ، ولا فرق بين الكلام المنظوم والمنثور إذا تضمننا إقراراً بالإسلام ، ألا ترى أن يهودياً لو توسط جماعة من المسلمين ، وأنشد شعراً قد ارتجله ونظمه يتضمن الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وآله ، لكننا نحكم بإسلامه كما لو قال : أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله ! فمن تلك الأشعار قوله (١) :

يُرْجُونَ مِنَّا خُطَّةً دُونَ نَيْلِهَا	ضُرَابٌ وَطَعَنَ بِالْوَشِيحِ الْمُقَوَّمِ
يُرْجُونَ أَنْ نَسْخِيَ بِقَتْلِ مُحَمَّدٍ	وَلَمْ تَخْتَضِبْ سَمْرُ الْعَوَالِي مِنَ الدِّمِ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ حَتَّى تُفْلَقُوا (٢)	جَمَاحٌ تُلْقَى بِالْخَطِيمِ وَزَمَزَمِ
وَتُقَطَّعُ أَرْحَامٌ وَتَنْسَى حَلِيلَةٌ	حَلِيلًا ، وَيُنْفَسِي مُحَرَّمٌ بَعْدَ مُحَرَّمِ
عَلَى مَاضِيٍّ مِنْ مَقْتِكُمْ وَعَقُوقِكُمْ	وَعَشِيَانِكُمْ فِي أَمْرِكُمْ كُلِّ مَا تَمُرُّ
وَيُظْلَمُ نَبِيٌّ جَاءَ يَدْعُو إِلَى الْهَدْيِ	وَأَمْرٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ الْعَرْشِ قَيِّمِ

(١) ديوانه ١٥٢ - ١٥٤ ؛ من قصيدة أولها :

أَلَا مَنْ لِيهِمْ آخِرَ اللَّيْلِ مُعْتَمِرٌ طَوَانِي ، وَآخِرَى النِّجْمِ لَمَّا تَفَحَّمِ

(٢) الديوان : « تعرفوا » .

فَلَا تَحْسِبُونَا مُسْلِمِيهِ فِشْلُهُ إِذَا كَانَ فِي قَوْمٍ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ

ومن شعر أبي طالب في أمر الصحيفة التي كتبها قرئش في قطعة بني هاشم :

أَلَا أبلغَا عَنِّي عَلَى ذَاتِ بَيْنِهِمَا	لَوْيًّا وَخُصًّا مِنْ لَوْيِّ بَنِي كَعْبٍ ^(١)
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا	رَسُولًا كَمَوْسَى خُطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ
وَأَنَّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً	وَلَا حَيْفَ فَيَمْنِ خَصَمَهُ اللَّهُ بِالْحَبِّ ^(٢)
وَأَنَّ الَّذِي رَقَّشْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ	يَكُونُ لَكُمْ يَوْمًا كِرَاعِيَةَ السَّقْبِ ^(٣)
أَفِيقُوا أَفِيقُوا قَبْلَ أَنْ تُخْفَرَ الزُّبَى	وَيَصْبِحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْبًا كَذَى ذَنْبِ
وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ الْغَوَاةِ وَتَقْطَعُوا	أَوَاصِرَنَا بَعْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْقَرَبِ
وَتَسْتَجْلِبُوا حَرْبًا عَوَانًا وَرَبِّمَا	أَمْرًا عَلَى مَنْ ذَاقَهُ حَلَبُ الْحَرْبِ
فَلَسْنَا وَبَيْتِ اللَّهِ نُسْلِمُ أَحْمَدًا	لِعَزَاءٍ مِنْ عَصَى الزَّمَانِ وَلَا كَرْبِ
وَلَمَّا تَبَيَّنَ مِنَّا وَمِنْكُمْ سَوَالِفٌ	وَأَيْدٍ أَتَرَّتْ بِالْمِهْنَةِ الشُّهْبِ ^(٤)
بِمَعْتَرِكٍ ضَيِّقُ تَرَى قِصْدَ الْقَنَا	بِهِ وَالضَّبَاعِ الْعُرْجَ تَعَكِّفُ كَالشَّرْبِ ^(٥)
كَأَنَّ مَجَالَ الْخَيْلِ فِي حَجَرَاتِهِ	وِغْغَمَةِ الْأَبْطَالِ مَعْرَكَةَ الْحَرْبِ
أَلَيْسَ أَبُونَا هَاشِمٌ شَدَّ أَرْزَهُ	وَأَوْصَى بَنِيهِ بِالطَّعَانِ وَالضَّرْبِ !
وَلَسْنَا نَمَلُ الْحَرْبِ حَتَّى تَمَلَّنَا	وَلَا نَشْكِي مِمَّا يَنْوِبُ مِنَ النُّكْبِ ^(٦)

(١) ديوانه ٢٠-٢٤
 (٢) الديوان : « ولا خير ممن خصه الله » .
 (٣) الرغاء : صوت الإبل . والسقب : ولد الناقة .
 (٤) أترت : قطعت . والمهنة : السيوف .
 (٥) قصد القنا : قطع الرماح المتكسرة .
 (٦) النكب والنكبة : المصيبة .

ولكننا أهل الحفايظ والنهي
ومن ذلك قوله :

فلا تسفوها أحلامكم في محمد
تمنيتُم أن تقتلوه، وإنما
وإنكم والله لا تقتلونه
زعمتم بأننا مسامون محمدًا
من القوم مفضل أبي على العدا
أمين حبيب في العباد مسوم
يرى الناس برهانا عليه وهيبة
نبي أنه الوحي من عند ربه
ولا تتبعوا أمر الغواة الأشأم^(١)
أمانيتكم هذي كأحلام نائم
ولماتروا قطف اللحي والجاجم^(٢)
ولما نقاذف دونه ونزاحم
تمكن في الفرعين من آل هاشم
بخاتم رب قاهر في الخواتم
وما جاهل في قومه مثل عالم
ومن قال لا يقرع بها سن نادم

ومن ذلك قوله - وقد غضب لعمان بن مظعون الجمحي ، حين عذّبه قريش
ونالت منه :

أمن تذكر دهر غير مأمون
أم من تذكر أقوام ذوى سفه
ألا يرون - أذل الله جمعهم
ونمتع الضيم من يبغي مضامنتنا
ومرهفات كأن الملح خالطها
حتى تقرّ رجال لا حلوم لها
أصبحت مكتئبا تبكي كحزون^(٣)
يفشون بالظلم من يدعو إلى الدين
أنا غضبنا لعمان بن مظعون
بكل مطرد في الكف مسنون
يشفى بها الداء من هام الجانين
بمد الصعوبة بالإسماح واللين

(١) ديوانه ١٥٥ - ١٥٨ ، من قصيدة مطامير :

لَمَنْ أَرْبَعُ أَقْوَيْنَ بَيْنَ الْقَدَائِمِ
أَقْمَنَ بِمَدْحَةِ الرِّيحِ التَّوَّائِمِ

(٢) ديوانه ١٧٣ .

(٣) الديوان : « الفلام » ..

أو تؤمنوا بكتابٍ مُنزلٍ عَجَبٍ عَلَى نَبِيٍّ كَمُوسَى أَوْ كَذِي النُّونِ^(١)
 قالوا : وقد جاء في الخبر أَنَّ أبا جهل بن هشام جاء مرّةً إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وهو ساجدٌ وبيده حَجَرٌ يريد أن يَرَضَخَ به رأسه ، فلصق الحجرُ بكفِّه فلم يستطع ما أراد ، فقال أبو طالب في ذلك من جملة أبيات :

أُفَيْقُوا بَنِي سَعْمَا وَانْتَهُوا عَنْ الْغَيِّ مِنْ بَعْضِ ذَا الْمُنْطَقِ^(٢)
 وَإِلَّا فَإِنِّي إِذَا خَائِفٌ بِوَائِقٍ فِي دَارِكُمْ تَلْتَقِي^(٣)
 كَمَا ذَاقَ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمُودَ وَعَادَ وَمَاذَا بَقِيَ !
 ومنها :

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَاكَ فِي أَمْرِكُمْ عَجَائِبُ فِي الْحَجَرِ الْمُلَصَّقِ
 بَكَفِّ الَّذِي قَامَ مِنْ حِينِهِ إِلَى الصَّابِرِ الصَّادِقِ الْمُتَّقِي
 فَأَتَيْتُهُ اللَّهَ فِي كَفِّهِ عَلَى رَغْمِهِ الْخَائِنِ الْأُحْقِي
 قالوا : وقد اشتهر عن عبد الله المأمون رحمه الله أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَسْلَمَ أَبُو طَالِبٍ وَاللَّهِ بِقَوْلِهِ :

نَصَرْتُ الرَّسُولَ رَسُولَ الْمَلِكِ بَيِّضٍ تَلَالَا كَلْعَ الْبُرُوقِ^(٤)
 أَذُبُّ وَأُحْيِي رَسُولَ الْإِلَهِ حَمَاةَ حَامٍ عَلَيْهِ شَفِيقِ
 وَمَا إِنِّ أَذِبُّ لِأَعْدَائِهِ دَيِّبَ الْبِكَارِ حَذَارَ الْفَنِيقِ^(٥)
 وَلَكِنْ أَزِيرُ لَهُمْ سَامِيًا كَمَا زَارَ لَيْثٌ بَغِيلَ مَضِيقِ

(١) بعده في الديوان :

يَأْتِي بِأَمْرِ جَلِيٍّ غَيْرِ ذِي عَوَجٍ كَمَا تَبَيَّنَ فِي آيَاتِ يَاسِينَ
 (٢) ديوانه ٩٤ (٣) بعده في الديوان :

تَكُونُ لَغَيْرِكُمْ عِبْرَةً وَرَبُّ الْمَغَارِبِ وَالْمَشْرِقِ

(٤) ديوانه ٩٨ .

(٥) الفنيق : الفحل المكرم على أهله .

قالوا : وقد جاء في السيرة ، وذكره أكثر المؤرخين ، أن عمرو بن العاص لما خرج إلى بلاد الحبشة ليكيّد جعفر بن أبي طالب وأصحابه عند النجاشي ، قال :

تقول ابنتي : أين أين الرحيل ؟ وما البين مني بمستنكر
فقلت : دعيني فأني امرؤ أريد النجاشي في جعفر
لأكويه عنده كية أقيم بها نخوة الأصغر
ولن أنثى عن بني هاشم بما اسطعت في الغيب والمحضر
وعن عائب اللات في قوله ولولا رضا اللات لم تمطر
وإني لأشقى قريش له وإن كان كالأذهب الأحمر

قالوا : فكان عمرو يُسمى الشانيّ ابن الشانيّ ، لأن أباه كان إذا مرّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة يقول له : والله إنني لأشؤك ، وفيه أنزل : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (١) . قالوا : فكتب أبو طالب إلى النجاشي شعرا يحرّضه فيه على إكرام جعفر وأصحابه والإعراض عمّا يقوله عمرو فيه وفيهم ، من جملة :

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر وعمر وأعداء النبي الأقارب (٢)
وهل نال إحسان النجاشي جعفرا وأصحابه ، أم عاق عن ذلك شاغب
في أبيات كثيرة .

قالوا : وروى عن عليّ عليه السلام أنه قال : قال لي أبي : يا بني الزم ابن عمك ، فإنك تسلم به من كلّ بأس غاجل وآجل ، ثم قال لي :
إن الوثيقة في لزوم محمد فاشدّد بصحبته على أيديكا

(١) سورة الكوثر ٣ .

(٢) ديوانه ٢٥ .

ومن شعره المناسب لهذا المعنى قوله :

إن عليا وجعفرًا ثقتي عند ملء الزمان والنوب^(١)
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخى لأمتى من بينهم وأبى
والله لا أخذل النبي ولا يخذله من بنى نذو حسب

قالوا : وقد جاءت الرواية أن أبا طالب لما مات جاء عليُّ عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأذنه بموته ، فتوجّع عظيما وحزن شديدا ، ثم قال له : امض فتولّ غسله ، فإذا رفعتته على سريريه فأعلمني ، ففعل ، فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو محمول على رموس الرجال ، فقال : وصلتك رحم ياعم ، وجزيت خيرا ، فلقد ربّيت وكفّلت صغيرا ، ونصرت وآزرت كبيرا ؛ ثم تبعه إلى حفرة ، فوقف عليه ، فقال : أما والله لأستغفرنّ لك ولأشفعنّ فيك شفاعَةً يعجب لها الثقلان .

قالوا : والمسلم لا يجوز أن يتولّى غسل الكافر ، ولا يجوز للنبي أن يرقّ الكافر ، ولا أن يدعو له بخير ، ولا أن يعدّه بالاستغفار والشفاعة ، وإنما تولّى عليُّ عليه السلام غسله ، لأن طالبا وعقيلًا لم يكونا أساما بعد ، وكان جعفر بالحبشة ، ولم تكن صلاة الجنائز شرعت بعد ، ولا صلى رسول الله صلى الله عليه وآله على خنثى ، وإنما كان تشييع ورقة ودعاء .

قالوا : ومن شعر أبي طالب يخاطب أخاه حمزة ، وكان يكنى أبا يعلى :

فصبرا أبا يعلى على دين أحمد وكن مظهرا للدين وفقت صابرا
وحطّ من أتى بالحق من عند ربه بصدق وعزم لا تكن حَزْرُ كافرا
فقد سرتني إذ قلت إنك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصرا

وبادِ قريشاً بالَّذى قد أتيتُـه جهازاً وقل ما كان أحمد ساحرا
قالوا : ومن شعره المشهور :

أنتَ النبيُّ محمدُ قرّمَ أعزَّ مسودَّ (١)
لمسودّين أكارمٍ طابوا وطاب المولدُ
نعم الأرومة أصلها عمرو الخضمّ الأوحْدُ (٢)
هشم الرّبيكة في الجفا ن وعيش مكة أنكدُ (٣)
فجرت بذلك سنّة فيها الخيزة تُتردُّ (٤)
ولنا السقاية للحجيج بها يُمأثُّ العنجدُ (٥)
والمأزمان وما حوت عرفاتها والمسجدُ
أنى تضامُّ ولم أمت وأنا الشُّجاع العرْبُدُ (٦)
وبطاح مكة لا يرى فيها نجيعُ أسودُ
وبنو أبيك كأنهم أسدُ العرين تَوَقَّدُ
ولقد عهدتُك صادقاً في القول لا تنزّيد
مازلتَ تنطق بالصّوا ب وأنتَ طفْلُ أمردُ

قالوا : ومن شعره المشهور أيضاً قوله يخاطب محمداً ، ويسكن جأشه ، ويأمره
بإظهار الدعوة :

لا يمنعنك من حقِّ تقوم به أيديّ تصولُ ولا سلق بأصوات (٧)

(١) ديوانه ٧٠ - ٧٢ .

(٢) الخضم : الكثير العطاء . (٣) الربيكة : طعاع يعمل من تمر وأقط وسمن .

(٤) الخيزة : الخبز ، وفي الأساس : « ثردت الخبز أثردته ؟ وهو أن تفتته ثم تبله بمرق » .

(٥) العنجد : الزبيب . (٦) العربد في الأصل : الحية ؛ وهو كناية عن الشجاعة .

(٧) ديوانه ٥٠ .

فإن كَفَّكَ كفى إن بليت بهم ودون نفسك نفسى فى المماتِ
ومن ذلك قوله ، ويقال إنها لطالب بن أبى طالب :
إذا قيل من خيرُ هذا الورى قَبِيلاً وأكرمهم أُسرُهُ (١) ؟
أناف لعبدٍ منافٍ أبٌ وفضله هاشم العزّة
لقد حلّ مجدّ بنى هاشم مكان النعائم والنّثره
وخير بنى هاشم أحمد رسول الإله على فترة
ومن ذلك قوله :

لقد أكرم الله النّبىّ محمداً فأكرم خلق الله فى النّاس أحمدُ (٢)
وشقّ له من اسمه ليُجَلّه فذو العرش محمود وهذا محمد
وقوله أيضاً ، وقد يروى لعلّى عليه السلام :

يا شاهد الله علىّ فاشهد (٣) أنّى على دين النّبىّ أحمدِ
* من ضلّ فى الدين فإنّى مهتدٍ *

قالوا : فكلّ هذه الأشعار قد جاءت بحجىء التواتر ، لأنه إن لم تكن آحادها متواترة ،
فمجموعها يدلّ على أمر واحد مشترك ؛ وهو تصديق محمد صلى الله عليه وآله ، ومجموعها
متواتر ، كما أنّ كلّ واحدة من قتلات علىّ عليه السلام الفرسان منقولة آحاداً ، ومجموعها
متواتر ، يفيدنا العلم الضرورى بشجاعته ، وكذلك القول فيما روى من سخاء حاتم ،
وحلم الأحنف ومعاوية ، وذكاء إياس وخلاعة أبى نواس ، وغير ذلك ، قالوا : واطرکوا
هذا كلّ جانباً ، ما قولكم فى القصيدة اللامية التى شهرتها كشهرة " قفانبك " ، وإن
جاز الشكّ فيها أوفى شئ من أبياتها ، جاز الشكّ فى " قفانبك " ، وفى بعض أبياتها ،
ونحن نذكر منها هاهنا قطعة وهى قوله :

(٢) ديوانه ٧٥ .

(١) ديوانه ٥٠ .

(٣) ديوانه ٧٥ .

أَعُوذُ بِرَبِّ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ
وَمَنْ فَاجِرٍ يَفْتَابُنَا بِمَغْيِبَةٍ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ يُبْزَى مُحَمَّدٌ
وَنَصْرُهُ حَتَّى نَصْرَعْ دُونَهُ
وَحَتَّى نَرَى ذَا الرَّدْعِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ
وَيَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ
وَلِنَّا وَبَيْتَ اللَّهِ مَنْ جَدَّ جَدًّا
بِكُلِّ فِتْنٍ مِثْلِ الشَّهَابِ سَمِيدَةٍ
وَمَا تَرَكْ قَوْمٍ لَا أَبَالِكَ سَيِّدًا
وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ
يَكُونُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَمِيزَانُ صِدْقٍ لَا يَخِيسُ شَعِيرَةً
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنْ أَبْنَانَا لَا مَكْذَبَ
لِعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجْدًا بِأَحَدٍ
وَجُودَتْ بِنَفْسِي دُونَهُ فَحْمِيَّتُهُ
فَلَا زَالَ لِلدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا
وَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ

عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ يُلُوحُ بِبَاطِلٍ^(١)
وَمَنْ مَلْحَقٌ فِي الدِّينِ مَا لَمْ يُحَاوِلِ
وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنَنَاضِلُ^(٢)
وَنَذْهَلُ عَنْ أَبْنَانَا وَالْحَلَالِ
مَنْ الطَّعَنُ فَعَلَ الْأَنْكَبُ الْمُتَحَامِلُ^(٣)
نَهْوُضُ الرُّوَايَاتِ حَتَّى ذَاتِ الصَّلَاحِ^(٤)
لَتَلْتَبَسْنَ أَسْيَافُنَا بِالْأُمَائِلِ^(٥)
أَخِي ثَقَّةٍ عِنْدَ الْحَفِظَةِ بِأَسْلِ
يُحَوِّطُ الذَّمَّارَ غَيْرُ نَكْسٍ مُوَاسِلٍ^(٦)
ثَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ^(٧)
فَهْمُ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
وَوَزَانُ صِدْقٍ وَزَنُهُ غَيْرُ عَائِلٍ^(٨)
لَدَيْنَا ، وَلَا يَعْبَا بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ !
وَأُحِبَّتُهُ حُبَّ الْحَبِيبِ الْمُوَاسِلِ
وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَى وَالْكُوَاهِلِ
وَشَيْنًا لِمَنْ عَادَى وَزِينَ الْحَاوِلِ
وَأُظْهِرُ دِينًا حَقَّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ

- (١) ديوانه ١٠٠ - ١٣٤
(٢) يَبْزَى ، أى يغلب .
(٣) يَرْكَبُ رَدْعَهُ : يَخْرُجُ لَوَجْهِهِ عَلَى دَمِهِ ، وَالرَّدْعُ : الطَّيْحُ وَالْأَثَرُ مِنَ الدَّمِ .
(٤) الرُّوَايَا : جَمْعُ رَاوِيَةٍ ؛ وَهُوَ الْبَعِيرُ يَسْتَقِي عَلَيْهِ . وَذَاتُ الصَّلَاحِ : الْمَزَادَةُ الَّتِي يَنْقَلُ فِيهَا الْمَاءُ ، وَالصَّلَاحُ جَمْعُ صَلَاحَةٍ ، وَهِيَ بَقِيَّةُ الْمَاءِ فِي الْإِدَاوَةِ .
(٥) الْأُمَائِلُ : الْأَشْرَافُ
(٦) الدِّيَوَانُ : « غَيْرُ ذَرْبٍ » .
(٧) ثَمَالُ الْيَتَامَى : عِمَادُهُمْ .
(٨) يُقَالُ : عَالُ الْمِيزَانِ يَعُولُ ، إِذَا مَالَ .

وورد في السيرة والمغازي أنَّ عتبة بن ربيعة أو شيبة لما قطع رجل عبيدة بن الحارث ابن المطلب يوم بدر أشبل^(١) عليه على وحمزة فاستنقذه منه وخطا عتبة بسيفيهما حتى قتلاه ، واحتملا صاحبهما من المعركة إلى العريش ، فألقياه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنَّ مخَّ ساقه ليسيل ، فقال : يا رسول الله ، لو كان أبو طالب حيًّا لعلَّ أنه قد صدق في قوله :

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ تُخْلِي مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعِينَ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وَنَنْصُرُهُ حَتَّى نَصْرَعَّ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنِ أَبْنَائِنَا وَالْحُلَّائِلِ

فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وآله استغفر له ولأبى طالب يومئذ ، وبلغ عبيدة مع النبي صلى الله عليه وآله إلى الصفراء فمات فدفن بها .

قالوا : وقد روى أنَّ أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في عام جدب ، فقال : أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبيٌّ يرتضع ، ولا شارب^(٢) يجترُّ ثم أنشده :

أَتَيْنَاكَ وَالْعِذْرَاءُ تَدْمَى لِبَانُهَا وَقَدْ شَغَلَتْ أُمَّ الرَضِيعِ عَنِ الطُّفْلِ
وَأَلْقَى بِكَفِّهِ الْفَتَى لَاسْتِكَانَةً مِنَ الْجُوعِ حَتَّى مَا يُمْرُّ وَلَا يُحْمِلِي
وَلَا شَيْءَ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا سِوَى الْخِزْلِ الْعَامِيِّ وَالْعِلْهِزِّ الْفَسَلِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ فِرَارُنَا وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرَّسْلِ !

فقام النبي صلى الله عليه وآله يجرّ رءاه ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً ، مريئاً هنيئاً ، مريئاً سحجاً سجالاً ، غدقاً طبقةً قاطباً دماً ، درّاً تحيي به الأرض ، وتنبث به الزرع ، وتدرّ به الصرع ، واجعله سقياً نافعا عاجلاً غير راث . فوالله ، ماردّ رسول الله صلى الله عليه وآله يده إلى نحره حتى ألقّت السماء

(١) أشبل : عطف .

(٢) الشارف : الناقه .

أرواقها ، وجاء الناس يضحّون : الفرق الفرق يارسول الله! فقال : اللهم حوالينا ولا علينا ،
فأنجاب السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل .

فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه ، ثم قال : لله درُّ أبي طالب ! لو كان حيًّا
لقرّرت عينه . من يُنشدنا قوله ؟ فقام عليّ فقال : يارسول الله ، لعلك أردت :

* وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه *

قال : أجل ، فأنشده أبياتاً من هذه القصيدة ، ورسول الله يستغفر لأبي طالب على
المنبر؛ ثم قام رجل من كنانة فأنشده :

لك الحمد والحمدُ ممن شكرُ سُقِينَا بوجهِ النَّبِيِّ الْمَطْرُ
دعا الله خالقه دعوةً إليه ، وأشخصَ منه البصرُ
فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَا سَاعِدِ أو أقصرَ حتى رأينا الدرر
دِفَاقَ الْعَزَالِي وَجَمِّ الْبِغَاقِ^(١) أغاثَ به الله عُليّاً مُضَرَّ
فكان كما قاله عمّه أبو طالب ذو رِواء غُرَر
به يسّر الله صَوْبَ الغمامِ فهذا العيان وذاك الخبر
فمن يشكر الله يلقَ المزيدَ ومَن يكفر الله يلقَ الْغَيْرَ

فقال رسول الله : إن يكن شاعر أحسن فقد أحسنت .

قالوا : وإِنَّمَا لم يظهر أبو طالب الإسلامَ ويَباهر به ، لأنه لو أظهره لم يتهيّأ له من
نُصرة النبي صلى الله عليه وآله ما تهيّأ له ، وكان كواحدٍ من المسلمين الذين اتبعوه ، نحو
أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهما ممن أسلم ، ولم يتمكن من نُصرته والقيام دونه

(١) العزالي : جمع عزلاء ، وهي في الأصل : مصب الماء من القرية والراوية ، ويقال للسحابة إذا انهمرت
بالمطر : قد حلت عزاليها ، وأرسلت عزاليها . والبغاق : المطر الذي يتبع بالماء .

حينئذ، وإتّما تمكّن أبو طالب من الحاماة عنه بالثبات في الظاهر على دين قريش وإن أبطن الإسلام؛ كمالوا أنّ إنسانا كان يُبطن التشيع مثلا، وهو في بلد من بلاد الكرامية، وله في ذلك البلد وجهة وقدّم، وهو يُظهر مذهب الكرامية، ويحفظُ ناموسه بينهم بذلك، وكان في ذلك البلد نفرٌ يسير من الشيعة لا يزالون يُنالون بالأذى والضرر من أهل ذلك البلد ورؤسائه، فإنّه مادام قادرا على إظهار مذهب أهل البلد، يكون أشدّ تمكّنا من المدافعة والحاماة عن أولئك النفر، فلو أظهر ما يجوز من التشيع، وكشف أهل البلد بذلك، صار حكمه حكم واحد من أولئك النفر، ولحقه من الأذى والضرر ما يحتاجهم، ولم يتمكّن من الدفاع أحيانا عنهم كما كان أولا.

قلت: فأما أنا فإنّ الحال ما تنبّهت عندي، والأخبار متعارضة؛ والله أعلم بحقيقة حاله كيف كانت^(١).

ويقف في صدرى رسالة النفس الزكية^(٢) إلى المنصور، وقوله فيها: «فأنا ابنُ خير الأخيار، وأنا ابن شرّ الأشرار، وأنا ابن سيّد أهل الجنة، وأنا ابن سيّد أهل النار». فإنّ هذه شهادة منه على أبي طالب بالكُفر، وهو ابنه وغير متهم عليه، وعهده قريب من عهد النّبىّ صلى الله عليه وآله، لم يطل الزمان فيكون الخبر مفتعلا. وجملة الأمر أنه قد روى في إسلامه أخبار كثيرة، وروى في موته على دين قومه أخبار كثيرة، فتعارض الجرح والتعديل، فكان كتعارض البينتين عند الحاكم، وذلك يقتضى التوقّف، فأنا في أمره من المتوقّفين.

(١) وضع الشيخ الفريد رسالة في إيمان أبي طالب، طبعت في مجموعة نفائس المخطوطات، العدد الثالث من المجموعة الأولى. طبعت في النجف سنة ١٩٥٦.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب بالأرقط وبالمهدي وبالنفس الزكية، خرج على المنصور ثامرا لمقتل أبيه بالكوفة في مائتين وخمسين رجلا، فقبض على أمير المدينة، وبأبيه أهلها فانتدب المنصور لقتاله وليّ عهده عيسى بن موسى، فسار إليه، وانتهى الأمر بقتله سنة ١٤٥هـ - (مقاتل الطالبين ٢٣٢).

فأما الصلاة وكونه لم يُنقل عنه أنه صلى ، فيجوز أن يكون لأن الصلاة لم تكن بعد قد فرضت ، وإنما كانت نفلاً غير واجب ؛ فمن شاء صلى ، ومن شاء ترك ، ولم تفرض إلا بالمدينة . ويمكن أن يقول أصحاب الحديث : إذا تعارض الجرح والتعديل كما قد أشرتم إليه ، فالترجيح عند أصحاب أصول الفقه لجانب الجرح ، لأن الجرح قد اطلع على زيادة لم يطلع عليها المعدل .

ولخصومهم أن يجيبوا عن هذا فنقول : إن هذا إنما يقال ويذكر في أصول الفقه في طعن مفصل في مقابلة تعديل مجمل ، مثاله أن يروى شعبة مثلاً حديثاً عن رجل ، فهو بروايته عنه قد وثقه ، ويكفي في توثيقه له أن يكون مستور الحال ، ظاهره العدالة ، فيطعن فيه الدار قطنى مثلاً بأن يقول : كان مدلساً ، أو كان يرتكب الذنب الفلاني ، فيكون قد طعن طعناً مفصلاً في مقابلة تعديل مجمل ، وفيما نحن فيه وبصده الروايتان متعارضتان تفصيلاً لا إجمالاً ، لأن هؤلاء يروون أنه تلقف بكلمتي الشهادة عند الموت ، وهؤلاء يروون أنه قال عند الموت : أنا على دين الأشياخ .

وبمثل هذا يجب على من يقول من الشيعة : روايتنا في إسلامه أرجح ، لأننا نروى حكماً إيجابياً ونشهد على إثبات ، وخصومنا يشهدون على النفي ، ولا شهادة على النفي ، وذلك أن الشهادة في الجانبين معا ، إنما هي على إثبات ، ولكنه إثبات متضاد .

وصنف بعض الطالبين في هذا العصر كتاباً في إسلام أبي طالب ، وبعثه إلى ، وسألني أن أكتب عليه^(١) بخطي نظماً أو نثراً ، أشهد فيه بصحة ذلك ، وبوثاقة الأدلة عليه ، فتحرّجت أن أحكم بذلك حكماً قاطعاً ، لما عندي من التوقف فيه ، ولم أستجز أن أقعد عن تعظيم أبي طالب ، فإنني أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دِعمة . وأعلم أن حقه واجب على كل مسلم في الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، فكتبت على ظاهر الجلد :

(١) ساقطة من ب .

ولولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً فقاماً
 فذاك بمكة آوى وحامى وهذا يثرب جس الحمما^(١)
 تكفل عبد مناف بأمر وأودى فكان على تماماً
 فقل في تبير مضي بعد ما قضى ما قضاه وأبقى شماما
 فله ذا فاتحاً للهدى ولله ذا للعلى ختاماً
 وما ضرَّ مجد أبي طالب جهول لفاً أو بصير تعامى
 كما لا يضر إياة الصبا^(٢) ح من ظن ضوء النهار الظلاما
 فوقيته حقه من التعظيم والإجلال ، ولم أجزم بأمر عندى فيه وقفة .

[قصة غزوة بدر]

الفصل الثالث : فى شرح القصّة فى غزاة بدر ، ونحن نذكر ذلك من كتاب " المغازى
 لمحمد بن عمر الواقدي ، ونذكر ما عساه زاده محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى ،
 وما زاده [أحمد بن]^(٣) يحيى بن جابر البلاذريّ فى " تاريخ الأشراف " .

قال الواقدي : بلغ^(٤) رسول الله صلى الله عليه وآله أن عير قريش قد فصلت
 مكة تريد الشام ، وقد جمعت قريش فيها أموالها ، فندب لها أصحابه ، وخرج يعترضها
 رأس ستة عشر شهراً من مهاجرة عليه السلام ، فخرج فى خمسين ومائة - ويقال
 مائتين - فلم يلق العير ؛ وفاتته ذاهبة إلى الشام . . وهذه غزاة ذى العُسيرة ، رجع .
 إلى المدينة فلم يلق حرباً ، فلما تحيّن انصراف العير من الشام قافلة نذب أصحابه لها ، وبع
 طلحة بن عبید الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال

(٢) إياة الصبح : ضوءه ، وأصله فى الشمس .
 (٤) مغازى الواقدي ص ١١ وما بعدها .

(١) : « حسن » .
 (٣) من ١ .

يتجسّسان خبر العير ، حتى نزلّا على كشد^(١) الجهنّي بالموضع المعروف بالتّخبار^(٢) ، وهو من وراء ذى المروة على السّاحل ، فأجارها وأنزلها ، فلم يزالا مقيمين في خباء وبرّ حتى مرّت العير ، فرفعهما على نشزٍ من الأرض ، فنظرا إلى القوم وإلى ما تحمل العير ، وجعل أهل العير يقولون لكشد : يا كشد، هل رأيت أحدا من عيون محمد ؟ فيقول : أعود بالله ، وأنى لحمد عيون بالتّخبار ! فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا ، وخرج معهما كشد خفيرا ، حتى أوردها ذا المروة ، وساحت العير فأسرعت ، وسار بها أصحابها ليلاً ونهاراً ، فرّقاً من الطّلب ، وقدم طلحة وسعيد المدينة في اليوم الذي لقي رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً ببدر ، فخرجا يعترضان رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلقياه بربان - سوتربان بين مَلَك والسّالة على الحجّة ، وكانت منزل عروة ابن أذينة الشاعر - وقدم كشد بعد ذلك على النبي صلى الله عليه وآله ، وقد أخبر طلحة وسعيد رسول الله صلى الله عليه وآله بما صنّعا بهما ، فغياهما وأكرمه ، وقال : ألا أقطع لك ينبع ؟ قال : إني كبير ، وقد فقدت عمري ، ولكن أقطّعها لابن أخي ، فأقطّعها له^(٣) .

قالوا : ونذب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين ، وقال : ههنا عير قريش ، فيها أموالهم : لعن الله أن يغنمكموها . فأسرع من أسرع ، حتّى إن كان الرجل ليساهم أباه في الخروج ، فكان يمين ساهم أباه سعد بن خيثمة ، فقال سعد لأبيه : إنّه لو كان غير الجنة أكثرتك به ، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا ، فقال خيثمة : آثرني وقرّ مع نسائك ، فأبى سعد ، فقال خيثمة : إنه لا بدّ لأحدنا من أن يقيم ، فاستهما ، فخرج سهم سعد ، فقتل ببدر . وبأبطأ عن النبي صلى الله عليه وآله وآله بشر كثير من أصحابه ، وكرهوا خروجه ، وكان في ذلك كلام كثير واختلاف ، وبعضهم تخلف من أهل النّيّات والبصائر ، لم يظنّوا أنّه يكون قتال ، إنّما هو الخروج للغنمة ، ولو ظنّوا أنّه يكون قتال لما تخلفوا ؛ منهم أسيد

(١) في الإصابة : كشد بالسّين المهملة وما أنبته من الأصول يوافق ما في المغازي .

(٢) في مغازي الواقدي : « التّخبار . من وراء ذى المروة على الساحل » . ولم أجده في ياقوت .

(٣) الخبر في الإصابة ٣ : ٣٧٧ .

ابن خُصَير ، فلما قدِم رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، قال أُسَيْدُ : الحمد لله الذى سَرَك وأَظَهَرَكَ على عَدُوِّكَ ، والذى بعثَكَ بالحقِّ ما تَخَلَّفْتُ عَنْكَ رَغْبَةً بِفُتُوسِ عن نَفْسِكَ ، ولا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَلَقَى عَدُوًّا ، ولا ظَنَنْتُ إِلَّا أَنهَا الْعِيرُ ! فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله : صدقت .

قال : وخرجَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، حتَّى انتهى إلى المكان المعروف بالبُقْعِ^(١) وهى بيوت السُّقْيَا^(٢) ، وهى متصلة ببيوت المدينة ، فغضب عسكره هناك ، وعرض المقاتلة ، فعرض عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، ورافع بن خديج ، والبراء بن عازب ، وأُسَيْدُ بن ظُهَيْر ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، فردَّهم ولم يُجِزْهُمْ .

قال الواقدي : لُحْدِثْنِي أَبُو بَكْرُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه ، قال : رأيتُ أخِي عَمِيرَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَارَى ، فَقُلْتُ : مَالِكَ يَا أَخِي ؟ قَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ فَيَسْتَصْغِرَنِي ، فَيَرَدَّنِي ، وَأَنَا أَحَبُّ الْخُرُوجِ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ . قال : فَعَرَّضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَاسْتَصْغَرَهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ ، فَبَكَى [عَمِيرُ]^(٣) ، فَأَجَازَهُ .

قال : فكان سعد يقول : كنت أعقد له حمائل سيفه من صِغَرِهِ ، فقتل ببدر وهو ابن ستِّ عشرة سنة .

قال : فلما نزلَ عليه السلام بيوت السُّقْيَا أمرَ أصحابه أن يستقوا^(٤) من بُرْهم : وشرب عليه السلام منها ، كان أوَّل مَنْ شَرِبَ وَصَلَّى عندها ، ودعا يومئذ لأهل المدينة ، فقال :

(١) قال ياقوت « البقع : اسم بئر بالمدينة » ، وقال الواقدي : « البقع من السقيا التى بنى بنو ديار بالمدينة »
(٢) فى ياقوت : « عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستقي الماء العذب من بيوت السقيا ، وفى حديث آخر : كان يستعذب الماء العذب من بيوت السقيا ، والسقيا : قرية جامعة من عمل الفرع ، بينهما مما يلى الحجة تسعة عشر ميلا . . . وقال ابن الفقيه : السقا من أسافل أودية تهامة .
(٣) من الواقدي .
(٤) ب : « يستقوا » ، وأثبت ما فى الواقدي .

اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونبيك ، دعاك لأهل مكة ، وإني محمد عبدك ونبيك ، أدعوك لأهل المدينة ، أن تبارك لهم في صاعيتهم ومُدَّتْهم وثمارهم ، اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة ، واجعل ما بها من الوباء بئس . اللهم إني حرمت ما بين لا بَتِّيها ، كما حرَّم إبراهيم خليلك مكة .

قال الواقدي : وخمَّ على ميلين من الجحفة .

وقدَّم رسول الله صلى الله عليه وآله أمامه عدى بن أبي الزغباء وبسيس بن عمرو ، وجاء إليه عبد الله بن عمرو بن حرام ، فقال : يا رسول الله ، لقد سرَّني منزلك هذا ، وعرضك فيه أصحابك ، وتفاءلت به ، إنَّ هذا منزلنا في بني سلمة ، حيث كان بيننا وبين أهل حُسيكة ما كان .

قال الواقدي : هي حُسيكة^(١) الذباب ، والذباب^(٢) : جبل بناحية المدينة ، وكان بحُسيكة يهود ، وكان لهم بها منازل .

قال عبد الله بن عمرو بن حرام فعرضنا يا رسول الله ها هنا أصحابنا ، فأجزنا مَنْ كان يطيق السلاح ، ورددنا مَنْ صغر عن حمل السلاح ، ثم سرنا إلى يهود حُسيكة ، وهم أعزَّ يهود كانوا يومئذ ، فقتلناهم كيف شئنا ، فذلت لنا سائر^(٣) يهود إلى اليوم ، أنا أرجو يا رسول الله أن نلتقي نحن وقريش ، فيقرَّ الله عينك منهم .

قال الواقدي : وكان خلاد بن عمرو بن الجموح لما كان من النهار رجع إلى أهله بجُرْبَاء ، فقال له أبوه عمرو بن الجموح : ما ظننت إلا أنكم قد سِرْتُمْ ، فقال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يعرض الناس بالبقيع ، فقال عمرو : نعم الفأل ! والله إني لأرجو أن تغنموا وأن تظفروا بمشركي قريش ، إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى حُسيكة .

(١) حسيكة ، ضبطه ياقوت بالتصغير ، وقال : « هو موضع بالمدينة في طرق ذباب » .

(٢) ضبطه ياقوت : « بكسر أوله وباءين » ، وقال : « جبل بالمدينة له ذكر في المنازى والأخبار » .

(٣) ب : « اليهود » .

قال : فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قد غيّر اسمه ، وسماه السقيا . قال : فكانت في نفسي أن أشتريها ، حتى اشتراها سعد بن أبي وقاص بـبكرين ، ويقال بسبع أواق ، فذكر للنبي صلى الله عليه وآله أن سعدا اشتراها ، فقال : ربح البيع !

قال الواقدي : فراح رسول الله صلى الله عليه وآله من بيوت السقيّا ، لا تثنى عشرة ليلة^(١) مضت من رمضان ، وخرج المسلمون معه ثلاثمائة وخمسة ، وتحلف ثمانية ، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، فكانت الإبل سبعين بعيراً ، وكانوا يتعاقبون الإبل : الاثنين ، والثلاثة ، والأربعة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى بن أبي طالب عليه السلام ومروءة بن أبي مروءة - ويقال زيد بن حارثة مكان مروءة - يتعاقبون بعيراً واحداً ، وكان حمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة ، موالى النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله على بعير ، وكان عبيدة بن الحارث والطفيل والحصين ابنا الحارث ، ومسطح ابن أثالة على بعير لعبيدة بن الحارث ناضح^(٢) ابتاعه من أبي داود المازني ، وكان معاذ وعوف ومعوذ بنو عقرأ ومولاهم أبو الحمراء على بعير ، وكان أبي بن كعب وعمار بن حزام وحارثة بن النعمان على بعير ، وكان خراش بن الصمة وقطبة بن عامر ابن حديدة وعبد الله بن عمرو بن حزام على بعير ، وكان عتبة بن غزوان وطليب بن عمير على جمل لعتبة بن غزوان يقال له العبس ، وكان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة ومسعود بن ربيع على جمل لمصعب ، وكان عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود على بعير ، وكان عبد الله بن كعب وأبو داود المازني وسليط بن قيس على جمل لعبد الله بن كعب ، وكان عثمان بن عفان وقدامة بن مظعون وعبد الله بن مظعون ، والسائب بن عثمان على بعير يتعاقبون ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف على بعير ، وكان سعد بن معاذ وأخوه وابن أخيه الحارث بن أوس والحارث بن أنس على جمل لسعد بن معاذ ناضح يقال له الذبّال ، وكان سعيد بن زيد ، وسلمة بن

(٢) الناضح : البعير يستقي عليه الماء .

(١) ساقطة من ب

سلامة بن وقش وعباد بن بشر ورافع بن يزيد على ناضح لسعيد بن زيد ، ما تزودوا إلا صاعاً من تمر .

قال الواقدي : فروى مُعاذ بن رفاعه ، عن أبيه ، قال : خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله إلى بدر ، وكان كل ثلاثة يتعاقبون بعيراً ، فكنت أنا وأخي خلاد بن رافع على بكرٍ لنا ومعنا عبدة بن يزيد بن عامر ، فكنا نتعاقب ، فسرنا حتى إذا كنا بالروحاء إذ مر بنا بكرنا وبرك علينا وأعيا ، فقال أخى : اللهم إن لك على نذراً ، لننرددنا إلى المدينة لأنحرته ، فمر بنا النبي صلى الله عليه وآله ونحن على تلك الحال ، فقلنا : يا رسول الله ، برك علينا بكرنا ، فدعا بماء فتمضمض وتوضأ في إناء ، ثم قال : افتحاه ، ففعلنا فصبيته في فيه ، ثم على رأسه ثم على عنقه ثم على حاركه ، ثم على سنّاه ، ثم على عجزه ، ثم على ذنبه ، ثم قال : اركبا ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله فلحقناه أسفل من المنصرف ، وإن بكرنا لينفر بنا ، حتى إذا كنّا بالمصلى راجعين من بدر ، برك علينا ، فحرّه أخى ، فقسم لحمه وتصدق به .

قال الواقدي : وقد روى أن سعد بن عبادة حمل في بدر على عشرين جملاً . قال : وروى عن سعد بن أبي وقاص ، أنه قال : نخرجنا إلى بدر مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومعنا سبعون بعيراً ، فكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة والاثان على بعير ، وكنت أنا من أعظم أصحاب النبي عليه السلام عنه غناء ، وأرجلهم رجلة ^(١) ، وأرماهم لِسهم . لم أركب خطوة ذاهباً ولا راجعاً .

قال الواقدي : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين فصل من بيوت السّقى : اللهم إنهم حُفّاء فاحمئهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك ؛ فمارجع أحد منهم يريد أن يركب إلا وجد ظهراً ، للرجل البعير والبعيران ، واكتسى

(١) الرجل بالضم : القوة على المشى .

مَنْ كَانَ عَارِيًّا ، وَأَصَابُوا طَعَامًا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ ، وَأَصَابُوا فِدَاءَ الْأَسْرَى^(١) ، فَأَغْنَى بِهِ كُلَّ عَائِلٍ .

قال : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وآله على المشاة قيس بن أبي صعصعة - واسم أبي صعصعة عمر بن يزيد بن عوف بن مبدول - وأمره النبي صلى الله عليه وآله حين فصل من بُيُوت السقيا أن يعدّ المساءين ، فوقف لهم ببئر أبي عبيدة يعدّهم ، ثم أخبر النبي صلى الله عليه وآله ، وخرج من بُيُوت السقيا ، حتى سلك بطن العقيق ، ثم سلك طريق المكين^(٢) ، حتى خرج على بطحاء بن أزهر ؛ فنزل تحت شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك ، فبنى منها مسجدا ، فصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصبح يوم الاثنين وهو هناك ؛ ثم صار إلى بطن مَلَل وتُرْبَان بين الحفيرة ومَلَل .

قال الواقدي : فكان سعد بن أبي وقاص ، يقول : لما كنّا بترْبَان ، قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : ياسعد ، انظر إلى الظبي ، فأفوّق له بسهم ، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله فوضع رأسه بين منسكبي وأذني ، ثم قال : اللهم سدّ رميته - قال : فما أخطأ سهمي عن نحره ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرجت أعدو فأخذته وبهرمق فذكّيته^(٣) ، فحملناه حتى نزلنا قريبا ، وأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله فقسّم بين أصحابه .

قال الواقدي : وكان معهم فرسان : فرس لمُرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وفرس للمقداد ابن عمرو البهراني ، حليف بني زُهرة ، ويقال فرس للزبير ؛ ولم يكن إلّا فرسان لاختلاف عندهم ، أنّ المقداد له فرس ؛ وقد روى عن ضباعة بنت الزبير عن المقداد ،

(١) : « للأسرى » .

(٢) المكين ، ضبطه ياقوت على التصغير ، وقال : عقيق المدينة « وفي الواقدي : « المكتمن » .

(٣) ذكّيته . ذبحته .

قال : كان معي يوم بدر فرس يقال له سبعة . وقد روى سعد بن مالك الغنوي عن آبائه أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي شهد بدرًا على فرس له يقال له السيل .

قال الواقدي : ولحقت قريش بالشام في غيرها ، وكانت العير ألف بعير ، وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعدا . إلا بعث به في العير ؛ حتى إن المرأة لتبعث بالشيء التافه ، وكان يقال : إن فيها لمخسین ألف دينار . وقالوا : أقل ، وإن كان ليقال : إن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أحيحة إماما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف ، وكان عامة العير لهم ؛ ويقال : بل كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهبا ، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفا مثقال .

قال الواقدي : وحدثني هشام بن عمار بن أبي الحويرث ، قال : كان لبني عبدمناف فيها عشرة آلاف مثقال ، وكان متجروهم إلى غزاة من أرض الشام .

قال الواقدي : وحدثني عبد الله بن جعفر ، عن أبي عون مولى المسور ، عن نخمرة ابن نوفل ، قال : لما لحقنا بالشام أدرگنا رجل من جذام ، فأخبرنا أن محمدا قد كان عرض لعيرنا في بدأتنا ، وأنه تركه مقيا ينتظر رجعتنا ، قد حالف علينا أهل الطريق ووادعهم . قال نخمرة : فخرجنا خائفين نخاف الرصد ، فبعثنا ضمضم بن عمرو حين فصلنا من الشام .

قال الواقدي : وكان عمرو بن العاص مع العير ، وكان يحدث بعد ذلك يقول : لما كنا بالزرقاء - والزرقاء بالشام من أذرعات على مرحلتين - ونحن منعديرون إلى مكة لقينا رجلا من جذام ، فقال : قد كان عرض محمد لكم في بدأتكم في أصحابه ، فقلنا : ما شعرنا ، قال : بلى ، فأقام شهرا ، ثم رجع إلى يثرب ، وأنتم يوم عرض محمد لكم مخفون فهو الآن أخرى أن يعرض لكم ؛ إنما يعد لكم الأيام عدا ، فاحذروا على عيركم ،

وارتثوا آراءكم ، فوالله ما أرى من عدد ولا كراع ولا حلقة ^(١) . فأجمع القوم أمره فبعثوا ضَمَمَ بن عمرو ، وكان في العير ، وقد كانت قريش مرتبت به وهو بالساحل ، بكران ، فاستأجروه بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يخبر قُريشاً أن محمداً قد عَرَّ لغيرهم ، وأمره أن يجِدَّع بعيره إذا دخل ، ويحول رحله ، ويشقَّ قَيْصَه من قَيْلِه ودُبُرٍ ويصيح : الغوث الغوث ! ويقال : إنما بعثوه من تَبُوك ، وكان في العير ثلاثون رء من قريش ؛ فيهم عمرو بن العاص ، ونخمرة بن نوفل .

قال الواقدي : وقد كانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت قبل مجيء ضَمَمَ بن عمرو رؤيا أفزعته ، وعظمت في صدرها ، فأرسلت إلى أخيها العباس ، فقالت : يا أخي ، والله رأيت رؤيا أفزعني ^(٢) ، وتحوّفت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومصيبة ، فاكتم ما أحدثك منها ، رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته يا آل غُدر ، أفروا إلى مصارعكم في ثلاث ، فصرخ بها ثلاث مرات ، فأرَى الناس الاجتماع إليه ، ثم دخل المسجد ، والناس يتبعونه إذ مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، فصر مثلها ثلاثاً ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ، فصرخ بمثلها ثلاثاً ، ثم أخذ صخرةً أبي قبيس فأرسلها ، فأقبلت تهوى ، حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارفضت ، فما به بيت من بيوت مكة ولا دارٌ من دورها إلا دخلته منها ففلذة ^(٣) .

قال الواقدي : وكان عمرو بن العاص يحدث بعد ذلك فيقول : لقد رأيتُكم هذا ، ولقد رأيت في دارنا فلقة من الصخرة التي انفلقت من أبي قبيس ، ولقد كان ذللاً عبرة ، ولكن الله لم يرِدْ أن نُسلم يومئذ ، لكنه أخر إسلامنا إلى ما أراد .

قلت : كان بعض أصحابنا يقول : لم يكفِ عمراً أن يقول : رأيتُ الصخرة في دُو مكة عياناً ، فيخرج ذلك مخرج الاستهزاء باطناعلى وجه النفاق واستخفافه بقول المساميين

(٢) الواقدي : « أفطمتها » .

(١) الحلقة هنا : السلاح .

(٣) الفلذة : القطعة من الحجارة .

زعم، حتى يضيف إلى ذلك القول بالخبر الصراح فيقول : إن الله تعالى لم يكن أراد منه الإسلام يومئذ .

قال الواقدي : قالوا : ولم يدخل دارا ولا بيتا من دُور بني هاشم ولا بني زُهرة من تلك الصخرة شيء ! قال : فقال العباس : إن هذه لرؤيا ، فخرج مغتما ، حتى لقي الوليد بن عتبة ابن ربيعة - وكان له صديقاً - فذكرها له واستكتمه ؛ ففشا الحديث في الناس ، قال العباس : فغدوت أطوف بالبيت ، وأبو جهل في رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة ، فقال أبو جهل : مارأت عاتكة هذه ؟ فقلت : وما ذاك ؟ فقال : يا بني عبد المطلب ، أما رضيتم بأن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساءكم ! زعمت عاتكة أنها رأت في المنام كذا وكذا - للذي رأت - فسنترَبص بكم ثلاثا ، فإن يكن ما قالت حقاً فسيكون ، وإن مضت الثلاث ولم يكن ، نكتب عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب ! فقال له العباس : يا مصقر استه ، أنت أولى بالكذب واللؤم منا ! فقال أبو جهل : إنا استبقنا المجد وأنتم ، فقلتم : فينا السقاية ، فقلنا : لا نبالي ، تسقون الحجاج ، ثم قلتم : فينا الحجابة ، فقلنا : لا نبالي تحجبون البيت ، ثم قلتم : فينا الندوة ، قلنا : لا نبالي يكون الطعام فتطعمون الناس .. ثم قلتم : فينا الرقادة ، فقلنا : لا نبالي ، تجمعون عندكم ما ترقدون به الضعيف ، فلما أطعمنا الناس وأطعمتم ، وازدحمت الركب واستبقنا المجد ، فكنا كفرسى رهان ، قلتم : منابى ، ثم قلتم : منا نبية ! فلا واللات والعزى لا كان هذا أبدا !

قلت : لأرى كلام أبي جهل منتظماً ؛ لأنه إذا سلم للعباس أن هذه الخصال كلها فيهم ، وهي الخصال التي تشرف بها القبائل بعضها على بعض ، فكيف يقول : لا نبالي لا نبالي ! وكيف يقول : فلما أطعمنا للناس وأطعمتم ، وقد كان الكلام منتظماً ، لو قال : ولنا يزاء هذه المفاخر كذا وكذا ، ثم يقول بعد ذلك : استبقنا المجد فكنا كفرسى رهان ، وازدحمت الركب ؛ ولم يقل شيئاً ولا عدّ مآثره ، ولعل أبا جهل قد قال ما لم ينقل .

قال الواقدي : قال العباس : فوالله ما كان مني غير أني جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئا ، فلما أمسيت لم تبق امرأة أصابتها ولادة عبد المطالب إلا جاءت ، فقلن لي : أرضيت بهذا الفاسق الخبيث يقع في رجالكم ، ثم قد تناول نساءكم ! ولم تكن لك عند ذلك غيره ! فقلت : والله ما قلت إلا لأني لأبالي به ، ولأيم الله لأعرضن له غدا ، فإن عاد كفيئتك إياه . فلما أصبحوا من ذلك اليوم الذي رأت فيه عاتكة مارأت ، قال أبو جهل : هذه ثلاثة أيام مابقي . قال العباس : وغدوت في اليوم الثالث ، وأنا حديد مغضب ، أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه ، وأذكر ما أحفظني به النساء من مقاتهن ، فوالله إني لأمشي نحوه . وكان رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر - إذ خرج نحو باب بني سهم يشتد ، فقلت : ما باله لعنه الله ! كل هذا فرقا من أن أشاتم ! فإذا هو قد سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يقول : يامعشر قريش ، يا آل لؤي بن غالب ، اللطيمة قد عرض لها محمد في أصحابه ! الغوث الغوث ! والله ما أرى أن تدركوها ، وضمضم ينادي بذلك في بطن الوادي ، وقد جدع أذني بعيره وشق قميصه قُبلا ودُبرا ، وحوئل رحله ، وكان يقول : لقد رأيتني قبل أن أدخل مكة وإني لأرى في النوم وأنا على راحتي كأن وادي مكة يسيل من أسفله إلى أعلاه دما ، فاستيقظت فرعاً مذعورا ، فكرهتها لقريش ، ووقع في نفسي أنها مصيبة في أنفسهم .

قال الواقدي : وكان عمير بن وهب الجُمَحِيّ يقول : مارأيت أعجب من أمر ضمضم قط ، وما صرح على لسانه إلا شيطان ! كأنه لم يملكنا من أمورنا شيئا ، حتى نفرنا على الصعب والذلول ، وكان حكيم بن حزام يقول : ما كان الذي جاء نافاستنفرنا إلى العير إنسانا إلا أن هو إلا شيطان ، قيل : كيف يا أبا خالد ؟ قال : إني لأعجب منه ، ما ملكنا من أمرنا شيئا .

قال الواقدي : فجهز الناس وشغل بعضهم عن بعض ، وكان الناس بين رجلين : إما خارج وإما باعث مكانه رجلا ، وأشفقت قريش لرؤيا عاتكة ، وسرّ بنو هاشم .

وقال قائلهم : كلاً ، زعتم أنّا كذبنا وكذبت عاتكة ! فأقامت قريش ثلاثاً تتجهّز - ويقال : يومين - وأخرجت أسلحتهم واشتروا سلاجاً ، وأعان قويهم ضعيفهم ، وقام سهيل ابن عمرو في رجال من قريش ، فقال : يا معشر قريش ، هذا محمد والصّباة معه من شبّانكم وأهل يثرب قد عرضوا لغيركم ولطيئتم^(١) ، فمن أراد ظهراً فهذا ظهر ، ومن أراد قوّة فهذه قوّة . وقام زمعة بن الأسود ، فقال : إنّه واللّات والعزّى ما نزل بكم أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لغيركم فيها خزائنكم ؛ فأوعبوا^(٢) ولا يتخلّف منكم أحد ، ومن كان لا قوّة له فهذه قوّة ، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لا يروعكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم . وقال طعيمة بن عدى : يا معشر قريش ، والله ما نزل بكم أمر أجلّ من هذه ! أن يستباح غيركم ، ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم ، والله ما عرف رجلاً ولا امرأة من بنى عبد مناف له نش^(٣) فصاعداً ، إلا وهو في هذه العير ، فمن كان لا قوّة به فعندنا قوّة نحمله ونقويه . فحمل على عشرين بغيرا وقوى بهم ، وخلفهم في أهلهم بمعونة . وقام حنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فخصّا الناس على الخروج ، ولم يدعوا إلى قوّة ولا لُحْلان ؛ فقليل لهما : ألا تدعوان إلى مادعا إليه قومكما من اللّحْلان ؟ قالوا : والله ما لنا مال ، وما المال إلا لأبي سفيان . ومشي نوفل بن معاوية الديلمي إلى أهل القوّة من قريش ، وكلّمهم في بذل النفقة واللّحْلان لمن خرج ، فكلم عبد الله بن أبي ربيعة ، فقال : هذه خمسمائة دينار تضعها حيث رأيت ، وكلّم حُوَيْطِب بن عبد العزى ، فأخذ منه مائتي دينار أو ثلثمائة ، ثم قوّى بها في السلاح والظهر .

قال الواقدي : وذكروا أنّه كان لا يتخلّف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعثاً ، فمشت قريش إلى أبي لهب ، فقالوا له : إنك سيّد من سادات قريش ، وإنّك إن تخلّفت عن

(١) اللطيمة : التجارة ؛ وقيل : اللطيمة : العطر خاصة .

(٢) أوعبوا : استعدوا .

(٣) النش : وزن نواة من ذهب .

النفير يعتبر بك غيرك من قومك، فأخرج أو ابعث رجلاً، فقال: واللات والعزى لا أخرج ولا أبعث أحداً، فجاءه أبو جهل فقال: أقم يا أبا عتبة، فوالله ما خرجنا إلا غضباً لدينك ودين آبائك! وخاف أبو جهل أن يسلم أبو لهب، فسكت أبو لهب ولم يخرج ولم يبعث، وما منع أبا لهب أن يخرج إلا الإشفاق من رؤيا عاتكة، كان يقول: إنما رؤيا عاتكة أخذت باليد، ويقال إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان له عليه دين، فقال: أخرج ودينى عليك لك، فخرج عنه.

وقال محمد بن إسحاق في المغازي: كان دين أبي لهب على العاص بن هشام أربعة آلاف درهم، فطمّله بها وأفلس، فتركها له على أن يكون مكانه، فخرج مكانه. قال الواقدي: وأخرج عتبة وشيبة دروعاً لهما، فنظر إليهما مولاهما عداس وهما يصلحان دروعهما وآله حرهما، فقال: ما تريدان؟ فقالا: ألم تر إلى الرجل الذي أرسلناك إليه بالعنب في كرمنا بالطائف؟ قال: نعم، قال: نخرج فنقاتله، فبكي، وقال: لا تخرجوا؛ فوالله إنه لنبي، فأبيا فخرجا، وخرج معهما فقتل ببدر معهما.

قلت: حديث العنب في كرم ابني ربيعة بالطائف قد ذكره أرباب السيرة، وشرحه الطبري في التاريخ، قال: لما مات أبو طالب بمكة طمعت قريش في رسول الله صلى الله عليه وآله ونالت منه ما لم تكن تناله في حياة أبي طالب، فخرج من مكة خائفاً على نفسه مهاجراً إلى ربه يؤمّ الطائف، راجياً أن يدعو أهلها إلى الإسلام فيجيبوه، وذلك في شوال من سنة عشر من النبوة، فأقام بالطائف عشرة أيام، وقيل شهراً، لا يدع أحداً من أشراف ثقيف إلا جاءه وكلّمه، فلم يجيبوه، وأشاروا عليه أن يخرج عن أرضهم، ويلحق بمجاهل الأرض وبحيث لا يعرف، وأغروا به سفهاءهم، فرمّوه بالحجارة، حتى إن رجلين لندميا، فكان معه زيد بن حارثة، فكان يقيه بنفسه، حتى لقد شجّ في رأسه.

والشيعة تروى أن عليّ بن أبي طالب كان معه أيضا في هجرة الطائف ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثقيف وهو محزون ، بعد أن مشى إلى عبد ياليل ومسعود وحبيب ابني عمرو بن عمير ، وهم يومئذ سادة ثقيف ، فجلس إليهم ، ودعاهم إلى الله وإلى نصرته والقيام معه على قومه ، فقال له أحدهم : أنا أمرط^(١) بباب الكعبة ، إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحدا أرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لأأكلك كلمة أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام ، ولئن كنت كاذبا على الله ما ينبني أن أأكلك . فقام رسول الله صلى الله عليه وآله من عندهم ، وقد يس من خير ثقيف ، واجتمع عليه صديانهم وسفهاؤهم ، وصاحوا به وسبّوه وطرّدوه ، حتى اجتمع عليه الناس يعجبون منه ، وألجئوه بالحجارة والطرد والشتم إلى حائط^(٢) لعُتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما يومئذ في الحائط ، فلما دخل الحائط رجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل حَبَلَة^(٣) منه فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران ويريان مالتى من سفهاء ثقيف .

قال الطبري : فلما اطمأنّ به قال - فيما ذكر لي : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ؛ يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربّي ، إلى من تكلني ! إلى بعيد فيتجهمني ، أم إلى عدو ملّكته أمرى ، فإن لم يكن منك غضب على فلا أبالي ! ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك !

فلما رأى عُتْبة وشيبة مالتى تحرّكت له رَحْمَتُهُما ، فدعّوا غلاما نصرانياً لهما ، يقال له

(١) في الطبري : « هو يمرط ثياب الكعبة » ، أى يمزقها . (٢) الحائط هنا : البستان .

(٣) الحبلّة : الكرمة .

عدّاس ، فقال له : خذ قِطْفًا^(١) من هذا العنب وضعه في ذلك الطّبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، وقل له فليأكل منه ، ففعل وأقبل به حتى وضعه بين يديه ، فوضع يده فيه ، فقال : بسم الله ، وأكل ، فقال عدّاس : والله إنّ هذه الكلمة لا يقولها أهل هذه البلدة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : من أيّ البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال : أنا نصرانيّ من أهل نينوى ، قال : أمّن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال : وما يدريك من يونس بن متى؟ قال : ذلك أخي ، كان نبيا وأنا نبيّ . فأكبّ عدّاس على يديه ورجليه ورأسه يتعبّاهما ، قال : يقول ابنا ربّيعة أحدهما اصحابه : أمّا غلامك فقد أفسده عليك ، فامّا جاءهما قالا : ويلك يا عدّاس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ! قال : ياسيّدى ، ما في الأرض خير من هذا ، فقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلّا نبيّ^(٢) .

قال الواقديّ : واستقسمت قريش بالأزلام عند هُبل للخروج ، واستقسم أميّة بن خلف وعُتْبة وشَيْبة بالأمر والنّاهي ، فخرج القِدْح^(٣) النّاهي ، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل ، فقال : ما استقسمت ولا نتخلف عن غيرنا .

قال الواقديّ : لما توجه زُمعة بن الأسود خارجا ، فكان بذى طُوًى أخرج قِداحه ، واستقسم بها ، فخرج النّاهي عن الخروج ، فأتى غيظا ، ثم أعادها الثانية فخرج مثل ذلك فكسرها ، وقال : ما رأيت كاليوم قِدحا أ كذب ! ومرّ به سهيل بن عمرو وهو على تلك الحال ، فقال : مالي أراك غضبان يا أبا حُكَيْمة ؟ فأخبره زُمعة ، فقال : امض عنك أيّها الرجل ، قد أخبرني عُمر بن وهب أنّه لقيّه مثل الذي أخبرتنى ، فمضوا على هذا الحديث^(٤) .

(١) القطف : عنقود العنب . وهو في الأصل : اسم لكل ما يقطف .

(٢) تاريخ الطبري ٢ : ٣٤٥ ، ٣٤٦ (طبعة المعارف) .

(٣) القِدْح هنا : السهم الذي كانوا يستقسمون به . (٤) مغازي الواقدي ٢٧ .

قال الواقديّ : وحَدَّثني موسى بن ضَمْرَة بن سعيد ، عن أبيه ، قال : قال أبو سفيان ابن حرب لضمّصم : إذا قدمت على قريش فقل لها : لا تستقسم بالأزلام .

قال الواقديّ : وحَدَّثني محمد بن عبد الله ، عن الزُّهريّ ، عن أبي بكر بن سليم ابن أبي خَيْثمة ، قال : سمعتُ حكيم بن حزام يقول : ما توجّهتُ وجهاً قطّ كان أكره إلى من مسيرى إلى بدر ، ولا بان لي في وجه قطّ ما بان لي قبل أن أخرج ، ثم قال : قدم ضمّصم ، فصاح بالتّغير فاستقسمت بالأزلام ، كلُّ ذلك يخرج الذي أكره ، ثم خرجت على ذلك حتى نزلنا مرّ الظَّهران ، فنحَرَ ابنُ الحنظليّة جَزُورَها بها حياة ، فما بقى خِباء من أخيه العسكر إلّا أصابه من دمها ، فكان هذا بين^(١) ، ثم همتُ بالرجوع ، ثم أذكر ابن الحنظليّة وشؤمه ، فبرَدني حتى مضيت لوجهي . وكان حكيم يقول : لقد رأينا حين بلغنا الثَّنية البيضاء - وهي الثَّنية التي تهبطك على فتح وأنت مُقْبِل من المدينة - إذا عدّاس^(٢) جالس عليها ، والناس يمرُّون ، إذ مرّ علينا ابنُ ربيعة ، فوثب إليهما ، فأخذ بأرجلهما في غَرَزهما ، وهو يقول : بأبي أنما وأمّي ! والله إنه لرسولُ الله صلى الله عليه ، وما تُساقان إلّا إلى مصارعكما ! وإن عينيه لتسيل دمعاً على خديّه ، فأردت أن أرجع أيضاً ، ثم مضيت . ومرّ به العاص بنُ منبّه بن الحجاج ، فوقف عليه حين ولّى عُتْبَة وشَيْبَة ، فقال : ما يُبْكِيك ؟ قال : يبكي سيدي - أو سيّد أهل الوادي^(٣) - يخرجان إلى مصارعهما ، ويقاتلان رسولَ الله صلى الله عليه وآله ! فقال العاص : وإنّ محمداً لرسول الله ! فانتفض عدّاس انتفاضة واقشعرّ جلده ، ثم بكى ، وقال : إى والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافّة . قال : فأسلم العاص بن منبّه ، ومضى وهو على الشكّ ، حتى قُتِل مع المشركين على شكّ وارتياب . ويقال : رجع عدّاس ولم يشهد بدرا ، ويقال : شهد بدرا وقتل .

قال الواقديّ : والقول الأوّل أثبت عندنا .

(١) في الأصول : « بينه » والتصويب من الواقدي . (٢) قال صاحب القاموس : عدّاس ، كشداد .

(٣) الواقدي ٢٨ : « يبكي سيدي وسيّد أهل الوادي » .

قال الواقدي : وخرج سعد بن معاذ معتمرا قبل بدر ، فنزل على أمية بن خلف ، فأتاه أبو جهل ، وقال : أتترك هذا وقد آوى محمدا وآذنا بالحرب ! فقال سعد بن معاذ : قل ماشئت ، أما إن طريق غيركم علينا ، قال أمية بن خلف : مه ! لا تفل هذا لأبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي . قال سعد بن معاذ : وأنت تقول ذلك يا أمية ؟ أما والله لسمعت محمدا يقول : لأقتلن أمية بن خلف ، قال أمية : أنت سمعته ؟ قال سعد بن معاذ : فقلت : نعم ، قال : فوقع في نفسه ، فلما جاء النفير أبي أمية أن يخرج معهم إلى بدر ، فأتاه عقبه ابن أبي معيط وأبو جهل ، ومع عقبه بحجرة فيها بخور ، ومع أبي جهل مكحلة ومِرود ، فأدخاها عقبه تحتة ، فقال : تبخر ، وإنما أنت امرأة ، وقال أبو جهل : اكتحل فإنما أنت امرأة . فقال أمية : ابتاعوا لي أفضل بعير في الوادي ، فابتاعوا له جملا بثلاثمائة دينار من نعم بني قشير ، فغنمه المسلمون يوم بدر ، فصار في سهم خبيب ^(١) بن يساف .

قال الواقدي : وقالوا : ما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث ابن عامر ، وقال : ليت قريشا تعزم على القعود وأن مالي في العير تلف ومال بني عبد مناف أيضا . فيقال له : إنك سيد من ساداتها ، أفلا تردعها عن الخروج ؟ قال : إني أرى قريشا قد أزمعت على الخروج ، ولا أرى أحدا به طريق ^(٢) تخلف إلا من علة ، وأنا أكره خلافيها ، وما أحب أن تعلم قريش ما أقول ، على أن ابن الحنظلية رجل مشثوم على قومه ، ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب ، ولقد قسم الحارث ^(٣) مالا من ماله بين ولده ، ووقع في نفسه أنه لا يرجع إلى مكة ، وجاءه ضمضم بن عمرو ، وكانت للحارث عنده أياذ ، فقال : أبا عامر ، إني رأيت رؤيا كرهتها ، وإني لكاليقظان على راحتي وأراكم أن واديكم يسيل دما من أسفله إلى أعلاه ، فقال الحارث : ما خرج أحد وجهاً من الوجوه أكره له من وجهي هذا ، قال : يقول ضمضم : والله إني لأرى لك أن تجلس ، فقال : لو سمعت

(١) الواقدي ٢٩ ، وفي الأصول « حبيب » ، والتصويب من الواقدي والإصابة .

(٢) طرق ، أي قوة .

(٣) ساقطة من الواقدي .

هذا منك قبل أن أخرج ماسرت خطوة ، فاطو هذا الخبر أن تعلمه قريش ، فإنها تنهم كل من عوقها عن المسير - وكان ضمضم قد ذكر هذا الحديث للحارث ببطن يأجج^(١) - قالوا : وكرهت قريش أهل الرأي منهم المسير ، ومشى بعضهم إلى بعض ، وكان ممن أبطأ بهم عن ذلك الحارث بن عامر ، وأمّية بن خلف ، وعُتْبة وشيبة ابناربيعة ، وحكيم بن حزام وأبو البختري ، وعلى بن أمّية بن خلف ، والعاص بن منبه ، حتى بكتهم أبو جهل بالجبن ، وأعانه عُتْبة بن أبي مُعَيْط والنضر بن الحارث بن كَلْدَة ، وحضوهم على الخروج ، وقالوا : هذا فعل النساء . فأجمعوا المسير ، وقالت قريش : لا تدعوا أحدا من عدوكم خلفكم^(٢) .

قال الواقدي : ومما استدللّ به على كراهة الحارث بن عامر للخروج وعُتْبة وشيبة ، أنه ماعرض رجل منهم مُحَلّانا ، ولا حملوا أحداً من الناس ، وإن كان الرجل ليأتيهم حليفاً أو عديداً ، ولا قوّة له ، فيطلب الحملان منهم ، فيقولون : إن كان لك مال وأحببت أن تخرج فافعل وإلا فاقم ، حتى كانت قريش تعرف ذلك منهم .

قال الواقدي : فمما اجتمعت قريش إلى الخروج والمسير ، ذكروا الذي بينهم وبين بني بكر من العداوة ، وخافوهم على من يخلفونه ، وكان أشدهم خوفاً عُتْبة بن ربيعة ، وكان يقول : يامعشر قريش ، إنكم وإن ظفرتُم بالذي تريدون ، فإنّا لا نأمن على من نخلف ، إنّما نخلف نساء ولا ذريّة ومن لا طعم به فارتثوا آراءكم^(٣) ، فتصوّر لهم إبليس في صورة سُراقَة بن جعشم المدلجيّ فقال : يامعشر قريش ، قد عرفتم شرفي ومكاني في قومي ، أنا لكم جار أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه ، فطابت نفس عُتْبة ، وقال له أبو جهل :

(١) الأصول : « تأجج » وأثبت ما في الواقدي .

(٢) الواقدي : « رأيكم » .

(٣) الواقدي ٣٠

فما تريد؟ هذا سيّد كنانة، هو لنا جارٌّ على^(١) من نخلف، فقال عتبة: لا شيء، أنا خارج^(٢).

قال الواقدي: وكان الذي بين بني كنانة وقريش أن ابناً لحفص بن الأحنف أحد بني مُعيط بن عامر بن لؤي، خرج يبغى ضالّةً، وهو غلام في رأسه ذؤابة، وعليه حلّة، وكان غلاماً وضيئاً، فرّ بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوّح بن يعمر، أحد رؤساء بني كنانة. وكان بضجّنان - فقال: مَنْ أنت يا غلام؟ قال: ابن لحفص بن الأحنف، فقال: يا بني بكر، ألكم في قريش دم؟ قالوا: نعم، قال: ما كان رجل يقتل هذا برجله إلا استوفى، فاتبعه رجلٌ من بني بكر فقتله بدمٍ له في قريش؛ فتكلّمت فيه قريش، فقال عامر ابن يزيد: قد كانت لنا فيكم دماء، فإن شئتم فأدّوا مالنا قبلكم ونودّي إليكم ما كان فينا، وإن شئتم فإنّما هو الدّم؛ رجل برجل؛ وإن شئتم فتجافوا عنّا فيما قبلنا، ونتجافى عنكم فيما قبلكم. فهان ذلك الغلام على قريش، وقالوا: صدق! رجل برجل؛ فلهوا عنه أن يطلبوا بدمه، فبينما أخوه مكرز بن حفص بمرّ الظّهران، إذ نظر عامر بن يزيد وهو سيّد بني بكر على جمل له؛ فلما رآه قال: ما أطلب أثراً بعد عين! وأناخ بعيره، وهو متوشّح سيفه، فعلاه به حتى قتله، ثم أتى مكّة من الليل، فعلق سيف عامر بن يزيد بأستار الكعبة، فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر بن يزيد، فعرفوا أنّ مكرز بن حفص قتله، وقد كانت تسمع من مكرز في ذلك قولاً، وجزعت بنو بكر من قتل سيّدها، فكانت معدّة لقتل رجلين من قريش سيّدين أو ثلاثة من ساداتها، فجاء التّفير وهم على هذا الأمر، فغافوهم على مَنْ تخلف بمكة من ذراريهم، فلما قال سراقة ما قال، وهو ينطق بلسان إبليس شجّع القوم^(٢).

(١) الواقدي: «علام يتخلف!» . (٢) الواقدي ٣١، ٣٢.

قال الواقديّ : وخرجت قريش سراعا ، وخرجوا بالقيان والدّفوف ؛ سارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب وعزّة مولاة أسود بن المطلب ، وفلانة مولاة أميّة بن خلف ، يَفْنين في كلّ منهل ، وينحرون ألّجزر ، وخرجوا بالجيش يتقاذفون بالحراّب ، وخرجوا بتسعمائة وخمسين مقاتلا ، وقادوا مائة فرّس ، بطراً ورثاء الناس ؛ كما ذكر الله تعالى في كتابه^(١) ؛ وأبو جهل يقول: أيظنّ محمد أن يصيب منا ما أصاب بنخلّة وأصحابه؛ سيعلم أئمنع^(٢) غيرنا أم لا !

قلت : سرّية نخلة سرّية قبل بدر ، وكان أميرها عبد الله بن جحش قتل فيها عمرو ابن الحضرميّ ، حليف بني عبّد شمس ، قتله واقد بن عبد الله التيميّ ؛ رماه بسهم فقتله ، وأسر الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، واستاق المسامون العير ؛ وكانت خمسمائة بعير نخمّسها رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وقسم أربعمائة فيمن شهدا من المسلمين ؛ وهم مائتا رجل ، فأصاب كلّ رجل بعيران .

قال الواقديّ : وكانت الخيل لأهل القوّة منهم ، وكان في بني مخزوم منها ثلاثون فرسا ، وكانت الإبل سبعمائة بعير ، وكان أهل الخيل كلّهم دارع ، وكانوا مائة ؛ وكان في الرّجالة دروع سوى ذلك^(٣) .

قال الواقديّ : وأقبل أبو سفيان بالعير ، وخاف هو وأصحابه خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة ، واستبطئوا ضمضاً والتّفير ، فلمّا كانت الليلة التي يُصْبِحون فيها على ماء بدر ، جعلت العير تقبلُ بوجوها إلى ماء بدر ؛ وكانوا باتوا من وراء بدر آخر ليّلتهم ، وهم على

(١) ذكر الواقدي بعدها الآية : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَأٍ وَرِثَاءٍ

النّاس ... ﴾ . إلى آخر الآية .

(٣) الواقدي ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) الواقدي : « أئمنع » .

أن يُصحبوا بدرًا ؛ إن لم يعترض لهم ؛ فما أقرتهم العير حتى ضربوها بالعُقل^(١) على أن بعضها ليُثني بعقلين ، وهي ترجع^(٢) الحنين ، توارداً إلى ماء بدر ؛ «وما إن بها إلى الماء من حاجة ، لقد شربت بالأمس ؛ وجعل أهل العير يقولون : إن هذا شيء ما صنعتَه إلا بل منذ خرجنا ، قالوا : وغشينا تلك الليلة ظلمة شديدة حتى ما نبصر شيئاً»^(٣).

قال الواقدي : وكان بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء ورَدَا على مجدي بدرًا يتجسسان^(٤) الخبر ، فلما نزلا ماء بدر ، أناخا راحتيهما إلى قريب من الماء ، ثم أخذتا أسقيتهما ، يسقيان من الماء ، فسمعا جاريتين من جواري جُهينة ، يقال لإحدهما برزة وهي تلزم صاحبتهما في درهم ، كان لها عليها وصاحبتهما تقول : إنما العير غدًا أو بعد غد قد نزلت ؛ ومجدي بن عمر يسمعها ، فقال : صدقت ، فلما سمع ذلك بسبس وعدي انطلقا راجعين إلى النبي صلى الله عليه وآله حتى أتياه بعرق الظبية ، فأخبراه الخبر^(٥).

قال الواقدي : وحدثني كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني ، عن أبيه ، عن جده - وكان أحد البكّائين - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لقد سلك فجّ الرّوحاء موسى النبي عليه السلام في سبعين ألفًا من بني إسرائيل وصلّوا في المسجد الذي بعرق الظبية .

قال الواقدي : وهي من الرّوحاء على ميلين ممّا يلي المدينة ؛ إذا خرجت على يسارك .

قال الواقدي : وأصبح أبو سفيان ببدر ، قد تقدم العير وهو خائف من الرصد فقال : يا مجدي ، هل أحسست أحداً ! تعلم والله ما بككة قرشي ولا قرشية له نُشّ

(١) العقل : جمع عقال ؛ وهو الرباط الذي تعقل به الدابة . (٢) الواقدي : « ترجع » .

(٣) الواقدي ٣٣ ، ٣٤

(٤) الواقدي : « يتجسسان »

فصاعدا - والنش نصف أوقية وزن عشرين درهما - إلا وقد بعث به معنا ! ولئن كتمتنا شأن عدونا لا يصالحك رجل من قريش مابل بحر صوفة^(١) . فقال مجدي : والله ما رأيت أحدا أنكره ، ولا بينك وبين يثرب من عدو ، ولو كان بينك وبينها عدو لم يخف علينا ، وما كنت لأخفيك عنك ؛ إلا أني قد رأيت راكبين أتيا إلى هذا المكان - وأشار إلى مناخ عدي وبسبس - فأناخا به ، ثم استقيا بأسقيتهما ؛ ثم انصرفا . فجاء أبو سفيان مناخهما ، فأخذ أبعارا من أبعار بعيريهما ففتها ؛ فإذا فيها نووي ، فقال : هذه والله علائف يثرب ! هذه والله عيون محمد وأصحابه ؛ ما أرى القوم إلا قريبا ، فضرب وجه غيره ، فساحل^(٢) بها ، وترك بندرا يسارا وانطلق سريعا ، وأقبلت قريش من مكة ينزلون كل منهل يطعمون الطعام من أتاها ، وينحرون الجزور ، فبيناهم كذلك في مسيرهم إذ تخلف عتبة وشيبة ، وهما يترددان ، قال أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب . لقد خشيت^(٣) منها ؛ قال الآخر : فاذكرها ؛ وذكرها ، فأدركهما أبو جهل ، فقال : ماتت حدوثن به ؟ قالا : نلسكر رؤيا عاتكة . قال ياعجباً من بنى عبد المطلب ! لم يرضوا أن تنبأ علينا رجالهم حتى تنبأت علينا النساء ! أما والله لئن رجعنا إلى مكة لنفعلن بهم ولنفعلن ! قال عتبة : إن لهم أرحاما وقراة قريبة . ثم قال أحدهما لصاحبه : هل لك أن ترجع ؟ قال أبو جهل : أترجعان بعد ما سرنا فتخذلان قومكما ، وتقطعان بهم بعد أن رأيتم تأركم بأعينكم ! أتظنان أن محمد وأصحابه يلاقونكما ! كلا والله ، إن معي من قومي مائة وثمانين كلهم من أهل بيتي يحملون إذا أحلت ، ويرحلون إذا رحلت ، فارجعا إن شئتما . قالا : والله لقد هلكت وأهلكتم قومك .

ثم قال عتبة لأخيه شيبة : إن هذا رجل مشتموم - يعني أبا جهل - وإنه لا يمسه من قراة محمد ما يمسنه ، مع أن محمدًا معه الولد فارجع بنا ودع قوله^(٤) .

(١) في اللسان : « صوف البحر شيء على شكل هذا الصوف الحيواني واحدته صوفة ، ومن الأمثال قولهم : « لا آتيك مابل بحر صوفة » .
(٢) سار بها نحو الساحل .
(٣) ب : « سمعت » وأثبت ما في « والواقدي » .
(٤) الواقدي ٣٣ ، ٣٥ .

قلت : مراده بقوله « مع أن محمداً معه الولد » ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، كان أسلم وشهد بدرًا مع رسول الله صلى عليه وآله .

قال الواقدي : فقال شيبة : والله تكون علينا سبة يا أبا الوليد أن نرجع الآن بعد ما سرنا فضينا . ثم انتهى إلى الجحفة عشاء ، فنام جهم بن الصلت بن مخزومة بن عبدالمطلب ابن عبد مناف ، فقال : إني لأرى بين النائم واليقظان ؛ أنظرُ إلى رجل أقبل على فرسٍ معه بعير له ، حتى وقف علىّ ، فقال : قُتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وزمعة بن الأسود ، وأمّية بن خلف ، وأبو البختريّ ، وأبو الحكم ، ونوفل بن خويلد ، في رجال سَماهم من أشرف قريش ؛ وأسّر سهيل بن عمرو ، وفرّ الحارث بن هشام عن أخيه ، قال : وكانَ قائلاً يقول : والله إني لأظنهم الذين يخرجون إلى مصارعهم . ثم قال : أراه ضرب في لبة بعيره فأرسله في العسكر ، فقال أبو جهل : وهذا نبي آخر من بني عبد مناف ! ستعلم غداً من المقتول ؛ نحن أو محمد وأصحابه ! وقالت قريش لجهم : إنا يلعب بك الشيطان في منامك ، فسترى غداً خلافَ ما رأيت ! يُقتل أشرف محدويّوسرون . قال : فخلا عتبة بأخيه شيبة ، فقال له : هل لك في الرجوع ؟ فهذه الرؤيا مثل رؤيا عاتكة ، ومثل قول عدّاس ، والله ما كذبنا عدّاس ؛ ولعمري لئن كان محمد كاذباً إنّ في العرب ان يكفيناه ، ولئن كان صادقاً إنّنا لأسعد العرب به للحمته . فقال شيبة : هو على ما تقول ؛ أفترجع من بين أهل العسكر ؟ فجاء أبو جهل وهما على ذلك فقال : ماتريدان ؟ قال : الرجوع ؛ ألا ترى إلى رؤيا عاتكة ، وإلى رؤيا جهم بن الصلت مع قول عدّاس لنا ! فقال : لا تتخذُ لان والله قومكما وتقطعان بهم . قال : هلك والله وأهلك قومك ! فضيا على ذلك .

قال الواقدي : فلما أفلت أبو سفيان بالعير ، ورأى أن قد أحرزها وأمن عليها ، أرسل إلى قريش قيس بن امرئ القيس - وكان مع أصحاب العير - خرج معهم من مكة ، فأرسله أبو سفيان يأمرهم بالرجوع ، ويقول : قد نجت عيركم وأموالكم ، فلا تحزوا أنفسكم

أهل يثرب ، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك ، إنما خرجتم لتنعوا غيركم وأموالكم ، وقد نجاها الله . فإن أبوا عليك فلا يَأْبُونَ خَصْلَةَ واحدة ؛ يردّون القيان ^(١) . فعالج قيس بن امرئ القيس قريشاً ، فأبّت الرجوع . قالوا : أمّا القيان فسنردّهن ؛ فردّوهن من الجحفة ^(٢) .

قلت : لأعلم مراد أبي سفيان بردّ القيان ، وهو الذي أخرجهم مع الجيش يوم أحد يحرّضن قريشاً على إدراك الثأر ، ويغنّين ، ويضربن الدفوف ، فكيف نهى عن ذلك في بدر وفعله في أحد ! وأقول : مَنْ تأمل الحال علم أنّ قريشاً لم يمكن أن تنتصر يوم بدر ، لأنّ الذي خالطها من التخاذل والتواكل وكرهية الحرب وحبّ الرجوع وخوف اللقاء وخفوق الهمم وفتور العزائم ، ورجوع بني زهرة وغيرهم من الطريق ، واختلاف آرائهم في القتال ، يكتفي بعضها في هلاكهم وعدم فلاحهم ، لو كانوا قد لقوا قوماً جُبّاء ، فكيف وإنما لقوا الأوس والخزرج ، وهم أشجع العرب ، وفيهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب ، وهما أشجع البشر ، وجماعة من المهاجرين أنجاد أبطال ، ورئيسهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، الداعي إلى الحق والعدل والتوحيد ، المؤيد بالقوّة الإلهية ، دع ما أضيف إلى ذلك من ملائكة السماء ، كما نطق به الكتاب !

قال الواقديّ : ولحق الرسول أبا سفيان بالهدة - والهدة على سبعة أميال من عقبة عسفان ، على تسعة وثلاثين ميلاً من مكة - فأخبره بمضى قريش ، فقال : واقوما ! هذا عمل عمرو بن هشام ، يكره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس وبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، والله لئن أصاب أصحاب محمد التّغير ذلّلنا إلى أن يدخل مكة علينا .

قال الواقديّ : وقال أبو جهل : والله لانرجع حتى نردّ بدرًا - وكانت بدر موسماً

(١) بعدها في الواقديّ : « فإن الحرب إذا أكلت انكلت » .

(٢) الواقديّ ٣٦ .

من مواسم العرب في الجاهلية ، يجتمعون بها وفيها سوق - تسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فنقيم على بذر ثلاثا ، ننحر الجزر ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، فلن تزال العرب تهلبنا أبدا .

قال الواقدي : وكان الفرات بن حيان العجلي أرسلته قريش حين فصلت من مكة إلى أبي سفيان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولها ، وما قد حشدت ، فخالف أبا سفيان في الطريق ، وذلك أن أبا سفيان لصق بالبحر ، ولزم الفرات بن حيان الحجبة ، فوافى المشركين بالبحفة ، فسمع كلام أبي جهل ، وهو يقول : لا ترجع ، فقال : ما بأنفسهم عن نفسك رغبة ! وإن الذي يرجع بعد أن رأى ثأره من كئيب لضعيف ، فمضى مع قريش ، فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بذر جراحات كثيرة ، وهرب على قدميه ، وهو يقول : ما رأيت كالיום أمراً أنكد^(١) ! إن ابن الخنظلية لغير مبارك الأمر .

قال الواقدي : وقال الأخنس بن شريق^(٢) - واسمه أبي ، وكان حليفاً لبني زهرة : يا بني زهرة ، قد نجى الله غيركم ، وخلص أموالكم ، ونجى صاحبكم بخير من نوفل ، وإنما خرجتم لتمنوه وماله ، وإنما محمد رجل منكم ، ابن أختكم ؛ فإن يك نبياً فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذباً بلى قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا واجعلوا خبثها لي ، فلا حاجة لكم أن تخرجوا في غير طائهمكم ، ودعوا ما يقوله هذا الرجل - يعني أبا جهل - فإنه مهلك قومه ، سريع في فسادهم ، فأطاعته بنو زهرة ، وكان فيهم مطاعا ، وكانوا يتيمنون به ، فقالوا : فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع ؟ فقال الأخنس : نسير مع القوم ، فإذا أمسيت سقطت عن بعيري ، فيقولون : تهل^(٣) الأخنس ، فإذا أصبحوا فقالوا : سيروا ، فقولوا : لانفارق صاحبنا ، حتى نعلم أحى هو أم ميت ،

(١) في الأصول آكد ، وأثبت ما في الواقدي ٣٦ .

(٢) الواقدي : « وكان أعرابياً » .. (٣) الواقدي : « نهش » ..

فندفنه ، فإذا مضوا رجعنا إلى مكة ، ففعلت بنو زهرة ذلك ، فلما أصبحوا بالأبواء راجعين تبين للناس أنّ بنى زهرة رجعوا فلم يشهدوا زهرى^(١) البتّة ، وكانوا مائة ، وقيل : أقلّ من مائة وهو أثبت . وقال قوم : كانوا ثلثمائة ولم يثبت ذلك .

قال الواقدي : وقال عدى بن أبي الزغباء منحدّره^(٢) من بدر إلى المدينة : [وانتشرت الركاب عليه ، فجعل عدى يقول]^(٣) :

أَقْمُ لَهَا صَدُورَهَا يَا سَبَسُ إِنَّ مَطَايَا الْقَوْمِ لَا تُحْبَسُ
وَحَمْلُهَا عَلَى الطَّرِيقِ أَكْيَسُ قَدْ نَصَرَ اللَّهُ وَفَرَ الْأَخْسُ^(٤)

قال الواقدي : وذكر أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، إنّ بنى عدى خرجوا من النّفير حتى كانوا بثنية لنت^(٥) ، فلما كان في السّحر عدلوا في الساحل منصرفين إلى مكة ، فصادفهم أبو سفيان ، فقال : كيف رجعتم يا بنى عدى ! ولا في العير ولا في النّفير ! قالوا : أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، فرجع من رجع ومضى من مضى ، فلم يشهدوا أحد من بنى عدى . ويقال : إنه لا قاهم بمصر الظّهران ، فقال تلك المقالة لهم .

قال الواقدي : وأما رسول الله صلى الله عليه وآله^(٥) ، فكان صبيحة أربع عشرة من شهر رمضان بعرق الطّبية ، فجاء أعرابي قد أقبل من تهامة ، فقال له أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله : هل لك علم بأبي سفيان بن حرب ؟ قال : مالى بأبي سفيان عِلم ، قالوا : تعال ، فسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : أوفيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فأيفكم رسول الله ؟ قالوا : هذا ، فقال : أنت رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : فما في

(١) الواقدي : « أحد من بنى زهرة » . (٢) الواقدي : في منحدّره .

(٣) من الواقدي . (٤) الواقدي ٣٨ .

(٥) الواقدي : « ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

بطن ناقتي هذه إن كنت صادقاً؟ فقال سلمة بن سلامة بن وقش : نكحتها وهي حُبلى منك ! فكره رسول الله صلى الله عليه وآله مقاتله ، وأعرض عنه .
قال الواقدي : وسار رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أتى الرّوحاء ليلة الأربعاء ،
للتّصف من شهر رمضان ؛ فقال لأصحابه : هذا سجاسج - يعني وادي الروحاء - هذا
أفضل أودية العرب ^(١) .

قال الواقدي : وصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالرّوحاء ، فلما رفع رأسه من
الركعة الأخيرة من وتره لعن الكفّرة ، ودعا عليهم ، فقال : اللهم لا تفلتنّ أبا جهل
ابن هشام فرعون هذه الأمة ، اللهم لا تفلتنّ زُمعة بن الأسود ، اللهم أسخنّ عين
أبي زُمعة ! اللهم أعم بصر أبي ذبيلة ^(٢) . اللهم لا تفلتنّ سهيل بن عمرو ! ثم دعا
لقوم من قریش ، فقال : اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين
من المؤمنين ؛ ولم يدع للوليد بن المغيرة يومئذ ؛ وأسر بيدر ، ولكنه لما رجع إلى مكّة
بعد بدر أسلم ، وأراد أن يخرج إلى المدينة فحبس ، فدعاه النبي صلى الله عليه وآله
بعد ذلك .

قال الواقدي : وكان خبيب بن يساف ^(٣) رجلاً شجاعاً ، وكان يأبى الإسلام ، فلما خرج
النبي صلى الله عليه وآله إلى بدر خرج هو وقيس بن محرث - ويقال ابن الحارث - وهما
على دين قومهما ؛ فأدركا رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقيق ؛ وخبيب مقنّع في الحديد ،
فعرّفه رسول الله صلى الله عليه وآله من تحت المغفر ، فالتفت إلى سعد بن معاذ وهو
يسير إلى جنبه ، فقال : أليس بخبيب بن يساف ؟ قال : بلى ، فأقبل خبيب حتى أخذ

(١) الواقدي ٣٩ . (٢) الواقدي : « واعم بصر أبي زُمعة » .

(٣) يساف ، بالكسر ، وقد يفتح ، وانظر القاموس .

بِطْطَان^(١) ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال له ولقيس بن محرز : ما أخرجكما ؟ قال : كنت ابن اختنا وجارنا ، وخرجنا مع قومنا للغنيمة ، فقال صلى الله عليه وآله : لا يخرجن معنا رجلٌ ليس على ديننا ، فقال خُبَيْب : لقد علم قومي أنّي عظيم الغناء في الحرب ، شديد النكابة ، فأقاتل معك للغنيمة ولا أسلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا ولكن أسلم ثم قاتل ؛ فلما كان بالروحاء جاء فقال : يا رسول الله ، أسلمت لرب العالمين ، وشهدت أنّك رسول الله ، فسرّ بذلك ، وقال : امضيه ، فكانه عظيم الغناء في بدر وفي غير بدر . وأمّا قيس بن الحارث فأبى أن يُسلم ، فرجع إلى المدينة ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله من بدر أسلم وشهد أحداً فقتل .

قال الواقدي : ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله صام يوماً أو يومين ، ثم نادى مناديه : يا معشر العصاة ، إني مفطر ، فأفطروا ؛ وذلك أنه قد كان قال لهم قبل ذلك : أفطروا فلم يفعلوا^(٢) .

قلت : هذا هو سرّ النبوة وخاصيتها ؛ إذا تأمل المتأملون ذلك ، وهو أن يبلغ بهم حبه وطاعته وقبول قوله على أن يكلفهم ما يشقّ عليهم فيمتثلونه امتثالاً صادراً عن حب شديد وحرص عظيم على الطاعة ، حتى إنه لينسخه عنهم ويسقط وجوبه عليهم ، فيكفرون ذلك ولا يسقطونه عن أنفسهم ، إلّا بعد الإنكار التام ؛ وهذا أحسن من المعجزات الخارقة للعادات ، بل هذا بعينه معجزة خارقة للعادة أقوى وأكدر من شقّ البحر وقلب العصا حية !

قال الواقدي : ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله حتى إذا كان دُوَيْنَ بدر ، أتاه الخبر بمسير قريش ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بمسيرهم ، واستشار الناس

فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قال : يا رسول الله ؛ إنها قریش وعزّها والله ما ذلّت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لا تسلم عزّها أبدا ، ولتقاتلنك ، فاتّهب لذلك أهبتّه ، وأعدّ عدّته ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله لأمر الله ، فنجن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ^(١) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا .

قال الواقدي : برك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر ، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله خيرا ، ودعا له بخير ، ثم قال صلى الله عليه وآله : أشيروا على أيّها الناس - وإنما يريد الأنصار ، وكان يظن أنّ الأنصار لا تنصره إلا في الدار ، وذلك أنهم شرطوا أن يمنعوه ممّا يمنعون منه أنفسهم وأولادهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أشيروا علىّ ، فقام سعد بن معاذ ، فقال : أنا أجيب عن الأنصار ، كأنك يا رسول الله تريدنا ! قال : أجل ، قال : إنك عسى أن تكون خرجت عن أمرٍ قد أوحى إليك ، وإنا قد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حق ، وأعطيناك موثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فامض يا نبيّ الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر نفضتّه لخضناه معك ما بقى منّا رجل ، ووصل من شئت ، وخذ من أموالنا ما أردت ، فما أخذته من أموالنا أحبّ إلينا ممّا تركت ، والذي نفسى بيده ما سلكت هذه الطريق قطّ ، ومالى بها من علم ، وإنا لا نكره أن نلقى عدونا غداً ؛ إنا لصبرٌ عند الحرب ، صدقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا بعض ما تقرّ به عينك ^(٢) .

(١) سورة المائدة ٢٤ .

(٢) الواقدي ٤٤ وفيه : « ما تقرّ به عينك » .

قال الواقديّ: وحدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد قال : قال سعد بن مُعاذ يومئذ : يا رسول الله ، إنا قد خَلَفْنَا من قومنا قوماً مانحُنْ بأشدَّ حُبًّا لك منهم ، ولا أطوعَ لهم رغبةً ونِيَّةً في الجهاد ، ولو ظنُّوا أنَّك يا رسول الله ملاقيَ عدوًّا ماتخلفوا عنك ، ولكن إنا ظننا أنَّها العير . بنى لك عريشا ، فتكونُ فيه و تُعَدُّ عندك رواحلك ، ثم نلقى عدوَّنا ، فإنَّ أعزَّنا الله وأظهرنا على عدوِّنا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن تكن الأخرى ، جلست على رواحلك ، فلحقت مَنْ وراءنا . فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله خيرا ، ثم قال : أو يقضى الله خيرا ياسعد^(١) !

قال الواقديّ : فلما فرغ سعد من المشورة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : سيرُوا على بركةِ الله ، فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم .

قال الواقديّ : وقالوا : لقد أَرانا رسول الله صلى الله عليه وآله مصارعهم يومئذ ، هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، فما عدا كلَّ رجلٍ منهم مصرعه ، قال : فعلم القوم أنَّهم يلاقون القتال ، وأنَّ العير تفلَّتْ ، ورجا القوم النَّصر لقول النبيّ صلى الله عليه وآله^(١) . قال الواقديّ : فمن يومئذ عَقَد رسول الله صلى الله عليه وآله الألوية ، وكانت ثلاثة ، وأظهر السَّلاح ، وكان خرج من المدينة على غيرِ لواء معقودٍ ، وسار فلقى سَفِيان الضَّمَرى ، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله قتادة بن النُّعمان ومعاذ بن جبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من الرَّجل ؟ فقال الضَّمَرى : بل وَمَنْ أَنْتُمْ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : تخبرُنَا وتخبرُكَ ، فقال الضَّمَرى : وذلكَ بذاك ؟ قال : نعم ، قال الضَّمَرى : فاسألوا عما شئتم ، فقال له صلى الله عليه وآله : أخبرْنَا عن قُريش ، قال الضَّمَرى : بلغني أنَّهم خرجوا يوم كذا من مكة ، فإن كان الخبر صادقا ، فإنهم ينجبُ هذا الوادى ، ثم قال

(١) مغازى الواقدي ٤٥ .

الضَّمَرِيُّ : فمن أنتم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله : نحن من ماء ، وأشار بيده نحو العراق ، فجعل الضَّمَرِيُّ يقول : من ماء ! من أى ماء ؟ من العراق أم من غيره ؟ ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أصحابه .

قال الواقدي : فبات الفريقان كلٌّ منهما لا يعلم بمنزل صاحبه ، إنما بينهما قَوْزٌ (١) من رمل (٢) .

قال الواقدي : ومرو رسول الله صلى الله عليه وآله بجبلين ، فسأل عنهما فقالوا : هذا مُسَلِّحٌ (٣) ومُخَرِّىٌّ ، فقال : من ساكنهما ؟ فقيل : بنو النّار وبنو حرّاق ، فانصرف عنهما وجعلهما يساراً (٤) ، واثميه بسبس بن عمرو وعدى بن أبي الزغباء فأخبراه خبر قريش ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وادى بدرّ عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان ، فبعث عليا عليه السلام والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو يتجسّسون (٥) على الماء ، وأشار لهم إلى ظُريب (٦) ، وقال : أرجو أن تجدوا الخير عند القلب الذي (٧) إلى هذا الظُريب (٨) ، فاندفعوا لثقله ، فوجدوا على تلك القلب رَوايا قريش فيها سقّاؤهم ، فأسروهم ، وأفلت بعضهم ، فكان يَمْن عرف أنه أفلت عجير ، فكان أوّل مَنْ جاء قريشاً بخبر النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه ، فنادى : يا آل غالب ! هذا ابنُ أبي كبشة وأصحابه ، وقد أخذوا سقّاكم ، فهاج العسكر وكرِهوا ما جاء به (٩) .

(١) القوز من الرمل : العالى كأنه جبل ، وتشبه به أرداف النساء .

(٢) الواقدي ٤٦ ، وبعدها : « وكان قد صلى بالدية ، ثم صلى بسير ، ثم صلى بذات أجدال ، صلى بخيف عين العلا ، ثم صلى بالجبيرين ، ثم نظر إلى جبليْن . . . » .

(٣) الأصول : « مصلح » ، والتصويب من الواقدي .

(٤) الواقدي : « فانصرف من عند الجبيرين ، فضى حتى قطع الحُبرف ، وجعلهما يساراً حتى سلكه في المعرضة » .

(٥) كذا في الواقدي : وفي الأصول « يتجسسون » بالجيم ، تصحيف .

(٦) كذا في الواقدي .

(٧) الأصول : « التي » ، والتصويب من الواقدي .

(٨) قال الواقدي : « والقلب : بئر بأصل الظُريب ، والظُريب : جبل صغير .

(٩) الواقدي ٤٦ ، ٤٧ .

قال الواقدي : فكان حكيم بن حزام يحدث ، قال : كنّا يومئذ في خِباء لنا على جَزُورِ نَشْوَى من لحمها ، فما هو إلا أن سَمِعْنَا الخُبْرَ ، فامتنع الطعام منا ، ولقى بعضنا بعضاً ، ولقيني عُتْبَةُ بن ربيعة ، فقال : يا أبا خالد ، ما أعلم أحداً يسير أعجب من مسيرنا ، إن غيرنا قد نجت ، وإنما جئنا إلى قومٍ في بلادهم بغياً عليهم ، فقلت : أراه لأمرٍ حُمٍّ ، ولا رأى لمن لا يطاع ! هذا شؤم ابن الحنظليّة ، فقال عتبة : أبا خالد ، أتحاف أن تبيتنا القوم ؟ قلت : لأنت آمن من ذلك ، قال : فما الرأي يا أبا خالد ؟ قلت : نتحارس حتى نصبح وترون رأيكم .

قال عُتْبَةُ : هذا الرأي ، قال : فتحارسنا حتى أصبحنا ، فقال أبو جهل : هذا عن أمرٍ عُتْبَةُ كره قتال محمد وأصحابه ، إن هذا هو العجب ، أتظنون أن محمداً وأصحابه يعترضون لجمعكم ! والله لأنتحيّن ناحية بقومي فلا يحرسنا أحد ، فتدعى ناحية ، وإن السماء لتطرأ عليه ، قال : يقول عتبة : إن هذا هو التّكّد (١) .

قال الواقدي : أَخَذَ من الشّقَاء من على القَلِيبِ يَسَار غلام سعيد بن العاص ، وأسلم غلام منبّه بن الحجاج ، وأبو رافع غلام أميّة بن خلف ، فأتى بهم النبي صلى الله عليه وآله وهو قائم يصلي ، فسألهم المسلمون ، فقالوا : نحن سُقَاء قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهم ، ورجوا أن يكونوا لأبي سفيان وأصحاب العير ، فضربوهم ، فلما أذلّوهم (٢) بالضرب ، قالوا : نحن لأبي سفيان ، ونحن في العير ، وهذا العير بهذا القوز ، فكانوا إذا قالوا ذلك يُمسِكُون عَنْ ضربهم ، فسلم رسولُ الله صلى الله عليه وآله من صلاته ، ثم قال : إن صدقوكم ضربتموهم ، وإن كذبوكم تركتموهم ! فقال أصحابه عليه السلام : إنهم يارسولَ الله يقولون : إن قريشا قد جاءت ، فقال : لقد صدقكم ! خرجت قريش تمنع غيرها وخافوكم عليها ، ثم أقبلَ صلى الله عليه وآله على الشّقَاء ، فقال : أين

(١) الواقدي ٤٧ .

(٢) أذلّوهم : أوجعهم ضرباً .

قريش ؟ فقالوا : خلف هذا الكتيب الذي ترى ، قال : كم هم ؟ قالوا : كثير ، قال : كم عددهم ؟ قالوا : لا ندري ، قال : كم ينحرون ؟ قالوا : يوما عشرة ويوما تسعة ، فقال : القوم ما بين الألف والتسعمائة ، ثم قال للسُّقاء : كم خرج من أهل مكة ؟ قالوا : لم يبق أحدٌ به طعم إلا خرج ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاكها ، ثم سألهم رسول الله صلى الله عليه وآله : هل رجع منهم أحد ؟ قالوا : نعم رجع ابن أبي شريق بنى زهرة ، فقال صلى الله عليه وآله : راشدكم^(١) ، وما كان برشيد ، وإن كان ما علمت لعاديا لله ولكتابه . ثم قال : فأحد غيرهم ؟ قالوا : نعم بنو عدي بن كعب ، فتركهم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال لأصحابه : أشيروا عليّ في المنزل ، فقال الحُباب بن المنذر : يا رسول الله ، أرايت منزلك هذا ، أهو منزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخّر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، قال : فإنّ هذا ليس بمنزل ! انطلق بنا إلى أدنى مياه القوم ، فإنّي عالم بها وبقلبها ، فإن بها قليباً قد عرفت عذوبة ماءها ، وماؤها كثير لا ينزح ؛ نبى عليها حوضاً ، ونقذف فيها بالآنية فنشرب ، ونقتاتل ، ونعوّر^(٢) ماسواها من القلب .

قال الواقديّ : فكان ابن عباس يقول : نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وآله فقال : الرأى ما أشار به الحُباب فقال : يا حباب ، أشرت بالرأى ، ونهض ، وفعل كل ذلك^(٣) . قال الواقديّ : وبعث الله السماء ، وكان الوادى دهساً - أى كثير الرمل - فأصاب المسلمين ما لبّد الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشاً ما لم يقدروامعه أن يرتحلوا منه ، وإنما بين الطائفتين قَوْز من رمل .

قال الواقديّ : وأصاب المسلمين تلك الليلة الثعاس ألقي عليهم ، فناموا ولم يصبهم من المطر ما يؤذيهم .

(٢) يقال : عوّر البئر ؛ إذا كبسها بالتراب .

(١) الواقديّ : « أرشدكم » .

(٣) الواقديّ ٤٨ .

قال الزبير بن العوام : لقد سَلَّطَ اللهُ عليهم النعاس تلك الليلة ، حتى إني كنت لأتشدّد ، والنعاس يجلبني الأرض فما أطيع إلا ذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه على مثل ذلك الحال . وقال سعد بن أبي وقاص : لقد رأيتني ، وإن ذقني بين يدي ، فما أشعر حتى أقع على جنبي ..

وقال رفاعه بن رافع بن مالك : لقد غلبني النوم ، فاحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل (١) . قال الواقدي : فلما تحول رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المنزل بعد أن أخذ السقاء ، أرسل عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود ، فأطافا بالقوم ، ثم رجعا إليه فقالا له : يا رسول الله ، القوم مذعورون فزعون ، إن الفرس يريد أن يسهل فيضرب وجهه ، مع أن السماء تسح عليهم (٢) ..

قال الواقدي : فلما أصبحوا قال منبه بن الحجاج - وكان رجلاً يبصر الأثر : هذا والله أثر ابن سمية ، وابن أم عبد ، أعرفهما ، لقد جاءنا محمد بسفهاءنا وسفهاء أهل يثرب ، ثم قال ::

لم يترك الجوع لنا مبيتاً لا بد أن نموت أو نميتاً (٣)
يامعشر قريش ، انظروا غداً إن لقينا محمد وأصحابه ، فاتقوا على شيتانكم وفتيانكم ،

(٢) الواقدي ٥٠ .

(١) الواقدي ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) بعدها في الواقدي : قال أبو عبد الله : قد ذكرت قول منبه بن الحجاج :

* لَمْ يَتْرِكِ الْجُوعُ لَنَا مَبِيتاً *
* لَمْ يَتْرِكِ الْجُوعُ لَنَا مَبِيتاً *

محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حثمة ، فقال : لعمرى لقد كانوا شباعاً ؛ لقد أخبرني أبي أنه سمع نوفل ابن معاوية يقول : نحرنا تلك الليلة عشر جزائر ؛ فنحن في خباء من أخبيتهم نشوي السنام والكبد وطيبة اللحم ونحن نخاف من البيات فنحن نتحارس إلى أن أضاء الفجر ، فأسمع منهم يقول بعد ألف أسفر : هذا ابن سمية وابن مسعود ، هو أسمع يقول :

لم يترك الخوف لنا مبيتاً لا بد أن نموت أو نميتاً

بأهل يثرب ، فإننا إن نرجع بهم إلى مكة يبصروا من ضالتهم مافارقوا من دين آبائهم^(١) .

قال الواقدي : ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله على القليب بُني له عريش من جريد ، فقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشحاً سيفه ، فدخل النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله وأبو بكر^(١) .

قلت : لأعجب من أمر العريش ، من أين كان لهم ، أو معهم من سَعَفِ النَّخْلِ ما يبنون به عريشا ، وليس تلك الأرض - أعني أرض بدر - أرض نخل ؛ والذي كان معهم من سَعَفِ النَّخْلِ يجرى مجرى السلاح كان يسيرا جدا ! قيل إنه كان بأيدي سبعة منهم سَعَفَ عَوْضِ السِّيفِ ، والباقيون كانوا بالسِّيفِ والسَّهَامِ والقِصِيِّ ، وهذا قول شاذ ، والصحيح أنه ما خلا أحد منهم عن سلاح ، اللهم إلا أن يكون معهم سعافات يسيرة ، وظلل عليها بثوب أو سِتْرٍ ، وإلا فلا أرى لبناء عريش من جريد النخل هناك وجها !

قال الواقدي : وصف رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه قبل أن تنزل قريش ، فطلعت قريش ورسول الله صلى الله عليه وآله يصف أصحابه ، وقد أترعوا حوضاً يفرطون فيه من السحر ، وقذفت فيه الآنية ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وآله رايته إلى مصعب بن عمير ، فتقدم بها إلى الموضع الذي أمره أن يضعها ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى الصفوف ، فاستقبل المغارب ، وجعل الشمس خلفه ، وأقبل المشركون ، فاستقبلوا الشمس ، ونزل بالعدوة الدنيا من الوادي ، ونزلوا بالعدوة^(٢) الثانية ، وهي القصوى ، وجاءه رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله ، إن كان هذا عن وحي فامض له ، وإلا فإني

(١) الواقدي . . .

(٢) في الواقدي : « عدونا النهر والوادي : جنبناه » .

أرى أن تعلوا الوادى؛ فإني أرى ريحاً قد هاجت من أعلاها، وأراها بعثت بنصرى. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « قد صفقت صفوفى ووضعت رايتى ، فلا أغير ذلك ». ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأمدّه الله بالملائكة^(١).

قال الواقدي : وروى عروة بن الزبير ، قال : عدّل رسول الله صلى الله عليه وآله الصفوف يومئذ ، فتقدم سواد بن غزيرة أمام الصف ، فدفع النبي صلى الله عليه وآله يده في بطنه ، وقال : استوي ياسواد ، فقال : أوجعتني والذي بعثك بالحق ، أؤدني ، فيكشف صلى الله عليه وآله عن بطنه ، وقال : استقيّد ، فاعتنقه وقبله ، فقال : ماحلك على ما صنعت ؟ قال : حضّر يا رسول الله من أمر الله ما قد ترى ، وخشيت القتل ، فأردت أن يكون آخر عهدى بك ، وأن أعتنقك^(٢).

قال الواقدي : فحدثني موسى بن يعقوب ، عن أبي الحويرث ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن رجل من بني أؤد قال : سمعت عليّاً عليه السلام يخطب على منبر الكوفة ، ويقول : بينا أنا أُميح^(٣) في قلب بدر جاءت ريح لم أر مثلاً قطّ شدة ، ثم ذهبت فجاءت أخرى لم أر مثلاً إلا التي كانت قبلها ، ثم جاءت ريح أخرى لم أر مثلاً إلا الأوكيين ، فكانت الأولى جبريل في ألف مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، والثانية ميكائيل في ألف عن يمينه ، والثالثة إسرافيل في ألف عن يساره ، فلما هزم الله أعداءه ، حملني رسول الله صلى الله عليه وآله على فرس ، فجرت بي ، فلما جرت بي خررت على عنقها ، فدعوت ربّي ، فأمسكني حتى استويت ، ومالي وللخيل ، وإنما كنت صاحب الحشم ، فلما استويت طعنت فيهم بيدي هذه حتى اختضبت مني^(٤) ذى - يعني إبطه^(٥) -

(١) في الواقدي ٥١ : « فنزل عليه جبريل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أُنًى

ثُمَّ دُخِّلَ بِكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِينَ ﴾ ، بعضهم على إثر بعض . (٢) الواقدي ٥٢ .

(٣) في الأصول : « أمتح » . وفي الواقدي : « أمتح يعني أستقي ، وهو من ينزع الدلاء ، وهو المتح أيضاً » . (٤) الواقدي : « ذه » . (٥) الواقدي ٥٢ ، ٥٣ .

قلت : أكثر الرواة يروونه : « فحملني رسول الله على فرسه » ، والصحيح ما ذكرناه ، لأنه لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله فرس يوم بدر ، وإنما حضرها راكب بعير ، ولكنه لما اصطدم الصفان ، وقتل قوم من فرسان المشركين ، حمل رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام على بعض الخيل المأخوذة منهم .

قال الواقدي : قالوا : كان على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، وكان على ميسرة علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكان على ميمنة قريش هبيرة بن أبي وهب الخزومي ، وعلى ميسرتهم عمرو بن عبد ود . قيل : كان زمعة بن الأسود على ميسرتهم ، وقيل : بل كان على خيل المشركين ، وقيل : الذي كان على الخيل الحارث بن هشام ، وقال قوم : لم يكن هبيرة على الميمنة ، بل كان عليها الحارث بن عامر بن نوفل (١) .

قال الواقدي : وحدثنني محمد بن صالح عن يزيد بن رومان وابن أبي حبيبة ، قالوا : ما كان على ميمنة النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر ولا على ميسرته أحد يسمى ، وكذلك ميمنة المشركين وميسرتهم ما سمعنا فيها بأحد (١) .

قال الواقدي : وهذا هو الثابت عندنا قال : وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ الأعظم لواء المهاجرين مع مضعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ ، وكان مع قريش ثلاثة ألوية ، لواء مع أبي عزي (٢) ، ولواء مع المنذر بن الحارث ، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة (٢) .

قال الواقدي : وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله المساكين يومئذ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما تنهاكم الله عنه ، فإن الله عظيم شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده

(١) في الأصول : « عزيزة » ، وهو خطأ ، وهو أبو عزيز بن عمر بن هاشم ، وانظر الإصابة ٤ : ١٣٣ ، والاستيعاب ٤ : ١٧١٤ .

(٢) الواقدي ٥٣ ، ٥٤ .

به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحق ؛ لا يقبل الله فيه من أحدٍ إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر في البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من النعم ، تدركون به النجاة في الآخرة ، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمتكم عليه ، فإنه تعالى يقول : ﴿ لَقَدْ لَقِيَ اللَّهُ أَحْكَامًا مِنْكُمْ ﴾ (١) ؛ انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وما أعزكم به بعد الذلة ، فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم ، وأبوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبون به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ؛ وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحق القيوم ، إليه ألقأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، ويغفر الله لى وللمسلمين (٢) .

قال الواقدي : ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً تصوب من الوادى ، وكان أول من طاع زُمعة بن الأسود على فرس له يتبعه ابنه ، فاستجبال بفرسه ، يريد أن يبنوا للقوم منزلاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني أنزلت على الكتاب ، وأمرتني بالقتال ، ووعدتني إحدى الطائفتين ، وأنت لا تخلف الميعاد . اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها ونفورها ، تحاذل وتكذب رسولك . اللهم نصرك الذى وعدتني . اللهم أحنيهم الغداة ! وطلع عتبة بن ربيعة على جملٍ أحمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن يك فى أحدٍ من القوم خيرٌ فنى صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا .

قال الواقدي : وكان إيماء بن رَحْضَة قد بعث إلى قريش ابناً له بعشر جزائر حين مرثوا به أهداها لهم ، وقال : إن أحببتم أن يمدكم بسلاح ورجال فإننا معدون لذلك ، مؤدون فعلنا ، فأرسلوا : أن وصلتكم رحم ، قد قضيت الذى عليكم ، ولعمري لئن

(٢) مغازى الواقدي ٥٣ .

(١) سورة غافر ١٠ .

كُنَّا إِنَّمَا نَقَاتِلُ النَّاسَ مَا بَنَّا ضَعْفَ عَنْهُمْ ؛ وَلَئِنْ كُنَّا نَقَاتِلُ اللَّهَ - بِزَعْمِ مُحَمَّدٍ - فَمَا لِأَحَدٍ بِاللَّهِ طَاقَةٌ (١) .

قال الواقديّ : فروى خفاف بن إيماء بن رخصة ، قال : كان أبي ليس شيء أحبّ إليّ من إصلاح بين الناس ، موكّلاً بذلك ؛ فلمّا مرّت به قريش أرسلني بمجزأ من عشر هدية لها ، فأقبلت أسوقها ، وتبعني أبي ، فدفعها إلى قريش فقبلوها ووزّعوها في القبائل ، فمرّ أبي على عتبة بن ربيعة ، وهو سيّد الناس يومئذ ، فقال : يا أبا الوليد ، ما هذا المسير ؟ قال : لا أدري والله غلبت ، قال : فأنت سيّد العشيرة ، فما يمنعك أن ترجع بالناس ، وتحمل دم حليفك ، وتحمل العير التي أصابوا ينخله ، فتوزّعها على قومك ! فوالله ما يطلبون قبل محمد إلّا هذا ؛ والله يا أبا الوليد ما تقتلون بمحمد وأصحابه إلّا أنفسكم (٢) !

قال الواقديّ : وحدثني ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال : ما سمعنا بأحدٍ سار بغير مال إلّا عتبة بن ربيعة (٣) .

قال الواقديّ : وروى محمد بن جبير بن مطعم ، قال : لما نزل القومُ أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب إلى قريش ، فقال : ارجعوا ؛ فلأن يلى هذا الأمر منّي غيركم أحبّ إليّ من أن تلوه منّي ؛ وأن أليّه من غيركم أحبّ إليّ من أن أليّه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصفاً ، فلبّوه (٤) ؛ والله لا تنصرون عليه بعد أن عرض عليكم من النصف ما عرض . وقال أبو جهل : لا ترجع بعد أن أمكننا الله منهم ، ولا نطلب أثراً بعد عين ، ولا يعرض (٥) لعيرنا بعد هذا أبداً .

قال الواقديّ : وأقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوض ، منهم حكيم بن حزام ، فأراد المسلمون تنحيّتهم (٥) عنه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : دعوهم ؛ فوردوا الماء ،

(١) مغازي الواقدي ٥٥ . (٢) الواقدي ٥٦ . (٣) الواقدي : « فاقبلوه » .

(٤) الواقدي : « يعترض » . (٥) الواقدي : « تخلّيتهم » ؛ قال : « يعني طردهم » .

فشربوا ، فلم يشرب منهم أحد إلا قتل ؛ إلا ما كان من حكيم بن حزام ^(١) .
قال الواقدي : فكان سعيد بن المسيّب ، يقول : نجا حكيم من الدهر مرتين ،
لما أراد الله تعالى به من الخير ، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على نفر من المشركين
وهم جلوس يريدونه ، فقرأ « يس » ؛ ونثر على رؤوسهم التراب ، فما أفلت منهم أحد
إلا قتل ، ما عدا حكيم بن حزام . وورد الخوض يوم بدر مع مَنْ ورد مع المشركين ،
فما ورد إلا من قتل إلا حكيم بن حزام .

قال الواقدي : فلما اطمأنّ القوم بعثوا عُمر بن وهب الجُمحّي ، كان صاحب
قِداح ، فقالوا : احزُر ^(٢) لنا محمداً وأصحابه ، فاستجال بفرسه حول العسكر ، وصوّب في
الوادى وصعد ، يقول : عسى أن يكون لهم مدد أو كمين ! ثم رجع فقال : لا مدد
ولا كمين ، والقوم ثلثمائة ، إن زادوا قليلاً ، ومعهم سبعون بعيراً ومعهم فرسان ، ثم قال :
يامعشر قريش ، البلى لا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ؛ قوم ليس لهم
منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ؛ ألا ترونهم خُرساً لا يتكلمون ، ينامظون تلمظ الأفاعي !
والله ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل رجلاً ، فإذا أصابوا منكم عددهم ؛ فما خير في
العيش بعد ذلك ! فرؤوا رأيكم ^(٣) .

قال الواقدي : وحدثني يونس بن محمد الظفري ، عن أبيه ، أنه قال : لما قال لهم
عُمر بن وهب هذه المقالة ، أرسلوا أبا أسامة الجشمي ، وكان فارساً ، فأطاف بالنبي صلى
الله عليه وآله وأصحابه ، ثم رجع إليهم ، فقالوا له : ما رأيت ؟ قال : والله ما رأيت جَلداً
ولا عدداً ولا حَلقة ^(٤) ولا كُراعاً ، ولكني والله رأيت قوماً لا يريدون أن يردّوا إلى
أهلهم ! رأيت قوماً مستمتين ، ليست معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، زُرَق العيون ،

(٢) في الأصول : « احزُر » تصحيف .
(٤) الحلقة هنا : السلاح .

(١) الواقدي ٥٦ .
(٣) الواقدي ٥٩ .

كانهم الحَصاة تحت الحَجَف^(١)، ثم قال: أخشى أن يكون لهم كمين أو مدد، فصوّب في الوادي ثم صعد، ثم رجع إليهم، فقال: لا كمين ولا مدد! فرؤوا رأيكم^(٢).

قال الواقدي: ولما سمع حكيم بن حزام ما قال عُمر بن وهب، مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، أنت كبير قریش وسيلاها والمطاع فيها، فمَن لك ألا تزال تُذكر فيها بخير آخر الدهر، مع ما فعلت يوم عكاظ! وعتبة يومئذ رئيس الناس، فقال: وما ذاك يا أبا خالد؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك، وما أصابه محمد من تلك العير يبطن نخلة، إنكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هذا الدم والعير، فقال عتبة: قد فعلت، وأنت علىّ بذلك. ثم جلس عتبة علىّ جماله، فسار في المشركين من قریش يقول: يا قوم أطيعوني، ولا تقتلوا هذا الرجل وأصحابه، واغضبوا هذا الأمر برأسي، واجعلوا جنبها^(٣) فيّ، فإنّ منهم رجالاً قرابتهم قرية؛ ولا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه فيورث ذلك بيفسك شحنا وأضغاناً، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منكم عددهم، مع أنّه لا آمن أن تكون الدائرة عليكم، وأنتم لا تطلبون إلا دم القتل منكم، والعير التي أصيبت، وأنا أحتمل ذلك، وهو علىّ؛ يا قوم إن يك محمد كاذباً يكفيكموه ذؤبان العرب، وإن يك مَلِكاً كنتم في ملك ابن أخيك، وإن يك نبياً كنتم أسعد الناس به! يا قوم لا تردّوا نصيحتي، ولا تسفّوها رأيي. فحسده أبو جهل حين سمع خطبته، وقال: إن يرجع الناس عن خطبة عتبة يكن سيّد الجماعة، وكان عتبة أنطق الناس، وأطولهم لساناً، وأجلهم جلالاً، ثم قال عتبة لهم: أنشدكم الله في هذه الوجوه التي كأنها المصابيح، أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التي كأنها وجوه الحيات! فلما فرغ عتبة من كلامه قال أبو جهل: إن عتبة يشير عليكم بهذا

(١) الحَجَف: الزوس.

(٢) مغازي بالولاء ٥٧، ٥٨، ٥٩.

(٣) في الأصول: «جنبها»، مؤنثت ما في الواقدي.

لأنَّ محمدًا ابن عمه ، وهو يكره أن يقتل ابنه وابن عمه ، امتلأَ والله سحرُك يا عتبة وجبنت حين التقت حلفتا البطان ^(١) . الآن تحذِل بيننا وتأمرنا بالرجوع ! لا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد . فغضب عتبة ، فقال : يا مصفرا أسيتِه ، ستعلم أينما أجبن وألأم ! وستعلم قريش من الجبان المفسد لقومه ! وأنشد :

هَذَايَ وَأَمَرْتُ أَمْرِي فَبَشَّرِي بِالشَّكْلِ أُمَ عَمْرٍو ^(٢) .

قال الواقدي : وذهب أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي ، أخى عمرو بن الحضرمي المقتول بنخلة ، فقال له : هذا حليفك - يعني عتبة - يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، وتحذل بين الناس ! أقد تحمل دم أخيك ، وزعم أنك قابل الدية ، ألا تستحي ؟ تقبل الدية وقد قدرت على قاتل أخيك ! قم فانشد حُفرتك ؛ فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ^(٣) ، ثم حثا على استه التراب ، وصرخ : واعمرأه ! يخزي بذلك عتبة ؛ لأنه حليفة من بين قريش ، فأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة ، وحلف عامر لا يرجع حتى يقتل من أصحاب محمد . وقال أبو جهل لعُمير بن وهب : حرش بين الناس ، فحمل عمير فناوش المسلمين ، لأن ينفض الصف ، فثبت المسلمون على صفهم ؛ ولم يزولوا ، وتقدم ابن الحضرمي فشد على القوم ، فنشبت الحرب ^(٤) .

قال الواقدي : فروى نافع بن جبير عن حكيم بن حزام ، قال : لما أفسد الرأي أبو جهل على الناس ، وحرش بينهم عامر بن الحضرمي فأقحم فرسه ، كان أول من خرج إليه من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب ، فقتله عامر ، وكان أول قتيل قتل من الأنصار حارثة ابن سراقه ، قتله حيَّان بن العريكة ^(٥) .

قال الواقدي : وقال عمر بن الخطاب في مجاس ولايته : يا عمير بن وهب ، أنت

(٢) منازي الواقدي ٥٨ ، ٥٩ .

(١) حلفتا البطان ، كناية عن اشتداد الأمر .

(٤) الواقدي ٥٩

(٣) اكتشف : تهرى

(٥) الواقدي ٦٠ : « ويقال : عمير بن الحمام ، قتله خالد بن الأعلم العقيلي » .

حاذِرُنَا للمشركين يوم بدر ، تصعد في الوادي وتصوب ، كأتى أنظر إلى فرسك تحتك
تخبر المشركين أنه لا كمين لنا ولا مدد ! قال : إى والله يأمر المؤمنين ، وأخرى ، أنا والله
الذى حرّشت بين الناس يومئذ ، ولكن الله جاءنا بالإسلام ، وهذا ناله ؛ وما كان فينا من
الشرك أعظم من ذلك ، قال عمر : صدقت ^(١) .

قال الواقدي : وكان عتبة بن ربيعة كلمّ حكيم بن حزام ، وقال : ليس عند أحد
خلاف إلا عند ابن الحنظليّة ، فاذهب إليه ، فقل له : إنّ عتبة يحمل دم حليفه ، ويضمن
العير . قال حكيم : فدخلت على أبي جهل ، وهو يتخلّق بخُلُق طيب ، ودرعه موضوعة
بين يديه ، فقلت : إنّ عتبة بن ربيعة بعثني إليك ، فأقبل علىّ مغضبا ؛ فقال : ما وجد عتبة
أحدًا يرسله غيرك ؛ فقلت : والله لو كان غيره أرسلني مامشيت في ذلك ، ولكني مشيتُ
في إصلاح بين الناس - وكان أبو الوليد سيّد العشيرة - فغضب غضبة أخرى . قال : وتقول
أيضا سيّد العشيرة ، فقلت : أنا أقوله ، وقريش كلها تقوله ، فأمر عامرا أن يصبح بخفرتة ،
واكتشف ، وقال : إنّ عتبة جاع ، فاسقوه سويقا ، وجعل المشركين يقولون : عتبة
جاع ، فاسقوه سويقا ، وجعل أبو جهل يسرّ بما صنع المشركون بعتبة . قال حكيم :
فجئت إلى منبّه بن الحجاج فقلت له مثل ما قلت لأبي جهل ، فوجدته خيرا من أبي جهل ،
قال : نعمّا مشيت فيه ، وما دعا إليه عتبة ! فرجعت إلى عتبة فوجدته قد غضب من كلام
قريش ، فنزل عن جمه ، وقد كان طاف عليهم في عسكرهم يأمرهم بالكفّ عن القتال ،
فيأبؤون ، فحبي ، فنزل فلبس درّعه ، وطالبوا له بيضة فلم يوجد في الجيش بيضة تسع رأسه
من عظمّ هامته ، فلما رأى ذلك اعتجّر ، ثم برز راجلا بين أخيه شيبة وبين ابنه الوليد
ابن عتبة فبينما أبو جهل في الصف على فرس أنثى ، حاذاه عتبة ، وسلّ سيفه ، فقتل :
هو والله يقتله ، فضرب بالسيف عُرْقوب فرس أبي جهل ، فاكتست ^(٢) الفرس ،

(١) مغازي الواقدي ٦٠ . (٢) اكتست الفرس : سقطت من ناحية مؤخرها ورمت به .

وقال : انزل ، فإنَّ هذا اليوم ليس بيوم ركوب ؛ ليس كلَّ قومك راكبا ، فنزل أبو جهل وعُتْبَةُ يقول : سيعلم أيناشوُّم عشيرته الغداة ! قال حكيم : فقلت : تبالله مارأيتُ كالיום !

قال الواقدي : ثم دعا عُتْبَةُ إلى المبارزة ورسول الله صلى الله عليه وآله في العريش ، وأصحابه على صفوفهم ، فاضطجع ، فغشيته النوم ، وقال : لا تقاتلوا حتى أؤذنكم ، وإن كذبوكم فارموهم ولا تسأوا السيوف حتى يغشوكم . فقال أبو بكر : يا رسول الله قد دنا القوم ، وقد نالوا مِنَّا ، فاستيقظ ، وقد أراه الله إيتاهم في منامه قليلا ، وقلَّ بعضهم في أعين بعض ، ففرَّع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو راقد يديه يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول : «اللهم إن تظهر على هذه العصاة يظفر الشَّرك ، ولا يقيم لك دين» ، وأبو بكر يقول : والله لينصرنَّك الله وليبيضنَّ وجهك . قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، إني أشيرُ عليك ، وأنت أعظم وأعلم بالله من أن يشارَ عليك ، إنَّ الله أجلُّ وأعظم من أن ينشد وعده ! فقال عليه السلام : يا بن رواحة ، ألا أنشدُ الله وعده ، إن الله لا يخلف الميعاد ! وأقبل عُتْبَةُ يعمد إلى القتال ، فقال له حكيم بن حزام : مهلاً مهلاً يا أبا الوليد ! لا تنه عن شيء وتكون أوله ^(١) .

قال الواقدي : قال خُفاف بن إيماء : فرأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وقد تصافَّ النَّاس وتزاحفوا ، وهم لا يسلُّون السيوف ، ولكنهم قد انتضوا القسي ، وقد تترس بعضهم عن بعض بصفوفٍ متقاربة ، لا فرج بينها ؛ والآخر ن قد سلَّوا السيوف حين طلَّعوا ، فعجبت من ذلك ، فسألت بعد ذلك رجلا من المهاجرين ، فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله ألا نسلَّ السيوف حتى يغشونا ^(٢) .

قال الواقدي : فلما تزاحف ، الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي حين دنا من

(١) مغازي الواقدي ٦٠ ، ٦١ .

الحوض : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتنّ دونه. فشدد حتى دنا من الحوض ، واستقبله حمزة بن عبد المطلب ، فضربه فأطن^(١) قدمه ، فزحف الأسود ليبرّ قسمه زعم ، حتى وقف في الحوض فهدمه برجله الصحيحة ، وشرب منه ، وأتبعه حمزة ، فضربه في الحوض فقتله ، والمشركون ينظرون ذلك على صفوفهم^(٢) .

قال الواقدي : ودنا الناس بعضهم من بعض ، فخرج عتبة وشيبة والوليد حتى فصلوا من الصف ، ثم دعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم فتیان ثلاثة من الأنصار ، وهم بنو عَفراء : مُعَاذ ومعوذ وعوف ، بنو الحارث - ويقال : إنّ ثالثهم عبد الله بن رواحة ، والثابت عندنا أنّهم بنو عَفراء - فاستحى رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ، وكره أن يكون أوّل قتال لِقَى المساهون فيه المشركين في الأنصار ، وأحبّ أن تكون الشوكة لبني عمه وقومه ، فأمرهم ، فرجعوا إلى مصافهم ، وقال لهم خيرا ، ثم نادى منادى المشركين : يا محمد ، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : يا بني هاشم ، قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليظفثوا نور الله . فقام حمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب وعُبَيْدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، فمشوا إليهم ، فقال عتبة : تسكّموا نعرفكم - وكان عليهم البيض ، فأنكروهم - فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم^(٣) .

وروى محمد بن إسحاق في كتاب " المغازي " ، خلاف هذه الرواية ، قال : إن بني عَفراء وعبد الله بن رواحة برزوا إلى عتبة وشيبة والوليد ، فقالوا لهم : مَنْ أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا : ارجعوا فإنا لنا بكم من حاجة ! ثم نادى مناديههم : يا محمد

(٢) على صفوفهم : أى على حالتهم التي كانوا عليها .

(١) أطن قدمه : قطعها .

(٣) مغازى الواقدي ٦٢ ، ٦٣ .

أُخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنا مِنْ قَوْمِنَا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان^(١) .

قلت : وهذه الرواية أشهر من رواية الواقدي ، وفي رواية الواقدي ما يؤكد صحة رواية محمد بن إسحاق ، وهو قوله : إن منادى المشركين نادى : يا محمد ، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا . فلو لم يكن قد كلمهم بنو عفراء وكلّوهم وردّوهم ، لما نادى مناديتهم بذلك . ويدل على ذلك قول بعض القرشيين لبعض الأنصار في نحرٍ فخر به عليه : أنا من قوم لم يرض مشركوهم أن يقتلوا مؤمنى قومك .

قال الواقدي : فقال حمزة : أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ، فقال عتبة : كف يا كريم ، وأنا أسد الحلفاء ، من هذان معك ؟ قال : علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، فقال : كفان كريمان^(٢) .

قال الواقدي : قال ابن أبي الزناد : حدثني أبي ، قال : لم أسمع لعُتْبَةَ كلمة قطّ أو هَنَ من قوله : « أنا أسد الحلفاء » يعنى بالحلفاء الأئمة .

قلت : قد روى هذه الكلمة على صيغة أخرى : « وأنا أسد الحلفاء » ، وروى : « أنا أسد الأحلاف » .

قالوا في تفسيرها : أراد أنا سيد أهل الحلف المطيبين ، وكان الذين حضروه بنى عبد مناف وبنى أسد بن عبد العزى وبنى تميم وبنى زُهْرَةَ وبنى الحارث بن فهر ؛ خمس قبائل . وردّ قوم هذا التأويل ، فقالوا : إن المطيبين لم يكن يقال لهم : الحلفاء ولا الأحلاف ، وإنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الذين وقع التحالف لأجلهم ، وهم بنو عبد الدار ، وبنو مخزوم ، وبنو سَهْم ، وبنو بُجَاح ، وبنو عدى بن كعب ؛ خمس

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٥ ، وفيها : « قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علي » .

(٢) مغازى الواقدي ٦٣ .

قبائل . وقال قوم في تفسيرها : إنما عني حلف الفضول ، وكان بعد حلف المطيبين بزمان ، وشهد حلف الفضول رسول الله صلى الله عليه وآله وهو صغير في دار ابن جُدعان ، وكان سببه أن رجلاً من اليمن قدم مكة بمتاع ، فاشتراه العاص بن وائل السهمي ومطله بالثمن حتى أتعبه ، فقام بالحجر وناشد قريشا ظلامته ، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة ، وبنو تميم ، في دار ابن جُدعان ، فتحالفوا ، وغمسوا أيديهم في ماء زمزم ، بعد أن غسلوا به أركان البيت ؛ أن ينصروا كل مظلوم بمكة ، ويردّوا عليه ظلامته ، ويأخذوا على يد الظالم ، وينهوا عن كل منكر ، ما بلّ بحر صوفة ؛ فسمي حلف الفضول لفضله ، وقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : « شهدته وما أحب أن لي به حمر النعم ، ولا يزيد الإسلام إلا شدة » ، وهذا التفسير أيضاً غير صحيح ، لأن بني عبد الشمس لم يكونوا في حلف الفضول ، فقد بان أن ما ذكره الواقدي أصح وأثبت .

قال الواقدي : ثم قال عتبة لابنه : قم يا وليد ، فقام الوليد وقام إليه عليّ — وكان أصغرَ نفر — فاختلفا ضربتين ، فقتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ثم قام عتبة ، وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين ، فقتله حمزة رضي الله عنه ، ثم قام شيبة ، وقام إليه عبيدة — وهو يومئذ أسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله — ففرض شيبة رجل عبيدة بذياب السيف ، فأصاب عضلة ساقه ، ففقطعها وكرّ حمزة وعليّ على شيبة فقتلاه ، واحتملا عبيدة فحازاه إلى الصف ، ومنح ساقه يسيل ، فقال عبيدة : يا رسول الله ، ألسْتُ شهيداً ؟ قال : بلى ، قال : أما والله لو كان أبو طالب حياً لعلم أنّي أحق بما قال حين يقول :

كذبتم وبيت الله نخلي محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل^(١)

وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ونزلت فيهم هذه الآية : ﴿ هَذَا نَخْصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾^(٢) .

(١) ديوانه ١١٠ ، وفيه : « بنزى محمداً » .

(٢) سورة الحج ١٩ والخبر في الواقدي ٦٣ ، ٦٤ .

وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارزَ عُبَيْدة بن الحارث ، وأن شِيبَةَ بارزَ حمزة بن عبدالمطلب ، فقتل حمزة شِيبَةَ ، لم يمهله أن قتله ؛ ولم يمهله على الوليد أن قتله ، واختلف عُبَيْدة وعتبة بينهما ضربَتين ، كلاهما أثبت^(١) صاحبه ، وكرّر حمزة وعلى عليه السلام على عتبة بأسيا فهما ، حتى وقعا عليه^(٢) ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف^(٣) .

قلت : وهذه الرواية توافق ما يذكره أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه ، إذ يقول لمعاوية : وعندى السيف الذى أعضضتُ به أخاك وخالك وجدك يوم بدر . ويقول في موضع آخر : قد عرفت مواقع نصاليها في أخيك وخالك وجدك ، وماهى من الظالمين ببعيد . واختار البلاذرى رواية الواقدي : وقال : إن حمزة قتل عتبة ، وإن عليا عليه السلام قتل الوليد ، وشرك في قتل شِيبَةَ^(٤) .

وهذا هو المناسب لأحوالهم من طريق السنن ، لأن شِيبَةَ أسنّ الثلاثة ، فجعل بإزاء عُبَيْدة وهو أسنّ الثلاثة ، والوليد أصغر الثلاثة سنّاً ، فجعل بإزاء علي عليه السلام ، وهو أصغر الثلاثة سنّاً ، وعتبة أوسطهم سنّاً ، فجعل بإزاء حمزة وهو أوسطهم سنّاً . وأيضاً فإن عتبة كان أمثلاً الثلاثة ، فقتضى القياس أن يكون قرنه أمثلاً الثلاثة ، وهو حمزة إذ ذاك ، لأن علياً عليه السلام لم يكن قد اشتهر أمره جداً ، وإنما اشتهر الشهرة التامة بعد بدر . ولن روى أن حمزة بارز شِيبَةَ - وهى رواية ابن إسحاق - أن ينتصر بشعر هند بنت عتبة ترى أباه :

أعيتنى جوداً بدمع سرب	على خير خندف لم ينقلب ^(٥)
تداعى له رهطه قصرة	بنو هاشم وبنو المطلب ^(٦)
يذيقونه حرّاً أسيا فهم	يلعونه بمد ماقد عطب ^(٧)

(١) أثبتته : جرحه .
(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٥ .
(٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٥٤١ .
(٤) أنساب الأشراف ١ : ٢٩٧ .
(٥) يقال : هو ابن عمى قصرة ، أى قريب . وفى ١
(٦) : ١ : « شجب » .
(٧) : ١ : « غدوة » .

فاذا كانت قد قالت إن عتبة أباهأ أذاقه بنو هاشم وبنو المطلب حرّاً أسيا فهم ، فقد ثبت أن المبرز لعتبة إنما هو عُبَيْدَة لأنه من بنى المطلب جرح عتبة ، فأثبتته ثم ذُفِّفَ^(١) عليه حمزة وعلى عليه السلام . فأما الشيعة ، فإنها تروى أن حمزة بادر عتبة فقتله ، وأن اشتراك على وحمزة إنما هو في دم شيبة بعد أن جرحه عبيدة بن الحارث ، هكذا ذكر محمد ابن النعمان في كتاب " الإرشاد " ؛ وهو خلاف ما تنطق به كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية ، والأمر عندى مشتبّه في هذا الموضع .

وروى محمد بن النعمان ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنه كان يذكر يوم بدر ويقول : اختلف أنا والوليد بن عتبة ضربتين ، فأخطأتني ضربته ، وأضر به فاتقاني بيده اليسرى ، فأبانها السيف ، فكأنني أنظر إلى وميض خاتم في شماله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته ، فرأيت به الردع^(٢) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .

قال الواقدي : وقد روى أن عتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز ، قام إليه ابنه أبو حذيفة بن عتبة يبارزه ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله : اجلس ، فلما قام إليه النفر أعان أبو حذيفة على أبيه عتبة بضربة^(٣) .

قال الواقدي : وأخبرني ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال : شيبة أكبر من عتبة بثلاث سنين ، وحمزة أسن من النبي صلى الله عليه وآله بأربع سنين ، والعبّاس أسن من النبي صلى الله عليه وآله بثلاث سنين^(٤) .

قال الواقدي : واستفتح أبو جهل يوم بدر ، فقال : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعلم ، فأجبه الغداة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ... ﴾^(٥) الآية .

(١) ذفف عليه : أي أجهز . (٢) الردع : « الزعفران » .
(٣) مغازي الواقدي ٦٤ . (٤) مغازي الواقدي ٦٥ ؛ والخبر هنا أوفى وأشمل .
(٥) سورة الأنفال ١٩ ، والخبر في الواقدي ٦٥ ، وتاريخ الطبري ٢ : ٤٤١ (طبعة المبارف) .

قال الواقديّ : وروى عُرْوَة بن عائشة أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله جعل شعار المهاجرين يوم بدر : يا بني عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يا بني عبد الله ، وشعار الأوس : يا بني عبد الله .

قال : وروى زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام ، أنّ شعار رسول الله صلى الله عليه وآله كان يوم بدر : يا منصور أميت^(١) .

قال الواقديّ : ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن قتل أبي البختريّ ، وكان قد لبس السلاح بمكة يوماً قبل الهجرة في بعض ما كان ينال النبيّ صلى الله عليه وآله من الأذى ، وقال : لا يعرض اليوم أحدٌ لحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح . فشكر ذلك له النبيّ صلى الله عليه وآله . قال أبو داود المازنيّ : فلحقته يوم بدر ، فقلت له : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد نهى عن قتلك إن أعطيت بيدك ، قال : وما تريد إليّ ! إن كان قد نهى عن قتلي ، فقد كنت أبلّيته ذلك ، فأما أن أعطى بيدي ، فواللّات والعزّى لقد علمت نسوة بمكة أنّي لا أعطى بيدي ، وقد عرفت أنك لا تدعني ، فافعل الذي تريد . فرماه أبو داود بسهم ، وقال : اللهم سهمك ؛ وأبو البختريّ عبدك ، فضعه في مقتله : وأبو البختريّ دارع ، ففتق السهم الدرع فقتله .

قال الواقديّ : ويقال إنّ المجذّر بن ذباد قتل أبا البختريّ ولا يعرفه ، وقال المجذّر في ذلك شعراً عُرِف منه أنه قاتله^(٢) .

وفي رواية محمد بن إسحاق ؛ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى يوم بدر عن قتل أبي البختريّ ، واسمه الوليد بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى ، لأنه كان أكفّ

(٢) مغازي الواقدي ٧٥ .

(١) مغازي الواقدي ٦٦ .

الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة ، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بنى هاشم ، فلقبه المجذّر بن زياد البلويّ حليف الأنصار ، فقال له : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهانا عن قتلك ، ومع أبي البخترى زميل له خرج معه من مكة يقال له جُنادة بن مُليحة ، فقال أبو البخترى : وزميلي ! قال المجذّر : والله مانحن بتاركى زميلك ، مانهانا رسول الله صلى الله عليه وآله . إلّا عنك وحيدك^(١) ، قال : إذاً والله لأموتنّ أنا وهو جميعاً ، لا تتحدّث عنى نساء أهل مكة أنى تركت زميلي حرصاً على الحياة ، فنازله المجذّر . وارتجر أبو البخترى^(٢) فقال : لن يُسلم ابن حرّة زميله حتى يموت أو يرى سبيله ثم اقتتلا ، فقتله المجذّر ، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأخبره ، وقال : والذي بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فاتّيك به ، فأبى إلّا القتال فقاتلته^(٣) فقتلته^(٤) .

قال الواقديّ : ونهى النبيّ صلى الله عليه وآله عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل ، وقال : أسروه ولا تقتلوه ، وكان كارها للخروج إلى بدر ، فلقبه خبيب بن يساف فقتله ولا يعرفه ، فبلغ النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك ، فقال : لو وجدته قبل أن يقتل لتركته لنسائه . ونهى عن قتل زمعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذع ، ولا يعرفه .

قال الواقديّ : وارتجز عدىّ بن أبي الزغباء يوم بدر ، فقال :

أنا عدىّ والسّحلُ أمشى بهامشيّ الفحلُ

يعنى درعه . فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : من عدىّ ؟ فقال رجل من القوم : أنا يا رسول الله ، قال : وماذا ؟ [قال : ابن فلان ، قال : لست أنت عدياً ، فقال عدىّ بن أبي

(١) ابن هشام : « ما أمرنا رسول الله إلّا بك وحيدك » .

(٢) ابن هشام : « فقال أبو البخترى حين نازله المجذّر ، وأبى إلّا القتال » .

(٣) ابن هشام : « إلّا أن يقاتلي » . (٤) الخبر في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٠ ، ٢٧١ .

الزغباء : أنا يا رسول الله عدى ، قال : وماذا [^(١)] ؟ قال : « والسَّحَل ، أمشي بها مشي الفَحَل » ، قال النبي صلى الله عليه وآله : وما السَّحَل ، قال : درعى ، فقال صلى الله عليه وآله « نعم العدى ، عدى بن أبى الزغباء » ^(٢) .

قال الواقدي : وكان عقبة بن أبى مُعَيْط قال بمكة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة :

يا راكب الناقة القَصْواءَ هاجِرًا عما قليلٍ ترانى راكبَ الفَرَسِ
أَعِلْ رُحْجِي فَيَكُمُ ثَمَّ أَهْلُهُ والسَّيْفُ يأخذُ منكم كلَّ ملتبسٍ

فبلغ قوله النبي صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم أكبه لمنخره واصرعه » ؛ فجمح به فرسه يوم بدر بعد أن ولّى الناس ، فأخذه عبد الله بن سلمة العَجَلانى أسيراً ، وأمر النبي صلى الله عليه وآله عاصم بن أبى الأَفْلاج ، فضرب عنقه صَبْرًا ^(٣) .

قال الواقدي : وكان عبد الرحمن يحدث يقول : إني لأجمع أذراعاً يوم بدر ، بعد أن ولّى الناس ، فإذا أمية بن خلف - وكان لي صديقاً في الجاهلية ، وكان اسمي عبد عمرو ، فلما جاء الإسلام تسميت عبد الرحمن ، فكان يلقاني بمكة فيقول : يا عبد عمرو ، فلا أجيبه ، فيقول : إني لا أقول لك عبد الرحمن ، إن مسيماً باليامة ^(٤) تسمى بالرحمن ، فأنا لا أدعوك إليه ، فكان يدعوني عبد الإله ، فلما كان يوم بدر رأيته وكأنه جل يساق ، ومعه ابنه على ، فناداني : يا عبد عمرو ، فأبيت أن أجيبه ، فناداني : يا عبد الإله ، فأجيبته ، فقال : أما لكم حاجة في اللّبن ؟ نحن خير لك من أدرعك هذه ، فقلت : امضيا فجعلت أسوقهما أمامي ، وقد رأى أمية أنه قد أمن بعض الأمن ، فقال لي أمية : رأيت رجلاً فيكم اليوم معلماً في صدره بريشة نعام ، من هو ؟ فقلت : حمزة بن عبد المطلب

(٢) مغازى الواقدي ٧٦ .

(٤) الواقدي « يتسمى » .

(١) من مغازى الواقدي .

(٣) مغازى الواقدي ٧٦ ، ٧٧ .

فقال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل ! ثم قال : فمن رَجُلٌ دحداح قصير معلم بعصابة حمراء ؟ قلت : ذاك رجل من الأنصار ، يقال له : سِمَاك بن خَرَشَة ، قال : وبذاك أيضاً يا عبد الإله صرنا اليوم جَزَراً. لَكُمْ ! قال : فبينما هو معى أَزَجِيهِ^(١) أُمَامَى ، ومعه ابنه ، إذ بصر به بلال وهو يعجن عجينا له ، فترك العجين ، وجعل يَفْتِلُ يديه منه فتلاً ذريعاً ، وهو ينادى : يا معشر الأنصار ، أُمَيَّة بن خَلَف رأس الكفر ! لا نجوتُ إن نجوتَ - قال : لأنه كان يعذبه بمكة ، فأقبلت الأنصار كأنهم عُوذُ حَمَّتْ إلى أولادها ، حتى طرخوا أُمَيَّة على ظهره ، واضطجعت عليه أُمَيَّة منهم ، فأقبل الخُبَّاب بن المنذر ، فأدخل سيفه ، فأقتطع أُرْبَةَ أنفه ، فلما فقد أُمَيَّة أنفه ، قال لى : إيهيّا عنك ! أى خلّ بينى وبينهم ، قال عبد الرحمن فذكرت قول حسان :

* أو عَنْ ذَلِكَ الْأَنْفِ جَادِعُ *

قال : ويقبل إليه خُبَيْب بن يَسَاف ، فضربه حتى قتله ، وقد كان أُمَيَّة ضرب خُبَيْب ابن يساف حتى قطع يده من المنكب ، فأعادها النبي صلى الله عليه وآله فالتحمت واستوت ، فتزوج خُبَيْب بن يساف بعد ذلك ابنة أُمَيَّة بن خلف ، فرأت تلك الضربة ، فقالت : لا يسلّ الله يدَ رجلٍ فعل هذا ! فقال خُبَيْب : وأنا والله قد أوردته شُوب ، فكان خُبَيْب يحدث يقول : فأضربه فوق العاتق ، فأقطع عاتقه حتى بلغت مؤتره ، وعليه الدرع ، وأنا أقول : خذها وأنا ابن يساف ! وأخذت سلاحه ودرعه ، وأقبل على ابن أُمَيَّة فتعرض له الخُبَّاب ، فقطع رجله ، فصاح صيحة ما سمع مثلها قطّ ، ولقيه عمار فضربه ضربة فقتله . ويقال : إن عماراً لاقاه قبل ضربة الخُبَّاب ، فاختلفا ضربات ، فقتله عمار . والأولى أثبت ، أنه ضربه بعد أن قطعت رجله^(٢) .

قال الواقدي : وقد سمعنا فى قتل أُمَيَّة غير ذلك ، حدثني عبيد بن يحيى ، عن معاذ بن

(١) أزجيه : أسوقه .

(٢) مغازى الودى ٧٧ ، ٧٨ .

رفاعة ، عن أبيه ، قال : لما كان يوم بدر وأخذقنا بأمية بن خلف ، وكان له فيهم شأن ، ومعى رمحي ، ومعهم رمحه ، فتطاعنا حتى ستطت أزجها ، ثم صرنا إلى السيفين فتضاربنا بهما حتى انزلنا ، ثم بصرت بقتق في درعه تحت إبطه ، فحششت السيف فيه حتى قتلته ، وخرج السيف عليه الودك ^(١) .

قال الواقدي : وقد سمعنا وجها آخر : حدثني محمد بن قدامة بن موسى ، عن أبيه ، عن عائشة بنت قدامة ، قالت : قال صفوان بن أمية بن خلف يوما : يا قدام - لقدامة بن مظعون - أنت المشلي ^(٢) بأبي يوم بدر الناس ! فقال قدامة : لا والله ما فعلت ، ولو فعلت ما اعتذرت من قتل مشرك . قال صفوان : فمن ياقدام المشلي به يوم بدر ؟ قال : رأيت فتية من الأنصار أقبلوا إليه ، فيهم معمر بن خبيب بن عبيد الحارث ، يرفع سيفه ويضعه فيه ، فقال صفوان : أبو قرد ! وكان معمر رجلا دميما ، فسمع بذلك الحارث بن حاطب ، فعضب له ، فدخل على أم صفوان ، فقال : ما يدعنا صفوان من الأذى في الجاهلية والإسلام ! قالت : وما ذاك ؟ فأخبرها بمقالة صفوان لمعمر حين قال : أبو قرد ! فقالت أم صفوان : يا صفوان ، أنت تنقص معمر بن خبيب من أهل بدر ! والله لا أقبل لك كرامة سنة . قال صفوان : يا أمه ، لا أعود والله أبدا ، تكلمت بكلمة لم ألق لها بالا ^(٣) .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن قدامة ، عن أبيه ، عن عائشة بنت قدامة ، قالت : قيل لأم صفوان بن أمية - ونظرت إلى الحباب بن المنذر بمكة : هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر ، قالت : دعونا عن ذكر من قتل على الشرك ، قد أهان الله عليا بضربة الحباب بن المنذر ، وأكرم الله الحباب بضربه عليا ، ولقد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقتل على غير ذلك ^(٤) .

(١) مغازي الواقدي ٧٨ ، ٧٩ . (٢) المشلي : المحرض .

(٣) مغازي الواقدي ٧٩ .

(٤) مغازي الواقدي ٧٩ ، ٨٠ ، وانظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٢ ، ٣٧٣ .

فأمّا محمد بن إسحاق ، فإنه قال : قال عبد الرحمن بن عوف : أخذت بيد أمية بن خلف ويد ابنه علي بن أمية أسيرين يوم بدر ، فبينما أنا أمشي بينهما ، رأنا بلال - وكان أمية هو الذي يعذب بلالا بمكة ، يخرج به إلى رمضاء ^(١) مكة إذا حميت ، فيضججه على ظهره ، ثم يأمره بالصخرة العظيمة فتوضع بجرارتها على صدره ، ويقول له : لاتزل هكذا أو تفارق دين محمد ! فيقول بلال : أحدٌ أحدٌ ! لا يزيد على ذلك - فلما رآه صاح : رأس الكفر أمية بن خلف ، لانبجوت ! إن نبجوت ! قال عبد الرحمن : فقلت أي بلال ، أسيرى ! فقال : لانبجوت ! إن نبجاً ، فقلت : استمع يا بن السوداء ، قال : لانبجوت ! إن نبجاً ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، أمية بن خلف رأس الكفر ، لانبجوت ! إن نبجاً ، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة ^(٢) ، وأنا أذب عنه ، ^(٣) ويحذف سمار بن ياسر عليا ابنه بالسيف ، فأصاب رجله ، فوقع وصاح أمية صيحة مسمعت مثلها قط ^(٤) ، فخلّيت عنه ، وقلت : انج بنفسك ولا نجاء به ! فوالله ما أغني عنك شيئا ، قال : فهبروها ^(٥) بأسيا فهم حتى فرغوا منها . قال : فكان عبد الرحمن بن عوف ، يقول : رحيم الله بلالا ! أذهب أدرعي ، وفجعني بأسيري ^(٥) !

قال الواقدي : وكان الزبير بن العوام يحدث فيقول : لما كان يومئذ لقيت عبيدة ابن سعيد بن العاص على فرس ، عليه لامة كاملة لا يرى منه إلا عيناه ، وهو يقول - وكانت له صبية صغيرة ، يحملها وكان لها بطين وكانت مقسمة : أنا أبو ذات الكرش ، أنا أبو ذات

(١) الرمضاء : الرمل الشديد الحرارة من الشمس .

(٢) المسكة : السوار .

(٣ - ٣) ابن هشام : « فأخاف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أمية صيحة عظيمة ما سمعت بمثلها قط » .

(٤) هبروها : قطعوا لحمها ؛ تقول : هبرت اللحم إذا قطعته قطعاً .

(٥) سرّة ابن هشام ٢ : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

الكرش . قال : وفي يدي عَنَزَةٌ ^(١) فأطعن بها في عينه ووقع ، وأطوّه برجلي على خَدّه ، حتى أخرجت العَنَزَةَ متعقّقة ، وأخرجت حدقته ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله تلك العَنَزَةَ ، فكانت تجمل بين يديه ، ثم صارت تحمّل بين يدي أبي بكر وعمر وعثمان ^(٢) .

قال الواقديّ : وأقبل عاصم بن أبي عوف بن صُبَيْرَةَ السَّهْمِيّ ، لما جال الناس واختلطوا ، وكأنه ذئب ، وهو يقول : يامعشر قريش ، عليكم بالقاطع مفرّق الجماعة ، الآتي بما لا يعرف ، محمد ، لا نجوتُ إن نجا ! ويعترضه أبو دُجَانَةَ ، فاختلفا ضربتين ، ويضربه أبو دُجَانَةَ فقتله ، ووقف على سلبه يسلبه ، فرّ به عمر بن الخطاب ، فقال : دع سلبه حتى يُجْهِضَ ^(٣) العدو ، وأنا أشهد لك به ^(٤) .

قال الواقديّ : ويقبل معبد بن وهب ، أحد بني عامر بن لؤي ، فضرب أبا دُجَانَةَ ضربة بَرَكَ منها أبو دُجَانَةَ كما يبرك الجمل ، ثم انتهض ، وأقبل على معبد ، فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئا ، حتى يقع معبد بحفرة أمامه لا يراها ، ونزل أبو دُجَانَةَ عليه ، فذبحه ذبحاً ، وأخذ سلبه .

قال الواقديّ : ولما كان يومئذ ، ورأت بنو مخزوم مقتل من قُتِلَ ، قالت : أبو الحكم ! لا يخلص إليه ، فإنّ ابني ربيعة مجلا وبطرا : ولم تحام عنهما ^(٥) عشيرتهما . فاجتمعت بنو مخزوم ، فأحدقوا به ، فجعلوه [في] ^(٦) مثل الحُرَاجَةِ ، وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبي جهل رجلاً منهم ، فألبسوها عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعه ، فصمد له على عليه السلام ، فقتله وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه وهو يقول : أنا ابن عبد المطلب ! ثم ألبسوها أبا قيس بن

(١) العَنَزَةُ : شبيهة العسكازة ، أطول من العصا وأقصر من الرمح ، لها زج من أسفلها .

(٢) (٣) ١ والواقديّ : نجّض .

(٢) مغازي الواقدي ٨٠ .

(٥) مغازي الواقدي ٨٠ ، ٨١ .

(٤) مغازي الواقدي ٨١ .

(٧) من الواقديّ .

(٦) كذا في ١ ، وفي ب والواقديّ : « عليهما » .

الفاكه بن المغيرة ، فصمّد له حمزة وهو يراه أبا جهل ، فضربه فقتله وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب ! ثم ألبسوها حرّمة بن عمرو ، فصمّد له على عليه السلام فقتله ، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعم ، فأبى أن يلبسها ، قال معاذ بن عمرو بن الجموح : فنظرت يومئذ إلى أبي جهل في مثل الحرّجة ، وهم يقولون : أبو الحكم ! لا يخلص إليه ، فعرفت أنه هو ، فقلت : والله لأموتنّ دونه اليوم أو لأخلصنّ إليه ، فصمّدت له ، حتى إذا أمكنتني منه غيرة حملت عليه ، فضربت ضربة طرحت رجله من الساق ، فشبهتها النواة تنزو من تحت المراضخ ، فأقبل ابنه عكرمة علىّ فضربنى على عاتقي ، فطرح يدي من العاتق ، إلا أنه بقيت جلدة ، فذهبت أسحب يدي بتلك الجلدة خلفي ، فلما آذنتني وضعت عليها رجلي ، ثم تمطيت عليها فقطعتها ، ثم لاقيت عكرمة وهو يلوذ كلّ ملاذ ، ولو كانت يدي معي لرجوت يومئذ أن أصيبه . ومات معاذ في زمن عثمان ^(١) .

قال الواقدي : فروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله نفل معاذ بن عمرو بن الجموح سيف أبي جهل ، وأنه عند آل معاذ بن عمرو اليوم وبه فلّ ، بعد أن أرسل النبي صلى الله عليه وآله إلى عكرمة بن أبي جهل ، يسأله : مَنْ قتل أباك ؟ قال : الذي قطعت يده ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وآله سيفه إلى معاذ بن عمرو ، لأن عكرمة بن أبي جهل قطع يده يوم بدر ^(٢) .

قال الواقدي : وما كان بنو المغيرة يشكّون أن سيف أبي الحكم صار إلى معاذ بن عمرو بن الجموح ، وأنه قاتله يوم بدر ^(٢) .

قال الواقدي : وقد سمعت في قتله وأخذ سلبه غير هذا ؛ حدّثنى عبد الحميد بن جعفر ، عن عمر بن الحكم بن ثوبان ، عن عبد الرحمن بن عوف ؛ قال : عبأنا رسول الله صلى الله عليه وآله بليل ؛ فأصبحنا ونحن على صُفوفنا ؛ فإذا بغلامين ؛ ليس منهما واحد إلّا قد

(٢) مغازي الواقدي ٨١ ، ٨٢ .

(١) مغازي الواقدي ٨١ .

ربطت حائل سيفه في عنقه لصغره ، فالتفت إلى أحدهما ، فقال : يا عمّ ، أيّهم أبو جهل ؟ قال : قالت : وما تصنع به يا بن أخي ؟ قال : بلغني أنه يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالتفت : لئن رأيته لأقتله أو لأموتنّ دونه . فأشرت إليه ، فالتفت إلى الآخر ، وقال لي مثل ذلك ، فأشرت له إليه ، وقلت له : من أنتم ؟ قال : ابنا الحارث ، قال : فجعل لا يطرّفان عن أبي جهل ؛ حتى إذا كان القتال خلصا إليه فقتلاه وقتلها (١) .

قال الواقديّ : حدّثنى محمد بن عوف ، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت ، قال : لما كان يومئذ ، قال عبد الرحمن ، ونظر إليهما عن يمينه وعن شماله : ليت كان إلى جنبي من هو أبداً من هذين الصبيّين ! فلم أنشب أن التفت إلى عوف ، فقال : أيّهم أبو جهل ؟ فقلت : ذاك حيث ترى ، فخرج يعدو إليه كأنه سميع ، ولحقه أخوه ، فأنا أنظر إليهم يضطربون بالسيوف ؛ ثم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ بهم في القتلى ، وها إلى جانب أبي جهل (٢) .

قال الواقديّ : وحدّثنى محمد بن رفاع بن ثعلبة ، قال : سمعتُ أبي ينكر ما يقول الناس في ابني عَفْرَاء من صغرها ، ويقول : كانا يوم بدر أصغرهما ابن خمس وثلاثين سنة ، فهذا يربط حائل سيفه ! قال الواقديّ : والقول الأوّل أثبت (٣) .

وروى محمد بن عمار بن ياسر ، عن رُبَيْع بنت معوذ ، قالت : دخلتُ في نسوةٍ من الأنصار على أسماء أمّ أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب ، وكان ابنها عبد الله بن أبي ربيعة يبعث إليها بعطيرٍ من اليمن ، فكانت تبيعه إلى الأعطية ، فكنا نشترى منها ، فلما جعلت لي في قواريري ، ووزنت لي كما وزنت لصواحي ، قال : اكتبن لي عليكنّ حق ، قلت : نعم ، اكتب لها على الرُبَيْع بنت معوذ ، فقالت : أسماء خلفي : وإنك

(١) مغازي الواقدي ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) مغازي الواقدي ٨٣ .

(٣) مغازي الواقدي ٨٣ .

لابنة قاتل سيده ! فقلت : لا ، ولكن ابنة قاتل عبده ، فقالت : والله لا أبيعك شيئاً أبداً ، فقلت : أنا والله لا أشتري منك أبداً ، فوالله ما هو بطيب ولا عَرَفَ ؛ والله يابني ما شمت عطرًا قطّ كان أطيبَ منه ، ولكنتي يابني غضبت ^(١) .

قال الواقدي : فلما وضعت الحرب أوزارها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يلتمس أبو جهل ، قال ابن مسعود : فوجدته في آخر رمق ، فوضعت رجلى على عنقه ، فقلت : الحمد لله الذى أخزأك ! قال : إنما أخزى الله العبد ابن أم عبد ! لقد لو تقيت يارويعى الغنم مرتقى صعباً ! لمن الدبرة ؟ قلت : لله ولرسوله ، قال ابن مسعود : فأطلع بيضته عن قفاه ، وقلت : إني قاتلك ، قال : لست بأول عبد قتل سيده ، أما إن أشدّ مالميته اليوم لقتلك إياي ؛ ألا يكون ولىّ قتل رجلٍ من الأحلاف أو من المطيبين ! قال : فضربه عبد الله ضربةً وقع رأسه بين يديه ، ثم سلبه ، وأقبل بسلاحه ودرعه وبيضته ، فوضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : أبشِرْ يابني الله بقتل عدو الله أبى جهل ! فقال رسول الله : أحقاً يا عبد الله ! فوالذى نفسى بيده هو أحبُّ إلىّ من حمر النعم ! أو كما قال . ثم قال : إنه أصابه جَحَش ^(٢) من دفعٍ دفعته في مأدبة ابن جُدعان ، فنجشت ركبته فالتسوه ؟ فوجدوا ذلك الأثر ^(٣) .

قال الواقدي : وروى أن أبا سلمة بن عبد الأسد الخزوميّ كان عند النبي صلى الله عليه وآله تلك الساعة ، فوجد في نفسه ، وأقبل على ابن مسعود ، وقال : أنت قتلتني ؟ قال : نعم ، الله قتله ! قال أبو سلمة : أنت وُلّيت قتله ؟ قال : نعم ، قال : لو شاء لجملك في كُفٍّ ! فقال ابن مسعود : فقد والله قتلته وجرّدته ؛ فقال أبو سلمة : فما علامته ؟ قال : شامة سوداء بطن نخذه اليمنى ؛ فعرف أبو سلمة النعت ، فقال : أجردته ، ولم يجرّد قرشى غيره ! فقال

(٢) الجحش : الخدش ، أو فوقه دون الجرح .

(١) منازى الواقدي ٨٤

(٣) الواقدي ٨٤ ، ٨٥ .

ابن مسعود : إنه والله لم يكن في قريش ولا في حلفائها أحدٌ أعدى لله ولا لرسوله منه ؛ وما أعتذر من شيء صنعت به . فأمسك أبو سامة ^(١) .

قال الواقدي : سُمع أبو سامة بعد ذلك يستغفر الله من كلامه في أبي جهل ، وقال : اللهم إني قد أنجزت ما وعدتني ، فتمم عليّ نعمتك . قال : وكان عبد الله بن عتبة بن مسعود ، يقول : سيف أبي جهل عندنا محليّ بفضّة ، غنمه عبد الله بن مسعود يومئذ ^(١) .

قال الواقدي : اجتمع قول أصحابنا أنّ معاذ بن عمرو وابني عفرّاء أثبتوه ، وضرب ابن مسعود عنقه في آخر رمق ، فكلّ شرك في قتله ^(١) .

قال الواقدي : وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وقف على مصرع ابني عفرّاء ، فقال : يرحم الله ابني عفرّاء ؛ فإنهما قد شركا في قتل هويّعون هذه الأمة ، ورأس أئمة الكفر ، فقيل : يارسول الله ومن قتله معهما ؟ قال : الملائكة ، وذوّف عليه ابن مسعود ؛ فكان قد شرك في قتله ^(٢) .

قال الواقدي : وحدثني معمر ، عن الزهري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : اللهم اكفني نوفل بن العدويّة — وهو نوفل بن خويلد ، من بني أسد بن عبد العزّي — وأقبل نوفل يومئذ يصيح وهو مرعوب ، قد رأى قتل أصحابه ، وكان في أوّل ما التقواهم والمسلمون ، يصيح بصوت له زجل ، رافعا عقيرته : يامعشر قريش ، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة . فلما رأى قريشا قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار : ما حاجتكم إلى دماننا ؟ أما ترون من تقتلون ؟ أما لكم في اللبن من حاجة ! فأسرّه جبّار بن صخر ، فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبار ، ورأى عليا عليه السلام مقبلا نحوه : يا أخا الأنصار ، من هذا واللات والعزّي ! إنني لأرى رجلا ، إنه ليريدني ! قال

(١) مغازي الواقدي ٨٥ .

(٢) مغازي الواقدي ٨٥ ، ٨٦ ، وذوّف عليه ، أي أجهز على قتله .

جبار : هذا على بن أبي طالب ، قال نوفل : تالله ما رأيتُ كالיום رجلاً أسرع في قومه ! فصمّد له على عليه السلام فيضربه فينشب سيف عليّ في حَجَفَتِهِ ^(١) ساعة ، ثم ينزعه فيضرب به ساقيه ، ودرّعه مشتمرة ، فيقطعها ، ثم أجهر عليه فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : مَنْ له علم بنوفل بن خويلد ؟ قال عليّ عليه السلام : أنا قتلته ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه ^(٢) .

قال الواقدي : وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث للقتال ، فالتقى هو وعليّ عليه السلام ، وقتله عليّ ، فكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص : مالي أراك معرضاً ، تظن أنّي قتلت أباك ! فقال سعيد : لو قتلته لكان على الباطل وكنت على الحقّ ، قال : فقال عمر : إنّ قريشاً أعظم الناس أحلاماً ، وأكثرها أمانة ، لا يبيعهم أحدٌ الفوائل إلا كَبَّه الله لفيه ^(٣) .

قال الواقدي : وروى أنّ عمر قال لسعيد بن العاص : مالي أراك معرضاً كأنّي قتلت أباك يوم بدر ؛ وإن كنت لا أعتذر من قتل مشرك ، لقد قتلت خالي بيدى العاص بن هاشم بن المغيرة .

ونقلت من غير كتاب الواقدي أنّ عثمان بن عفان وسعيد بن العاص حضرا عند عمر في أيام خلافته ، فجلس سعيد بن العاص حَجْرَةً ^(٤) فنظر إليه عمر ، فقال : مالي أراك مُعْرِضاً كأنّي قتلت أباك ! إنّي لم أقتله ، ولكنه قتله أبو حسن ! وكان على عليه السلام حاضراً ، فقال : اللهم غفراً ! ذهب الشُّرك بما فيه ، ومحا الإسلام ما قبله ؛ فلماذا تمهاجُ

(٢) مغازى الواقدي ٨٦ .

(٤) حجرة ؛ أى ناحية .

(١) الحجة : الترس

(٣) مغازى الواقدي ٨٦ ، ٨٧ .

القلوب ! فسكت عمر ، وقال سعيد : لقد قتله كعب بن كريمة ؛ وهو أحبّ إلىّ من أن يقتله من ليس من بني عبد مناف .

قال الواقدي^(١) : وكان عليّ عليه السلام يحدث ، فيقول : إني يومئذ بعد ما متّع^(٢) النهار ، ونحن والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم ، خرجت في إثر رجل منهم ، فإذا رجل من المشركين على كتيب رمل وسعد بن خيثمة ، وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة ، والمشرك مقنّع في الحديد ، وكان فارساً ، فاقتحم عن فرسه ، فعرّفي وهو معلّم ، فنناداني : هلمّ يا بن أبي طالب إلى البراز ! فعطفت إلى البراز ، فعطفت عليه ، فانحطّ إلى مقبلا ، وكنت رجلاً قصيراً ، فانحططت راجعاً لكي ينزل إلىّ ، كرهت أن يعلوني ، فقال : يا بن أبي طالب ، فررت ! فقلت : قريباً مفرّ ابن الشراء . فلما استقرت قدماي وثبتت أقبل فاتقيت فلما دنا مني ضربني بالدرّقة ، فوقع سيفه ، فلجج^(٣) فأضربه على عاتقه وهو دارع ، فارتعش ، ولقد قطّ سيفي درعهُ ، فظننت أنّ سيفي سيقتله ، فإذا بريق سيف من ورائي ، فطأطأت رأسي ، ويقع السيف ، فأطنّ قحف رأسه بالبيضة ، وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب ، فالتفت من ورائي ، فإذا هو حمزة عمي^(٤) ، والمقتول طعيمة ابن عدي^(٥) .

قلت : في رواية محمد بن إسحاق بن يسار أنّ طعيمة بن عديّ قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ثم قال : وقيل : قتله حمزة^(٥) .
وفي رواية الشيعة قتله عليّ بن أبي طالب ، شجره بالرمح ، فقال له : والله لا تخاصمني في الله بعد اليوم أبداً ؛ وهكذا روى محمد بن إسحاق .

(٢) الواقدي : يعني « لزم » .

(٤) مغازي الواقدي ٨٧ .

(١) الواقدي : « ارتفع » .

(٣) الواقدي : « حمزة بن عبد المطلب » .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٧ .

وروى محمد بن إسحاق قال: وخرج النبي صلى الله عليه وآله من العريش إلى الناس بنظر القتال، فخرّض المساهين وقال: كلّ امرئ بما أصاب، وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل في جملة، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده تمرّات يأكلهنّ: بخ بخ! فهاينني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل^(١).

قال محمد بن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أنّ عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال لرسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر: يا رسول الله، ما يُضحِكُ الرَّبَّ من عبده؟ قال: غمسه يده في العدو حاسراً. فنزع عوف درعا كانت عليه وقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل^(٢).

قال الواقديّ وابن إسحاق: وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله كفاً من البطحاء، فرماه بها، وقال: شأنت الوجوه^(٣)! اللهم أرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم. فانهزم المشركون لا يلؤون على شيء، والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون^(٤).

قال الواقديّ: وكان هبيرة بن أبي وهب الخزوميّ لما رأى الهزيمة انخزل ظهره فعقر، فلم يستطع أن يقوم، فأثاه أبو أسامة الجشميّ حليفه، ففتق درعه واحتمله - ويقال: ضربه أبو داود المازنيّ بالسيف فقطع درعه، ووقع لوجهه، وأخذ إلى الأرض، وجاوزه أبو داود وبصر به ابنا زهير الجشميان مالك، وأبو أسامة، وهما حليفاه، فذبّا عنه حتى نجّوا به، واحتمله أبو أسامة ومالك يذبّ عنه، حتى خلّصاه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حماه كلباه الحليفان^(٥).

(١) سيرة ابن هشام ٢: ٢٦٨. (٢) سيرة ابن هشام ٢: ٢٦٨. (٣) بعدها في ابن هشام: «ثم بعجهم بها». (٤) مغازي الواقدي ٨٩ مع اختلاف في الرواية.

قال الواقديّ : وحدثني عمر بن عثمان عن عكاشة بن محصن ، قال : انقطع سبقي يوم بدر ، فأعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله عوداً ، فإذا هو سيف أبيض طويل ، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين ، ولم يزل ذلك السيف عند عكاشة حتى هلك .

قال : وقد روى رجال من بني عبد الأشهل عدّة ، قالوا : انكسر سيف سامة بن أسلم^(١) بن حريش^(٢) يوم بدر ، فبقى أعزل لا سلاح معه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله قضيباً كان في يده من عراجين ابن طاب^(٣) ، فقال : اضرب به ، فإذا هو سيف جيّد ، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد^(٤) .

قال الواقديّ : وأصاب حارثة بن سراقه ، وهو يكرّح في الحوض سهم غريب^(٥) من المشركين فوق في نحره ، فمات ، فلقد شرب القوم آخرَ النهار من دمه ؛ وبلغ أمّه وأخته - وهما بالمدينة مقتله - فقالت أمّه : والله لا أبكي عليه ؛ حتى يقدم رسول الله صلى الله عليه وآله فأسأله ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإن كان في النار بكيته لعمر الله فأعولته ! فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله من بدر جاءت أمّه إليه ، فقالت : يا رسول الله ، قد عرفت موضع حارثة في قلبي ، فأردت أن أبكي عليه ، ثم قلت : لا أفعل حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وآله عنه ؛ فإن كان في الجنة لم أبكيه ، وإن كان في النار بكيته فأعولته ! فقال النبي صلى الله عليه وآله : « هُبْلَتِ : أجنّة واحدة ! إنها جنان كثيرة ، والذي نفسى بيده إنه لفي الفردوس الأعلى » ، قالت : فلا أبكي عليه أبداً . قال الواقديّ : ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله حينئذ بماء في إناء ، فغمس يده فيه ومضمض فاه ، ثم ناول أمّ حارثة بن سراقه ، فشربت ثم ناولت ابنتها فشربت ،

(١) ب : « أشهل » ، وصوابه من ا والواقدي وابن هشام .

(٢) ا : « جريش » ، والصواب ما في ب والواقدي .

(٣) في اللسان : « عذق ابن طاب نخلة بالمدينة ، وقيل : ابن طاب ضرب من الرطب هنالك » .

(٤) منازي الواقدي ٨٨ . (٥) سهم غرب على الوصف : لا يدرى راميّه .

ثم أمرها فنفضحتا في جُيوبهما ، ثم رجعتا من عند النبي صلى الله عليه وآله ، وما بالمدينة امرأتان أقرّ عينا منهما ولا أسرّ^(١) .

قال الواقدي : وكان حكيم بن حزام يقول : انهزمتنا يوم بدر ، فجعلت أسعى وأقول : قاتل الله ابن الحنظلية ! يزعم أن النهار قد ذهب ، والله إن النهار لكما هو ؛ قال حكيم : وما ذا بي إلا حباً أن يأتي الليل فيقتصر عنا طلب القوم ، فيدرك حكيم عبيد الله وعبد الرحمن بنى العوام على جمل لهما ، فقال عبد الرحمن لأخيه : انزل فاحمل أبا خالد ، وكان عبيد الله رجلاً أعرج ، لا رُجْلة^(٢) به ، فقال عبيد الله : إنه لا رُجْلة بي كما ترى ؛ وقال عبد الرحمن : والله أن منه لا بد . ألا نحمل رجلاً ، إن متنا كفانا ما خلفنا من عيالنا ، وإن عشنا حملنا كلنا ! فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج ، فحملاه ، فكانوا يتعاقبون الجمل ، فلما دنا من مكة وكان بمرّ الظَّهْران ، قال : والله لقد رأيتُها هنا أمراً ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ، ولكنه شؤم ابن الحنظلية ! إن جَزَورا نَحرت ها هنا فلم يبق خباء إلا أصابه من دمها . فقالا : قد رأينا ذلك ؛ ولكن رأيناك وقومك قد مضيتُم فمضينا معكم ، ولم يكن لنا معكم أمر .

قال الواقدي : فحدثني عبد الرحمن بن الحارث عن مخلد بن خفاف ، عن أبيه ، قال : كانت الدروع في قريش كثيرة يومئذ ؛ فلما انهزموا جعلوا يلتقونها ، وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقطن ما طرحوا ، ولقد رأيتُني يومئذ التقت ثلاث أدرع جئت بها أهلي ، فكانت عندنا بعد ، فزعم لي رجل من قريش - ورأى درعاً منها عندنا فعرفها - قال : هذه درع الحارث بن هشام^(٣) .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو بن أمية ، قال : أخبرني من انكشف من قريش يومئذ منهزماً ، وإنه ليقول في نفسه ، ما رأيتُ مثل هذا فرّ منه إلا النساء^(٤) !

(١) مغازي الواقدي ٨٨ .

(٢) الرجل ؛ بالضم : القوة على المشي .

(٣) مغازي الواقدي ٩٠ .

(٤) مغازي الواقدي ٨٩ ، ٩٠ .

قال الواقدي : كان قَبَاث بن أَشِيم الكِنَانِي يقول : شهدت مع المشركين بدرًا ، وإني لأنظر إلى قَلَّة أصحاب محمد في عيني ، وكثرة مَنْ معنا من الخيل والرجُل ، فانهزمتُ فيمن انهزم ، فلقد رأيتني وإني لأنظر إلى المشركين في كلِّ وجه ، وإني لأقول في نفسي : مارأيت مثل هذا الأمر فرَّ منه إلا النساء ! وصاحبني رجل ، فبينما هو يسير معي إذ لحقنا من خلفنا ، فقلت لصاحبي : أياك نهوض ؟ قال : لا والله ما بي ! قال وعُقر وترفعت ، فلقد صَبَحَت غَيَّة - قال : وغَيَّة عن يسار السَّقِيَا بينهما وبين القُرْع ليلة وبين القُرْع والمدينة ثمانية بُرْد - قبل الشمس ؛ كنت هاديا بالطريق ؛ ولم أسلك الحاج^(١) ، وخفت من الطَّلَب فتَنَكَّبت عنها ، فلقيني رجل من قومي بغَيَّة ، فقال : ما وراءك ؟ قلت : لا شيء ؟ فقتلنا وأسرنا وانهزمننا ، فهل عندك من حُمْلان ؟ قال : لحملني على بعير ، وزودني زادًا ، حتى لقيت الطريق بالجحفة ، ثم مضيت حتى دخلت مَكَّة ؛ وإني لأنظر إلى الحَيْسَمَان بن حابس الخُزَاعِي بالغَمِيم ، فعرفت أنه تقدم ينعي قريشا بمكة ، فلو أردت أن أسبقه لسبقته ، فتَنَكَّبت^(٢) عنه حتى سبقني ببعض النهار ، فقدمت وقد انتهيت إلى مكة خبر قتلاهم ، وهم يلعنون الخُزَاعِي ، ويقولون : ما جاءنا بخير ! فكثت بمكة ، فلما كان بعد الخندق ، قلت : لو قدمت المدينة ، فنظرت ما يقول محمد ! وقد وقع في قلبي الإسلام ، فقدمت المدينة ، فسألت عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : هو ذاك في ظلِّ المسجد مع ملاٍّ من أصحابه ، فأتيته وأنا لا أعرفه من بينهم ، فسلمت فقال : يا قَبَاث بن أَشِيم ، أنت القائل يوم بدر : مارأيت مثل هذا الأمر فرَّ منه إلا النساء ! قلت : أشهد أنك رسول الله ، وأن هذا الأمر ما خرج مني إلى أحد قطٍّ وما ترممت^(٣) به ؛ إلا شيئًا حدثت به نفسي ، فلولاً أنك نبيٌّ ما أطلعك الله عليه ؛ هلم حتى أبايعك فأسلمت^(٤) .

(٢) ب . « فتَنَكَّبت » ، وأثبت ما في الواقدي .

(٤) مغازی الواقدي ٩٠ ، ٩١ .

(١) الواقدي : « الحاج » .

(٣) ما ترممت به ؛ أي ما نطقت به .

قال الواقديّ : وقد روى أنه لما توجه المشركون إلى بدر كان فتیان ممن تخلف عنهم بمكة سمارا يسمرون بذي طُوًى في القمر حتى يذهب الليل ، يتناشدون الأشعار ويتحدثون ، فبيناهم كذلك إذ سمعوا صوتا قريبا منهم ولا يرون القائل ، رافعا صوته يتغنّى :

أزاد الحنيفيُّون بدراً مصيبة سينقضّ منها ركنٌ كسرى وقيصراً
أرنت لها صمّ الجبال وأفزعت قبائل ما بين الوثير نخيبراً^(١)
أجازت جبال الأخشبين وجردت حرائرُ يضربن التراب حسراً^(٢)

قال الواقديّ : أنشدني^(٣) ، ورواه لي عبد الله بن أبي عبيدة ، عن محمد بن عمار بن ياسر ، قال : فاستمعوا الصّوت ، فلا يرون أحداً ، فخرجوا في طلبه ، فلم يروا أحداً ، فخرجوا فزعين ، حتى جازوا الحِجر ، فوجدوا مشيخةً منهم جِلَّةً سمارا ، فأخبروهم الخبر ، فقالوا لهم : إن كان ماتقولون ، فإنّ محمداً وأصحابه يسمّون الحنيفيّة . قال : فلم يبقَ أحدٌ من الفتیان الذين كانوا بذي طُوًى إلا وعك ، فما مكثوا إلا ليلتين أو ثلاثا ، حتى قدم الحيسمان^(٤) الخزاعيّ بخبر أهل بدر ، ومن قتل منهم ، فجعل يخبرهم ، فيقول : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وقتل ابنا الحجاج وأبو البختريّ ، وزمعة بن الأسود - قال : وصفوان بن أمية في الحِجر جالس يقول : لا يعقل هذا شيئاً مما يتكلّم به ! سلوه عني ، فقالوا : صفوان بن أمية لك به علم ؟ قال : نعم ، هو ذاك في الحِجر ، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين ، ورأيت سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث أسيرين ، رأيتهما مقرونين في الجبال^(٥) .

(١) كذا في الواقدي ، وفي ب : « وخيرا » .

(٢) كذا في ا ، وفي ب : « التراب وحسرا » . (٣) الواقدي : « أنشدني » .

(٤) في الأصول : « الحيمان » ؛ والثواب ما أثبتته من الواقدي والبلاذري وابن هشام والطبري .

(٥) مغازي الواقدي ١١٤ .

قال الواقدي : وبلغ النجاشي مقتل قريش وما ظفر الله به ^(١) رسوله ، فخرج في ثوبين أبيضين ، ثم جلس على الأرض ، ودعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، فقال : أيكم يعرف ^(٢) بدرًا ؟ فأخبروه ، فقال : أنا عارف بها ، قد رعت الغنم [في] ^(٣) جوانبها ، هي من الساحل على بعض نهار ، ولكنني أردت أن أثبت منكم ، قد نصر الله رسوله ببدر ، فاحمدوا الله على ذلك . فقال بطارفته : أصلح الله الملك ! إن هذا شيء لم تكن تصنعه ، يريدون لبس البياض والجلوس على الأرض ، فقال : إن عيسى بن مريم كان إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعا ^(٤) .

قال الواقدي : فلما رجعت قريش إلى مكة ، قام فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال : يا معشر قريش ، لا تبكوا على قتلاكم ، ولا تنح عليهم نائحة ، ولا يندبهم شاعر ، وأظهروا الجلد والعزاء ، فإنكم إذا نحتم عليهم وبكىتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فأكلتكم [ذلك] ^(٥) عن عداوة محمد وأصحابه ، مع أن محمداً إن بلغه وأصحابه ذلك شتموا بكم ، فتكون أعظم المصيبتين ، ولعلكم تدركون ثأركم ، فالدّهن والنساء على حرام حتى أغزو محمداً . فكشفت قريش شهراً لا يبيكهم شاعر ، ولا تنوح عليهم نائحة .

قال الواقدي : وكان الأسود بن المطلب قد ذهب بصره ، وقد كمد على من قتل من ولده ، وكان يحب أن يبكي عليهم فتأبى عليه قريش ذلك ، فكان يقول لغلامه بين اليومين : ويلك ! احمل معي خرا؛ واسلك بي الفج الذي سلكه أبو حَكِيمَة - يعني زُمعة ولده المقتول ببدر - فيأتني به غلامه على الطريق عند ذلك الفج فيجلس ، فيسقيه الخمر

(١) الواقدي : « نبيه » . (٢) الواقدي : « أين بدر » . (٣) من ا والواقدي .
 (٤) الواقدي : ١١٥ « تلبس ثوبين وتجلس على الأرض ؛ فقال : لاني من قوم إذا أحدث الله لهم نعمة ازدادوا بها تواضعا . ويقال : لأنه قال : إن عيسى بن مريم عليه السلام كان إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعا » . والخبر في الواقدي ١١٤ .
 (٥) من الواقدي ١١٥ .

حتى ينتشى ، ثم يبكي على أبي حَكِيمَة وإخوته ، ثم يحنى التراب على رأسه ، ويقول لغلّامه : ويحك ! اكتم علىّ ، فإنّي أكره أن تعلم بي قريش ، إنّّي أراها لم تجمع البكاء على قتلاها ^(١) .

قال الواقدي : حدثني مصعب بن ثابت عن عيسى بن معمر ، عن عبّاد بن عبد الله ابن الزبير ، عن عائشة قالت : قالت قريش حين رجعوا إلى مكة : لا تبكوا على قتلاكم ، فيبلغ محمداً وأصحابه فيشتتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم ، فيأرب ^(٢) بكم القوم ، ألا فأمسكوا عن البكاء .

قال : وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده : زُمعة وعُقيل والحارث بن زُمعة ، فكان يحبّ أن يبكي على قتلاه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلّامه - وقد ذهب بصره - : انظر ، هل بكت قريش على قتلاها ! لعلّي أبكي على أبي حَكِيمَة - يعني زُمعة - فإنّ جوفى قد احترق ، فذهب الغلام ورجع إليه ، فقال : إنّما هي امرأة تبكي على بغيرها قد أضلّته ، فقال الأسود :

تبكّي أن يضلّ لها بغيرٌ ويمنعها من التّوم السهود ^(٣)
فلا تبكي على بَكْرٍ ولكن على بَكْرٍ تصاغرت الخدود ^(٤)
فبكّي إن بكيت على عقيلٍ وبكّي حارثاً أسد الأسود
وبكّيهم ولا تسمي جميعاً ^(٥) فما لأبي حَكِيمَة من نديدٍ

(١) مغازي الواقدي، ١١٤ .
(٢) فيأرب : فيشتد .
(٣) الخبر والشعر - مع اختلاف الرواية - في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩١ ، والشعر أيضاً في ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ٢ : ٨٧٢ .
(٤) الحماسة : « تقاصرت الجدود » ، قال المرزوقي : « هو تفاعل من القصور والعجز ؛ لا القصر الذي هو ضد الطول » ، وفي الواقدي عن هشام : سمعت أبي ينشد « تصاغرت الخدود » ، ولا ينكر « الجدود » .
(٥) لا تسمي ، لا تسأى .

على بدر سَراة بنى هُصيصٍ ونخزوم ورهط أبى الوليد
ألا قد سادَ بعدهمُ رجالٌ ولولا يومُ بدرٍ لم يسودُوا

قال الواقديّ : ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة ، فقلن : ألا تبكين على
أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ! فقالت : حَلَّاني^(١) أن أبكيهم ، فيبلغ محمدا وأصحابه
فيشمتوا بنا ونساء بنى الخزرج ، لا والله حتى أثار محمدا وأصحابه ، والدَّهن على حرام إن
دخل رأسى حتى نغزو محمدا ! والله لو أعلم أنَّ الحزن يذهب عن قلبى لبكيتُ ، ولكن
لا يذهبه إلا أن أرى ثارى بعينى من قتلة الأحبة ، فكثت على حالها لا تقرب الدَّهن ،
ولا قربت فراش أبى سفيان من يوم حلفت حتى كانت وقعة أحد^(٢) .

قال الواقديّ : وبلغ نوفل بن معاوية الديلى وهو فى أهله - وقد كان شهد معهم بدرا -
أن قريشا بكت على قتلها ؛ فقدم مكة ، فقال : يا معشر قريش ، لقد خفت أحلامكم ، وسفه
رأيكم ، وأطعتم نساءكم ، أمثل قتلاكم يبكى عليهم ! هم أجل من البكاء ، مع أن ذلك
يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغى أن يذهب الغيظ عنكم ، إلا أن
تدركوا ثأركم من عدوكم . فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه ، فقال : يا أبا معاوية ، غلبت ،
والله ما ناحت امرأة من بنى عبد شمس على قتل لها إلى اليوم ، ولا بكاهم شاعر إلا نهيتُه
حتى ندرك ثأرنا من محمد وأصحابه ، وإني لأنا الموتور الثأر ، قتل ابنى حنظلة ، وسادة أهل
هذا الوادى ؛ أصبح هذا الوادى مقشعرا لفقدكم^(٣) !

قال الواقديّ : وحدثني معاذ بن محمد الأنصارى ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، قال :
لما رجع المشركون إلى مكة ، وقد قتل صناديدهم وأشرافهم ، أقبل عمير بن وهب بن عمير
الجمحى حتى جلس إلى صفوان بن أمية فى الحَجْر ، فقال صفوان بن أمية : قُبِحَ العيش

(٢) مغازى الواقدي ١١٦ ، ١١٧ .

(١) حلَّاني : معنى .

(٣) مغازى الواقدي ١١٨ .

بعد قتلى بدر ! قال عمير بن وهب : أجل والله ، مافى العيش بعدهم خيرٌ ، ولولا دينٌ على لا أجده قضاء ، وعيال لا أدع لهم شيئاً ، لرحلتُ إلى محمد حتى أقتله إن ملأتُ عيني منه ؛ فإنه بلغنى أنه يطوف فى الأسواق ، فإن لى عندهم علةٌ ، أقول : قدمت على ابنى هذا الأسير . ففرح صفوان بقوله ، وقال : يا أبا أمية ، وهل نراك فاعلاً ؟ قال : إى ورب هذه البنية ! قال صفوان : فعلى دينك ، وعيالك أسوة عيالى ، فأنت تعلم أنه ليس بمكة رجل أشدّ توسعاً على عياله منى . قال عمير : قد عرفت ذلك يا أبا وهب ، قال صفوان : فإن عيالك مع عيالى ، لا يسعنى شىء ونعجز عنهم ، ودينك على . فحمله صفوان على بعيره ، وجهزه وأجرى على عياله مثل مايجرى على عيال نفسه ، وأمر عمير بسيفه فشحذ وسم ، ثم خرج إلى المدينة ، وقال لصفوان : اكتبم على أياماً حتى أقدمها ، وخرج فلم يذكروه صفوان ، وقدم حمير ، فنزل على باب المسجد ، وعقل راحلته ، وأخذ السيف فتقلده ، ثم عمّد نحو رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعمر بن الخطاب فى نفرٍ من المسلمين يتحدثون^(١) ، ويذكرون نعمة الله عليهم فى بدر ، فرأى عميراً وعليه السيف ، ففرع عمر منه ، وقال لأصحابه : دونكم الكلب ! هذا عمير بن وهب عدو الله الذى حرّش بيننا يوم بدر ، وحزرنّا للقوم ؛ وصعد فينا وصوب ؛ يخبر قريشاً أنه لا عدد لنا ولا كمين . فقاموا إليه فأخذوه ، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا رسول الله ؛ هذا عمير بن وهب ، قد دخل المسجد ومعه السلاح ، وهو الغادر الخبيث الذى لا يؤمن على شىء ، فقال النبى صلى الله عليه وآله : أدخله على ، فخرج عمر فأخذ بحمائل سيفه ، فقبض بيده عليها ، وأخذ بيده الأخرى قائم السيف ، ثم أدخله على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما رآه ، قال : يا عمر ، تأخر عنه ، فلما دنا عمير إلى النبى صلى الله عليه وآله قال : أنعم صباحاً ، فقال له النبى صلى الله عليه وآله : قد أكرمنا الله عن تحيتك ، وجعل تحيتنا السلام ، وهى تحية أهل الجنة . قال عمير : إن عهدك بها لحديث ، فقال النبى صلى الله عليه وآله : قد أبدلنا

(١) الواقدي : « فنظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو فى نفر من أصحابه يتحدثون » .

الله خيرا ، فما أقدمك يا عمير ؟ قال : قدمت في أسيرى عندكم تفادونه وتقاربونا فيه ، فإتكم العشيرة والأصل ! قال النبي صلى الله عليه وآله : فما بال سيف ! قال عمير : قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت من شيء ! إنما نسيته حين نزلت وهو في رقبتي ، ولعمري إن لي لهما غيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اصدق يا عمير ، ما الذي أقدمك ؟ قال : ما قدمت إلّا في أسيرى ، قال صلى الله عليه وآله : فما شرطت لصفوان بن أمية في الحجر ؟ ففرع عمير ، وقال : ماذا شرطت له ؟ قال : تحملت بقتلي ، على أن يقضى دينك ، ويعول عيالك ، والله حائل بينك وبين ذلك ! قال عمير : أشهد أنك صادق ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كنّا يا رسول الله نكذبك بالوحي ، وبما يأتيك من السماء ، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان كما قلت ، لم يطلع عليه غيره وغيرى ، وقد أمرته أن يكتمه^(١) ليالى ، فأطلعك الله عليه ، فأمنت بالله ورسوله ، وشهدت أن ما جئت به حق . الحمد لله الذى ساقنى هذا المساق ! وفرح المسلمون حين هداه الله ، وقال عمر بن الخطاب : لخزير^٢ كان أحبّ إلىّ منه حين طلع ، وهو الساعة أحبّ إلىّ من بعض ولدى . وقال النبي صلى الله عليه وآله : « علموا أحاكم القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ، فقال عمير : يا رسول الله ، إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، فله الحمد أن هدانى ، فأذن لي فألحق قريشا فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام ، ففعل الله يهديهم ويستنقذهم من الهلكة ، فأذن له ففرج ، فالحق بمكة . وكان صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من المدينة ، يقول : هل حدث بالمدينة من حدث ؟ ويقول لقريش : أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر ، فقدم رجل من المدينة ، فسأله صفوان عن عمير ، فقال : أسلم ، فلعله صفوان ولعنه المشركون بمكة ، وقالوا : صَبَأَ عمير ، وحلف صفوان ألا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه ، وطرح عياله . وقدم عمير ، فنزل في أهله ، ولم يأت صفوان ، وأظهر الإسلام ، فبلغ صفوان . فقال : قد عرفت حين لم يبدأ بى قبل منزله ، وقد كان رجل

(١) : « يكتم عنى » .

أخبرني أنه ارتكس ، لا أكلّمه من رأسى أبدا ، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة أبدا ، فوقع عليه عُهير وهو في الحِجْر فقال : يا أبا وهب . فأعرض صفوان عنه ، فقال عمير : أنت سيّد من ساداتنا ، أرايت الذي كنّا عليه من عبادة حَجَر ، والذبح له ! أهذا دين ! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . فلم يجبه صفوان بكلمة ، وأسلم مع عمير بشر كثير^(١) .

قال الواقدي : وكان فتية من قريش خمسة قد أسلموا ، فاحتبسهم أبائهم ، فخرجوا مع أهلهم وقومهم إلى بدر ، وهم على الشك والارتياب ، لم يخلصوا إسلامهم ؛ وهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زَمْعَة بن الأسود ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبّه بن الحجاج ، فلما قدموا بدرأ ورأوا قلة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ، قالوا : غر هؤلاء دينهم ، ففيهم أنزل : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾^(٢) ، ثم أنزل فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ... ﴾^(٣) إلى تمام ثلاث آيات^(٤) .

قال : فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من أقام بمكة مسلما ، فقال جندب بن ضمرة أنخراعي : لا عذر لي ولا حجة في مقامى بمكة - وكان مريضا - فقال لأهله : أخرجوني ، لعل أجد رَوْحًا ! قالوا : أي وجه أحب إليك ؟ قال : نعم التنعيم ! فخرجوا به إلى التنعيم ، وبين التنعيم ومكة أربعة أميال من طريق المدينة - فقال : اللهم إني خرجت إليك مهاجرا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾^(٥) الآية ، فلما رأى ذلك من كان بمكة يمين يطبق الخروج ، خرجوا فطلبهم أبوسفيان في رجال من المشركين ،

(٢) سورة الأنفال ٤٩ .

(٤) مغازي الواقدي ٦٧ .

(١) مغازي الواقدي ١١٧ - ١٢٣ .

(٣) سورة النساء ٩٧ وما بعدها .

(٥) سورة النساء ١٠٠ .

فردّوهم وسجنوهم ، فافتتن منهم ناس ، وكان الذين افتتنوا إنما افتتنوا حين أصابهم البلاء
فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً
النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ...﴾^(١) الآية وما بعدها. فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى مَنْ كان
بمكة مسلما ، فلما جاءهم الكتاب بما أنزل فيهم ، قالوا : اللهم إنَّ لك علينا إن أفلتتنا
ألا نعدل بك أحدا ، نخرجوا الثانية ، فطلبهم أبو سفيان والمشركون ، فأعجزوهم هربا في
الجبال ، حتى قديموا المدينة ، واشتدَّ البلاء على مَنْ ردّوا من المسلمين ، فضربوهم وأذوهم
وأكرهوهم على ترك الإسلام ، ورجع ابن أبي سرح مشركا ، فقال لقريش : ما كان يعلم
محمد إلا ابن قطة^(٢) ، عبد نصراني ، لقد كنت أكتب له فأحوّل ما أردت ، فأنزل الله تعالى
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾^(٣) ... الآية^(٤) .

القول في نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتها المشركين

اختلف المسلمون في ذلك ، فقال الجمهور منهم : نزلت الملائكة حقيقة ، كما ينزل
الحيوان والحجر من الموضع العالى إلى الموضع السافل .
وقال قوم من أصحاب المعاني غير ذلك .
واختلف أرباب القول الأوّل ، فقال الأكثرون : نزلت وحاربت ، وقال قوم منهم :
نزلت ولم تحارب ، وروى كل قوم في نصرة قولهم روايات .
فقال الواقدي في كتاب " المغازي " : حدثني عمر بن عبقة ، عن شعبة مولى
ابن عباس ، قال : سمعت ابن عباس يقول : لما تواقف الناس أغشى على رسول الله صلى

(١) سورة العنكبوت ١٠ .

(٢) كذا في الأصول ومغازي الواقدي ، وفي تفسير القرطبي ١٠ : ١٧٧ ، اسمه جبر ، وقيل سمع يعيش .

(٣) سورة النحل ١٠٣ .

(٤) مغازي الواقدي ٦٧ .

صلى الله عليه وآله ساعة ، ثم كشف عنه فبشر المؤمنين بجبرائيل في جُند من الملائكة في ميمنة الناس ، وميكائيل في جند آخر في ميسرة الناس ، وإسرافيل في جند آخر في ألف ، وكان إبليس قد تصور للمشركين في صورة سُرّاقة بن جعشم المدلجى ، يذمر المشركين ، ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس ، فلما أبصر عدوّ الله الملائكة نكص على عقبيه ، وقال : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ ، فتشبّث به الحارث بن هشام ، وهو يرى أنه سُرّاقة لما سمع من كلامه ، فضرب في صدر الحارث ، فسقط الحارث ، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر ، ورفع يديه قائلاً : ياربّ موعذك الذى وعدتني ! وأقبل أبو جهل على أصحابه يحضّمهم على القتال وقال : لا يغرنكم خذلان سُرّاقة بن جعشم إيّاكم ، فإنما كان على ميعاد من محمد وأصحابه ، سيعلم إذا رجعنا إلى قُدَيْد ما نضع بقومه ! ولا يهولنكم مقتل عُتْبَةَ وشيبة والوليد ، فإنهم عجلوا وبطروا حين قاتلوا ، وإيم الله لا نرجع اليوم حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال ، فلا ألفين أحداً منكم قتل منهم أحداً ، ولكن خذوهم أخذاً نعرفهم بالذى صنعوا ، لفارقهم دينكم ورغبتهم عما كان يعبد آباؤهم .

قال الواقديّ : وحدثني عُتْبَةُ بن يحيى ، عن معاذ بن رفاع بن رافع ، عن أبيه ، قال : إن كنا لنسمع لإبليس يومئذ خواراً ودعاءً بالشُّبور والويل ، وتصور في صورة سُرّاقة ابن جعشم حتى هرب ، فاقتحم البحر ، ورفع يديه مادّاً لها ، يقول : ياربّ ما وعدتني ! ولقد كانت قریش بعد ذلك تعبر سُرّاقة بما صنع يومئذ ، فيقول : والله ما صنعت شيئاً ! قال الواقديّ : فحدثني أبو إسحاق الأسلمى ، عن الحسن بن عبيد الله ، مولى بنى العباس ، عن عمارة الليثي ، قال : حدثني شيخٌ صيَّاد من الحِمْيَر - وكان يومئذ على ساحل البحر - قال : سمعت صياحاً : يا ويلاه ! يا ويلاه ! قد ملأ الوادى : يا حربه يا حربه ! فنظرتُ فإذا سُرّاقة بن جعشم ، فدنوت منه ، فقلت : مالك فذاك أبى وأمى ! فلم يرجع إلى شيئاً ، ثم أراه اقتحم البحر ، ورفع يديه مادّاً ، يقول : ياربّ ما وعدتني ! فقلت

في نفسى : جُنَّ وبيت الله سراقَة ! وذلك حين زاغت الشمس ، وذلك عند انهزامهم يوم بدر^(١) .

قال الواقديّ : قالوا : كانت سياء الملائكة عمائم قد أرخوها بين أكتافهم ، خضراء وصفراء وحمراء من نور ، والصوف في نواصي خيلهم .

قال الواقديّ : حدثني محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر ، عن محمود بن لبيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : «إن الملائكة قدسوّت فسوّموا» ، فأعلم المساءون بالصّوف في مغافيرهم وقلانسهم^(٢) .

قال الواقديّ : حدثني محمد بن صالح قال : كان أربعة من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يعلمون^(٣) في الزّحوف : حمزة بن عبد المطلب كان يوم بدر معلماً بريشة نعام ، وكان على عليه السلام معلماً بصوفة بيضاء ، وكان الزبير معلماً بعصابة صفراء ، وكان أبو دجانة يعلم بعصابة حمراء ، وكان الزبير يحدث أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بلق عليها عمائم صفر فكانت على صورة الزبير .

قال الواقديّ : فروى عن سهيل بن عمرو ، قال : لقد رأيت يوم بدر رجلاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين يقبلون ويأسرون .

قال الواقديّ : وكان أبو أسد الساعديّ يحدث بعد أن ذهب بصره ، ويقول : لو كنت معكم الآن بدار ومعى بصرى لأريتكم الشَّعب الذي خرجت منه الملائكة ، لا أشك فيه ولا أمتري ! قال : وكان أسيد يحدث عن رجل من بني غفار حدثه ، قال : أقبلت أنا وابن عمّ لي يوم بدر ، حتى صعدنا على جبل ، ونحن يومئذ على الشرك ننظر الواقعة على من تكون الدبرة ففتهب مع من ينتهب إذ رأيت سحابة دنت منا ، فسمعت منها

(٢) مغازى الواقدي ٧٠ .

(١) مغازى الواقدي ٧٠ .

(٣) يقال : رجل معلم بكسر اللام ؛ إذا علم مكانه في الحرب بعلامة أعلمها .

همهمة الخليل ، وقعقة الحديد ، وسمعت قائلاً يقول : أقدم حيزوم ! فأما ابنُ عمّي ، فانكشف قناع قلبه ، فمات ، وأما أنا فكدت أهلك ، فتماسكت وأتبعته بصرى حيث تذهب السحابة ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه : ثم رجعت ، وليس فيها شيء مما كنت أسمع .

قال الواقديّ : وحدثني خارجة بن إبراهيم بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، عن أبيه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله جبرائيل : مَنْ القاتل يوم بدر : أقبل حيزوم ؟ فقال جبرائيل : يا محمد ، ما كلُّ أهل السماء أعرف .

قال الواقديّ : وحدثني عبد الرحمن بن الحارث ، عن أبيه ، عن جده ، عبيدة بن أبي عبيدة ، عن أبي رُهم الغفاري عن ابن عمّه له ، قال : بينا أنا وابن عمّي لي على ماء بدر ، فلما رأينا قلة من مع محمد وكثرة قريش ، قلنا : إذا التقت الفئتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه فانتهبناه ، فانطلقنا نحو الجنبّة اليسرى من أصحاب محمد ، ونحن نقول : هؤلاء ربيع قريش ، فبينما نحن نمشي في الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا ، فرفعنا أبصارنا لها ، فسمعنا أصوات الرجال والسيّاح ، وسمعنا قائلاً يقول لفرسه : « أقدم حيزوم » ، وسمعناهم يقولون : « رويدا تناءم أخراكم » ، فنزلوا على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم جاءت أخرى مثل تلك فكانت مع النبي صلى الله عليه وآله ، فنظرنا إلى أصحاب محمد وإذا هم على الضعف من قريش ، فمات ابنُ عمّي ، وأما أنا فتماسكت ، وأخبرت النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله بذلك ، وأسلمت .

قال الواقديّ : وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال « مارئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغضب منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من نزول الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم يَدْر » . قيل : وما رأى

يارسول الله يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبريل يوزع الملائكة. قال: وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال يومئذ: « هذا جبرائيل يسوق بريح، كأنه دحية الكلبي، إنني نصرت بالصبا وأهليكت عاد بالدبور »^(١).

قال الواقدي: وكان عبد الرحمن بن عوف يقول: رأيت يوم بدر رجلين؛ أحدهما عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم، والآخر عن يساره، يقاتلان أشد القتال، ثم تلثهما ثالث من خلفه؛ ثم ربهما رابع أمامه^(٢).

قال: وقد روى سعد بن أبي وقاص مثل ذلك، قال: رأيت رجلين يوم بدر، يقاتلان عن النبي صلى الله عليه وسلم، أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، وإنني لأراه ينظر إلى ذا مرة، وإلى ذامرة، سرورا بما فتحه^(٣) الله تعالى^(٤).

قال الواقدي: وحدثني إسحاق بن يحيى، عن حمزة بن صهيب، عن أبيه، قال: ما أدري كم يد مقطوعة وضربة جائقة لم يدم كلمها يوم بدر، قد رأيتها^(٥).

قال الواقدي: وروى أبو بردة بن نيار، قال: جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس فوضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يارسول الله، أما اثنان فقتلتهم، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً طويلاً أبيض ضربه فتدهده^(٦) أمامه؛ فأخذت رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ذاك فلان من الملائكة »^(٧).

قال الواقدي: وكان ابن عباس رحمه الله، يقول: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر^(٧).

- | | |
|------------------------------|--|
| (١) مغازي الواقدي ٧٢ . | (٢) مغازي الواقدي ٧٣ . |
| (٣) الواقدي: « ظفرو الله » . | (٤) مغازي الواقدي ٧٣ . |
| (٥) مغازي الواقدي ٧٣ . | (٦) تدهده: تدرج، وفي الواقدي « تدهدي » . |
| (٧) مغازي الواقدي ٧٣ . | |

قال : وحديثي ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان الملك يتصور في صورة مَنْ يعرفه المسلمون من الناس ^(١) ليثبتهم ، فيقول : إني قد دنوت من المشركين ، فسمعتهم يقولون : لو حملوا علينا ما ثبتنا لهم ، وليسوا بشيء ، فاحملوا عليهم ؛ وذلك قول الله عز وجل : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ ^(٢) الآية ^(٣) .

قال الواقدي : وحديثي موسى بن محمد ، عن أبيه ، قال : كان السائب بن أبي حبيش الأسدي يحدث في زمن عمر بن الخطاب ، فيقول : والله ما أسرني يوم بدر أحد من الناس ، فيقال : فمن ؟ فيقول : لما انهزمت قريش انهزمت معها فيدركني رجل أبيض طويل ، على فرس أبلق بين السماء والأرض ، فأوثقني رباطا ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطا ، وكان عبد الرحمن ينادي في العسكر : مَنْ أسر هذا ؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني ، حتى انتهى بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله : يا ابن أبي حبيش ، مَنْ أسرك ؟ قلت : لأعرفه ، وكهرت أن أخبره بالذي رأيت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أسره ملك من الملائكة كريم ، اذهب يا ابن عوف بأسيرك » ، فذهب بي عبد الرحمن . قال السائب : وما زالت تلك الكلمة أحفظها ، وتأخر إسلامي حتى كان من إسلامي ما كان ^(٤) .

قال الواقدي : وكان حكيم بن حزام ، يقول : لقد رأيتنا يوم بدر ، وقد وقع بوادي خلص بجاد من السماء قد سد الأفق - قال ووادي خلص ناحية الرثوية - قال : فإذا الوادي يسيل نملا ، فوقع في نفسي أن هذا شيء من السماء أيده به محمد ، فما كانت إلا الهزيمة ، وهي الملائكة ^(٥) .

(١) الواقدي : « من تعرفون من الناس » .

(٢) سورة الأنفال ١٢ .

(٣) مغازي الواقدي ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) مغازي الواقدي ٧٤ .

(٥) مغازي الواقدي ٧٤ ، ٧٥ .

قال الواقديّ : وقد قالوا : إنه لما التحم القتال، ورسول الله صلى الله عليه وآله رافع يديه يسأل الله النصر وما وعده ، ويقول : اللهم إن ظهّرت على هذه العصابة ، ظهر الشّرك ؛ ولا يقوم لك دين ، وأبو بكر يقول : والله لينصرك الله وليبيّضنّ وجهك ، فأنزل الله تعالى ألفاً من الملائكة مردفين عند أكتاف العدو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أبا بكر ، أبشّر ، هذا جبرائيل معتجراً بعمامة صفراء ، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض » ، ثم قال : إنه لما نزل الأرض تغيب عنّي ساعة ، ثم طلع على ثنایاه النقع ، يقول : أتاك النصر من الله إذ دعوتّه ^(١) .

قال الواقديّ : وحديثي موسى بن يعقوب ، عن عمّه ، قال : سمعتُ أبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة ، يقول : سمعت مَرْوَانَ بن الحكم يسأل حكيم بن حزام عن يوم بدرٍ ، فجعل الشيخ يكره ذلك ، حتى ألحّ عليه ، فقال حكيم : التقينا فاقتتلنا ، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقع الحصاة في الطّست ، وقبض النبي صلى الله عليه وآله القبضة ، فرمى بها فانهزمنا .

قال الواقديّ : وقد روى عبد الله بن ثعلبة بن صغير ، قال : سمعتُ نوفل بن معاوية الدؤليّ ، يقول : انهزمنا يوم بدرٍ ، ونحن نسمع كوقع الحصا في الطّساس بين أيدينا ومن خلفنا ، فكان ذلك أشدّ الرّعب علينا .

فأما الذين قالوا : نزلت الملائكة ولم تقاتل ، فذكر الزمخشريّ في كتابه في تفسير القرآن المعروف ” بالكشاف “ ، أن قوماً أنكروا قتال الملائكة يوم بدرٍ ؛ وقالوا : لو قاتل واحدٌ من الملائكة جميع البشر لم يثبتوا له ولاستأصلهم بأجمعهم ببعض قوته ، فإنّ جبرائيل عليه السلام رفع مدائن قوم لوط - كما جاء في الخبر - على خافقة من جناحه ،

(١) مغازي الواقدي ٧٥ ، ٧٦ .

حتى بلغ بها إلى السماء ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ، فما عسى أن يبلغ قوة ألف رجل من قريش ليحتاج في مقاومتها وحربها إلى ألف ملك من ملائكة السماء مضافين إلى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من بنى آدم ! وجعل هؤلاء قوله تعالى : ﴿ فَأَضْرِبُوا قُوَّةَ الْأَعْنَاقِ ... ﴾ ^(١) أمرا للمسلمين لا أمرا للملائكة .

ورروا في نصرة قولهم روايات ، قالوا : وإنما كان نزول الملائكة ليكثروا سواد المسلمين في أعين المشركين ، فإنهم كانوا يرونهم في مبدأ الحال قليلين في أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ ... ﴾ ^(٢) ، ليطمع المشركون فيهم ويحترئوا على حربهم ، فلما نشبت الحرب كثّرهم الله تعالى بالملائكة في أعين المشركين ليفروا ولا يثبتوا . وأيضا فإن الملائكة نزلت وتصوّرت بصور البشر الذين يعرفهم المسلمون ، وقالوا لهم ماجرت العادة أن يقال مثله من تثبيت القلوب يوم الحرب ، نحو قولهم : ليس المشركون بشيء ، لا قوة عندهم ، لا قلوب لهم ، لو حلتهم عليهم لهزمتهم . . . وأمثال ذلك .

ولقائل أن يقول : إذا كان قادرا على أن يقتل ثلاثمائة إنسان في أعين قريش حتى يظنّوهم مائة ، فهو قادر على أن يكثّرهم في أعين قريش بعد التقاء حَلَقَتَي البطان ، فيظنّوهم ألفين وأكثر من غير حاجة إلى إنزال الملائكة .

فإن قلت : لعل في إنزالهم لطفًا للمكلفين .

قلت : ولعل في محاربتهم لطفًا للمكلفين ؛ وأما أصحاب المعاني فإنهم لم يحملوا الكلام على ظاهره ، ولهم في تأويله قول ليس هذا موضع ذكره .

القول فيما جرى في الغنيمة

والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى مكة

قال الواقديّ: لما تصافّ المشركون والمسلمون ، قال النبي صلى الله عليه وآله : «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا ، وَمَنْ أَسْرَأَسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا» ؛ فلما انهزم المشركون كان الناس ثلاث فرق ؛ فرقة قامت عند خيمة رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان أبو بكر معه في الخييمة - وفرقة أغارت على التَّهْبِ تنهب ، وفرقة طلبت العدو فأسروا وغنموا ، فتكلم سعد بن مُعَاد - وكان ممن أقام على خيمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا رسول الله ، ما منعنا أن نطلب العدو زهادة في الأجر ، ولا جبن عن العدو ، ولكننا خفنا أن نعرى موضعك ، فيميل عليك خيل من خيل المشركين ورجال من رجالهم ، وقد أقام عند خيمتك وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، والناس كثير ، ومتى تُعطى هؤلاء لا يبقى أصحابك شيء ، والقتلى والأسرى كثير ، والغنيمة قليلة ، فاختلفوا فأنزل الله عز وجل : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ الآية ، فرجع المسلمون ، وليس لهم من الغنيمة شيء ثم أنزل الله فيما بعد : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُصَّهُ وَالرَّسُولَ...﴾ (١) فقسمه عليهم بينهم .

قال الواقديّ : وقد روى عبادة بن الوليد بن عبادة عن جدّه عبادة بن الصامت ، قال : سلّمنا الأنفال يوم بدر لله وللرسول ، ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وآله بدرًا ، ونزلت بعد : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالمسلمين

أُلْحَمَسَ فِيمَا كَانَ مِنْ أَوَّلِ غَنِيمَةِ بَعْدِ بَدْرٍ .

قال الواقدي : وقد روى عن أبي أسيد الساعدي مثله .

وروى عكرمة ، قال : اختلف النَّاسُ فِي الْغَنَائِمِ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْغَنَائِمِ أَنْ تَرَدَّ فِي الْمَقْسَمِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا رَدٌّ . وَظَنَّ أَهْلُ الشَّجَاعَةِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَخْصِمُهُمْ بِهَا دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الضَّعْفِ ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ تَقْسَمَ بَيْنَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَعْطِي فِارِسَ الْقَوْمِ الَّذِي يَجْمِهُهُمْ مِثْلَ مَا تَعْطِي الضَّعِيفَ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « تَكَلَّتْكَ أُمَّكَ ! وَهَلْ تُنْصَرُونَ إِلَّا بِضِعْفَانِكُمْ ! » .

قال الواقدي : فروى محمد بن سهل بن خيثمة ، قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تردّ الأسرى والأسلاب ، وما أخذوا من المغنم ، ثم أقرع بينهم في الأسرى ، وقسم أسلاب المقتولين الذين يُعرف قاتلوهم بين قاتليهم ، وقسم ما وجدته في العسكر بين جميع المساهين عن فراق .

قال الواقدي : وحدثني عبد الحميد بن جعفر ، قال : سألت موسى بن سعد بن زيد ابن ثابت : كيف فعل النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر في الأسرى والأسلاب والأفقال ؟ فقال : نادى مناديه يومئذ : مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ ، وَمَنْ أَسْرَأَ سِيرًا فَهُوَ لَهُ ، وَأَمَرَ بِمَا وَجَدَ فِي الْعَسْكَرِ وَمَا أَخَذَ بِغَيْرِ قِتَالٍ ، فَقَسَمَهُ بَيْنَهُمْ عَنْ فِرَاقٍ . فَقُلْتُ لِعَبْدِ الْحَمِيدِ : فَلِمَنْ أُعْطِيَ سَلْبُ أَبِي جَهْلٍ ؟ فَقَالَ : قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ أُعْطِيَ مُعَاذَ بْنَ عَمْرٍو وَبَنَ الْجُمُوحِ ، وَقِيلَ : أُعْطَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ .

قال : وأخذ عليّ عليه السلام درع الوليد بن عُتْبَةَ وَبَيْضَتَهُ وَمِغْفَرَهُ ، وَأَخَذَ حِمَاةَ سِلَاحِ عُتْبَةَ ، وَأَخَذَ عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ سِلَاحَ شَيْبَةَ ، ثُمَّ صَارَ إِلَى وَرَثَتِهِ .

قال الواقدي : فكانت القسمة على ثلاثمائة وسبعة عشر سهما ، لأن الرجال كانت ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وكان معهم فرسان لها أربعة أسهم ، وقسم أيضا فوق ذلك ثمانية أسهم ، لم يحضروا ، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، ثلاثة من المهاجرين لاختلاف فيهم ، وهم : عثمان بن عفان خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته رقية وماتت يوم قدم زيد بن حارثة بالبشارة إلى المدينة ، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، بعثهما رسول الله صلى الله عليه وآله يتجسسان خبر العير . وخمسة من الأنصار هم : أبو ثبابة بن عبد المنذر ، خلفه على المدينة ، وعاصم بن عدي ، خلفه على قباء وأهل العالية ، والحارث بن حاطب أمره بأمر في بني عمرو بن عوف ، وخوات بن جبير كسر بالروحاء ، والحارث بن الصمة مثله ، فلا اختلاف في هؤلاء . واختلف في أربعة غيرهم ، فروى أنه ضرب لسعد بن عباد بسمه وأجره ، وقال : لئن لم يشهدوا لقد كان فيها راغباً ، وذلك أنه كان يحض الناس على الخروج إلى بدر ، فنهش فمنعه ذلك من الخروج .

وروى أنه ضرب لسعد بن مالك الساعدي بسمه وأجره ، وكان تجهز إلى بدر ، ففرض بالمدينة ، فمات خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصى إليه عليه السلام .
وروى أنه ضرب لرجلين آخرين من الأنصار ولم يسمهما الواقدي وقال : هؤلاء الأربعة غير مجع عليهم كما جماعهم على الثمانية .

قال : وقد اختلف : هل ضرب بسمهم في الغنيمة لقتلى بدر ؟ فقال الأكثرون : لم يضرب لهم ، وقال بعضهم : بل ضرب لهم ؛ حدثني ابن أبي سبرة ، عن يعقوب بن زيد ، عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله ضرب لشهداء بدر أربعة عشر رجلا . قال : وقد قال عبد الله ابن سعد بن خيثمة : أخذنا سهم أبي الذي ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله حين

قسم الغنائم ، وحمله إلينا عويمر بن ساعدة . قال : وقد روى السائب بن أبي لُبابة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله أسهم لبشر بن عبد المنذر ، قال : وقد قدم بسهمه علينا معن بن عدى .

قال الواقدي : وكانت الإبل التي أصابوا يومئذ مائة وخمسين بعيراً ، وكان معه آدم كثير ، حملوه للتجارة ، ففعله المسلمون يومئذ ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء ، فقال بعضهم : مالنا لا نرى القطيفة ! ما نرى رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أخذها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَّ ﴾ ^(١) . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : يا رسول الله ، إن فلانا غلّ قطيفة ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله الرجل ، فقال : لم أفعل ، فقال الدالّ : يا رسول الله ، احفروا هاهنا ، فحفرنا فاستخرجت القطيفة ، فقال قائل : يا رسول الله ، استغفر لفلان مرتين ؛ أو مرارا ، فقال عليه السلام : دعونا من أبي حرّ .

قال الواقدي : وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفراس ، وكان جل أبي جهل فيما غنموه ، فأخذ النبي صلى الله عليه وآله ، فلم يزل عنده يضرب في إبله ويغزو عليه حتى ساقه في هدى الحديدية ، فسأله يومئذ المشركون الجمل بمائة بعير ، فقال : لولا أنا سميناه في الهدى لفعلنا .

قال الواقدي : وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله صفيّ ^(٢) من الغنيمة قبل القسمة ، فتنفل سيفه ذا الفقار ، يومئذ ، كان لنبى بن الحجاج . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد غزا إلى بدر بسيف وهبه له سعد بن عباد يقال له العَصْب .

قال : وسمعت ابن أبي سبرة ، يقول : سمعت صالح بن كيسان ، يقول : خرج رسول

(١) سورة آل عمران ١٦١

(٢) الصفي من الغنيمة : نصب الرئيس

الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وما معه سيف ، وكان أول سيف قلده سيف منبه بن الحجاج غنمه يوم بدر .

وقال البلاذري : كان ذو الفقار للعاص بن منبه بن الحجاج ، ويقال : لمنبه ، ويقال لشيبة ، والتثبت عندنا أنه كان للعاص بن منبه .

قال الواقدي : وكان أبو أسيد الساعدي إذا ذكر الأرقم بن أبي الأرقم ، يقول : ما يوحى منه بواحد ، فيقال : ما هذا هو ؟ فيقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين أن يردوا يوم بدر ما في أيديهم من المغنم ، فرددت سيف أبي عائد الخزومي - واسم السيف المرزبان ، وكان له قيمة وقدر - وأنا أطمع أن يرد إلى ، فكلم الأرقم رسول الله صلى الله عليه وآله فيه - وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يمنع شيئاً يسأله - فأعطاه السيف . وخرج بنى له يفعة ^(١) ، فاحتمله الغول ، فذهبت به متوركة ظهرا ، فقيل لأبي أسيد : وكانت الغيلان في ذلك الزمان ؟ فقال : نعم ، ولكنها قد هلكت ، فلقى بنى الأرقم بن أبي الأرقم ، فبهش ^(٢) إليه باكياً مستجيراً به ، فقال : من أنت ؟ فأخبره ، فقالت الغول : أنا حاضنته ، فلها عنه والصبي يكذبها ، فلم يرجع عليه حتى الساعة ، فخرج من دارى فرس لى ، فقطع رسنه ، فلقى الأرقم بالغابة فركبه ؛ حتى إذا دنا من المدينة أفلت منه فتعذر إلى أنه أفلت منى ، فلم أقدر عليه حتى الساعة .

قال : وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر سيف العاص بن منبه ، فأعطاه ، قال : وأخذ عليه السلام بماليك حضروا بدرًا ، ولم يسمهم لهم وهم ثلاثة أعبد ، غلام لحاطب بن أبي بلتعة ، وغلام لعبد الرحمن

(١) غلام يفع ويفعة ، إذا كان متزعزعا .

(٢) بهش لماله : خف لماله .

ابن عوف، و غلام لسعد بن معاذ، واستعمل صلى الله عليه وآله شقران غلامه على الأسرى، فأخذوا من كل أسير ما لو كان حُرًّا ما أصابه في المقسم .

وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، قال : رميت سهيل بن عمرو يوم بدر فقطعت نساءه ، فاتبعت أثر الدم حتى وجدته قد أخذه مالك بن الدخشم ، وهو ممسك بناصيته ، فقلت : أسيرى رميته ! فقال : أسيرى أخذته ! فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذه منا جميعا ، وأفلت سهل الرِّوحاء ، فصاح عليه السلام بالناس ، نخرجوا في طلبه ، فقال صلى الله عليه وآله : مَنْ وجده فليقتله ، فوجده هو صلى الله عليه وآله فلم يقتله .

قال الواقدي : وأصاب أبو بردة بن نيار أسيراً من المشركين ، يقال له معبد ابن وهب ، من بني سعد بن ليث فلقبه عمر بن الخطاب وكان عمر يحضّ على قتل الأسرى ، لا يرى أحداً في يديه أسير إلا أمر بقتله ، وذلك قبل أن يتفرق الناس ، فلقبه معبد وهو أسير مع أبي بردة ، فقال : أترون يا عمر أنكم قد غلبتم ! كلاً واللات والعزى ! فقال عمر : عباد الله المسلمين ، أتتكلم وأنت أسير في أيدينا ! ثم أخذه من أبي بردة فحضر عنقه - ويقال : إن أبا بردة قتله .

قال الواقدي : وروى أبو بكر بن إسماعيل ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد ، قال : قال النبي صلى الله عليه وآله يومئذ : « لا تخبروا سعدا بقتل أخيه ، فيقتل كل أسير في أيديكم » .

قال الواقدي : ولما جىء بالأسرى كره ذلك سعد بن معاذ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : كأنه شقّ عليك أن يؤسروا ! قال : نعم يا رسول الله ، كانت أولاً ،

وقعة التقينا فيها بالمشرّكين فأُحببتُ أن يُذلّهم الله ، وأن يشخن فيهم القتل .
 قال الواقديّ : وكان النّضر بن الحارث أسره المقداد يومئذ ، فلمّا خرج رسول الله
 صلى الله عليه وآله من بدر ، فسكان الأثيّل عُرض عليه الأسرى ، فنظر إلى النّضر بن
 الحارث فأبده البصر ، فقال لرجل إلى جنبه : محمد والله قاتلي ! لقد نظر إلىّ بعينين فيهما
 الموت ! فقال الذي إلى جنبه : والله ما هذا منك إلا رعب ، فقال النضر لمصعب بن عمير :
 يا مصعب ، أنت أقرب من هاهنا بي رجماً ؛ كلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي ، هو
 والله قاتلي إن لم تفعل . قال مصعب : إنك كنت تقول في كتاب الله كذا كذا ، وتقول
 في نبيّه كذا وكذا ، قال : يا مصعب ؛ فليجعلني كأحد أصحابي . إن قتِلوا قتلتي ، وإن منّ عليهم
 منّ عليّ . قال مصعب : إنك كنت تعذب أصحابه ، قال : أما والله لو أسرتك قریش ما قتلتي
 أبداً وأنا حيّ . قال مصعب : والله إني لأراك صادقاً ، ولكن لست مثلك قطع
 الإسلام اليهود .

قال الواقديّ : وعرضت الأسرى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فرأى النّضر
 ابن الحارث ، فقال : اضربو عنقه ، فقال المقداد : أسيري يا رسول الله ! فقال اللهم أغني
 المقداد من فضلك ، قم يا عليّ فاضرب عنقه ، فقام عليّ فضرب عنقه بالسيف صبراً ، وذلك
 بالأثيّل ، فقالت أخته ^(١) :

ياراكبا إن الأثيّلَ مَظِنَّةٌ مِنْ ضُيُوحِ خَاسَةِ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ ^(٢)
 بَلَّغْ بِهِ مَيِّتًا فَإِنَّ تَحْيِيَّةً مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا الرَّكَائِبُ تَحْفِقُ
 مَنَى إِلَيْهِ وَعِبرَةٌ مَسْفُوحَةٌ جَادَتْ لِمُأَيِّحَهَا ، وَأُخْرَى تَحْنُقُ

(١) واسمها قتيلة ، ذكرها التبريزي في الحماسة .
 (٢) الأبيات في ديوان الحماسة ٣ : ١٧ — بشرح التبريزي

فأيسمعن النضر إن ناديتُهُ إن كان يسمع مَيِّت أو ينطقُ
ظَلَّتْ سيوفُ بنى أبية تنوشُهُ لله أرحامُ هنالك تمزقُ !^(١)
صبراً يقاد إلى المدينة راعماً رَسَفَ المقيّد وهو عانٍ موثقُ^(٢)
أحمدُ ولأنتَ تجلُ نجبية في قومها، والفحلُ فحلٌ معرقُ^(٣)
ما كان ضررُك لو مننتَ وربّما منّ الفتى وهو المغيظُ المحجّقُ
والنضر أقربُ مَنْ قتلْتَ وسيلةً وأحقّهم إن كان عتق يُعتقُ

قال الواقدي: وروى أن النبي صلى الله عليه وآله لما وصل إليه شعرها رق له، وقال: « لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلتها » .

قال الواقدي: ولما أسير سهيل بن عمرو، قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، انزع ثيبتيه يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهه ». فقام سهيل بن عمرو بمكة حين جاءه وفاة النبي صلى الله عليه وآله بخطبة أبي بكر بالمدينة، كأنه كان يسمعها، فقال عمر حين بلغه كلام سهيل: أشهد أنك رسول الله - يريد قوله صلى الله عليه وآله: « لعله يقوم مقاماً لا تكرهه » .

قال الواقدي: وكان على عليه السلام يحدث، فيقول: أتى جبريل النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر، فخيّره في الأسرى أن يضرب أعناقهم، أو يأخذ منهم الفداء. ويستشهد من المسلمين في قابل عدّتهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه، وقال: هذا جبريل يختاركم في الأسرى، بين أن تضرب أعناقهم أو تؤخذ منهم الفدية ويستشهد.

(١) الحماسة: « تشقق » (٢) لم يرد في رواية الحماسة .
(٣) في الحماسة: « ضن كريمة » قال في شرحه: « ضن نجية » أى ولها . ومعرق: له عرق في الكرم .

منكم قابلاً عدّتهم . قالوا : بل نأخذ الفدية ونستعين بها ، ويستشهد منا مَنْ يدخل الجنة ، فقبل منهم الفداء ، وقتل من المسلمين قابلاً عدّتهم بأحد .

قلت : لو كان هذا الحديث صحيحاً لما عوتبوا ، ف قيل لهم : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ﴾ (١) ، ثم قال : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۖ ﴾ (٢) ، لأنه إذا كان خيرهم ، فقد أباحهم أخذ الفداء ، وأخبرهم أنه حسن ، فلا يجوز فيما بعد أن ينكره عليهم ، ويقول إنه قبيح .

قال الواقدي : لما حبس الأسرى وجعل عليهم شُقران مولى رسول الله صلى الله عليه وآله طمعوا في الحياة ، فقالوا : لو بعثنا إلى أبي بكر ! فإنه أوصل قريش لأرحامنا ! فبعثوا إلى أبي بكر ، فأتاهم فقالوا : يا أبا بكر ، إنّا فينا الآباء والأبناء والإخوان ، والعمومة وبنى العم ، وأبعدنا قريب ، كلم صاحبك فليمنّ علينا ويفادنا ، فقال : نعم إن شاء الله ، لا آلوكم خيراً . ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله . قالوا : وابعثوا إلى عمر بن الخطاب ، فإنه من قد علمتم ، ، ولا يؤمن أن يفسد عليكم لعله يكفّ عنكم ! فأرسلوا إليه ، فجاءهم فقالوا له مثل ما قالوا لأبي بكر ، فقال : لا آلوكم شراً ! ثم انصرف إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فوجد أبا بكر عنده ، والناس حوله ، وأبو بكر يُليّنّه ويفشاه ، ويقول : يا رسول الله ، بأبي أنت وأُمّي ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم ، وأبعدهم عنك قريب ! فامنن عليهم ، منّ الله عليك ، أو فادهم قوةً لاهسين ، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك ! ثم قام فتنحى ناحيةً ، وسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يجبه ، فجاء عمر فجلس مجلس أبي بكر ، فقال يا رسول الله ، هم أعداء الله ، كذبوك

وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم، فهم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة، يوطيء الله بهم الإسلام، ويدلّ بهم الشُّرك! فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجبه، وعاد أبو بكر إلى مقعده الأول، فقال: بأبي أنت وأمي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم، وأبعدهم منك قريب! فامنن عليهم أوفادهم. هم عشيرتك وقومك لا تكن أول من يستأصلهم، وأن يهديهم الله خير من أن يهلكهم. فسكت صلى الله عليه وآله عنه فلم يردّ عليه شيئاً، وقام ناحية. فقام عمر فجلس مجلسه، فقال: يا رسول الله، ما تنتظر بهم! اضرب أعناقهم، يوطيء الله بهم الإسلام، ويدلّ أهل الشرك، هم أعداء الله، كذبوك وأخرجوك يا رسول الله، اشف صدور المؤمنين، لو قدرُوا منّا على مثل هذا ما أقالونا أبداً. فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يجبه، فقام ناحية، فجلس وعاد أبو بكر، فكلّمه مثل كلامه الأول فلم يجبه، ثم تنحى، فجاء عمر فكلّمه بمثل كلامه الأول فلم يجبه، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخل قُبَّته، فمكث فيها ساعة، ثم خرج، والناس يخوضون في شأنهم، يقول بعضهم: القول ما قال أبو بكر، وآخرون يقولون: القول ما قال عمر. فلما خرج قال للناس: ما تقولون في صاحبيكم هذين؟ دعوها فإنّ لها مثلاً، مثل أبي بكر في الملائكة كميكائيل ينزل برضا الله وعفوه على عباده، ومثله في الأنبياء كمثّل إبراهيم كان ألين على قومه من العسل، أو قد له قومه النار فطرحوه فيها، فما زاد على أن قال: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١) وقال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) وكعيسى إذ يقول: ﴿إِنْ تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣). ومثل عمر في الملائكة كمثّل جبريل ينزل بالسَّخَط من الله والثَّغْمَة على أعداء الله، ومثله في الأنبياء كمثّل نوح، كان أشدّ على قومه من الحجارة، إذ يقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى

(١) سورة الأنبياء ٦٧.

(٢) سورة إبراهيم ١٤.

(٣) سورة المائدة ١١٨.

الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿١﴾ فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعاً ،
ومثل موسى إذ يقول : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى
يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٢) وَإِنَّ بِكُمْ عَقِيلَةً ، فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء الا بفداء
أو ضربة عنق . فقال عبدُ الله بن مسعود : يا رسولَ الله ، إلّا سهيل بن بيضاء .

قال الواقدي : هكذا روى ابن أبي حبيبة ، وهذا وهم ، سهيل بن بيضاء مسلم من
مهاجرة الحبشة ، وشهد بدرًا ، وإنما هو أخ له . ويقال له سهيل . قال : قال عبد الله بن
مسعود : فإني رأيته يُظهر الإسلام بمكة - قال : فسكت النبي صلى الله عليه وآله ، قال
عبد الله : فما مرت على ساعة قط كانت أشدّ علىّ من تلك الساعة ، جعلت أنظر إلى
السماء أتخوّف أن تسقط على الحجارة لتقدّم بين يدي الله ورسوله بالكلام ، فرفع رسول
الله صلى الله عليه وآله رأسه ، فقال : «إِلَّا سُهَيْلُ بْنُ بِيضَاءَ» ، قال : فما مرت على ساعة
أقرّ لعيني منها ، إذ قالها رسول الله صلى الله عليه وآله . ثم قال : « إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَشْدَدَ
الْقَلْبَ حَتَّى يَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحَجَارَةِ ، وَإِنَّهُ لَيَكِيلُ الْقَلْبَ حَتَّى يَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ الزَّبَدِ » .
فقبل الفداء ثم قال بعد : « لو نزل عذاب يوم بدر لما نجا منه إلّا عمر » ، كان يقول : أقتل
ولا تأخذ الفداء . وكان سعد بن معاذ يقول : أقتل ولا تأخذ الفداء .

قلت : عندى فى هذا كلام ، أما فى أصل الحديث فلأن فيه أن رسول الله صلى الله
عليه وآله قال ، ومثله كعيسى إذ قال : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ
فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وهذه الآية من المائدة والمائدة أنزلت فى آخر عمره ،
ولم ينزل بعدها إلّا سورة براءة ، وبدر كانت فى السنة الثانية من الهجرة ، فكيف هذا !
اللهم إلّا أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ . . . ﴾ الآيات ، قد كانت أنزلت إما بمكة أو بالمدينة قبل بدر ،

فلما جمع عثمان القرآن ضمها إلى سورة المائدة ، فلعله قد كان ذلك فينبغي أن ننظر في هذا ، فهو مشكل !

وأما حديث سُهَيْل بن بيضاء فإنه يؤهم مذهب موسى بن عمران في أن النبي صلى الله عليه وآله كان يحكم في الوقائع بما يشاء ، لأنه قيل له : احكم بما تشاء ؛ فإنك لا تحكم إلا بالحق ، وهو مذهب متروك إلا أنه يمكن أن يقال : لعله لما سكت صلى الله عليه وآله عندما قال ابن مسعود ذلك القول ، نزل عليه في تلك السكته الوحي وقيل له : إلا سهيل ابن بيضاء ، فقال حينئذ : « إلا سهيل بن بيضاء » ، كما أوحى إليه .

وأما الحديث الذي فيه : « لو نزل عذاب لما نجا منه إلا عمر » ، فالواقدي وغيره من الحديثين اتفقوا على أن سعد بن معاذ كان يقول مثل ما قاله عمر ؛ بل هو المبتدئ بذلك الرأي ، ورسول الله صلى الله عليه وآله بعد في العريش ، والمشركون لم ينفض جمعهم كل ذلك الانفضاض ؛ فكيف خص عمر بالنجاة وحده دون سعد ! ويمكن أن يقال : إنه كان شديد التأليب والتحريض عليهم ، وكثير الإلحاح على رسول الله صلى الله عليه وآله في أمرهم ، فنسب ذلك الرأي إليه لاشتهاره به ، وإن شره فيه غيره .

قال الواقدي : وحدثنى معمر عن الزُّهري ، عن محمد بن جُبَيْر بن مطعم ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : « لو كان مطعم بن عدى حياً لوهبت له هؤلاء النَّنْئى » (١) . قال وكانت لمطعم بن عدى عند النبي صلى الله عليه وآله يدٌ أجاره حين رجع من الطائف .

(١) قال ابن الأثير في النهاية ٤ : ١٢٤ : « يعنى أسارى بدر ، واحدهم تنن ؛ كزمن وزمنى ، سمام . تننى لكفرهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ .

قال الواقديّ: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهريّ، عن سعيد بن المسيّب، قال: أمّن رسول الله صلى الله عليه وآله من الأسرى يوم بدر أبو عزة عمرو بن عبد الله بن حمير الجُمَحِيّ - وكان شاعرا -، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال له: إن لي خمس بنات، ليس لهنّ شيء، فتصدّق بي عليهنّ يا محمد، ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك. وقال أبو عزة: أعطيت موثقا ألاّ أقاتلك، ولا أكرّ عليك أبدا. فأرسله رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما خرجت قريش إلى أحد، جاء صفوان بن أميّة، فقال: اخرج معنا، قال: إني قد أعطيت محمدا موثقا ألاّ أقاتله، ولا أكرّ عليه أبدا. وقد منّ عليّ ولم يمنّ عليّ غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء. فضمن له صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل؛ وإن عاش أعطاه مالا كثيرا لا يأكله عياله. فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها، ثم خرج مع قريش يوم أحد، فأسير ولم يؤسّر غيره من قريش، فقال: يا محمد، إنما خرجت كرها ولى بنات، فامننّ عليّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أين ما أعطيتني من العهد والميثاق! لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: سخرت بمحمد مرتين»^(١). فقتله.

قال: وروى سعيد بن المسيّب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ: «إنّ المؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين، يا عاصم بن ثابت، قدّمه فاضرب عنقه»، فقدّمه عاصم فاضرب عنقه.

قال الواقديّ: وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر بالقُلب أن تغوّر^(٢) ثم أمر بالقتلى، فطرحوا فيها كلّهم إلاّ أميّة بن خلف فإنه كان مسيما^(٣) انتفخ من يومه. فلما أرادوا أن يلقوه ترايل لحه، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: اتركوه^(٤).

(٢) تغوّر: تملا بالتراب.

(٤) مغازى الواقدي ١٠٦.

(١) مغازى الواقدي ١٠٥.

(٣) المسمن: السمين خلقه.

وقال ابن إسحاق : انتفح أمية بن خلف في درعه حتى ملأها ؛ فلما ذهبوا يجرّ كونه
تزايل ، فأقروه وألقوا عليه التراب والحجارة ما غيَّبه ^(١) .

قال الواقدي : ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عتبة بن ربيعة يجرّ إلى القلب -
وكان رجلاً جسيماً ، وفي وجهه أثر الجدرى - فتغيّر وجه ابنه أبي حذيفة بن عتبة ، فقال له :
النبي صلى الله عليه وآله : مالك ! كذاك ساءك ^(٢) ما أصاب أباك ! قال : لا والله يا رسول الله ،
ولكني رأيت لأبي عقلاً وشرفاً ؛ كنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما أخطأه
ذلك ، ورأيت ما أصابه غاظني . فقال أبو بكر : كان والله يا رسول الله أبقى في العشيرة من
غيره ، ولقد كان كارهاً لوجهه ، ولكن الحين ومصارع السوء . فقال رسول الله صلى الله
عليه وآله : « الحمد لله الذي جعل خدّ أبي جهل الأسفل وصرعه وشفا ناسه » . فلما توافوا
القلب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطوف عليهم وهم مصرّعون ، جعل أبو بكر
يخبرهم بهم رجلاً رجلاً ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يحمدهم ويشكرهم ويقول : الحمد لله الذي
أنجز لي ما وعدني ! فقد وعدني إحدى الطائفتين ، ثم وقف على أهل القلب فناداهم رجلاً
رجلاً : « يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبه بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام !
هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً ! بش القوم كنتم لنبيكم !
كذبتوني وصدقتني الناس ، وأخرجتموني وآوانى الناس ، وقالتتموني ونصرتني الناس ،
فقالوا : يا رسول الله ، أتنادى قومًا قد ماتوا ! فقال : « لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق » ^(٣) .
وقال ابن إسحاق في كتاب " المغازي " : إن عائشة كانت تروى هذا الخبر ، وتقول :
فالناس يقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « لقد سمعوا ما قلت لهم » ،
وليس كذلك ، إنما قال : « لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق » ^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٩ . (٢) ابن هشام : « قد دخلك من أمر أبيك شيء » .

(٣) مغازي الواقدي ١٠٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٢ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٠ .

ثم مكث ساعة ، وقال : قوموا ثلاثكم . فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له : وأين صاحبك ؟ قال : يا رسول الله أنا الذي كنت أجيبك الليلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لحفظك الله ! فبات ذكوان يحرس المسامين تلك الليلة ، حتى كان آخر الليل فارتحل ^(١) .

قال الواقدي : وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى العصر بالأثيل ، فلما صلى ركعة تبسم ، فلما سلم سئل عن تبسمه فقال : مرّ بي ميكائيل وعلى جناحه النّفع ، فتبسم إلى ، وقال : إني كنت في طلب القوم ، وأتاني جبريل على فرس أني معقود الناصية ، قد عمّ ثنيّته الغبار فقال : يا محمد إنّ ربّي بعثني إليك ، وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى ، فهل رضيت ؟ فقلت : نعم ^(٢) .

قال الواقدي : وأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالأسرى ، حتى إذا كان بعرق الظّبية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح أن يضرب عنق عُقبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وكان أسره عبد الله بن سامة العجلانيّ ، فجعل عقبة يقول : يا وليّ ! علام أقتل يا معشر قريش من بين من ها هنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لعداوتك لله ولرسوله ، فقال : يا محمد ، منك أفضل ، فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتنّي ، وإن مننت عليهم مننت عليّ ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدكم ، يا محمد منّ للصبيّة ؟ فقال : النار ، قدّمه يا عاصم ، فأضرب عنقه ، فقدمه عاصم فضرب عنقه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : بئس الرجل كنت والله ما علمتُ كافراً بالله وبرسوله ، وبكتابه مؤذياً لنبيه ، فأحمد الله الذي قتلك وأفرّ عيني منك ^(٣) .

قال محمد بن إسحاق : وروى عكرمة مولى ابن عباس ، عن أبي رافع ، قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد فشا فينا أهل البيت ، فأسلم العباس ،

(٢) مغازي الواقدي ١٠٧ .

(١) مغازي الواقدي ١٠٧ .

(٣) مغازي الواقدي ١٠٧ ، ١٠٨ .

وأسمت أم الفضل زوجها ، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم ، فكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثير متفرق في قومه ؛ وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكذلك كانوا صنعوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً ، فلما جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قريش ، كبتته (١) الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً .

قال : وكنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل القداح (٢) ، أنحتهما في حُجرة زمزم ، فوالله إني لجالس أنحت قداحي ، وعطيتني أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرّ رجله بشرّ ، حتى جلس إلى طنب (٣) الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال للناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب قد قديم - وكان شهد مع المشركين يدبراً - فقال أبو لهب : هلمّ يا ابن أخي فعندك والله الخبر ، قال : فجلس إليه والناس قيام حوله ، فقال : يا ابن أخي ، أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال : لا شيء ، والله إن هو إلا أن لقيناهم فذبحناهم أكتافنا ، فقتلونا كيف شاءوا ، وأسرونا كيف شاءوا ، وإيم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجلاً بيضا على خيل يلق بين السماء والأرض . لا والله ما تبقى (٤) شيئاً ، ولا يقوم لها شيء . قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة ، ثم قلت : تلك والله الملائكة ، قال : (٥) فرقع أبو لهب يده ، فضرب بي الأرض ثم برك على يضربي (٥) ، وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذته فضربتني على (٦) رأسه ، فشجته شجة منكراً ، وقالت : استضعفته إذ غاب

(١) كبتته الله : ذله وأخزاه .

(٢) ابن هشام : الأفداح . (٣) طنب الحجرة : طرفها .

(٤) ابن هشام : « ما تلقى شيئاً » ، أي ما تبقى شيئاً .

(٥) - العسيرة في ابن هشام : « فرقع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربة شديدة » : قال : وثأورته ، فاحتملني فضرب بي الأرض ، ثم برك على يضربي . وثأورته ، أي وثبتت إليه .

(٦) ابن هشام : « فضربته به ضربة قلعت في رأسه شجة منكراً » ، وقلعت ، أي شقت .

سيده ، فقام موليا ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال ، حتى رماه الله بالعدسة^(١) فقتلته^(٢) .

ولقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثا وما يدفناه ، حتى أنتن في بيته - وكانت قريش تتقى العدسة وعدواها ، كما يتقى الناس الطاعون - حتى قال لها رجل من قريش : ويحك ! ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تغيبانه ! قالا : إننا نخشى هذه القرحة ، قال : فانطلقا وأنا معكما ، فوالله ما غسلوه إلا قذفا عليه بالماء من بعيد ، ما يمسونه ؛ وأخرجوه فألقوه بأعلى مكة إلى كنان هناك ، وقذفوا عليه بالحجارة حتى واروه .

قال محمد بن إسحاق : فحضر العباس بدرا ، فأسر فيمن أسره ، وكان الذي أسره أبو اليسر كعب بن عمرو أحد بني سامة ، فلما أمسى القوم والأسارى محبوبون في الوثاق ، وبات رسول الله صلى الله عليه وآله تلك الليلة ساهرا ، فقال له أصحابه : مالك لا تنام يا رسول الله ؟ قال : « سمعت أنين العباس من وثاقه » ، فقاموا إليه فأطلقوه ، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله^(٣) .

قال : وروى ابن عباس رحمه الله ، قال : كان أبو اليسر رجلا مجموعا ، وكان العباس طويلا جسيما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا أبا اليسر ، كيف أسرت العباس ؟ قال : يا رسول الله ، لقد أعانني عليه رجل مارأيت من قبل ، من هيئته كذا ، قال صلى الله عليه وآله : « لقد أعانك عليه ملك كريم » .

قال محمد بن إسحاق : قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله في أول الواقعة ، فنهى أن يقتل أحد من بني هاشم ، قال : حدثني بذلك الزهري ، عن عبد الله بن ثعلبة حليف بني زهرة ، قال : وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس ، عن بعض أهله ، عن عبد الله بن عباس رحمه الله ،

(١) العدسة ، قال أبو ذر الخشني : « هي قرحة فائقة كالطاعون ، وقد عدس الرجل ، إذا أصابه ذلك » .

(٢) الخبر إلى هنا في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٩ ، ٢٩١ .

(٣) تاريخ الطبري ٢ : ٤٦٢ (طبعة المعارف) ، والأغانى ٤ : ٢٠٥ ، ٢٠٦ (طبعة دار الكتب)

قال : وقال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه : إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا ، لأحاجة لنا بقتلهم ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكرها ، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة : أقتل آباءنا وإخواننا وعشائرننا ونترك العباس ! والله لئن لقيته لألحمنه^(١) السيف ، فسمعها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص . يقول عمر : والله إنه لأول يوم كنتاني فيه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي حفص - أضرِبْ وجهُ عم رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق ، قال : فكان أبو حذيفة يقول : والله ما أنا بأمنٍ من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً أبداً إلا أن يكفرها الله عني بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيداً^(٢) .

قال محمد بن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لما استشار أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ في أمر الأسارى ، غلظ عمر عليهم غلظة شديدة ، فقال : يا رسول الله أطعني فيما أشير به عليك ، فإني لا آلوك نصيحاً ، قدّم عمك العباس فاضرب عنقه بيدك ، وقدّم عقيلاً إلى عليّ أخيه يضرب عنقه ، وقدّم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله ، قال : فكره رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك ولم يعجبه .

قال محمد بن إسحاق : فلما قدم بالأسرى إلى المدينة قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

(١) لألحمنه ، أي لأطعن لحمه بالسيف ، ولأخاطبته ، وقال ابن هشام : لألحمنه بالسيف ، أي لأضربه به في وجهه .
(٢) تاريخ الطبري ٢ : ٤٥٠ طبعة المعارف ، وسيرة ابن هشام .

أَفَدَّ نَفْسَكَ يَا عَبَّاسَ وَابْنِي أَخَوَيْكَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَحَلِيفَتَكَ عُقْبَةَ بْنَ عَمْرٍو ، فَإِنَّكَ ذُو مَالٍ ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ اسْتَكْرَهُونِي ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ ، إِنْ يَكُنْ مَا قُلْتَ حَقًّا فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِيكَ بِهِ ، وَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا ، فَافْتَدِ نَفْسَكَ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَخَذَ مِنْهُ عَشْرِينَ أَوْقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ أَصَابَهَا مَعَهُ حِينَ أُسِرَ ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، احْسِبْهَا لِي مِنْ فِدَائِي ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللَّهُ مِنْكَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِي مَالٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي وَضَعْتَهُ بِمَكَّةَ حِينَ خَرَجْتَ عِنْدَ أُمِّ الْفَضْلِ بِنْتِ الْحَارِثِ ، وَلَيْسَ مَعَكُمْ أَحَدٌ ، ثُمَّ قُلْتَ : إِنْ أَصِيبْتُ فِي سَفَرِي هَذَا فَلِلْفَضْلِ كَذَا وَكَذَا ، وَلِعَبْدِ اللَّهِ كَذَا وَكَذَا ، وَلَقُمْتُ كَذَا وَكَذَا ! فَقَالَ الْعَبَّاسُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا عَلِمَ بِهَذَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرَهَا ، وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، ثُمَّ فَدَى نَفْسَهُ وَابْنِي أَخَوِيهِ وَحَلِيفَهُ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنَ الْأَثِيلِ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَبْشِرَانِ النَّاسَ بِالْمَدِينَةِ لِحُجَّاءِ يَوْمِ الْأَحَدِ فِي الضُّحَى ، وَفَارَقَ عَبْدُ اللَّهِ زَيْدًا بِالْعَقِيقِ ، فَجَعَلَ عِيدَ اللَّهِ يَنَادِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَبْشَرُوا بِسَلَامَةِ رَسُولِ اللَّهِ وَقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ وَأَسْرِهِمْ ، قُتِلَ ابْنَارِ بَيْعَةَ ، وَابْنَا الْحِجَّاجِ ، وَأَبُو جَهْلٍ ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خُلْفٍ ، وَأَسِيرُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ذُو الْأَنْيَابِ ؛ فِي أَسْرَى كَثِيرٍ . قَالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ : فَحَمَمْتُ إِلَيْهِ فَنَحَوْتُهُ ، فَقُلْتُ : أَحَقًّا مَا تَقُولُ يَا بْنَ رَوَاحَةَ ؟ قَالَ : إِي وَاللَّهِ ، وَغَدًا يَقْدُمُ رَسُولُ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَمَعَهُ الْأَسْرَى مَقْرُونِينَ ، ثُمَّ تَتَّبِعُ دَوْرَ الْأَنْصَارِ بِالْعَالِيَةِ يَبْشِرُهُمْ ، دَارًا دَارًا ، وَالصَّبَّيَّانِ يَشْدَوْنَ مَعَهُ ، وَيَقُولُونَ : قُتِلَ أَبُو جَهْلٍ الْفَاسِقُ ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى

دُور بنى أمية بن زيد ، وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبی صلی الله عليه وآله القصواء ،
 يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلیّ صاح على راحلته : قَتِلَ عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وابنتا
 الحجاج وأبو جهل ، وأبو البختريّ وزمعة بن الأسود وأمّية بن خلف ، وأسیر سهیل بن
 عمرو ذو الأنياب فی أسرى كثيرة ، فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ، ويقولون :
 ما جاء زيد إلا فلاً ، حتى غاظ المسلمين ذلك ، وخافوا ، قال : وكان قدومُ زيد حين سَوّوا
 على رقية بنت رسول الله صلی الله عليه وآله التراب بالبيع ، فقال رجل من المنافقين
 لأسامة بن زيد : قتل صاحبكم ومنّ معه ، وقال رجل من المنافقين لأبي لُبابة بن عبد المنذر :
 قد تفرّق أصحابكم تفرّقاً لا يجتمعون معه أبداً ، وقد قتل عُمّية أصحابكم ، وقتل محمد ، وهذه
 ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا يدرى ما يقول من الرّعب ، وقد جاء فلاً ، فقال
 أبو لُبابة : كذّب الله قولك ، وقالت يهود : ما جاء زيد إلا فلاً . قال أسامة بن زيد :
 نجّثت حتى خلوتُ بأبي ، فقلت : يا أبتِ ، أحقّ ما تقول ؟ فقال إى والله حقا يا بنى ،
 فقويتُ نفسى ، فرجعت إلى ذلك المنافق ، فقلت : أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين !
 لنقدمنك إلى رسول الله صلی الله عليه وآله إذا قدم ، فليضربنّ عنقك ، فقال :
 يا أبا محمد ، إنّما هو شيء سمعت الناس يقولونه .

قال الواقديّ : فقدم بالأسرى وعليهم سُقران وهم تسعة وأربعون رجلاً الذين
 أحصوا ، وهم سبعون فى الأصل ، جمع عليه لاشك فيه ؛ إلا أنهم لم يخص سائرهم ، ولقى الناس
 رسول الله صلی الله عليه وآله بالروحاء يهنئونه بفتح الله عليه ، فلقى وجهه الخزرج ،
 فقال سلامة بن سلامة بن وقش : ما الذى تهنئونه ؟ فوالله ماقتلنا إلا مجائر ضلعا ! فنبّس النبي
 صلی الله عليه وآله فقال : يا بن أخى ، أولئك الملاء ، لو رأيتهم لهبتهم ، ولو أمروك لأطعتهم ،
 ولو رأيت فعالك مع فعالم لا حتقرتها ! وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم ! فقال سلامة :
 أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، إنّك يا رسول الله لم تزل عني معرضاً منذ كنّا بالروحاء

في بدأتنا ، فقال صلى الله عليه وآله : أمّا ماقلت للأعرابي : وقعت على ناقتك فهي حبل منك ، ففحشت وقلت مالا علم لك به ، وأمّا ماقلت في القوم ؛ فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهد بها ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله معذرتي ، وكان من عليّة أصحابه .

قال الواقديّ: فروى الزهريّ، قال . لقي أبو هند البياضيّ مولى فرّوة بن عمرو رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه حميت مملوء حيساً^(١) أهداه له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنما أبو هند رجل من الأنصار فأنكحوه ، وأنكحوا إليه » .

قال الواقديّ : ولقيه أسيد بن حضير ، فقال : يا رسول الله ، الحمد لله الذي ظفرك وأقبر عينك ، والله يا رسول الله ، ما كان تخلفني عن بدر وأنا أظنّ بك أنك تلقى عدوّاً ، ولكنني ظننت أنها العير ، ولو ظننت أنه عدوّ لما تخلفت ، فقال رسول الله : صدقت . قال : ولقيه عبد الله بن قيس بئربان^(٢) ، فقال : يا رسول الله الحمد لله على سلامتك وظفرك ، كنت يا رسول الله ليالي خرجت موروداً - أي محمّوماً - فلم تفارقني حتى كان بالأمس ، فأقبلت إليك ، فقال : آجرك الله .

قال الواقديّ: وكان سهيل بن عمرو لما كان بتنوكة بين السّقيّا ومَلَل، كان مع مالك ابن الدّخشم الذي أسره ، فقال له : خلّ سبيلي للغائط ، فقام معه ، فقال سهيل : إني أحششم فاستأخر عني ، فاستأخر عنه ، فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يده من القران ، ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدّخشم، أقبل فصاح في النّاس ، فخرجوا في طلبه ، وخرج النبيّ صلى الله عليه وآله في طلبه بنفسه، وقال : من وجده فليقتله، فوجده رسول الله

(١) الحميت : الزق يجعل فيه السمن والعسل والزيت . والحيس : تمر يخلط بسط وأقط فيعجن وبذلك شديداً حتى يمتزج ، ثم يندر نواه ، وقد يجعل فيه سويق .

(٢) توبان ، بالضم ، ذكره ياقوت ، وقال : « واد فيه مياه كثيرة ، نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر .

صلى الله عليه وآله بنفسه أخفى نفسه بين شجرات ، فأمر به فزبطت يده إلى عنقه ، ثم قرنه إلى راحلته ، فلم يركب سهيل خطوة حتى قدم المدينة^(١) .

قال الواقدي : فحدثني إسحاق بن حازم بن عبد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وآله أسامة بن زيد ، ورسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته القصوى ، فأجلسه بين يديه وسهيل بن عمرو محبوب ، ويده إلى عنقه ، فلما نظر إلى سهيل قالوا : يا رسول الله ، أبو يزيد ! قال : نعم ، هذا الذي كان يطعم الخبز بمكة .

وقال البلاذري : قال أسامة - وهو يومئذ غلام - يا رسول الله ، هذا الذي كان يطعم الناس بمكة السريد - يعني الثريد^(٢) .

قلت : هذه لثغة مقلوبة ، لأن الألف يغيب بدل السين ثاء ، وهذا أبدل الثاء سینا ، ومن الناس من يرويها : « هذا الذي كان يطعم الناس بمكة السريد » بالشين المعجمة .

قال البلاذري : وحدثني مُصعب بن عبد الله الزبيري ، عن أشياخه أن أسامة رأى سهيلاً يومئذ ، فقال : يا رسول الله هذا الذي كان يطعم السريد بمكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « هذا أبو يزيد الذي يطعم الطهام ، ولكنه سعى في إطفاء نور الله ، فأمكن الله منه » .

قال : وفيه يقول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

ياأبا يزيد رأيت سيبك واسعاً وسماء جودك تستهلّ فتمطرُ

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٤ .

قال : وفيه يقول مالك بن الدخشم^(١) ، وهو الذي أسره يوم بدر :
 أسرتُ سهيلاً فلا أبتغي به غيره من جميع الأمم
 وخندفت تعلم أن الفتى سهيلاً فتأها إذا تظلم
 ضربت بذي الشفر حتى اثنى وأكرهت نفسي على ذى العلم
 أى على ذى العلم بسكونه اللام ، ولكنه حرّ كه للضرورة ..
 وكان سهيل أعلم مشقوق الشفة العليا ، فكانت أنيابه ، بادية ، فذلك قالوا :
 ذو الأنياب .

قال الواقدي : ولما قدم بالأسرى كانت سوذة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وآله عند آل عفرأ في مناحتهم على عوف ومعوذ ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب ، قالت سوذة : فأتينا فقيل لنا : هؤلاء الأسرى قد أتى بهم ، فخرجت إلى بيتي ورسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وإذا أبو يزيد مجموعة يداه إلى عنقه في ناحية البيت ، فوالله ما ملكت نفسي حين رأيته مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت : أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ! ألا تم كراما فوالله ما راعني إلا قول رسول الله صلى الله عليه وآله من البيت : « ياسودة » ، أعلى الله على رسوله » ، فقلت : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق إني ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت .

قال الواقدي : وحدثني خالد بن إلياس ، قال : حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي جهم ، قال : دخل يومئذ خالد بن هشام بن المغيرة وأمية بن أبي حذيفة منزل أم سامة وأم سامة في مناحة آل عفرأ ، فقيل لها : أتى بالأسرى ، فخرجت فدخلت عليهم فلم تكلمهم حتى

(١) البلاذري : « مالك ابن الدخشم بن مالك بن الدخشم بن مرضخة بن غنم - وهو قول - بن عوف ابن الخزرج .

رجعت ، فتجد رسول الله صلى الله عليه وآله في بيت عائشة ، فقالت : يا رسول الله ، إن بنى عمى طلبوا أن يدخل بهم على فأضيفهم ، وأدهن رؤوسهم وألم من شعهم ، ولم أحب أن أفعل شيئاً من ذلك حتى استأمرك ، فقال صلى الله عليه وآله : « لست أكره شيئاً من ذلك ، فافعل من هذا ما بدا لك » . قال الواقدي : وحدثني محمد بن عبد الله عن الزهري ، قال : قال أبو العاص بن الربيع : كنت مستأيراً مع رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً ، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز ، وأكلوا التمر ، واتخذنا عندهم قليل والتمر زادهم ، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إلى ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد . قال : وكانوا يحملونا ويمشون .

وقال محمد بن إسحاق في كتابه : كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس . حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله زوج ابنته زينب ، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وكان ابناً لهالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد ، وكان الربيع بن عبد العزى بعلاً هذه فكانت خديجة خلته ، فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يزوجه زينب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يخالف خديجة ، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي ، فزوجه إياها ، فكان أبو العاص من خديجة بمنزلة ولدها ، فلما أكرم الله رسوله بنبوته آمنت به خديجة وبناته كلهن وصدقته وشهدن أن ما جاء به حق ودين بدينه ، وثبت أبو العاص على شركه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد زوج عتبة بن أبي إحدى ابنتيه رقية أو أم كلثوم ، وذلك من قبل أن ينزل عليه ، فلما أنزل عليه الوحي ونادى قومه بأمر الله باعدوه ، فقال بعضهم لبعض : إنكم قد فرغتم محمد من هم ، أخذتم عنه بناته وأخرجتموهن من عياله ، فردوا عليه بناته ، فاشغلوهم بهن فمشوا إلى أبي العاص بن الربيع ، فقالوا : فارق صاحبك بنت محمد ، ونحن نزوجك أي

امرأة شئت من قريش ، فقال : لاها الله ! إذن لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بها امرأة من قريش ! فكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ذكره يُثنى عليه خيرا فى صهره ، ثم مشوا إلى الفاسق عتبة بن أبى لهب ، فقالوا له : طلق بنت محمد ، ونحن نكحك أى امرأة شئت من قريش ، فقال : إن أنتم زوّجتمونى ابنة أبان بن سعيد ابن العاص ، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها ، فزوّجوه ابنة سعيد بن العاص ، ففارقها ولم يكن دخل بها ، فأخرجها الله من يده كرامة لها وهوانا له ثم خلف عليها عثمان ابن عفان بعده ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله مغلوبا على أمره بمكة لا يحل ولا يحرّم ، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب وأبى العاص ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يقدر وهو بمكة أن يفرّق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه ، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وبقيت زينب بمكة مع أبى العاص ، فلما سارت قريش إلى بدر سار أبو العاص معهم ، فأصيب فى الأسرى يوم بدر ، فأتى به النبي صلى الله عليه وآله ، فكان عنده مع الأسارى ، فلما بعث أهل مكة فى فداء أسرارهم ، بعثت زينب فى فداء أبى العاص بعلها بمال ، وكان فيما بعثت به قلادة كانت خديجة أمها أدخلتها بها على أبى العاص ليلة زفافها عليه ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله رقى لها رقّة شديدة ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها ، وتردوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا ، فقالوا : نعم يا رسول الله ؛ نفديك بأنفسنا وأموالنا ، فردوا عليها ما بعثت به ، وأطلقوا لها أبا العاص بغير فداء ^(١) .

قلت : قرأت على النقيب أبى جعفر يحيى بن أبى زيد البصرى العلوى رحمه الله هذا الخبر ، فقال : أترى أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا المشهدا أما كان يقتضى التكريم والإحسان

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

أن يطيب قلب فاطمة بفدك ، ويستوهب لها من المسلمين ، أنقصر منزلتها عند رسول الله صلى الله عليه وآله عن منزلة زينب أختها وهي سيّدة نساء العالمين ! هذا إذا لم يثبت لها حق ، لا بالنحلة ولا بالإرث ، فقلت له : فدك بموجب الخبر الذي رواه أبو بكر قد صار حقاً من حقوق المسلمين فلم يجز له أن يأخذه منهم ، فقال : وفداء أبي العاص بن الربيع قد صار حقاً من حقوق المسلمين ، وقد أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله منهم ! فقلت : رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب الشريعة ، والحكم حكمه ، وليس أبو بكر كذلك ، فقال : ما قلت : هلاً أخذه أبو بكر من المسلمين قهراً فدفعه إلى فاطمة ، وإنما قلت : هلاً استنزل المسلمين عنه واستوهبه منهم لها كما استوهب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين فداء أبي العاص ! أتراه لو قال : هذه بنت نبيكم قد حضرت تطلب هذه النخلات ، أفتطيبون عنها نفسا ؟ أكانوا منعوها ذلك ! فقلت له : قد قال قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد نحو هذا ، قال : إنهما لم يأتيا بحسن في شرع التكرّم ، وإن كان ما أتياه حسناً في الدين .

قال محمد بن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لما أطلق سبيل أبي العاص أخذ عليه فيما نرى أو شرط عليه في إطلاقه ، أو أن أبا العاص وعد رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله ابتداء بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة ، ولم يظهر ذلك من أبي العاص ؛ ولأن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أنه لما خلى سبيله ، وخرج إلى مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بعده زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ، فقال لها : كونا بمكان كذا^(١) حتى تمرّ بكما زينب فتصحبانها حتى تأتياي بها ، فخرجا نحو مكة ، وذلك بعد بدر بشهر

(١) سيرة ابن هشام : « كونا ببطن يأجيج » ، ويأجيج : اسم لمكانين : أحدهما على ثمانية أميال من مكة ، وثانيهما أبعد منه ، وفيه بنى مسجد الشجرة ، وبينه وبين مسجد التنعيم ميلان .

[أو شيعه] ^(١)، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فأخذت تتجهز ^(٢)..
 قال محمد بن إسحاق: لحدثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا أتجهز للحوق بأبي،
 لقيتني هند بنت عتبة، فقالت: ألم يباغني يا بنت محمد أنك تريدن اللحوق بأبيك!
 فقلت: ما أردت ذلك، فقالت: أي بنت عم لا تفعل إن كانت لك حاجة في متاع أو فيما
 يرفق بك في سفرك أو مال تبغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك، فلا تضطني ^(٣) مني،
 فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال، قالت: وإيم الله، إني لأظنها حينئذ
 صادقة، ما أظنها قالت حينئذ إلا لتفعل، ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.
 قالت: وتجهزت حتى فرغت من جهازي، فحملني أخو بعلي وهو كنانة بن الربيع.
 قال محمد بن إسحاق: قدم لها كنانة بن الربيع بعير أفر كبته، وأخذ قوسه وكنانته، وخرج بها
 نهاراً يقود بعيرها، وهي في هودج لها، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء، وتلاومت
 في ذلك، وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال، فخرجوا في طلبها سراً حتى
 أدركوها بذي طوى؛ فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن
 أسد بن عبد العزى بن قصي، ونافع بن عبد القيس النهري، فروى عنها هبار بالرمح وهي في
 الهودج، وكانت حاملاً، فلما رجعت طرحت ماقى بطنها، وقد كانت من خوفها رأت
 دمًا وهي في الهودج، فلذلك أباح رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة دم هبار
 ابن الأسود ^(٤).

(١) من سيرة ابن هشام. وشيعه أي قريب منه.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٢٩٧، ٢٩٨.

(٣) اضطني، أي تستحي، ومنه قول الطرمح:

إذا ذكرت مسعاة والدّه اضطني ولا يضطني من شتم أهل الفضائل

(٤) سيرة ابن هشام ٢: ٢٩٨، ٢٩٩.

قلت : وهذا الخبر أيضاً قرأته على النقيب أبي جعفر رحمه الله ، فقال : إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله أباح دم هبار بن الأسود لأنه رَوَّعَ زينب فألقت ذاً بطنها ، فظاهر الحال أنه لو كان حياً لأباح دم مَنْ رَوَّعَ فاطمة حتى ألقت ذاً بطنها . فقلت : أروى عنك ما يقوله قومٌ أن فاطمة رَوَّعت فألقت الحسن^(١) ، فقال : لا ترويه عني ولا ترويه عني بطلانه ، فإنني متوقف في هذا الموضع لتعارض الأخبار عندي فيه .

قال الواقدي : فبرك حموها كنانة بن الربيع ، ونثله^(٢) كنانته بين يديه ، ثم أخذ منها سهماً فوضعه في كبد قوسه ، وقال : أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجلٌ إلا وضعت فيه سهماً ، فتكرر^(٣) الناس عنه .

قال : وجاء أبو سفيان بن حرب في جَلَّةٍ من قریش ، فقال : أيها الرجل ، اكفُفْ عنا نَبْلَكَ حتى نكلمك ، فكف . فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه ، فقال : إنك لم تحسن ولم تُصِبْ ، خرجت بالمرأة على رموس الناس علانية جهاراً ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد أبيها ، فيظن الناس إذا أنت خرجت بابلته إليه جهاراً أن ذلك عن ذلٍّ أصابنا ، وأن ذلك منا وهنٌ ، ولعمري مالنا في حبسها عن أبيها من حاجة ، وما فيها من ثأر ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس بردها سُلهاً سلاً خفياً ، فألقها بأبيها . فردها كنانة بن الربيع إلى مكة ، فأقامت بها ليالٍ حتى إذا هدأ الصوت عنها حملها على بعيرها ، وخرج بها ليلاً حتى سلَّها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدمها بها على رسول الله صلى الله عليه وآله^(٤) .

قال محمد بن إسحاق : فروى سليمان بن يسار ، عن أبي إسحاق الدؤسي ، عن

(١) ١ : « محسناً » . (٢) نثله كنانته : أخرج ما فيها .

(٣) تكرر عنه ، أي ترجع ، وفي ابن هشام : « فتكرر الناس عنه » .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٩ .

أبى هريرة ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية أنا فيها إلى غير تقيس ، فيها متاع لهم وناس منهم ، فقال : إن ظفرتم بهبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس ، فحرقوها بالنار ، حتى إذا كانت الغد بعث فقال لنا : « إني كنت قد أمرتكم بتحريق الرجلين إن أخذتموها ، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله تعالى ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما ولا تحرقوهما » (١) .

قلت : لقائل من المجبرة أن يقول : أليس هذا نسخ الشيء قبل تقضي (٢) وقت فعله ، وأهل العدل لا يخيرون ذلك ! وهذا السؤال مشكل ، ولا جواب عنه إلا بدفع الخبر إما بتضعيف أحد من رواه ، أو بإبطال الاحتجاج به لكونه خبر واحد ، أو بوجه آخر ؛ وهو أن نحيي للنبي الاجتهاد في الأحكام الشرعية كما يذهب إليه كثير من شيوخوا ، وهو مذهب القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ومثل هذا الخبر حديث براءة وإفادها مع أبي بكر ، وبعث علي عليه السلام ، فأخذها منه في الطريق ، وقرأها على أهل مكة بعد أن كان أبو بكر هو المأمور بقراءتها عليهم .

فأما البلاذري فإنه روى أن هبار بن الأسود كان ممن عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حين حملت من مكة إلى المدينة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر سراياه إن ظفروا به أن يحرقوه بالنار ، ثم قال (٣) : لا يعذب بالنار إلا رب النار ، وأمرهم إن ظفروا به أن يقطعوا يديه ورجليه ويقتلوه ؛ فلم يظفروا به ، حتى إذا كان يوم الفتح هرب هبار ، ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة . ويقال : أتاه بالجعرانة حين فرغ من أمر حنين ، فمَلَ بين يديه ، وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقبل إسلامه وأمر ألا يُعرض له ، وخرجت سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله

(٢) « مضي » .

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٢ .

(٣) ساقطة من ب .

فقلت : لا أنعم الله بك عينا ! فقاتل رسول الله صلى الله عليه وآله : « مهلاً ، فقد محال الإسلام ما قبله » !

قال البلاذرى : فقال الزبير بن العوام : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله بعد غلظته على هبار بن الأسود يطأطأ رأسه استحياءً منه وهبار يعتذر إليه ، وهو يعتذر إلى هبار أيضاً ^(١) .

قال محمد بن إسحاق : فقام أبو العاص بمكة على شركه ، وأقامت زينب عند أبيها صلى الله عليه وآله بالمدينة ، قد فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبل الفتح ، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بماله ، وأموال قريش أبضعوا ^(٢) بهامعه ، وكان رجلاً مأموناً ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فأصابوا مامعه وأعجزهم هو هاربا ، فخرجت السرية بما أصابت من ماله ؛ حتى قدمت به على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج أبو العاص تحت الليل ، حتى دخل على زينب - ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله - منزلها ، فاستجار بها فأجارته ، وإما جاء في طلب ماله الذى أصابته تلك السرية ، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وآله في صلاة الصبح ، وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس الصبح ، فلما سلم من الصلاة ، أقبل عليهم فقال : « أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ » ، قالوا : نعم ، قال : « أما واللذى نفس محمد بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعتم ، إنه يحير على الناس أذناهم » . ثم انصرف ودخل على ابنته زينب ، فقال : « أى بنية ، أكرمى مثواه ، وأحسنى قرأه ، ولا يصلن إليك ، فإنك

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣٩٨ مع اختلاف في الرواية .

(٢) ١ : « أبضعوها معه » .

لا تحيلين له . ثم بعث إلى تلك السرية الذين كانوا أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : إن هذا الرجل منا بحيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو في الله الذى أفاء عليكم ، وأنتم أحق به . فقالوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه ، فردوا عليه ماله ومتاعه ، حتى إن الرجل كان يأتى بالحبل^(١) ، ويأتى الآخر بالشنّة^(٢) ، ويأتى الآخر بالإداوة^(٣) ، والآخر بالشظاظ^(٤) ، حتى ردوا ماله ومتاعه بأسره من عند آخره ولم يفقد منه شيئاً . ثم احتمل إلى مكة ، فلما قدمها أدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ممن كان أبضع معه بشيء ، حتى إذا فرغ من ذلك ، قال لهم : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا فجزاك الله خيراً ، لقد وجدناك وفيّاً كريماً ، قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله مامنعني من الإسلام إلاّ تخوف أن تظنوا أني أردت أن آكل أموالكم ، وأذهبها فإذا سلمها الله لكم ، وأداها إليكم ؛ فإني أشهدكم أني قد أسلمت واتبعت دين محمد . ثم خرج سريعاً حتى قدم على رسول الله المدينة^(٥) .

قال محمد بن إسحاق : لحدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله ردّ زينب بعد ست سنين على أبي العاص بالنكاح الأول لم يحدث شيئاً^(٦) .

قال الواقدي : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من أمر الأسارى ، وفرّق الله عزّ وجلّ ببدر بين الكفر والإيمان ، أذلّ رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق إلاّ خضعت عنقه .

(١) ابن هشام : « بالبلو » .
(٢) الشنّة : السقاء البالى .
(٣) الإداوة : المطهرة التي يتوضأ بها .
(٤) الشظاظ : عود يشد به فم الفرارة .
(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٣ ، ٣٠٤ .
(٦) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٤ .

وقال قوم من المنافقين : ليتنا خرجنا معه حتى نصيب غنيمة . وقالت يهود فيما بينها : هو الذي نجد نفعه في كتبنا ، والله لا ترفع له راية . بعد اليوم إلا ظهرت .
وقال كعب بن الأشرف : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، هؤلاء أشرف الناس وساداتهم ، وملوك العرب وأهل الحرم والأمن قد أصيبوا . وخرج إلى مكة ، فنزل على أبي وداعة بن ضُبيرة ، وجعله يرسل هجاء المسلمين ، ورثى قتلى بدر من المشركين ، فقال :

طَحَنَتْ رَحًا بِدِرٍ لِمُهْلَكِ أَهْلِهِ	وَلِمِثْلِ بِدْرِ يُسْتَهْلَ وَيُدَمَعُ ^(١)
قَتَلَتْ سِرَاةَ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاضِهِ	لَا تَبْعُدُوا إِنَّا لِلْمُلُوكِ تُصْرَعُ ^(٢)
وَيَقُولُ أَقْوَامٌ أَذِلَّ بَعَرَهُمْ ^(٣) :	إِنْ ابْنُ أَشْرَفَ ظَلَّ كَعْبًا يَجْزَعُ
صَدَقُوا فَلَيْتَ الْأَرْضَ سَاعَةً قَتَّلُوا	ظَلَّتْ تَسِيخُ بِأَهْلِهَا وَتَصَدَّعُ ^(٤)
نُبِّئْتُ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ	فِي النَّاسِ بَيْنِي الصَّالِحَاتِ وَيَجْمَعُ ^(٥)
لِيَزُورَ يَثْرَبَ بِالْجُوعِ وَإِنَّمَا	يَسْعَى عَلَى الْحَسْبِ الْقَدِيمِ الْأَرْوَعُ ^(٦)

قال الواقدي : أملاها على عبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح وابن أبي الزناد . فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه ، وأظهروا المرائي - وقد كانوا حرّموها كيلا يشمت المسلمون بهم - وجعل الصبيان والجواري ينشدونها بمكة ، ففاحت بها قريش

- (١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٣١ ، ٤٣٢ ، وأنساب الأشراف ١ : ٢٨٤ ، والبيتان الأخيران في نسب قريش ٣٠١ .
(٢) سيرة الناس : خيارهم .
(٣) البلاذري : « غوى أمرهم » ، ابن هشام : « أسر بسخطهم » . الواقدي : « أذل بسخطهم » .
(٤) بعده في ابن هشام :

صَارَ الَّذِي أَثَرَ الْحَدِيثِ بِطَعْنَةٍ	أَوْعَاشَ أَعْمَى مَرَعَشًا لَا يَسْمَعُ
نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي الْمَغِيرَةِ كُلَّهُمْ	خَشَعُوا لِقَتْلِ أَبِي الْحَكِيمِ وَجُدُّعُوا
وَابْنَا رَبِيعَةَ عِنْدَهُ وَمُنْبَهٌ	مَا نَالَ مِثْلَ الْمَالِكِينَ وَتُبَعُ

- (٥) نسب قريش : « يبنى المكرمات » .
(٦) نسب قريش : « يزور أثرب » ، وأثرب لغة في يثرب .

على قتلها شهراً ، ولم تبقَ دارٌ بمكة إلا فيها النوح - وجَزَّ النساء شعورهنَّ ، وكان يوثى براحلة الرجل منهم أو بفرسه ، فتوقَّف بين أظهرهم ، فينوحون حولها ، وخرجن إلى السَّكك ، وضربن السُّتور في الأزقة ، [وقطن] ^(١) فخرجن إليها ينجن ، وصدَّق أهل مكة رؤيا عائكة وجهيم بن الصَّلْت ^(٢) .

قال الواقدي : وكان الذين قدموا من قريش في فداء الأسرى أربعة عشر رجلاً ، وقيل خمسة عشر رجلاً ، وكان أول من قدم المطلب بن أبي وداعة ، ثم قدم الباقون بعده بثلاث ليال .

قال : فحدثني إسحاق بن يحيى ، قال : سألت نافع بن جبير : كيف كان الفداء ؟ قال : أرفعهم أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف ، إلا قوما لا مال لهم من عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدي : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في أبي وداعة : إنَّ له بمكة ابناً كبَّساً له مال ، وهو مُغلٍ فداءه ، فلما قدم افتداه بأربعة آلاف ، وكان أول أسير افتدى ؛ وذلك أنَّ قريشا قالت لابن المطلب بن أبي وداعة - ورأته يتجهز ، يخرج إليه - : لا تعجل ؛ فإنَّا نخاف أن تفسد علينا في أسارانا ، ويرى محمد تهالكنا فيُعْلي علينا الفدية ، فإن كنت تجد فإنَّ كلَّ قومك لا يجدون من السَّعة ما تجد . فقال : لا أخرج حتى تخرجوا ، فغادعهم حتى إذا غفلوا خرج من الليل على راحلته ، فسار أربعة ليال إلى المدينة فافتدى أباه بأربعة آلاف ، فلامه قريش في ذلك ، فقال : ما كنت لأترك أبي أسيراً في أيدي القوم وأنتم مضجعون ، فقال أبو سفيان بن حرب : إن هذا غلام حدث يعجب بنفسه وبرأيه ، وهو مفسد عليكم ، إني والله غير مفتدٍ عمرو بن أبي سفيان ، ولو مكث سنة

(١) من الواقدي .

(٢) مغازي الواقدي ١١٥ ، ١١٦ .

أويرسله محمد: والله ما أنا بأعوذكم، ولسكني أكره أن أدخلكم ما يشق عليكم، ولكن
يكون عمرو كأسوتكم.

قال الواقدي: فأما أسماء القوم الذين قدموا في الأسرى، فإنه قدم من بني عبد شمس
الوليد بن عُقبة بن أبي مَعِيْط، وعمرو بن الربيع أخو أبي العاص بن الربيع. ومن بني نوفل
ابن عبد مناف جُبَيْر بن مطعم: ومن بني عبد الدار بن قُصَيّ طلحة بن أبي طلحة، ومن بني أسد
ابن عبد العزى بن قُصَيّ عثمان بن أبي حُبَيْش. ومن بني مخزوم عبد الله بن أبي ربيعة
وخالد بن الوليد وهشام بن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبي جهل. ومن
بني جَمَحْ أبي بن خَلَف وعُمَيْر بن وهب. ومن بني سهم المطلب بن أبي وداعة وعمرو بن قيس.
ومن بني مالك بن حِصْل مكرز بن حفص بن الأحنف، كل هؤلاء قدموا المدينة في فداء
أهلهم وعشائهم. وكان جبير بن مطعم يقول: دخل الإسلام في قلبي منذ قدمت المدينة
في الفداء، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ في صلاة المغرب: ﴿وَالطُّورِ﴾ وكتاب
مَسْطُورٍ، فاستمعت قراءته، فدخل الإسلام في قلبي منذ ذلك اليوم^(١).

القول في تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم

قال الواقدي: أسير من بني هاشم العباس بن عبد المطلب، أسره أبو اليسر كعب
ابن عمرو، وعَقِيل بن أبي طالب أسره عُبَيْد^(٢) بن أوس الظفري، ونوفل بن الحارث

(١) انظر مغازي الواقدي ١٣٣ - ١٤١.

(٢) « عبدة »، والصواب ما أثبتته من الواقدي وابن هشام.

ابن عبد المطلب أسره جبّار بن صخر ؛ وأسير حليف لبني هاشم من بني فهر ، اسمه عُتْبَة فهو لاء أربعة .

ومن بني المطلب بن عبد مناف السائب بن عبيد ، وعبيد بن عمرو^(١) بن علقمة ، رجُلان أسرها سامة بن أسلم بن حريش الأشملي .

قال الواقدي : حدثني بذلك ابن أبي حبيبة ، قال : ولم يقدم لها أحد ، وكانا لآمال لها ، ففك رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما بغير فدية .

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف عُقْبَة بن أبي مُعَيْط المقتول صبراً^(٢) ، على يد عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بأمر رسول الله ، أسره عبد الله بن أبي سلمة العجلاني ، والحارث بن أبي وحرّة ابن أبي عمرو بن أمية ، أسره سعد بن أبي وقاص ، فقدم في فدائه الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط فافتداه بأربعة آلاف .

قال الواقدي : وقد كان الحارث هذا لما أمر النبي صلى الله عليه وآله برّد الأسارى ، ثم أقرع بين أصحابه عليهم ، وقع في سهم سعد بن أبي وقاص الذي كان أسره أوّل مرة وعمر بن أبي سفيان ، أسره عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وصار بالقرعة في سهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأطلقه بغير فدية ، أطلقه بسعد بن النعمان بن أكال من بني معاوية ، خرج معتمراً ، فحبس بمكة ، فلم يطلقه المشركون حتى أطلق رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله عمرو بن أبي سفيان .

وروى محمد بن إسحاق في كتاب " المغازي " : أن عمرو بن أبي سفيان أسره عليّ عليه السلام يوم بدر ، وكانت أمّه ابنة عُقْبَة بن أبي مُعَيْط ، فسكت في يد رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله ، فقتل لأبي سفيان : ألا تفتدي ابنك عمراً ؟ قال : أجمع عليّ دمي ومالي اقتلوا حنظلة وأفتدي عمراً ! دعوه في أيديهم فليمسكوه مابدا لهم . فبينما هو محبوس بالمدينة ، خرج

(١) كذا في الأصول والواقدي ، وأنساب الأشراف ، وفي ابن هشام : « نعان بن عمرو » .

(٢) الواقدي : « تنل صبراً » .

سعد بن النعمان بن أكلال أخو بني عمرو بن عوف معتبرا ، ومعه امرأة ^(١) له ، وكان شيخا كبيرا لا يخشى ما صنع ^(٢) به أبو سفيان : وقد عهد قريشا ألا يعرض لحاج ولا معتبر ^(٣) ، فعدا عليه أبو سفيان ، فخبسه بمكة ، بابنه عمرو بن أبي سفيان ، وأرسل إلى قوم بالمدينة هذا الشعر :

أرھط ابن أكلال أجیبوا دعاءہ تعادتم لآسماوا السید الکھلا
فإن بنی عمرو لئام أذلہ لئن لم یفکوا عن أسیرهم الکھلا

فمشى بنو عمرو بن عوف حين بلغهم الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأخبروه بذلك ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ليفكوا به أصحابهم ، فأعطاهم إياه ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فغلى سبيل سعد . وقال حسان بن ثابت يحجب أبا سفيان :

ولو كان سعد يوم مكة مطلقا لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلى
بعض حُسام أو بصفراء تبعه تحن إذا ما أنبضت تحفر التلأ ^(٤)

وأبو العاص بن الربيع ، أسره خراش بن الصمة ، فقدم في فدائه عمرو بن أبي الربيع أخوه ، وحليف لهم ، يقال له أبو ريشة افتداه عمرو بن الربيع أيضا . وعمرو بن الأزرق افتكّه عمرو بن الربيع أيضا ، وكان قلد صار في سهم تميم مولى خراش بن الصمة ، وعقبة بن الحارث الحضرمي أسره عمارة بن حزم ، فصار في القرعة لأبي بن كعب ، افتداه عمرو بن أبي سفيان ابن أمية ، وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس ، أسره عمار بن ياسر قدم في فدائه ابن عمه . فهؤلاء ثمانية ..

(١) ابن هشام : « مرية » . (٢) ابن هشام : « ما صنع به » .

(٣) ابن هشام : لا يعرضون لأحد جاء حاجا أو معتبرا إلا بخير » .

(٤) العضب : السيف القناطع ، وكذلك الحسام .. وصفراء : أراد بها قوسا . والنبعة : شجرة تنبت بالجبال ؛ تصنع منها القسي . وتحن : تصوت . وأنبضت : مدت وترها . والأنباض : أن يحرك وتر القوس ويعد . والخبر في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف عدى بن الخيار ، أسره خراش بن الصّمة ، وعثمان ابن عبد شمس ، ابن أخى عتبة بن غزوان حليفهم^(١) ، أسره حارثة بن النّعمان ، وأبو ثور ، أسره أبو مرثد الغنوى ، فهؤلاء ثلاثة افتداهم جبير بن مطعم .

ومن بنى عبد الدار بن قصي أبو عزيز بن عمير ، أسره أبو اليسر ، ثم صار بالقرعة لحرز ابن نضلة - قال الواقدي : أبو عزيز هذا هو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه ، وقال مصعب لحرز بن نضلة : اشد يدك به ؛ فإن له أمّا بمكة كثيرة المال ، فقال له أبو عزيز : هذه وصاتك بى يا أخى ! فقال مصعب : إنه أخى دونك ، فبعثت فيه أمه أربعة آلاف ، وذلك بعد أن سألت : ما أغلى ماتفادى به قریش ؟ فقيل لها : أربعة آلاف - والأسود بن عامر ابن الحارث بن السباق ، أسره حمزة بن عبد المطلب ، فهذان اثنان قدم فى فداءهما طلحة ابن أبى طلحة .

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصي ؛ السائب بن أبى حبيش بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى ، أسره عبد الرحمن بن عوف . وعثمان بن الحويرث بن عثمان بن أسد بن عبد العزى ، أسره حاطب بن أبى بلتعة ، وسالم بن شماس أسره سعد بن أبى وقاص ؛ فهؤلاء ثلاثة قدم فى فداءهم عثمان بن أبى حبيش بأربعة آلاف لكل رجل منهم . ومن بنى تميم بن مرة ، مالك بن عبد الله بن عثمان ، أسره قطبة بن عامر بن حديدة ، فمات فى المدينة أسيراً .

ومن بنى مخزوم خالد بن هشام بن المغيرة ، أسره سواد بن غزيرة . وأمّية بن أبى حذيفة ابن المغيرة ، أسره بلال . وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وكان أفلت يوم نخلة ، أسره واقد بن عبد الله التميمي يوم بدر ، فقال له : الحمد لله الذى أمكننى منك ، فقد كنت أفلت يوم نخلة - وقدم فى فداء هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبى ربيعة ، افتدى كل واحد منهم بأربعة آلاف - والوليد بن الوليدة بن المغيرة ، أسره عبد الله بن جحش ،

(١) الواقدي : « حليف لهم » .

فقدِم في فدائه أخواه خالد بن الوليد وهشام بن الوليد ، فتمنَّع عبد الله بن جحش حتى افتكَّاه بأربعة آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يريد ألا يبلغ ذلك - يريد ثلاثة آلاف فقال خالد لهشام : إنه ليس بابن أمك ، والله لو أبي فيه إلا كذا وكذا لفعلت ، فلما افتدياه خرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة ، فأقلت ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم ، فقيل : ألا أسلمتَ قبل أن تفتدى ! قال : كرهتُ أن أسلمَ حتى أكونَ أسوةً بقومي . - قال الواقدي : ويقال إن الذي أسر الوليد بن الوليد سايط بن قيس المازني - وقيس ابن السائب ؛ أسره عبدة بن الحبحاس ، فحبسه عنده حيناً ، وهو يظنُّ أنَّ له مالا ، ثمَّ قدم في فدائه أخوه فروة بن السائب ، فأقام أيضاً حيناً ، ثمَّ افتداه بأربعة آلاف فيها عروض .

ومن بني أبي رفاعه صيفي بن أبي رفاعه بن عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ، وكان لا مال له ، أسره رجلٌ من المسلمين ، فمكث عندهم ، ثمَّ أرسله . وأبو المنذر بن أبي رفاعه بن عائذ افتدى بألفين - ولم يذكر الواقدي من أسره - وعبد الله ، وهو أبو عطاء ابن السائب بن عائذ بن عبد الله ، افتدى بألف درهم ، أسره سعد بن أبي وقاص ، والمطلب بن حنظلة بن الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم ، أسره أبو أيوب الأنصاري - ولم يكن له مال فأرسله بعد حين - وخالد بن الأعلم العقيلي ، حليف لبني مخزوم ، وهو الذي يقول :

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقَطُّرُ الدِّمَاءُ^(١)

(١) رواية ابن هشام ٢ : ٣٦٥ :

وَلَسْنَا عَلَى الْأَذْبَارِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا يَقَطُّرُ الدِّمَاءُ

وقال محمد بن إسحاق : روى أنه كان أول المهزمين^(١) ، أسره الخبّاب بن المنذر بن الجموح ، وقدم في فدائه عكرمة بن أبي جهل ، فهؤلاء عشرة .
ومن بني جُحج عبد الله بن أبيّ بن خلف ، أسره فَرَوَة بن أبي عمرو البياضى ، قدم في فدائه أبوه أبيّ بن خلف فتمنّع به فروة حيناً . وأبو عزّة عمرو بن عبد الله بن وهب ، أطلقه رسول الله صلى الله عليه وآله بغير فدية ، وكان شاعراً خبيث اللسان ، ثم قتله يوم أُحُد ، بعد أن أسره - ولم يذكر الواقدي الذى أسره يوم بدر - ووهب بن عيمير بن وهب ، أسره رفاعة بن رافع الزرقى ، وقدم أبوه عيمير بن وهب في فدائه ، فأسلم فأرسل النبي صلى الله عليه وآله له ابنه بغير فداء ، وربيعة بن درّاج بن العنيس بن وهبان^(٢) ابن وهب بن حُذافة بن جُحج ، وكان لا مال له ، فأخذ منه بشيء يسير ، وأرسل به - ولم يذكر الواقدي مَنْ أسره - والفاككة مولى أمية بن خلف ، أسره سعد بن أبي وقاص ، فهؤلاء خمسة .

ومن بني سَهْم بن عمرو أبو وداعة بن ضيّرة وكان أول أسير افتدى ، قدم في فدائه ابنه المطلب ، فافتداه بأربعة آلاف - ولم يذكر الواقدي مَنْ أسره - وفَرَوَة بن قيس بن عدى بن حذافة بن سعيد بن سهم ، أسره ثابت بن أقزم ، وقدم في فدائه عمرو ابن قيس ، افتداه بأربعة آلاف ، وحنظله بن قبيصة بن حُذافة بن سعد ، أسره عثمان ابن مظعون . والحجاج بن الحارث بن قيس بن سعد بن سهم ، أسره عبد الرحمن بن عوف ، فأقلت ، فأخذه أبو داود المازنى . فهؤلاء أربعة .

ومن بني مالك بن حنسل سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود بن نصر بن مالك ؛ أسره مالك بن الدخشم ، وقدم في فدائه مكرز بن حفص بن الأحنف ، وانتهى في فدائه إلى إرضائهم بأربعة آلاف ، فقالوا : هات المال ، فقال : نعم ، اجعلوا رجلاً مكان رجل ؛

(١) ابن هشام : « أول من وى فاراً منهزماً » . (٢) ابن هشام :: « أهبان » .

وقوم يروونها : « رجالاً مكان رجل » ، نخلوا سبيل سهيل ، وحبسوا مكرز بن حفص
سندهم ، حتى بعث سهيل بالمال من مكة . وعبد الله بن زمعة بن قيس بن نصر بن مالك ،
أسره عمير بن عوف ، مولى سهيل بن عمرو . وعبد العزى بن مشنوء بن وقدان بن قيس
ابن عبد شمس بن عبد ودّ سماء رسول الله صلى الله عليه وآله بعد إسلامه عبد الرحمن ،
أسره النعمان بن مالك . فهؤلاء ثلاثة .

ومن بنى فيهم الطفيل بن أبي قُنيص ، فهؤلاء ستة وأربعون ^(١) أسيرا .
وفي كتاب الواقديّ أنّه كان الأسارى الذين أحصوا وعرفوا تسعة وأربعين ، ولم
نجد التفصيل يلحق هذه الجملة ^(٢) .

وروى الواقدي عن سعيد بن المسيّب ، قال : كانت الأسارى سبعين ، وإنّ القتلى
كانت زيادة على سبعين إلا أنّ المعروفين من الأسرى هم الذين ذكرناهم ، والباقيون
لم يذكر المؤرخون أسماءهم .

القول في المطعمين في بدر من المشركين

قال الواقديّ : المتفق عليه ولا خلاف بينهم فيه تسعة ؛ فمن بنى عبد مناف الحارث
ابن عامر بن نوفل بن عبد منات ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس .
ومن بنى أسد بن عبد العزى ، زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، ونوفل بن
خويلد المعروف بابن العدويّة .

ومن بنى مخزوم ، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة .
ومن بنى جحج ، أمية بن خلف .

(١) عدتهم في ابن هشام « ثلاثة وأربعون » . (٢) مغازي الواقدي ١٣٣ - ١٣٦ ، وانظر
أنساب الأشراف ١ : ٣٠١ - ٣٠٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٦٤ - ٣٦٧ .

ومن بنى سَهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج .

فهؤلاء تسعة .

قال الواقدي : وكان سعيد بن المسيّب يقول : ما أطعم أحد بدر إلا قتل .

قال الواقدي : قد ذكروا عدّة من المطعمين ، اختلف^(١) فيهم ، كسهيل بن عمرو

وأبي البختري وغيرها^(٢) .

قال : حدثني إسماعيل بن إبراهيم ، عن موسى بن عتبة ، قال : أوّل مَنْ نحر لهم

أبو جهل بمز الظهران عشرا ، ثم أميّة بن خلف بعُسفان تسعا ، ثم سهيل بن عمرو بقديد

عشرا ، ثم مالوا إلى مياه من نحو البحر ضلّوا الطريق ، فأقاموا بها يوما ، فنحر لهم شيبه

ابن ربيعة تسعا ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم قيس الجحفيّ تسعا ، ثم نحر عتبة عشرا ،

ونحر لهم الحارث بن عمرو تسعا ، ثم نحر لهم أبو البختريّ على ماء بدر عشرا ، ونحر لهم مقدس

ابن ضبابة على ماء بدر تسعا ، ثم شغلّتهم الحرب .

قال الواقدي : وقد كان ابن أبي الزناد يقول : والله ما أظنّ مقيسا كان يقدر على

قلوص واحدة .

قال الواقدي : وأما أنا فلا أعرف قيسا الجحفيّ . قال : وقد روت أم بكر ، عن

المسور بن مخرمة ابنها ، قال : كان النفر يشتركون في الإطعام ، فينسب إلى الرجل الواحد

ويسكت عن سائرهم^(٣) .

وروى محمد بن إسحاق أنّ العباس بن عبد المطالب كان من المطعمين في بدر ، وكذلك

طُعيمة بن عدى بن نوفل ، كان يعتقب هو وحكيم والحارث بن عامر بن نوفل ، وكان أبو البختري

يعتقب هو وحكيم بن حزام في الإطعام ، وكان النضر بن والحارث بن كلّده بن علقمة بن

عبد مناف بن عبد الدار من المطعمين . قال : وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله يكره قتل

(١) ومغازي الواقدي : « وقد اختلف علينا فيهم » . (٢) معازي الواقدي : وغيرهم .

(٣) معازي الواقدي ١٢٣ ، ١٢٤ .

الحارث بن عامر ، قال يوم بدر : « مَنْ ظفر به منكم فليتركه لأيتام بنى نوفل » ، فقتل في المعركة ^(١) .

القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر

قال الواقدي : حدثني عبد الله بن جعفر ، قال : سألت الزهري : كم استشهد من المسلمين ببدر ؟ قال : أربعة عشر ^(٢) ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

قال : فمن بنى المطلب بن عبد مناف عبدة بن الحارث ، قتله شيبة بن ربيعة . وفي رواية الواقدي قتله عتبة ، فدفنه النبي صلى الله عليه وآله بالصفراء . ومن بنى زهرة عمير بن أبي وقاص ، قتله عمرو بن عبد ود ، فارس الأحزاب ، وعمير بن عبد ود ذو الشمالين ، حليف لبني زهرة بن خزيمة ، قتله أبو أسامة الجشمي . ومن بنى عدي بن كعب عاقل بن أبي البكير ، حليف لهم من بنى سعد بن بكر ، قتله مالك بن زهير الجشمي ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، قتله عامر بن الحضرمي ؛ ويقال : إن مهجعا أول من قتل من المهاجرين .

ومن بنى الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء ، قتله طعيمة بن عدي . وهؤلاء الستة من المهاجرين .

ومن الأنصار ، ثم من بنى عمرو بن عوف ، مبشر بن عبد المنذر ، قتله أبو ثور . وسعد ابن خيثمة ، قتله عمرو بن عبدود . ويقال طعيمة بن عدي . ومن بنى عدي بن النجار حارثة بن سراقة رماه حبان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته ، فقتله . ومن بنى مالك بن النجار ، عوف ومعوذ ابنا عفراء ؛ قتلها أبو جهل .

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٣١١ .

(٢) في مغازي الواقدي : « ثم عددهم على ، فهم هؤلاء الذين سميت » .

ومن بنى سلمة بن حزام عمير بن الحمام بن الجموح، قتله خالد بن الأعلم العقيلي - ويقال إن عمير بن الحمام أول قتيل قتل من الأنصار ، وقد روى أن أول قتيل منهم حارث ابن سراقه .

ومن بنى زريق ، رافع بن المَعْلَى ، قتله عكرمة بن أبي جهل .
ومن بنى الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث بن قسح^(١) ، قتله نوفل بن معاوية الديلي .
فهؤلاء الثمانية من الأنصار .
قال الواقدي : وقد روى عن عكرمة ، عن ابن عباس أن أنسة مولى النبي صلى الله عليه وآله قتل ببدر .

وروى [أن]^(٢) معاذ بن معص جرح ببدر ، فمات من جراحته بالمدينة ،
وأن عبيد بن السكن جرح فاشتكى جرحه ، فمات منه حين قدم^(٣) .

القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم

قال الواقدي : فمن بنى عبد شمس بن عبد مناف حنظلة بن أبي سفيان بن حرب ، قتله عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، والحارث بن الحضرمي قتله عمار بن ياسر ، وعامر بن الحضرمي قتله عاصم ابن ثابت بن أبي الأفايح ، وعمير بن أبي عمير وابنه ، موليّان لهم ؛ قتل سالم مولى أبي حذيفة منهم عمير بن أبي عمير - ولم يذكر الواقدي من قتل ابنه - وعبيدة بن سعيد بن العاص ، قتله الزبير بن العوام ، والعاص بن سعيد بن العاص ، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وعقبة بن أبي معيط ، قتله عاصم بن ثابت صبرا بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله .

(١) الواقدي : « بسحج » .

(٢) من الواقدي .

(٣) مغازي الواقدي ١٤٢ ، ١٤٣ .

وروى البلاذرى أنّ رسول الله صلى عليه وآله صلبه بعد قتله ؛ فكان أول مصلوب في الإسلام . قال : وفيه يقول ضرار بن الخطاب :

عين بكى لعقبة بن أبان فرح فهر وفارس الفرسان^(١)

وعتبة بن ربيعة ، قتله حمزة بن عبد المطلب . وشيبة بن ربيعة ، قتله عبيدة بن الحارث وحمزة وعلی ، الثلاثة اشتركوا في قتله . والوليد بن عتبة بن ربيعة ، قتله علی بن أبي طالب عليه السلام . وعامر بن عبد الله حليف لهم من أنمار ، قتله علی بن أبي طالب عليه السلام ، وقيل : قتله سعد بن معاذ ، فهو لاء اثنا عشر .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف الحارث بن نوفل ، قتله خبيب بن يساف^(٢) ، وطعيمة ابن عدی ، ويكنى أبا الريان ، قتله حمزة بن عبد المطلب في رواية الواقدي ، و قتله علی بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن إسحاق^(٣) . وروى البلاذرى رواية غريبة ، أن طعيمة بن عدی أسير يوم بدر ، فقتله النبي صلى الله عليه وآله صبراً على يد حمزة ، فهو لاء اثنان .

ومن بنى أسد بن عبد العزى زمعة بن الأسود ، قتله أبو دجانة^(٤) ، وقيل : قتله ثابت بن الجذع^(٥) ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، قتله علی بن أبي طالب عليه السلام . وعقيل بن الأسود بن المطلب ، قتله علی وحمزة ، شريكاً في قتله . قال الواقدي : وحدثنى أبو معشر ، قال : قتله علی بن أبي طالب عليه السلام وحده ، وقيل : قتله أبو داود المازني وحده . وأبو البختري ، وهو العاص بن هشام ، قتله الجذريين

(١) أسباب الأشراف ١ : ٢٩٧ ، وفيه : « عين فابكى » .

(٢) في ابن هشام : « يساف » بهزة مكسورة ، قال ابن حجر في الإصابة : « وقد تبدل تحمائية » .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٧ .

(٤) دجانة ، كناية : سماك بن خرشة . (٥) الإصابة : الجدع .

زياد ، وقيل : قتله أبو اليسر . ونوفل بن حويلد بن أسد بن عبد العزى ؛ وهو ابن العدوية ، قتله على عليه السلام ؛ فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عبد الدار بن قصي ، النضر بن الحارث بن كلدة ؛ قتله على بن أبي طالب عليه السلام صبراً بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان الذي أسره المقداد بن عمرو ، فوعد المقداد - إن استنقذه - بفداء جليل ، فمّا قدّم ليقتل ، قال المقداد : يا رسول الله ، إني ذو عيال ، وأحب الدين ، فقال : اللهم أغنِ المقداد من فضلك ! يا على ، قم فاضرب عنقه . وزيد بن مكيص مولى عمرو بن هاشم بن عبد مناف ، من عبد الدار ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام ، وقيل : قتله بلال . فهؤلاء اثنان .

ومن بنى تيم بن مرة عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام . وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان ، قتله صهيب ، فهؤلاء اثنان - ولم يذكر البلاذري عثمان بن مالك .

ومن بنى مخزوم بن يقظة ثم من بنى المغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ، أبوجهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعوذ وعوف ابنا عفراء ، وذفف^(١) عليه عبد الله بن مسعود . والعاص بن هاشم بن المغيرة ، خال عمر بن الخطاب ، قتله عمرو بن يزيد بن تميم التميمي ، حليف لهم ، قتله عمار بن ياسر ، وقيل : قتله على عليه السلام .

ومن بنى الوليد بن المغيرة ، أبوقيس بن الوليد بن الوليد ؛ أخو خالد بن الوليد ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام .

ومن بنى الفاكه بن المغيرة أبوقيس بن الفاكه بن المغيرة ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، وقيل : قتله الحباب بن المنذر .

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ١ : ٢٩٧ . (٢) ذفف عليه : أجهز .

ومن بنى أمية بن المغيرة مسعود بن أبي أمية ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام .
ومن بنى عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ثم من بنى رفاعه ، أمية بن عائذ بن
رفاعة بن أبي رفاعه . قتله سعد بن الربيع . وأبو المنذر بن أبي رفاعه ، قتله معن بن عديّ
العجلانيّ . وعبد الله بن أبي رفاعه ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام . وزهير
ابن أبي رفاعه ، قتله أبو أسيد الساعديّ . والسائب بن أبي رفاعه ، قتله عبد الرحمن
ابن عوف .

ومن بنى أبي السائب المخزوميّ - وهو صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم -
السائب بن السائب ، قتله الزبير بن العوام . والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن
عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قتله حمزة بن عبد المطلب . وحليف لهم من طيّ ، وهو
عمرو بن شيبان^(١) ، قتله يزيد بن قيس . وحليف آخر ، وهو جبار بن سفيان ، أخو
عمرو بن سفيان المقدم ذكره ، قتله أبو بردة بن نيار .
ومن بنى عمران بن مخزوم حاجز^(٢) بن السائب بن عويمر بن عائذ ، قتله على
عليه السلام .

وروى البلاذريّ أنّ حاجزاً هذا وأخاه عويمر بن السائب بن عويمر ، قتلها على
ابن أبي طالب عليه السلام^(٣) - وعويمر بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ قتله
النعمان بن أبي مالك ؛ فهؤلاء تسعة عشر .
ومن بنى جحج بن عمرو بن هصيص ، أمية بن خلف قتله حبيب بن يساف وبلال ،
شريكاً فيه .

قال الواقديّ : وكان معاذ بن رفاعه بن رافع يقول : بل قتله أبو رفاعه بن رافع .

(٢) في البلاذريّ : « جابر » .

(١) الواقديّ : « سفيان » .

(٣) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٠ .

وعلى بن أمية بن خلف ، قتله عمار بن ياسر . وأوس بن المغيرة بن لوزان ، قتله على عليه السلام ، وعثمان بن مظعون ، شركا فيه ؛ فهؤلاء ثلاثة .

ومن بنى سهم ، منته بن الحجاج ، قتله على بن أبي طالب عليه السلام ، وقيل : قتله أبو أسيد الساعدي . ونبيه بن الحجاج قتله على بن أبي طالب عليه السلام . والعاص ابن منته بن الحجاج ، قتله على عليه السلام . وأبو العاص بن قيس بن عدى بن سعد ابن سهم ، قتله أبو دجانة - قال الواقدي : وحدثني أبو معشر عن أصحابه ، قالوا : قتله على عليه السلام - وعاص بن أبي عوف بن صيرة بن سعيد بن سعد ، قتله أبو دجانة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤي ، ثم من بنى مالك بن حسل ، معاوية بن عبد قيس حليف لهم ، قتله عكاشة بن محصن . ومعبد بن وهب ، حليف لهم من كلب ، قتله أبو دجانة فهؤلاء اثنان .

فجميع من قتل ببدر في رواية الواقدي من المشركين في الحرب صبورا ، اثنان وخمسون رجلا ، قتل على عليه السلام منهم مع الذين شرك في قتلهم أربعة وعشرين رجلا . وقد كثرت الرواية أن المقتولين ببدر كانوا سبعين ، ولكن الذين عرفوا وحفظت أسماؤهم من ذكرناه ، وفي رواية الشيعة أن زمعة بن الأسود بن المطلب قتله على ، والأشهر في الرواية أنه قتله الحارث بن زمعة ، وأن زمعة قتله أبو دجانة^(١) .

القول فيمن شهد بدراً من المسلمين

قال الواقدي : كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا مع القوم الذين ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله بسهامهم وهم غائبون وعدتهم ثمانية . قال : وهذا هو الأغلب في الرواية ،

(١) انظر تسمية من قتل من المشركين ببدر في الواقدي ١٤٣ — ١٥١ .

قال : ولم يشهد بدرا من المسلمين إلا قرشي أو حليف لقرشي أو أنصاري أو حليف لأنصاري أو مولى واحد منهما ، وهكذا من جانب المشركين ، فإنه لم يشهدا إلا قرشي أو حليف لقرشي أو مولى لهم .

قال : فكانت قريش ومواليها وحلفاؤها ستة وثمانين رجلا ، وكانت الأنصار ومواليها وحلفاؤها مائتين وسبعة وعشرين رجلا ^(١) .

فأما تفصيل الأسماء من شهدا من المسلمين فله موضع في كتب الحديثين أملك به من هذا الموضع .

[قصة غزوة أحد]

الفصل الرابع : في شرح قصة غزاة أحد . ونحن نذكر ذلك من كتاب الواقدي ^(٢) رحمه الله على عادتنا في ذكر غزاة بدر ، ونضيف إليه من الزيادات التي ذكرها ابن إسحاق والبلاذري ما يقتضي الحال ذكره .

قال الواقدي : لما رجع من حضر بدرا من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة ، وكذلك كانوا يصنعون ، فلم يحرّكها أبو سفيان ولم يفرّقها لغيبة أهل العير ، ومشت أشراف قريش إلى أبي سفيان : الأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وجبير بن مطعم ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وحويطب بن عبد العزّي ؛ فقالوا : يا أبا سفيان ، انظر هذه العير التي قدّمت بها فاحتبسها ^(٣) ، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة ^(٤) قريش ، وهم طيّبوا الأنفس ، يجهزون بهذه العير جيشا كشيئا إلى محمد ، فقد

(١) مغازي الواقدي ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) أخبار غزوة أحد في مغازي الواقدي ص ١٩٧ وما بعدها .

(٣) الواقدي : « فاحتبسها » .

(٤) اللطيمة : العير تحمل الطيب وبز التجار .

ترى مَنْ من قُتل آبائنا وأبنائنا وعشائرنَا . فقال أبو سفيان : وقد طابت أنفس بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أوّل من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، ف الموتور والثائر^(١) ، وقد قُتل ابني حنظلة ببدر وأشرف قومي . فلم تزل العير موقد تجهّزوا للخروج ، فباعوها فصارت ذهباً عينا ، ويقال : إنما قالوا : ياأبا سفيان ، ثم اعزل أرباحها ، فكانت العير ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار ؛ يربحون في تجارتهم للدينار دينارا ، وكان متجرهم من الشام غزّة ، لا يعدونها إلى وكان أبو سفيان ، قد حبس عير بني زهرة ، لأنهم رجعوا من طريق بدر ، وسلم لخرمة بن نوفل ولبنى أبيه وبنى عبد مناف بن زهرة ، فأبى خمرمة أن يقبل عيره يسلم إلى بني زهرة جميعا^(٢) ، وتكلم الأحنس ، فقال : وما لعير بني زهرة من بين قريش ؟ قال أبو سفيان : لأنهم رجعوا عن قريش ، قال الأحنس : أنت أرسلت إلى أن ارجعوا فقد أحرزنا العير ؛ لا تخرجوا في غير شيء ، فرجعنا ، فأخذت بنو زهر وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة ؛ كلهم في العير .

قال الواقدي : وهذا يبين أنه إنما أخرج القوم أرباح العير . قال : وفيهم أنز ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . . . ﴾ الآية . قال : فلما أجمعوا على المسير ، قالوا : نسير في العرب فنستنصرهم ؛ فإن عبد م متخلّفين عنا ، هم أوصل العرب لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش فأجمعوا يبعثوا أربعة من قريش يسرون في العرب ، يدعونهم إلى نصرهم ؛ فبعثوا عمرو بن وهيرة بن وهب وابن الزبيري وأبا عزة الجهمي ، فأبى أبو عزة أن يسير^(٤) وقا

(١) الثائر : الذي يقوم بالثأر . (٢) : « جمعا » .

(٣) : « أنزلت » . (٤) في الواقدي : « فأطاع نفر وأبى أبو عز

على محمد يوم بدر ، وحلفت ألا أظاهر^(١) عليه عدوًّا أبدا . فمضى إليه صفوان بن أمية فقال : اخرج فأبى ، وقال : عاهدتُ محمدا يوم بدر ألا أظاهر عليه عدوًّا أبدا ، وأنا أنى له بما عاهدته عليه^(٢) ، منَّ علىَّ ولم يُمنَّ على غيرى حتى قتله أو أخذ منه الفداء . فقال صفوان : اخرج معنا ، فإن تسلم أعطك من المال ما شئت ، وإن تُقتل تكن عيالك مع عيالى . فأبى أبو عزة ، حتى كان الغد ، وانصرف عنه صفوان بن أمية آيسا منه ؛ فلما كان الغد جاءه صفوان وجبير بن مطعم ، فقال له صفوان الكلام الأول فأبى ، فقال جبير : ما كنت أظن أنى أعيش حتى يمضى إليك أبو وهب فى أمرٍ تأبى عليه ! فأحفظه ، فقال : أنا أخرج ، قال : نخرج إلى العرب يجمعها ، ويقول :

إليه بنى عبد مناة الرزّام^(٣) أنتم حماة وأبوكم حام
لا تسامونى لا يحلّ إسلام لا يعدونى نصركم بعد العام^(٤)

وخرج النفر مع أبى عزة فألبوا العرب وجمعوا ، وبلغوا ثقيفا فأوعبوا^(٥) . فلما أجمعوا المسير وتألّب من كان معهم من العرب وحضروا ، واختلفت قريش فى إخراج الظعن معهم ، قال صفوان بن أمية : اخرجوا بالظعن^(٦) فأنأ أول من فعل ، فإنه أقن أن يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر ، فإنّ العهد حديث ، ونحن قوم موتورون مستميتون ، لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه . فقال عكرمة بن أبى جهل : أنا أول من أجاب إلى ماعدوت إليه ، وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمضى فى ذلك

(١) الواقدي : « لا أظاهر » . (٢) من الواقدي .
(٣) ابن هشام ٣ : ٤ : « لميها بنى عبد مناة » . والرزّام : جمع رازم ؛ وهو الذى يثبت فى مكانه لا يبرحه ، تقول : رزم البعير ، لذا ثبت فى مكانه .
(٤) ابن هشام : « لا تعدونى » .
(٥) ب : « أرغبوا » ، وأثبت ما فى الواقدي ، وأوعبوا ، أى خرجوا للغزو .
(٦) الظعن : جمع ظعينة ؛ وهى المرأة فى اليهودج ؛ وأصل الظعينة اليهودج ، سميت المرأة به لقربها منه السفر ؛ وقيل : سميت ظعينة لأنها تظعن مع زوجها .

نوفل بن معاوية الدَّيْلِيُّ : فقال : يامعشر قريش ، هذا ليس برأى ، أن تعرّضوا حرّمكم لعدوّكم ؛ ولا آمن أن تكون الدَّيْرَةُ^(١) لهم فتفتضحوا في نسائكم . فقال صفوان : لا كان غير هذا أبدا ! فجاء نوفل إلى أبي سفيان بن حرب ، فقال له تلك المقالة ، فصانحت . هتد بنت عتبة : إنك والله سلّمت يوم بدر ، فرجعت إلى نسائك ؛ نعم نخرج فنشهد القتال ، فقد رُدّت القيان من الجحفة في سفرهم إلى بدر ، فقتلت الأُحبة يومئذ . فقال أبو سفيان : لست أخالف قريشا ، أنا رجلٌ منها ؛ ما فعلتُ فعلت . فخرجوا بالظُّعْنِ ، فخرج أبو سفيان ابن حرب بامرأتين : هند بنت عتبة بن ربيعة وأميمة بنت سعد بن وهب بن أشيم بن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين : برزة بنت مسعود الثقفي وهي أم عبد الله الأكبر والبغوم بنت المعدل من كنانة ، وهي أم عبد الله الأصغر ، وخرج طلحة بن أبي طلحة بامرأته سُلَافَة بنت سعد بن شهيد ، وهي من الأوس ، وهي أم بنيهِ : مسافع ، والحارث ، وكلاب والجلال بن أبي طلحة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بامرأته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام ، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبّه بن الحجاج ، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص - وقال محمد بن إسحاق : اسمها ريطة - وخرجت خُناص بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بني مالك بن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير ، أخى مُصعب بن عمير من بني عبد الدار ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته رَمْلَة بنت طارق بن علقمة الكنانية ، وخرج كنانة بن عليّ بن ربيعة بن عبد العزّي بن عبد شمس بن عبد مناف بامرأته أمّ حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عُوَيْف بامرأته قُتَيْلَة بنت عمرو بن هلال ، وخرج النعمان بن عمرو وجابر مسك الذئب أخوه ؛ بأمهما

(١) الدَّيْرَة : العاقبة .

(٢) من أ والواقدي .

الدُّغَيْنَةَ ، وخرج غراب بن سفيان بن عوف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية ، وهي التي رفعت لواء قريش حين سقط حتى تراجعت قريش إلى لوائها ، وفيها يقول حسان :

ولولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بالثمن البَخْسِ
قالوا: وخرج سُفيان بن عوف بعشرة من ولده ، وحشدت بنو كنانة . وكانت الأولوية يوم خرجوا من مكة ثلاثة عقودها في دار الندوة ؛ لواء يحمله سُفيان بن عوف لبني كنانة ، ولواء الأحابيش يحمله رجل منهم ، ولواء لقريش يحمله ^(١) طلحة بن أبي طلحة .

قال الواقدي : ويقال خرجت قريش ولقيها ^(٢) كلهم ؛ من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحد ، يحمله طلحة بن أبي طلحة . وهو الأثبت عندنا .

قال : وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضوى ^(٣) إليها ، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل ، وخرجوا بعدة سلاح كثير ، وقادوا مائتي فرس ، وكان فيهم سبعمائة دراع وثلاثة آلاف بعير . فلما أجمعوا على المسير كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه ، واستأجر رجلاً من بني غفار ، وشرط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره أن قريشاً قد اجتمعت ^(٤) لهسير إليك ؛ فما كتبت صانعا إذا حلوا ^(٥) بك فاصنعه . وقد وجهوا وهم ثلاثة آلاف ، وقادوا مائتي فرس ، وفيهم سبعمائة دراع ، وثلاثة آلاف بعير ، وقد أوعبوا من السلاح . فقدم الغفاري فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة ، وجده بقباء ، فخرج حتى وجد رسول الله صلى الله عليه وآله على باب مسجد قباء يركب

(١) ب : « يحمله » ، وأثبت ما في ا والواقدي .

(٢) لفها ، أى من اجتمع إليها من القبائل .

(٣) صوى إليها : انضم إليها ، وفي ا والواقدي : « انضم » .

(٤) ا : « أجمعت المسير » . (٥) ب : « خلوا » وأثبت ما في ا والواقدي .

حمارة ، فذفع إليه الكتاب ، فقرأه عليه أبي بن كعب ، واستكتم أيباً مافيه ، ودخل منزل سعد بن الربيع ، فقال : أفي البيت أحد ؟ فقال سعد : لا ، فتكلم بحاجتك ، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب ، فجعل سعد يقول : يارسول الله ، والله إنني لأرجو أن يكون في ذلك خير ، وأرجعت^(١) يهود المدينة والمنافقون ، وقالوا : ماجاء محمداً شيء يحبه ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وقد استكتم سعد بن الربيع الخبر . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من منزله ، خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه ، فقالت : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : مالك ولذاك ، لأأم لك ! قالت : كنت أستمع عليكم ، وأخبرت سعدا الخبر ، فاسترجع سعد ، وقال : لأأراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تكلم بحاجتك ! ثم أخذ يجمع لئمتها^(٢) ، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله بالجر ، وقد بكحت ، فقال : يارسول الله ، إن امرأتى سألتني عما قلت فكنتمتها ، فقالت : قد سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءت بالحديث كله - نخشيت يارسول الله أن يظهر من ذلك شيء فتظن أني أفشيت سرّك ، فقال صلى الله عليه وسلم : خلّ سبيلها . وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش . وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة ، ساروا من مكة أربعة ، فوافوا قريشا وقد عسكروا بذي طوى ، فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر ، ثم انصرفوا ولقوا قريشا ببطن رابغ ، وهو أربع ليال من المدينة ، فنسكبوا عن قريش .

قال الواقدي : فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء أخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس ثُمسين إلى مكة ، فقال أبو سفيان : أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً نخبروه بمسيرنا وعددنا^(٣) ، وحذروه منا ، فهم الآن يلزمون صياصيتهم ، فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا . فقال صفوان بن أمية : إن لم يصحروا^(٤) لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ،

(١) الواقدي : « وقد أرجفت » . (٢) « لئمتها »

(٣) الواقدي : « فأخبروه بعددنا » . (٤) أصحروا : خرجوا إلى الصحراء ؛ وهو الفضاء

المستوى الواسع .

فتركناهم ولا أموال لهم ، فلا يختارونها أبدا ، وإن أصبحوا لنا فعدونا أكثر من عددهم ، وسلاحنا أكثر من سلاحهم ، ولنا خيل ولا خيل معهم ، ونحن نقاتل على وترٍ عندهم ولا وترٍ لهم عندنا .

قال الواقديّ : وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلا من الأوس ، حتى قدم بهم مكة حين قدم النبي صلى الله عليه وآله يحرّضها ويأمها أنها على الحق . وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ، ولم يسر معها ، فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها ، وكان يقول لقريش : إني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان ، وهؤلاء مني نفرٌ منهم خمسون رجلا . فصددّ قوه بما قال ، وطمعوا في نصره .

قال الواقديّ : وخرج النساء معهنّ الدّفوف يحرّضن الرجال ويدكرنهم قتلى بدر في كلّ منزل ، وجعلت قريش تنزل كلّ منهل ، ينحرون مانحروا من الجزر ممّا كانوا جمعوا من العيين ، ويتقوّون به في مسيرهم ، ويأكلون من أزوادهم ممّا جمعوا من الأموال .

قال الواقديّ : وكانت قريش لما مرّت بالأبواء ، قالت : إنكم قد خرجتم بالظعن معكم ، ونحن نخاف على نسائنا ، فتعالوا ننهب قبر أمّ محمد ، فإنّ النساء عورة ، فإن يصب من نسائكم أحداً قلتم هذه رمة أمّك ، فإن كان برّا بأمّه - كما يزعم - فلعمري لنفادينكم برمة أمّه ، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمري ليفدين رمة أمّه بمال كثير إن كان بها برّا . فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك ، فقالوا : لا تذكر من هذا شيئا ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا .

قال الواقديّ : وكانت قريش بذي الحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من محرّجهم من مكة ، وذلك لخمس ليال مضين من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلما

أصبحوا بذى الخليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوطاء^(١)، وبعث النبي صلى الله عليه وآله عيين له : أنسا ومؤنسا ابني فضالة ليلة الخميس ، فاعترضا لقريش بالعقيق ، فسارا معهم ، حتى نزلوا الوطاء ، ووأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله فآخبراه ، وكان المسلمون قد اذرعوا العرض^(٢) - والعرض ما بين الوطاء بأحد إلى الجرف إلى العرصة ، عرصة البقل اليوم ، وكان أهله بنو سلمة وحرثة وظفر وعبد الأشهل ، وكان الماء يومئذ بالجرف نشطة لا يرم سدايق الناضح مجلسا واحدا ينقتل الجمل في ساعته ، حتى ذهبت بمياهه عيون الغابة التي حفرها معاوية بن أبي سفيان^(٣) ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعه ليلية الخميس المدينة ، فقدم المشركون على زرعهم فخلوا فيه إبلهم وخيولهم ، وكان لأسيد بن حضير في العرض عشرون ناضحا تسقى شعيرا ، وكان المسلمون قد حذروا على جمالهم وعملهم وآلة حرثهم ، وكان المشركون يرعون يوم الخميس ، فلما أمسوا جمعوا الإبل وقصلوا عليها القصيل ، وقصلوا على خيولهم ليلة الجمعة ، فلما أصبحوا يوم الجمعة خلوا ظهرهم في الزرع وخليهم ، حتى تركوا العرض ليس به خضراء .

قال الواقدي : فلما نزلوا وحلوا العقدة ، واطأوا بعث رسول الله صلى الله عليه وآله الحباب بن المنذر بن الجوح إلى القوم ، فدخل فيهم وحزر ونظر إلى جميع ما يريد ، وكان قد بعثه سرا ، وقال له : إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى في القوم قلة ، فرجع إليه فأخبره خاليا ، وقال له : رأيت عددا حزرتهم ثلاث آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، والخليل مائتا فرس ، ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع . قال : هل رأيت طعنا ؟ قال : نعم رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار - وهي الطبول - فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أردن أن يحرضن القوم ويدكرنهم قتلى بدر ، هكذا

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض . (٢) العرض : الوادي .

(٣) كذا وردت العبارة في الأصول وفي الواقدي وفيها غموض .

جاءني خبرهم ؛ لا تذكر من شأنهم حرباً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ! اللهم بك أحول ، وبك أصول !

قال الواقدي : وخرج سامة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة ، حتى إذا كان بأدنى العرض إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا في أثره ، فوقف لهم على نَشْر^(١) من الحرّة ، فرشقهم بالنَّبَل مرة ، وبالحجارة أخرى حتى انكشفوا عنه ، فلما ولّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العرض ، فاستخرج سيفاً كان له ، ودرع حديد كان له ، دفنا في ناحية المزرعة ، وخرج بهما يعدّو ، حتى أتى بني عبد الأشهل ، فخبّر قومه بما لقي .

قال الواقدي : وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلون من شوال ، وكانت الوقعة يوم السبت لسبع خلون من شوال ، وباتت وجوه الأوس والخزرج : سعد بن مُعَاذ وأُسَيْد ابن حُضَيْر ، وسعد بن عباد ، في عدّة منهم ليلة الجمعة ، عليهم السلاح في المسجد بباب النبي صلى الله عليه وآله خوفاً من تبَيُّت المشركين ، وحُرِست المدينة تلك الليلة ، حتى أصبحوا ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله رؤيا ليلة الجمعة ، فلما أصبح واجتمع المسلمون خطبهم .

قال الواقدي : فحدثني محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، قال : ظهر النبي صلى الله عليه وآله المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيّها النّاس ، إني رأيتُ في منامي رؤيا ؛ رأيت كأني في درع حصينة ، ورأيت كأنّ سيفي ذا الفقار انفصم^(٢) من عند ظُفْته ، ورأيت بقرا تذبّح ، ورأيت كأني مردف كبشا ، فقال النّاس : يا رسول الله ، فما أولُتها ؟ قال : أما الدّرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأما

(١) ب : « نَشْرَة » .

(٢) ا والواقدي : « انفصم » .

انقسام^(١) سيفي عند ظُبطته فخصية في نفسى ، وأما البقر المذبح فقتل في أصحابي ؛ وأما أنى مردف^(٢) كبشا فكبش الكتبية نقتله إن شاء الله .

قال الواقدي : وروى عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « أما انقسام سيفي فقتل رجل من أهل بيتي » .

قال الواقدي : وروى للمسور بن تخزّمة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : ورأيت في سيفي فلأ فكرهته ، هو الذى أصاب وجهه عليه السلام .

قال الواقدي : وقال النبي صلى الله عليه وآله : أشيروا علىّ ، ورأى صلى الله عليه وآله ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يحب أن يوافق على مثل مارأى ؛ وعلى ماعبر عليه الرؤيا ، فقام عبد الله بن أبيّ ؛ فقال : يا رسول الله ، كنّا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة ، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي ، ونجعل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهرا ينقلون الحجارة ، إعداداً لعدونا ، ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترى المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام ، ونقاتل بأسيا فنا في السكك . يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فُضّت علينا قطّ ، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منها إلا أصاب منا ، وما دخل علينا قطّ إلا أصبناه ، فدعهم يا رسول الله ، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشرّ محبس ، وإن رجعوا رجعوا خاسرين مغلوبين ، لم ينالوا خيراً . يا رسول الله ، أطفئ في هذا الأمر ، واعلم أنى ورثت هذا الرأى من أكابر قومي وأهل الرأى منهم ، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة .

قال الواقدي : فكان رأى رسول الله صلى الله عليه وآله مع رأى ابن أبيّ ، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار

(١) الواقدي : « انقسام » . (٢) : « وأما الكبش المردف » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : امكنوا في المدينة ، واجعلوا النساء والذراري في الآطام ، فإن دُخِل علينا قاتلناهم في الأزقة ، فنحن أعلمُ بها منهم ، ورُمُوا من فوق الصياصي والآطام — وكانوا قد شبَّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، فهي كالحصن — فقال فتیان أحداث لم يشهدوا بدرا ، وطلبوا من رسول الله الخروج إلى عدوهم ، ورغبوا في الشهادة ، وأحبوا لقاء العدو ، وقالوا : اخرج بنا إلى عدونا ، وقال رجال من أهل النِّبَة^(١) وأهل السن ، منهم حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عباد ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج : إنا نخشى يا رسول الله ، أن يظنَّ عدونا أننا كرهنا الخروج إليهم جُبْنًا عن لقاءهم ، فيكون هذا جراءة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلثمائة رجل ، فظفرك الله بهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، وكنا تتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به ، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه — ورسول الله صلى الله عليه وآله لما رأى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيفهم ، يتساقون كأنهم الفحول . وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري : يا رسول الله ، نحن والله بين إحدى الحسنين ، إمّا يظفرنا الله بهم ، فهذا الذي نريد ، فيذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة ، والله يا رسول الله ، ما نبالي أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير . فلم يبلغنا أن النبي صلى الله عليه وآله رجع إليه قولا ، وسكت . وقال حمزة بن عبد المطلب : والذي أنزل عليه الكتاب ، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة ، وكان يقال : كانت حمزة يوم الجمعة صائماً ، ويوم السبت ، فلا قام وهو صائم .

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم : يا رسول الله ، أنا أشهد أن البقر المذبَّح قتلى من أصحابك ، وأتى منهم ، فلم تحررنا الجنة ! فوالله الذي لا إله إلا هو

(١) النبّه : النُّظنة ، وفي أ : « النبّه » .

لأَدْخُلْنَهَا . قال رسول الله : بم ؟ قال : إِنِّي أَحَبُّ الله ورسوله ، ولا أَفِرُّ يوم الزحف .
فقال : صدقت ، فاستشهد يومئذ .

وقال إياس بن أوس بن عتيك : يا رسول الله ، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبذب ،
نرجو يا رسول الله أن نذبح في القوم ، ويذبح فينا ، فنصير إلى الجنة ، ويصيرون إلى
النار ، مع أني يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها ، فتقول : حصرنا محمداً
في صياصي يثرب وآطامها ، فتكون هذه جرأة لقريش ، وقد وطئوا سَعَفَنَا ؛ فإذا لم نذب
عن عرضنا ، فلم ندرع ؟ وقد كُنَّا يا رسول الله في جاهليتنا ، والعرب يأتوننا ، فلا يطمعون
بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيا فنفذبهم عنا ، فنحن اليوم أحقّ إذ أمدنا الله بك ،
وعرفنا مصيرنا ، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا .

وقام خَيْثَمَةُ ، أبوسعْد بن خَيْثَمَةَ فقال : يا رسول الله ، إن قريشاً مكثتْ حولاً تجمع الجوع
وتستجلب العرب في بواديها ومن اتبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادوا الخيل ، واعتلوا
الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، فيحصرُوننا في بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرّين لم يكلمُوا ،
فيجرُّهم ذلك علينا حتى يشنّوا الغارات علينا ، ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد
علينا ، مع ما قد صنعوا بحروثنا ، ويحترق علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم
نخرج إليهم ، فنذبهم عن حريمنا ، وعسى الله أن يُظفرنا بهم ، فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون
الأخرى ، فهي الشهادة . لقد أخطأتني وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريصاً ؛ لقد بلغ من
حرصي أن ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه ، فرزق الشهادة وقد كنت حريصاً على
الشهادة ، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرّح في ثمار الجنة وأنهارها ،
وهو يقول الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، وقد والله يا رسول
الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سنّي ، ودقّ عظمي ، وأحببت

لقاء ربّي، فادعُ الله يارسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة؛ فدعاه رسول الله بذلك، فقتل بأحد شهيداً.

قال أنس بن قنادة: يارسول الله؛ هي إحدى الحسينين، إماما الشهادة وإماما الغنمة والظفر بقتلهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني أخافُ عليكم الهزيمة.

فلما أبوا إلا الخروج والجهاد، صلى رسول الله يوم الجمعة بالناس، ثم وعظهم، وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم الصبر ما صبروا؛ ففرح الناس حيث أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالشخص إلى عدوهم، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ثم صلى العصر بالناس، وقد حشد الناس، وحضر أهل العوالي، ورفعوا النساء إلى الآطام، فحضرت بنو عمرو بن عوف بلبقها، والنبيت ولبقها؛ وتابسوا السلاح، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله بيته، ودخل معه أبو بكر وعمر فعمّاه ولبّساه وصّف [الناس] ^(١) له ما بين حجرته إلى منبره؛ ينتظرون خروجه، فجاءهم سعد بن معاذ، وأسيّد بن حضير، فقالا لهم: قلتم لرسول الله ما قلتم، واستكبرتموه على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء، فردّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم فيه [له] ^(٢) هوّى أو أدبا فاطيعوه. فبينما ^(٣) القوم على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ما قال سعد، وبعضهم على البصيرة على الشخص، وبعضهم للخروج كاره؛ إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله قد لبس لأمتّه، وقد لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حائل سيف من آدم كانت بعدد عند آل أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتم، وتقلّد السيف. فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ندموا جميعاً

(١) من الواقدي.

(٢) (٣) ١: «فبينما»، وهي رواية الواقدي.

على ما صنعوا ، وقال الذين ياتون على رسول الله صلى الله عليه وآله : ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك ، فقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأيتتم ، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . قال : وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبي لأمته لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . ثم قال لهم : انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله ؛ فلكم النصر ما صبرتم .

قلت : فَمَنْ تَأْمَلْ أحوال المسلمين في هذه الغزاة ، من فشلهم وخوارهم واختلافهم في الخروج من المدينة والمقام بها ، وكرهه النبي صلى الله عليه وآله للخروج ، ثم خروجه على مضض ، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج ، ثم انخزال طائفة كثيرة من الجيش عن الحرب ، ورجوعهم إلى المدينة ، علم أنه لا انتصار لهم على العدو أصلاً ، فإن النصر معروف بالجزم والجد والبصيرة في الحرب ، واتفاق الكلمة . ومن تأمل أيضا هذه الأحوال ؛ علم أنها ضد الأحوال التي كانت في غزاة بدر ، وأن أحوال قريش لما خرجت إلى بدر كانت مماثلة لأحوال المسلمين لما خرجوا إلى أحد ؛ ولذلك كانت الدبرة في بدر على قريش .

قال الواقدي : وكان مالك بن عمرو النجاري مات يوم الجمعة ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله فلبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز ، صلى^(١) عليه ، ثم دعا بدابته ، فركب إلى أحد .

قال الواقدي : وجاء جُعيل بن سُرَاقَة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى أحد ، فقال : يا رسول الله ، قيل لي : إنك تُقتل غدًا - وهو يتنفس مكروبًا - فضرب النبي صلى الله عليه وآله بيده إلى صدره ، وقال : أليس الدهر كله غداً ! قال : ثم دعا بثلاثة أرماح ، فعمد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن الجُمُوح - ويقال إلى سعد بن عباد - ودفع لواء المهاجرين

(١) ب : « فصل » ، والصواب ما أثبتته من الواقدي .

إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام - ويقال إلى مصعب بن عمير - ثم دعا بفرسه ، فركبه ؛
وتقلّد القوس وأخذ بيده قنّاة - زجّ الرّمح يومئذ من شَبّه - والمسامون متلبسون السلاح ،
قد أظهروا الدروع ، فهم مائة دارع ؛ فلما ركب صلى الله عليه وآله خرج السعدان أمامه
يعدّوان : سعد بن معاذ وسعد بن عباد ؛ كلّ واحدٍ منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله
حتى سلّك على البدائع ، ثم زقاق الحسّى ، حتى أتى الشّيعين - وهما أطمأنّ كانافي الجاهلية
فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدّثان ، فسَمّى الأطمأنّ الشّيعين - فلما انتهى إلى رأس
الثنية ، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها رجل^(١) خلفه ، فقال : ما هذه ؟ قال : هذه خلفاء^(٢)
ابن أبيّ من اليهود . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لانتصر بأهل الشّرك على
أهل الشّرك . ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وعرض عسكره بالشّيعين ، فعرض
عليه غلمان ، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، والنّعمان
ابن بشير ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعروة بن أوس ،
وأبو سعيد الخدريّ ، وسَمرة بن جندب ، ورافع بن خديج .
قال الواقديّ : فردّهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال رافع بن خديج : فقال
ظهير بن رافع : يا رسول الله ، إنه رامّ يعينى . قال : وجعلت أنطاول ، وعلىّ خُفّانلى ،
فأجازنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما أجازنى قال سَمرة بن جندب لمرى بن سنان
الجارثيّ - وهو زوج أمّه : يا أبايّه ، أجاز رسول الله صلى الله عليه وآله رافع بن خديج ، وردّنى
وأنا أصرع رافعا ! فقال مرّى : يا رسول الله ، ردّدت ابنى ، وأجزت رافع بن خديج
وابنى يصرعه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : تصارعا ، فصرع سَمرة رافعا ، فأجازه
رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

قال الواقديّ : وأقبل ابن أبيّ ، فنزل ناحية العسكر ، فجعل حلفاؤه ومن معه^(٣) من
المنافقين يقولون لابن أبيّ : أشرت عليه بالزأى ، ونصحتّه وأخبرتّه أنّ هذا رأى من

(٢) ب : « خلفاء » .

(١) الزجل ، محرّكة : رفع الصوت والجلبة .

(٣) كذا في الواقديّ وفي ب : « زمعة » .

مضى من آبائك ، وكان ذلك رأييه مع رأيك ؛ فأبى أن يقبله ، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه . قال : فصادفوا من ابن أبي نفاقا وغشاً ، فبات رسول الله صلى الله عليه وآله بالشيخين ، وبات ابن أبي في أصحابه ، وفرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من عرض من عرض ، وغابت الشمس ، فأذن بلال بالمغرب ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ، ثم أذن بالعشاء ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله نازل في بني النجار ، واستعمل على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يُطيفون بالعسكر ، حتى ادلج^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان المشركون قد رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله حيث ادلج ، ونزل بالشيخين ، فجمعوا خيلهم وظهرهم ، واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبي جهل في خيل من المشركين ؛ وباتت صاهلة خيلهم لاتهمداً ، تدنو طلائعهم ؛ حتى تلتصق بالحرّة ، فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلهم ، ويهايون موضع الحرّة ، ومحمد بن مسلمة .

قال الواقدي : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال حين صلى العشاء : مَنْ يحفظنا الليلة ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله فقال : مَنْ أنت ؟ قال : ذكوان بن عبد القيس ، فقال : اجلس ، ثم قال ثانية : مَنْ رجل يحفظنا الليلة ؟ فقال : مَنْ أنت ؟ قال : أبو سبّع ، قال : اجلس ، ثم قال ثالثة مثل ذلك ، فقال : مَنْ أنت ؟ فقال : أنا ابن عبد قيس ؛ فكث رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة ، ثم قال : قوموا ثلاثكم ، فقام ذكوان بن عبد قيس ، فقال رسول الله : وأين صاحبك ؟ فقال ذكوان : أنا الذي كنت أجيبك الليلة ! قال : فاذهب حفظك الله .

قلت : قد تقدّم هذا الحديث بذاته في غزوة بدر ، وظاهر الحال أنه مكرّر ،

(١) الادلاج : السير في آخر الليل .

وأنه إنما كان في غزاة واحدة ، ويجوز أن يكون قد وقع في الغزاتين ، ولكن على بعد .
قال الواقدي : فلبس ذكوان درعه ، وأخذ درّقه ، فكان يطوف على العسكر
تلك الليلة ، ويقال : كان يحرس رسول الله صلى الله عليه وآله لم يفارقه .
قال : ونام رسول الله صلى الله عليه وآله حتى ادّبل ، فلما كان في السّحر ، قال
رسول الله : أين الأدلاء ؟ من رجل يدلّنا على الطريق ، ويخرجنا على القوم من
بكتّ ؟ فقام أبو خثيمة الحارثي ، فقال : أنا يا رسول الله ، ويقال : أوس بن قيطي
ويقال : محيصة .

قال الواقدي : وأثبت ذلك عندنا أبو خثيمة خرج برسول الله صلى الله عليه وآله ،
وركب فرسه ، فسلك به في بني حارثة ، ثم أخذ في الأموال حتى مرّ بحائط مريع بن قيطي ؛
وكان أعمى البصر منافقا ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله حائطه ، قام يحثي
التراب في وجوه المسلمين ، ويقول : إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطى ، فلا
أحله لك .

قال محمد بن إسحاق : وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب ، وقال : والله لو أعلم أنى
لأصيب غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ^(١) .

قال الواقدي : فضربه سعد بن زيد الأشملي بقوس في يده فشجّه في رأسه ، فنزل
الدم ، فغضب له بعض بني حارثة ممّن هو على مثل رأيه ، فقال : ^(٢) هي على عداوتكم
يا بني عبد الأشهل ، لا تدعونها أبداً لنا ^(٣) ! فقال أسيد بن حضير : لا والله ، ولكن نفاقكم ،
والله أولا أنى لأدرى ما يوافق النبي صلى الله عليه وآله لضربت عنقه وعنق من هو على
مثل رأيه .

قال : ونهاهم النبي صلى الله عليه وآله عن الكلام فأسكتوا .

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩ .

(٢ - ٢) الواقدي : « هي عداوتكم يا بني عبد الأشهل لا تدعوها أبداً » .

وقال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : دعوه ، فإنه أعمى البصر ، أعمى القلب . يعنى مِرْبَع بن قِطِيٍّ ^(١) .

قال الواقدي : ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبينما هوى مسيره إذ ذبّ فرس أبى بردة بن نيار بذنبه فأصاب كلاب سيفه ، فسل سيفه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا صاحب السيف ، شِمِّ ^(٢) سيفك ، فإنى أخال السيوف ستسل اليوم فيكثير سلها . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحب الفأل ، ويكره الطيرة ، قال : ولبس رسول الله صلى الله عليه وآله من الشّخين درعاً واحدة ، حتى انتهى إلى أحد ، فلبس درعاً أخرى ومغفراً ، وبيضة فوق المغفر ، فلما نهض رسول الله صلى الله عليه وآله من الشّخين ، زحف المشركين على تعبئة حتى انتهوا إلى موضع أرض ابن عامر اليوم ، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى موضع القنطرة اليوم جاءه وقد حانت الصلاة ، وهو يرى المشركين ، فأمر بلالاً فأذن ، وأقام وصلى بأصحابه الصّبح صفوفاً ، وانخزل ^(٣) عبد الله بن أبيّ من ذلك المكان في كتيبتة ، كأنه هَيِّقَه ^(٤) تقدّمهم ، فاتّبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، فقال : أذكركم الله ودينكم ونبيكم ، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ! فقال ابن أبيّ : ما أرى أنه يكون بينهم قتال ، وإن أظعّنى يا أبا جابر لترجعن ، فإن أهل الرأى والحجى قد رجعوا ، ونحن ناصروه في مدينتنا ، وقد خالفنا ، وأشرت عليه بالرأى فأبى إلا طواعية الغلمان . فلما أبى على عبد الله بن عمرو أن يرجع ، ودخل هو وأصحابه أزقة المدينة ، قال لهم أبو جابر : أبعدم الله ! إن الله سيفنى النّبي والمؤمنين عن نصركم . فانصرف ابن أبيّ وهو يقول : أبعصيني ويطيع الولدان ! وانصرف عبد الله بن عمرو يعدو حتى لحق رسول الله وهو يسوى الصفوف ، فلما أصيب أصحاب

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩ .

(٢) شِم سيفك ، أى اغمده .

(٣) انخزل ، أى انفرّد ، وانظر اللسان .

(٤) الهيق : ذكر النعام .

رسول الله صلى الله عليه وآله سُرَّ ابنُ أبيّ ، وأظهر الشماتة ، وقال : عصاني وأطاع من لا رأى له !

قال الواقدي : وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يصف أصحابه ، وجعل الرماة خمسين رجلا على عيين ، عليهم عبد الله بن جبير - ويقال : سعد بن أبي وقاص ، والثابت أنه عبد الله بن جبير - قال : وجعل أحدا خلف ظهره ، واستقبل المدينة وجعل عيين عن يساره ، وأقبل المشركون ، واستدبروا المدينة في الوادي ، واستقبلوا أحدا ، ويقال : جعل عيين خلف ظهره ، واستدبر الشمس ، واستقبلها المشركون .

قال : والقول الأول أثبت عندنا ، أن أحدا كان خلف ظهره ، وهو عليه السلام . مستقبل المدينة .

قال : ونهى أن يقاتل أحد حتى يأمرهم بالقتال ، فقال عمار بن يزيد بن السكن : أتني نغير على زرع بني قيلة ولما نضاربوا أقبل المشركون قد صفوا صفوفهم ، واستعملوا على اليمين خالد بن الوليد ، وعلى اليسرة عكرمة بن أبي جهل ، ولهم مجنبتان ، مائتا فرس ، وجعلوا على الخليل صفوان بن أمية - ويقال عمرو بن العاص - وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة ، وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة - واسم أبي طلحة عبد الله^(١) ابن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي - وصاح أبو سفيان يومئذ : يا بني عبد الدار ! نحن نعرف أنكم أحق باللواء منا ، وأننا إنما أتينا يوم بدر من اللواء ، وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم ، فالزموا لواءكم ، وحافظوا عليه ، وخلوا بيننا وبينه ، فإنما قوم مستميتون موتورون ، نطلب ثأرا حديث العهد . وجعل يقول : إذا زالت الألوية ، فما قوام الناس وبقاؤهم بعدها ! ففضبت بنو عبد الدار ، وقالوا : نحن نسلم لواءنا ! لا كان هذا أبدا ! وأما المحافظة^(٢) عليه فستري . ثم أسندوا الرماح إليه ، وأحدثت به بنو عبد الدار ،

(١) في الواقدي : « عبد العزى بن عثمان » .

(٢) في الواقدي : « فأما المحافظة عليه » .

وأغلظوا لأبي سفيان بعض الإغلاظ، فقال أبو سفيان : فنجعل لواء آخر ؟ قالوا : نعم ، ولا يحمله إلا رجل من بني عبد الدار ، لا كان غير ذلك أبدا .

قال الواقدي : وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يمشى على رجله ، يسوى تلك الصفوف ، ويبوي أصحابه مقاعد للقتال ، يقول : تقدّم يا فلان ، وتأخّر يا فلان ، حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجا فيؤخّره ؛ فهو يقومهم كأنما يقوم القداح ، حتى إذا استوت الصفوف ، سأل : من يحمل لواء المشركين ؟ قيل : عبد الدار ، قال : نحن أحقّ بالوفاء منهم ، أين مصعب بن عمير ؟ قال : ها أنذا . قال : خذ اللواء ، فأخذه مصعب فتقدم به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال البلاذري : أخذه من عليّ عليه السلام ، فدفعه إلى مصعب بن عمير ، لأنه من بني عبد الدار^(١) .

قال الواقدي : ثمّ قام عليه السلام ، فخطب الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : أيّها الناس ، أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه ؛ من العمل بطاعته ، والتناهي عن محارمه . ثمّ إنكم اليوم بمنزل أجر وذخّر لمن ذكر الذي عليه ، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجِدِّ والنشاط ، فإنّ جهاد العدوّ شديد كربه ، قليل من يصبر عليه ، إلّا من عزم له على رشده . إنّ الله مع من أطاعه ، وإنّ الشيطان مع من عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذي أمركم به ، فإنّي حريص على رشدكم . إنّ الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو مما لا يحبّه الله ، ولا يعطى عليه النصر والظفر . أيّها الناس إنه قدّيف في قاي أن من كان على حرام فرغ عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه ، ومن صلى على محمد^(٢) صلى الله عليه وملائكته

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣١٧ .

(٢) ١ ، والواقدي : « ومن صلى على » .

عشراء، وَمَنْ أَحْسَنَ، مَنْ مسلم أو كافر وقع أجره على الله في عاجل ديناه أو في آجل آخرته،
وَمَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة، إِلَّا صبيّاً أو امرأة أو مريضاً
أو عبداً مملوكاً، وَمَنْ استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غنى حميد. ما أعلم من عمل يقربكم
إلى الله إِلَّا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إِلَّا وقد نهيتكم عنه،
وإنه قد نفث الرُّوح الأمين في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها،
لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم، وأجلوا في طلب الرزق،
ولا يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لا يُقدر على ما عنده،
إلا بطاعته، قد بين لكم الحلال والحرام، غير أنّ بينهما شُبهاً من الأمر لم يعلمها كثير
من الناس إِلَّا مَنْ عصم، فمن تركها حفظ عِرْضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالرّاعى إلى
جنب الحتىّ أوشك أن يقع فيه ويفعله، وليس ملك إِلَّا وله حىّ، ألا وإنّ حىّ الله
محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده.
والسلام عليكم.

قال الواقديّ: فحدثني ابنُ أبي سَبرة، عن خالد بن رباح، عن المطلب بن عبد الله،
قال: أوّل مَنْ أنشب الحرب بينهم أبو عامر، طلع في خمسين من قومه، معه عبيد قریش
فنادى أبو عامر واسمه عبد عمرو باللائوس! أنا أبو عامر، قالوا: لا مرحبا بك ولا أهلاً؛
يافاسق! فقال: لقد أصاب قومي بعدى شرّاً. قال: ومعه عبيد أهل مكة، فتراموا
بالحجارة هم والمسلمون، حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولّى أبو عامر وأصحابه؛ ويقال:
إن العبيد لم يقاتلوا، وإنهم أمروهم بحفظ عسكرهم.

قال الواقديّ: وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقى الجمعان أمام صفوف المشركين
يضرّبن بالأكبار^(١) والدّفاف والغرايل^(٢)، ثمّ يرجعن فيكنّ إلى مؤخر الصفّ؛ حتى

(١) الأكبار: جمع كبر، بفتحين، وهو الطبل، معرب.

(٢) الغرايل: جمع غربال، وهو هنا الدف.

إذا دنوا من المسلمين تأخر النساء ، فقمن خلف الصفوف ، وجعلن كلما ولي رجل حرّضنه ، وذكرنه قتلى بدر .

وقال الواقديّ : وكان قُزَمان من المنافقين ، وكان قد تخلف عن أحد ، فلما أصبح عيّره نساء بني ظَفَر ، فقلن : يا قُزَمان ، قد خرج الرجال وبقيت ! استحي يا قُزَمان ، ألا تستحي بما صنعت ! ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك وبقيت في الدار ! فأحفظنه ، فدخل بيته ، فأخرج قوسه وجعبته وسيفه . وكان يعرف بالشجاعة . وخرج يعدو ، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يسوي صفوف المسلمين ، فجاء من خلف الصف ، حتى انتهى إلى الصف الأول ، فكان فيه ، وكان أول مَنْ رَمَى بهم من المسلمين ، جعل يرسل نبالاً كأنها الرماح ، وإنه ليَكِتَ كَتِيت^(١) الجمل ثم صار إلى السيف ، ففعل الأفاعيل ، حتى إذا كان آخر ذلك قَتَلَ نفسه . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ذكره قال : من أهل النار . قال : فلما انكشف المسلمون ، كسر جفن سيفه وجعل يقول : الموت أحسن من الفرار . يال لأوس ! قاتلوا على الأحساب ، واصنعوا مثل ما أصنع . قال : فدخل بالسيف وسط المشركين ، حتى يقال : قد قَتِل ، ثم يطلع فيقول : أنا الغلام الظفريّ ، حتى قَتَلَ منهم سبعة ، وأصابته الجراحة ، وكثرت فيه ، فوقع فمرّ به قتادة بن النعمان ، فقال له : أبا العيداق ، قال قزمان : لبّيك ؛ قال : هنيئاً لك الشهادة أقال قزمان : إني والله ما قاتلتُ يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحِفاظ ، أن تسير قریش إلينا فتطأ سَعَفنا ، قال : فأذته الجراحة فقتل نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر^(٢) » .

(١) الكتيت : صياح الجمل .

(٢) في ابن هشام ٣ : ٣٧ عن ابن إسحاق : « حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، قال : كان فينا رجل أتى لا يدري من هو ؛ يقال له قزمان ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا ذكر له : « إنه لمن أهل النار » ، قال : « فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين . وكان ذا بأس ، فأثبتته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بني ظفر . قال : فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا على أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت ، قال : فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته ، فقتل به نفسه » .

قال الواقديّ : وتقدّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى الرّماة ، فقال : احموا لنا ظهورنا ، فإنّا نخاف أن نؤتّى من ورائنا ، والزموا مكانكم ، لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانكم ؛ وإن رأيتمونا نقتل ؛ فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنا . اللهم إني أشهدك عليهم ، ارشقوا ^(١) خيلهم بالنبل ؛ فإن الخيل لا تقدم على النبل ، وكان له شركين مجنبتان : ميمنة عليها خالد بن الوليد ، وميسرة عليها عكرمة بن أبي جهل .

قال الواقديّ : وعمل رسول الله صلى الله عليه وآله لنفسه ميمنة وميسرة ، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير ، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى سعد ابن عباد - وقيل : إلى الحباب بن المنذر - فجعلت الرماة تحمي ظهور المسلمين ، وترشق خيل المشركين بالنبل ، فولّت هاربه ، قال بعض المسلمين ^(٢) : والله لقد رمقت نبلنا يومئذ ، مارأيت سهما واحدا ممّا يرمى به خيلهم يقع في الأرض ، إمّا في فرس أو في رجل ؛ ودنا القوم بعضهم من بعض ، وقدموا طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم ، وصفوا صفوفهم ، وأقاموا النساء خلف الرجال يضربن بين أكتافهم بالأكبار والدّفوف ، وهند صواحبا بجرّضن ويذمرن ^(٣) الرجال ، ويذكرن من أصيب ببدر ، ويقلن :

نحنُ بنات طارقٍ نمشي على النّمَارِقِ
إنّ تُقبِلوا نعانقُ أو تدبرُوا نفارقُ

* فراق غير واميّ *

قال الواقديّ : وبرز طلحة ، فصاح : من يبارز ؟ فقال عليّ عليه السلام له : هل لك في مبارزتي ؟ قال : نعم ، فبرزنا بين الصّقّين ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس تحت

(١) أرشق الراي : رمى وجهها ، أي أطلق السهم إلى المكان المواجه له .

(٢) الواقديّ : « الرماة » . (٣) يذمرن الرجال : يحضونهم على القتال .

الراية ، عليه درعان ومغفر وبيضته ، فالتقيا ، فبدره على عليه السلام ^(١) بضربة على رأسه ، فمضى السيف حتى فلق هامته إلى أن انتهى إلى لحيته فوقع ، وانصرف على عليه السلام ، فقيل له : هلاّ ذففت ^(٢) عليه ! قال : إنه لما صرع استقبلني بعورته ؛ فعطفتني عليه الرحم ؛ وقد علمت أن الله سيقتله ؛ هو كبش الكتيبة .

قال الواقدي : وروى أن طلحة حمل على علي عليه السلام ؛ فضربه بالسيف ، فاتقاه بالدركة ، فلم يصنع شيئا ، وحمل على عليه السلام وعلى طلحة درع ومغفر ، فضربه بالسيف ، فقطع ساقيه ، ثم أزد أن يذف عليه ؛ فسأله طلحة بالرحم ألا يفعل ؛ فتركه ولم يذف عليه .

قال الواقدي : ويقال : إن عليا عليه السلام ذفف عليه ؛ ويقال : إن بعض المسلمين مرّ به في المعركة فذفف عليه . قال : فلما قتل طلحة سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وكبر تكبيرا عاليا وكبر المساهون ؛ ثم شدّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على كتائب المشركين ؛ فجعلوا يضربون وجوههم ، حتى انتقضت صفوفهم ؛ ولم يقتل إلا طلحة ابن أبي طلحة وحده .

قال الواقدي : ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبي طلحة ، وهو أبو شيبه ، فارتجز وقال :

إِنَّ عَلَىَّ رَبَّ اللّوَاءِ حَقًّا أَنْ تُخْضَبَ الصَّعْدَةُ أَوْ تَنْدَقًا

فتقدّم باللواء والنسوة خلفه ، يحرّضن ويضربن بالدفوف ، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله ، فضربه بالسيف على كاهله ، فقطع يده وكتفه ، حتى انتهى إلى

(١) ب : « فبرزه » تحريف ، والصواب ما في ١ ، والواقدي .

(٢) ذففت عليه أجهز .

مُؤْتَرِهِ فَبِدا سَحْرَهُ^(١) ، ورجع ، فقال : أنا ابن ساقى الحجيج ؛ ثم حمل اللواء أخوها أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرتَه - وكان دراعا ، وعليه مغفر لا رفراف عليه^(٢) ، وعلى رأسه بيضته فأدلع لسانه^(٣) إِدْلَاعِ الكلب .

قال الواقديّ : وقد روى أنّ أبا سعد لما حمل اللواء ، قام النساء خلفه يقلن :

ضَرْبًا بِنَى عَبْدِ الدَّارِ ضَرْبًا حُمَاةَ الْأُدْبَارِ

* ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارٍ *

قال سعد بن أبي وقاص : فأحمل عليه فأقطع يده اليمنى ، فأخذ اللواء باليد اليسرى ، فأضربه على يده اليسرى ؛ فقطعتها ، فأخذ اللواء بذراعيه جميعا وضمّه إلى صدره ، وحنى عليه ظهره . قال سعد : فأدخل سيّة القوس بين الدرع والمغفر ، فأقلع^(٤) المغفر ، فأرمى به وراء ظهره ، ثم ضربته حتى قتلتَه ، وأخذت أسلِبُه درعه ، فنهض إلى سُبَيْع بن عبد عوف ونفر معه فمعنوني سلبه ، وكان سلبه أجود سلب رجل من المشركين : درع فضفاضة ، ومغفر وسيف جيّد ، ولكن حيل بينى وبينه .

قال الواقديّ : وهذا أثبتّ القولين .

قلت : شتان بين عليّ وسعد ! هذا يجاحش على السِّلْبِ ويتأسّف على فواته ، وذلك يقتل عمرو بن عبد ودّ يوم الخندق ، وهو فارس قریش وصنديدها ومبارزه ، فيعرض عن سلبه ، فيقال له : كيف تركت سلبه وهو أنفُس سلب ! فيقول : كرهت أن أبزّ السبيّ ثيابه ، فكأنّ حبيباً عنه يقوله :

(١) السحر هنا : الرثّة .

(٣) أدلع لسانه : أخرجه .

(٢) الواقديّ : « له » .

(٤) الواقديّ : « فأقلع » .

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدُ الْغَابِ هَمَّتْهَا يَوْمَ الْكُرَيْبَةِ فِي الْمُسْلُوبِ لَا السَّلْبِ^(١)

قال الواقدي : ثم حمل لواء المشركين بعد أبي سعد بن أبي طلحة مسافع بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح فقتله ، فحمل إلى أمه سلافة بنت سعد ابن الشهيد ، وهي مع النساء بأحد ، فقالت : من أصابك ؟ قال : لا أدري ، سمعته يقول : خذها وأنا ابن الأفلح ، فقالت : أَقْلَحِيَّ وَاللَّهِ ! أَى هُوَ مِنْ رَهْطِي - وكانت من الأوس .

قال الواقدي : وروى أن عاصم لما رماه ، قال له : خذها وأنا ابن كسرة ، وكانوا يقال لهم في الجاهلية : بنو كسر الذهب ، فقال لأمه : لا أدري ، إلا أني سمعته يقول : خذها وأنا ابن كسرة ، فقالت سلافة : أوسى والله كسرى ، أَى أَنَّهُ مِنَّا ، فيومئذ نذرت سلافة أن تشرب في قحف رأس عاصم بن ثابت الخمر ، وجعلت لمن جاءها به مائة من الإبل .

قلت : فلما قتله المشركون في يوم الرّجيع أرادوا أن يأخذوا رأسه ، فيحملوه إلى سلافة فحمته الدّبر^(٢) يومه ذلك ، فلما جاء الليل فظنوا أن الدّبر لا تحميه ليلا ، جاء الوادي بسيل عظيم ، فذهب برأسه وبدنه . اتفق المؤرخون على ذلك .

قال الواقدي : ثم حمل اللواء بعد الحارث أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فقتله الزُّبير بن العوام ، ثم حمله أخوه الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فقتله طلحة بن عبيد الله ، ثم حمله أوطاة بن عبد شُرْحَبِيل ، فقتله علي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم حمله شريح بن

(١) ديوانه ١ : ٧١ ، وروايته : « إِنَّ الْأَسْوَدَ الْغَابِ » .

(٢) الدبر : جماعة النحل أو الزناير .

قَانِط^(١) ، فقتل لا يُدْرَى مَنْ قَتَلَهُ ، ثُمَّ حَمَلَهُ صُواب ، غلام بنى عبد الدار ، فاختلف فى قاتله فقيل : قتلته على بن أبى طالب عليه السلام ، وقيل سعد بن أبى وقاص . وقيل : قُزَمان ، وهو أثبت الأقوال .

قال الواقديّ : انتهى قُزَمان إلى صُواب ، فحمل عليه ، فقطع يده اليمنى ، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى ، فاحتضن اللواء بذراعيه وعَضُدَيْهِ ، وَحَنَى عليه ظهره ، وقال : يا بنى عبد الدار ، هل اعذّرت ؟ فحمل عليه قُزَمان فقتله .

قال الواقديّ : وقالوا : ماظفر الله تعالى نبيّه فى موطن قَطّ ماظفره وأصحابه يوم أحد ، حتى عصوا الرسول ، وتنازعوا فى الأمر ، لقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهم لا يلوون ، ونسأؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدّفاف والفرح .

قال الواقديّ : وقد روى كثير من الصحابة ممّن شهد أحداً ، قال كل واحد منهم : والله إنّى لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمت ، مادون أخذهنّ شيئا لمن أرادته ؛ ولكن لا مردّ لقضاء الله . قالوا : وكان خالد بن الوليد كلّما أتى من قبل ميسرة النبي صلى الله عليه وآله ليجوز حتى يأتهم من قبل السّفح ؛ ترده الرّماة ، حتى فعل وفعلوا ذلك مرارا ، ولكن المسلمين أتوا من قبل الرّماة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو عز إليهم فقال : قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا . فلمّا انهزم المشركون ، تبّهم المسلمون يضعون السّلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهزوهم عن المعسكر ، ووقعوا ينتهبونه . قال بعض الرّماة لبعض : لم تقيمون هاهنا فى غير شيء ؟ قد هزم الله العدو ؛ وهؤلاء إخوانكم ينهبون عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين ، فاغنموا مع إخوانكم ، فقال بعضهم : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لكم : « احموا ظهورنا ، وإن غنمنا فلا يشركونا » ،

(١) الواقديّ : « فارط » .

فقال الآخرون : لم يُرِدْ رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم هذا ، وقد أذلَّ الله المشركين وهزمهم ، فادخلوا العسكر ، فانتهبوا مع إخوانكم . فلما اختلفوا خطبهم أميرُهم عبد الله ابن جُبَيْر ، وكان يومئذ معلماً بثياب بيض ، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله ، وألا يخالف أمره ، فعصوه ، وانطلقوا فلم يبقَ معه إلا نُفَيْرٌ ما يباغون العشرة ، منهم الحارث بن أنس ابن رافع ، يقول : يا قوم ، اذكروا عهد نبيكم إليكم ، وأطيعوا أميركم . فأبوا ، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون ، وخلوا الجبل^(١) ، وانتقضت صفوف المشركين ؛ واستدارت رحالهم ، ودارت^(٢) الريح - وكانت إلى أن انتقض صفهم صباً ، فصارت دُبُوراً - فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، فكرّ بالخيـل ، وتبعه عكرمة بالخيـل ، فانطلقا إلى موضع الرماة ، فحملوا عليهم ؛ فرماهم القوم حتى أصيبوا ، ورعى عبد الله بن جُبَيْر حتى فنيَتْ نَبْلُه ، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر ؛ ثم كسر جفن سيفه ؛ فقاتل حتى قُتِل ، وأفلت جُعَيْل بن سراقه وأبو بُرْدَة بن نِيَّار بعد أن شاهدا قتل عبد الله بن جُبَيْر ، وكان آخر من انصرف من الخيل ، فلحقا بالمسلمين .

قال الواقدي : فروى رافع بن خديج ، قال : لما قتل خالد الرماة أقبل بالخيـل وعكرمة ابن أبي جهل يتلوه ، فغالطنا وقد انتقضت صفوفنا ، ونادى إبليس - وتصور في صورة جُعَيْل بن سراقه : إنَّ محمداً قد قُتِل ! ثلاث صرخات ، فابتلى يومئذ جُعَيْل بن سراقه ببليّة عظيمة حين تصوّر إبليس في صورته ، وإن جُعَيْلا ليقاتل مع المسلمين أشدّ القتال ، ولأنّه إلى جنب أبي بُرْدَة بن نِيَّار وخوات بن جُبَيْر . قال رافع بن خديج : فوالله ما رأينا دولةً كانت أسرع من دولة المشركين علينا ، وأقبل المسلمون على جُعَيْل بن سراقه يريدون قتله ، يقولون : هذا الذي صاح أن محمداً قد قُتِل ، فشهد له خوات بن جُبَيْر وأبو بُرْدَة ، أنّه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح ، وأنّ الصائح غيره .

(١) الواقدي : « عينين » ، وهو الجبل . (٢) الواقدي : « وحالت » .

قال الواقدي : فروى رافع ، قال : أتينا من قبل أنفسنا ، ومعصية نبينا ، واختلط المسلمون ، وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضا ، وما يشعرون بما يصنعون من الدَّهَش والعَجَل ، وقد جرح يومئذ أسيد بن حضير جرحين ، ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار ، وما يدري ، يقول : خذاها وأنا الغلام الأنصاري ، وكرَّ أبو زعنة في حومة القتال ؛ فضرب أبا بردة ضربتين ، ما يشعر أنه هو ، يقول : خذاها وأنا أبو زعنة ، حتى عرفه بعد ، فكان إذا لقيته ، قال : انظر ما صنعت بي ، فيقول أبو زعنة : وأنت فقد ضربت أسيد بن حضير . ولا تشعر ! ولكن هذا الجرح في سبيل الله ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : هو في سبيل الله يا أبا بردة ، لك أجره ، حتى كأنك ضربك أحد المشركين ، ومَنْ قُتِلَ فهو شهيد .

قال الواقدي : وكان الشيخان : حُسيل بن جابر ورفاعة بن وقش شيخين كبيرين ، قد رفعوا في الآطام مع النساء ، فقال أحدهما لصاحبه : لا أبالك ! ما نستبق من أنفسنا ! فوالله ما نحن إلا هامة اليوم أو غدٍ ، وما بقي من أجلنا قدر ظمٍّ^(١) دابة ، فلو أخذنا أسيفنا . فلحقنا برسول الله صلى الله عليه وآله لعل الله يرزقنا الشهادة ! قال : فلحقا برسول الله صلى الله عليه وآله ، فأما رفاعة فقتله المشركون ، وأما حُسيل بن جابر فالتفت عليه سيوفُ المسلمين ، وهم لا يعرفونه حين اختلطوا ، وابنه حذيفة يقول : أبى أبى ! حتى قُتِلَ ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ؛ ما صنعتُم ! فزاد به عند رسول الله صلى الله عليه وآله خيرا ، وأمر رسول الله بديته أن تخرج ، ويقال : إن الذي أصابه عتبة بن مسعود ، فتصدق حذيفة ابنه بدمه على المسلمين .

قال الواقدي : وأقبل يومئذ الحُباب بن المنذر بن الجوح بصيح : يا آل سلمة افاقبوا

(١) يقال : ما بقي منه إلا ظمٍّ دابة ؛ أى لم يبق من عمره إلا اليسير .

عُنُقًا^(١) واحدا : لَبَّيْكَ داعي الله ، لَبَّيْكَ داعي الله ! فيضرب يومئذ جَبَّار بن صخر ضربة في رأسه مثقلة وما يدرى ، حتى أظهروا الشعار بينهم ، فجعلوا يصيحون : أَوْتِ أَمِتْ ! فكفَّ بعضهم عن بعض .

قال الواقدي : وكان نسطاس مولى ضرار بن أمية ممن حضر أحداً مع المشركين ، ثم أسلم بعد ، وحسن إسلامه ، فكان يحدث ، قال : قد كنت ممن خلف في العسكر يومئذ ، ولم يقاتل معهم عبد إلا وحشي وصواب غلام بنى عبد الدار ، فكان أبو سفيان صاح فيهم : يا معشر قريش ، خلُّوا^(٢) غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون على رحالكم ، فجمعنا بعضها إلى بعض ، وعمَلْنَا الإبل ، وانطلق القوم على تعبيتهم ، ميسرة وألبسنا الرجال الأنطاع ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا ساعة ، وإذا أصحابنا منهزمون ، فدخل المسلمون معسكرنا ، ونحن في الرجال ، فأحدقوا^(٣) بنا ، فكنت فيمن أسروا ، وانتهبوا المعسكر أقبح انتهاب ، حتى إن رجلاً منهم قال : أين مال صفوان بن أمية ؟ فقلت : ما حل إلا نفقة في الرّحل ، فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العيبة خمسين ومائة مثقال ذهباً ، وقد ولّى أصحابنا وأيسنا منهم ؛ وانحاش النساء ، فهن في حُبْرهنَّ سَلِمَ لمن أرادهنَّ ، فصار النهب في أيدي المسلمين .

قال نسطاس : فإننا لعلّنا مائحنُ عليه من الاستسلام ، ونظرتُ إلى الجبل ، فإذا خيل مقبلة تركض ، فدخلوا العسكر ، فلم يكن أحد يردّهم ، قد ضيّعت الثغور التي كان بها الرّماة وجاءوا إلى النهب والرّماة ينتهبون ، وأنا أنظر إليهم متأبطي قسيهم وجعابهم ، كل واحد منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه ، فلما دخلتُ خيلنا دخلت على قوم غاربن آمنين ، فوضعوا فيهم السيوف ، فقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وتفرّق المسلمون في كل وجه ،

(١) العنق : الجماعة من الناس . (٢) الواقدي : « خلُّوا » .

(٣) الواقدي : « فدخل أصحاب محمد في الرجال ، فأحدقوا بنا » .

وتركوا ما انتهبوا ، وأجلوا عن عسكرنا ، فارتجعنا بعد . ، لم نفقد منه شيئاً ، وخلوا
أسرانا ، ووجدنا الذهب في المعركة ، ولقد رأيت يومئذ رجلاً من المساميين ضمّ صفوان
ابن أمية إليه ضمةً ظننت أنه سيموت ، حتى أدركته وبه رمق ، فوجأت^(١) ذلك
المسلم بخنجر معي ، فوقع ، فسألت عنه ، فقيل : رجل من بني ساعدة . ثم هداني الله
بعد للإسلام .

قال الواقدي : لخدثني ابن أبي سبرة ؛ عن إسحاق بن عبد الله ، عن عمر بن الحكم ،
قال : ما علمنا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أغاروا على النهب
فأخذوا ما أخذوا من الذهب بقي معه من ذلك شيء يرجع به حيث غشينّا المشركون ،
واختلفوا إلا رجلين : أحدهما عاصم بن ثابت بن أبي الألقح ، جاء بمنطقة وجدها في
العسكر ، فيها خمسون ديناراً فشدّها على حَقْوِيهِ من تحت ثيابه ، وجاء عبّاد بن بشر
بصُرة فيها ثلاثة عشر مثقالاً ألقاها في جيب قبضه ، وفوقها الدرع وقد حزم وسطه ،
فأتيا بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يحتمسه ونفلهما إياه .

قال الواقدي : وروى يعقوب بن أبي صعصعة ، عن موسى بن ضمرة ، عن أبيه ،
قال : لما صاح الشيطان أزب^(٢) العقبة ؛ أن محمداً قد قتل لما أراد الله عزّ وجلّ من
ذلك ، سقط في أيدي المسلمين ، وتفرّقوا في كلّ وجه ، وأصعدوا في الجبل ، فكان
أولّ مَنْ بَشَّرهم بكون رسول الله صلى الله عليه وآله سالمًا كعبُ بن مالك . قال
كعب : عرفته ، فجعلت أصيح : هذا رسول الله ! وهو يشير إليّ بإصبعه على فيه :
أن اسكت .

قال الواقدي : وروت عميرة بنت عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبيها ، قالت :
قال أبي لما انكشف الناس : كنت أولّ مَنْ عرف رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) وجأته ؛ أي ضربته .

(٢) أزب العقبة : اسم لشيطان معروف ذكر في حديث العقبة . انظر القاموس .

وبشّرت به المسلمين حيّاً سوياً ، عرفت عينيه من تحت المغفر ؛ فنادت : يا معشر الأنصار ! أبشروا ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأشار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن اصمت : قال : ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله بكعب ، فلبس لأمته ، وألبس كعباً لأمة نفسه ، وقاتل كعب يومئذ قتالاً شديداً ، جرح سبعة عشر جرحاً .

قال الواقدي : وحدثني ابنُ أبي سبرة عن خالد بن رباح ، عن الأعرج ، قال : لما صاح الشيطان إنَّ محمداً قد قُتل ؛ قال أبو سفيان بن حرب : يا معشر قريش ، أيكم قتل محمداً ؟ قال ابن قميّة : أنا قتلته . قال : نسورك^(١) كما تفعل الأعاجم بأبطالها . وجعل أبو سفيان يطوفُ بأبي عامر الفاسق في المعركة ؛ هل يرى محمداً بين القتلى ! فرجاً بخارجة ابن زيد بن أبي زهير ، فقال : يا أبا سفيان ، هل تدري مَنْ هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا خارجة بن زيد ، هذا أسيد بن الحارث بن الخزرج ؛ ومرّ بعباس بن عباد بن نضلة إلى جنبه ، قال : أتعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا ابن قوقل ؛ هذا الشريف في بيت الشرف ، ثم مرّ بذكوان بن عبد قيس ، فقال : وهذا من ساداتهم ، ثم مرّ بابنه حنظلة ابن أبي عامر ، فوقف عليه ؛ فقال أبو سفيان : مَنْ هذا ؟ قال : هذا أعزّ من هاهنا على ، هذا ابني حنظلة . قال أبو سفيان : ما نرى مصرع محمد ؛ ولو كان قُتل لرأيناه ، كذب ابن قميّة . ولقي خالد بن الوليد ، فقال : هل تبين عندك قتل محمد ؟ قال : لا ، رأيته أقبل في نفر من أصحابه مصعبين في الجبل ، فقال أبو سفيان : هذا حقّ ، كذب ابن قميّة ، زعم أنه قتله !

قلت : قرأت على التّقيب أبي يزيد رحمه الله هذه الغزاة من كتاب الواقدي ، وقلت له : كيف جرى هؤلاء في هذه الواقعة ؟ فإني أستعظم ما جرّى ! فقال : وما في ذلك ممّا تستعظمه ! حمّل قلب المسلمين من بعد قتل أصحاب الألوية على قلب المشركين ، فكسره

(١) نسورك : نلبسك السوار ، وهذا ممّا كانت تفعله الأعاجم بملوكهم :

فلو ثبتت مجنبتا رسول الله اللتان فيهما أسيد بن حُصَير والحباب بن المنذر بإزاء مجنبتى المشركين ، لم ينكسر عسكر الإسلام ؛ ولكن مجنبتا المسلمين أطبقت إطباقا واحدا على قلب المشركين ، مضافا إلى قلب المسلمين ، فصار عسكر رسول الله صلى الله عليه وآله قلباً واحداً ، وكتيبة واحدة ، فخطمه قلب قريش حطمة شديدة . فلما رأت مجنبتا قريش أنه ليس بإزائها أحد ، استدارت المجنبتان من وراء عسكر المسلمين ، وصمد كثير منهم للرماة الذين كانوا يجمون ظهر المسلمين ، فقتلوه عن آخرهم ، لأنهم لم يكونوا ممن يقومون لخالد وعكرمة ، وهما في ألنى رجل ، وإنما كانوا خمسين رجلا ، لاسيما وقد ترك كثير منهم مركزه وشهره إلى الغنيمة ، فأكتب على التَّهَب .

قال رحمه الله : والذى كسر المسلمين يومئذ ، ونال كل منال خالد بن الوليد ، وكان فارسا شجاعا ، ومعه خيل كثيرة ، ورجال أبطال موتورون ، واستدار خلف الجبل ، فدخل من البغرة التى كان الرماة عليها ، فأتاه من وراء المسلمين ، وتراجع قلب المشركين بعد الهزيمة ، فصار المسلمون بينهم فى مثل الحلقة المستديرة ، واختلط الناس ، فلم يعرف المسلمون بعضهم بعضا ، وضرب الرجل منهم أخاه وأباه بالسيف وهو لا يعرفه لشدة النقع والغبار ، ولما اعتراهم من الدهش والعجلة والخوف ؛ فكانت الدبرة عليهم ، بعد أن كانت لهم ؛ ومثل هذا يجرى دائما فى الحرب .

فقلت له رحمه الله : فلما انكشف المسلمون ، وفر منهم من فر ، ما كانت حال رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : ثبت فى نفر يسير من أصحابه يحامون عنه . فقلت : ثم ماذا ، قال : ثم ثابت إليه الأنصار ، وردت إليه عنقا واحدا بعد فرارهم وتفرقهم ، وامتاز المسلمون عن المشركين وكانوا ناحية ، ثم التحمت الحرب ، واصطدم الفيلقان ^(١) .

(١) الفيلق ، كصيقل الجيش .

قلت : ثمّ ماذا ؟ قال : لم يزل المسلمون يحامون عن رسول الله صلى الله عليه وآله ،
والمشركون يتكاثرون عليهم ، ويقتلون فيهم حتى لم يبقَ من النهار إلا القليل ،
والدّولة للمشركين .

قلت : ثمّ ماذا ؟ قال : ثمّ علم الذين بقوا من المسلمين أنّه لا طاقة لهم بالمشركين ،
فأصعدوا في الجبل فاعتصموا به .

فقلت له : فرسول الله صلى الله عليه وآله ما الذى صنع ؟ فقال : صعد في الجبال .
قلت له : أفيجوز أن يقال : إنه فرّ ؟ فقال : إنّما يكون الفرار ممّن أمعن في الحرب
في الصحراء والبيداء ، فأما من الجبل مطلّ عليه وهو في سفحه ؛ فأما رأى مالا يمجبه
أصعد في الجبل ؛ فإنه لا يستمى فارّا . ثم سكت رحمه الله ساعة ، ثم قال : هكذا وقعت
الحال ؛ فإن شئت أن تسمّى ذلك فرارا فسمّه ، فقد خرج من مكة يوم الهجرة فارّا من
المشركين ، ولا وصمة عليه في ذلك .

فقلت له : قد روى الواقديّ عن بعض الصحابة ، قال : لم يبرح رسول الله صلى
الله عليه وآله ذلك اليوم شبراً واحداً ، حتى تجاوزت الفئتان ؛ فقال : دع صاحب هذه
الرواية فليقل ما شاء ، فالصحيح ما ذكرته لك ، ثم قال : كيف يقال : لم يزل واقفاً
حتى تجاوزت الفئتان ؛ وإنما تجاوزا بعد أن ناداه أبو سفيان ، وهو في أعلى الجبل بما ناداه ،
فلما عرف أنّه حيّ وأنه في أعلى الجبل ، وأن الخيل لا تستطيع الصعود إليه ، وأنّ القوم
إن صعدوا إليه رجالاً لم يثقوا بالظفر به ؛ لأنّ معه أكثر أصحابه وهم مستمتيتون إن
صعد القوم إليهم ، وأنهم لا يقتلون منهم واحداً حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة ، لأنهم
لا سبيل لهم إلى الحرب ، لكونهم محصورين في دَرّ واحد ، فالرجل منهم يحامى عن
خَيْط رقبته - كفّوا عن الصعود وقنعوا بما وصلوا إليه من قتل من قتلوه في الحرب ، وأمّوا

يوماً ثانياً يكون لهم فيه الظفر الكليّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله ، فرجعوا عنهم وطلبوا مكة .

وروى الواقديّ عن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن أبي الحويرث ، عن نافع بن جبير ، قال : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أخذاً ، فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في وسطها كلّ ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيتُ عبد الله بن شهاب الزهريّ يقول يومئذ : دُلّوني على محمد ، فلا نجوتُ إن نجاً ! وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جنبه ، مامعه أحد ، ثم جاوزه ، ولقي عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية ، فقال له صفوان : تَرَحّت^(١) ! هلا ضربت محمداً ، فقطعت هذه الشأفة ، فقد أمكنك الله منه ! قال ابن شهاب : وهل رأيته؟ قال : نعم أنت إلى جنبه ، قال : والله مارأيته ، أحلف بالله إنه منّا لممنوع ، خرجنا أربعة تعاهدنا ونعاقدنا على قتله ؛ فلم نخلص إلى ذلك .

قال الواقديّ : فروى نملة - واسم أبي نملة عبد الله بن معاذ ، وكان أبوه معاذ أبا البراء بن معرور لأمّه - قال : لما انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وما معه أحد إلا نُفير قد أحدقوا به من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فانطلقوا به إلى الشعب وما للمسلمين لواء قائم ولا فئة ولا جمع ، وإنّ كتاباً للشركين لتحوشهم مقبلة ومُدبرة في الوادي ، يلتقون ويفترقون ما يرون أحداً يردهم .

قال الواقديّ : وحدثني إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدريّ ، عن أبيه ، قال : حمل مصعب اللّواء ، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب قبل ابن قميّة ، وهو فارّس فضرب يد مصعب قطعها ، فقال مصعب : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ وأخذ اللّواء بيده اليسرى ، وحنّى عليه فضربه فقطع اليسرى ، فضمّه بعضديه إلى صدره ؛

(١) : « ترحت » .

وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ، ثم حل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه، واندق الرمح، ووقع مضطرب وسقط اللواء، وابتدره رجلان من بني عبدالدار؛ سويبط بن حرملة وأبو الرُّوم، فأخذه أبو الرُّوم، فلم يزل بيده حتى دخل به المدينة، حين انصرف المسلمون .

قال الواقدي: وقالوا: إن رسول الله لما لمح القتال، وخلص إليه وذبح عنه مصعب ابن عمير وأبو دُجَّانة، حتى كثرت به الجراحة، جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي نَفْسَهُ؟» فوثب فئة من الأنصار خمسة، منهم عُمارة بن زياد بن السَّكن، فقاتل حتى أُثبت، وفاءت فئة من المسلمين حتى أجهضوا أعداء الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعُمارة بن زياد: ادنُ مِنِّي، حتى وسدَّه رسول الله صلى الله عليه وآله وقدمه، وإنَّ به لأربعة عشر جرحاً حتى مات، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يذمر النَّاس ويحْضهم على القتال، وكان رجالٌ من المشركين قد أذلقوا^(١) المسلمين بالرَّمي: منهم حيَّان ابن العرقة وأبو أسامة الجُشَمي، فجعل النبي صلى الله عليه وآله يقول لسعد: «ارم فداك أبي وأُمِّي!» فرمى حيَّان بن العرقة بسهم فأصاب ذَيْلَ أُمِّ أَيْمَن، وكانت جاءت يومئذ تسقى الجرحى، فقلبها، وانكشف ذَيْلُهَا عنها، فاستغرب حيَّان بن العرقة ضحكاً، وشقَّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصل له، وقال: ارم به، فرمى فوضع السهم في ثغرة نحر حيَّان، فوقع مستلقياً، وبدت عورته . قال سعد: فرأيت النبي صلى الله عليه وآله ضحك يومئذ حتى بدت نواجذه، وقال: استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتك، وسدَّ رميتك، ورمى يومئذ مالك بن زهير الجُشَمي أخو أبي أسامة الجُشَمي المسلمين رمياً شديداً، وكان هو وريَّان بن العرقة قد أسرعَا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأكثرَا فيهم القتل يستتران بالصَّخَر، ويرميان،

(١) أذلقوهم: أوجعوهم .

فبيناهم على ذلك أبصر سعد بن أبي وقاص مالك بن زهير يرمى من وراء صخرة قدرى، وأطلع رأسه، فيرميه سعد، فأصاب السهم عينه، حتى خرج من قفاه، فترى^(١) في السماء قامة، ثم رجع فسقط، فقتله الله عز وجل.

قال الواقدي: ورعى رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوسه يومئذ حتى صارت شظايا، فأخذها قتادة بن النعمان، وكانت عنده، وأصابت يومئذ عين قتادة حتى وقعت على وجنته. قال قتادة: فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله، إن تحتى امرأة شابة جميلة، أحبها وتحبني، وأنا أخشى أن تقذر مكان عيني، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله فردّها وانصرف بها، وعادت كما كانت، فلم تضرب عليه ساعة من ليل ونهار، وكان يقول بعد أن أسن: هي أقوى عيني - وكانت أحسنهما.

قال الواقدي: وباشر رسول الله صلى الله عليه وآله القتال بنفسه، فرمى بالنبل حتى فنيت نبله، وانكسرت سيّة قوسه، وقبل ذلك انقطع وتره، وبقيت في يده قطعة تكون شبراً في سيّة القوس، فأخذ القوس عكاشة بن محصن يوتره له، فقال: يا رسول الله، لا يبلغ الوتر، فقال مدّه يبلغ، قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحقّ لمددته حتى بلغ، وطويت منه ليتين أو ثلاثة على سيّة القوس، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله، فما زال يرمى القوم، وأبو طلحة أمامه يستره مترساً عنه، حتى نظرت إلى سيّة قوسه قد تحطّمت، فأخذها قتادة بن النعمان.

قال الواقدي: وكان أبو طلحة يوم أخذ قد نزل كنيّته^(٢) بين يدي النبي صلى الله عليه وآله، وكان رامياً، وكان صيّا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لصوت أبي طلحة في الجيش خير من أربعين رجلاً»، وكان في كنيّته خمسون سهماً نزلها بين يدي

(٢) نزل كنيّته: أخرج ما فيها.

(١) ١: فترى.

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعل يصيح : نفسى دون نفسك يا رسول الله ! فلم يزل يرمى بها سهماً سهماً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يطلع رأسه من خلف أبى طلحة بين أذنيه ومنكبيه ، ينظر إلى مواقع النبل حتى فنيت نبأه ، وهو يقول : نحري دون نحرك ! جعلنى الله فداك ! قالوا : إنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله ، لياخذ العود من الأرض فيقول : ارم يا أبى طلحة ، فيرمى به سهماً جيّداً .

قال الواقدي : وكان الرّثمة المذكورون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله جماعة : منهم سعد بن أبى وقاص ، وأبو طلحة ، وعاصم بن ثابت ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمقداد بن عمرو ، وزيد بن حارثة ، وحاطب بن أبى بلتعة ، وعُتْبة بن غزوَان ، وخراش ابن الصّمة ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وبشر بن البراء بن معرور ، وأبو نائلة مَكْسان ابن سلامة ، وقتادة بن النعمان .

قال الواقدي : ورمى أبو رهم الغفاريّ بسهم فأصاب نحْرَه ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فبصق عليه ، فبرأ ، فكان أبو رهم بعد ذلك يسمى المنحور .

وروى أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد اللغويّ ، غلام ثعلب ، ورواه أيضاً محمد ابن حبيب في أماليه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما فرّ معظم أصحابه عنه يوم أحد ، كثرت عليه كتائب المشركين ، وقصدته كتيبة من بنى كنانة ، ثم من بنى عبد مناة بن كنانة ، فيها بنو سفيان بن عُويّف ؛ وهم : خالد بن سفيان ، وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان ، وغراب بن سفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا عليّ ! كفى هذه السكتية ، فعمل عليها وإنّها لتقارب خمسين فارساً ؛ وهو عليه السلام راجل ، فما زال يضربها بالسيف حتى تنفّرق عنه ثم تجتمع ^(١) عليه ، هكذا مراراً حتى قتل بنى سفيان بن عويّف الأربعة ، وتمام العشرة منها ، ممن لا يعرف بأسمائهم ، فقال جبرئيل

(١) : « يجمع » .

عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله : يا محمد ، إن هذه المواساة ، لقد عجت الملائكة . من مواساة هذا الفتى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وما يمنعه وهو منى وأنا منه ! فقال جبرائيل عليه السلام : وأنا منكما . قال : وسمع ذلك اليوم صوت من قبل السماء ، لا يرى شخص الصارخ به ، ينادى مرارا :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عنه ، فقال : هذا جبرائيل .

قلت : وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدثين وهو من الأخبار المشهورة ، ووقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق ، ورأيت بعضها خالياً عنه ، وسألت شيخني عبد الوهاب بن سكيته رحمه الله عن هذا الخبر ، فقال : خبر صحيح ، فقلت : فما بال الصحاح لم تشتمل عليه ؟ قال : أو كلاً كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح ؟ كم قد أهمل جامعو الصحاح من الأخبار الصحيحة !

قال الواقدي : وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة الخزومي يحضر^(١) فرسالة أبلق ، يريد رسول الله صلى الله عليه وآله ، عليه لأمة كاملة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله متوجه إلى الشعب وهو يصيح : لا نجوت إن نجوت ! فيقف رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويعثر بعثمان فرسه في بعض تلك الحفر التي حفرها أبو عامر الفاسق للمسلمين ، فيقع الفرس لوجهه ، وسقط عثمان عنه ، وخرج الفرس غائراً ، فيأخذه بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمشي إليه الحارث بن الصمة ، فاضطربا ساعة بالسيفين ، ثم يضرب الحارث رجله ، وكانت درعه مشمرة فبرك ، وذف^(٢) عليه ، وأخذ الحارث

(١) يحضر فرساً : يجريه ، والحضر : ضرب من السير .

(٢) ذف عليه : أجهز .

يومئذ سلبه : درعاً جيّداً ، ومغفراً ، وسيفاً جيّداً ، ولم يسمع بأحد من المشركين سلب يومئذ غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى قتالهما ، فسأل عن الرجل ، قيل : عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، قال : الحمد لله الذي أحانه ^(١) ، وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل ببطن نخلة ، حتى قدم به على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فافتدى ورجع إلى قريش ، وغزا معهم أحداً ، فقتل هناك ، ويرى مصرع عثمان عبيد بن حازم العامري أحد بني عامر بن لؤي ، فأقبل يعدو كأنه سبع ، فيضرب حارث بن الصمة ضربة على عاتقه ، فوقع الحارث جريحاً حتى احتمله أصحابه ، ويقبل أبو دجانة على عبيد بن حازم ، فتناوشا ساعة من نهار ، وكل واحد منهما يتقى بالدرقة سيف صاحبه ، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه ، ثم جلد به الأرض ، وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة ، ثم انصرف ، فلحق رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدي : ويروى أن سهل بن حنيف ، جعل ينضح بالنبل عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : تَبَلَّوا سهلاً ^(٢) فإنه سهل ، ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي الدرداء ، والناس منهزمون في كل وجه ، فقال : نعم الفارس عُويمر ؛ غير أنه لم يشهد أحداً !

قال الواقدي : وروى الحارث بن عبيد الله بن كعب بن مالك ، قال : حدثني من نظر إلى أبي سبرة بن الحارث بن علقمة ، ولقي أحد المشركين ، فاختلفا ضربات ، كل ذلك يروغ أحدهما عن الآخر ، قال : فنظر الناس إليهما كأنهما سُبُعَان ضاريان يفتان مرة ويقتلان أخرى ، ثم تعانقا ، فوقعا إلى الأرض جميعاً ، فعلاه أبو سبرة فذبحه بسيفه كما تذبح الشاة ، ونهض عنه فيقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغر محجل ، يجر قناة طويلة ، فطعن أبا سبرة من خلفه ، فنظرت إلى سنان الرمح خرج من صدره ،

(١) أحانه : أهلكه .

(٢) تَبَلَّوا سهلاً : أى أعطوه النبل .

ووقع أبو سبرة ميّتاً ، وانصرف خالد بن الوليد ، يقول : أنا أبو سليمان !
قال الواقديّ : وقاتل طلحة بن عبيد الله يومئذ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قتالا
شديداً ، وكان طلحة يقول : لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله حيث انهزم
أصحابه ، وكثر المشركون ، فأحدقوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله من كلّ ناحية ، فما أدرى
أقوم من بين يديه أو من ورائه؟ أم عن يمينه أم شماله؟ فأذبّ بالسيف عنه هاهنا وهاهنا
حتى انكشفوا ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ يقول لطلحة : « لقد أوجب »
وروى : « لقد أنحب » أى قضى نذره .

قال الواقديّ : وروى أنّ سعد بن أبي وقاص ذكر طلحة فقال : يرحمه الله ! إنه
كان أعظمنا غناء عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد ، قيل : كيف يا أبا إسحاق ؟
قال : لزم النبيّ صلى الله عليه وآله وكُنّا نتفرّق عنه ، ثمّ نشوب إليه ، لقد رأيته يدورُ حول
النبيّ صلى الله عليه وآله يُترّس بنفسه .

قال الواقديّ : وسئل طلحة : يا أبا محمد ، ما أصاب إصبعك ؟ قال : رمى مالك بن
زهير الجشميّ بسهم يريدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان لا تخطي رميته - فاتقيتُ
بيدي عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصاب خنصرى فشلت .

قال الواقديّ وقالوا : إنّ طلحة قال لما رمى : حسن^(١) ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وآله : لوقال : « بسم الله لدخل الجنة ، والناس ينظرون [إليه]^(٢) ، من أحبّ أن ينظر إلى
رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله ، طلحة
منّ قضى نجه^(٣) .

(١) حسن ، بالبناء على الكسر ؛ كل من يفجؤه ما يؤله ، ومنه قولهم : ضرب فما قال : حسن .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣١٨ .

(٣) في اللسان : « طلحة منّ قضى نجه » النجب : النذر ، كأنه ألزم نفسه أن يصدق الأعداء في الحرب
فوفى به ولم يفسح ، وقيل : هو النجب الموت ، كأنه يلزم نفسه أن يقاتل حتى يموت .

قال الواقدي: وكان طلحة يحدث يقول: لما جال المسلمون تلك الجولة، ثم تراجعوا أقبل رجل من بني عامر بن لؤي يدعى شيبه بن مالك بن المضرب، يجر رحله، وهو على فرس أغر كميّ مدججا في الحديد، يصيح: أنا أبو ذات الودع، دلوني على محمد، فأضرب عرقوب فرسه، فاكتمست^(١) [به]،^(٢) ثم أتناول رحله، فوالله ما أخطأت به عن حدّته، فخار كما يخور الثور، فما برحت به واضعا رجلي على خدّه حتى أزرته شعوب^(٣).

قال الواقدي: وكان طلحة قد أصابته في رأسه المصلبة ضربه رجل من المشركين، ضربتين، ضربة وهو مقبل، وضربه وهو معرض عنه، وكان نزف منها الدم، قال أبو بكر: جئت النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فقال: عليك بابن عمك، فأتى طلحة بن عبيد الله، وقد نزف الدم، فجعلت أنضح في وجهه الماء وهو مغشى عليه، ثم أفاق، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقلت: خيرا، هو أرسلني إليك، فقال: الحمد لله، كل مصيبة بعده جَلَل.

قال الواقدي: وكان ضرار بن الخطاب الفهري يقول: نظرت إلى طلحة بن عبيد الله قد حلق رأسه عند المروة في حُمره، فنظرت إلى المصلبة في رأسه، فكان ضرار يقول: أنا والله ضربته، هو استقبلني فضربته، ثم أكرّ عليه، وقد أعرض، فأضربه ضربة أخرى.

(١) كذا في اللسان، وفي الواقدي: « انكست »، وفي اللسان: « وحديث طلحة يوم أحد: » فضربت عرقوب فرسه فاكتمست به، أي سقطت.

(٢) من اللسان.

(٣) في اللسان: « وفي حديث طلحة: حتى أزرته شعوب، وأوردته النية فزارها. وشعوب من أسماء النية.

قال الواقدي : ولما كان يوم الجبل ، وقتل على عليه السلام من قتل من الناس ، ودخل البصرة ، جاءه رجل من العرب ، فتكلم بين يديه ، ونال من طلحة ، فزبره على عليه السلام ، وقال : إنك لم تشهد يوم أحد ، وعظم غناؤه عن الإسلام ، مع مكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فانكسر الرجل وسكت ، فقال له قائل من القوم : وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أحد ؟ فقال على عليه السلام : نعم ، يرحمه الله ، لقد رأيته وإنه ليترس بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وآله وإن السيوف لتغشاها ، والنبل من كل ناحية ؛ وما هو إلا جنة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، يقيه بنفسه ، فقال رجل : لقد كان يوم أحد يوماً قتل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وآله فيه الجراحة ، فقال على عليه السلام : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : ليت أني غودرت مع أصحابي بنحوص^(١) الجبل ، ثم قال على عليه السلام : لقد رأيته يومئذ وإني لأذهبهم في ناحية ، وإن أبا دجاجة لفي ناحية يذب طائفة منهم ؛ حتى فرج الله ذلك كله ؛ ولقد رأيته وانفردت منهم يومئذ فرقة خشناء^(٢) ، فيها عكرمة بن أبي جهل ، فدخلت وسطهم بالسيف ، فضربت به ، واشتملوا على حتى أفضيت إلى آخرهم ، ثم كررت فيهم الثانية ، حتى رجعت من حيث جئت ؛ ولكن الأجل استأخر ، ويقضى الله أمرا كان مفعولا .

قال الواقدي : وحدثني جابر بن سليم عن عثمان بن صفوان ، عن عمارة بن خزيمة ، قال : حدثني من نظر إلى الحباب بن المنذر بن الجوح ، وإنه ليحوشهم^(٣) يومئذ كما تحاش الغنم ؛ ولقد اشتملوا عليه حتى قيل : قد قتل ، ثم برز والسيوف في يده ، وافترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم ، وإنهم ليهربون منه إلى جمع منهم ،

(١) ب : « بحصن ، وصوابه من الواقدي ، وفيه : قال ابن أبي الزناد : نحص الجبل أسفله » .

(٢) فرقة خشناء ، أي كثيرة السلاح . (٣) يحوشهم ، أي يجمعهم .

وصار الحُباب إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وكان الحُباب يومئذ معلماً بعصابة خضراء في مَغْفَرِهِ .

قال الواقديّ : وطلع يومئذ عبد الرحمن بن أبي بكر على فرس مدججاً لا يرى منه إلا عيناه ، فقال : مَنْ يبارز ؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر ، وقال : أنا أبارزه ، وجرّد سيفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : شِمِّ سيفك ، وارجع إلى مكانك ، ومتّعنا بنفسك .

قال الواقديّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما وجدتُ لشماس بن عثمان شبيهاً إلا الأُجَنَّةَ ، يعنى مما يقاتل عن رسول الله يومئذ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ يميناً ولا شمالاً إلا رأى شماس بن عثمان في ذلك الوجه ، يذبّ بسيفه عنه ، حتى غشى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فترسَ^(١) بنفسه دونه ، حتى قتل ، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما وجدتُ لشماس شبيهاً إلا الأُجَنَّةَ » .

قال الواقديّ : ولما ولى المسلمون حين عطف عليهم خالد بن الوليد من خلفهم ، كان أوّل من أقبل من المسلمين بعد التّولية قيس بن محرث مع طائفة من الأنصار ، وقد كانوا بلغوا بنى حارثة فرجعوا سراعاً فصادفوا المشركين في كثيرتهم ، فدخلوا في حوْمَتِهِمْ ، فما أفلت منهم رجل حتى قُتِلُوا كُلُّهُمْ ، ولقد ضاربهم قيس بن محرث ، فامتنع بسيفه حتى قتل منهم نفرا ، فما قتلوه إلا بالرّماح ، نظموه ، ولقد وجد به أربع عشرة طعنة جائفة^(٢) وعشر ضربات بالسيف .

قال الواقديّ : وكان عباس بن عباد بن نَضْلَةَ المعروف بابن قَوْقِل ، وخارجة بن

(١) ترس بنفسه ، أى جعل نفسه له كالترس .

(٢) الطعنة الجائفة : التى تبلغ الجوف ، وفي الواقديّ : « قد جائفته » .

زيد بن أبي زهير ، وأوس بن أرقم بن زيد ، وعبّاس رافع صوته يقول : يا معشر المسلمين ،
الله ونبّيكم ! هذا الذي أصابكم بمعصية نبّيكم ؛ وعدكم^(١) النصر فما صبرتم . ثم نزع مغفره
عن رأسه ، وخلع درّعه وقال لخارجة بن زيد : هل لك في درّعي ومغفري ؟ قال خارجة :
لا ، أنا أريد الذي تريد ، نغالطوا القوم جميعا ، وعبّاس يقول : ما عذرنا عند ربنا إن
أصيب نبينا ومنا عين تطرف ! قال : فيقول^(٢) خارجة : لا عذر لنا والله عند ربنا ولا حجة ،
فأمّا عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السلمي ، ولقد ضربه عباس ضربتين ، فجرحه
جرحين عظيمين ، فارتث يومئذ جريحا ، فمكث جريحا سنة ، ثم استبل . وأخذت خارجة
ابن زيد الرماح ، فجرح بضعة عشر جرحا ، فمرّ به صفوان بن أمية ، فعرفه فقال : هذا
من أكابر أصحاب محمد ، وبه رمق ، فأجهز عليه . وقتل أوس بن أرقم ، وقال صفوان : من
رأى خبيب بن يساف ؟ وهو يطلبه فلا يقدر عليه . ومثّل يومئذ بخارجة ، وقال : هذا
من أغرى بأبي يوم بدر - يعني أمية بن خلف - وقال : الآن شفيت نفسي حين قتلت
الأمائل من أصحاب محمد ، قتلت ابن قوقل ، وقتلت ابن أبي زهير ، وقتلت أوس
ابن أرقم .

قال الواقدي : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : من يأخذ هذا السيف
بحقه ؟ قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : يضرب به العدو ، فقال عمر : أنا يا رسول الله ،
فأعرض عنه ، ثم عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الشرط ، فقام الزبير ، فقال :
أنا ، فأعرض عنه ، حتى وجد^(٣) عمرو الزبير في أنفسهما ، ثم عرضه الثالثة ، فقام أبو دجّانة ،
وقال : أنا يا رسول الله آخذه بحقه ، فدفعه إليه . فصدق حين لقي به العدو ، وأعطى السيف
حقه ، فقال أحد الرجّالين - إمّا عمر بن الخطاب أو الزبير : والله لأجعلن هذا الرجل الذي
أعطاه السيف ومنعني من شأني ، قال : فاتبعته ، فوالله ما رأيت أحدا قاتل أفضل

(١) : « قيودكم » . (٢) الواقدي : « يقول » . (٣) أي غضبا .
(١٧ - نهج - ١٤)

من قتاله ، لقد رأيته يضرب به حتى إذا كلَّ عليه وخاف ألاَّ يَحْيِكَ ^(١) عمدَ به إلى الحجارة ، فشحذه ، ثم يضرب به العدو ، حتى يردّه ^(٢) كأنّه منجل ، وكان حين أعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله السيف مشى بين الصّقّين ، واختال في مشيته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين رآه يمشى تلك المشية : إنّ هذه لمشيّة يُبغضها الله تعالى إلّا في مثل هذا الموطن ، قال : وكان أربعة من أصحاب النّبىّ صلى الله عليه وآله يعلمون في الزّخوف ، أحدهم أبو دُجّانة ، كان يعصب رأسه بعصابة حمراء ، وكان قومه يعلمون أنّه إذا اعتصبَ بها أحسن القتال ، وكان علىّ عليه السلام يعلم بصوفةٍ بيضاء ، وكان الزّبير يعلم بعصابة صفراء ، وكان حمزة يعلم بريش نعامة .

قال الواقديّ : وكان أبو دُجّانة يحدث يقول : إنّى لأنظر يومئذ إلى امرأة تغدّف الناس وتحوشهم حوشاً منكراً ، فرفعتُ عليها السيف ، وما أحسبها إلّا رجلاً ؛ حتى علمت أنّها امرأة ، وكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة والمرأة عمرة بنت الحارث .

قال الواقديّ : وكان كعب بن مالك يقول : أصابني الجراح يوم أحد ، فلمّا رأيت المشركين يمثّلون بالمسلمين أشدّ المثل وأقبحها ، قتتُ فتنتجّيت عن القتلى ، فإني لفي موضعي أقبلَ خالد بن الأعمى العقيليّ جامع اللّامة يحوش المسلمين ، يقول استوسقوا ^(٣) كما يستوسق جُرب الغنم ، وهو مدجّج في الحديد ، يصيح : يامعشر قريش ، لا تقتلوا محمداً ، أسروه أسراً حتى نعرفه ماصنع ؛ ويصمّد له قُزّمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقه رأيت منها سحره ، ثم أخذ سيفه وانصرف ، فطلع عليه من المشركين فارس ما أرى منه إلّا عينيه ، فحمل عليه قُزّمان ، فضربه ضربةً جزّله اثنين ، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام الخزوميّ ، ثم يقول كعب : إنّى لأنظر يومئذ وأقول : ما رأيتُ مثل هذا الرجل أشجع

(٣) استوسقوا : اجتمعوا .

(٢) : « رده » .

(١) لا يَحْيِكَ : لا يؤثّر .

بالسيف ، ثم ختم له بما ختم له به ! فيقال له : فما ختم له به ؟ فيقول : من أهل النار ، قتل نفسه يومئذ .

قال الواقدي : وروى أبو النمر الكنانى ، قال : أقبلت يوم أحد وأنا من المشركين ، وقد انكشف المسلمون ، وقد حضرت في عشرة من إخواني ، فقتل منهم أربعة ؛ وكان الريح للمسلمين أول ما التقينا ، فلقد رأيتني وانكشفنا مولين ، وأقبل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على نهب العسكر ، حتى بلغت الجماء ، ثم كرت خيلنا ، فقلت : والله ما كرت الخيل إلا عن أمر رآته ، فكررنا على أقدامنا كأننا الخيل ، فنجد القوم قد أخذ بعضهم بعضاً ، يقاتلون على غير صفوف ، ما يدري بعضهم من يضرب ، وما للمسلمين لواء قائم ، ومع رحل من بنى عبد الدار لواء المشركين ، وأنا أسمع شعار أصحاب محمد بينهم : « أَمِيتْ أَمِيتْ » ، فأقول في نفسي : ما « أَمِيتْ » ؟ وإني لأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن أصحابه محدقون به ، وإن الثبل ليمر عن يمينه ويساره ، ويقع بين يديه ، ويخرج من ورائه ، ولقد رميت يومئذ بخمسين مرمية ، فأصبت منها بأسمهم بعض أصحابه ، ثم هداني الله إلى الإسلام .

قال الواقدي : وكان عمرو بن ثابت بن وقش شاكاً في الإسلام ، وكان قومه يكلمونه في الإسلام ، فيقول : لو أعلم ما تقولون حقاً ما تأخرت عنه ، حتى إذا كان يوم أحد بدا له الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وأخذ سيفه وأسلم ، وخرج حتى دخل في القوم ، فقاتل حتى أثبت^(١) ، فوجد في القتلى جريحاً ميتاً ، فدنوا منه وهو بأخر رمق ، فقالوا : ما جاء بك يا عمرو ؟ قال : الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله ، وأخذت سيفي وحضرت فرزقني الله الشهادة ، ومات في أيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني لمن أهل الجنة » .

(١) أثبت ، أى جرح .

قال الواقديّ : فكان أبو هريرة يقول ، والناس حوله : أخبروني برجل يدخل الجنة لم يصلّ لله تعالى سجدة ؟ فيسكت الناس ، فيقول أبو هريرة : هو أخو بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش .

قال الواقديّ : وكان مخيرق اليهوديّ من أحبار يهود ، فقال يوم السّبت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد : يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبيّ ، وأن نصره عليكم حقّ . فقالوا : ويحك ! اليوم يوم السبت ، فقال : لا سبت ، ثم أخذ سلاحه وحضر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصيب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مخيرق خير يهود » .

قال الواقديّ : وكان مخيرق قال حين خرج إلى أحد : أن أصبت فأموالي لمحمد يضعها حيث أراه الله فيه ، فهي عامّة صدقات النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الواقديّ : وكان حاطب بن أمية منافقاً ، وكان ابنه يزيد بن حاطب رجلاً صدق ، شهد أحداً مع النبي صلى الله عليه وسلم فارتث^(١) جريحاً ، فرجع به قومه إلى منزله ، قال : يقول أبوه وهو يرى أهل الدار يبكون عنده : أنتم والله صنعتُم هذا به ، قالوا : كيف ؟ قال : أغررتموه من نفسه حتى خرج فقتل ، ثم صرتم معه إلى شيء آخر تعدّونه جنة ، يدخل فيها حبة من حرمل ، قالوا : قاتلك الله ! قال هو ذاك ، ولم يقرّ بالإسلام^(٢) .

قال الواقديّ : وكان قزمان عسيفاً^(٣) من بني ظفر ، لا يدري بمن هو ، وكان لهم محبباً ،

(١) ارتث : حل من المعركة جريحاً وبه رمق .

(٢) الخبر في ابن هشام ٣ : ٣٧ عن عاصم بن عمر بن قتادة : « أن رجلاً منهم كان يدعى حاطب ابن أمية بن رافع ، وكان له ابن يقال له زيد بن حاطب ؛ أصابته جراحة يوم أحد ؛ فأتى به إلى قومه وهو بالموت ، فاجتمع إليه أهل الدار ؛ فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء : أبشر يا ابن حاطب بالجنة ، قال : وكان حاطب شيخاً قد عسا (أى كبر) في الجاهلية ، فنجم يومئذ نفاقه ، فقال : بأى شيء تبشرونه ! أبحقه من حرمل ! غررتم والله هذا الغلام من نفسه !

(٣) عسيفاً ، أى أجيراً .

وكان مقلًا ولا ولد له ولا زوجة ، وكان شجاعاً يعرف بذلك في حروبهم التي كانت تكون بينهم ، فشهد أحداً ، وقاتل قتالا شديداً ، فقتل ستة أو سبعة ، فأصابته الجراح فقبل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن قرمان قد أصابته الجراح ، فهو شهيد ، فقال : بل من أهل النار ، فجاءوا إلى قرمان ، فقالوا : هنيئاً لك أبا العيDAQ الشهادة ! فقال : بئس تبشرونني ! والله ما قاتلنا إلا على الأحساب ، قالوا : بشرناك بالجنة ، قال حبة والله من حرمل ، إنا والله ما قاتلنا على جنة ولا على نار ، إنما قاتلنا على أحسابنا ، ثم أخرج سهما من كنانته ، فجعل يتوجأ به نفسه ، فلما أبطأ عليه المشقص ، أخذ السيف ، فاتكأ عليه ، حتى خرج من ظهره ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فقال : « هو من أهل النار » .

قال الواقدي : وكان عمرو بن الجوح رجلاً أعرج ، فلما كان يوم أحد ، وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهد أمثال الأسد ، أراد قومه أن يحبسوه ، وقالوا : أنت رجل أعرج ، ولا حرج عليك ، وقد ذهب بنوك مع النبي صلى الله عليه وسلم قال : بخ ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عنديكم ! فقالت هند بنت عمرو بن حزام امرأته : كأني أنظر إليه مولياً قد أخذ درقته ، وهو يقول : اللهم لا تردني إلى أهلي ، فخرج ولحقه بعض قومه يكلمونه في القعود ، فأبى وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن قومي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك ، والله إني لأرجو أن أظاً بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له : أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك ، فأبى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقومه وبنيه : لا عليكم أن تمنعوه ، لعل الله يبرزه الشهادة ؛ فخلوا عنه . فقتل يومئذ شهيداً . وكان أبو طلحة يحدث ، يقول : نظرت إلى عمرو بن الجوح حين انكشف المسلمون ، ثم تابوا وهو في الرعيل الأول ، لكأني أنظر إلى ضلعه وهو يرج في مشيته ، وهو يقول : أنا والله مشتاق إلى الجنة ، ثم أنظر إلى ابنه يمدو في أثره ، حتى قُتلا جميعاً .

قال الواقدي ، وكانت عائشة خرجت في نسوة تستروح الخبر ، ولم يكن قد ضرب الحجاب يومئذ ، حتى كانت بمنقطع الحرّة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي ، لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام ، أخت عبد الله بن عمرو بن حزام ، تسوق بعيراً لها ، عليه زوجها عمرو بن الجوح ، وابنها خالد بن عمرو بن الجوح ، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام^(١) أبو جابر بن عبد الله ، فقالت لها عائشة : عندك الخبر ، فما وراءك ؟ فقالت هند : خير ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالح ، وكلّ مُصيبة بعده جَلَل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

— قلت : هكذا وردت الرواية ، وعندى أنها لم تقل كلّ ذلك ، ولعلها قالت : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ » ، لا غير ، وإلا فكيف يواطىء كلامها آية من كلام الله تعالى أنزلت بعد الخندق والخندق بعد أخذ ! هذا من البعيد جداً —

قال : فقالت لها عائشة : فمن هؤلاء ؟ قالت : أخي وابني وزوجي قُتِلَ ، قالت : فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرهم بها ، « حلّ حلّ » ، تزجر بعيرها ، فبرك البعير ، فقالت عائشة : لثقل ما حمل ، قالت هند : ماذا بك ، لربّما حمل ما يحمله البعيران ، ولكني أراه لغير ذلك ، فزجرته فقام ، فلما وجهت به إلى المدينة برك ، فوجهته راجعة إلى أحد ، فأسرع ، فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فقال : إنّ الجمل للمأمر ، هل قال عمرو شيئاً ؟ قالت : نعم ، إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة ، ثم قال : اللهم لا تردني إلى أهلي ، وارزقني الشهادة ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : فذلك الجمل لا يمضي ، إنّ منكم يامعشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجوح ، ياهند ، مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قُتِلَ إلى الساعة ، ينظرون أين يدفن ! ثم مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرهم ، ثم قال : ياهند ، قد ترافقوا في الجنة .

(١) الواقدي : « حرام » .

جميعا ؛ عمرو بن الجوح بعلك ، وخلّاد ابنك ، وعبد الله أخوك . فقالت هند :
يا رسول الله ، فادع الله لى عسى أن يجعلنى معهم !

قال الواقديّ : وكان جابر بن عبد الله ، يقول : اصطبيح ناسٍ يوم أحدٍ الحمرّ ، منهم
أبى ، فقتلوا شهداء .

قال الواقديّ : وكان جابرٌ يقول : أوّل قتيل من المسلمين يوم أحدٍ أبى ؛ قتله
سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السّلميّ ، فضلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
قبلَ الهزيمة .

قال الواقديّ : وكان جابر يحدث ، ويقول : استشهد أبى ، وجعلتُ عمّتي تبكى ،
فقال النّبيّ صلى الله عليه وسلم : ما يبكيها ! ما زالت الملائكة تظللّ عليه بأجنحتها
حتى دُفِن .

قال الواقديّ : وقال عُبَيْدُ اللَّهِ بن عمرو بن حزام : رأيتُ فى النّوم قبل يوم أحدٍ
بأيام مبشّر بن عبد المذّر ، أحد الشهداء ، يقول لى : أنت قادم علينا فى أيّام !
فقلت : فأين أنت ؟ قال : فى الجنّة نسرح منها حيث نشاء ، فقلت له : ألم تقتل يوم
بدر ؟ قال : بلى ، ثم أحييت ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هذه
الشهادة يا جابر » .

قال الواقديّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ : ادفنوا عبد الله بن
عمرو بن حزام وعمرو بن الجوح فى قبر واحد ، ويقال : إنهما وجدا وقد مُثِّلَ بهما كلّ
مُثْلَةٍ قطعت أرايهما^(١) عضوا عضوا ، فلا تعرف أبدانهما . فقال النّبيّ صلى الله عليه وسلم
« ادفنوها فى قبر واحد » ، ويقال : إنّما أمر بدفنهما فى قبر واحد ، لما كان بينهما

(١) الأراب : جمع إرب ، بالكسر والسكون ، وهو العضو .

من الصفاء ، فقال : ادفنوا هذين المتحايين في الدنيا في قبر واحد .
وكان عبد الله بن عمرو بن حرام رجلاً أحمر أصلع ، ليس بالطويل ؛ وكان عمرو
ابن الجموح طويلاً ، فمُرفا ودخل السَّيل بعد عليهما ، وكان قبرهما ممّا يلي السَّيل ، فخفر
عنهما ، وعليهما نمرتان وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه ، فيده على وجهه^(١) ، فأميطت
يده عن جرحه ، فثعب^(٢) الدم ، فردت إلى مكانها فسكن الدّم .

قال الواقديّ : وكان جابر بن عبد الله يقول : رأيت أبي في حفرتي ، وكأنه نائم ،
وما تغير من حاله قليل ولا كثير ؛ فقليل له : أفرأيت أ كفانه ؟ قال : إنما كنّ في
نمرة^(٣) تُخربها وجهه ، وعلى رجليه الخُرمل فوجدنا النمرة كما هي ، والخُرمل على رجليه
كهيئته ، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة ، فشاوَرهم جابر في أن يطيبه
بمسك ، فأبى ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا تحدّثوا فيهم شيئاً .

قال : ويقال إنّ معاوية لما أراد أن يُجرى العين التي أحدثها بالمدينة ، وهي كظامة
نادى مناديه بالمدينة : من كان له قتيل بأحد فليشهد . فخرج النَّاس إلى قتلاهم فوجدوهم
رطاباً يتثنون ، فأصابَت المسحاة رجل رجلٍ منهم ، فثعبت دما ، فقال أبو سعيد
الخدريّ : لا ينكر بعد هذا منكر أبداً .

قال : ووُجد عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد ، ووُجد
خارجة بن زيد بن أبي زهير وسعد بن الربيع في قبر واحد ، فأما قبر عبد الله وعمرو
فخوّل ، وذلك أنّ القناة كانت تمرّ على قبرهما ، وأما قبر خارجة وسعد فترك ، وذلك
لأنّ مكانه كان معزلاً ، وسوّى عليهما التراب ، ولقد كانوا يحفرون التراب ، فكلّما
حفروا قُترة من تراب ، فاح عليهما المسك .

(٢) ثعب الدم : سال .

(١) : « جرحه » .

(٣) النمرة : بردة من صوف .

قال : وقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجابر : يا جابر ، ألا أبشرك ؟ فقال : بلى ، بأبى وأُمى ! قال : فإن الله أحيا أباك ، ثم كلمه كلاما ، فقال له : تمنّ على ربك ما شئت ! فقال : أتمنى أن أرجع فأقتل مع نبيك ، ثم أحيا فأقتل مع نبيك ، فقال : إني قد قضيت أنهم لا يرجعون .

قال الواقدي : وكانت نسيبة بنت كعب أمّ عمارة بن غزيرة بن عمرو قد شهدت أحدا ، وزوجها^(١) غزيرة وابناها عمارة بن غزيرة وعبد الله بن زيد ، وخرجت ومعها^(٢) لها في أول النهار تريد تسقى الجرْحى ، فقالت يومئذ وأبلى بلاء حسنا ، فخرجت اثني عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، فكانت أمّ سعد بنت سعد بن الربيع تحدث ، فتقول : دخلت عليها ، فقالت لها : يا خالة ، حدثيني خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار إلى أحد ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصحابة والدّولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلت أبشر القتال ، وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ، وأرمى بالقوس ، حتى خلصت إلى الجراح ، فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ، فقلت : يا أمّ عمارة ، من أصابك بهذا ؟ قالت : أقبل ابن قميّة ، وقدولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيح : دلّوني على محمد ، لانبجوت إن نجا افاعترض له مصعب بن عمير وناس معه ، فكنت فيهم ، فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان . فقالت لها : يدك ما أصابها ؟ قالت : أصيبت يوم اليمامة ، لما جعلت الأعراب تنهزم بالناس ، نادى الأنصار : أخلصونا . فأخلصت الأنصار ، فكنت معهم ، حتى انتهينا إلى حديقة الموت ، فاقنتلنا عليها ساعة ، حتى قُتل أبو دجانة على باب الحديقة ؛ ودخلتها

(١) كذا في الواقدي ، وفي ب : « وتزوجها » .

(٢) الشن : القرية الحلق الصغيرة ، يكون فيها الماء أبرد من غيرها .

وأنا أريد عدو الله مُسيّمة ، فيعرض لى رجل ، فضرب يدى فقطعها ، فوالله ما كانت ناهية ، ولا عرّجت عليها ، حتى وففت على الخبيث مقتولاً ، وابنى عبد الله بن زيد المازنىّ يمسحُ سيفه بثيابه ، فقلت : أقتلته ؟ قال : نعم ، فسجدتُ شكراً لله عزّ وجلّ وانصرفت .

قال الواقديّ : وكان ضَمْرَة بن سعيد يحدث عن جدّته ، وكانت قد شهدت أحدًا تسقى الماء ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يومئذ : لَمَقَام نَسِيبَة بنت كعب اليوم خيرٌ من مُقام فلان وفلان . وكان يراها يومئذ تقاتل أشدّ القتال ، وإنّها لحاجة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا .

قلت : ليت الرّاوى لم يكنّ هذه الكناية ، وكان يذكرها باسمها حتى لا يترامى الظنون إلى أمور مشتبّهة ! ومن أمانة المحدث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتّم منه شيئا ، فما باله كتم اسم هذين الرجلين !

قال : فلما حضرت نَسِيبَة^(١) الوفاة ، كنت فيمن غسلها فعددت جراحها جرحا جرحا فوجدتها ثلاثة عشر ؛ وكانت تقول : إني لأنظر إلى ابن قَيْثَة وهو يضربها على عاتقها - وكان أعظم جراحها ، لقد داوته سنة - ثم نادى منادى النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء أحد : إلى حمراء الأسد ! فشدتّ عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدّم ، ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح ، حتى أصبحنا ، فلما رجع رسول الله من حمراء الأسد ، لم يصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازنىّ يسأل عنها ، فرجع إليه فأخبره بسلامتها ، فسرّ بذلك .

قال الواقديّ : وحدثني عبد الجبار بن عمار بن غزيرة ، قال : قالت أمّ عُمارة

(١) الواقديّ : فلما حضرتها .

لقد رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بقي إلا نفيهم ما يتمون عشرة ، وأنا وأبنائي وزوجي بين يديه نذب عنه ، والناس يمرّون عنه منهزمين ، فرآني ولا ترس معي ، ورأى رجلا موليا معه ترس ، فقال : يا صاحب الترس ، الق ترسك إلى من يقاتل . فالتقي ترسه فأخذته ، فجعلت أترس به على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل ، ولو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم ، فيقبل رجل على فرس ، فضربي وترست له ، فلم يصنع سيفه شيئا ، وولّى وأضرب عرقوب فرسه ، فوقع على ظهره ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصيح : يا بن عمارة ، أمك أمك ! قالت : فعاونني عليه حتى أوردته شعوب (١) .

قال الواقدي : وحدثنني ابن أبي سبرة ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن زيد المازني ، قال : جرحت يومئذ جرحا في عضدي اليسرى ، ضربني رجل كأنه الرقّل ولم يعرج عليّ ، ومضى عني ، وجعل الدم لا يرقأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعصب جرحك ، فتقبل أمي إلى ، ومعها عصائب في حقّوينها قد أعدتها للجراح ، فربطت جرحي والنبي صلى الله عليه وسلم واقف ينظر ، ثم قالت : انهض يا بني ، فضارب القوم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ! قالت : وأقبل الرجل الذي ضربني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا ضارب ابنك ، فاعترضت أمي له ، فضربت ساقه ، فبرك ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تبسم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقدت يا أم عمارة . ثم أقبلنا نعلوه (٢) بالسلاح حتى أتينا على نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك ، وأراك تارك بعينك !

(١) شعوب : اسم النية .

(٢) ب : « نعله » ، والصواب ما أثبتته من ١ والواقدي .

قال الواقدي : وروى موسى بن ضمرة بن سعيد، عن أبيه ، قال : أتني عمر بن الخطاب في أيام خلافته بمروط^(١) كان فيها مِرْط واسع جيد ، فقال بعضهم : إن هذا المِرْط بشمن كذا ، فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد ، وذلك حدثان^(٢) ما دخلت على ابن عمر ، فقال : بل أبعث به إلى من هو أخقّ منها ، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد يقول : ما التفتُ يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني ..

قال الواقدي : وروى مروان بن سعيد بن المعلى ، قال : قيل لأُمّ عمارة : يا أمّ عمارة هل كنتِ نساء قريش يومئذ يقاتلن مع أزواجهن ؟ فقالت : أعوذ بالله ، لا والله ما رأيتُ امرأة منهن رمّت بسهم ولا حَجَرَ ، ولكن رأيتُ معهنّ الدِّفَاف والأَكْبَار يضربن ويدكرن القوم قتلى بدر ، ومعهنّ مكاحل ومراود ، فكلما ولّى رجل أو تكعكع ناولته إحداهنّ مروداً ومكحلة ، ويقلن : إنما أنت امرأة ، ولقد رأيتهنّ ولّين منهنّ مائت مشمّرات ، ولها عنهنّ الرّجال أصحاب الخيل ، ونجوا على متون خيلهم ، وجعلن يتبعن الرّجال على أقدامهنّ ، فجعلن يسقطن في الطريق ، ولقد رأيت هنداً بنت عتبة ، وكانت امرأة ثقيلة ، ولها خلقي ، قاعدة خاشية من الخيل ، ما بها مشى ، ومعها امرأة أخرى ، حتى كثر القوم علينا ، فأصابوا منّا ما أصابوا ، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ من قبل الرماة ومعصيتهم لرسول^(٣) الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : وحدثني ابن أبي سبرة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة ، عن الحارث بن عبد الله ، قال : سمعتُ عبد الله بن زيد بن عاصم ، يقول : شهدتُ أحداً

(١) المِرْط ، بالكسر : كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به ، وربما تلقى المرأة على رأسها وتلفع به وجهه مروط .
(٢) حدثان الأمر : ابتداءه .
(٣) ١ : « الرسول » .

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تفرّق الناس عنه ، دنوت منه ، وأمى تذبّ عنه ، فقال : يابن عُمارة ، قلت : نعم ، قال : ارمي فرميتُ بين يديه رجلاً من المشركين بحجر ، وهو على فرس ، فأصابت عين الفرس ، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت أعلوه بالحجارة ، حتى نضدت عليه منها وقراً ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم ينظر إلىّ ويتبسّم ، فنظر إلى جرح بأمي على عاتقها ، فقال : أمك أمك ! اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ! لمقام أمك خيرٌ من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيك - يعني زوج أمه - خيرٌ من مقام فلان ، رحمكم الله من أهل بيت ! فقالت أمي : ادع لنا الله يا رسول الله أن ترافقك في الجنة ، فقال : « اللهم اجعلهم رُفقاء في الجنة » ، قالت : فما أبالي ما أصابني من الدنيا .

قال الواقدي : وكان حنظلة بن أبي عامر تزوّج جميلة بنت عبد الله بن أبيّ بن سلول ، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبيحتها قتال أحد ، وكان قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيت عندها ، فأذن له ، فلما صلى الصبح غدا يريد النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فلزمته جميلة ، فعاد فكان معها ، فأجنب منها ، ثم أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها ، فأشهدتهم أنه قد دخل بها ، فقبل لها بعد : لم أشهدت عليه ؟ قالت : رأيتُ كأنّ السماء فُرِجَتْ ، فدخل فيها ثم أطبقت . فقلت : هذه الشهادة ، فأشهدت عليه أنه قد دخل بي ، فعلمت منه بعبد الله بن حنظلة . ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد ، فولدت له محمد بن ثابت ابن قيس : وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه ، فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وهو يسوّى الصفوف ، فلما انكشف المشركون ، اعترض حنظلة لأبي سفيان بن حرب ، فضرب عُرقوب فرسه ، فاكتسعت الفرس ، ويقع أبو سفيان إلى الأرض ، فجعل يصيح : يا معشر قريش ، أنا أبو سفيان بن حرب ! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فأسمع الصوت رجلاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة ، حتى عاينه الأسود بن شعوب ، فحمل على حنظلة بالرمح .

فأنفذه ، ومشى حنظلة إليه في الزمخ فضربه ثانية فقتله ، وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه ، فلاحق ببعض قریش ، فزحل عن صدر فرسه ، وردف وراءه أبا سفيان ، فذلك قول أبي سفيان يذكر صبره ووقوفه وأنه لم يفر ، وذكره محمد بن إسحاق^(١) :

ولو شئتُ نجّيتُ كميّة طِمْرَةٍ ولم أحمل النّعماء لابن شعوب^(٢)
وما زال مهري مزجر الكلب فيهم لدن غُدوةً حتى دنت لغروب^(٣)
أقتاتلهم وأدعي يالَ غالبٍ وأدفعهم عني بركن صليب^(٤)
فبكي ولا ترعيّ مقالة عاذلٍ ولا تسأني من عَبرةٍ ونجيب
أيالك وإخوانًا لنا قد تتابعوا^(٥) وحق لهم من حسرة بنصيب
وسلي الذي قد كان في النفس إنني قتلْتُ من النّجار كلَّ نجيب
ومن هاشم قرماً كريماً ومُصعباً وكان لَدَي الهيجاء غير هيب^(٦)
ولو أني لم أشف نفسي منهم لكنت شجاً في الصّدر ذات ندوب^(٧)
فأبوا وقد أودى الجلايبُ منهم بهم كد من واجمٍ وكثيب^(٨)
أصابهم من لم يكن لدمائهم كفاء ولا في سِنخِهم بضرب^(٩)
قال الواقدي : مرّ أبو عامر الراهب على حنظلة ابنه وهو مقتول إلى جنب

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) الطمرة : الفرس السريعة الوثب ، وفي الأصول : « النعمان » تحريف .

(٣) ابن هشام : « منهم » ، ومزجر الكلب ، يريد أنه قريب ، والضير في « دنت » يعود إلى الشمس .

(٤) صليب : شديد قوى . (٥) ابن هشام : « وإخواناً له » .

(٦) القرم في الأصل : الفحل الكريم من الإبل ، وعني به هاشم حزة بن عبد المطلب . والمصعب : الفحل من الإبل أيضاً .

(٧) الندوب : آثار الجروح .

(٨) الجلايب : الجماعات . وفي ابن هشام :

* بِهِمْ حَدَبٌ مِنْ مُعْبِطٍ وَكَثِيبٌ *

(٩) في ابن هشام : « ولا في حطة بضرب » .

حمزة بن عبد المطلب ، وعبد الله بن جحش ؛ فقال : إن كنت لأحذر لك هذا الرجل - يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم - من قبل هذا المصرع ، والله إن كنت لبرأ بالوالد ، شريف الخلق فى حياتك ، وإن ممانتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم ، إن جرى الله هذا القتل - يعنى حمزة - خيرا ، أو جرى أحدا من أصحاب محمد خيرا ، فإيجزك ، ثم نادى : يا معشر قريش ، حظلة لا يمثل به ، وإن كان خالفنى وخالفكم ؛ فلم يأل لنفسه فيما يرى خيرا ، فمثل بالناس وترك حظلة فلم يمثل به .

وكانت هند بنت عتبة أول من مثل بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمرت النساء بالمثل ، ويجذع الأنوف والآذان ، فلم تبق امرأة إلا عليها مضدان^(١) ومسكتان^(٢) وخذمتان^(٣) إلا حظلة لم يمثل به ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني رأيت الملائكة تغسل حظلة بن أبى عامر بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة » ؛ قال أبو أسيد الساعدي : فذهبنا فنظرنا إليه ، فإذا رأسه يقطر ماء ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فأرسل إلى امرأته فسأها ، فأخبرته أنه خرج وهو جنب . قال الواقدي : وأقبل وهب بن قابوس المزني ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عتبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة ، فوجد المدينة خلوًا ، فسألا : أين الناس ؟ قالوا : بأحد ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين من قريش ، فقال : لا نبتنى أثرًا بعد عين ، نخرجنا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم بأحد ، فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأغاروا مع المسلمين فى النهب ، وجاءت الخيل من ورائهم ، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ، فاختلف الناس ، فقاتلا أشد القتال ، فانفرت فرقة من المشركين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لهذه الفرقة ؟ فقال وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله ، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ، ثم رجع فانفرت فرقة

(١) المضد : الدمج ، وهو حلى يلبس فى المعصم .

(٢) المسك : الأسورة من القرون والعاج .

(٣) الخدمة : الخلل .

أخرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ لهذه الكتيبة ؟ فقال المُرزِيُّ : أنا يارسول الله ، فقام فذبحها بالسيف حتى ولّت ، ثم رجع فطلعت كتيبة أخرى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يقوم لهؤلاء ؟ فقال المُرزِيُّ : أنا يارسول الله فقال : قم وأبشِرْ بِالْجَنَّةِ . فقام المُرزِيُّ مسرورا يقول : والله لا أقيل ولا أستقيل ، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه والمسلمون ، حتى خرج من أقصى الكتيبة ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم ارحمه ، ثم يرجع فيهم ، فما زال كذلك وهم محدقون به ، حتى اشتعلت عليه أسياؤهم ورماحهم ، فقتلوه فوجد به يومئذ عشرون طعنة بالرماح ، كلّها قد خلصت إلى مقتلى ، ومثّل به أقبحَ المثل يومئذ . ثم قام ابنُ أخيه ، فقاتل كنحو قتاله ، حتى قُتِلَ ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إنّ أحبّ ميتة أُموتُ عليها لما مات عليها المُرزِيُّ .

قال الواقدي : وكان بلال بن الحارث المُرزِيُّ يحدث يقول : شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، فلما فتح الله علينا ، وقسمت بيننا غنائمنا ، أسقط قتي من آل قابوس من مُرَيِّنَةٍ ، فجئت سعدا حين فرغ من نومه ، فقال : بلال ! قلت : بلال ، قال : مرحباً بك ، مَنْ هذا معك ؟ قلت : رجل من قومي ، قال : ما أنت يافتي من المُرزِيِّ الذي قُتِلَ يوم أُحُد ! قال : ابنُ أخيه . قال سعد : مرحباً وأهلاً ، أنعم الله بك عينا ! لقد شهدتُ من ذلك الرجل يوم أُحُدَ مشهداً ما شهدتُ من أحدٍ قطّ ، لقد رأيتُنا وقد أحدق المشركون بنا من كلّ ناحية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ، والكتائب تطلع من كلّ ناحية ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى ببصره في الناس يتوسّمهم ، ويقول : مَنْ لهذه الكتيبة ؟ كلّ ذلك يقول المُرزِيُّ : أنا يارسول الله ، كلّ ذلك يردّ الكتيبة ، فما أنسى آخر مرة قالها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم

وأبشّر بالجنة ، فقام وقت على أثره ، يعلم الله أنى أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة ،
نخضنا حوامتهم ، حتى رجعنا فيهم الثانية ، فأصابوه رحمه الله ، ووددت والله أنى كنتُ
أصبت يومئذ معه ، ولكن أجل^(١) استأخر ، ثم دعا من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله ،
وقال : اختر فى المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك ، فقال بلال : إنه يستحب
الرجوع ، فرجع .

قال الواقدي : وقال سعد بن أبي وقاص : أشهدُ لرأيتُ رسول الله صلى الله عليه
وسلم واقفا على المزنّى ، وهو مقتول ، وهو يقول : رضى الله عنك ، فإنى عنك راضٍ ؛ ثم
رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله قام على قدميه ، وقد ناله عليه السلام من ألم الجراح
ماناله ، وإنى لأعلم أن القيامة يشقّ عليه على قبره ؛ حتى وُضع فى لحده وعليه بُردة ، لها
أعلام حُمْر ، فمدّ رسول الله صلى الله عليه وآله البردة على رأسه ، فخمره وأدرجه فيها طويلاً ،
فبلغت نصف ساقيه ، فأمرنا فجمعنا الحُرمل ، فجعلناه على رجله وهو فى لحده ، ثم انصرف
فما حال أحبّ إلّى من أن أموت عليها وألقى الله عليها من حال المزنّى .

قال الواقدي : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد قد خاصم إليه يتيّم من
الأنصار أبا لبابة بن عبد المنذر فى عِدْقٍ بينهما ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى
لبابة ، فجزع اليتيم على العِدْق ، فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم العِدْق إلى أبى لبابة
لليتيّم ، فأبى أن يدفعه إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبى لبابة : ادفعه
إليه ولك عِدْقٌ فى الجنة ، فأبى أبو لبابة ، وقال ثابت^(٢) بن أبى الدحداحة : يا رسول الله ؛
أرأيت إن أعطيتُ اليتيمَ عِدْقَه من مالى ! قال : لك به عِدْقٌ فى الجنة ، فذهب ثابت بن
الدحداحة ، فاشتري من أبى لبابة ذلك العِدْقَ بمديقة نخل ، ثم ردّ العِدْقَ إلى الغلام ،

(١) الواقدي : « أجل استأخر » .

(٢) كذا فى الاستيعاب ١ : ٢٠٣ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ربّ عذق مذلل^(١) لا بن الدحداحة في الجنة » ، فكانت ترجى له الشهادة بذلك القول ، فقتل يوم أحد .

قال الواقدي : ويقبل ضرار بن الخطاب فارساً يجرّ قنّاةً له طويلة ، فيطعن عمرو بن معاذ ، فأنفذه ، ويمشي عمرو إليه حتى غلب ، فوقع لوجهه ، قال : يقول ضرار : لا تعدمنّ رجلاً زوّجك من الحور العين ، وكان يقول : زوّجت يوم أحد عشرة من أصحاب محمد الحور العين .

قال الواقدي : فسألت شيوخ الحديث : هل قتل عشرة ؟ قالوا : ما بلغنا أنه قتل إلا ثلاثة ، ولقد ضرب يومئذ عمر بن الخطاب حين جال المسلمون تلك الجولة بالقنّاة ، وقال : يا بن الخطاب ، إنما نعمة مشكورة ، ما كنت لأقتلك .

قال الواقدي : وكان ضرار يحدث بعد ، ويذكر وقعة أحد ، ويذكر الأنصار فيترحم عليهم ، ويذكر غنائهم في الإسلام ، وشجاعتهم وإقدامهم على الموت ، ثم يقول : لقد قتل أشرف قومي بيدر ، فأقول : مَنْ قتل أبا الحكم ؟ فيقال^(٢) : ابن عفرأ . من قتل أمية بن خلف ؟ فيقال : خبيب بن يساف . من قتل عُقبة بن أبي معيط ؟ فيقال : عاصم بن ثابت . من قتل فلان بن فلان ؟ فيسمى لى من الأنصار ، مَنْ أسر سهيل بن عمرو ؟ فيقال : مالك بن الدخشم . فلما خرجنا إلى أحد ، وأنا أقول : إن قاموا في صياصبيهم فهي منيعة لاسبيل لنا إليهم نقيم أياماً ثم ننصرف ، وإن خرجوا إلينا من صياصبيهم أصبنا منهم ، فإنّ معنا عدداً أكثر من عددهم ، ونحن قوم موتورون ؛ خرجنا بالظعن يذكروننا قتلى بدر ، ومعنا كراع ولا كراع معهم ، وسلاحنا أكثر من سلاحهم ، ففضى لهم أن خرجوا ، فالتقينا ، فوالله ما قمنا لهم حتى هزمنا وانكشفنا مولّين ، فقلت

(١) العذق بالفتح : النخلة . وبالكسر : المرجون بما فيه من الشاربخ ، وقد ورد هذا الحديث في اللسان « عذق » .
(٢) الواقدي : « فقال » .

فى نفسى : هذه أشد من وقعة بدر ، وجعلت أقول لخالد بن الوليد : كُفّر على القوم ، فيقول : وترى وجهنا نكسر فيه ! حتى نظرت إلى الجبل الذى كان عليه الرّماة خاليا ، فقلت : يا أبا سليمان ، انظر وراءك ، فعطف عنان فرسه ، وكررنا معه ، فأنتهينا إلى الجبل ، فلم نجد عليه أحداً له بال ، وجدنا نَفِيرًا فأصبناهم ، ثم دخلنا العسكر ، والقوم غارثون ينتهبون عسكرنا ، فأقمنا الخيل عليهم ، فتطايروا فى كلّ وجه ، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا ، وجعلت أطلب الأكبر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة ، فلا أرى أحداً ، هربوا فما كان حَلَب ناقة حتى تداعت الأتصار بينها ، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان ، فصبونا لهم ، وصبروا لنا ، وبذلوا أنفسهم حتى عَمَرُوا فرسى ، وترجّلت فقتلت منهم عشرة ؛ ولقيت من رجل منهم الموت الناقع ، حتى وجدت ريح الدم ، وهو معانق ما يفارقنى ، حتى أخذته الرماح من كل ناحية ؛ فوقع . فالحمد لله الذى أكرمهم بيدي ، ولم يهني بأيديهم .

قال الواقديّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : مَنْ له علمٌ بذكوان ابن عبد قيس ؟ فقال علىّ عليه السلام : أنا رأيت يارسول الله فارساً يركض فى أثره حتى لحقه ، وهو يقول : لانبجوتُ إن نبجوت ! فحمل عليه فرسه وذكوان راجل ، فضربه وهو يقول : خذها وأنا ابن علاج ! فقتله ، فأهويت إلى الفارس ، فضربت رجله بالسيف ، حتى قطعتهما من نصف الفخذ ، ثم طرحته عن فرسه فذفقت عليه ، وإذا هو أبو الحكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفى .

قال الواقديّ : وقال علىّ عليه السلام : لما كان يوم أحد وجال الناس تلك الجولة أقبل أمية بن أبى حذيفة بن المغيرة ، وهو دارع مقنّع فى الحديد ما يرى منه إلا عيناه ، وهو يقول : يوم بيوم بدر ! فيعرض له رجل من المسلمين ، فقتله أمية ؛ قال علىّ عليه السلام : وأصمّد له ، فأضربه بالسيف على هامته ، وعليه بيضة ، وتحت البيضة مغفر ، فبنا سيفي ،

وكنّت رجلاً قصيراً ، ويضربني بسيفه ، فأَتَقَى بالدَّرَقَةِ ، فلاحج سيفه ، فأضربه ، وكانت درعه مشمّرة ، فأفطع رجله ، فوقع وجعل يعالج سيفه ، حتى خلّصه من الدَّرَقَةِ ، وجعل يناوشني وهو بارك حتى نظرت إلى فَتَقٍ تحت إبطه فأحسّ فيه بالسيف ، فمال فمات ، وانصرفت .

قال الواقديّ : وفي يوم أحد انتفى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فقال : «أنا ابن العواتك» ، وقال أيضا :

أنا النبيّ لا كذبُ أنا ابن عبد المطلبِ

قال الواقديّ : بينا عمر بن الخطاب يومئذ في رهطٍ من الساميين قعود ، مرّ بهم أنس بن النضر بن ضمضم عمّ أنس بن مالك ، فقال : ما يقعدكم ؟ قالوا : قُتِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم قام ، فجالد بسيفه حتى قُتِلَ ، فقال عمر بن الخطاب : إني لأرجو أن يبعثه الله أمةً وحده يوم القيامة ، وُجِدَ به سبعون ضربةً في وجهه ما عرف حتى عرفته أخته .

قال الواقديّ : وقالوا : إنّ مالك بن الدخشم مرّ على خارجة بن زيد بن زهير يومئذ وهو قاعد ، وفي حُشْوَتِهِ ^(١) ثلاثة عشر جرحاً كلّها قد خلصت إلى مقتل ، فقال له مالك : أما علمت أنّ محمداً قد قُتِلَ ! قال خارجة : فإن كان محمداً قد قُتِلَ ، فإن الله حيٌّ لا يُقتل ولا يموت ، وإنّ محمداً قد بَلَغَ رسالة ربّه ، فاذهب أنت فقاتل عن دينك .

قال : ومرّ مالك بن الدخشم أيضا على سعد بن الربيع ، وبه اثنا عشر جرحاً كلّها قد خلصت إلى مقتل ، فقال : أعلمت أنّ محمداً قد قُتِلَ ! فقال سعد : أشهد أنّ محمداً قد بَلَغَ رسالة ربّه ، فقاتل أنت عن دينك ، فإنّ الله حيٌّ لا يموت .

(١) حشوة البطن : « أمعاؤه .

قال محمد بن إسحاق : وحدّثنى محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعَصعة المازنيّ ، أخو بني النّجّار ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ : مَن رَجُلٌ ينظر ما فعل سعد بن الربيع ، أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر يا رسول الله ما فعل ، فنظر فوجده جريحاً في القتلى ، وبه رَمَقٌ ، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات ، قال : أنا في الأموات ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله مني السلام ، وقبل له : إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله خيراً عتاً ماجزى نبياً عن أمته وأبلغ قومك السلام عني ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف ، قال : فلم أبرح عنده حتى مات ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : اللهم ارض عن سعد بن الربيع .

قال الواقديّ : وحدّثنى عبد الله بن عمار ، عن الحارث بن الفضيل الخطميّ ، قال : أقبل ثابت بن الدّحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع ، قد سقط في أيديهم ، فجعل يصيح : يامعشر الأنصار ، إلىّ إلىّ أنا ثابت بن الدّحداحة ! إن كان محمد قد قُتل ، فإن الله حيّ لا يموت ! قاتلوا عن دينكم ، فإن الله مظهركم وناصركم ؛ فنهض إليه نفر من الأنصار ، فجعل يحمل بمنّ معه من المسلمين ، وقد وقفت لهم كتيبة خَشَناء^(١) فيها رؤساؤهم : خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وجعلوا يناوشونهم ، ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه ، فأنفذه فوق مِيتا ، وقتل من كان معه من الأنصار ، فيقال : إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين في ذلك اليوم .

وقال عبد الله بن الزّبّعيّ يذكر يوم أحد :

ألا ذرفت من مُقلتيك دُموعٌ وقد بان في حبل الشّباب قطوعُ^(٢)

(١) كتيبة خَشَناء : كثرة السلاح .

(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ١٠٤-١٠٦ ، وفيه : « من حبل الشباب » .

وشطّ بمنّ تهوى المزارُ وفَرَّقَتْ نوى الحى دارَ بالحبيب فَجُوعُ
 وليس لما ولّى على ذى صَبَابَةٍ^(١) وإن طال تَذرافُ الدموع رجوعُ
 فدعْ ذاولكن هل أتى أمّ مالكٍ أحاديثُ قومي والحديث يشيعُ !
 ومُجَنَّبُنَا جُرْداً إلى أهل يثربٍ عَنَاجِيحٍ فيها ضامرٌ وبديع^(٢)
 عشية سِرْنَا من كَدَاءٍ يقودُها ضرورُ الأعادى للصادق نفوع^(٣)
 يشدّ علينا كلّ زحف كأنّها غديرٌ نضوح الجانبين نقيع^(٤)
 فلما رأونا خالطتهم مهابةً وخامرهم رعبٌ هناك فظيعُ
 فودّوا لوان الأرض ينشقّ ظهرُها بهم ، وصَبُورُ القوم ثمّ جزوعُ
 وقد عرّيت بيضُ كائنٍ وميضها حريقٌ وشيكٌ فى الأباء سريع^(٥)
 يأيماننا نعلو بها كلّ هامةٍ وفيها سمام للعدوّ ذريعُ
 فغادرنا قتلى الأوس عاصبة بهم ضباغٌ وطير فوقهنّ وقوعُ
 ومرّ بنو النّجار فى كلّ تلعةٍ بأثوابهم من وقعهنّ نجيعُ
 ونولا علو الشعب غادرنا أحداً ولكن علا والسمرى شُرُوع^(٦)
 كما غادرت فى الكَرّ حمزة ثاويًا وفى صدره ماضى الشّباةِ وقيع^(٧)

وقال ابن الزّبرعى أيضاً من قصيدة مشهورة ، وهى :

-
- (١) ابن هشام : « على ذى حرارة » .
 (٢) جنبت الفرس ، لذا قدتها ولم تركبها . والجرد : جمع أجرد ، وهو العتيق من الخيل . والعناجيج :
 الطوال الحسات ، واحداها عنجوج . وانظر ابن هشام .
 (٣) ابن هشام : « سِرْنَا فى لُهام » . (٤) النقيع : الماء البارد العذب .
 (٥) الوميض : الضوء . والأباء : جمع أباءة ، وهى أجمة الفص .
 (٦) الشعب : الطريق فى الجبل . والسمرى : الرمح ، وشروع : مائل إلى الطعن .
 (٧) شباة كل شئ : حده . ووقع : محدد .

يا غرابَ البينِ أسمعَ قُفْلُ إنما تندبُ أمراً قد فعل^(١)
 إنَّ للخيرَ وللشرِّ مدًى وسواءَ قبرٍ مثريٍّ ومُقْل^(٢)
 كلَّ خيرٍ ونعيمٍ زائلٌ وبناتُ الدهزِ يلعبنَ بكلَّ
 أبلغنا حسانَ عني آيةً فقريضُ الشعرِ يشفي ذالْعُلل^(٣)
 كم ترى بالجريرِ من جُحمة وأكفأً قد أترتَ ورجل^(٤)
 وسرايلَ حسانٍ شُعْمَتُ عن كَلَامَةِ غُودِرُوافِي المنزَل^(٥)
 كم قتلنا من كريمٍ سيّد ماجدٍ الجدّينِ مقدامٍ بطل^(٦)
 صادق النجدة قرمٍ بارعٍ غير ملطاطٍ لدى وقع الأسل^(٧)
 فسلِ المهراسَ مَنْ ساكنه ؟ من كراديس وهامٍ كالْحِجَل^(٨)
 ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل^(٩)
 حين حطت بقباء برّكها واستحّر القتل في عبد الأشل^(١٠)
 ثم خفوا عند ذاكم رُقَصًا رقص الحفان تعذو في الجبل^(١١)

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ - ٩٨ ، وروايته .

* إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فَعِلَ *

(٢) ابن هشام :

* وَكَيْلًا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبْلُ *

(٣) ابن هشام : « بالجر » ، أي الجبل . وأترت : قطعت .

(٤) المتزل : موضع النزول . (٥) رواية ابن هشام :

* غَيْرِ مُلْتَأَتٍ لَدَى وَقَعِ الْأَسْلَ *

(٦) المهراس : ماء بجبل أحد ، والكراديس جمع كردوسة ، وهي جماعة الخيل . والحجل : طائر في حجم الحمام ، ورواية ابن هشام :

* بَيْنَ أَقْحَافٍ وَهَامٍ كَالْحِجَلِ *

(٧) البرك : الصدر . واستحّر القتل : اشتد ، وعبد الأشل ، أراد عبد الأشهل ، خذف الهاء .

(٨) الرقص : ضرب من المشي السريع . والحفان : صفار النعام .

فَقَتَلْنَا النَّصَفَ مِنْ سَادَاتِهِمْ وَعَدَلْنَا مِيلَ بَدْرٍ فَاغْتَدَلْ
لَا أُلُومَ النَّفْسَ إِلَّا أَنَا لَوْ كَرَرْنَا لَفَعَلْنَا الْمَفْتَعَلْ
بَسِيفِ الْهِنْدِ تَعَلَّوْا هَامَهُمْ تَبَرَّدَ الْغَيْظَ وَيَشْفِينِ الْغُلْلُ^(١)

قلت : كثيرٌ من النَّاسِ يعتقدون أن هذا البيت ليزيد بن معاوية ، وهو قوله : « ليت
أشياخي » ، وقال مَنْ أكره التصريح باسمه : هذا البيت ليزيد ، فقلت له : إنما قاله يزيدُ
متمثلاً لما حُلَّ إليه رأس الحسين عليه السلام ، وهو لابن الزَّبرعى ، فلم تسكن نفسه إلى
ذلك ، حتى أوضحته له ، فقلت ألا تراه يقول : « جزع الخزرج من وقع الأسل » ، والحسين
عليه السلام لم تحارب عنه الخزرج ، وكان يليق أن يقول : « جزع بنى هاشم من وقع الأسل » ؛
فقال بعض من كان حاضرا : لعله قاله في يوم الحرّة ! فقلت : المنقول أنه أنشدَه لما حُلَّ إليه
رأسُ الحسين عليه السلام ؛ والمنقول أنه شعر ابن الزَّبرعى ، ولا يجوز أن يترك المنقول
إلى ما ليس بمنقول .

وعلى ذكر هذا الشعر فإنى حضرت وأنا غلام بالنَّظَّامِيَّة ببغداد في بيت عبد القادر
ابن داود الواسطي المعروف بالحبّ ، خازن دار الكتب بها وعنده في البيت باتكين الروميّ
الذي ولى إربل أخيرا وعنده أيضاً جعفر بن مكّي الحاجب ، فجرى ذكر يوم أحد وشعرُ
ابن الزَّبرعى هذا وغيره ، وأنّ المسلمين اعتصموا بالجبل ، فأصعدوا فيه ، وإن الليل حال
أبضا بين المشركين وبينهم ، فأنشد ابن مكّي بيتين لأبي تمام متمثلا .

لَوْلَا الظَّلَامُ وَقُلَّةٌ عَلَقُوا بِهَا بَاتَتْ رِقَابُهُمْ بِغَيْرِ قِلَالٍ^(٢)

(١) رواية ابن هشام :

* عَلَلَّا تَعْلُوهُمْ بَعْدَ نَهْلٍ *

(٢) ديوانه ٣ : ١٣٩ ، من قصيدة يمدح فيها المعتصم ، ويذكر فتح الخرمية . وقلة الجبل : أعلاه ،
وجمه قلل وقلال .

فَلْيَشْكُرُوا لِرَحْمَةِ الْإِلَهِ وَدَرُودًا فَهُمْ لَدَرُودَ وَالظَّالِمُ مُوَالِي
 فَقَالَ بَاتِكِينَ : لَا تَقُلْ هَذَا ؛ وَلَكِنْ قُلْ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ
 تَخَضَعْتُمْ لَهُ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ
 مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
 وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) وَكَانَ بَاتِكِينَ مُسْلِمًا ، وَكَانَ جَعْفَرُ
 سَاحِجَهُ اللَّهُ مَغْمُوسًا عَلَيْهِ فِي دِينِهِ .

تم الجزء الرابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
 ويليهِ الجزء الخامس عشر

فهرس الكتب*

صفحة

- ١ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عن مسيره من المدينة إلى البصرة ٦
- ٢ - من كتاب له عليه السلام بعد فتح البصرة ٢٦
- ٣ - من كتاب له عليه السلام لشريح بن الحارث قاضيه ٢٧، ٢٨
- ٤ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه ٣٢
- ٥ - من كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس وهو عامل أذربيجان ٣٣
- ٦ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٣٥
- ٧ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا ٤١، ٤٤
- ٨ - من كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية ٤٥
- ٩ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا ٤٧

(*) وهي الكتب والرسائل الواردة في نهج البلاغة .

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

صفحة	
٢١ - ٨	أخبار عليّ عند مسيره إلى البصرة ورسله إلى الكوفة
٢٥ - ٢١	فصل في نسب عائشة وأخبارها
٢٩ ، ٢٨	نسب شريح وذكر بعض أخباره
٤٠ - ٣٨	جرير بن عبد الله البجليّ عند معاوية
٦٤ - ٥٢	إجلاب قريش على بني هاشم وحصرهم في الشعب
٦٥ ، ٦٤	القول في المؤمنين والكافرين من بني هاشم
٨٤ - ٦٥	اختلاف الرأي في إيمان أبي طالب
١٥٧ - ٨٤	قصة غزوة بدر
١٦٤ - ١٥٧	القول في نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتها المشركين
١٩٩ - ١٦٥	القول فيما جرى في الغنيمة والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى قلة
٢٠٥ - ١٩٩	القول في تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم
٢٠٧ - ٢٠٥	القول في المطعمين في بدر من المشركين
٢٠٨ ، ٢٠٧	القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر
٢١٢ - ٢٠٨	القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم
٢١٣ ، ٢١٢	القول فيمن شهد بدرًا من المسلمين
٢٨١ - ٢١٣	قصة غزوة أحد

فهرس الكتب*

صفحة

- ١ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عن مسيره من المدينة إلى البصرة ٦
- ٢ - من كتاب له عليه السلام بعد فتح البصرة ٢٦
- ٣ - من كتاب له عليه السلام لشريح بن الحارث قاضيه ٢٨، ٢٧
- ٤ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه ٣٢
- ٥ - من كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس وهو عامل أذربيجان ٣٣
- ٦ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٣٥
- ٧ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا ٤٤، ٤١
- ٨ - من كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبد الله البجلي لما أرسله إلى معاوية ٤٥
- ٩ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا ٤٧

(*) وهي الكتب والرسائل الواردة في نهج البلاغة .

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

صفحة	
٢١ - ٨	أخبار عليّ عند مسيره إلى البصرة ورسله إلى الكوفة
٢٥ - ٢١	فصل في نسب عائشة وأخبارها
٢٩ ، ٢٨	نسب شريح وذكر بعض أخباره
٤٠ - ٣٨	جرير بن عبد الله البجليّ عند معاوية
٦٤ - ٥٢	إجلاب قريش على بني هاشم وحصرهم في الشعب
٦٥ ، ٦٤	القول في المؤمنين والكافرين من بني هاشم
٨٤ - ٦٥	اختلاف الرأي في إيمان أبي طالب
١٥٧ - ٨٤	قصة غزوة بدر
١٦٤ - ١٥٧	القول في نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتها المشركين
١٩٩ - ١٦٥	القول فيما جرى في الغنيمة والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى قلة
٢٠٥ - ١٩٩	القول في تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم
٢٠٧ - ٢٠٥	القول في المطعمين في بدر من المشركين
٢٠٨ ، ٢٠٧	القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر
٢١٢ - ٢٠٨	القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم
٢١٣ ، ٢١٢	القول فيمن شهد بدرًا من المسلمين
٢٨١ - ٢١٣	قصة غزوة أحد

